

على خطى السيدة زينب

المذهب الشيعي الاثنا عشري في سوريا المعاصرة



تأليف: أدث اندريا لك زانتو علي - ديب

ترجمته عن الإنكليزية وقدمت له:

د. هناء خليف غني

على خُطى السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ

المركز الأكاديمي للأبحاث

على خطى السيدة زينب المذهب الشيعي الاثنا عشري في سوريا المعاصرة

بقلم

أدث اندريا الك زانتو علي - ديب

ترجمته عن الإنكليزية وقدمت له

د. هناء خليف غني

على خُطى السيدة زَيْنَب

Edith Andrea Elke Szanto Ali-Dib

Following Sayyida Zaynab: Twelver Shi'ism in Contemporary Syria

بقلم: أدث اندريا الك زانتو علي، ترجمته عن الإنكليزية وقدمت له: د. هناء خليل غني

تصميم الكتاب وغلافه: علي الحسنوي، التقويم اللغوي: محمد وليد فليون

الناشر: المركز الأكاديمي للأبحاث / العراق - تورنتو - كندا

The Academic Center for Research

TORONTO - CANADA

مؤثق بدار الكتب والوثائق الكندية / Library and Archives Canada

ISBN 978-1-927946-67-1

Email: info@acader.com website\http://www.acader.com

nasseralkab@gmail.com

بيروت - الطبعة الأولى 2018

توزيع: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر: بيروت - لبنان 7611-2047

الجنح - شارع زاهية سلمان - مبنى مجموعة تحسين الخياط

Tel: +961-1-830608 — Fax: +961-1-830609

Website: www.all-prints.com Email: tradebooks@all-prints.com

حقوق النشر والاقتباس كافة محفوظة للمركز الأكاديمي للأبحاث

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله أو استنساخه بأي شكل من الأشكال من دون إذن خطي سابق من الناشر

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن آراء المركز الأكاديمي للأبحاث واتجاهاته

أدث اندريا لك زانتو علي - ديب

كاتبة مجدة وغزيرة الإنتاج، وهي تتقن اللغات الإنكليزية والألمانية والهنگارية، وتجيد التحدث والكتابة باللغة العربية (العربية القياسية الحديثة، واللهجات السورية والعراقية) وتتمتع بمهارة كبيرة في القراءة باللغتين الفرنسية والإسبانية، وتحوز المبادئ الأساسية في اللغات، الهندية والفارسية والسريانية والكردية.

حصلت على درجة الدكتوراه عن أطروحتها الموسومة بـ (على خطى السيدة زينب: المذهب الشيعي الاثنا عشري في سوريا المعاصرة) في عام (٢٠١٢ م) في قسم الدراسات الدينية، جامعة تورنتو، ودرجة الماجستير عن رسالتها الموسومة بـ (الجماعات الدينية النسوية في القاهرة) في قسم الدراسات الشرق أوسطية في جامعة تكساس في أوستن تحت إشراف "كامران اغاي" ونالت درجة البكالوريوس بامتياز فائق في قسم الدراسات الدينية، جامعة اريزونا.

نشرت "أدث" العديد من المقالات، والدراسات، والمراجعات النقدية التي تندرج جميعها في خانة الدراسات الدينية؛ لا سيما الشيعية - في سوريا تحديداً - ولها خبرات مهنية متميزة يمكن تلخيصها في كثرة مشاركتها في المؤتمرات، والندوات، والحلقات النقاشية والفرق البحثية، وتعمل حالياً أستاذاً مساعداً في الجامعة الأمريكية في السليمانية، العراق.

وابتغاء منح القارئ فكرة عن اشتغالات "أدث" البحثية وتوجهاتها الأكاديمية، نورد في سبيل المثال لا الحصر. عناوانات إسهاماتها البحثية التالية:

(تصوير الضحايا، والبطالات، والبيادق في الانتفاضة السورية) عام (٢٠١٦ م) مجلة دراسات النساء في الشرق الأوسط، المجلد ١٢، العدد ٣.

(ما وراء أنموذج كربلاء: الثورة والخلاص في طقوس العزاء الشيعية الاثني عشرية) عام (٢٠١٣ م) مجلة الدراسات الإسلامية الشيعية، المجلد ٦، العدد ١.

(تصويرُ الطُفولةِ الإسلاميَّةِ في سوريا: موضوعاتُ التَّقِيَّةِ والسُّلطةِ الدِّينيَّةِ في كتبِ الأطفالِ الشَّيعيَّةِ الاثنيِّ عَشَريَّة) عَامَ (٢٠١٢ م) مجلَّةُ دراساتِ جنوبِ آسِيَا، وأفريقيَّا والشرقي الأوسطِ المُقَارَنَةِ، المجلدُ ٣٢، العدد ٢.

كذلكَ نُشِرت "أدث" فصولاً في كتبٍ مُحَرَّرةٍ مِنْهَا:

(الإسلامُ الشَّيعيُّ) في (الدَّلِيلُ المعاصرُ للإسلامِ والحَيَواتِ المسلمة) عَامَ (٢٠١٦

م) تحريرُ غابرييل ماراناسي، نيويورك: سيرنغر.

(مُساءلةُ تقاليدِ الولايةِ الهُشَّةِ: الشِّفاءُ العجائبيُّ بَيْنَ الشَّيعةِ الاثنيِّ عَشَريِّينَ في

سورياَ المعاصرة) عَامَ (٢٠١٣ م) في (سياساتُ العبادةِ في الشَّرقي الأوسطِ المعاصرِ:

القداسةُ في الدَّولِ الهُشَّةِ) تحريرُ اندرياس باندك وميكل بيل، ليدن: برل.

كما كُتِبَت "أدث" عدَّةُ تقاريرٍ حَقليَّةٍ ومَقالاتٍ أخباريَّةٍ مِنْهَا:

(الجنسُ والمُقبَرةُ: الحجاجُ الإيرانيُّونَ وزيارةُ المرقِدِ والتَّقوى الاستهلاكيَّةُ في

دمشق) عَامَ (٢٠١٤ م) في نشرةِ جُمعيَّةِ الدِّراساتِ السُّوريَّةِ، المجلدُ ١٩، العدد ٢.

(حُبُّ سورياَ: مُشاهدةُ الدَّعايةِ السُّوريَّةِ في العراقِ) عَامَ (٢٠١٢ م) في نشرةِ جُمعيَّةِ

الدِّراساتِ السُّوريَّةِ، المجلدُ ١٧، العدد ٢؛ وقد تُرجمَت هَاتانِ المَقالتانِ كلتاهُما إلى اللُّغةِ العربيَّةِ.

وزيادةً على ذلكَ، شَارَكَت "أدث" في العديدِ مِنَ المؤتمراتِ بأوراقٍ بحثيَّةٍ مِنْهَا:

(تعلُّمُ الإسلامِ في كردستان) في مُلتقى أكاديميَّةِ الأديانِ الأمريكيَّةِ عَامَ (٢٠١٦ م).

(دعمُ المذهبِ الشَّيعيِّ الاثنيِّ عَشَريِّ: الولايةُ الدِّينيَّةُ والقوى الدُّنيويَّةُ) في المؤتمرِ

السَّنويِّ الثَّالثِ والعشرينَ في جامِعةِ توبنجن عَامَ (٢٠١٦ م).

(الدَّمعةُ الأخيرةُ: أجسادُ تَقِيَّةٍ، واقتصادياتُ مؤثَّرةٌ عاطفيًّا، والحيزُ المُقدَّسُ في

مُمارَساتِ الأربعينِ العراقيَّةِ المعاصرة) في مؤتمرِ الهجرةِ والتَّغييرِ والاستمرارِ: القرابةُ

والدِّينُ والسِّياسةُ والمرئيُّ، عَامَ (٢٠١٦ م) لُجنةُ انثروبولوجيا الشَّرقي الأوسطِ في جامِعةِ

جاغليونين، في كراكاو، بولندا.

(الجنْدُرُ في الصِّراعِ السُّوريِّ) في مُؤتمِر: سورِيّا الخروْجُ منَ المَازِقِ، جَامِعَةُ ست اندروس.

(مُساءَلَةُ الولاية الكاريزماتِيَّة: الطَّرِيقَةُ الصُّوفِيَّةُ القادرِيَّةُ في كردستان، العراق) في المُلْتَقَى السَّنَوِيِّ لجمعيَّة الدِّرَاساتِ الشَّرْقِ أوسطِيَّة، عَامَ (٢٠١٤ م).

(نَحْدِي الولاية الشَّيعِيَّة العَابِرَةُ للقوميَّاتِ في سورِيّا البعثِيَّة) في ورشةِ عملٍ بعنوان: تجرِيدُ المركزِ الشَّيعيِّ مِنْ مركزِيَّتِهِ، في جَامِعَةِ برنستن، عَامَ (٢٠١٣ م).

(قُلَّةُ: دميَّةٌ مسلمةٌ عربيَّةٌ للفنِّياتِ المسلماتِ العربيَّاتِ) في المُلْتَقَى السَّنَوِيِّ لجمعيَّة دراساتِ الشَّرْقِ الأوسط، عَامَ (٢٠٠٥ م).

وَدَرَسْتُ "أدث" طِفْلاً واسعاً منَ المَوْضوعاتِ في الجامعةِ الأمريكيَّة، السُّليمانِيَّةِ في العراق، مِنْهَا أديانُ العالَمِ المُقارَنَةُ؛ والتَّقاليدُ الدِّينيَّةُ الإسلاميَّةُ؛ والدِّينُ في العراق؛ وتاريخُ الفكرِ السِّيَاسيِّ الإسلاميِّ (لفصلٍ واحدٍ)؛ وأخلاقيَّاتُ العملِ؛ والحضارةُ ١: العالَمُ القديمُ، والحضارةُ ٢: عالَمُ القرونِ الوُسْطى، والحضارةُ ٣: العالَمُ الحديثُ؛ وتاريخُ العالَمِ والتَّاريخُ الأوروبيُّ ١؛ وتاريخُ الشَّرْقِ الأوسط؛ ودرَسْتُ مَوْضوعَيْنِ في جَامِعَةِ تورنتو هما: أنثروبولوجيا الإسلام، ومُقدِّمَةُ إلى الإسلام. كما شارَكْتُ في الكتابةِ عَنْ بعضِ مِنَ الأحداثِ العامَّةِ مِنْهَا: (سِياقُ هُجُومِ داعِشَ على الأزيديِّينَ) عَامَ (٢٠١٤ م) الحلقةُ الأولى مِنْ سِلْسِلَةِ بودكاست (Podcast)، مركزُ تعدُّدِ العقائدِ، جَامِعَةُ تورنتو؛ و(التَّهْجِيرُ والمُعَاناةُ: مِنَ الأنفالِ إلى داعِشَ) عَامَ (٢٠١٤ م) في مُناقِشَةٍ علنيَّةٍ في الجامعةِ الأمريكيَّةِ في العراق؛ و(الدِّينُ والأجئون) عَامَ (٢٠١١ م) في المحطَّةِ الإذاعيَّةِ التَّابِعةِ لجامعةِ تورنتو؛ وتتنوَّى إلى عَضُويَّةٍ عَدَدٍ مِنَ الجمعيَّاتِ والمعاهدِ والمراكزِ البَحْثِيَّةِ مثل أكاديميَّةِ الأديانِ الأمريكيَّةِ؛ والمعهدِ الشَّيعيِّ؛ وجمعيَّةِ دراساتِ نساءِ الشَّرْقِ الأوسط، والجمعيَّةِ الدَّولِيَّةِ للدِّرَاساتِ الإيرانيَّةِ، وجمعيَّةِ دراساتِ الشَّرْقِ الأوسط، وجمعيَّةِ الدِّرَاساتِ السُّوريَّةِ، والمعهدِ الأمريكيِّ للأبحاثِ الأكاديميَّةِ في العراق.

المستخلص:

يتحدثُ الّلامتمونَ عَنُ اللبنانيينَ والسُوريينَ الشّيعَةِ المعروفينَ عَادَةً بالشّيعَةِ الاثنيّ عَشَريّينَ، الذينَ يعيشونَ في مدينةِ السّيّدَةِ زينب^(١) المُقدّسة بوصفهم "تقليديّين" وحتىّ "متخلّفين".

والّلامتمونَ ليسوا همَ الوحيدَينَ في اختيارهم هذه الصّفاتِ لوصفِ الشّيعَةِ الاثنيّ عَشَريّينَ، إذ وَصَفَ كُلُّ مِنِ صَدّامِ حسينٍ (١٩٣٧ - ٢٠٠٦ م) وآيةِ اللهِ عليّ خامنئيّ (١٩٣٩ م). مُمارساتُ التّطبيرِ وَضَرْبُ الرّناجيلِ الدّمويّةِ التي زادتْ شعبيّتها في المرقِدِ المُقدّسِ في العقودِ القليلةِ الماضية... وَصَفَها بالمُمارساتِ (المتخلّفة) و (اللاعقلانيّة). والأسئلةُ التي تلي ذاتها هي: مَا السّببُ الَّذِي يجعلُ هؤلاءِ الّلامتمينَ يدينونَ الشّيعَةَ الاثنيّ عَشَريّينَ والشّعائرَ التي يؤدّونها في شهرِ المُحرّم؟ وَمَا السّببُ في شعبيّةِ هذه المُمارساتِ "التقليديّة" في هذه المدينة المُقدّسة؟ وَمَا الَّذِي تعنيه كلمةُ "تقليديّ" في هذا السّياق؟.

تشكّلُ الإجابةُ عَنُ السّؤالِ الأخيرِ نقطةَ انطلاقٍ هذه الدّراسة، التي تتقلّبُ بعدَ ذلكَ إلى تسليطِ الضّوءِ على البيداغوجيا الحوزويّة، ومجالسِ العزاءِ [الحُسينيّة] الأسبوعيّةِ التي تشتركُ النّساءُ في إحيائها، والطّفوسِ السّنويّةِ في شهرِ المُحرّمِ زيادةً على الطّبِّ الرّوحيّ غيرِ المؤسّسيّ.

وثمّةُ أنموذجانِ (Paradigms) نظريّانِ يوطّرانِ هذه الدّراسةَ الأثنوغرافيّة، أوّلُهُما فكرةُ المفكّرِ الإسلاميّ والمتخصّصِ في أنثروبولوجيا الدّينِ والثّقافة (طلال أسد).

(١) مدينة السّيّدَةِ زينب أو السّتّ زينب أو السّت: هي بلدة سُوريّة كبيرة تقع على بعد نحو من كم جنوب العاصمة (دمشق) بين الطّريق السّريّة المؤدّيّة إلى مطار دمشق الدّوليّ وبين الطّريق المؤدّيّة إلى مدينة السّويداء، ومدينة السّيّدَةِ زينب مركزُ ناحيةٍ تابعةٍ إداريّاً لمحافظة ريف دمشق، وهي من المناطق ذات الكثافة السّكّانيّة العالية، والتي يقطنها عدد كبير من أبناء الطّائفة الشّيعيّة، ويشكّلون أكثرية السّكان فيها. كما إنّها تُعدّ منطقة سياحيّة دينيّة يزورها مئات الآلاف من السّائحين والزّوار من الطّائفة الشّيعيّة من إيران، والعراق، ودول الخليج، ولبنان، وباكستان، والهند، وأفغانستان وغيرهم من الدّول على مدار السّنة؛ حيث إنّ اقتصاد البلدة يعتمد اعتماداً كبيراً على الحركة السياحيّة الدّينيّة القادمة إليها. (المترجمة).

(Talal Asad) (١٩٨٦ م). التي تقضي بضرورة مقارنة أنثروبولوجيا الإسلام بوصفه تقليداً خطابياً^(١)؛ وثانيهما هو التكرارات المتنوعة لأنموذج كربلاء، (فشر ١٩٨١ م). وعلى الرغم من تدخل هذه المفهومات وتعالقها، إلا أنها تمثل بمجملها مقاربات مميزة لفكرة "التقليد".^(٢) والفكرة الأساسية التي تطرحها الدراسة الحالية هي أن "التقليد" لا يمثل محض استعارة بلاغية مفيدة في وصف الشيعة الاثني عشرين في مدينة السبقة زينب، بل إنه ممارسة جوهرية (بين ذاتية) تربط الشيعي المتزعم دينياً بالبيت عليهم السلام. أما الموضوعات الفرعية التي تطرحها الدراسة الحالية فتؤلف أناطاً متغيرة في البيداغوجيا الدينية معنية. تحديداً - بفهم الدور الذي يضطلع به الاندماج والاحتواء، والذات، والبين - ذاتي في مجالس العزاء الطقوسية التي تشارك فيها النساء، وإمكان تطبيق مفهوم الكرنفال الذي طرحه الفيلسوف والمنظر الأدبي الروسي (ميخائيل باختين. Mikhail Bakhtin) (١٩٨٤ م).

وتحليل هذه الدراسة التي اتخذت مصدر إلهام لها دراسة الأمريكي (فردريك م. دني Fredrick M. Denny) (١٩٨٥ م). المتخصص في الدراسات الدينية الذي سلك مصطلح (الممارسة الصحيحة) أو (الاستقامة السلوكية. Orthopraxy) ابتغاء وصف

(١) يتردد مصطلح (discursive) ونقيضه (nondiscursive) كثيراً في هذا الكتاب وفي غيره من الكتب الفكرية الحديثة. والكلمة صفة من الأسم (discourse) طبعاً. والترجمة الشائعة لهذا المصطلح هو 'خطاب'. وهو مصطلح لا يؤدي ظاهره بالعربية ما تعنيه الكلمة باللغة الإنكليزية. ولكن بما أنه لا مشاحة في المصطلح كما يقولون، فإنني سأدعن لقوة الشيوع واستعمل المصطلح الشائع، مع التذكير بأن الخطاب هو العرض الفكري الذي يعتمد على الحجة والبيان المتناسك... (على الأقل في الظاهر). أما نقيض الخطاب أو ما هو غير خطابي، فيعتمد على الحُدى والإيمان وما هو مفهوم ضمناً أو ما تعده الثقافة مقدساً ولا يطلب سوى القبول. والخطاب محكوم أحياناً بالبيئة الثقافية أو المؤسسية، بحيث يصح الكلام عن الخطاب الإسلامي مثلاً في مقابل الخطاب الليبرالي أو الغربي أو ما إلى ذلك. (المصدر، طلال أسد، جينالوجيا الدين: الضبط وأسباب القوة في المسيحية والإسلام، ترجمة محمد عصفور، مراجعة مشير عون، دار المدار الإسلامي ودار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠١٧، ص ٢٧).

(٢) زيادة على "تقليد" تعني مفردة (tradition) الاصطلاح، أو الأسلوب، أو الأعراف، أو السنة والطريقة. (الترجمة).

أهميّة مُمارَسة الطُقوسِ في الإسلام... مُصدراً يَحيلُ إلى العُرُوسِ الأدائيّةِ الدّينيّةِ المُنتَهَكَةِ^(١) والكرنفاليّةِ بوصفها مُمارَسةً مُخالِفةً (Heteropraxy).^(٢)

والتّأكيدُ على المُمارَسةِ الأخيرة، هو بمنزلةِ نقْدٍ لدراسةِ (صبا محمود . Saba Mahmoud) عام (٢٠٠٥ م) الباكستانيّةِ الأُصلِ، المُعنونةُ بـ (سياسةُ التّقوى: الإحياءُ الإسلاميُّ والذاتُ النسويّةُ) وكذلك دراسةُ (لارا ديب . Lara Deeb) المُعنونةُ بـ (الحدائيُّ المأسورُ: الجنوسةُ والتّقوى العامّةُ في لبنان الشّيعيّة) عام (٢٠٠٦ م) حولَ تقوى^(٣) النّساءِ المسلّماتِ العريّاتِ وتديّنهنّ.

شُكْرٌ وتقدِيرٌ:

أودُّ التّوجّهَ بالشّكرِ الجزيلِ وعظيمِ الامتنانِ إلى أستاذتي والمُشرفةِ على الأطروحةِ (أميرة ميمرماير . Amira Mittermaier) وأعضاءِ لجنةِ المُناقشةِ، كُلٌّ مِنْ الأُستاذةِ (كارين رافل . Karen Ruffle)، و (مايكل لامبك . Michael Lambek)، و (وليد صالح . Walid Salih) لمُحَوظاتِهِمُ القيّمةِ ودعوتِهِمُ المتواصِلِ. كما أتوجّهُ بالشّكرِ الجزيلِ إلى عائِلتي وإلى السّوريّينَ الذينَ تحدّثُ وأجريتُ مُقابلاتٍ معَهُم، والذينَ أحاطوني بِمُحَبَّتِهِمُ ودعوتِهِمُ وفتحوا قلوبَهُمُ ومنازلَهُمُ لي.

^(١)(transgressive): ترد هذه المُفردة كثيراً في فصول الكتاب الحاليّ، ولها معان عدّة منها: مُخالِف، مُتجاوز، مُفرط، مُعتد، مُتخطّ، مُنتهك. والكلمة التي اعتمدتها في الترجمة في غالب الأحيان هي "الانتهاك" "منتَهك". (المترجمة).

^(٢)(heteropraxy): تعني الأفراد الذين يخفّقون، بنحو دائم في الالتزام بتعاليم نظام عقائديّ مُعترف به، أنّه ممارسةُ المنافقين. (المترجمة).

^(٣)ترد هذه المُفردة كثيراً في الكتاب الحاليّ، ولها معان عدّة منها: الورع، والتّدين، والتّعبّد، والطّاعة، والقنوت، والنّسك، والإذعان؛ إلى آخره. وسألتزم بترجمتها إلى "تقوى" تأثراً بدراسة صبا محمود التي ترجمت إلى العربيّة. (المترجمة).

هناك خليف غني

- تدريسية في قسم الترجمة، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية.
دكتوراه /ادب انكليزي /جامعة بغداد/ مفهوم المأساة الجديد في الدراما البريطانية والأمريكية الحديثة، ٢٠٠٥.
- نشرت عدداً من البحوث في مجال التخصص في داخل العراق وخارجه.
شاركت في عددٍ من المؤتمرات والندوات.
ترجمت عدداً من الكتب واختصت مؤخراً بترجمة الدراسات الأنثروبولوجية:
- ١- ولفجانج آيزر، القارئ الضمني: أنماط الأتصال في الرواية من بنيان الى بيكت. بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ٢٠٠٦.
 - ٢- جويس ن. وايلي، الحركة الإسلامية الشيعية في العراق، بالاشتراك مع مصطفى نعمان احمد. دار الكتاب، بغداد، ٢٠١١.
 - ٣- مجموعة مؤلفين، مقالات في الثقافة الاستراتيجية، دار الحكمة ٢٠١١.
 - ٤- أرين غلاسر ورا برجمان. العيش في الشوارع: انثروبولوجيا التشرّد، دار الحكمة، ٢٠١١.
 - ٥- مجموعة مؤلفين. هل نعيش حقاً في عصر ما بعد الحداثة، دار الشؤون الثقافية العامة، ٢٠١٢.
 - ٦- جون أور ودراغان كلايك. الدراما الحديثة والإرهاب، مكتب الأمير للنشر، ٢٠١٣.
 - ٧- لندا س. والبرج. الأعلام بين الشيعة: دراسة في مؤسسة مرجعية التقليد، دار عدنان للطباعة والنشر، ٢٠١٣.

٨- بيتنا أي شميدت وأنغو ديليو شرودر. انثروبولوجيا العنف والصراع، بيت الحكمة، ٢٠١٣.

١١- مارك غودويل. الاستسلام للمثالية: انثروبولوجيا حقوق الإنسان، دار عدنان للنشر، بغداد، ٢٠١٥.

١٢- ساتش كيديا وجون فان ويلجن (تحرير). الانثروبولوجيا التطبيقية، بيت الحكمة، ٢٠١٥.

١٣- غابرييل ماراناسي. انثروبولوجيا الإسلام: دراسة نقدية، دار عدنان للطباعة والنشر، ٢٠١٦.

١٤- هاستنغ دونان وفيونا ماغوان. أنثروبولوجيا الجنس. المركز الأكاديمي للأبحاث، ٢٠١٧.

١٥- بارفس-قاسم فاخاندي. ظاهرة العنف في المجتمعات المعاصرة: مواجهات أثنوغرافية. المركز الأكاديمي للأبحاث، ٢٠١٧.

١٦- لندا س. والبرج. الأعلام بين الشيعة: دراسة في مؤسسة مرجعية التقليد. طبعة ثانية. المركز الأكاديمي للأبحاث، ٢٠١٧.

مُقَدِّمَةُ الْمُتَرْجِمَةِ

تشهدُ الكثيرُ مِنْ مَدَنِ الْعِرَاقِ فِي شَهْرِ الْمُحَرَّمِ، وَلَا سِيَّامَا الْأَيَّامَ الْعَشْرَةَ الْأُولَى مِنْهُ عِدَّةَ تَغْيِرَاتٍ مَلْحُوظَةٍ، تَسْتَقْطُبُ الْكَثِيرَ مِنَ الْإِهْتِمَامِ الشَّعْبِيِّ وَالْإِعْلَامِيِّ، فَيَقْطَعُ الدَّوَامُ فِي الْمَدَارِسِ وَالِدَّوَائِرِ الْحُكُومِيَّةِ، وَتَشْغُلُ الْأَسْوَاقُ فِي عَرْضٍ مُخْتَلَفٍ أَنْوَاعَ السَّلْعِ الْخَاصَّةِ بِهَذَا الْحَدَثِ؛ مِنْ رَايَاتٍ مُخْتَلِفَةِ الْأَلْوَانِ، وَلَا فِتَاتٍ تُظْهِرُ رُسُومًا مُحَدَّدَةً مِثْلَ صُورِ الْحُسَيْنِ وَآلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ،^(١) وَسُيُوفًا تَقْطُرُ دَمًا؛ وَخِيُولًا وَمَشَاهِدَ مِنْ وَاقِعَةِ الطِّفِّ، وَعِبَارَاتٍ مِثْلَ "هَيْهَاتَ مِنَّا الذَّلَّةُ" وَ "شَهِيدُ كَرْبَلَاءَ" وَ "يَا حُسَيْنُ يَا مَظْلُومُ" وَ "يَا حُسَيْنُ يَا شَهِيدُ" وَمَلَابِسَ سُودَاءَ، وَزَنَاجِيلَ،^(٢) وَسُيُوفٍ، وَأَقْرَاصٍ مَضْغُوطَةٍ. وَيَبْدُو النَّاسُ مِنْهُمْ كَيْنَ فِي إِحْيَاءِ طُقُوسِ هَذَا الشَّهْرِ، مِنْ إِقَامَةِ مَجَالِسِ الْعَزَاءِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ، وَتَنْظِيمِ مَوَاقِبِ التَّطْبِيرِ وَالضَّرْبِ بِالزَّنَاجِيلِ، وَالِاسْتِمَاعِ إِلَى مَا يُعْرَفُ بِـ (الْمَقْتَلِ). أَيْ قِصَّةِ مَقْتَلِ سَيِّدِ الشَّهَدَاءِ الْإِمَامِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ حَفِيدِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ وَابْنِ بَنَاتِهِ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ، سَيِّدَةِ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ. وَنَصَبِ خِيَامِ الضِّيَافَةِ الَّتِي تَقْدِّمُ شَتَّى أَنْوَاعِ الْأَطْعَمَةِ وَالْمَأْكُولَاتِ إِلَى الزُّوَّارِ وَالْمُعْزِينَ بِمُصَابِ آلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ.

(١) أَوْ (أَهْلُ الْبَيْتِ) وَقَدْ أُبْدِلَتْ الْهَمْزَةُ هَاءً. وَحَيْثُ وَرَدَ لَفْظُ (أَهْلُ آلِ الْبَيْتِ) عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ شِيعَةً وَسُنَّةً فَالْمَقْصُودُ بِهِ عَائِلَةُ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُمْ الْمُخَاطَبُونَ بِالآيَةِ: (... إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) عَلَى أَنْ تَنْوَعَا فِي الْأَرَاءِ حَوْلَ مَنْ يَكُونُونَ مَوْجُودَ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ وَقَدْ بَلَغَ نَحْوًا مِنْ ثَانِيَةِ آرَاءَ. لِتَفْصِيلِ ذَلِكَ يُنْظَرُ: (فَصَلِّ الْمَقَالَ فِي تَعْرِيفِ الْأَلِ) لِلْمَوْلَى بِحْيَى الشَّرِيفِ، وَ(أَهْلُ الْبَيْتِ فِي آيَةِ التَّطْهِيرِ) لِلْسَيِّدِ جَعْفَرٍ مَرْتَضَى الْعَامِلِيِّ. (الْمَقُومُ اللَّغَوِيُّ).

(٢) الزَّنَاجِيلُ أَوْ الْجَنَازِيرُ: تَسْمِيَةٌ عَامِيَّةٌ لِلْسَّلَاسِلِ الْحَدِيدِيَّةِ. (الْمَقُومُ اللَّغَوِيُّ).

وَيَسَاقُ شِيعَةُ آلِ الْبَيْتِ فِي هَذَا الشَّهْرِ تَحْدِيدًا فِي إِظْهَارِ كَرَمِهِمْ وَوِلَايَتِهِمْ وَحُبِّهِمْ، فَيَجْدُدُونَ الْبَيْعَةَ لَهُمْ وَيَعَاهِدُونَهُمْ عَلَى نَصْرَتِهِمْ وَالسَّيْرِ عَلَى خَطَاهُمْ فِي نَصْرَةِ الْحَقِّ وَمُسَاعَدَةِ الْمُحْتَاجِينَ وَتَحْقِيقِ الْعَدْلِ، وَيَنْذِرُ بَعْضُهُمْ نَفْسَهُ لَخِدْمَةِ (زُورِ الْحُسَيْنِ) فَيَفْتَحُونَ مَنَازِلَهُمْ لِمُسْتَقْبَالِهِمْ، وَيَعْمَلُونَ فِي تَوْفِيرِ مَا يَلِزُهُمْ لـ (الْمُسَايَةِ) أَيِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى أَقْدَامِهِمْ مِنْ أَمَاكِنِ سَكْنَاهُمْ إِلَى ضَرْيَحِ الْإِمَامِ الْحُسَيْنِ؛ مِنْ مَأْكَلٍ، وَمَلْبَسٍ، وَفَرْشٍ، وَأَغْطِيَةٍ، وَأَدْوِيَةٍ؛ وَيَجْرُصُونَ عَلَى رَاحَتِهِمْ، وَحَتَّى تَدْلِكَ أَقْدَامُهُمْ! مُرَدِّدِينَ أَثْنَاءَ ذَلِكَ: "مَأْجُورِينَ" أَيِ إِنْ اللَّهُ سَيَجْزِيكُمْ خَيْرَ الْأَجْرِ وَالْجَزَاءِ عَلَى تَعْبِكُمْ فِي سَبِيلِ إِحْيَاءِ ذِكْرِ الْحُسَيْنِ؛ وَ "يَعِينُكَ الْحُسَيْنُ" أَيِ إِنْ الْحُسَيْنَ سَيَسَاعِدُكَ وَيَقِفُ إِلَى جَانِبِكَ وَيَحَقِّقُ أَمْلَكَ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ؛ وَ "تَفَضَّلْ زَايِر" أَيِ أَنْعِمْ عَلَيْنَا بِالدُّخُولِ إِلَى بَيْتِنَا أَيَّهَا الرَّائِرُ.

وَيَصِلُ الْأَمْرُ بِبَعْضِهِمْ حَدَّ الشُّعُورِ بِالْانْزِعَاجِ، وَالْغَضَبِ فِي بَعْضٍ مِنَ الْأَحْيَانِ، إِذَا رَفَضَ أَحَدُ الزُّوَّارِ أَخَذَ مَا يَقْدُمُهُ. خَادِمُ الْحُسَيْنِ. مِنْ مَأْكَلٍ أَوْ مَشْرَبٍ.

إِنَّهُ مَشْهُدٌ قَلَّ نَظِيرُهُ، يَشْتَرِكُ فِيهِ النَّاسُ جَمِيعًا، رَجَالًا وَنِسَاءً وَأَطْفَالًا، بَصَرَفِ النَّظَرِ عَنْ فَنَاتِهِمُ الْعُمَرِيَّةِ، وَجَنْسِهِمْ، وَمَكَانَتِهِمُ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، وَمَوَاقِعِهِمُ الْاِقْتِسَادِيَّةِ، وَتَنْقَلِبُ فِيهِ بَعْضُ مِنَ الْمُمَارَسَاتِ رَأْسًا عَلَى عَقِبٍ، إِذْ يُقْبَلُ بَعْضُ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِينَ لَمْ يَعْتَادُوا. حَتَّى . عَلَى إِعْدَادِ الشَّايِ أَوْ الْمَأْكُولَاتِ، مَثَلًا، نَاهِيكَ عَنْ دُخُولِ الْمَطْبَخِ... يُقْبَلُونَ عَلَى الْمُشَارَكَةِ فِي إِعْدَادِ الطَّعَامِ وَتَوْزِيْعِهِ عَلَى الزُّوَّارِ، وَيُسْمَحُ لِلنِّسَاءِ فِي الظُّهُورِ بِنَحْوِ أَكْثَرِ عِلَاقِيَّةٍ وَهُنَّ يَفْتَرِشْنَ الْأَرَصِفَةَ أَوْ يَقْعِدْنَ عَلَى الْكَرَاسِيِّ قَرَبَ الْحِيَامِ أَوْ فِي الشُّوَارِعِ الْعَامَّةِ؛ ابْتِغَاءَ الرَّاحَةِ بَعْدَ طَوْلِ مَسِيرٍ، أَوْ شَرَبِ الْمَاءِ، أَوْ تَنَاوُلِ بَعْضٍ مِنَ الْأَطْعَمَةِ.

وليسَتْ هذهِ المشاهدةُ المؤثرةُ نفسياً والمشحونةُ عاطفياً غريبةً عليَّ كوني من سكّانِ العاصِمةِ بغدادَ، فقد حَضَرْتُ الكثيرَ مِنْ مجالسِ العزاءِ الخاصّةِ والعامةِ، ولحظْتُ جملةً مِنْ الأمورِ تتكرَّرُ كثيراً في المجالسِ النَّسائيّةِ خاصّةً. حيثُ يبدأُ المجلسُ بدعوةِ صاحبةِ البيتِ بعضاً مِنْ قريباتِها وجاراتِها وصديقاتِها اللَّائِي يمتلكنَ خيارَ اضْطِحَابِ نساءٍ أخرياتٍ لم توجَّهَ الدَّعوةُ إليهنَّ مباشرةً، فتأتي العمّةُ وكنَّتُها وأطفالُها، أو الأمُّ وبناتُها، أو الجدّةُ وبعضُ مِنْ أحفادِها؛ وتنهمكُ النسوةُ أثناءَ انتظارهنَّ وُصُولِ المَلَايَةِ - الشَّخصيّةِ الأهمِّ في هذا الحدثِ - في الحديثِ والسُّؤالِ عَنْ أحوالِ بعضِهِنَّ بعضاً، والتَّطرُّقِ إلى مجالسِ العزاءِ الأخرى التي عقدتها معارفُهنَّ وقربائُهنَّ في المنطقة. (١)

وقد تختارُ بعضُ مِنَ النِّساءِ تأجيلَ عقدِ المجلسِ إلى ما بعدَ اليومِ العاشرِ - يومِ مقتلِ الحُسَيْنِ - بسببِ شدّةِ الطَّلَبِ على المَلَايَاتِ الَّذِي يَصِلُ ذروتهُ في هذا الشَّهرِ، ويؤدِّي إلى مواصَلَتِهِنَّ العملَ حتّى سَاعَاتٍ متأخِّرةً مِنَ اللَّيْلِ! ويجري الحديثُ كذلكَ عَنْ المَلَايَاتِ وأساليبهِنَّ ومهاراتِهِنَّ، وتُلاحظُ. على وجهِ العمومِ. المُفاضلةَ بيْنَهُنَّ، ف (أُمُّ فلانِ المَلَايَةِ) تتمتّعُ بصوتٍ قويٍّ وشجيٍّ يؤثّرُ في القلوبِ، ولها القدرةُ على الارتجالِ والاستجابةِ لاحتياجاتِ جمهورِها مِنَ الحاضراتِ، وتحفظُ الكثيرَ مِنَ القصائدِ الحُسَيْنِيَّةِ التي تدورُ جميعُها حَوْلَ مَصائبِ آلِ البيتِ والظُّلمِ الَّذِي قاسوهُ على يدِ بني أُمَيَّةٍ؛ معَ التَّركيزِ. تقليدياً.

(١) المَلَايَةُ مُبالغة اسم الفاعل المؤنَّث من الفعل (أملى) إذا قرأ على غيره شيئاً سواء كان مكتوباً في صحيفة أم غير مكتوب، فقام المملّى عليه بتدوينه وكتابته أو سَمِعَهُ بقصد الفهم. ويفيد الاسم هنا في معرفة طبيعة ما كانت تقوم به المَلَايَاتِ (المَلَالِي) في المجالس من تعليم ووعظ، وقد أضيف إليهما فيما بعد وظائف أخرى من مثل ما يُشار إليه هنا. (المقوم الغوي).

على مصائب النساء من آل البيت، وما تعرّضنّ له من سبّي، وتنكيلٍ وسوءِ معاملةٍ.

ثمّ تصلّ الملائة مع اثنتين أو ربّما ثلاثٍ من المتدربّات الطموحات اللّائمي يساعدنّها في العمل من خلالٍ ترديد بعض من الأبيات التي تقولها، وضربهنّ بالأيدي على الكتب، وإعدادهنّ ما يلزم لضمّان نجاح المجلس.

تبدأ الملائة المجلس بالصلاة على النّبّي محمّد وآله والدّعوة إلى التزام الهدوء وعدم التحدّث احتراماً لقدسيّة المجلس وذكرى من أقيم لأجله، ثمّ تنتقل إلى إنشاد قصيدة حسنيّة بطيئة الإيقاع عادةً، وتكون مصحوبة بضرب النساء على أفخاذهنّ أو صدورهنّ، مع ترديد اللازمة التي تتألّف من مقطع أو مقطعين أو مفردة (أحّا، أحّا) دلالة على الحزن والاستياء. وتختار الملائة بعد ذلك إمّا أداء "الطميّة"^(١) تشترك فيها الحاضرات وقوفاً في هيئة دائرة أو "النّعي"، وفيه تغطّي النساء وجوههنّ بجزء من العباءات السوداء التي يرتدينها أو بأغطية الرأس.

واللّطميّة والنّعي هما إحدى أهمّ وسائل التعبير عن شدّة الحسرة والتألم على مصائب الأئمة المعصومين، وتنتهي الملائة المجلس بخطبة يتباين طولها بحسب الظروف؛ تحت فيها الحاضرات على الاقتداء بآل البيت، والتحلّي بأخلاقهم، والتذكير بضرورة ترك الدنيا الفانيّة ومباهجها، والعمل للفوز في الحياة الآخرة بشفاعّة محمّد وآل محمّد، ثمّ تختتم الملائة خطبتها هذه بمقولة: (كلّ البجي لزينب وأهلها) استصغاراً منها لما تعانيه الحاضرات مقارنةً بما

(١) اللّطميّة: نسبة لمؤنث مصدر الفعل (لطمَ). واللطم هو ضرب الخد أو صفحة الجسد باليد والكفّ مفتوحة. (المقوم اللّغوي).

خَبَرَتْهُ زَيْنَبُ مِنْ ظَلَمٍ وَتَرْوِيعٍ وَفَقْدٍ لِلْأَهْلِ وَالْأَحِبَّةِ، وَتَذْكِيراً بِأَنَّ الْبُكَاءَ لَا يَصِحُّ إِلَّا عَلَى زَيْنَبَ وَأَهْلِهَا.

وَيَجْرِي بَعْدَ ذَلِكَ تَقْدِيمُ الشَّايِ وَالْبَسْكَوِيَّاتِ لِلْحَاضِرَاتِ، وَتَرْوِيدُ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ بِكَيْسٍ يَحْوِي عَلَى بَعْضٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْمُعْجَنَاتِ أَوْ الْفَوَاكِهِ أَوْ الْعَصَائِرِ، وَغَيْرِهَا، وَقَدْ تَرْوِي بَعْضُ مِنَ النِّسْوَةِ قَصَصاً عَنْ الْكَرَامَاتِ وَالْأَعَاجِبِ الَّتِي تَحْدُثُ فِي هَذَا الشَّهْرِ، فَكَمْ مِنْ مَرِيضٍ بَرَأَ مِنْ مَرَضِهِ بِفَضْلِ تَوَجُّهِهِ سِيراً إِلَى ضَرْيَحِ الْإِمَامِ، وَكَمْ مِنْ امْرَأَةٍ تَحَقَّقَ لَهَا حَلْمُهَا بِالزَّوْاجِ أَوْ الْحَمْلِ بَعْدَ طَوِيلِ انْتِظَارٍ بَعْدَ زِيَارَتِهَا الْمَرْقَدَةِ. كَمَا يَتَحَدَّثْنَ عَنْ الرِّحَالِ السَّيَّاحِيَّةِ الْمُنْتَظَمَةِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا الْعِرَاقِيُّونَ إِلَى مَرْقَدِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ، عَلَى الرَّغْمِ مِنَ الْأَضْطِرَابَاتِ الشَّدِيدَةِ الَّتِي تَعْصِفُ بِسُورِيَا وَحَالَةَ الْاِقْتِتَالِ الدَّاخِلِيِّ الَّتِي مَا بَرَحَتْ تَعِيثُ دَمَاراً فِي هَذَا الْبَلَدِ!. يَجْرِي كُلُّ هَذَا وَسَطَ حَالَةٍ مِنَ التَّوْثُرِ الدَّاخِلِيِّ الَّذِي يَعِيشُهُ الْعِرَاقُ بِسَبَبِ الْحَرْبِ عَلَى الْإِرْهَابِ، وَسُوءِ الْخِدْمَاتِ، وَالضُّغُوطِ النَّفْسِيَّةِ وَالْحَيَاتِيَّةِ الَّتِي يَرْزُحُ الْعِرَاقِيُّونَ جَمِيعاً تَحْتَ وَطْأَتِهَا.

وَلَكِنْ، مَنْ هِيَ السَّيِّدَةُ زَيْنَبُ الَّتِي تُعْقَدُ الْمَجَالِسُ بِاسْمِهَا، وَيُطْلَبُ مِنَ الْمَوَالِينِ الشُّبَّانِ الشَّيْعَةِ فِي الْعِرَاقِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْبُلْدَانِ الَّتِي تَقِيمُ فِيهَا أَقَلِّيَّةٌ أَوْ أَكْثَرِيَّةٌ شَيْعِيَّةٌ التَّطَوُّعُ لِلدَّفَاعِ عَنْهَا وَحَمَايَتِهَا مِنَ الْأَعْدَاءِ الَّذِينَ يَحَاوِلُونَ النِّيلَ مِنْهَا وَمَحْوَ ذِكْرِهَا؟ وَمَاذَا تَعْنِي لِلشَّيْعَةِ. عَلَى وَجْهِ الْعُمُومِ؟. وَمَا مَوْقِعُهَا فِي عَمَلِيَّةِ إِحْيَاءِ ذِكْرِ آلِ الْبَيْتِ وَالْحِفَاطِ عَلَى مَوْرُوثِهِمْ وَتَقَالِيدِهِمْ؟.

فِي وَاقِعِ الْأَمْرِ، تُنْظَمُ هَذِهِ الْمَجَالِسُ فِي وَقْتٍ يَشْهَدُ فِيهِ الْعِرَاقُ وَالْمِنْطَقَةُ بِرَمَتِهَا صِرَاعاً دُمُومِيّاً وَحُرُوباً طَائِفِيَّةً سَقَطَ عَلَى أَثَرِهَا الْآلَافُ بَيْنَ قَتِيلٍ وَجَرِيحٍ، وَفَقَدَ الْكَثِيرُ مَسَاكِنَهُمْ وَمَصَادِرَ رِزْقِهِمْ، وَهُجَّرَ الْآلَافُ غَيْرُهُمْ.

وللإجابة عَنِ السُّؤالِ نقولُ: إنّها زينبُ بنتُ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ، رابع الخلفاء الراشدين زوجِ فاطمة الزَّهراءِ بنتِ النَّبيِّ مُحَمَّدٍ عليهم الصَّلَاةُ والسَّلَامُ أَجْمَعِينَ.

وُلِدَتْ في الخامسِ مِنْ جمادى الأوَّلِ في السَّنَةِ الخامسةِ الهجريةِ، وتُوفِّيَتْ في الخامسِ عَشَرَ مِنْ رَجَبِ سَنَةِ (٦٣هـ) ولزَيْنَبُ مكانَةٌ وقُدسيَّةٌ خاصَّتَانِ عِنْدَ الشَّيعةِ بسببِ دورِها في معركةِ كربلاءِ التي قُتِلَ فيها أخوها الحُسَيْنُ بنُ عليٍّ وعددٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، ويعتقِدُ الشَّيعةُ بعُصْمَتِها العُصمةَ الصُّغرى.

وثمَّةُ قولانٍ في معنى كلمةِ "زينب" الأوَّلُ أنّها مُركَّبةٌ مِنْ "زين" و "أب" والثَّاني أنّها كلمةٌ بسيطةٌ غيرُ مُركَّبةٍ، وهِيَ اسمٌ لشجرةٍ أو وردةٍ. وهذا ما صرَّحَ بِهِ مُحَمَّدُ الدِّينِ الفيروزاباديُّ في القاموسِ المحيطِ، بقوله: (الزَّيْنَبُ نَبَاتٌ عَشِيٌّ بَصَلِيٌّ مُعَمَّرٌ مِنْ فِصِيلَةِ النَّرْجِسِيَّاتِ، أَزْهَارُهُ جَمِيلَةٌ بَيضاءُ اللَّوْنِ فَوَّاحَةٌ العَرَفِ، وَبِهِ سُمِّيَتْ المَرْأَةُ).

ولزَيْنَبُ عِدَّةُ ألقابٍ تُعرفُ بها، مِنْها "عَقِيلَةُ الطَّالِبِيْنَ" و "زينبُ الكُبرى" لتمييزِها عَمَّنْ سُمِّيَتْ بِاسْمِها مِنْ أخواتِها؛ وَكُنِّيَتْ بِكُنْيَتِها؛ و "الحوراءُ" و "أُمُّ المِصائبِ" لكثْرَةِ المِصائبِ التي أَلَمَّتْ بها، و "الغريبةُ" و "العالمَةُ غيرُ المَعْلَمَةِ" و "الطَّاهِرةُ" و "السَّيِّدَةُ".

تربَّتْ السَّيِّدَةُ زينبُ في مدرسةٍ جدَّها رسولُ اللهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونهَلَتْ فيها قِيمَ الصَّبْرِ والمُصابرةِ والمُكابرةِ، وتعلَّمتِ الجرأةَ والإقدامَ مِنْ أبيها، فكانَ لها ما كانَ يومَ وقَفَتْ في الكوفةِ أَمامَ زيادِ بنِ أبيه صامدةً شاحخةً مرفُوعةَ الرَّأسِ؛ على الرُّغمِ مِنْ أسْرِها، ومُحاوَلَةِ إرْكَاعِها وإذْلالِها قائلةً: (يا أَهْلَ

الحِثْر والغَدْر،^(١) أتبكون؟ فلا رَقَاتِ الدَّمْعَةُ ولا هَدَاثُ الرِّثَّةِ،^(٢) إِنَّمَا مَثَلُكُمْ كَمَثَلِ التِّي نَقَضَتْ غَزَاهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا، تَتَخَذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ...^(٣) ولم يكن موقفها أمام يزيد بن معاوية بأقل جرأة من موقفها أمام زياد، فكان فيه من الكبرياء والشموخ ما يثبت أنها ربيبة أسرة عريقة، ومن سلاله الطهر والعفة.

توجَّهَت السَّيِّدَةُ زَيْنَبُ مَعَ أُخِيهَا الْحُسَيْنِ وَبَعْضٍ مِنْ أَهْلِهِ وَأَصْحَابِهِ فِي رَحَلَةٍ طَوِيلَةٍ قَاسِيَةٍ مِنَ الْمَدِينَةِ الْمُتَوَرَّةِ إِلَى مَكَّةَ، ثُمَّ إِلَى كِرْبَلَاءَ، ثُمَّ الْكُوفَةِ، ثُمَّ الشَّامَ؛ رَحَلَةٍ تَمَخَّصَتْ عَنْ حَدَثٍ مَزَلْزَلٍ وَانْعِطَافَةٍ تَارِيخِيَّةٍ مَا زَالَتْ أَبْعَادُهَا وَمَضْمُونَاتُهَا وَتَدَاعِيَّاتُهَا فِي الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ حَاضِرَةً بِقُوَّةٍ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا! وَزِيَادَةً عَلَى أَدْوَارِ الْمَرْأَةِ التَّقْلِيدِيَّةِ الَّتِي أَذْثَمَهَا السَّيِّدَةُ زَيْنَبُ بِكُلِّ تَفَانٍ وَانْدِفَاعٍ، فَقَدْ نَهَضَتْ بِأَدْوَارٍ مَهْمَةٍ أُخْرَى، مِنْهَا مُقَاوَمَةُ الطُّغَاةِ وَالتَّجَبُّرِينَ مِنْ حُكَّامِ عَصْرِهَا، وَاسْتِنْهَاضُ هَمَمِ النَّاسِ وَتَذَكِيرُهُمْ بِوَاجِبِهِمْ تَجَاهَ آلِ الْبَيْتِ، وَالِاسْتِمْرَارُ فِي حِمْلِ لَوَاءِ الثَّوْرَةِ الْحُسَيْنِيَّةِ وَمُوَاجَهَةُ حِمَايَاتِ بَنِي أُمَيَّةَ لِنَشْوِيهِ مَسَارِهَا وَتَزْيِيفِ حَقَائِقِهَا؛ إِنَّهَا امْرَأَةٌ فَاعِلَةٌ لَا مُنْفَعَلَةٌ، مُقَاوَمَةٌ لَا مَهَادِنَةٌ، إِنَّهَا أَنْمُودُجٌ دَوْرٌ تَشْجَعُ النِّسَاءُ الْمُسْلِمَاتُ عَلَى تَقْلِيدِهِ وَاتِّخَاذِهِ مَثَلًا أَعْلَى.

(١) جاء في لسان العرب: الحِثْرُ شبيه الغَدْرِ والخديعة، وقيل هو الخديعة بعينها، وقيل هو أسوء الغدر وأقبحه. وفي التنزيل العزيز (...وَمَا يَحْجِدُوا بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلَّ خَتَارٍ كَفُورٍ. لقمان ٣٢) ويُقال: خَتَرَهُ فَهُوَ خَتَارٌ، وفي الحديث: مَا خَتَرَ قَوْمٌ بِالْعَهْدِ إِلَّا سُلْطَ عَلَيْهِمُ الْعَدُوُّ. (المقوم اللغوي).
(٢) الرِّثَّةُ: رفع الصوت والصياح. وأكثر ما يكون في المصيبة. (المقوم اللغوي).
(٣) الجملة الأخيرة اقتباس من الآية القرآنية "٩٢" من سورة النحل. وهي تذكر امرأة حقاء كانت بمكة تغزل صوفها سائر اليوم، حتى إذا امست نقضت ما غزلت. (المقوم اللغوي).

وتأسيساً على ذلك، فقد أسهمت السيِّدة زينب، بأفعالها ومواقفها هذه في تغيير الصورة النمطية عن المرأة المسلمة التي تقتنُّ عادةً بالضعف والاستسلام والخنوع والافتقار إلى المبادرة.

والسيِّدة زينب - أو بالأحرى - ما يجري في المنطقة التي سُميت باسمها، هو محور (الأطروحة / الكتاب) المعلنون بـ (على خطى السيِّدة زينب: الشيعة الاثنا عشرية في سوريا) التي اخترت ترجمتها بعد بحث مكثف خرجت منه بحصيلة قوائمها مئات العنوانات التي تدور جميعها حول المذهب الشيعي، ورجالاته، وتاريخه وممارساته ومواقفه مكتوبة باللغات الألمانية والفرنسية والإيطالية مع استئثار اللغة الإنكليزية بحصة الأسد.

و (أدث اندريا لك زانتو على . ديب) كاتبة هذه الأطروحة، هي من الباحثين المختصين في الشأن الديني. الشيعي، ولها باعٌ طويلاً في الكتابة عن موضوعات تخص هذا الشأن، كما تشهد على ذلك سيرتها الذاتية الواردة في الترجمة الحالية. وقد استعانت الباحثة بعدد كبير من المصادر التي أسهمت في إثراء نقاشاتها وتعزيز تحليلاتها، واعتمدت على جملة من المفهومات والفكر، مثل التقليد، والخطاب، وأنموذج كربلاء، والمشهد، والتبادل، والاهترتوبيا (الانتباز الفضائي) والغروتسك (الغريب وغير المألوف) والوقوف بعتبة الشعور، والكرنفال، والممارسة المخالفة، والابتداع، والتقوى؛ طرحها كوكبة من المفكرين والباحثين في حقول الدين، والفلسفة، والأنثروبولوجيا، والأدب، المعروفين أمثال "ميخائيل باختين" و "ميشيل فوكو" و "والتر بنيامين" و "اميل دوركهيم" و "طلال أسد" و "صبا محمود" و "خوان كول" و "فردريك م. دني" و "مايكل غلزنان" و "جي ديورد" و "مارسيل موس" و

"إِسْحَاقُ نَقَاش" و "الإخوة الشيرازيين" وآيات الله: "الخميني" و "الصّدر" و "الخامنيّ"، ووظفت جملة من الأدوات البحثيّة؛ منها الدّراسة الحقلية، والمُحَوِّطُ بالمُشارَكة، والمُتَابَلة، والبياناتُ الأثنوُغرافيّة؛ وعزّزت دراستها بملاحقٍ أوردت فيها أسماء الملائيات، والمُؤسّسات الدّينية من حوزات، وحُسينيّات، ومُنظّماتٍ، ومُستشفياتٍ؛ تعكسُ جميعها مدى الجهد المبذول وحرصَ الباحثة على تقديم عمل أكاديميٍّ دقيقٍ ومُتقنٍ.

إنّ الحديثَ عَنِ السّيّدة زينبَ والمدينة التي تضمُّ مرقدَها، هوَ بالضرّورة. حديثٌ عَنِ الدّين، والاقتصاد، والسّياسة، والبناء الاجتماعيّ؛ وهو حديثٌ عَنِ رجالِ الدّين وآرائهم واختلافاتهم الفقهيّة، وعَنِ الحوزات والحُسينيّات والمجالس الحُسينيّة والمُعتقدات والممارسات الطّقوسيّة المُتعارَفِ عليها تارةً والمثيرة للجدلِ تارةً أُخرى، مثل التّطير، واللّطم، والطّب الرّوحانيّ وغيرها. إنّهُ حديثٌ عَنِ مَفهُومَاتِ الخلاص والمُعانة، والحيز الطّقوسيّ، والجندر ودوره،^(١) والمُؤسّسات الدّينية الرّسميّة وغير الرّسميّة، والعواطف وردود

(١) يُقصد بمُصطلح الجندر "النوع الاجتماعيّ". والجندرة هي التّفرة بين الذّكر والأنثى على أساس الدّور الاجتماعيّ لكلٍّ منهما تأثراً بالقيم السّائدة.

وقد استخدم المُصطلح لأوّل مرّة من قبل "آن أوكلّي" وزملائها من الكتاب في سبعينيّات القرن العشرين، وذلك لوصف خصائص الرّجال والنساء المُحددة اجتماعيّاً في مقابل تلك الخصائص المُحددة بيولوجياً.

غير أنّ بعضاً من الباحثين يَرّجح أنّ استخدام المُصطلح وانتشاره في الأدبيّات العالميّة كان في وقت أقرب؛ وذلك في الثّانيّين لا السّبعينيّات، وهي المدة التي اتّسمت بمناقشات مُكثّفة حول أثر سياسات التّكليف الهيكليّ على أوضاع المرأة.

وتتطلب عمليّة استجلاء مفهوم (الجندر) أو "النوع الاجتماعيّ" التّمييز بينه وبين مفهوم "الجنس" أو "النوع البيولوجيّ". فبينما يقتصر مُصطلح الجنس (Sex) على الاختلافات البيولوجيّة بين الرّجل والمرأة. وبذلك يتسم بالجبريّة والاستاتيكيّة) بسبب أنّ الفروق الجسديّة بين الرّجل والمرأة فروق ثابتة وأبدية. نجد أنّ مُصطلح (الجندر) مفهوم ديناميّ حيث تتفاوت

الأفعال الأحشائية، والتقوى، وخيام الضيافة، والأحلام، والمعجزات والكرامات، و "عرس القاسم" و "عبد الله الرضيع" ومجتمعات الشتات التي اقتلعت من جذورها؛ وتعيش لاجئة أو منفية من أوطانها. وإضافة إلى ذلك، يتعذر الحديث عن بنية ديمغرافية موحدة ومتجانسة في مدينة السيّدة زينب التي يتحدّر المقيمون فيها من أصول عراقية، وإيرانية، وأفغانية، ولبنانية، وفلسطينية، إضافة إلى السورية. وبدايةً، تتأثر ممارسات هؤلاء ومعتقداتهم بجملة من العوامل والموروثات الثقافية، والاجتماعية، والتاريخية، والاقتصادية، والسياسية، والمذهبية، والمناطقية مما يؤدي إلى اصطافات وتباينات في وجهات النظر، وحتى صراعات!.

وتولّف هذه الموضوعات وغيرها المحاور الرئيسة في (على خطى السيّدة زينب) الذي يشكّل بحسب رأي المتواضع إضافة مهمة إلى الدراسات الأنثروبولوجية المعنية بالدين؛ في وقت تشهد فيه المكتبة العربية حاجة ماسة إلى هذا النوع من المؤلفات العلمية في ظل ندرة الأعمال المنجزة في علم الاجتماع الديني، ناهيك عن حقول معرفية قريبة مثل أنثروبولوجيا الدين؛ ويأتي استكمالاً لجهود الباحثين الذين سبقوا "أدث" في الكتابة في هذا المجال، ولكنها تختلف عنهم لجهة محاولة الجادة في ردم بعض من الفجوات التي عانتها الدراسات السابقة. إذ تتحدّث "أدث" عن إمكان توظيف مفهوم

الأدوار التي يلعبها الرجال والنساء تفاوتاً كبيراً بين ثقافة وأخرى؛ ومن جماعة اجتماعية إلى أخرى في إطار الثقافة ذاتها؛ فالعرق، والطبقة الاجتماعية، والظروف الاقتصادية، والعمر، كلها عوامل تؤثر على ما يُعدّ مناسباً للنساء من أعمال. ولذلك فإن طرح مفهوم (الجندر) كبديل لمفهوم الجنس، يرمي إلى التأكيد على أن جميع ما يفعله الرجال والنساء، وكل ما هو متوقع منهم، فيما عدا وظائفهم الجسدية المتمايزة جنسياً، يمكن أن يتغيّر بمرور الزمن وتبعاً للعوامل الاجتماعية والثقافية المتنوعة. (المقوم اللغوي).

المشهد "الديبوردِي" والكرنفال "الباختيني"، مثلاً في تحليل طقوس العزاء التي تتباينُ المواقفُ حيالها بينَ عدّها ممارسةً توفيقيةً تخدمُ أغراضاً اقتصاديّةً في "ترينداد" مثلاً،^(١) وتحوّلها إلى منطقةٍ نزاعٍ وخلافٍ بينَ رجالِ الدّينِ الشّيعيّة، والسّياسيينَ، والمقلّدينَ، والمتفرّجينَ.

بدأتُ الباحثةُ دراستها واختتمتها بالإشارة إلى "الرّبيع العربيّ" وهذا أمرٌ متوقّعٌ كونها باشرتُ الكتابةَ بعدَ انتهائِها مِنْ عمليّةِ جمعِ البياناتِ الحقليةِ قبلَ مدّةٍ قصيرةٍ مِنْ أحداثِ هذا الرّبيعِ {امتدَّ عملُها الحقلِي مِنْ عامِ (٢٠٠٧ م) إلى عامِ (٢٠١٠ م)}.

تقولُ أدث: إنّها كانت ترى في نفسها حينما بدأتُ عملها الحقلِي "باحثةً أنثروبولوجيّةً جادةً" إلّا أنّ رؤيتها هذه لم تدم طويلاً، إذ تغيّرَ كلُّ شيءٍ بعدَ انطلاقِ شرارةِ "الرّبيع العربيّ" الذي حوّلها إلى "مُؤرّخةٍ" وشاهدةٍ على التّغيّراتِ التي عصفتُ بسورياً مِنْ عامِ (٢٠١١ م) إلى حينِ انتهائِها مِنْ الكتابةِ. وابتغاءَ الحفاظِ على "النّكهةِ الأنثروبولوجيّةِ" لما أصبحَ عملاً تاريخيّاً، ارتأتُ الباحثةُ مُقارَبةَ عملِها كما لو كان في طَوَرِ التّبلورِ، ثمّ عملتُ في المبحثِ الأوّلِ مِنْ الفصلِ السّادسِ الذي يؤلّفُ الخاتمةَ. والمُعنُونُ بـ خارجِ الحقلِ: المذهبُ الشّيعيُّ والرّبيعُ العربيُّ. في ربطِ الشّيعيّةِ وممارساتِهم وطقوسِهم بما يجري في المنطقةِ. وتحدّثتُ "أدث" في هذا المبحثِ عَن التّغيّراتِ التي عصفتُ بالمنطقةِ بعامّةٍ، وبالعراقِ وسورياً بخاصّةٍ، بعدَ أحداثِ عامِ (٢٠٠٣ م) بعدما

(١) ترينداد. أو ترينداد. أرخبيل يقع جنوب البحر الكاريبي ويشكّل مع جزيرة توباجو جمهوريّة صغيرة لها شهرة في الاستثمارات التجاريّة. ويشكّل الهنود الآسيويون والصّينيون نحواً من (٤١٪) من مجموع السّكان، ويشكّل السّوريّون واللبنانيّون نحواً من (١١٪). وتبلغ نسبة المسلمين نحواً من (١٢٪). (المقوم اللغوي).

اكتسبَ مَفْهُومًا الخلاصِ والمُعَاناةِ أَهْمِيَّةً متزايدةً يمكنُ تلمُّسُهَا في المَلْحُوظَةِ التي أدلَّتْ بِهَا إحدى المَسَنَّاتِ العِراقِيَّاتِ في أحدِ مَجَالِسِ العِزَاءِ النَّسَائِيَّةِ، إذْ قَالَتْ: (لو لم يكن الأمر متعلقاً بمصائبنا ومآسينا، لم تكن مأساة الإمام الحسين وزينب لتؤثّر فينا). ويستعينُ المَبْحُثُ كَذَلِكَ بِتَحْلِيلِ الكَاتِبِ الأَمْرِيكِيِّ مِنْ أَصْلٍ إِيرَانِيٍّ "وَلِيُّ نَصْر" لِأَوْضَاعِ الشَّيْعَةِ فِي المَنْطِقَةِ فِي كِتَابِهِ (الصَّحُوحَةُ الشَّيْعِيَّةُ: دَوْرُ الصَّرَاعِ دَاخِلَ الإِسْلَامِ فِي صَوْغِ المُسْتَقْبَلِ) حَيْثُ أَسْهَمَتْ الأَحْدَاثُ المَدْوِيَّةُ فِي جَعْلِهِمْ أَقْوَى سِيَاسِيًّا خُصُوصًا فِي العِراقِ، مِمَّا شَجَّعَ إِيرَانَ وَعَزَّزَ مِنْ مَوْقِعِهَا وَشَكَّلَ دَعْمًا لِلشَّيْعَةِ فِي لُبْنَانَ.

وَفِي صَوِّهِ هَذِهِ التَّطَوُّرَاتِ المُتَسَارِعَةِ تَحْدِيدًا، تَتَأَكَّدُ أَهْمِيَّةُ دِرَاسَةِ المُمَارَسَاتِ وَالخَطَابَاتِ الدِّيْنِيَّةِ فِي سِيَاقَاتِهَا العَامَّةِ وَالخَاصَّةِ، وَقَدْ تَحَدَّثْتُ مَعَ البَاحِثَةِ وَتَرَاوَعْنَا مِنْ خِلَالِ الإِيْمِيلِ، وَأَخْبَرْتَنِي عَنْ نِيَّتِهَا تَحْدِيثَ مَادَّةِ الأَطْرُوحَةِ العِلْمِيَّةِ فِي صَوِّهِ المُسْتَجِدَّاتِ الَّتِي شَهِدَتْهَا وَمَا زَالَتْ تَشْهَدُهَا سُوْرِيًّا، لَا سِيَّيَا بَعْدَ ظَهْوَرِ دَاعِشَ [دَوْلَةِ الخِلَافَةِ الإِسْلَامِيَّةِ] وَاسْتِيْلَائِهَا عَلَى مَسَاحَاتٍ وَاسِعَةٍ مِنَ الأَرْضِ؛ ثُمَّ نَشَرَهَا فِي أَحَدِ دَوْرِ النِّشْرِ الرَّصِيْنَةِ.

وَمِثْلَمَا يَعْرِفُ المَعْنِيُونَ بِشُؤْنِ النِّشْرِ، قَدْ يَسْتَغْرِقُ صُدُورُ الكِتَابِ المُحَدَّثِ وَتَرْجُمَتُهُ بَضْعَ سَنِينَ أُخْرَى، وَلِهَذَا ارْتَأَيْتُ تَرْجُمَةَ الأَطْرُوحَةِ الآنَ، ثُمَّ التَّفَكِيرَ فِي تَرْجُمَةِ الطَّبْعَةِ الثَّانِيَةِ المُتَفَحِّحَةِ والمُحَدَّثَةِ بَعْدَ صُدُورِهَا.

وَهَذَا الكِتَابُ . بَعْدَ ذَلِكَ . لَيْسَ انْتِصَارًا أَوْ دَحْضًا لِلآرَاءِ وَالْمَوَاقِفِ وَالإِشْكَالِيَّاتِ المُطْرُوحَةِ فِيهِ عَنْ مُمَارَسَاتِ التَّقْلِيدِ، وَالْعِلَاقَةِ بِالأَوَّلِيَاءِ، وَالْمُمَارَسَاتِ المُخَالِفَةِ، وَالِاخْتِلَافَاتِ الفَقْهِيَّةِ، وَالْعَقْلَانِيَّةِ مُقَابِلَ اللَّاعْقَلَانِيَّةِ،

والبيداغوجيا الدِّينية^(١) والفضيلة والانضباط، بل إِنَّهُ كتابٌ يتوخى الموضوعية والدقة في العرض والنقاش، ويرمي إلى أن يأخذ بيد الباحثين والمعنيين بهذا الشأن ليدلّهم على مسالك الإحاطة بهذه الموضوعات والمسائل من خلال تقديم الأدلة التجريبية العملية من دون الإفراط في النقاشات النظرية والمنهجية.

وبداهة، لا بدّ - في كل عمل يُعنى بالترجمة - من وجود إشكالات محدّدة ينجم بعضها من نوعية المفردات المستخدمة وجدة المفهومات والمصطلحات والاستعانة بمصادر كُتبت بلغات أخرى غير اللغة التي كُتبت بها العمل - مثل الألمانية في العمل الحالي. وابتغاء تذليل هذه الصعوبات، فضّلت تقديم بعض من الشروحات والتعليقات الإضافية الضرورية لتقديم نص مواز ومفهوم للقارئ العربي، ولهذا، فإنّه إذا لحظ القارئ كلمة "الترجمة" بين القوسين () في بعض من الهوامش، فهذا يعني أنّ النصّ الأصلي لم يكن يتضمّنّها. وختاماً، أمل أن تشكّل ترجمة (على خطى السيّد زينب) إضافة نوعية لا غنى عنها للمعنيين بموضوعات الدين، والأنثروبولوجيا، والاجتماع والممارسات الطقوسية من الأساتذة والطلّاب وغيرهم من المختصّين.

ومن الله التوفيقُ

(١) يعني مُصطلح "البيداغوجيا" مجموع طرائق التدريس. ويرى عالم الاجتماع الفرنسي (اميل دوركايم) أنّ البيداغوجيا نظرية تطبيقية للتربية تستمد مفهوماتها من علم النفس وعلم الاجتماع في حين لا تمثل البيداغوجيا وفقاً لـ (روني أوبر) علماً ولا تقنية ولا فلسفة ولا فناً، بل هي هذا كله مُنظماً وفق تمفصلات منطقية. وقد نشأ عن المدارس الفلسفية ومدارس علوم النفس المختلفة مظهرات ومقاربات مختلفة للبيداغوجيا وطرائق متنوعة لتحقيقها. (الترجمة).

الفصل الأول

أي ليل هبط على بيت الحسين؟

المقدمة:

انظروا إليّ، آه يا أهل الشام!
إيها ابنة بنت النبي الوحيدة.
إيها طفلة طفلة الوحيدة.
فوق بيت أخي النَّازف، بزغ الفجر.
إلقاء هذا الثمن الأبدي؟
إذن، اذرقوا الدُموع الآن وابكوا.
أنتم يامن لم ترتكبوا مجزرة قط!!
لأنّي رأيت أطفالاً يُذبحون في الصَّحراء.
يُكون طلباً للماء. اسمعوني، تذكروا الحسين،
تذكروا ما قدّم في كربلاء.
الحسين، القلب الممزق، قلبٌ محمدٍ وروحهُ،
ترك ينزف هناك لا أحد يواريه في الثرى.
آه! يا دمشق الصَّماء، هنا في زنازين خليفتك.
سخرُوا مِنْ دم نبيك، يتيمة أنا.
أنا أختُ الحسين - سجينَةُ الطَّاغية.
أبو الطَّين، صرَّخَ فرعاً: اغفر لي، انتصرتُ سورياً.
يتامى أطفالك جميعهم، الوداع، ثم ارتدى كفنهُ مِنَ الكلمات ورحل
بعيداً عنّا،
رحل وحده إلى غير رجعة.
يا فردوس! أصغي إليّ.

أَيُّ ظَلامٍ هَبَطَ عَلَى جَسَدِ أَخِي؟
 دَعُ غُرْفَ الْجَنَّةِ تَصُمُّ أَذَانَهَا. يَا مَلَائِكَةُ أَصْغُوا إِلَيَّ!
 أِهْ! يَا صِرْخَتِي الْمَكْتُومَةَ فِي قَصْرِ الْخَلِيفَةِ.
 سوريًّا اسمعيني!
 أَيُّ لَيْلٍ هَبَطَ عَلَى بَيْتِ الْحُسَيْنِ؟
 تُرَكْتُ وَحِيدَةً لِأُرْوِي قِصَّةَ أَخِي.
 أَيُّ فَجْرِ بَزَغَ عَلَى جَسَدِ أَخِي.
 أَبْكِي لِأَجْلِ أَخِي.
 أِهْ! يَا عَالَمُ، أَبْكِي لِأَجْلِ الْحُسَيْنِ.^(١)

التعريفُ بالسَّيِّدَةِ زَيْنَبَ:

كُنْتُ أَرَى فِي نَفْسِي أَثْنَاءَ عَمَلِي الْحَقْلِيِّ بَاحِثَةً أَنْثُرُوبُولُوجِيَّةً مَجْدَّةً، إِلَّا أَنَّ
 رُؤْيِي هَذِهِ لَمْ تَدُمُ طَوِيلًا! إِذْ تَغَيَّرَ كُلُّ شَيْءٍ بَعْدَ انْطِلَاقِ شَرَارَةِ الرَّبِيعِ الْعَرَبِيِّ فِي
 عَامِ (٢٠١١ م) الَّذِي حَوَّلَنِي إِلَى مُؤَرِّخَةٍ!
 وَالْمَشَاهِدُ الَّتِي سَأَصِفُهَا فِي الصَّفَحَاتِ التَّالِيَةِ، لَمْ يَعْذُ لَهَا وَجُودٌ بِالنَّحْوِ
 الَّذِي دَرَسْتُهَا فِيهِ وَخَبِرْتُهَا! إِذْ غَادَرَ الْكَثِيرُ مِنَ الْعِرَاقِيِّينَ الَّذِينَ شَكَّلُوا جُزْءًا مِنْ
 هَذِهِ الْمَشَاهِدِ، وَعَادَ بَعْضُهُمْ إِلَى الْعِرَاقِ، حَيْثُ يَعِيشُ آلَافٌ مِنْهُمْ بِوَصْفِهِمْ
 مُهَاجَرِينَ دَاخِلِيًّا، وَاخْتَارَ بَعْضُهُمُ الْآخِرَ الْمُهْجَرَةَ إِلَى أَوْرُوبَا أَوْ أَمْرِيكََا السَّامِلَةِ.
 وَيَعِيشُ الْكَثِيرُ مِنَ الشَّيْعَةِ غَيْرِ الْعِرَاقِيِّينَ الَّذِينَ اخْتَارُوا الْبَقَاءَ فِي سُورِيَا
 حَالِيًّا حَيَاةً هَشَّةً مَلِيئَةً بِالْأَضْطِرَابَاتِ وَالْمَخَاطِرِ، إِذْ شَهِدَ شَهْرُ كَانُونِ الثَّانِي مِنْ

(١) آغا شهيد علي، قصيدة "رثاء زينب في دمشق"، مجلة أرييل العدد ٣١ (٢٠٠٠): ٤٢٥-٤٢٦.

عام (٢٠١٢ م) اختطاف ما لا يقل عن ثمانية عشر حاجاً إيرانياً كانوا يرومون زيارة مرقد السيّدة زينب! ^(١) وبسبب تمثيلهم أقلية صغيرة العدد اعتادت التحالف والارتباط بالنظام العلوي الحاكم، فقد شهد موقع الشيعة الاثني عشريين، وما زال يشهد عدّة تغيرات جذريّة - إلى الأسوء في غالب الأحيان. ولأنّي لن أتمكن شخصياً من التحقّق من هذه التغيرات أو إثباتها على أرض الواقع، وبسبب انتهائي من عمليّة جمع البيانات الحقلية قبل مدّة قصيرة من أحداث الربيع العربيّ، فقد ارتأيت مقارنة موضوعي البحثي كما لو أنّه ما زال في طور التبلور في الوقت الحاليّ ابتغاء الحفاظ على النكهة الأنثروبولوجيّة لما أصبح عملاً تاريخياً.

كانت زيارة مرقد السيّدة زينب الذي يقع على بعد خمسة عشر كيلومتراً إلى جنوب العاصمة دمشق من أوّل الأمور التي فعلتها في أوّل زيارة لي إلى سورياً في أيلول من العام (٢٠٠٤ م) وقد تجلّت منارتا المرقد الزرقاوان وبدنا واضحتين للعيان من مسافة بعيدة، وبدت كذلك القبة المذهّبة بعد دخولنا المدينة بقليل؛ ولحظت حال دخولنا المنطقة المحيطة بالمرقد امتداد الحوزات الدينيّة والأسواق المزدحمة بالسائحين المتبصّعين من إيران ودول الخليج العربيّ على طول الشارع الرئيس الذي يشقّ المدينة نصفين. وبسبب قلّة استضافة المرقد لفعاليات دينيّة نسائيّة (باستثناء المجاميع السياحيّة الفرديّة التي تشترك فيما يُعرف بمجالس العزاء الطقوسية) انصبّ اهتمامي على الحوزات

(١) "ما زال مصر ثمانية عشر مواطناً إيرانياً خطفوا في سورياً مجهولاً" برس تي في (<http://www.presstv.ir/detail/229798.html>) في الحادي والعشرين من آذار عام ٢٠١١.

والْحُسَيْنِيَّاتِ، أو القاعاتِ المُكرَّسة لإقامةِ مجالسِ العزاءِ والنَّدبِ التي تنتشرُ حولَ المرقِدِ، وتخدمُ غرضَ تلبيةِ حاجاتِ المُجتمعِ المحليِّ الشَّيعيِّ المقيمِ في المدينة.^(١)

وتولَّفُ الحوزاتُ والحُسَيْنِيَّاتُ في سورياً كما في غيرها من المناطقِ جزءاً من الشُّبكاتِ البحثيةِ والعلميةِ التي تضطلعُ بدورٍ كبيرٍ في الترويجِ للسياساتِ الدينيةِ العقائديةِ ونشرها.

أقمتُ في أوَّلِ زيارةٍ لي لسورياً بعدَ حصُولي على منحةٍ فلبرايت للعامِ الدَّرَاسِيِّ (٢٠٠٤-٢٠٠٥ م) في مركزِ المدينة، حيثُ انصَبَّ اهتمامي على تعلُّمِ اللُّغةِ العربيَّةِ وإتقانها؛ وفي ثاني زيارةٍ لي في عامِ (٢٠٠٦ م) أقمتُ في الضَّواحيِ الغربيَّةِ للعاصِمةِ دمشقَ، وتطوَّعتُ للعملِ معَ وكالتينِ تابعَتينِ للأممِ المتَّحدةِ، هما المفوضيَّةُ السَّامِيَّةُ لشؤونِ اللاجئِ (UNHCR) وبرنامجُ الأممِ المتَّحدةِ الإنمائيِّ (UNDP) وواظبتُ - أثناء ذلك - على زيارةِ مرقِدِ السَّيِّدةِ زينبَ؛ على الرُّغمِ من أنَّ العملَ في المفوضيَّةِ في قضايا اللُّجوءِ والهجرةِ أتاحَ لي فرصةَ رؤيةِ المرقِدِ من زوايا ومَنظوراتٍ جديدةٍ لم أفكَّرَ فيها سابقاً، إذ ساعدتني في لحظِ ظاهرةٍ تدويرِ موادِّ المُساعدَةِ التي تقدِّمُها المفوضيَّةُ مثلَ أكياسِ الرُّزِّ والسُّكَّرِ، ثمَّ إعادةِ بيعها. ثمَّ قرَّرتُ أخيراً - في ثالثِ زيارةٍ لي في العامِ (٢٠٠٧ م) الإقامةَ في مدينةِ السَّيِّدةِ زينبَ، والتَّسجِيلَ في أحدِ الفُصولِ الحوزويَّةِ الصَّيفيَّةِ، ومُقابلةَ أحدِ الأطبَّاءِ الرُّوحانيِّينَ الذي يستمدُّ مشروعيَّةَ الدَّينيَّةِ من الاستشهادِ بآيٍ من الذِّكْرِ الحكيمِ. ولم تطلْ إقامتي أكثرَ من ثلاثةِ أشهرٍ وذلك

(١) نعني بالسَّكَّانِ المحليِّينَ (أو الأهالي) الأفغان والعراقيِّينَ والإيرانيِّينَ والفلسطينيِّينَ الذين عاشوا في مدينةِ السَّيِّدةِ زينبِ عقوداً طويلة.

في صَيْفِ عَامِ (٢٠٠٨ م) تَلْتَهَا ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ فِي ربيعِ عَامِ (٢٠٠٩ م) ثُمَّ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ أُخْرَى فِي خريفِ العَامِ ذَاتِهِ. وبداهيةً، وَرَعْتُ الجزءَ الأكبرَ مِنْ وقتي أثناءَ إقامتي في مدينةِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ بَيْنَ الحَوْزَةِ، والحُسَيْنِيَّةِ، والمِرْقَدِ، وطبيبِ الأعْشَابِ وزملائي في هَذِهِ الأَمَاكِنِ.^(١)

ولَحِظْتُ في الأحَادِيثِ النَّبِيَّ اشْتَرَكْتُ فِيهَا والخطْبِ التي اسْتَمَعْتُ إِلَيْهَا والنَّفَاشَاتِ الصَّفِيَّةِ التي كُنْتُ شَاهِدَةً عَلَيْهَا؛ أَنَّ مَوْضُوعَاتِ الانْتِمَاءِ، والارتِبَاطِ، والولاية، وقيمةَ التَّقْلِيدِ (tradition) ومَكَانَتَهُ وَمَصْمُونَاتِهِ، هِيَ مِنْ أَبْرَزِ المَوْضُوعَاتِ والفِكرِ المَطْرُوحَةِ وأكثرِهَا اسْتِثَارًا بِالاهْتِمَامِ. وَحِظِي المَوْضُوعَ الأخيرَ، أي "التَّقْلِيدَ" بِحِصَّةِ الأسدِ مِنْ هَذَا الِاهْتِمَامِ، إِذْ مَا بَرَحْتُ التَّسْأُلَاتِ الخَاصَّةُ بِهِ مِثْلُ: مَا العُنَاوَةُ التي تَوَلَّفُ التَّقْلِيدَ؟^(٢) وَمَا السَّبَبُ الَّذِي يَجْعَلُهُ مَهْمًا فِي عَالَمِ اليَوْمِ؟ وكيف؟ وَهَلْ يَتَعَيَّنُ التَّفَكِيرُ بِهِ عَلَى أَنَّهُ التَّقْيِضُ للعَقْلَانِيَّةِ؟... مَا بَرَحْتُ تَطْفُو عَلَى السَّطْحِ، وَتَتَكَرَّرُ الإِشَارَةُ إِلَيْهَا خِلَالَ عَمَلِي الحَقْلِيِّ. وَيمكنُ القولُ تَبَعًا لذلِكَ: إِنَّ هَذِهِ المَوْضُوعَاتِ هِيَ الأساسُ الَّذِي تَسْتَنِدُ إِلَيْهِ دِرَاسَتِي! فَالْشِّيرَازِيُّونَ الَّذِينَ قَضَيْتُ الجزءَ الأكبرَ مِنْ وقتي في

(١) خِلافًا لغيرهم مِنَ العربِ، لَا يَمِيلُ العِرَاقِيُّونَ إِلَى دَعْوَةِ الَّامْتِمَامِ / الغِرْبَاءِ إِلَى مَنَازِلِهِمْ!. وَلِهَذَا قَضَيْتُ مَعْظَمَ وَقتي مَعَ زَمَلَاءِ لِي لَمْ يَكُونُوا مِنَ العِرَاقِ فِي الأَصْلِ (بَلْ كَانُوا سُورِيِّينَ) عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَحَادِيثِي المَطُولَةِ مَعَ النِّسَاءِ العِرَاقِيَّاتِ فِي المِرْقَدِ والحَوَازَاتِ والحُسَيْنِيَّاتِ. كَانَتِ النِّسَاءُ العِرَاقِيَّاتُ عَلَى وَجْهِ العَمُومِ أَكْثَرَ تَرَدُّدًا فِي إِظْهَارِ كَرَمِ الضَّيَافَةِ بِسَبَبِ شَعُورِهِنَّ القَوِيَّ والعَالِمَ بِالرَّبِّيَّةِ حِيَالِ الغِرْبَاءِ (سِوَا أَكُنَا أَجَانِبَ أَمْ عِرَاقِيَّينَ) النَّاجِمِ عَنْ عَقُودِ طَوَالٍ مِنَ العِيشِ فِي ظِلِّ الحُرُوبِ والقَمْعِ الدِّينِيِّ والسِّيَاسِيِّ. أَخْبَرْتَنِي أُمُّ أَوْسٍ بَعْدَ مَضِيِّ عِدَّةِ شُهُورٍ عَلَى تَعَارُفِنَا فِي سَبِيلِ المِثَالِ. أَنَّ زَوْجَهَا قَدْ قُتِلَ لِأَنَّهُ كَانَ يَعْملُ مَعَ الأَمْرِيكَانِ (لَمْ تَخْبِرِ العِرَاقِيَّينَ الأُخْرَيْنَ بِهَذَا الأَمْرِ قَطًّا) وَأَنَّ مَجْمُوعَاتِ مِيلِيشَاوِيَّةِ شِيعِيَّةٍ فِي بَغْدَادِ كَانَتِ قَدْ أَجْبَرَتْهَا عَلَى مَغَادَرَةِ بِلْدِهَا. وَلِهَذَا، يَدُو شَعُورُهَا بِالرَّبِّيَّةِ حِيَالِ العِرَاقِيَّينَ وَغَيْرِ العِرَاقِيَّينَ أَمْرًا طَبِيعِيًّا وَمَفْهُومًا. مَلْحُوظَاتُ حَقْلِيَّةٍ، ربيعِ عَامِ ٢٠٠٩.

(٢) لِلإِسْتِزَادَةِ بِشَأْنِ تَرْجُمَةِ مُفْرَدَةِ "tradition" انْظُرِ الهَامِشَ الخَاصَّ بِهِ فِي هَذَا الفَصْلِ.

الدِّراسة في حوزتهم. على الرغم من دراستي في اثنتين من الحوزات الأخريات. يرون في التقليد مصدر الولاية والاستقرار، وكذلك صيغة للتغيير. والتقليد في رأي العديد من النساء اللائي أجريت مقابلات معهن، هو ما يسمح به العرف والدين، وترسخ بوساطته العلاقات العاطفية ووجهات النظر العالمية المأسورة. وفي مقابل هاتين المجموعتين، يمثل "التقليد" للطبيب الروحاني [ممارسة] تسمح له بتحديث قوى العقلانية والتحديث والسلطة البحثية المهيمنة؛ زيادة على السماح له بادعاء حيابة القدرات الإعجازية. ويفترض السجل الدائر بشأن مفهوم التقليد. على وجه العموم. أنه يتألف من مجموعة من الممارسات والخطابات التي تنتقل من خلال العلاقات الشخصية، والتي تدور أساساً حول التعارض بين العقلاني والإعجازي. ويميل الكثير من الشيعة في مدينة السيدة زينب إلى احتضان ما يمكن تسميته بوجهة النظر "ما بعد الحدائيه" لجهة عدم شعورهم بالحاجة إلى إيجاد مسوغ يبرر التقليد أو يجعله يظهر بمظهر "العقلاني" بل إنَّ جلَّ ما يسعون إليه هو إضفاء الشرعية على "التقليد العجائبي"^(١) وذلك خلافاً للشيعة في لبنان وإيران، وهذا لا يعني أنهم يرون في التقليد أمراً "لاعقلانياً" وإنَّما هو تقليد يتجاوز. بطريقة ما. العقلانية.

(١) لذلك وخلافاً للتفسير التقليدي لأنموذج كربلاء الذي يعتمد عادة لتفسير الطقوس الشيعية بوصفها إما طقوساً "حديثية وثورية" وإما "تقليدية وخلصية" أرى أنَّ جوانب الطقوس الشيعية "التقليدية والخلصية" تحديداً، هي التي تسمح لهذه الطقوس بأن تكون "حديثية وثورية" كذلك. قارن مع آغاي (شهداء كربلاء: الرموز والطقوس الشيعية في إيران الحديثة) (سياتل: مطبعة جامعة واشنطن، عام ٢٠٠٤)؛ و لارا ديب (الحداثي المأسور) (نيوجرسي: مطبعة جامعة برنستون، عام ٢٠٠٦).

ومثلاً سائِبُ في الفُصولِ التَّالِيَةِ، فإنَّ مَفهُومَاتِ التَّقْلِيدِ الاثْنِي عَشْرِيَّ في سورِيَا المَعَاصِرَةِ، تَتِيحُ فِرْصَةً بَرُوزَ جَمَلَةٍ مِّنَ المَوَاقِفِ والطُّقُوسِ والخطَابَاتِ الكَرْنَفَالِيَّةِ والإِعْجَازِيَّةِ تَحْدِيداً، بِسَبَبِ شِيعِ وَجْهَةٍ نَظَرٍ مَفَادُهَا: تَجَذُّرُ التَّقْلِيدِ في العَلَاقَاتِ، البَيِّن - شَخْصِيَّةً.

والْحَدِيثُ عَنِ التَّقْلِيدِ لَيْسَ بِالْأَمْرِ الْجَدِيدِ فِي ضَوْءِ الْمَوْقِعِ المَحْوَريِّ الَّذِي يَشْغُلُهُ فِي حَيَاةِ الْمُتَمَيِّنِينَ إِلَى المَذْهَبِ الشَّيْعِيِّ، فَقَدْ أَسهَبَ رَجَالُ الدِّينِ الشَّيْعَةِ وَالبَّاحِثُونَ الأكَادِيمِيُّونَ فِي الشَّأْنِ الإِسْلَامِيِّ فِي الكِتَابَةِ عَنِ هَذَا المَفْهُومِ وَالبَحْثِ فِيهِ. وَيُفْهَمُ التَّقْلِيدُ بِطَرَاثِقٍ مُخْتَلَفَةٍ، وَيُتْرَجَّمُ إِلَى مُفْرَدَاتٍ عَدِيدَةٍ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، مِثْلَ العَادَاتِ، وَالسُّنَنِ، وَالرَّوَايَةِ، وَالأَدَابِ، وَالعَرَفِ، وَالتَّرَاثِ.^(١) وَعَلَى غَرَارِ ذَلِكَ، اسْتُخْدِمَتْ مُفْرَدَةُ (tradition) الْإِنْكِلِيزِيَّةُ فِي

(١) تُسْتَخْدَمُ مُفْرَدَاتُ العَادَاتِ وَالتَّقَالِيدِ، عَلَى وَجْهِ الْعُمُومِ عِنْدَ الْحَدِيثِ عَنِ المَارَسَاتِ الشَّيْعِيَّةِ أَوْ الاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي يُعْتَقَدُ فِي أَنَّ جُذُورَهَا تَمْتَدُّ عَمِيقاً فِي التَّارِيخِ. وَتَعْنِي مُفْرَدَةُ (العَادَةُ) تَحْدِيداً (سَاعُودَ إِلَى مُفْرَدَةِ التَّقْلِيدِ فِي وَقْتٍ لَاحِقٍ) فِيهَا تَعْنِيهِ "العَادَةُ وَالمَارَسَةُ وَالعُرْفُ" (هَانِز وَبِهَر، قَامُوسُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْحَدِيثَةِ) تَحْرِيرَ جَبِي مَلْتُون كُورَان، الطَّبْعَةُ الرَّابِعَةُ، أَثَاكَا: نِيُويُورْك: خِدْمَاتُ اللُّغَاتِ الْمُنْطَوِقَةِ، عَامَ ١٩٩٤ (٦٥٤). وَالمُفْرَدَةُ مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْفِعْلِ "عَادَ" بِمَعْنَى الْعُودَةِ إِلَى مُمَارَسَاتِ الْأَسْلَافِ، وَتُسْتَخْدَمُ الْمُفْرَدَةُ كَذَلِكَ مَعَ "طُقُوسٍ" جَمْعُ مُفْرَدَةٍ "طُقُسٍ" وَتَعْنِي الْفَعَالِيَّاتِ الْأَدَائِيَّةَ الْجَسَدِيَّةَ (المَصْدَرُ السَّابِقُ ٥٦٣). وَبِمَعْنَى مَا، تَمَثَّلُ مُفْرَدَةُ "العَادَاتُ" النُّسخَةُ الْعِلْمَانِيَّةُ لِسُنَّةِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ أَوْ (أَفْعَالُهُ وَتَمَارِسَاتُهُ اليَوْمِيَّةُ الْمَأْلُوفَةُ الَّتِي رَسَخَتْهَا التَّقَالِيدُ). (المَصْدَرُ السَّابِقُ ٤٣٣) بَيِّدُ أَنَّ عِلَاقَةَ الشَّيْعَةِ بِمُفْرَدَةِ "السُّنَّةِ" تَتَسَمَّ بِالتَّقْيِيدِ؛ وَلِهَذَا يُلْحَظُ اسْتِخْدَامَهُمْ مُفْرَدَاتٍ أُخْرَى مَتَى أَمَكُنَ ذَلِكَ. (يَمَكُنُ الِاسْتِشْهَادُ فِي هَذَا السِّبَاقِ بِصُلُواتِ السُّنَّةِ أَوْ إِبْتِهَالَتِهِمْ وَدَعْوَاتِهِمْ غَيْرَ الْمُلْزِمَةِ، وَلَكِنَّهَا مُسْتَحْبَّةٌ لِشِيعِ الْإِعْتِقَادِ فِي أَنَّهَا تَزِيدُ مِنْ حَسَنَاتِ الْمُسْلِمِ). وَسُنَّةُ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ وَالأَثَمَةُ الاثْنِي عَشَرَ مُتَضَمِّنَةٌ فِي الْأَحَادِيثِ أَوْ الرِّوَايَاتِ. وَتَوَلَّفَ الرِّوَايَةُ هُنَا قِصَّةٌ مَرْجِعِيَّةٌ تُسْتَنْبِطُ مِنْهَا الْمَوَاعِظُ وَالدَّرُوسُ الْأَخْلَاقِيَّةُ. وَتَتَمَيَّزُ الْأَعْرَافُ أَوْ التَّقَالِيدُ الْمُحَلِّيَّةُ. وَفَقْلاً لِلْإِمَامِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ وَتَلْمِيْذِهِ أَبِي حَنِيفَةَ النُّعْمَانِ. بِكُونِهَا لَا مَسْمُوحَا بِهَا فَحَسَبَ، بَلْ وَيَمَكُنُ فَرْضُهَا كَذَلِكَ مَا دَامَتْ لَا تَعَارِضُ مَعَ الْقُرْآنِ أَوْ الرِّوَايَةِ الْمَرْجِعِيَّةِ. وَمُفْرَدَةُ "العَرَفُ" مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْفِعْلِ "عَرَفَ" بِمَعْنَى أَنَّ "تَعْلَمَ" أَوْ "تَدْرِكُ" (المَصْدَرُ السَّابِقُ، ٦٠٥) وَهِيَ مَصْدَرُ ثَانَوِيٌّ فِي الْفَقْهِ الْحَنْفِيِّ وَالجَعْفَرِيِّ. وَتُسْتَخْدَمُ هَذِهِ الْمُفْرَدَةُ كَذَلِكَ لَوْصَفِ الزَّيْجَاتِ الَّتِي لَا يَجْرِي تَسْجِيلُهَا فِي

المؤسَّسات الأكاديميَّة النَّاظقة بهذه اللُّغة، لوصف عددٍ من الأشياء، والأشخاص، والإيديولوجيَّات المختلفة. إذ استُخدمتْ . في سبيل المثال . للحديث عن "أحاديث" النَّبيِّ مُحَمَّدٍ^(١) عليه أَفْضَلُ الصَّلَاةِ والسَّلَام. وزيادةً على ذلك، فقد جرى استخدامُ مُفْرَدَةٍ "تقليديَّين" في الحديث عن كُلِّ مِنْ (الأشاعرة) الذين يعودُ مُعتَقَدُهُمْ إلى القرنِ العاشرِ، وجاءَ بمنزلةِ ردَّةٍ فعلٍ معارِضٍ على (المعتزلة) وكذلك (الأخباريون) الذين وقفوا بالضدِّ من

المحاكم الشَّرعيَّة [المعروف على نطاق واسع بـ "الزَّواج العرفي"]. {استدراك المقوم اللُّغوي: على الرِّغم من كون العرف مصدراً للتَّشريع في الفقهِين الحنفيِّ والجعفريِّ لكن هذا المصطلح يختلف تماماً عن مصطلح السُّنَّة؛ فبينما تُعرف السُّنَّة بأنَّها ما فعله النَّبيُّ مُحَمَّدٌ أو قاله أو أقره؛ فإنَّ العرف هو ما تعارف عليه النَّاسُ. وينقسم إلى عامٍّ وخاصٍّ، وكلاهما ينقسمان إلى عرف فاسد وعرف صحيح، فالفاسد ما كان مخالفاً لأصل من أصول الشَّريعة كتعارف أهل مدينة ما على شرب الخمر، والصَّحيح كالمثال الذي أوردته المؤلِّفة في الزَّواج (العرفي) وقد سمِّي عرفاً لتعارف النَّاس على أنَّه ملزم وتترتب عليه كل آثار عقد الزَّواج؛ وإن لم يُسجَل لدى الدَّوائر الحكوميَّة}.

استدراك:

وخلافاً للمفردات في أعلاه، يكتنف مفردة "التَّقليد" الشَّيء الكثير من التَّعقيد، إذ يُلقِي ن. جي كولسن (N. J. Coulson) باللَّائمة عليها كونها تُفهم على أنَّها الالتزام الأعمى بأراء رجال الدِّين السَّابِقين، وتبعاً لذلك، فهي مسؤولَةٌ. بحسب كولسن. عن تدهور الفقه السُّنِّي وإلى حدِّ ما العالم الإسلاميِّ معه (كولسون، تاريخ الشَّريعة الإسلاميَّة) أدنبره: مطبعة جامعة أدنبره، ١٩٦٤: ١٨٢-٢٠١). وعرف هانز ويهر، في قاموسه المُعَنون بـ (قاموس اللُّغة العربيَّة الحديثة) المُفردة أنَّها (التَّقليد، والاستنساخ، والتَّبني الأعمى والمباشر للفكر والمفهُومات أو الإيمان غير النَّقديِّ (بمعنى الالتزام الحرفيِّ بما يقوله المصدر الدِّينيُّ وتبني الرَّأي الفقهيِّ للمذهب من دون مُساءلة) والجمع هو تقاليد وعادات (ويهر، قاموس اللُّغة العربيَّة الحديث، ٧٨٦). ويمثل التَّقليد، بالنَّسبة للشَّيعة، مُؤَسَّسة فقهيَّة انبعثت من رماد الامبراطوريَّة الصَّفويَّة. وبنحو فارق، وبينما ينطوي التَّقليد السُّنِّي، بحسب الكثير من الإصلاحيِّين على مضمونات سلبية، ترتبط غالباً بـ "اللاعقلانيَّة" لما يتطلَّبه من تقليد أعمى... بشرَّ الشَّيعة الأصوليون "العقلانيون" بمأسسة "التَّقليد الفقهيِّ" في القرن الثامن عشر.

(١) يُنظر في سبيل المثال، ادوارد باور، "التَّقليد في الإسلام"، دراسات: الفصليَّة النَّقدية الأيرلنديَّة، ١ العدد ١ (١٩١٢): ٨٠-٩٦.

(الأصوليين) في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وما زالوا يتمتعون بحظوة كبيرة في البحرين.

ولأهمية مفهوم التقليد في دراستي الحالية، سأنهل من السجلات والنقاشات التي شكل هذا المفهوم محورها، وسأعتمد في تناولي له على مصدرين رئيسين، هما الأسلوب الذي اتبعه (طلال أسد) في مناقشته من جهة، ومن جهة أخرى الأسلوب الذي اتبعه في توظيفه حين التعامل مع نموذج كربلاء.

تنطوي مفردة "التقليد" بحسب عالم الأنثروبولوجيا "أسد" وتلاميذه على معنى آخر يُضاف إلى ما ذكر أعلاه.^(١) ففي فكرة ل (أنثروبولوجيا الإسلام) كتب أسد مبيناً: (إذا أراد أحد كتابة أنثروبولوجيا إسلام، يتعين عليه أن ينطلق. مثلاً فعل المسلمون. من مفهوم التقليد الخطائي الذي يشمل على نصوص القرآن والأحاديث التأسيسية ويرتبط بها).^(٢) وبحسب ما أكدته (أنجم أوفمير . Anjum Ovamir) فقد تبني أسد مفهوم التقليد من الفيلسوف الاسكتلندي (السدير مكنلتير . Alasdair MacIntyre)^(٣) الذي عرّف

(١) طلال أسد (فكرة أنثروبولوجيا الإسلام) سلسلة البحوث الدورية (واشنطن: مركز الدراسات العربية المعاصر، جامعة جورج تاون، عام ١٩٨٦). وقارن مع تشارلس هيرشكايند: (المنظر الصوّقي الأخلاقي: خطب الكاسيت والفضاءات العامة المضادة للإسلامية) (نيويورك: مطبعة جامعة كاليفورنيا، عام ٢٠٠٦)؛ صبا محمد، (سياسات التقوى: الإحياء الإسلامي والذات النسوية) نيوجرسي: مطبعة جامعة برنستن، عام ٢٠٠٥).

(٢) طلال أسد، (فكرة أنثروبولوجيا الإسلام)، ١٤. وكتبت ليلي أبو لغد في مقالة لها في عام ١٩٨٩ عن إمكان استخدام صيغة الجمع هنا: (في مناطق التنظير في أنثروبولوجيا العالم العربي) دورية الأنثروبولوجيا السنوية، ١٨ (١٩٨٩): ٢٩٧.

(٣) انجم أوفمير "الإسلام بوصفه تقليداً خطائياً: طلال أسد ومحاوره" دراسات جنوب آسيا والشرق الأوسط المقارنة، ٢٧ العدد ٣ (٢٠٠٧): ٦٦١.

التقليد الحيّ بأنّه (فكرةٌ ممتدّةٌ تاريخياً ومتجسّدةٌ اجتماعياً) و (إنّما فكرةٌ تدورُ في جزءٍ منها تحديداً حول الأمور الصّالحة التي تولّف ذلك التقليد).^(١) وعلى الرّغم من إقرار "مكلنتير" بأنّ (التقليد حينما تكون حيويّة وفاعلةً، فإنّما تجسّد استمراريّة الصّراع)^(٢) إلّا أنّه ربط التقليد بالأخلاق الأرسطوطاليسيّة، وهو موقفٌ تنبّاهُ زيادةً على مكلنتير. كلّ من أسدٍ وتلاميذه وآخرين. وقد أسهمت وجهة النظر المحدّدة هذه بشأن التقليد. التي تركّز على شحذ الفضائل وترسيخها. بحسب ما يراه الفنلنديّ (سامولي شيلك. Samuli Schielke) المختصّ في الأنثروبولوجيا الإعلاميّة... أسهمت في دفع تلاميذ أسدٍ ومريديه إلى المبالغة في التوكيد على "النّاشطين الدّينيّين" (الذين يتألّفون من رجال الدّين والنّاشطين من النّاس العاديّين أمثال أعضاء جماعة الإخوان المسلمين والمتعاطفين معهم) بوصفهم الدّالات الوحيدة للتقوى والتدّين.^(٣) ولهذا تحديداً، طالب "شيلك" رجال الدّين - ابتغاء تقويم هذا المسار - بالنظر إلى ما يقع في خارج عمليّة التّغذية المنضبطة والمتنظمة للذّات الفاضلة.^(٤)

ودعوة "شيلك" هذه مهمّة للغاية! ولهذا السّبب، سارّكز - في المباحث التّالية - عليها من خلال لفّ الانتباه إلى ما أسمّيه الممارسات الشّيعيّة

(١) السدير مكلنتير (بعد الفضيلة: دراسة في النّظرية الأخلاقية) (نوتردام: مطبعة جامعة نوتردام، عام ١٩٨٤)، ٢٢٢.

(٢) المصدر ذاته.

(٣) انتقد شيلك تلاميذ أسد، وصبا محمود، وشارلس هيرشكايند على وجه الخصوص لمبالغتهم في التركيز على النّاشطين التّقين بوصفهم المقياس المعياريّ. وعادة ما يكون ثمة الكثير من المؤلّفات الأكاديميّة التي تناولت الممارسات الدّينيّة الشّيعيّة التي لا تتمحور حول هؤلاء النّاشطين. انظر سامولي شيلك (فكرٌ أخرى بشأن أنثروبولوجيا الإسلام، أو كيف نفهم المخطّطات الكبرى في الحياة اليوميّة) الأوراق البحثيّة مركز دراسات الشرق ٢ (٢٠١٠): ٤-٦.

(٤) المصدر السابق، ١.

"الكرنفالية" التي يشترك الشيعة في أدائها في مرقد السيّدة زينب بوصفها جزءاً من مجموعةٍ أوسعٍ وأشملٍ من طقوسِ النّدبِ والعزاءِ الشّائعةِ في شهر المحرم؛ مثل نصب "خيام الضيّافة" والضرب بالزّناجيل^(١) والفكرة التي أطرحها في هذه الدّراسة، هي أنّ هذه الممارّساتِ المثيرّة للجدل، أمثال الضرب بالزّناجيل والتداوي الرّوحانيّ، التي يؤدّيها الشيعة في مدينة السيّدة زينب، هي ممارّساتٌ "كرنفاليّة" بالمعنى البّاحثيّ. للكلمة، لأنّها تقفُ على الصّدّ من السّلطاتِ الدّينيّة المتماسيّة؛ وتشكّل في الوقت ذاته جزءاً منها. وتوصّف هذه الممارّساتُ زيادةً على ذلك. بكونها تقليديّةً ومتوافقةً مع تفسيرات أنموذج كربلاء السّائد،^(٢) وهي تشكّل جزءاً من تقليد أسد الخطاب في ظلّ ارتباطها بالقرآن والسّنة.

وعلى الرّغم من حديث العديد من الأنثروبولوجيّين والمؤرّخين عن الأجواء الكرنفاليّة التي تحيط بمختلف طقوس العزاء الشّيعيّة في المحرم؛ إلّا أنّ حديثهم هذا افتقر. على وجه العموم. إلى العمق والدّقّة.^(٣) يُستثنى من ذلك

(١) التّقوى الكرنفاليّة ليست هي التّقوى اليوميّة المألوفة، وهذا تحديداً ما يريد شيلك من الباحثين الاهتمام به ودراسته. إلّا أنّ الطقوس الشّيعيّة الكرنفاليّة تحظى بشعبية واسعة حتّى بين الأفراد غير المتديّنين، بالضرورة في جوانب حيواتهم الأخرى. وتبعاً لذلك، فهي لا تمثّل الممارّسات المعزّزة للذات التي يعدها شيلك "ناشطة".

(٢) بكلماتٍ مُوجزة: يقترح أنموذج كربلاء إمكانيّة تفسير طقوس شهر المحرم إمّا بوصفها "حديثّة" و"فوريّة" وإمّا "تقليديّة" و"مسالمة". انظر ديب (الحدائيّ المأسور).

(٣) جانيت أفاري وكيفن ب. اندرسون (فوكو والثّورة الإيرانيّة: الجنوسة وإغواءات الحركة الإسلاميّة) (مطبعة جامعة شيكاغو، عام ٢٠٠٥)؛ اليزابيث وارنوك فرنيا، (ضيوف الشّيخ: دراسة اثنوغرافيّة في قرية عراقية) (نيويورك: كتب أنكور، عام ١٩٦٩)؛ فرانك كوروم، (الهوسيّ في ترينداد: عروض المحرم الأدائيّة في مجتمع الشّتات الهنديّ - الكاريبي) (فيلا دلفيا: مطبعة جامعة بنسلفانيا، عام ١٩٩٤)؛ إسحاق نقاش (شيعة العراق)، (برنستن، نيوجرسي: مطبعة جامعة برنستن، عام ١٩٩٤)؛ أوغسطس ريتشارد نورتون (الطقس، والدّم، والهويّة الشّيعيّة:

دراساتُ كلِّ مِنْ (فرانك كوروم . Frank Korom) و (غوستاف ثيس Gustav Thais) اللّذينِ أظهرَا جدّيّةً وعمقاً كبيرَيْنِ في تناوُلِهما لمفهُومِ التّقْلِيدِ في تحلِيلِهما للممارّساتِ الشّيعيّةِ في شهرِ المُحرّمِ.^(١) فعلى وَفْقِ مَا ذَكَرَهُ ثيسَ تَمَنُّحُ مَوَاقِبِ الهُوَاسِي لا "الحُسَيْنِ . Hosayn" نسبةً إلى الإمامِ الحُسَيْنِ عليه السّلامُ، وهوَ الاسمُ الَّذِي يُطْلَقُ على مَوَاقِبِ العِزَاءِ في شهرِ المُحرّمِ في ترينداد... تَمَنُّحُ شِكلًا رمزيًّا لوعي الطّبقةِ العامّةِ المتنامي في المنطقةِ الكاريبيّةِ).^(٢) إذ إنّها توحّدُ الجماعاتِ الإثنيّةَ المتنوّعةَ، وتشيرُ. كونَها مَصْحُوبَةٌ بالكرنفالِ . إلى يومٍ يطبعُهُ التّأرجُحُ بطابعه: فالاحتفالاتُ، والمُنَافَساتُ، والاضطراباتُ كُلُّها مُحْتَمَلَةٌ وممكِنةٌ.

وعلى الرّغمِ مِنْ سَعْيِ السُّنّةِ الَّذينِ يُولُّفُونَ أَكثَرِيّةَ المُسلمينَ في "ترينداد" إلى تحريمِ مَوَاقِبِ الحُسَيْنِ وإقامةِ الشّعائرِ الحُسَيْنِيّةِ في العقودِ القليلةِ الماضِيّةِ؛ إلّا أنّ الحكومةَ اختارتْ حِمَايَةَ هَذِهِ الممارّسةِ، كونَها أحدُ معالِمِ الجذبِ السّياحيِّ المهمّةِ في البلادِ!

وخلافًا لترينداد، لا تَمَثِّلُ مَوَاقِبُ العِزَاءِ في المُحرّمِ في سوريا مَمارّسةً توفيقيةً ولا طبقةً عاملةً موحّدةً، بل إنّها تَمَثِّلُ منطقةَ نزاعٍ وخلافٍ بينَ عدّةِ أطرافٍ؛ مثلَ رجالِ الدّينِ الشّيعَةِ، ومراجعِ التّقْلِيدِ، والمقلّدينَ، والسّياسيينَ،

عاشوراء في النبطية، لبنان)، مجلّة الدراما ٤٩، العدد ٤ (٢٠٠٥): ١٤٠-١٥٥؛ ديفيدينو (حصان كربلاء: الحياة التّعبديّة المسلمة في الهند) (نيويورك: بالغريف، ٢٠٠١)؛ فيرنون شوبل، (العروض الأدائيّة الدّينيّة في الإسلام المعاصر: طقوس التّعبّد الشّيعيّة في جنوب آسيا) (كولومبيا: مطبعة جامعة ساوث كارولينا، عام ١٩٩٣)؛ غوستاف ثيس "طقوس المُحرّم والكرنفال في ترينداد" مجلّة المعهد الدّوليّ لدراسة الإسلام ٣ (١٩٩٩): ٣٨.

^(١) كوروم (الهوسي في ترينداد)؛ ثيس (طقوس المُحرّم والكرنفال في ترينداد).

^(٢) ثيس (طقوس المُحرّم والكرنفال في ترينداد) ٣٨.

والمُتَفَرِّجِينَ! إِذْ تَوَلَّفَ الطُّقُوسُ الكَرْنَفَالِيَّةُ مِثْلَ الضَّرْبِ بِالزَّناجِيلِ بِالنَّسْبَةِ لِرِجَالِ الدِّينِ المَعاصِرِينَ مَوْضُوعًا مَا زَالَ يَحْتَدُمُ الجَدَلُ حَوْلَهُ بَيْنَ الإِخْوَةِ الشِّيرَازِيِّينَ (نَسْبَةً لِلسَّيِّدِ حَسَنِ الشِّيرَازِيِّ المُتَوَفَّى عَامَ ١٩٨٣ م) وَآيَةِ اللَّهِ (مُحَمَّدِ الشِّيرَازِيِّ المُتَوَفَّى عَامَ ٢٠٠١ م) وَآيَةِ اللَّهِ (الصَّادِقِ الشِّيرَازِيِّ)^(١) مِنْ جِهَةٍ؛ وَآيَةِ اللَّهِ خَامِنِيِّ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى.^(٢) فَبَيْنَمَا دَعَمَ الإِخْوَةُ الشِّيرَازِيُّونَ^(٣) المَظَاهِرَ الكَرْنَفَالِيَّةَ لَطُقُوسِ العِزَاءِ فِي المُحَرَّمِ، دَأَبَ آيَةُ اللَّهِ خَامِنِيُّ فِي إِدَانَتِهَا (فِي تَقْلِيدِ مِنْهُ لآيَةِ اللَّهِ الخَمِينِيِّ) وَرَفَضَهَا.

إِنَّ مَا يَفَكِّرُ بِهِ عِلْمَاءُ الدِّينِ الشَّيْعَةِ، وَمَا يَقُولُونَهُ وَيَفْعَلُونَهُ، يَتَمَتَّعُ بِأَهَمِّيَّةٍ بَالِغَةٍ - حَتَّى فِي حَالَةِ كَوْنِهِمْ غَائِبِينَ جَسَدِيًّا - فِي ظِلِّ هَيْمَنَةِ مَفْهُومِ التَّقْلِيدِ الشَّيْعِيِّ الَّذِي يَتَعَيَّنُ عَلَى الشَّيْعَةِ بِمُوجِبِهِ تَقْلِيدُ أَحَدِ مَرَاجِعِ الدِّينِ، كَمَا سَنَرَى فِي الفَصْلِ التَّالِي.^(٤)

ويعودُ السَّبَبُ فِي أَهَمِّيَّةِ هَذَا السَّجَالِ بِشَأْنِ الجَوَانِبِ الكَرْنَفَالِيَّةِ فِي مُمَارَسَاتِ شَهْرِ المُحَرَّمِ الطُّقُوسِيَّةِ - تَحْدِيدًا - إِلَى تَأَثُّرِهِ بِالسِّيَاسَاتِ الدِّيْنِيَّةِ

(١) أسَّسَ حَسَنُ الشِّيرَازِيِّ الحِزْبَ الزَّيْنِيَّةَ لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَرْجِعًا لِلتَّقْلِيدِ قَطَّ.

(٢) فِيهَا يَتَصَلُّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ، اتَّبَعَ آيَةُ اللَّهِ الخَامِنِيُّ خَطَى آيَةِ اللَّهِ الخَمِينِيِّ.

(٣) عَلَى شَاكِلَةِ لُورَنْسِ لُوير، اسْتِخْدَمْتَ صِبْغَةَ الجَمْعِ مِنْ أَسْمَاءِ الأَخِيرَةِ (عَلَى الرَّغْمِ مِنْ اسْتِخْدَامِهَا صِبْغَةَ الجَمْعِ العَرَبِيَّةِ فِي حِينِ اسْتِخْدَامِ صِبْغَةِ الجَمْعِ الإنْكِليْزِيَّةِ بِإِضَافَةِ الحَرْفِ 'S' فِي نِهَايَةِ الأَسْمِ) لِلإِشَارَةِ لَا إِلَى الإِخْوَةِ الشِّيرَازِيِّينَ الأَرْبَعَةِ فَحَسَبَ، بَلْ إِلَى أَسْرِهِمْ وَشَبَكَاتِ عِلَاقَاتِهِمُ الاجْتِمَاعِيَّةِ كَذَلِكَ.

(٤) أُنْشِئَ مَنْصِبُ مَرْجِعِ التَّقْلِيدِ فِي القَرْنَيْنِ الثَّامِنِ وَعَشَرَ وَالتَّاسِعِ عَشَرَ فِي جِزءٍ مِنْهُ نَتِيجَةُ لِسْجَالِ عَقَائِدِي شَيْعِي حَاسِمِ بَيْنِ الأَصُولِيِّينَ (العَقْلَانِيِّينَ) وَالأَخْبَارِيِّينَ (التَّقْلِيدِيِّينَ). وَقَدْ خَرَجَ الأَصُولِيُّونَ مِنْ هَذَا السَّجَالِ مُتَصَرِّينَ، وَبَرَزَ عَلَى أَثَرِ ذَلِكَ، وَبِنَحْوِ تَدْرِيجِيٍّ، بِنَاءُ هَرَمِيٍّ مُؤَسَّسِيٍّ مُؤَلَّفٍ مِنَ العِلْمَاءِ. وَيَقِفُ عَلَى رَأْسِ هَذَا البِنَاءِ عِدَدٌ مِمَّنْ يُفْتَرَضُ أَنَّهُمْ الأَعْلَمُ الَّذِينَ يَعمَلُونَ بِوصْفِهِمْ مَرَاجِعَ تَقْلِيدٍ. وَيُطَلَبُ مِنَ الشَّيْعِيِّ العَادِي الَّذِي لَمْ يَصِلْ إِلَى مَرْتَبَةِ المَجْتَهِدِ أَنْ يَلْتَزِمَ بِتَقْلِيدِ أَحَدِ هَؤُلَاءِ المَرَاجِعِ وَاتِّبَاعِهِ.

المتغيّرة التي انتهجها الرئيسُ بشار الأسدُ في غضونِ الاثني عشرَ عاماً التي امتدّت منذُ استلامه مقاليد الحكم بعد وفاة والده حافظ الأسد (١٩٣٠ - ٢٠٠٠ م).

حرصَ والدُ بشار الأسدِ وسلفُهُ في الحكم في مطلعِ سبعينيات القرن العشرين على إقامة علاقاتٍ جيّدةٍ معَ الشَّيعةِ الاثني عشرينَ لعدّةِ أسبابٍ داخليةٍ وإقليميةٍ، إذ واجهَ الأسدُ الأبُ مُعارضةً داخليةً شديدةً تصدّرها الإخوان المسلمون الذين اتَّهموه بالخروج عن الإسلام. وفي ردِّ فعلٍ منه، استحصلَ حافظُ الأسدِ على فتوى من الإمام موسى الصدر (١٩٢٨.١٩٧٨ م) تفيدُ أنَّ العلويين هم شيعةٌ، ومن ثمَّ هم مسلمون. وتمكَّنَ الأسدُ. بفضلِ هذه الخطوة. من توطيد علاقتهِ بشيعةِ لبنان الذين قدّموا الدَّعمَ له عندما دخلَ الجيشُ السوريُّ لبنانَ تحتَ مُسمّى "قوَّاتِ حفظِ السَّلام". وحدثَ ذلكَ بالتزامنٍ معَ اضطرابِ العراقيين من أصولٍ إيرانيَّةٍ، وزعماءِ المُعارضةِ الشَّيعيةِ - ومن بينهم الشَّيرازيونَ - إلى مُغادرةِ مدينةِ كربلاء المقدَّسة. إذ سمحَ حافظُ الأسدُ لطالبي اللجوءِ السَّياسيِّ [العراقيين] بالدُّخولِ إلى سوريا والإقامة فيها بصفةِ ضيوفٍ مُؤقَّتِينَ.^(١) وكانَ قيامُ الأسدِ بذلكَ يعني عملياً دعمَهُ لمُعارضِي عدوِّهِ اللدودِ حزبِ البعثِ في العراق، والسَّماحَ لَهُ في مرحلةٍ لاحقةٍ في الدُّخولِ في تحالفٍ وثيقٍ معَ إيرانَ ما بعدَ الثَّورة؛ على الرُّغمِ من هيمنةِ رجالِ الدِّينِ على مقاليدِ الحكمِ في إيرانَ وغلبةِ الطَّابعِ العِلْمانيِّ. اسمياً. على الحكمِ في سوريا.

وسارَ بشارُ الأسدُ (١٩٦٥ م) في السَّنينِ الأولى من استلامه مقاليد الحكم في سورياً على خطى والده، إذ رَحَّبَتِ سورياً واحتضنتْ مئاتِ الآلافِ من

(١) لم يحصل هؤلاء على المواطنة السوريّة حتّى الآن.

العراقيين الذين فروا من العراق الذي مزقته الاضطرابات بعد دخول الأمريكان واندلاع أعمال العنف والقتال بعد عام (٢٠٠٣ م) ومنحتهم صفة زائرين مؤقتين. إلا أن النمو المفاجئ للمجتمع المحلي الاثني عشري وتنوعه في سوريا؛ أسفراً عن صراعات كذلك! إذ شهدت هذه المرحلة، خصوصاً بعد افتتاح عددٍ من رجال الدين المكاتب والحوزات العلمية في مدينة السيّد زينب... شهدت تعزُّز حضور القائد الإيراني الأعلى آية الله عليّ خامنئي الذي يتولّى إدارة حوزة الإمام الخميني، وهي واحدة من أكثر الحوزات شهرةً ومكانةً في مدينة السيّد زينب ومعهُ (حزب الله).^(١) وترجم هذا الحضور في جانب آخر بادّ للعيان، إذ أسهمت الأموال الإيرانية التي تدفقت على المرقد في المباشرة بحملة لتوسيعه وتجديده، ووصل الأمر حدّ قراءة ممثلي آية الله الخامنئي خطاب الجمعة باسمه.^(٢)

وكان لآية الله الخميني سلف آية الله الخامنئي علاقات وطيدة تربطه بمحمّد الشيرازي، ومع الشيرازيين. على وجه العموم. وقد كتبت المؤرّخة (لورنس لوير . Laurence Louër) عن ذلك تقول: إنّه حينما وصل الخميني إلى النجف - منفياً من إيران - في عام (١٩٦٤ م) ليؤسّس لنفسه ويدعم موقعه، كان محمّد الشيرازي رجل الدين الوحيد الذي رحّب به، ولم

(١) حدث ذلك. في سبيل المثال، من خلال ترميم المرقد وادعاء حيازته. وزيادة على ذلك، ثمة في المرقد مكتب للاستشارات الشرعية والفقهية، وهو مكان يأتي إليه الشيعة للاستفسار عن المسائل الشرعية والحصول على أجوبة على وفق منهج آية الله الخامنئي (لكل مرجع تقليد رسالة فقهية يعتمد عليها مقلدوه).

(٢) حاولت الحكومة السورية في عام ٢٠٠٧، التأي بنفسها عن إيران، إذ زار بشّار الأسد المملكة العربية السعودية، وكان من نتيجة هذه الزيارة، أن حدّدت الحكومة السورية المنطقة التي تُمارس فيها الطقوس العاشورائية، وذلك في الشارع الرئيس في مدينة السيّد زينب حصراً.

يكتف بذلك، بل حاول في عام (١٩٧٨ م) مساعدته في التوجه إلى الكويت؛ عندما أُجبر الأخير - أي الخميني - على مغادرة العراق. ^(١) وعلى الرغم من اتفاق الخميني والشيرازي على الرأي الذي يقول: إنه في ظل غياب الإمام المهدي المنتظر، يتعين على رجال الدين الشيعة تولي مسؤولية الحكم، إلا أنهما اختلفا بشأن من يحكم؟ وكيف يحكم؟. فبينما جهد الخميني في تحقيق مفهوم "ولاية الفقيه" فضل الشيرازي ما يُعرف بمجلس شورى الفقهاء.

وعلى الرغم من هذه التوافقات الجزئية، فإنه بحلول مطلع ثمانينيات القرن العشرين، أضحى الخلاف بين الخميني والشيرازي واضحاً لا يخفى على أحد، إذ انصب اهتمام الخميني وجهوده على القضايا الإيرانية الداخلية؛ في حين حافظ الشيرازي على موقعه الدولي والثوري، واضعاً قدماً في بريطانيا وأخرى في قم؛ ^(٢) ثم تفاقم مسلسل الخلاف مع الشيرازيين واستمرت معاناتهم من الإفصاء والتهميش حتى بعد وفاة آية الله الخميني؛ إلى أن بلغ الأمر حد إلقاء القبض على اثنين من أبناء الشيرازي وتعذيبهما في عهد خلفه آية الله الخميني، وذلك في منتصف تسعينات القرن العشرين. ^(٣) ومنذ ذلك الحين تحولت الخلافات بين الطرفين إلى عداوة مريرة وعلنية، قضى محمد الشيرازي على أثرها السنين الأخيرة من حياته تحت الإقامة الجبرية في منزله في قم، ومنعت السلطات الحكومية عند موته دفنه في حديقة منزله لئلا يتحوّل إلى

(١) لورنس لويز (السياسات الشيعة العابرة للقوميات) (نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا، عام ٢٠٠٨) ١٨٧.

(٢) اختلف الشيرازيون مع الخميني بشأن الحرب العراقية - الإيرانية. انظر لويز (السياسات الشيعة العابرة للقوميات) ١٩٠.

(٣) المصدر السابق.

محج ومكان للعبادة؛ ولم تقف السلطات عند هذا الحد، بل أجبرت أتباعه على دفعه في مرقد فاطمة المعصومة في قم،^(١) حيث دفن أخوه وغيرهما من رجال الدين.

تلت هذه الحوادث أحداث مؤلمة أخرى، إذ نظمت نساء من عائلة الشيرازي حفل عزاء في عام (٢٠٠٥ م) بمناسبة مرور عام على وفاة آية الله محمد الشيرازي. إلا أن السلطات [الإيرانية] تدخلت وألقت القبض على عدد منهم وضربتهم؛^(٢) ونشر مجتبي شيرازي، الأخ الأصغر لمحمد الذي يقيم في لندن. في أعقاب هذه الحادثة فلما تصويرياً في أحد المواقع الالكترونية صورته وهو يلعن بأسلوب طقوسي (الخامنتي) لمسؤوليته عن تجريد نساء الشيرازي من حجاباتهن وضربهن.^(٣) وما بهم هنا ويلفت النظر، هو تعرض الشيرازيين إلى التهميش، وحتى تكميم الأفواه في كل من إيران والعراق، ولم يتمكن الشيرازيون في ظل حكم صدام حسين ولا بعد سقوطه من استعادة مكانتهم بعد أن فقدوا أكثرية أتباعهم في الداخل في الثلاثين عاماً التي غابوا فيها عن

(١) فاطمة المعصومة. بنت الإمام موسى بن جعفر الكاظم أخت الإمام علي بن موسى. ولدت في المدينة المنورة عام (١٧٣هـ) وتوفيت ودفنت في مدينة قم عام (٢٠١هـ). وللشيعة اعتقاد قوي بفضلها ومكانتها. ولها مزار كبير في قم يقصده ملايين الشيعة في العالم. ومما روي عن جعفر الصادق قوله: إن لله حرماً وهو مكة، وإن للرسول حرماً وهو المدينة، وإن لأمر المؤمنين علي بن أبي طالب. حرماً وهو الكوفة، وإن لنا حرماً وهو بلدة قم، وستدفن فيها امرأة من أولادي تسمى فاطمة، فمن زارها وجبت له الجنة. (المقوم اللغوي).

(٢) السياسات الشيعة العابرة للقوميات، ١٩٠.

(٣) لعن مجتبي الشيرازي الخامنتي بأسلوب طقوسي قلد فيه أسلوب لعن الصحابة المعروف لدى الشيعة. شاهد الفيلم المعلنون بـ (رسالة من الإمام الشيرازي إلى الإمام الخامنتي)

http://www.dailymotion.com/video/xcu0cc_message-from-

(imam-shirazi-to-imam_shortfilms)، في الثالث عشر من آب عام ٢٠١١.

المشهد المحلي؛ وسورياً هي الاستثناء من ذلك، فهي المكان الوحيد الذي احتفظ فيه الشيَرازيونَ بقدرتهم على الترويج لفكرهم، وثمة من يرجح أنهم سيفقدون موطنهم القدم هذا في حال سقوط الأسد حيث يُقال: إنهم يحظون بدعمه.

ويتمتع الخلاف بين الحامتيّ والشيَرازيين بأهمية بالغة في سياق التعاطي مع موضوع الشيعة الاثني عشريين في مدينة السيّدة زينب، وذلك لسبب واضح رئيس هو حضور الطرفين كليهما ونشاطهما في المشهد المحلي العام، لجهة إدارتهم بعضاً من المؤسسات المحليّة ووجود ممثلين عنهم في بعضها الآخر؛ على الرغم من عدم اشتراكهم اشتراكاً مباشراً في السلطة أو في إدارة شؤون البلاد.^(١) ومثلما سيتبين أدناه، فقد تحوّلت ممارسات شهر المحرم وخطاباته الشعبيّة ميداناً للنزاع على السلطتين الدينيّة والدنيويّة، وأرى أن هذا النزاع أسهم - في مدينة السيّدة زينب تحديداً - في تعزيز فرص تقديم العروض الأدائيّة السنويّة لطقوس الندب والعزاء الكرنفاليّة.

ولكنّ ما الذي أعنيه بقولي: إنّ الشيَرازيين يدعمون الطُّقوس الكرنفاليّة؟ على الرغم من أنّهم - وهذا هو المرجح - لم ولن - يصفوا هذه الممارسات بـ "الكرنفاليّة" قطّ.

أرى أنّ "الكرنفاليّ" في واقع الأمر، هو الوصف الأمثل والأكثر تعبيراً لطقوس الضرب بالزناجيل التي يراها الشيَرازيون لسبيين:^(٢) أوّلها هو

(١) يتنافسان كلاهما لنيل رضا الحكومة السوريّة.

(٢) مثلما أوضح ريتشارد ششنر، كتب ميخائيل باختين عن الكرنفاليّ وهو يحمل في ذهنه مجتمعا محدداً ومُستقراً وغير ديمقراطيّ. وعند دراسة الكرنفالات الأخرى الأكثر مُعاصرة، ينبغي التنبّه - على وفق ششنر - إلى خصائصها التاريخيّة والاجتماعيّة والسياسيّة. يُنظر ريتشارد ششنر

دورها في التذكير بصورة "باختين" الكرنفالية، وثانيهما دورها في تقويض السلطة والولاية الدينية المتعارف عليها.

إن الخلاف الفقهي بين خامنئي والشيرازيين في مدينة السيّدة زينب ليس هو السبب الوحيد الذي يذكي نار الممارسات المثيرة للجدل مثل الضرب بالزنّاجيل؛ فبعد سقوط صدام حسين في عام (٢٠٠٣ م). وكان قد منع إقامة مواكب العزاء في سنيّ حكمه. اندفع الشيعة نحو أداء الأشكال الدّمويّة من التطبير والضرب بالزنّاجيل في المدن العراقيّة المقدّسة كافّة، وكذلك في مقام السيّدة زينب. وعلى الرغم من هذه الاندفاعيّة الكبيرة والحماس المفرط في السنين القليلة التي أعقبت عام (٢٠٠٣ م) شهد عدد ضاربي الزنّاجيل والزوّار في مدينة السيّدة زينب، بحلول عام (٢٠٠٨ م) انخفاضاً كبيراً، ولم يتبقّ في العام التالي سوى عدد قليل من الموكب ومن مجموعات ضاربي الزنّاجيل الذين يؤدّون الطقوس علناً؛ على الرغم من أن بعضهم أخبرني أن هذه هي أوّل مرّة يشارك في هذا الطقس.

بيّنت "آمال" وهي فلسطينيّة سنّية تحوّلت مؤخراً إلى المذهب الشيعي، ومتزوّجة من طالب حوزة وتاجر من جنوب آسيا، أن السبب في امتناع ما يقارب اثني عشر من رفاق زوجها عن المشاركة في طقس التطبير. وهو أحد أشكال ضرب الرأس الدّمويّة. قد يعود إلى اختيارهم اتّباع آية الله الخامنئي مرجعاً للتقليد. إلا أن موقفهم هذا لم يدم! فبعد الانتخابات الإيرانيّة في عام (٢٠٠٩ م) وشعورهم بالاستياء من القادة الإيرانيين، شارك هؤلاء الرجال

"نظريّة الكرنفال بعد باختين" في (الكرنفال: الثقافة العمليّة: تجربة ترينداد) تحرير ميلا كوزارت ريغيو (نيويورك: روتلج، عام ٢٠٠٤) ٣.

الشَّيْعَةُ فِي مَوَاقِبِ التَّطْبِيرِ فِي مَدِينَةِ السَّيِّدَةِ زَيْنَب. ^(١) وَمِنْ خِلَالِ الْإِشْتِرَاكِ فِي فِعْلِ التَّطْبِيرِ، يَكُونُ هَؤُلَاءِ الرِّجَالُ قَدْ تَرَجَّمُوا احْتِجَاجَهُمْ وَرَفَضَهُمْ بِأَسْلُوبِ طُقُوسِيٍّ عَمَلِيٍّ وَنَقَشُوهُ عَلَى أَجْسَامِهِمْ. ^(٢) وَهَكَذَا، تَحَوَّلَ الضَّرْبُ بِالزَّنَاجِيلِ إِلَى مِيدَانٍ تَتَصَارَعُ فِيهِ السُّلْطَةُ وَالتَّقْوَى الدِّينِيَّةُ الشَّيْعِيَّتَانِ فِي الْمُسْتَوَاتِ الْمَحَلِّيَّةِ، وَالْفَرْدِيَّةِ، وَالْجَمَاعِيَّةِ، وَكَذَلِكَ الدَّوْلِيَّةِ، وَالْمُؤَسَّسَاتِيَّةِ كَافَّةً.

وَتَمْتَعُ السِّيَاسَاتُ وَالْعِلَاقَاتُ الْمُؤَسَّسَاتِيَّةُ بَيْنَ رِجَالِ الدِّينِ بِأَهْمِيَّةٍ بَالِغَةٍ فِي ظِلِّ تَشْكِيلِهَا الْعُمُودَ الْفَقْرِيَّ لِهَذِهِ الدِّرَاسَةِ الَّتِي تَرَكَّزَ عَلَى مَضْمُونَاتِ سَجَلَاتِهِمُ الْفَقْهِيَّةِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ وَأَبْعَادِهَا الْمَحَلِّيَّةِ. وَمَا أَعْنِيهِ بِ"الْمَضْمُونَاتِ الْمَحَلِّيَّةِ" هُوَ التَّأَثُّرَاتُ الَّتِي تَمَارَسُهَا الصَّرَاعَاتُ وَالتَّحَالِفَاتُ الدِّينِيَّةُ فِي الْحَوَازِ الْعِلْمِيَّةِ - خُصُوصًا النِّسَائِيَّةُ مِنْهَا - وَكَذَلِكَ فِي جُمْلَةٍ مِنَ الْجَوَانِبِ الْأُخْرَى ذَاتِ الصَّلَةِ؛ مِنْ مِثْلِ طَبِيعَةِ الْمَوْضُوعَاتِ الَّتِي تَدْرُسُهَا النِّسَاءُ فِي الصُّفُوفِ الْحَوَزَوِيَّةِ، وَالطُّقُوسِ الَّتِي يُوَدِّيها الرِّجَالُ عَلَنًا فِي شَهْرِ الْمُحَرَّمِ. ^(٣)

وَكَمَا أَسْلَفْنَا، تَعْتَمِدُ الْبَيَانَاتُ الْأَنْثَوِغَرَفِيَّةُ فِي هَذِهِ الدِّرَاسَةِ بِنَحْوِ رَئِيسٍ عَلَى الْعَمَلِ الْحَقْلِيِّ الَّذِي أَجْرِيتهُ فِي سُورِيَا، حَيْثُ شَارَكْتُ فِي الصُّفُوفِ الدِّرَاسِيَّةِ الَّتِي تَنْظُمُهَا الْحَوَازُ الدِّينِيَّةُ، وَحَضَرْتُ مَجَالِسَ وَمَوَاقِبِ الْعِزَاءِ النِّسَوِيَّةِ الشَّيْعِيَّةِ الْعَلَنِيَّةِ وَالْخَاصَّةِ لِمُدَّةٍ تَجَاوَزَتْ ثَلَاثَةَ عَشَرَ شَهْرًا بَيْنَ عَامَيِ (٢٠٠٧ م) وَ (٢٠٠٩ م). وَزِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ، فَقَدْ أُجْرِيَتْ مُقَابَلَاتٌ مُعَمَّقَةٌ

(١) مَلْحُوظَاتُ حَقْلِيَّةٍ، الْاِثْنَيْنِ، ٢٨ كَانُونِ الْأَوَّلِ عَامِ ٢٠٠٩.

(٢) مِيشِيلُ دِي سِيرْتُو "اِقْتِصَادُ النَّصِّ الدِّينِيِّ" فِي (تَمَارَسَةِ الْحَيَاةِ الْيَوْمِيَّةِ) تَرْجَمَهُ عَنِ الْفَرَنْسِيَّةِ سِتِفِينُ رِنْدَالُ (بِيرَكْلِي: مَطْبَعَةُ جَامِعَةِ كَالِيفُورْنِيَا، عَامِ ١٩٨٤) ١٤٦.

(٣) يَعُودُ السَّبَبُ فِي تَرْكِيزِي عَلَى أَحْيَازِ النِّسَاءِ وَطُقُوسِهِنَّ تَحْدِيدًا إِلَى كُونِي امْرَأَةٍ وَالْمَحَاوِرِينَ الَّذِينَ تَمَكَّنَتْ مِنَ التَّحَدُّثِ مَعَهُمْ كَانُوا مِنَ النِّسَاءِ.

وَمُكْتَفَةً مَعَ عِدَدٍ مِنْ زَمِيلَاتِي فِي الْحَوْزَةِ وَخُصُوصاً "أَمَالُ" وَ "أُمُّ أَنْسٍ" وَهِيَ أَرْمَلَةٌ عِرَاقِيَّةٌ وَطَالِبَةٌ لَجُوءٍ، وَتَحَدَّثُ طَوِيلاً مَعَ الْمُدْرَسَاتِ فِي الْحَوْزَةِ، أَوْ الْمَلَايَاتِ اللَّائِي تَتَزَعَّمْنَ قِيَادَةَ مَوَاقِبِ الْعِزَاءِ فِي الْأَمَاكِنِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ؛ زِيَادَةً عَلَى غَيْرِهِنَّ مِنَ النِّسَاءِ، مِثْلَ الْعَجَائِزِ وَالْأَمَهَاتِ ذَوَاتِ الْأَطْفَالِ اللَّائِي يَكْتَفِينَ بِحُضُورِ مَجَالِسِ وَمَوَاقِبِ الْعِزَاءِ، وَلَا يُؤَدِّينَ أَيْةَ وَظَائِفَ دِينِيَّةٍ مُمَيَّزَةٍ أُخْرَى. وَحَرَضْتُ - زِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ - عَلَى الْإِسْتِمْرَارِ فِي الْحَدِيثِ وَالتَّوَاصُلِ الْيَوْمِيِّ مَعَ اثْنَتَيْنِ مِنَ الْعَائِلَاتِ السُّنِّيَّةِ وَطَبِيعَتَيْنِ رُوحَانِيَّتَيْنِ، هُمَا الشَّيْخُ أَبُو عَلِيٍّ، وَأَبُو حَيْدَرٍ، اللَّذَانِ يَعْمَلَانِ فِي أَحَدِ مَحَالِّ الْعِطَارَةِ فِي مَدِينَةِ السَّبَّةِ زَيْنَبَ. وَإِلَى جَانِبِ التَّحَدُّثِ إِلَى النَّاسِ وَالِدِّرَاسَةِ فِي الْحَوْزَاتِ وَالْحُضُورِ الْمُنْتَظَمِ لِمَوَاقِبِ الْعِزَاءِ؛ حَرَضْتُ عَلَى جَمْعِ الْمَصَادِرِ وَالْأَدَبِيَّاتِ الْمُتَوَفَّرَةِ فِي الْمُنَاطِقَةِ عَنْ هَذِهِ الْمَوَاقِبِ وَالْمُنَاسَبَاتِ الدِّينِيَّةِ؛ وَغَنَيْتُ عَنِ الْبَيَانِ اشْتِمَالُ ذَلِكَ عَلَى بَعْضٍ مِنَ الْمَهَارَسَاتِ الْمُثِيرَةِ لِلجَدَلِ أَمْثَالُ التَّطْبِيرِ. وَدَرَسْتُ - بِالِاسْتِنَادِ إِلَى هَذِهِ الْأَدَبِيَّاتِ وَالْمَصَادِرِ - الْخُطَابَاتِ وَالْمَهَارَسَاتِ بِأَنْوَاعِهَا الْخَاصَّةِ، وَالْأَدَبِيَّةِ، وَالْمُؤَسَّسَاتِيَّةِ الْمَعْنِيَّةِ بِقَضَايَا التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ، وَالتَّشْشِئَةِ، وَطَقُوسِ الْعِزَاءِ، وَالتَّداوِيِ الرُّوْحَانِيَّ. وَنَظَرْتُ فِي الدَّوَرِ الَّذِي تَضَطَّلُ بِهِ هَذِهِ الْفِكْرُ فِي صَوْغِ مَفْهُومَاتِ الْوِلَايَةِ، وَالذَّاتِ، وَالْآخِرِ، وَعِلَاقَاتِ الْفَرْدِ وَمَسْئُولِيَّاتِهِ، وَالتَّقْوَى وَالتَّدِينِ، وَالْعَقْلَانِيَّةِ.

وَعَلَى الرُّغْمِ مِنْ أَهَمِّيَّةِ هَذِهِ الْجَوَانِبِ وَمَوْقِعِهَا الْمَحْوَرِيِّ، إِلَّا أَنَّهُ ثَمَّةَ جَانِبٍ آخَرَ حَظِي بِحَصَّةِ الْأَسَدِ مِنْ اِهْتِمَامِي، هُوَ كَيْفَ يَفَكِّرُ الْأَفْرَادُ الَّذِينَ تَحَدَّثْتُ إِلَيْهِمْ بِمَفْهُومِ التَّقْلِيدِ؟ وَكَيْفَ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ؟ وَكَيْفَ تَتَعَامَلُ مَعَهُ الْمَصَادِرُ الدِّينِيَّةُ الَّتِي قَرَأْتُهَا؟ هَذَا مَا سَنَحَاوُلُ الْإِجَابَةَ عَنْهُ فِي الْمَبَاحِثِ التَّالِيَةِ.

السَّيِّدَةُ زَيْنَبُ: هَيْتُوتُوبِيَا التَّقْلِيدِ: ^(١)

كَانَ الْقَرْنُ الثَّاسِعَ عَشَرَ، بِحَسَبِ الْمَفْكَرِ الْفَرَنْسِيِّ (مِشِيلُ فُوكُو Michel Foucault) قَرْنُ "التَّارِيخِ" فِي حِينِ مِثْلٍ خَلَفَهُ الْقَرْنُ الْعَشْرُونَ قَرْنُ "الأَحْيَايزِ" أَوْ "الْأَيْنِيَّةِ" ^(٢) حَيْثُ نَعِيشُ؛ يَسْتَأْنَفُ فُوكُو قَائِلًا: (فِي عَضْرِ الْمَجَاوِزَةِ، عَضْرِ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ، عَضْرِ الـ "جَنْبًا إِلَى جَنْبٍ" عَضْرِ الْمُشْتَتِّ، عَضْرِ لَمْ تُعَدِّ فِيهِ خَبَرَتُنَا بِهَذَا الْعَالَمِ هِيَ خَبَرَةُ الْحَيَاةِ الطَّوِيلَةِ الَّتِي تَتَطَوَّرُ مِنْ خِلَالِ الزَّمَنِ بِقَدْرِ مَا هِيَ خَبَرَةُ الشَّبَكَةِ الَّتِي تَرِبُّ النُّقَاطَ وَتَتَقَاطَعُ مِنْ خِلَالِ سَطْحِهَا). ^(٣) وَيُظْهَرُ جَلِيًّا اهْتِمَامُ "فُوكُو" بِنُوعَيْنِ خَاصَّيْنِ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَمَاكِنِ الَّتِي كَانَتْ مَوْجُودَةً فِي الْحَقَبَةِ مَا قَبْلَ الْحَدِيثَةِ؛ وَالَّتِي اكْتَسَبَتْ مَعَانَ جَدِيدَةً فِي الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ.

الْمَكَانُ الْأَوَّلُ هُوَ "الْيُوتُوبِيَا" أَوْ (الْمَدِينَةُ الْفَاضِلَةُ) الَّتِي لَيْسَ ثَمَّةَ شَكٍّ فِي عَدَمِ وَجُودِهَا.

(١) انْتِبَازُ فُضَائِيٍّ أَوْ (الْهَيْتُوتُوبِيَا . Heterotopia) هُوَ مَفْهُومٌ فِي الْجُغْرَافِيَّةِ الْبَشَرِيَّةِ وَضَعَهُ الْفِيلَسُوفُ الْفَرَنْسِيُّ مِشِيلُ فُوكُو لَوْصِفِ الْأَمَاكِنِ وَالْمَسَاحَاتِ الَّتِي تَعْمَلُ بِمَعْزَلٍ عَنْ هَيْمَنَةِ الظُّرُوفِ. هَذِهِ هِيَ فُضَاءَاتُ الْآخَرِ، الَّتِي هِيَ لَا هُنَا وَلَا هُنَاكَ، وَلَكِنَّهَا فِي الْوَقْتِ ذَاتَهُ مَادِّيَّةٌ وَعَقْلِيَّةٌ، مِثْلُ فُضَاءَاتِ الْمَكَالِمَةِ الْهَاتِفِيَّةِ أَوْ اللَّحْظَةِ الَّتِي عِنْدَهَا تَرَى نَفْسَكَ فِي الْمَرَاةِ. طَوَّرَ فُوكُو هَذَا الْمَفْهُومَ فِي دِرَاسَتِهِ (أَحْيَايزُ أُخْرَى) حَيْثُ تَحَدَّثُ عَنْ مُخْطَطَاتِ الْمَدَنِ وَجُغْرَافِيَّةِ الْمَلَاجِئِ، وَالْمُسْتَشْفَيَاتِ، وَدُورِ الرَّعَايَةِ، وَالسَّجُونِ، وَالْمَكْتَبَاتِ، بَلْ وَحَتَّى الْحِمَامَاتِ، وَبُيُوتِ الدَّعَاةِ! وَيُظْهَرُ الْبَعْدَ الْمَكَانِيَّ فِي مَشْرُوعِ فُوكُو أَيْضًا فِي مُعَالَجَتِهِ لِعَزْلِ مَرْضَى الْبَرَصِ وَالْجَذَامِ وَعَزْلِ الْمَدْنِ الْمُصَابَةِ بِالطَّاعُونِ. (الْمُتَرَجِمَةُ).

(٢) مِشِيلُ فُوكُو (عَنِ الْأَحْيَايزِ الْآخَرَى) (١٩٦٧) تَرْجَمَهُ عَنِ الْفَرَنْسِيَّةِ جِي مَسْكُووي

http://www.opa-a2a.org/dissenus/wp-content/uploads/2008/03/foucault_michel_des_spaces_aures.pdf

فِي الثَّلَاثِ عَشَرَ مِنْ آبِ عَامِ ٢٠١١.

(٣) الْمَصْدَرُ السَّابِقُ، ١.

أما المكان الثاني الذي يوجد فعلاً - ولكنه يقف على الضد من الأول - فهو "الانتباز الفضائي" أو (الهيتروتوبيا . heterotopia). وقد ساق فوكو ابتغاء التّديل على فكرته عدداً من الأمثلة؛ منها المقابر، والحدائق، والمتاحف، والمكتبات، وبيوت الدّعارة التي تحوّر . بحسب فوكو . بنحوٍ يثير الفضول ويلفت الانتباه . (خاصية التّعالق مع المواقع الأخرى جميعاً، خاصية تشكّل بطريقة تدفع إلى الشك والتّحيد أو قلب مجموعة العلاقات التي توافق إسهام هذه المواقع / الأحياز المكانية في تحديدها وعكسها أو تجسيدها).^(١)

والفكرة الرئيسيّة التي تطرحها الدّارسة الحاليّة، هي تمثيل مرقد السيّدة زينب هذه الهيتروتوبيا الفوكويّة، فالمرقد مكان "تقليدي" لجهة تخليده التاريخ واحتفائه بالتّقليد، ولكنه . على شاكلة المتحف . لا يجوز تاريخاً ضارباً في القدم، ويلف . على غرار دمشق حيزاً مكانياً يرتبط بالمقدّس والدين السّلطة.^(٢)

وتعكس مدينة دمشق كذلك، وتجنّد المدينة الأمويّة الإمبرياليّة التي تمثّل الآخر المناقض لها، فدمشق هي مدينة المواطنين السّوريين؛ في حين تمثّل مدينة السيّدة زينب مدينة اللاّجئين الذين لا يتّمنون إلى دولة، زيادةً على طالبي اللّجوء، والسّائحين الدّينيين . ودمشق مدينة سنّية معتدلة ومستقرّة وحديثة مقابل مدينة السيّدة زينب الشّيعيّة المتطرّفة والمتغيّرة باستمرار؛ والتّقليديّة وما بعد الحداثيّة في الآن عينه . ويمكن القول تأسيساً على ذلك: إنّهُ بينما تنظر دمشق إلى الغرب وتّجه نحوه، تنظر (المدينة / المرقد) نحو الشرق، لا سيّما العراق وإيران! وقد قارن الأصدقاء والمحاورون الدّمشقيّون الذين يعيشون

(١) المصدر ذاته، ٢.

(٢) فوكو (عن الأحياز الأخرى) (١٩٦٧).

في مدينة السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ وَمَيَّزُوا بَيْنَ الْمَدِينَتَيْنِ / الْحَيَزَيْنِ الْمَكَانِيَيْنِ دِينِيًّا وَقَانُونِيًّا
وَجَمَالِيًّا.^(١)

إِنَّ النَّظَرَ إِلَى دَمَشَقَ كَوْنَهَا مَدِينَةً حَدِيثَةً مُقَابَلِ تَمَثِيلِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ مَدِينَةً
"تَقْلِيدِيَّةً" يَنْطَوِي عَلَى مُفَارَقَةٍ كَبِيرَةٍ هُنَا! إِذْ تَزْعُمُ دَمَشَقُ أَنَّهَا مَدِينَةٌ مُوَعَّلَةٌ فِي
الْقَدَمِ يَمْتَدُّ تَارِيخُهَا إِلَى ثَلَاثَةِ آلَافٍ وَخَمْسِ مِئَةٍ عَامٍ فِي حِينِ يَعُودُ تَأْسِيسُ مَدِينَةِ
السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ إِلَى الْعَامِ (١٩٤٨ م) فَحَسَبُ، حَيْثُ كَانَتْ جُزْءًا مِنْ سِلْسِلَةٍ مِنْ
مُعَسَّكَرَاتِ الْأَلَاغِيَيْنِ الْفِلَسْطِينِيِّينَ الَّذِينَ كَانُوا يَحِيطُونَ بِدَمَشَقَ مِنْ جِهَةِ
الْجَنُوبِ.

وَيَقَعُ مُعَسَّكُرُ (السَّتِ زَيْنَبَ) الْفِلَسْطِينِيَّ جُغْرَافِيًّا حَتَّى هَذَا الْوَقْتُ إِلَى
الْغَرْبِ مِنَ الْمَرْقَدِ، وَيَمْتَدُّ مِنْ هُنَاكَ لِيَشْتَمِلَ عَلَى عِدَدٍ مِنَ الْقَرْىِ الصَّغِيرَةِ، وَهُوَ
خَاضِعٌ لِلْأَوْنَرِ وَكَالَةِ الْأُمَمِ الْمُتَّحِدَةِ لِإِغَاثَةِ وَتَشْغِيلِ الْأَلَاغِيَيْنِ الْفِلَسْطِينِيِّينَ فِي
الشَّرْقِ الْأَدْنَى الَّتِي تَأَسَّسَتْ لِتَقْدِيمِ الْمُسَاعَدَاتِ لَهُمْ فِي بُلْدَانٍ مِثْلَ لُبْنَانَ
وَسُورِيَا، وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ الْمَدَارِسَ وَالْمُسْتَشْفِيَاتِ الَّتِي تَتَوَلَّى الْوَزَارَاتُ السُّورِيَّةُ
مَهْمَاتِ إِدَارَتِهَا فِي الْأَمَاكِنِ الْأُخْرَى، تَخْضَعُ لِإِشْرَافِ هَذِهِ الْوَكَالَةِ الَّتِي لَا
يُمْكِنُهَا. عَلَى شَاكِلَةِ الْوَكَالَاتِ الْأُخْرَى التَّابِعَةِ لِلْأُمَمِ الْمُتَّحِدَةِ. أَنْ تَعْمَلَ دَاخِلَ
الْمَنَاطِقِ الْمُحَلِّيَّةِ إِلَّا بِالتَّنْسِيقِ مَعَ الْحُكُومَةِ السُّورِيَّةِ، وَيَحْصُلُ بَعْضُ مِنَ

(١) يَرْفُضُ الدَّمَشَقِيُّونَ عَلَى وَجْهِ الْعُمُومِ زِيَارَتِي فِي السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ مَعْلَلِينَ ذَلِكَ بِانْتِشَارِ الْجَرِيمَةِ
وَعَدَمِ الْأَمَانِ وَوُجُودِ الشُّبُعَةِ. قَارَنَ مَعَ أَدْثِ زَانَتُو، (الْمُحَرَّمِ فِي السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ وَحُوهَا) فِي مَجْلَةِ
جَمْعِيَّةِ الدِّرَاسَاتِ السُّورِيَّةِ ١٣٣ الْعِدَدِ ١ (٢٠٠٧): ٤-٥. وَزِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ، يُوَازِي وَضْعَ مَدِينَةِ
السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ. بِطَرِيقَةٍ مَا. حَالَةٌ / حِيزِ الْإِقْصَاءِ الَّتِي تَحْدُثُ عَنْهُ آغَامِيَيْنَ. يُنْظَرُ جِيُورْجُو آغَامِيَيْنَ،
(حَالَةُ الْإِسْتِنَاءِ: الْإِنْسَانُ الْحَرَامُ: السِّيَادَةُ وَالسَّلْطَةُ وَالْحَيَاةُ الْمُجَرَّدَةُ) تَرْجَمَهُ عَنِ الْإِيطَالِيَّةِ دَانِيَلِ
هَيْلِر- رَوَازِنَ، وَتَرْجَمَهُ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ د. نَاصِرُ إِسْمَاعِيلَ عَنْ دَارِ "مَدَارَاتِ لِلْأَبْحَاثِ وَالنَّشْرِ"
(سِتَانْفُورْدُ: مَطْبَعَةُ جَامِعَةِ سِتَانْفُورْدِ، عَامَ ١٩٩٨).

الفلسطينيين الذين ينتمي أكثرهم إلى الطبقتين الدنيا أو المتوسطة - الدنيا على مخصصات شهرية من هذه الوكالة، ويعيش العديد منهم في منازل مُشيدة على الطراز العربي، لم يجر تقسيمها إلى شقق منفصلة في كل طابق، وبالإمكان توسيعها أفقياً في حال توسع العائلة بعد زواج الأبناء وإنجاب الأولاد.

وكما هو معلوم، فقد شهد وجود الفلسطينيين في سوريا - كما في غيرها من المناطق العربية - تحولات وتغيرات عديدة تبعاً للظروف والمستجدات السياسية. إذ أسفرت عملية إخلاء الجانب السوري من مرتفعات الجولان في عام (١٩٦٧ م). في سبيل المثال. عن موجة أخرى من "المهجرين الداخلين" الذين استقر الكثير منهم إلى الشمال من معسكر (السّت زينب) الفلسطيني الذي يقع إلى الغرب من المرقد، ويشكل السّنة المسلمون على الرغم من وجود عدد من الدروز الأكثرية العظمى من الفلسطينيين والجولانيين.

وبحلول مطلع سبعينيات القرن العشرين، وعلى أثر فرارهم من القمع الديني في العراق، استقرت الموجة الأولى من الشيعة الاثني عشريين إلى الشمال والشمال الشرقي من المرقد، أعقبها موجة ثانية وصلت في ثمانينيات القرن العشرين واستقرت في مدينة السيّدة زينب بعدما طرد صدام حسين أربعين ألف شيعي عراقي قريباً منهم بالتبعية لإيران.^(١)

وقد مدّت السياسة (البعثية) المناصرة للعروبية، التي فرضت على سوريا أثناء الحرب العراقية الإيرانية وما بعدها... مدّت يد العون والمساعدة إلى

(١) على الرغم من عمق العداوة والتنازع بين العراق وسوريا على شاكلة غيرهما من الدول المتجاورة، إلا أن البلدين يرتبطان بالعديد من العلاقات الثقافية والقراية المهمة. إلا أن علاقات الصداقة المتنامية بين سوريا وإيران والحرب الأمريكية في العراق قد أسهم كلاهما في تغذية مشاعر الاستياء لدى العراقيين المقيمين في سوريا حبال السوريين.

هؤلاء العراقيين، وضمنت لهم الحصول على التعليم والخدمات الصحية المجانية العامة. وقد التزمت الحكومة السورية بهذه السياسة حتى عام (٢٠٠٦ م) حينما تحول العدد الكبير من اللاجئين العراقيين الذي قُدِّرَ بمليونين؛ إلى عبيءٍ ماليٍّ كبيرٍ لا يمكنها تحمُّله. ونظراً إلى تعذُّر الإقامة في لبنان والأردن المجاورين بسبب ارتفاع تكاليف المعيشة وغلاء الأسعار، لحظَّ على أكثرية العراقيين الذين اختاروا الإقامة في سوريا أنهم كانوا فقراء نسبيًّا - مع تفضيل الشيعة الاثني عشرين منهم التَّجمُّع والإقامة في مدينة السيِّدة زينب، وفي جرمانا، وهي ضاحيةٌ دمشقيَّةٌ إلى الجنوب من الحيِّ المسيحيِّ. ولا يعني حديثنا هذا أنَّ العراقيين غير الشيعة لا يقيمون في مدينة السيِّدة زينب، بل يعني بسهولة أنَّهم. أي الشيعة. يؤلَّفون الأكثرية من سكَّانها غير السوريين، فهناك الكثير من العراقيين الذين يعيشون في منطقة هَجَرَ،^(١) والحيِّ الجولانيِّ وفي المناطق الفلسطينية. وعلى الرُّغم من ذلك، وبحسب ما أخبرني به سمسار العقارات الفلسطينيُّ الذي أتعاملُ معه؛ لا يجبُّ العديد من السكَّان المحليين السوريين، والجولانيين، والفلسطينيين العيش إلى جانب العراقيين ولا يعدونه أمراً لاِثْقاً! لاعتقادهم في أنَّ العراقيين هم أناسٌ عنيفون وغيرُ جديرين بالثِّقة! ويُلاحظُ ارتفاعُ بدلاتِ إيجارِ العقارات في الجانب الآخر الواقع إلى الشَّرق بمحاذاة ما يُسمَّى شارعَ العراقيين الذي يكتظُّ بالمطاعم العراقية ومكاتب السَّفَر التي تنظِّم الرِّحلات البريَّة الجماعيَّة إلى بغداد والمدن العراقية الأخرى.

(١) هجر. نسبة إلى مدينة هجر القديمة التي تقع في شرق المملكة العربيَّة السَّعوديَّة، حيث يشكِّل الشيعة النَّسبة الأكبر من سكَّانها. وقد تمَّ إبدال اسمها إلى (الإحساء). (المقوم الغوي).

وبسبب الارتفاع المتواصل في عدد السائحين الدينيين من العراق ومناطق الخليج العربي الشرقية، شرع المزارعون السابقون والسكان المحليون في تشييد الفنادق وتجهيز مجمعات الشقق للإيجار في المناطق الواقعة إلى الشرق والجنوب الشرقي من المرقد. وبداهة، تتغير بدلات الإيجار ارتفاعاً وانخفاضاً في هذه الأماكن بحسب فصول السنة مع بلوغها الذروة في فصل الصيف والمُناسبات الدينية؛ وعلى الرغم من عدم توفر إحصاءات دقيقة عن عدد الزوار من الدول كل على حدة، وحتى من المناطق المختلفة؛ فقد ذكرت عالمة السياسة الفرنسية (سابرينا ميرفن. Sabrina Mervin) أن عدد زوار المرقد يفوق المليون سنوياً، وخمنت أن عدد سكان مدينة السيدة زينب يبلغ مئة ألف! على الرغم من اعتقاد بعضهم بافتقار هذا التّخمين إلى الدّقة.^(١)

وتنقسم المدينة على جزأين يفصل بينهما شارع رئيس يؤدي إلى دمشق، وينقسم الجزءان بدورهما على أربعة أحياء يمثل المرقد مركزها؛ والحي الجنوبي شرقي الذي يحتضن المرقد هو المنطقة السياحية الأبرز، حيث يقيم الإيرانيون في فنادق تتألف من خمسة طوابق مُحاطة بأسواق مزدحمة. ويقع المعسكر الفلسطيني في مقابل هذا الحي إلى الجنوب الغربي. وعلى الرغم من ارتفاع عدد الشيعة الاثني عشريين من الباكستان، والهند، وأفغانستان الذين قدّموا للدراسة في حوزات المدينة العلمية؛ يشكّل السوريون الذين نزحوا من

(١) سابرنا ميرفن (السيدة زينب: إحدى ضواحي دمشق أم مدينة مقدّسة شيعية جديدة؟) ملفات دراسات شرق المتوسط والعالمين التركي - الإيراني: العرب والإيرانيون ٢٢ (١٩٩٦): ١٤٩-١٦٢. وثيقة الكترونية

(<http://cemoti.revues.org/document138.html>) في الثالث والعشرين من آذار عام ٢٠٠٩.

مُرتفعات الجولان الأكرية العظمى من السَّكَّانِ الَّذِينَ يقيمُونَ في الحَيِّ الواقعِ إلى الشَّمالِ الغربيِّ الذي يؤلَّفُ المناطقَ المحيطةَ بضاحية هَجَرَ. أمَّا العراقيُّونَ فيقيمُونَ في الحَيِّ الواقعِ إلى الشَّمالِ الشرقيِّ، وتحديدًا فيما يُعرَفُ بشارعِ العراقيينَ.

كانَ مجمَّعُ المرقِدِ المستطيلُ الشَّكلِ مُحاطًا بأربعةِ طرقٍ، وقد أُزيلَ الطَّرِيقُ الذي يمرُّ بمحاذاةِ الجدارِ الشَّمالِيِّ للمبنى في عام (٢٠٠٧ م) وأُغلقتِ المنطقةُ لمدةٍ من الوقتِ ابتغاءَ توسيعِ باحةِ المرقِدِ. وعلى شاكلةٍ ما هو موجودٌ في المراقِدِ المقدَّسةِ الأخرى، تنتشرُ المحالُّ والباعةُ المتجولونَ في الشوارعِ التي تطوِّقُ المرقِدَ، لتؤلَّفَ أسواقًا تعرضُ مختلفَ أنواعِ الملابسِ، والحلوياتِ، والأطعمةِ، والذهبِ، والمُلصقاتِ والمقتنياتِ الدِّينيةِ مثلَ السُّبحِ (يمكنُ للسَّائحِ شراءَ الموادِّ ذاتها بِسعرٍ أرخصٍ من سوقِ هَجَرَ).

ويمتدُّ سوقُ الإيرانيينَ بمحاذاةِ الجانبِ الشرقيِّ وإلى الجنوبِ - الشرقيِّ منَ المرقِدِ. وبداهةً، تتقنُ أكثريةُ الباعةِ السُّوريينَ وكذلكَ العاملونَ في الفنادقِ والمطاعمِ الحديثِ باللُّغةِ الفارسيَّةِ زيادةً على بعضِ منَ الأكرادِ الذينَ يعرفونَ القليلَ منها؛ وآخرينَ تُحتملُ دراسَتُهُم لها إمَّا في الحوزاتِ الدِّينيةِ وإمَّا في أحدِ المراكزِ الثقافيَّةِ الإيرانيَّةِ.

ويُعدُّ المعسكِرُ الفلسطينيُّ الذي يقعُ إلى جنوبِ غربِ المرقِدِ منَ أقدمِ مناطقِ المدينةِ التي تمتازُ المنازلُ فيها بكونها شديدةَ التَّلاصُقِ، ولا يفصلُها عمَّا يقابلُها سوى مسافةٍ قليلةٍ جدًّا تجعلُ مرورَ السيَّاراتِ في العديدِ منَ شوارعِها بالغةَ الضَّيقِ أمرًا متعذرًا. وزيادةً على ذلكَ، أخبرتني "آمالُ" التي تعرَّفتُ إليها في الحوزةِ الزينبيَّةِ بأنَّ المنزلَ الذي يقيمُ فيه والدُها في المعسكِرِ الفلسطينيِّ كانَ

قَدْ شَبِّدَ عَلَى مَسَاحَةِ الْأَرْضِ الَّتِي نَصَبَ فِيهَا أَجْدَادُهَا خِيَامَهُمْ عِنْدَمَا وَصَلُوا
الْمَدِينَةَ أَوَّلَ مَرَّةٍ.^(١) وَقَدْ أَسْهَمَ زَوَاجُ الْأَبْنَاءِ مِنَ الْجِيلِ الثَّانِي مِثْلَ زَوَاجِ آمَالٍ
وَأَخَوَاتِهَا وَمَغَادِرُهُمُ الْمُنَاطِقَةَ فِي جَعْلِ الْمُعَسْكَرِ الْفِلَسْطِينِيِّ أَحَدَ أَقْدَمِ أَحْيَاءِ
الْمَدِينَةِ فِي أَكْثَرِ مَنْ مَسْتَوًى.

وَيَقَعُ دَوَّارُ الْهَجَرِ عَلَى بَعْدِ ثَلَاثِ مِئَةِ مِترٍ إِلَى الشِّمَالِ مِنَ الْمَرْقِدِ، وَيَمْتَدُّ عَلَى
طُولِ الطَّرِيقِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى دِمَشْقَ؛ وَفِي نَقْطَةِ التَّقَاءِ الْحَيِّ الْجَوْلَانِيِّ وَشَارِعِ سَوَقِ
الدَّوَّارِ بِشَارِعِ الْعِرَاقِيِّينَ، تَلْتَفُ السَّيَّارَاتُ سَائِرَةً حَوْلَ شَجَرَةٍ نَخِيلٍ بِلَا سِتْكِيَّةٍ
مُزَيَّنَةٍ بِالْمَصَابِيحِ الْمَعْدِنَةِ، وَمُحَاطَةٌ بِأَرْبَعِ صُورٍ جِدَارِيَّةٍ تَعْرُضُ اثْنَتَانِ مِنْهَا بِشَارِ
الْأَسَدِ لَوَحْدِهِ، وَأُخْرَى تَصَوِّرُهُ مَعَ أَخِيهِ الرَّاحِلِ بَاسِلَ وَالِدِهِ حَافِظِ الْأَسَدِ. أَمَّا
الصُّورَةُ الْأُخْرَى الَّتِي تَقَابُلُ جِهَةَ الْجَنُوبِ الَّتِي يَدْخُلُ مِنْهَا الزُّوَارُ إِلَى الْمَدِينَةِ /
الْمَرْقِدِ، فَتَصَوِّرُ حَافِظَ الْأَسَدِ وَاقِفًا أَمَامَ عِلْمِ حَزْبِ الْبِعْثِ وَعِلْمِ سُورِيَا؛ يَتَقَدَّمُ
ثَلَاثَةُ أَطْفَالٍ صِغَارٍ تَزِينُ مَلَابِسَهُمُ الْأَعْلَامَ الْعِرَاقِيَّةَ وَاللُّبْنَانِيَّةَ وَالْفِلَسْطِينِيَّةَ،
وَيُلَوِّحُونَ رَافِعِينَ أَيْدِيَهُمْ بِعَلَامَةِ النَّصْرِ (عَلَى شَكْلِ حَرْفِ V بِالْأَضْيَعِ الْوَسْطَى
وَالسَّبَابِقَةِ) فِي حِينَ يَمُدُّ الْأَسَدُ يَدَيْهِ كِلْتَاهُمَا بِأَسْلُوبِ أَبُوِّي يُوْجِي بِالْإِحْتِضَانِ
وَالْإِحَاطَةِ، وَاضِعًا إِيَّاهُمَا عَلَى كَتِفِي الطِّفْلَيْنِ عَنْ يَمِينِهِ وَيَسَارِهِ.

وَتَبْدُو الْمَنَازِلُ فِي شَارِعِ الْعِرَاقِيِّينَ مُقَارَنَةً بِمُنَاطِقَةِ هَجَرٍ أَحْدَثَ بَعَشْرِينَ
عَامًا، وَلِهَذَا السَّبَبِ تَحْدِيدًا، فَهِيَ أَفْضَلُ حَالًا وَأَعْلَى سَعْرًا. وَيُعَدُّ الْعَيْشُ فِي هَذَا
الشَّارِعِ أَوْ الشُّوَارِعِ الْفَرْعِيَّةِ الْمَمْتَدَّةِ مِنْهُ. عَلَى وَجْهِ الْعُمُومِ. مُؤَشِّرًا عَلَى تَمَتُّعِ

(١) ثَمَّةُ عَدَدٍ قَلِيلٍ مِنَ السَّكَّانِ الْمَحَلِّيِّينَ تَشَبَّعُوا [تَحَوَّلُوا إِلَى الْمَذْهَبِ الشَّيْعِيِّ]. وَتَفْعَلُ النَّسَاءُ ذَلِكَ
عَادَةً فِي حَالِ زَوَاجِهِنَّ مِنْ رِجَالٍ شَيْعَةٍ. وَثَمَّةُ رِجَالٍ تَحَوَّلُوا إِلَى الْمَذْهَبِ الشَّيْعِيِّ لِإِيْمَانِهِمْ بِهِ.
وَسَأُنَاقِشُ مَسْأَلَةَ التَّشَبُّعِ [أَوْ التَّحَوُّلِ إِلَى مُعْتَقَدٍ آخَرَ] بِتَفْصِيلٍ أَكْبَرَ فِي الْفَصْلِ التَّالِيِ الَّذِي يَنَاقِشُ
مَوْضُوعَ مَأْسِئَةِ التَّقْوَى.

السُّكَّانَ بمستوى اجتماعي واقتصادي متميز على الرغم من رفض السُّكَّانِ المقيمين في الدَّوَّارِ هذه المِزاعمَ وحديثهم عن أنَّ المَالَ والثَّرَاءَ لا يشترِيان "الاحترام" والمكانة الحقيقية؛ ودليلُهم على ذلك وجودُ العائلاتِ الغجَريَّةِ التي عملت في الخليج، وتمكَّنت هناك من جمع الأموالِ الكافية التي تمكَّنها من شراء المنازل في هذه المنطقة والعيش فيها.^(١)

وغنيَّ عن البيان، أنَّ الوضعَ الاجتماعي والاقتصاديَّ في مدينة السَّيِّدة زينب، شهد أثناء العقود الأربعة الماضية . وتحديدًا منذُ وصولِ الشَّيعة العراقيين . نموًّا مفاجئًا وسريعًا أعقبَهما تدهورٌ ثابتٌ ومتواصلٌ، إذ شهدت المدينة في ثمانينيات القرن العشرين وتسعينياته نموًّا بطيئًا كثيرَ معه عددُ الفنادق والشُّقق التي يستأجرها الإيرانيون وغيرُهم من السَّائحين الدِّينيين؛ زيادةً على عددٍ قليلٍ من اللاجئيين العراقيين. وطرأت على هذا الوضع عدَّةُ تغيَّراتٍ جذريَّةٍ بعد الحرب الأمريكيَّة في العراق في عام (٢٠٠٣ م) إذ ارتفع عددُ اللاجئيين العراقيين ارتفاعًا هائلًا حتَّى قُدِّرَ عددهم، بحلول عام (٢٠٠٥ م) بمليونٍ عراقيٍّ في الأقلَّ، جلبَ بعضهم معه مقاديرَ كبيرةً من الأموال. وقابل هذا الارتفاعُ في عددِ العراقيين ارتفاعُ في بدلاتِ إيجارِ المنازل والشُّقق واندفاعُ العديد من الأطراف نحو الاستثمار في قطاعِ البناء والعقارات؛ لاسيما بناء الشُّقق.

ومرَّةً أخرى، لم يدُم هذا الوضعُ طويلًا إذ انهار سوقُ العقارِ في عام (٢٠٠٨ م) لسببَيْنِ أساسيين أوْهُما: مُغادَرَةُ العديد من العراقيين الأثرياء، أو مَن لديهم علاقاتٌ قويَّة، أو تمكَّنوا من الحصولِ على مُوافَقَةِ المُفَوَّضَةِ السَّاميةِ

(١) ملاحظات حقليَّة، خريف عام ٢٠٠٩.

لِللَّاجِئِينَ التَّابِعَةِ لِلْأُمَمِ الْمُتَّحِدَةِ عَلَى طَلَبَاتِهِمْ لِلسَّفَرِ إِلَى أوروْبَا وأمريكا الشَّامِلِيَّةِ
 أو أستراليا أولاً، وثانيهما قرارُ الحكومةِ السُّورِيَّةِ رَفْعِ الدَّعْمِ عَنِ الْوَقُودِ فِي ربيعِ
 (٢٠٠٨) الَّذِي أسْفَرَ عَنْ ارتفاعِ سَعْرِ وَقُودِ الدِّيزِلِ مِنْ سَبْعِ إِلَى أَرْبَعِ وَعَشْرِينَ
 ليرةً لِكُلِّ لِترٍ (مِنْ سِتَّةِ عَشَرَ سِتّاً إِلَى خَمْسِينَ سِتّاً أَمْرِيكِيّاً) وَمِنْ ثَمَّ ارتفاعُ
 أَسْعارِ الْمَوادِّ الْأُخْرَى . على وَجْهِ الْعُمُومِ، وعلى الرُّغْمِ مِنَ الدَّوَرِ الَّذِي
 اضْطَلَعَتْ بِهِ حَالَةُ عَدَمِ الْاِسْتِقْرارِ السِّيَاسِيِّ وَالْحَرْبِ الْإِسْرائِيلِيَّةِ - اللَّبنانيَّةِ فِي
 عَامِ (٢٠٠٦ م) فِي تَوافِدِ "الرُّؤَا" إِلَى المَرْقِدِ، إِلَّا أَنَّهُمْ . على وَجْهِ الْعُمُومِ . لَمْ
 يَقيِّمُوا فِي الْمَدِينَةِ سِوَى بَضْعَةِ أَساوِيَعٍ وَلَمْ يَنْفَقُوا الْمَالَ بِسَخاءٍ.^(١) وَبِحَسَبِ
 الْمَصَادِرِ الرَّسْمِيَّةِ، فَقَدْ نَاهَزَ عَدَدُ اللَّبنانيِّينَ الَّذينَ جَآؤُوا إِلَى سوريَا فِي صيفِ عَامِ
 (٢٠٠٦ م) الْمِليُونِ تَقْرِيْباً، أَكْثَرِيَّتُهُمْ مِنْ شِيعَةِ الْجَنُوبِ اللَّبنانيِّ. وَيُعَدُّ الشَّيْعَةُ مِنْ
 مَنَاطِقِ الْخَلِيجِ الْعَرَبِيِّ الشَّرْقِيَّةِ - وَخُصُوصاً مِنَ السَّعُودِيَّةِ وَالْكُويْتِ - مِنْ أَكْثَرِ
 السَّائِحِينَ انْتِظاماً فِي زيارَتِهِمْ، إِذْ يَأْتُونَ سَنَوِيّاً لِقَضَاءِ أَشْهُرِ الصَّيفِ فِي الْمَدِينَةِ.
 وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ . على الْأَرْجَحِ . فِي تَعَدُّرِ حُصُولِي عَلَى شَقَّةٍ فِي الْمَنْطِقَةِ حِينَما
 وَصَلْتُ إِلَى سوريَا فِي مُنتَصفِ أَيَّارِ عَامِ (٢٠٠٨ م) وَبَحْثِي عَنْ مَكَانٍ لِلسَّكَنِ
 فِي الْجَنابِ الشَّرْقِيِّ مِنَ المَرْقِدِ، إِذْ أَخْبَرُونِي أَنَّ الْأَسْعارَ سَتَرْتَفَعُ فِي غُصُونِ
 أُسْبُوعٍ أَوْ ما يَقرَّبُ ذَلِكَ - بَعْدَ أَنْ تَغْلِقَ الْمَدارسُ فِي السَّعُودِيَّةِ أَبْوابَها فِي
 الْعَطْلَةِ الصَّيْفِيَّةِ - وَتَقْفِزُ مِنْ سَبْعِ مِئَةٍ وَخَمْسِينَ ليرةً (سِتَّةَ عَشَرَ دُولاراً تَقْرِيْباً)
 لِكُلِّ غُرْفَةٍ بِسَرِيرٍ واحِدٍ فِي اللَّيْلَةِ الْواحِدَةِ إِلَى أَلْفِي ليرةً (خَمْسَةُ أَرْبَعُونَ دُولاراً

(١) كان هؤلاء اللَّبنانيُّونَ . عَمَلِيّاً . لاجِئِينَ مُؤَقَّتِينَ . وَلَكِنْ لَمْ تَعْتَرِفِ الْحُكُومَةُ السُّورِيَّةُ وَلَا
 الْمُفَوَّضِيَّةُ السَّامِيَّةُ لَشُؤُونِ اللَّاجِئِينَ بِوَضْعِهِمْ هَذَا، لِأَنَّ الاعْتِرافَ بِهِمْ يَعْنِي إِلْزامَ الطَّرْفَيْنِ .
 الْحُكُومَةُ السُّورِيَّةُ وَالْمُفَوَّضِيَّةُ . بِتَقْدِيمِ الْمَزِيدِ مِنَ الْمُساعِداَتِ الْإِنْسانِيَّةِ وَالْتِسهيلاتِ الْإِدارِيَّةِ لَهُمْ .

تقريباً). ولا يأتي هؤلاء الزوّار لزيارة المرقد فحسب، وإنما للتمتع بلطافة الجو واعتداله كذلك، فالحرارة في دمشق، هي أقل بعشر درجات من نظيراتها في الكويت ومناطق شرق المملكة العربية السعودية، وهي اللفف قليلاً من العراق كذلك. وبالإمكان فهم ظاهرة السباحة الصيفية في مدينة السيدة زينب من خلال لطف أن عرب الخليج. على وجه العموم. يسافرون عادةً إلى المناطق التي تقل فيها درجة الحرارة خلال أشهر الصيف^(١). وبينما يفضل الكثير من عرب الخليج الأثرياء السفر إلى أوروبا أو بيروت في الوقت الراهن، تمثل سوريا بالنسبة للأقل ثراء منهم خياراً جذاباً؛ فالأسعار في سوريا أرخص من لبنان والأردن، وتضم العديد من المواقع التاريخية، والمناظر الطبيعية الخضراء الجميلة، والشواطئ المتوسطة؛ زيادة على تمثيل السنة أكثرية السكان ووجود حكومة متسامحة دينياً^(٢).

ويؤلف العامل الأخير. تحديداً. عنصر جذب كبيراً للشيعة من دول الخليج التي يتعرض فيها أتباع المذهب الشيعي الاثني عشري إلى القمع. وبكلمات موجزة: يشهد مرقد السيدة زينب بمؤسساته الدينية الاثني عشرية والمناطق المحيطة به نمواً اقتصادياً ملحوظاً في موسم الصيف، إذ تستمر العوائل الشيعية من شرق الخليج العربي في التوافد وشغل الغرف في الفنادق والشقق المفروشة المنتشرة حول المرقد، وتتضاعف الأسعار، ويتعذر الدخول إلى المرقد أو الحصول على مكان مناسب في أوقات الصلاة بسبب العدد الهائل من الزوّار.

(١) كانت القبائل البدوية في الماضي تنتقل شتالاً صوب سوريا لقضاء أشهر الصيف.

(٢) عادة ما، قد يتغير كل ذلك قريباً بالنظر إلى حالة عدم الاستقرار السياسي حالياً في سوريا.

وتنظّم الفنادق ووكالات السفر المحليّة جولاتٍ سياحيّةٍ إلى المزاراتِ الدّينيّةِ الشّيعيّةِ، مثل المقبرة المجاورة لبوابة الجنوبيّة من مدينة دمشق القديمة المسماة (الباب الصّغير) حيثُ ووري في الثرى هناك بلال أوّل مؤدّن في الإسلام، واثنان من زوجات النّبي عليه الصّلاة والسّلام. وتقدّم الحوزات الدّينيّة مثل الحوزة الزّينبيّة وحوزة الصّدرين^(١) فصولاً دراسيّة صيفيّة للرجال والنّساء الراغبين في تعلّم المزيد عن المذهب الشّيعي^(٢). وتُشكّل مواكب العزاء الأسبوعيّة وبعض من الفعاليات الأخرى أمثال المجالس التي يحضرها الرّادود العرافيّ الشهير (باسم الكربلائي) عناصر جذب لكل من السّكّان المحليّين والزوّار الأجانب^(٣). وإلى جانب ذلك، تنظّم الحوزات العلميّة معارض لبيع الكتب، إذ يُنصّب عددٌ من الخيام لا يتجاوز الأربع قرب المدخل الجنوبيّ للمرقد وقريباً من الأسواق التي يرتادها السّائحون. وزيادة على موسم الصّيف، ثمة موسم آخر يشهد ارتفاعاً ملحوظاً في مستوى النّشاط الاقتصاديّ هو شهر المحرم على الرّغم من تغير بعض من البضائع والسّلع المعروضة في الأسواق من موسم إلى آخر.

في مقالهِ المُعنون بـ (الحجّ والسّلع والتّشيء الدّينيّ: صناعة المذهب الشّيعيّ العابر للقوميّات بين إيران وسوريّا) كتب (باولو بتو . Paulo Pinto): إنّ عرض السّلع والمقتنيات الدّينيّة وبيعها واستهلاكها، أمثال

(١) تعني كلمة "الصّدرين" كلا من محمّد محمّد باقر الصّدر (توفي عام ١٩٩٩) ومحمّد باقر الصّدر (توفي عام ١٩٨٠) ومقتدى الصّدر هو ابن الصّدر الأوّل.

(٢) تنظّم الحوزات أمثال الحوزة الزّينبيّة كذلك رحلات لطلّابها. ففي صيف عام ٢٠٠٨ في سبيل المثال، دُعيت طالبات في المدرسة الصّيفيّة إلى المشاركة في رحلة إلى إحدى حمّامات السّباحة الخاصّة. ملاحظات حقليّة صيف عام ٢٠٠٨.

(٣) ملاحظات حقليّة صيف عام ٢٠٠٧.

المُلصقات، والأعلام، والزناجيل، والسُّبح، والحليّ الدّينيّة يؤدّي إلى إنتاج مُجتمعاتٍ محلّيّةٍ شيعيّةٍ عابرةٍ للقوميّات.^(١) وعلى الرُّغم من أن "بتو" كان مصيباً في قوله: إن المرقد والأسواق المحيطة به تمكّن الشيعة من الشعور بأنهم يؤلّفون جزءاً من مُجتمعٍ محلّيٍّ متديّنٍ أكبر، إلّا أنّه لا بدّ من التنبّه إلى حقيقة أن الشعور بالسعادة حيال هذا الأمر لا يصدّق على الجميع، فثمة أفراد يشاركون في خلق هذا المُجتمع من خلال بيع الملصقات الدّينيّة أو العمل لدى وكالات السيّاحة والسّفرة، لكنهم لا يتماهون معه. والمُجتمع المحليّ الأكبر الذي يعيش أفرادُه. على ما يبدو. في حالة تصادم حقيقيٍّ مع العراقيّين، هم الفلسطينيّون الذين يمثّلون على نحوٍ فارقٍ اللاجئ النّمطيّ في مناطق سوريا الحصريّة من جانب، ومن جانبٍ آخر الأكثرية العدديّة والمقيمون الأقدم في منطقة المرقد. وبداهه، ثمة فلسطينيّون يرتبطون بعلاقاتٍ مع الشيعة العرب وغير العرب؛ سواءً من خلال التّجارة أو الزّواج أو السُّبل الأخرى، مقابل آخرين يتفادون الاتّصال بالشيعة! ولهذا السّبب تحديداً. بحسب ما ذكرته آمال زميلتي في الحوزة. لا يمتلك الفلسطينيّون المحالّ أو يديرونها في الأسواق السيّاحيّة المربّحة التي تربط المعسكر الفلسطينيّ بالمرقد، ويتركون هذا الأمر لغيرهم من السّوريّين. وعوضاً عن العمل في هذه المحالّ والأسواق، اختار خمسة من أقارب آمال العمل في المصانع المحيطة بالمدينة.^(٢)

(١) باولو جي. بتو، (الحجّ والسلع والتّشيء الدّينيّ: صناعة المذهب الشّيعيّ العابر للقوميّات بين إيران وسوريا) مجلّة دراسات جنوب آسيا وأفريقيا والشرق الأوسط المقارنة. المجلد ٢٧ العدد ١ (٢٠٠٧): ١٠٩-١٢٥.

(٢) عمل والدها في إحدى الوظائف المتواضعة لدى الحكومة السّوريّة.

ويحصل أقارب آمال جرّاء عملهم في هذه المصانع التي تنتج المشروبات الغازية المعروفة محلياً بـ (المندرين) وبطاقات دعوات الزواج على ستة آلاف ليرة سورية شهرياً (ما يعادل مئة وعشرين دولاراً). وتحتضن المنطقة الواقعة إلى الشمال من المدينة بمحاذاة الطريق الرئيس عدداً كبيراً من قاعات الأعراس التي يستأجرها العرسان الدمشقيون من الطبقة العليا والمتوسطة العليا؛ ويكلف استئجار هذه القاعات مبلغاً يتراوح بين عشرين إلى ثلاثين ألفاً (من أربع مئة إلى خمس مئة دولار) في الليلة الواحدة، ويُراعى في الحفلات التي تُقام في هذه القاعات مبدأ الفصل بين الجنسين، إذ تُخصّص قاعة للرجال وأخرى للنساء.^(١) ويعمل الفلسطينيون وكذلك السوريون من مُرتفعات الجولان في هذه القاعات، كما تسجل النساء اللائي لا يحظن بفرص توظيف كثيرة في القطاعات الأخرى... يسجلن حضورهن في هذه المصانع والقاعات؛ وقد قدّر بعض من الأصدقاء الفلسطينيين الذين سألتهم أن ثلث النساء المقيّات في المنطقة يعملن خارج المنازل، إذ تعمل الشابات غير المتزوجات عادةً إلى أن يتزوجن. وقد يعمل الرجال كذلك في قاعات الزواج والمصانع؛ إلى جانب اضطراب الكثير غيرهم إلى العمل بصفة أجير يومي. ويمكن مشاهدة هؤلاء الرجال (واستئجارهم للعمل) في الصباح الباكر وهم يجلسون على قارعة الطريق الرئيس مع مجارفهم وأكياس الاسمنت خاصتهم. ويحدث في بعض من الأحيان أن يعمل المزارعون الفلسطينيون والسوريون بصفة عمال يوميّين

(١) لا يملك الفلسطينيون الذين يعملون في هذه القاعات عادة المال اللازم الذي يمكنهم من إقامة حفلات زفافهم فيها بل يقيمونها في ساحات الأحياء أو أرض أحد المتبرعين من الأصدقاء. وقد حضرت أثناء دراستي الحقلية في السيدة زينب أربع حفلات زفاف فلسطينية واحدة منها فقط أقيمت في قاعة، ولم يجر فيها الفصل بين الجنسين.

خصوصاً بعد انتهاء موسم الحصاد وجني المحاصيل، أو في المواسم التي تنعدم فيها الأمطار والزراعة تبعاً لذلك. ويؤلف العراقيون النسبة الأكبر بين هؤلاء العمال الأجراء؛ على الرغم من تحولاتهم المستمرة العمل في المهن الأخرى.

ومثلما هو الحال في بلدان الشرق الأوسط الأخرى، أدت حالة البطالة العامة وحقيقة اعتماد الناس في تسيير أمورهم جميعاً - حتى في العثور على فرص العمل في القطاع الحكومي - على العلاقات الشخصية... أدت إلى وجود الكثير من حاملي الشهادات الجامعية العراقيين بين صفوف العاطلين عن العمل.

وتتزعج علاقة الزواج بين الجماعات الإثنية والدينية نحو الالتزام بأنماط متوقعة ومحددة، إذ تتزوج الفلسطينيات عادةً من الجولانيين والسوريين، وفي بعض الأحيان من الأجانب من الجنسيات الأخرى.^(١) وتتزوج بعض من السوريات من العراقيين على أمل الاستقرار في الولايات المتحدة، ويمكن للزوجة الثانية "السورية" التي تساعد زوجها وعائلته في الحصول على بطاقة الإقامة السورية أن تحصل على مبلغ مالي رمزي شهري من المفوضية السامية لشؤون اللاجئين.^(٢) كما يتزوج العراقيون وعرب الخليج والإيرانيون والأفغان واللبنانيون فيما بينهم.

وبدايةً، ثمة. على الدوام. استثناءات، إذ أخبرتني حفيدة أحد رجال الدين الأفغان المهجرين التي التقيتها في الحوزة - اسمها فاطمة، وتبلغ من العمر

(١) يندر أن تتزوج السوريات والجولانيات من فلسطينيين لأن ذلك يعني خسارة أبنائهن حقوق المواطنة والجنسية السورية في ظل منحها الجنسية من خلال خط الأب لا الأم.
(٢) ملحوظات حقليّة ربيع عام ٢٠٠٩.

عشرين عاماً وهي غير متزوجة - أن عائلتها وهم من السادة الأفغان، تعيش في مدينة السيّد زينب بالقرب من منطقة هجر منذ أكثر من ثلاثين عاماً، منذ أن اضطروا إلى مغادرة العراق في سبعينيات القرن العشرين، وهم لا يودون العودة إلى أفغانستان. وزيادة على ذلك، أخبرني فاطمة عن التناقض الذي تعيشه جرّاء شعورها بأنّها من السكّان المحليّين وغريبة عنهم في الوقت ذاته، فهي ليست سورية وفي حاجة إلى تجديد إقامتها على نحوٍ منتظم. بيد أنّها تشعر وكأنّها من السكّان المحليّين حينما تكون بين الأجنبيّ والأجنبيّ في مدينة السيّد زينب.^(١) وبينما تزواج أكثرية أفراد عائلة فاطمة فيما بينهم أو تزوجوا من أفراد من العائلات الأخرى المنتمية إلى طبقة السادة (لاسيماً من العائلات الإيرانية) يلحظ زواج عمّتها من عراقيّ عامّي لا يتحدّر من هذه الطبقة.

والنمط الشائع في المنطقة هو قدرة الرّجال السّادة على الزواج - وفي واقع الأمر زواجهم - من نساء عامّيات لا يتّمين إلى طبقة السّادة في حين يتوقّع من العلويّات (اللائي يعود نسبهنّ إلى الإمام عليّ عليه السّلام، ولا ينبغي الخلط بينهنّ وبين نساء الطائفة العلويّة) رفض الخطّاب الذين لا يتحدّرون من نسل السّادة.

ويعني هذا الأمر عملياً. بقاء العديد منهنّ بلا زواج، ولكنهنّ، خلافاً للنساء الأخريات، يتمتّعن بمكانة متميّزة في المؤسّسات الدّينية حيث يعمل بعضهنّ مدرّسات أو ملايات. ففي الحوزة الزينبيّة. في سبيل المثال. هناك العديد من العلويّات غير المتزوّجات المقرّبات من الشّيرازيّين، وهنّ مكلفات بالتدريس وإدارة قسم النساء في الحوزة. وادّعت رئيسة الملايات التي تقود

(١) ملحوظات حقليّة خريف عام ٢٠٠٩.

طقوس العزاء الأسبوعية في الحوزة الزينية والمعروفة بـ (الملاية المرضية) أُنْهِيَتْ رَفَضَتْ مَجْمُوعَةً مِنَ الْخَطَّابِ لِأَجْلِ الاستمرارِ في "خدمة الحسين" (عليه السلام). وبداهةً، لا يمكنُ الجزمُ بصحة هذا الادعاء، وعلى الرغم من ذلك، ما زال الذي يحدثُ على أرض الواقع، يثبتُ أنَّ العملَ في الحوزات أو المؤسسات المماثلة لها، يمثلُ للعلويات بديلاً مُحترَماً وجذاباً عَنِ الزَّوْاجِ.^(١)

وعلى الرغم من كثرة هذه الزيجات "الدولية" العابرة للقوميات، ما زال الإحساسُ بالأصول القومية قوياً ومؤثراً! فعلى طولِ شارعِ العراقيين يبيعُ الباعة المتجولون حجابات رأسٍ مرسوم عليها العلم العراقي، مقابل الحجابات الفلسطينية التي تُباعُ في الجانب الآخر من الشارع منقوشاً عليها عبارة "القدس لنا". وتأسيساً على ذلك، يبدو "باولو بنتو" محققاً إلى حدٍّ ما، فالسُّكَّانُ جميعاً يشتركون في استهلاكهم لمعلّمات الهوية،^(٢) وهم جميعاً مستهلكون وطيون.

والله (عزَّ وجلَّ) ليس هو القوة الوحيدة التي يقابلها الإنسان في مركز هذه الأحياء الأربعة المحيطة بالمرقد، إذ شيدت مقارُ الشرطة التابعة للمرقد في الزاوية الجنوب غربية. إلا أنَّ الغرض من وجودهم في بعض من جوانبه، لا

(١) تُعدُّ خدمة الحسين. إلى حدٍّ ما. مصدراً بديلاً للحصول على الهوية والمكانة الاجتماعية في حالة النساء العاديات - غير العلويات - وخصوصاً ممن لم ينجبن أطفالاً. وخلافاً للعلويات، يُتوقع من النساء العاديات الزواج، حيث تعدُّ عدم القدرة على الزواج أو عدم الرغبة به مصدراً للشعور بالحرج والعار. وفي حال لم تتمكن المرأة. لسبب ما. من الإنجاب، يمكنها التخفيف من وطأة هذه المشكلة وتأثيراتها من خلال مصادر بديلة تكفل لها التمتع بالمكانة والهوية مثل التدبير وحتى امتحان التدريس في الحوزة أو العمل ملاية. وهذا لا يعني أنَّ أكثرية المدرسات أو المليات ليس لديهن أطفال، بل عدد لا بأس به. ويُعدُّ العمل ملاية على وجه العموم أمراً مُحترَماً للمرأة وعائلتها. وإذا كانت عائلة الملاية تعاني الفقر، فقد يوفر لها هذا العمل مقداراً ضئيلاً من المال يصل إلى خمس مئة ليرة (أو عشرة دولارات) تقريباً. وبصرف النظر عن الجانب المادي، فإن العمل في هذا المجال يُعدُّ، بلا أدنى شك، دليلاً على الاحترام.

(٢) قارن مع بنتو، (الحج والصلع والتشيء الديني) ١١٧-١٢٥.

يعدّو كونه استعراضاً للقوّة، فتمّة شرطيّان يقفان خارج المركز يصرخان بين الحين والآخر على السيّارات المزدحمة في الشّارع المجاور، ويطلبان من سائقي سيّارات "الميكروباس" عدم التّوقّف والتقاط الزّائنين / الرّكّاب قرب المركز. ولهذا السّبب، أرى أنّ ملحوظة (ليزا ويدن . Lisa Wedeen) عَنْ الطّابع المسرحيّ والاستعراضيّ للسلطة في دمشق في تسعينات القرن العشرين، ما زالت صحيحة إلى حدّ ما، وتصدّق على الوضع في مرقد السيّدة زينب بعد عقد من ذلك، خصوصاً بعد تحوّل المدينة إلى مركز لتجمّع السّياسيين والنّاشطين العراقيّين المنفيّين؛ وتحظى حتّى حكومة "المالكيّ" التي استلمت مقاليد الحكم في العراق في عام (٢٠٠٥ م) بقاعدة وجود لها في مدينة السيّدة زينب. وفي محاولةٍ منها للسيطرة على مجرّيات الأمور في المنطقة، تنظّم السّلطات الحكوميّة حملات أمنيّة دوريّة تسفر عادةً عن غلق مقاهي الانترنت، وتحاول التّحكّم بعملية اختيار المسؤولين عن الإشراف على المناسبات الدّينية والمدرّسين في الحوزات الدّينية. وقد شدّدت الأجهزة الأمنيّة قبضتها بعد السّابع والعشرين من أيلول عام (٢٠٠٨ م) بعد انفجار سيّارة مفخخة على بعد خمسة كيلومترات شمالاً في الطّريق الرّئيس المؤدّي إلى المرقد؛ الذي ساد الاعتقاد في أنّه هو المقصود، وتلا ذلك انفجار آخر ضرب منطقة السيّدة زينب في الثّالث من كانون الأوّل عام (٢٠٠٩ م) وكثرت هذه المرّة الشّائعات عن احتمالات تورّط جهات حكوميّة في هذا التّفجير بسبب صراعات داخلية بين الجماعات المختلفة، إذ لا يخضع المرقد لرقابة أمنيّة مُشدّدة على الدّوام باستثناء موسم المحرم^(١).

(١) في اليوم الذي يسبق عاشوراء وبعده، تحرص السّلطات على نشر المزيد من رجال الشّرطة

وتتولّى عائلة "مرتضى" الإشراف على موجودات المرقد المكانية وتنظيم
 الفعاليات فيها منذ القرن الرابع عشر.^(١) وقد طرأت عدّة تغييرات جذريّة عليه
 منذ ذلك الوقت، فبموازاة التوسّع في المدينة، شهد المرقد توسّعاً مكانياً كبيراً،
 وأعيد بناؤه مرّات عديدة، وما زال قيد التوسيع والتّطوير إلى حدّ الآن. وقد
 أسهم بعض من المتبرّعين من دول باكستان، وإيران، ودول الخليج العربيّ في
 تجديد بعض من أجزاء المرقد وإدامتها، وتولّت الحكومة الإيرانيّة في الآونة
 الأخيرة تمويل مشروع تعمير المرقد والمرافق التابعة له. وبفضل الأموال
 الإيرانيّة والسّائحين الإيرانيّين، اكتسب المرقد صبغةً اثني عشريةً متناميةً - هذا
 في الأقلّ ما يشكو منه بعض من سكّان المدينة السّنة! - وثمة، حالياً، مُصلّى
 مُخصّص للرجال السّنة (ولكن لا للنساء).^(٢) ويقيم الرجال السّنة صلاة جمعة
 منفصلة في المرقد؛ في حين يتولّى مثل آية الله الخامنيّ إمامة الشيعة في مُصلّى
 المرقد الرّئيس.

إنّ ما يجعل مدينة السيّدة زينب "فضاءً هيتروتوبياً" هو التّجاورات
 والتّناقضات الأخلاقيّة والقانونيّة والزّمنيّة، إذ يَضَعُ الشّيعَةُ الذين يعيشون في
 مدينة السيّدة زينب ودمشق تميّزات أخلاقيّة بين المكانين، فبينما يشكّل السّنة
 الأكثرية العظمى من سكّان دمشق، تقطن أكثرية اثنتا عشرة في مدينة السيّدة
 زينب (حتّى لو حدث ذلك لمدّة مُؤقّتة) وترتدي النّساء فيها إمّا الجلباب

عند بوابات المرقد. ويتولّى هؤلاء مهامّ تفتيش الرجال وحقائب النّساء بحثاً عن الأسلحة. أمّا
 فيما يتبقى من العام، فيُلاحظ على وجه العموم تقلّص عدد رجال الشرطة الموجودين عند
 البوابات المختلفة وتوقفهم عن تفتيش الحقائب.

(١) ميرفن (السّيدة زينب: إحدى ضواحي دمشق أم مدينة مقدّسة شيعيّة جديدة؟).

(٢) جدير بالّحظ أنّ الجوامع جميعاً في مدينة السيّدة زينب (زيادة على المرقد) هي جوامع سّنية.

والحجَابَ وإِذَا الْعَبَاءُ السَّوْدَاءُ^(١) مقابل ارتدائِهِنَّ "الْمَانُطُو" والحجَابَ، أو المَانُطُو والنَّقَابَ، أو عدم ارتدائِهِنَّ الحجَابَ في دمشق. ويدَّعي السُّكَّانُ المقيُمُونَ في مدينة السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ لأنفسِهِمْ شرفَ التَّفَوُّقِ الأخْلَاقِيِّ الَّذِي تَحَوَّزُهُ السَّيِّدَةُ زَيْنَبُ أَخْتُ الحُسَيْنِ الَّتِي لَعَنَتِ الخَلِيفَةُ الْأُمَوِيَّةُ (لأنَّهَا حَمَلَتْهُ الْمَسْؤُولِيَّةَ عَنْ مَقْتَلِ أَخِيهَا) في دمشق. إِلَّا أَنَّ مَظْهَرَ المَدِينَةِ الْوَرَعِ وَالْمُتَدَيِّنِ يَخْفِي وَرَاءَهُ مُمَارَسَاتٌ مُلْتَبَسَةٌ أَخْلَاقِيًّا مِثْلَ الدَّعَارَةِ!^(٢) وَثَمَّةٌ مَظْهَرٌ آخَرٌ يُجْعَلُ مَدِينَةُ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ فِضَاءً هَيْتَرَوْتَوِيًّا؛ هُوَ أَنَّ أَكْثَرَ السُّكَّانِ فِيهَا، هُمْ مَقِيمُونَ مُؤَقَّتُونَ (نَظَرًا إِلَى تَوَقُّعِ الْحُكُومَةِ السُّورِيَّةِ عَوْدَةَ اللَّاجِئِينَ الْفِلَسْطِينِيِّينَ إِلَى أَرْضِهِمْ يَوْمًا مَا وَلَمَّا كَانَتْ أَكْثَرِيَّةُ السُّكَّانِ فِي مَدِينَةِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ - بِاسْتِثْنَاءِ الْجَوْلَانِيِّينَ - مِنْ غَيْرِ السُّورِيِّينَ، يُؤَلَّفُ هَذَا الْجَانِبُ حِيزًا إِضَافِيًّا لِلْإِسْتِثْنَاءِ الْقَانُونِيِّ.

طُقُوسُ الْعِرَاقِ فِي السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ:

عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الشَّيْعَةَ كَانُوا مُتَفَوِّقِينَ عَدَدِيًّا عَلَى الشُّنَّةِ فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ،^(٣) إِلَّا أَنَّ نِسْبَةَ الْاِثْنِي عَشَرِيِّينَ لَا تَتَجَاوَزُ حَالِيًّا الثَّلَاثَةَ بِالنِّسْبَةِ مِنْ مَجْمُوعِ

(١) الجلباب هو ثوب يمتد عادة من كتفي المرأة الى كعبيها. وبحسب التطريزات التي تزيّن الجلباب والمواد التي يُصنع منها، يمكن ارتداء هذا الثوب عند النوم أو في المنزل أو عند النزول إلى الشارع. والحجَاب هنا يعني غطاء الرأس. أما العباء فتشير إلى ثوبين مختلفين يشتركان في كونهما يمثلان الثوب الخارجي الظاهر للعيان، ويُقصد بالجلباب الأسود العباء التي ترتديها عادة الجولانيّات والنساء الفلسطينيّات. أما العراقيّات وغيرهنّ من النساء من دول الخليج العربيّ فيرتدين عباءة سوداء من نوع آخر تستقرّ على رؤوسهنّ ويرتدينها فوق الجلباب عادة.

(٢) على الرّغم من انطوائه على مفارقة عميقة، إلّا أنّ الدّعارة تشيع في المدن - المراقد حاليًا بقدر شيوعها في المعابد البابليّة المهمّة وحوها في الأزمان الغابرة. وتتخذ الدّعارة شكل زواج المتعة أو الزّواج المؤقتّ زيادة على الدّعارة المباشرة من دون المصادقة الدّينية التي يضمنها زواج المتعة. وترى الدّولة من جانها أنّه لا فرق بين زواج المتعة والدّعارة المُتَظَمّة.

(٣) ميرفن (السَّيِّدَةُ زَيْنَب: إحدى ضواحي دمشق أم مدينة مُقدَّسة شيعيّة جديدة؟).

السُّكَّانِ الْكُلِّيَّ فِي سُورِيَا، يُضَافُ إِلَيْهَا نِسْبَةُ عَشْرَةِ أَلْفٍ يُولَّفُهَا أَفْرَادُ الْمَذَاهِبِ الشَّيْعِيَّةِ الْأُخْرَى (الَّذِينَ لَا يَبَارِسُونَ طَقُوسَ الْعِزَاءِ الْحُسَيْنِيَّةِ). وَعَلَى وَجْهِ الْعُمُومِ، وَمِثْلَمَا أَسْلَفْنَا الذِّكْرَ، فَقَدْ ارْتَفَعَ عَدَدُ الشَّيْعَةِ الْإِثْنِي عَشْرِيْنَ ارْتِفَاعًا مُلْحُوظًا مِنْذُ ثَمَانِيَّاتِ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ؛ بَعْدَمَا طَرَدَ صَدَّامُ حُسَيْنُ أَرْبَعِينَ أَلْفَ شَيْعِيٍّ عِرَاقِيٍّ تَقْرِيْبًا بِتَهْمَةِ التَّبَعِيَّةِ لِإِيرَانَ.^(١) وَمِنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ، أَذَتْ الْعِلَاقَاتُ السِّيَاسِيَّةُ دَوْرًا كَبِيرًا فِي تَسْهِيلِ دُخُولِ الْأَمْوَالِ الْإِيرَانِيَّةِ لِتَرْمِيمِ الْمَرَاقِدِ وَالْحُوزَاتِ وَتَعْمِيرِهَا فِي سُورِيَا، وَمِنْ ثَمَّ، جَذَبُ الْحَجَّاجِ وَالطُّلَّابِ بَعْدَ تَعَذُّرِ التَّوَجُّهِ إِلَى كَرْبَلَاءَ وَالنَّجَفِ بِسَبَبِ أَعْمَالِ الْعَنْفِ فِي الْعِرَاقِ.^(٢) وَعَلَى الرُّغْمِ مِنْ قُدُومِ النَّاسِ مِنْ أَنْحَاءِ الْعَالَمِ كَافَّةً لَزِيَارَةِ الْمَرْقِدِ، إِلَّا أَنَّ ثَمَّةَ أَنْهَاطٍ مُحَدَّدَةٍ وَمُتَوَقَّعَةٍ تَوَطَّرَتْ حَرَكَةٌ قُدُومِهِمْ وَوُجُودِهِمْ، إِذْ تَتَوَافَدُ الْعَائِلَاتُ الشَّيْعِيَّةُ الثَّرِيَّةُ وَالْمَحْرُومَةُ سِيَاسِيًّا مِنْ مَنَاطِقِ الْخَلِيجِ الْعَرَبِيِّ الشَّرْقِيَّةِ فِي أَشْهُرِ الصَّيْفِ الَّتِي تَشْهَدُ جَرَاءَ ذَلِكَ ارْتِفَاعًا كَبِيرًا فِي الْأَسْعَارِ؛ يُوَثِّرُ تَأْثِيرًا مُبَاشَرًا فِي مُدَّخِرَاتِ آلَافِ الْعِرَاقِيِّينَ وَفِي مُدَدِ إِقَامَتِهِمْ. أَمَّا فِيمَا يَبْقَى مِنْ أَشْهُرِ الْعَامِ فَتَشْهَدُ الْمَدِينَةُ تَوَافُدًا مُتَوَاصِلًا لِسَائِحِينَ كَبَارِ السَّنِّ لَيْسُوا أَثْرِيَاءَ، وَلَكِنَّهُمْ مَخْلُصُونَ يَأْتُونَ مِنْ إِيرَانَ، وَأَذْرَبِجَانَ، وَالبَاكِسْتَانِ، وَالهِنْدِ، لَزِيَارَةِ الْمَرْقِدِ، وَإِنْعَاشِ الْمَدَارِسِ الدِّيْنِيَّةِ وَالْأَسْوَاقِ.

وَبِكَلِمَاتٍ مُوجِزَةٍ: بَلَغَ عَدَدُ الْمَقِيمِينَ فِي سُورِيَا بِحُلُولِ عَامِ (٢٠٠٨ م) مِنْ الْعِرَاقِيِّينَ وَالْإِيرَانِيِّينَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ الْإِثْنِي عَشْرِيْنَ نَحْوَ نِصْفِ مِلْيُونٍ

(١) مَارِيُونُ فَارُوق - سَلَاحِلِيَّةٌ وَبِيْتَرُ سَلَاحِلِيَّةٌ (الْعِرَاقُ مِنْذَ عَامِ ١٩٥٨) (لَنْدُنْ: ل. ب. تَوْرُوس [١٩٨٧] ٢٠٠١)، ٢٥٨.

(٢) بَنْتُو (الْحَجَّ وَالسَّلْعُ وَالتَّشْيِءُ الدِّيْنِيَّ).

تقريباً،^(١) ويمارس العديد من هؤلاء طقوس العزاء التي منعها آية الله الخامني في إيران في تسعينيات القرن العشرين، وحزب الله في لبنان، وأدائها في العشرينيات من القرن الماضي المجتهد الأعلى في دمشق السيد محسن الأمين، ولا يكتفون بذلك؛ بل يحرصون على الترويج لها.

وتخدم طقوس العزاء الشيعية غرض تخليد ذكرى وفاة النبي وأفراد أسرته. على وجه العموم. على الرغم من تركيزها التقليدي على ذكرى استشهاد الإمام الحسين عليه السلام. وعلى وفق كتب السيرة والتراجم الشيعية، فقد دعا سكان مدينة الكوفة الواقعة في جنوب العراق في النصف الإمام الثالث الحسين، حفيد النبي محمد صلى الله عليه وسلم الذي كان يعيش في المدينة للقدوم إليهم وقيادة الثورة ضد الخليفة الأموي في دمشق. إذ بسبب خيانة الكوفيين للإمام علي والد الإمام الحسين في الماضي، أرسل الإمام الحسين ابن عمه مسلم بن عقيل إلى الكوفة لتقييم الموقف؛ وحالاً وصل مسلم إلى الكوفة حظي بترحيب حار وعاهده الكوفيون على الولاء والمساعدة. وعلى أثر ذلك،

(١) على وفق ما ذكره جورجيو هينريش نيدهاردت، بلغ العدد الكلي للسكان في مدينة السيدة زينب في عام ٢٠٠٥ (١٣٣،٢٠٦) ألف نسمة بلغ عدد العراقيين منهم (٣٠،١٧١) نسمة. واستند نيدهاردت في أرقامه هذه إلى إصدارات الأمم المتحدة التي تتسم عادة بالتحفظ في تقديراتها. نيدهاردت (عملية إدماج اللاجئين العراقيين في سوريا) ورقة بحثية قدمت في المؤتمر السنوي الثالث للجمعية الدولية للدراسات العراقية المعاصرة في السادس عشر من تموز عام ٢٠٠٨.

(<http://www.iraqistudies.org/English/conferences/2008/papers/Niedhardt.pdf>)

وبسبب تواصل أعمال العنف وبلوغها ذروتها في المراكز الحضرية في العراق في عامي ٢٠٠٧ و ٢٠٠٨، ارتفع عدد العراقيين الذين فرّوا للإقامة في مدينة السيدة زينب. وبحلول خريف عام ٢٠٠٩، شهد عدد العراقيين انخفاضاً ملحوظاً بسبب تدهور الظروف المعيشية في سوريا لا بسبب تحسن الوضع الأمني في العراق.

ولاقتناعه بعرض الدِّعم هذا، قَبْلَ الإمامِ الحُسَيْنِ دعوةَ الكوفيِّينَ وغادرَ المدينةَ متوجِّهاً إلى الكوفةِ.

وبعدَ وُصُولِ أنباءِ الثَّورةِ الوشيكةِ ضِدَّهُ، أرسلَ الخليفةُ الأمويُّ يزيدُ بنُ معاويةَ جيشاً لإخافةِ الكوفيِّينَ أوَّلاً، وقطعِ الطَّرِيقِ على الحُسَيْنِ ثانياً.

وحينما وصلَ الإمامُ الحُسَيْنُ إلى سهولِ كربلاءِ الصَّحراويَّةِ التي تقعُ على مسافةِ ثمانينَ كيلومتراً تقريباً مِنَ الكوفةِ، وجدَ نفسهُ في مُواجهَةٍ جيشِ يزيدَ الذي يفوقُه عدداً، وكما تروي المَصَادِرُ والكتبُ، لم يَأْتِ الكوفيُّونَ مُسَاعَدَةَ الحُسَيْنِ، وبعدَ بضعةِ أَيَّامٍ مِنَ القتالِ العنيفِ، قُتِلَ الإمامُ في عاشوراءَ أو في اليومِ العاشرِ مِنْ شهرِ المُحرَّمِ الحرامِ في عامِ (٦٨٠ م) في صَحَارَى كربلاءِ الرَّمْلِيَّةِ. وبعدَ مقتلِ الإمامِ، أُسِرَتِ أُختُه زَيْنَبُ مَعَ غَيرِها مِنَ النِّساءِ والأطفالِ إلى جَانِبِ الإمامِ الرَّابِعِ زَيْنِ العابدينَ بنِ عليٍّ، واقتيدوا إلى دمشق. وهناكَ كَانَتِ السَّيِّدَةُ زَيْنَبُ أوَّلَ مَنْ نَظَّمَتِ مجالسَ العزاءِ، وهيَ زيادةً على ذلكَ أوَّلَ مَنْ مارَسَ التَّطْبِيرَ بِشِقِّ رَأْسِها بِالرُّمَحِ. على وفقِ مَسْئُولَةِ الحِوْزَةِ الشِّيرازِيَّةِ.

وتعودُ تقاليدُ المراثيِ الشَّعْريَّةِ ومُمارَسَةُ النِّساءِ ضَرْبَ الصُّدُورِ في مدنِ كربلاءِ والنَّجفِ المُقدَّسَةِ في العراقِ إلى القرنِ التَّاسِعِ^(١). ولم تبرزِ الأشكالُ المتطرِّفةُ والدِّمويَّةُ مِنَ الضَّرْبِ مِثْلَ تطْبِيرِ الرَّأْسِ وَضَرْبِ الظَّهْرِ بِالزَّنَاجِلِ إلَّا في القرنِ التَّاسِعِ عَشَرَ، بعدَ إدخالِ الإيرانيِّينَ لها أوَّلاً إلى العراقِ ثُمَّ إلى لبنان^(٢).

(١) عليّ جَيّ حسين (عزاء التَّاريخ وتاريخ العزاء: تبلور مُمارسة الاستذكار الطَّقُوسيِّ لمعركة كربلاء) مجلَّة دراسات جنوب آسيا وأفريقيَّا والشرق الأوسط المُقارَنة ٢٥ العدد ٢ (٢٠٠٥): ٨١-٨٢.

(٢) ويرنر أَيْنِد (الضَّرْبُ بِالزَّنَاجِلِ في شهر المُحرَّم وعلماء الشَّيعة) الإسلام ٥٥ (١٩٧٨): ١٩-٣٦ نقاش (شيعة العراق).

وعلى الرغم من إدانة السيد محسن الأمين (توفي عام ١٩٥٢ م) الزعيم الشيعي السوري الأبرز هذه الممارسة في عشرينيات القرن العشرين^(١) ووصفه إياها بـ "البدعة" أو التقليد غير المشروع، فقد استمرت هذه الممارسات واتخذت أشكالاً أكثر تطرفاً.^(٢)

وتعدّ طقوس العزاء الحسينية بنحو عام من الموضوعات المثيرة للجدل سياسياً ودينياً منذ المراحل الأولى لممارستها، ويردّ السبب في ذلك إلى كونها إحدى أدوات تعبئة الجماهير الفاعلة، إذ اجتمع التوابون الكوفيون (الذين شعروا بالندم جرّاء عجزهم عن دعم الحسين ومدّ يد المساعدة له في كربلاء) للتعبير عن حزنهم على مقتله ثمّ (توجّهوا لمحااربة القوات الأموية... على الحدود العراقية - السورية).^(٣) وعلى الرغم من ميل الحكام ورجال الدين إلى تحريم طقوس العزاء في الحالات التي يجري فيها استخدامها لزعة الوضع القائم، فإنهم يحرصون في أحيان أخرى على تبنيها وتشجيعها حينما تلائم أغراضهم وتحقق غاياتهم، إذ استخدمت رموز المحرم وطقوسه أثناء الثورة الإيرانية في عام (١٩٧٩ م) في سبيل المثال. لتحريض الإيرانيين ضدّ نظام الشاه البهلوي^(٤) مقابل منع صدام حسين وتحريمه طقوس العزاء الشيعية العلنية، مثل المواكب والمراثي، لخشيته من دورها في التحريض السياسي.

(١) المصدر السابق ذاته.

(٢) أيند (الضرب بالزناجيل في شهر المحرم وعلواء الشيعة) ٢٢.

(٣) حسين (عزاء التاريخ وتاريخ العزاء) ٨١.

(٤) آغاي (شهداء كربلاء).

وعلى الرغم من تكريره الحديث عنها بوصفها طقوساً متخلّفة وبربريّة،^(١) وخلافاً لصدّام والشّاه البهلويّ؛ لم يكن تحرّم الخامنّيّ وحزب الله للأشكال الدّمويّة من التّطير والضرب بالزّناجيل في مُتّصف تسعينات القرن العشرين بسبب خشيتهم من قدرة هذه الطُّقوس على تعبئة السُّكّان (أو في الأقلّ لم يكن هذا هو السبب الرّئيس) بل إنّ الأمر، بحسب ما ذكره "واثق الشّمريّ" في الكتيّب الذي ألفه وتولّى توزيعه مكتب الخامنّيّ، أصبح يتعلّق بتمثيل الشّيعة وصورتهم العامّة.^(٢) إذ عبّر كلّ من فضل الله وال خامنّيّ عن قلقهما بشأن صورة المذهب الشيعي العامّة؛ ولهذا السبب تحديداً حرّماً بعضاً من طقوس العزاء، أمثال بعض من أنواع الضرب / التّطير الدّمويّة.

ويمكن أداء طقوس العزاء - بما فيها الدّمويّة - في سورياً في أزمان وأماكن محدّدة، ومثلاً أسلفنا، تدين الحكومة العلويّة القائمة التي ما برحت الأكثرية السنيّة تفاومها على أسس دينيّة... تدين بالفضل في مشروعيتها الدينيّة إلى الاثني عشرين الذين يعرفون بالعلويين كونهم مسلمين شيعة.^(٣) إلّا أنّ الأمر الأخير لم يمنع الحكومة من بذل الجهود الحثيثة للسيطرة على الطُّقوس وعلى الجماهير التي تتفرّج عليها.

وبحسب ما أورده (علي جيّ حسين. Ali J. Hussein) تنزّع الأدبيّات الأكاديميّة المكتوبة بالّلغة الإنكليزيّة نحو التّركيز على العروض الأدبيّة المميّزة لمعركة كربلاء التي تُسمّى بـ (التّعزية) بالّلغة الفارسيّة و(التّشابه) بالّلغة

(١) فاروك سلاغليّت وسلاغليّت (العراق منذ عام ١٩٥٨).

(٢) واثق الشّمريّ (أخبار الفقير في إثبات حرمة التّطير)، بيروت: مؤسّسة النّبأ، عام ٢٠١٠.

(٣) باتريك سيل (الأسد والضّراع في الشّرق الأوسط) (بيركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا، عام ١٩٩٥) ١٧٣.

العربية^(١). وقد لحظَ حسينُ أنَّ هذه النزعةَ تعكسُ اهتماماً أوروبياً - أمريكياً (أو لا متتمياً) أكثرَ منه اهتماماً شيعياً (متتمياً) بالطُّقوسِ. وعلى غرارِ ذلك، لا تحتلُّ عروضُ أدائيةٍ مثلُ هذه سوى موقعٍ ثانويٍّ في مدينة السيِّدة زينب،^(٢) الأهمُّ منها في هرمية الطُّقوسِ الشَّيعية، وهي مجالسُ النَّدبِ والعزاءِ سواءَ أكانت خاصةً أم عامةً.

وتعدُّ مجالسُ العزاءِ الطُّقوسَ الأكثرَ شيوعاً الذي تكررُهُ النساءُ للسيِّدة زينب، فبحسبِ أمِّ زينب إحدى أشهر المَلائياتِ والمدرِّساتِ في الحوزة، تنقسمُ هذه المجالسُ على بضعةِ أجزاءٍ يمكنُ إطالتها أو اختزالها على وفقِ المناسبةِ والجمهورِ.^(٣) إذ يتعيَّنُ على المَلايةِ النَّاجحةِ . على شاكلةِ المغنيِّ النَّاجحِ في الموسيقى العربية الكلاسيكية^(٤) أن تقرأَ جمهورَها وتلبِّيَ احتياجاته وتردَّ عليه بطريقةٍ مناسبةٍ. ويتعيَّنُ عليها كذلك أن ترتجلَ وتتحكَّم بقواعد الأداء وتحتفظَ بقدرتها على جذبِ الجمهورِ وتوجيه دفةِ اهتمامه في الوقتِ ذاته.

وتقوِّدُ المَلايةُ ومساعداتها مجالسَ العزاءِ، إذ تجلسُ المَلايةُ في المنبرِ الذي يمكنُ أن يكونَ مجلساً فخماً أو كرسيّاً بلاستيكيّاً مُغطىً بقطعة قماشٍ سوداءٍ؛ في

(١) حسين (عزاء التَّاريخ وتاريخ العزاء) ٨٠.

(٢) عليّ جي. حسين (تحليل إنثائي لروايات أحداث كربلاء في التَّاريخ الإسلامي المبكر) أطروحة دكتوراه، جامعة شيكاغو، عام ٢٠٠١ (٢٨٩-٢٩١).

(٣) ملاحظات حقليَّة، صيف عام ٢٠٠٨؛ خالد سنداوي (الخطبة الحسينية في الأدبيات الشَّيعية: التَّطور، والبناء، والمسار، وألقاب الواعظين) Orientalia Suecana المجلد ٥٤ (٢٠٠٥) ١٥١-١٧٨.

(٤) قارن مع جوناثان أتش. شانون في (أحضان أشجار الياسمين: الموسيقى والتَّحديث في سوريا المعاصرة) (كونكيتكت: مدلتاون مطبعة جامعة وسيليان، عام ٢٠٠٦).

حين تجلس مساعداً لها عند قدميها أو إلى جنيها. وتبدأ أعمال المجلس بالتحية التقليدية التالية التي تُعد الأكثر شهرة في مدينة السيدة زينب:

السَّلامُ عليكم يا مولاي وابن مولاي.

السَّلامُ عليك يا رسول الله وعلى آل بيتك المظلومين.

السَّلامُ عليك يا سيدي يا رسول الله.

السَّلامُ عليك يا سيدي يا أبا عبد الله.^(١)

والكلمات الأخيرة "يا أبا عبد الله" هي اسم الإمام الذي أقيم المجلس

لأجله، أي الإمام الحسين بن علي.^(٢)

وقد يبدأ المجلس - بحسب الملائية وأذواق الجمهور وتوجهاتهم - بأداء "الطمية" بطيئة الإيقاع، حيث تضرب النساء في المجلس صدورهن على نحوٍ منتظم وإيقاعي. وبينما أعلنت بعض من المراجع الدينية مثل فضل الله والخامني معارضة التطبير، إلا أنها لم تعارض اللطم أو ضرب الصدور.^(٣) وبنحو عام لا تستهل المشاركات في مجالس العزاء السورية واللبنانية عادةً هذه المجالس باللطم. إذ تبدأ مجالس العزاء أعمالها في الحوزة الزينية مثلاً، بالتحيات التقليدية، ثم اللطم البطيء، تليه الخطبة أو المحاضرة. وقد تكون الملائية والخطبة هي الشخص ذاته في بعض من مجالس العزاء الخاصة أو حتى مجالس العزاء الكبيرة العامة على الرغم من أن هذا الأمر لا يمثل بالضرورة. ما يحدث في المجالس جميعها. وبداهة، تعود الخطبة في نهايتها إلى التركيز على

(١) ملحوظات حقليّة، الاثنين في الثلاثين من حزيران عام ٢٠٠٨.

(٢) ترجمتي الشخصية.

(٣) ويهر (قاموس اللغة العربية الحديثة) ٨٦٨ مفردة لطم.

كربلاء مَصْحُوبًا بالانتقالِ إلى النَّعْيِ أو رثاءِ الأمواتِ الطُّقُوسِيّ الَّذِي تَغْطِي الحاضراتُ مِنَ النَّسَاءِ أَثْناءَهُ وجوهَهُنَّ [بالعباءاتِ] ويبدأنَّ بالبكاءِ أو (التَّبَاكِي). وعندَ انتهاءِ المَلَايَةِ مِنَ النَّعْيِ، تجفُّفُ المِشَارِكاتُ دموعَهُنَّ؛ وتمتلكُ المَلَايَةُ حينَهَا خيارَ أداءِ اللَّطِمِيَّاتِ، وَهِيَ جُمْلٌ تردُّدُهَا وتكونُ مَصْحُوبَةً عَادَةً بالضَّرْبِ الإيقاعيِّ المنتظمِ على الصُّدُورِ قَبْلَ إنْهَاءِ المجلسِ. وتميلُ المَلَايَاتُ اللَّبنانيَّاتُ والسُّوريَّاتُ إلى اختزالِ مدَّةِ هَذِهِ الفقرةِ أو رَبِّمَا إلْغائها بخلافِ المَلَايَاتِ العراقيَّاتِ اللَّائِي يملُنَّ إلى إطالَتِهَا.

وتنظَّمُ المَجَالِسُ جميعاً - في الحوزة الشِّيرازِيَّةِ تحديداً - ثلاثَ لَطِمِيَّاتٍ في الأقلَّ، تتنافسُ فيما بينها في رفعِ الصَّوْتِ واستشارةِ الحاضراتِ واستدراجِ العواطفِ. وقد تكونُ أوَّلُ لَطِمِيَّةٍ مَصْحُوبَةً بالضَّرْبِ على الأفخاذِ، والثَّانِيَّةُ على الصُّدُورِ، والثَّالِثَةُ على الخدودِ وينتهي المجلسُ عَادَةً بواحدةٍ أو أكثرَ مِنَ الصَّلواتِ المَعْرُوفَةِ، إذ تطلبُ المَلَايَةُ مِنَ الحاضراتِ الصَّلَاةَ على مُحَمَّدٍ ثُمَّ تقرأُ سورةَ الفاتحةِ للحضورِ بالنبابةِ عَن رِعاةِ المجلسِ وابتغاءِ طلبِ الشِّفاءِ وتلييةِ الحاجاتِ.

وبحسبِ مَا ذَكَرَهُ (فيرنون شوبل. Vernon Schubel)، يبيِّنُ الموقعُ المحوريُّ الَّذِي تشغلهُ مجالِسُ العزاءِ في المذهبِ الشَّيعيِّ الاثنيِّ عَشْرِيّ، حيثُ يندبُ الشَّيْعَةُ المَتَّقُونَ وفاءَ آلِ البيتِ ومعاناتِهِمْ... يبيِّنُ كَيْفَ أَنَّ التَّدِينِ الشَّيعِيَّ لَا يَنْطَلُبُ تَوَافَرَ النُّصُوصِ الدِّينِيَّةِ فَحَسْبُ، وَإِنَّمَا حَبَّ آلِ مُحَمَّدٍ وَالْوَلَاءُ هُمْ كَذَلِكَ. ^(١)

^(١) شوبل (العروض الأدائيَّة الدِّينيَّة في الإسلام المعاصر) ١٦-٢٠. ولا يعني هذا أنَّ الولاءَ للنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ وآلِهِ ليس مهماً للعديد من الشَّيْعَةِ كَذَلِكَ.

وتأسيساً على ذلك، فإنَّ صِغَةَ "طلال أسد" عَنْ أنثروبولوجيا الدِّينِ فيما يَتَّصِلُ بِالشَّيْعَةِ، تعني الارتباطَ لا بالنُّصُوصِ التَّأْسِيسِيَّةِ فَحَسْبُ،^(١) بل بأفرادٍ (آخَرِينَ) أنموذجيَّين تَفَرُّضُ وفائُهُم وحيوائُهُم على أَتْبَاعِهِم متطلِّباتٌ مُحدَّدةٌ؛ إذ يستلزمُ حبُّ آلِ البيتِ والولاءُ هُمُ مِنْ أَتْبَاعِهِم. في سبيلِ المِثَالِ. المُشَارَكَةُ في مَجَالِسِ العزاء، وحُضُورُ مَوَاقِبِ عَاشُورَاءَ، وَزِيَارَةُ الأُضْرَحَةِ والمراقِدِ مِثْلَ مِرْقَدِ السَّيِّدَةِ زَيْنَب.

وقد ميَّزَت (لارا ديب . Lara Deeb) في دراسَتِهَا عَنْ تَدْيِينِ النِّسَاءِ الشَّيْعِيَّاتِ اللَّبْنَانِيَّاتِ بَيْنَ المَجَالِسِ "التَّقْلِيدِيَّةِ" و "الحديثِ" و "المُوثَّقة" ولحظتُ تركيزَ المَلَايَةِ في النُّوعِ الأوَّلِ مِنَ المَجَالِسِ عَلَى المَضْمُونِ العَاطِفِيِّ وَعَلَى البكاءِ (وأودُ إِضَافَةَ الجَمَالِيَّاتِ إِلَى ذَلِكَ).^(٢) وخِلافًا لِهَذَا النُّوعِ، يَشَدُّ النُّوعَانِ الثَّانِي والثَّالِثُ "الحديثُ والمُوثَّقُ" عَلَى الوُضُوحِ والفهمِ والدَّقَّةِ التَّأْرِيخِيَّةِ.

ويندرُ في سورِيَا أَنْ تَكُونَ مَجَالِسُ العزاءِ "تَقْلِيدِيَّةً" أَوْ "حَدِيثَةً" مُوثَّقةً ومتماثلةً بِالكَامِلِ! فَبِحَسَبِ مَا ذَكَرْتُهُ المَلَايَتَانِ العُلُويَّتَانِ مَرْضِيَّةٌ وَأُمُّ زَهْرَاءَ أَثْنَاءَ إلقَائِهَا الخُطْبَةَ، تَخْتَلِفُ مَجَالِسُ العزاءِ فِيمَا بَيْنَهَا اخْتِلَافًا بَيِّنًا، فَلَكَ عَنَاصِرُهُ وَفَقَرَاتُهُ المُمَيِّزَةُ الَّتِي بِقُدْرَةِ المَلَايَةِ الِارْتِجَالِ مَعَهَا وَالتَّنَوُّعُ فِيهَا. وَزِيَادَةُ عَلَى ذَلِكَ، ثَمَّةَ عَوَامِلُ خَارِجِيَّةٌ تَسْعَى إِلَى جَعْلِ الأسَالِبِ المُتَّبَعَةِ فِي تَقْدِيمِ مَجَالِسِ العزاءِ وَمَضْمُونَاتِهَا قِيَاسِيَّةً؛ مِنْ مِثْلِ سُلْطَاتِ الدَّوْلَةِ التَّنْظِيمِيَّةِ / الضَّبْطِيَّةِ، أَوْ

(١) قَارَنَ مَعَ أُسْدِ (فِكْرَةُ أنثروبولوجيا الإسلام).

(٢) بِحَسَبِ مَا لَحَظْتُهُ دِيبُ، تُقَامُ المَجَالِسُ التَّقْلِيدِيَّةُ بِاللُّغَةِ العِرَاقِيَّةِ لَا اللَّبْنَانِيَّةِ أَوْ العَرَبِيَّةِ القِيَاسِيَّةِ الحَدِيثَةِ. وَبِحَسَبِ العُلُويَّةِ المَرْضِيَّةِ، تَمَازُ اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ العِرَاقِيَّةُ لَا بَكُونِهَا أَكْثَرُ عَاطِفِيَّةً فَحَسْبُ، بَلْ بَكُونِهَا أَكْثَرُ شَاعِرِيَّةً وَمِنْ ثَمَّ هِيَ أَعْمَقُ تَأْثِيرًا. وَزِيَادَةُ عَلَى ذَلِكَ، يَعْكُسُ التَّأَكِيدُ عَلَى الشُّعْرِ وَأَدَاءِ أُنَاشِيدِ العزاءِ كَذَلِكَ أَهْمِيَّةَ الجَمَالِيَّاتِ فِي هَذِهِ المَجَالِسِ.

فواعل الدولة / الفواعل الدينيين الخارجيين وغيرهم. وقد لا تكون هذه العوامل مقابل ذلك متوافقة. بالضرورة. أو متناغمة فيما بينها، فبينما واصل آية الله فضل الله اللبناني رحمه الله، الذي كان أحد أبرز الباحثين والزعماء الدينيين لحزب الله الترويج لوجهات نظره "العقلانية" في مدينة السيدة زينب، لم يكن الشيرازيون على وفاق معه. وزيادة على ذلك، ومثلما بين (ويرنر ايند . Werner Ende) فإن آراء الباحثين ووجهات نظريهم قد لا تستند بالضرورة. إلى المقبولية الفقهية للضرب بالزناجيل فحسب، بل إلى جملة من العوامل الأخرى، أمثال محاولة نبيل استحسان الجماهير التي تخطى الطقوس أمثال الضرب بالزناجيل والبكاء العاطفي بشعبية واسعة بينهم.^(١)

وثمة أسباب عديدة تدفع النساء إلى حضور مجالس العزاء العامة؛ منها مقابلة غيرهن من النساء واكتساب صفة التقوى والتدين.

وتوحي الصلاة أو الدعاء الذي تتم تلاوته في ختام مجلس العزاء الذي تشارك فيه النساء الحاضرات جميعاً ابتغاء تحقيق آمياتهن وتلبية حاجاتهن... أن هدف إشباع الحاجات أو الرغبات المشروعة يمكن تحقيقه من خلال المشاركة في مجالس العزاء. وتعمل المجالس كذلك في الاتجاه المعاكس، إذ تُندّر إحدى الحاضرات أن تقيم مجلس عزاء في منزلها. في سبيل المثال. في حال شفي أحد المقرّبين إليها أو حصلت على وظيفة؛ إلى آخره من هذه الرغبات والطلبات، و. تقليدياً. لن تكون المرأة ملزمة بفعل ذلك إلا إذا تحقق لها ما أرادت.^(٢) واعتاد

(١) أيند (الضرب بالزناجيل في المحرم وعلماء الشيعة) ١٩-٣٦.

(٢) قارن مع آن بترج "مختصون في الفعل الإعجازي: بعض من المراقدين في شيراز" في (رحلات مقدسة: أنثروبولوجيا الحج) تحرير آلان مورينس (وستبورت، مطبعة غرينود، عام ١٩٩٢)،

الشَّيْعَةُ - في حَالِ وفاةٍ أحدِ أفرادِ العائِلَةِ، لاسِيَّما إذا كانَ مَوْتًا مَفاجِئًا - إقامةُ بضعةٍ مَجالسٍ عزاءٍ في منازلهم. وتتَّخَذُ هَذِهِ المَجالسُ شَكْلَ مَجالسِ العزاءِ الأسبوعيَّةِ ذاتِها الَّتِي تُقامُ في الحَوَازِاتِ والحُسَيْنِيَّاتِ، وتجري فيها الإِشارةُ إلى عُمُرِ المَوتِيِّ وجنْسِهِ على نَحْوِ رَمَزيٍّ في السَّرْدِ الَّذِي تَخْتارُهُ المَلأِيَّةُ، ولا يُذكَرُ اسْمُهُ سِوَى في الدُّعَاءِ الأخيرِ.

وبحسبِ ما بَيَّنَّتْهُ العلويَّةُ "أُمُّ حَسَنِ" قَدْ تَقِيَمُ الأُسْرُ الشَّيْعِيَّةُ مَجالسَ العزاءِ أَملاً مِنْهَا في نَجَاحِ أحدِ أَفرادِها في الدَّرَاسَةِ أو شِفائِهِ أو حُصُولِهِ على وَظيفَةٍ أو زِواجِهِ.^(١) وَذَكَرْتُ لِي أَنَّها سَاعَدَتْ في الآوَنَةِ الأخيرةِ إِحدى الشَّابَّاتِ على الزَّواجِ مِنْ خلالِ إِقامةِ مَجْلِسِ عزاءٍ بِاسْمِ القاسمِ، أَحَدِ شَهِداءِ واقِعَةِ الطَّفِّ في كِربلاءَ.^(٢) وَحَتَّى في حَالِهِ لَمْ يَكُنْ عَرَسَ القاسمِ هُوَ المَوْضُوعَ الرَّئِيسَ في المَجْلِسِ، تَوَفَّرَ هَذِهِ المَجالسُ . على وَجهِ العُموْمِ . لِلحَمَوَاتِ المُحْتَمَلاتِ فِرْصًا كَثِيرَةً مِنْها مُشاهَدَةُ فِتْيَاتٍ في سَنِّ الزَّواجِ؛ وَهِنَّ يقدِّمْنَ الشَّايَ والكعكَ، وَحَتَّى وَجَبَتْ كامِلَةٌ يُقدِّمُ فيها الكَبابُ والدَّجَاجُ زِيادَةً على تَمَتُّنِ العِلاقاتِ الاجْتِماعِيَّةِ. وَتَنطَوِي اِحْتِمَالِيَّةٌ خِطْبَةُ إِحدى فِتْيَاتِ العائِلَةِ الَّتِي تَقِيَمُ مَجْلِسَ عزاءٍ للقاسمِ - العَرِيسِ الَّذِي قُتِلَ في مَعْرَكَةِ الطَّفِّ - أو راعِيَةِ

٢٠١-٢١٠؛ آن بترج، "تبادل الهدايا في إيران: موقع الهوية الذاتية في التفاعل الاجتماعي (الفصلية الأنثروبولوجية) ٥٨ العدد ٤ (١٩٨٥): ١٩٨.

(١) ملاحظات حقلية ربيع عام ٢٠٠٩.

(٢) قارن مع كارن جي رافل (من يستطيع الزواج في أوقات مثل هذه؟ مناقشة مجالس نقش الحنة في حيدر آباد) مجلة دراسات جنوب آسيا وأفريقيا والشرق الأوسط المقارنة ٢٩ العدد ٣ (٢٠٠٩) ٥١٤-٥٠٢.

المجلس، ثم زواجهما... ينطويان على مُفارقةٍ عميقة، بيد أن هذا الجانب، مثلما سَأبَيِّن أدناه، يمثل جزءاً من الطَّابعِ الكرنفاليِّ لمجالسِ العزاءِ في المُحرَّم^(١).

أَنموذجُ كربلاءَ:

حظِيَتْ طقوسُ شهرِ المُحرَّمِ وخطاباتهُ باهتمامٍ واسعٍ النطاق، وعُدَّتْ مِنَ المَوْضوعاتِ المُفضَّلةِ في أوساطِ المؤرِّخين، والأنثروبولوجيين، وعلماءِ السِّياسة. إلَّا أنَّ النَّظرةَ إلى هذه الطُّقوسِ تَبَايَنَتْ مِنْ مرحلةٍ إلى أُخرى، إذ دأَبَ البَاحِثُونَ. على وَجهِ العموم. قَبْلَ الثَّوْرةِ الإِيرانِيَّةِ في عام (١٩٧٩ م) في تَأطِيرِ تحليلاتِهِم وتَقْدِيمِهَا بِصِيغِ (آلامِ كربلاءَ) التي كانوا يتَعَامَلُونَ مَعَهَا ويتَحَدَّثُونَ عَنْهَا بِوصْفِهَا النُّسخةَ الشَّيعِيَّةَ لِمَسْرُوحِيَّةِ (آلامِ المَسِيحِ) الشَّائِعَةِ في عِروضِ عيدِ الفِصحِ المَسِيحِيَّةِ^(٢). ثُمَّ شَهِدَتْ مَرَحَلَةٌ ما بَعْدَ الثَّوْرةِ تَحَوُّلاً في اِهْتِمَامِ البَاحِثِينَ، أَمْثالَ (نيكي كدي . Nikki Keddie) و (مايكل فشر . Michael Fischer) نَحْوَ ظاهِرَةِ تَسْيِيسِ طقوسِ المُحرَّمِ وخطاباتهِ الشَّيعِيَّةِ، التي حَمَلَ لَوَاءَهَا عِلْمَاءُ الشَّيعَةِ ومفكِّروهُم، أَمْثالَ عليٍّ شَريعَتِي.

ويُعدُّ عَالِمُ الأنثروبولوجيا "مايكل فشر" أوَّلَ مَنْ سَكَّ عِبارةَ "أَنموذجِ كربلاءَ" لتمييزِ طقوسِ المُحرَّمِ الشَّيعِيَّةِ عَنْ طقوسِ التَّوْبَةِ الكاثولِيكِيةِ. ويشيرُ بِناءَ (construction) فشرَ هذا إلى المَضْمُونِ البلاغيِّ في السَّرْدِ (الكربلائيِّ)

(١) مثال على ذلك، تتسم مجالس العزاء الطَّقوسِيَّة بكونها كرنفاليَّة لجهة تقديم المضيفين المأكولات والشراب في الوقت الذي يحيون فيه ذكرى الجوع والعطش، وتسرد المألية تفاصيل غروتسكية مفعجة بأسلوب ثريٍّ شاعريٍّ، وتسهم عمليَّة نذب وفاة أطفال الحسين، سواء أكان القاسم أم عليًّا الأصغر طقوسياً في إتمام الرِّجيمات أو تحقُّق الحمل.

(٢) قارن مع بيتر جلكووسكي، المحرَّر، (التَّعْزِيَّة: الطَّقُس والدراما في إيران) (نيويورك: مطبعة جامعة نيويورك، عام ١٩٧٩).

وشكله الدرامي وأهميته في تمييز الشيعة عن غيرهم. ويوفر هذا النموذج، بحسب فشر (أنموذجات للعيش وطريقة استذكارية من الذاكرة للتفكير ب: كيف نعيش هذه الحياة).^(١) ثم طرح المجلد الذي تولى تحريره المؤرخ "كدي" في عام (١٩٨٣ م) (أنموذجات العيش والطرائق الاستذكارية المعنوية بالتفكير بصيغ "ثنائية" فيما يتصل بالسياسة. وتحظى "الثنائية" في العنوان الفرعي الذي اختاره "كدي" (المذهب الشيعي من المهادنة إلى الثورة) الذي أعادت (ماري ألين هغلاند . Mary Elaine Hegland) صوغه إلى "التكيف والثورة" بأهمية بالغه في ظل اعتماد بعض من الباحثين على هذه "الثنائية" في النظر إلى أنموذج كربلاء.^(٢)

وانسجاماً مع ذلك، اختار عالم الأنثروبولوجيا (مايكل غلزنان Michael Gilsean) مستنداً في ذلك إلى مقارنته بين إيران ولبنان... اختار تسمية النمط المسالم سياسياً مقابل الثوري بـ "نمط التدين المنفعلي" مقابل "الفاعل" أو "النشط".^(٣) ثم تبنى كل من (كامران آغاي . Kamran Aghaie) و "لارا ديب" و (صوفيا بانديا . Sophia Pandya) وجهات النظر المتمركزة سياسياً والثنائية الخاصة بأنموذج كربلاء، وتحديثاً عن حدوث

(١) مايكل فشر (إيران: من النزاع الديني إلى الثورة) (ماديسون: مطبعة جامعة ويسكونسن، عام ٢٠٠٣ [١٩٨٠] ٢١).

(٢) نشرت كذلك كتاباً في عام ١٩٨١ بعنوان (جذور الثورة).

(٣) مايكل غلزنان (معرفة الإسلام: الدين والمجتمع في الشرق الأوسط الحديث) (نيويورك: أي ب. توروس ٢٠٠٠ [١٩٨٢] ٦١).

نقطة في النصف الثاني من القرن العشرين من التفسيرات "التقليدية والخاصة" إلى "الحديثة والثورية".^(١)

وتعكس هذه المفهومات الثنائية التي دأب الباحثون الأكاديميون على استخدامها إلى حد كبير المفهومات الثنائية الشائعة في الأدبيات الإيرانية الدينية [المذهبية] أمثال أدبيات علي شريعتي (توفي عام ١٩٧٥ م) الذي عمل في العقود التي سبقت الثورة الإيرانية في تعديل سرد كربلاء ابتغاء تحويله إلى بيان ثوري. وبين شريعتي أنه ثمة نوعان من المذهب الشيعي: النوع الأول هو المذهب الشيعي (الصافي والعدل والشمس) وهو المذهب الشيعي للإمام الأول علي بن أبي طالب. أما الثاني فهو (المذهب الشيعي الصفوي)؛ المذهب الدنيوي، والخاص، والتقوى الزائفة للنخبة من العلماء أو رجال الدين.^(٢) ويعني (المذهب الشيعي الدنيوي) الذي يتبناه رجال الدين أنهم ضمناً كانوا أكثر اهتماماً بتفصيلات الالتزام بالطقوس [والشعائر الدينية] من محاربة الأنظمة الفاسدة التي اختارهم وأثرتهم.^(٣) ومن خلال اتخاذ المذهب الشيعي العلوي [نسبة إلى الإمام علي] بوصفه الشكل النقي والعدل والصحيح وتجريد الولاية الدينية / أو ولاية رجال الدين من مشروعيتهما؛ يؤكد شريعتي على أهمية (التقليد الفاعل للحسين من خلال التمرّد الفاعل ضدّ الحكام الفاسدين).^(٤) وتحوّلت معركة كربلاء تبعاً لذلك من رواية دينية - تاريخية

(١) قارن مع آغاي (شهداء كربلاء)؛ ديب (الحداثي المأسور)؛ صوفيا بانديا "الماتم الشيعية النسوية في البحرين" مجلة دراسات النساء الشرق أوسطيات ٦ العدد ٢ (٢٠١٠) ٣١-٥٨.

(٢) آغاي (شهداء كربلاء) ١٠٠-١٠٣.

(٣) المصدر السابق، ١٠٥.

(٤) المصدر السابق، ١٠٩.

تشغل موقعاً محورياً في الممارسات الخلاصية إلى التزام سياسي وأخلاقي متواصل لمُحاربة الظلم.^(١) وتحوّل الحسين إلى (رمزٍ للتمردِ ضدّ الشّاء والقوى الإمبريالية الأجنبية).^(٢)

واستلهم باحثون ورجال دين آخرون بعد وفاة شريعتي نظرياته وفكره، وكان على رأس هؤلاء آية الله الخميني الذي نادى بضرورة مشاركة رجال الدين الشيعة في الشأن السياسي. وعلى الرغم من ذلك، لا تحظى فكر شريعتي بشعبية كبيرة، ولا يجري تداولها كثيراً في سوريا، حيث يرقّد جثمانه في مقبرة مجاورة لمقعد السيدة زينب.^(٣) وبحسب ما ذكرته "لورنس لوير" فقد اعتادت النخبة الشيعية المثقفة في سوريا، والعراق، وإيران، والكويت، والبحرين الذين تسميهم لوير (الأفندية) قراءة مؤلفات شريعتي والتعاطف مع آرائه المتقدمة لطبقة رجال الدين. وبناءً على ذلك، بالإمكان تلخيص ما (اكتسبه الأفنديّة من فكر روح الله الخميني أو محمد الشيرازي وما تعلّموه من أسلوب حياتها، هو أنّ هذين الرجلين كانا على خلافٍ شديد مع المجموعة [الحالية من رجال الدين] التي ينتمون إليها، وأنّهما أحدثا ثورة داخل طبقة رجال الدين؛ ثورة موازية في تأثيرها وفاعليتها لمساعيهم الرامية إلى الإطاحة بالنظام السياسي).^(٤) وبكلماتٍ أخرى: بالإمكان وصف كل من الخميني والشيرازي بـ

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق، ١١٠.

(٣) يُرجّح أنّ السبب في غياب شريعتي العقائدي هو أنّ انتقاداته لا تصدق على سوريا. والسبب في ذلك هو كون سوريا بلداً ذا أكثرية سنية، ولا يوجد فيها سوى بعض من العلماء الشيعة. وزيادة على ذلك، وبسبب تمثيل محسن الأمين ومحمد الشيرازي أهم علماء الشيعة وأبرزهم في سوريا في القرن العشرين؛ لا يمكن وصف علماء الشيعة في سوريا أنهم من المتعاونين الخائعين.

(٤) لوير (السياسات الشيعية العابرة للقوميات).

"الثوريين" لأنَّهم كليهما طالبا بمُشاركة رجال الدين في الشأن السياسي. والفرق الوحيد بينهما هو تمكُّنُ الخميني من استلام مقاليد الحكم بعد نجاح ثورته في إيران خلافاً لمحمَّد الشيرازي وأخويه الذين لم ينجحوا على الرغم من انخراطهم في الشأن السياسي في بضعة بلدان في مساعيهم الثوريَّة.^(١)

والسؤال الذي يملِي ذاته هو: (إذا كان الخميني والشيرازي كلاهما ثوريين، كيف يمكنُ لأنموذج كربلاء وثنائيَّة التفسيرات "الثوريَّة" و"الخلاصية" أن تسهم في التمييز بينهما وتحليل شخصيتهما ومواقفهما؟!.

أرى أنَّ الحلَّ الأمثل لهذه المعضلة هو في تقديم مفهوم "الكرنفال" بسبب ما يمتاز به من كمونيَّات خلاصية وثوريَّة عميقة.

المجتمع المحليُّ الأدائيُّ ومرشدوه الأخلاقيُّون:

يغلبُ على دراسات الباحثين في المذهب الشيعيِّ الاثني عشريِّ جنوب الآسيويِّ، أمثال "فيرنون شوبل" و (ديفيد بينو . David Pinault) و (توبي هوارث . Toby Howarth) على وجه العموم... يغلبُ تركيزُها على الجوانب الجماعيَّة المشتركة والخلاصية في طقوس العزاء [الحسينية].^(٢) إذ نهل "شوبل" في سبيل المثال من (فكتور تيرنر . Victor Turner) ليقول: إنَّ ممارسة الضرب بالزناجيل الدموية في مدينة كراتشي في الباكستان تسهم في

(١) كانوا ناشطين في العراق ثمَّ البحرين وإيران في سبعينيات القرن العشرين، ولكنهم تعرَّضوا إلى التهميش في إيران مقابل احتفاظهم بمواقفهم وتأثيرهم في البحرين.

(٢) شوبل (العروض الأدائيَّة الدينيَّة في الإسلام المعاصر)؛ بينو (حصان كربلاء)؛ هوارث (الشيعة الاثنا عشريُّون بوصفهم أقلية مسلمة في الهند: منبر الدموع) (نيويورك: روتلج، عام ٢٠٠٥).

خلق الشعور بالكومينيتاس (communitas)^(١) بين المشاركين في الطُقوس وتعزُّز ولائهم لآل البيت (لاسيما المتحدِّرين من سلالة النَّبيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم من خلال ابنته فاطمة) وتؤكدُهُ.

وعلى الرغم من أهميَّة وجهة نظر "بينو" التي صرَّح من خلالها بأن هذه الممارسات الطُقوسية في الهند تُعدُّ دليلاً على الهوية المجتمعية؛ إلا أنَّى أرى أنَّ الأهمَّ من ذلك توكيده الطَّابع الخلاصيَّ الملازم لطقوس الاستذكار.^(٢)

أمَّا (توبي هوارث) الذي اختار الكتابة عن الهند كذلك، فيرى أنَّ طقوس العزاء الشيعية هي طقوس تتعلَّق بتعريف الهوية في جوهرها، ويبيِّن أنَّ المَوَاقِب تُولَّفُ فعلاً مرئياً يشهد عليه المتممَّون واللامتممَّون كلاهما.^(٣) وتبعاً لذلك،

(١) كومينيتاس: اسم لاتيني يشير عادة إمَّا إلى مُجتمع محليٍّ غير بنائيٍّ يتمتع فيه النَّاسُ بالمساواة، وإمَّا إلى روح المُجتمع المحليِّ نفسه. وتتمتَّع هذه المُفردة بأهميَّة في الأنثروبولوجيا الثقافية والعلوم الاجتماعية كونها كلمة "دخيلة". وقد أظهر عالم الأنثروبولوجيا، فيكتور تيرنر الذي حدَّد الاستخدام الأنثروبولوجي لهذه المُفردة؛ اهتماماً ملحوظاً بالتفاعل بين ما سبَّاه "البناء" الاجتماعيَّ و "البناء الاجتماعيَّ". ويؤلَّف "الوقوف بعتبة الشعور" و "الكومينيتاس" كلاهما أحد مُكوِّنات اللابنائية.

ويشير الكومينيتاس إلى حالة غير بنائية حيث تسمح حالة المساواة، التي يتمتع بها أفراد المُجتمع جميعاً في خوض تجربة عامَّة مُشتركة عادة من خلال الاشتراك في طقوس الانتقال. والكومينيتاس هو أحد خصائص النَّاس الذين يعيشون حالة "الوقوف بعتبة الشعور" معاً. ويُستخدم هذا المُصطلح لتمييز صيغة العلاقة الاجتماعية عن مجال العيش المُشترك. وثمة أكثر من تمايز بين "البناء" و "الكومينيتاس" أكثرها أهميَّة هو الفرق بين "العلمانيَّة" و "المُقدَّس". وينطوي كلُّ موقف اجتماعيٍّ على جانب مُقدَّس. ويكتسب الأفراد هذا المكوِّن المُقدَّس أثناء طقوس الانتقال من خلال تغيير المواقع. ويتحقَّق جزء من هذا المكوِّن عن طريق التواضع المُؤقَّت الذي يتعلَّمه الفرد في هذه المراحل، وهذا يسمح للنَّاس بالوصول إلى منصب أعلى (المترجمة).

(٢) بينو (حصان كربلاء) ١٩؛ هوارث (الشَّيعة الاثنا عشريُّون) ١٧٠.

(٣) انتقد شوبل زميله هوارث لتركيزه على المُجتمع المحليِّ وإقصائه خصائصه الروحانية والولاء والخلاصية. غير أنَّ حقيقة كون هوارث رجل دين مسيحيٍّ قد يفسِّر مُقارنته هذه. قارن مع فيرنون جي شوبل (مراجعة نقدية لدراسة هوارث: الشَّيعة الاثنا عشريُّون بوصفهم أقلية مسلمة في الهند: منبر الدَّموع)؛ مجلَّة الدِّراسات الإسلامية ١٧ العدد ٣ (٢٠٠٦) ٣٨٢-٣٨٤.

تخدم طُقوسُ المُحرَّم غرضين، هما توحيدُ المُجتمعاتِ المحليَّةِ المتباينةِ والمتغايرةِ في السِّياقِ الجَنوبِ آسيويٍّ، وتُميِّزُ المُختلفِ عنها في الوقتِ ذاته. ويَن "هوارث" أنَّ الخُطبَ التي تتضمَّنُ نقاشاتٍ جدليَّةً عامَّةً ومُناظراتٍ دفاعيَّةً / اعتذارِيَّةً ضدَّ السُّنَّةِ والغربِ والهندوسِ والمذاهبِ الشَّيعيَّةِ الأخرى تسبِقُ عادةً مَواكبَ العزاءِ التي تُقامُ في (حيدرُ آباد).^(١) ويسهمُ الجمعُ بينَ المَواكبِ والخُطبِ في توكيدِ أنَّ الشَّيعَةَ يُولِّفونَ "مُريئاً وفكرياً" مُجمَعاً محليّاً أخلاقياً منفصلاً، يشغلُ حيزاً مكانيّاً مُميّزاً، لأنَّ الممارساتِ العاطفيَّةِ التَّعبيريَّةِ، تقدِّمُ مواقعَ الولاءِ الشَّيعيَّةِ. جغرافياً - بوصفِها (منطقةً طُقوسيَّةً تسهِّلُ إظهارَ الحزنِ).^(٢) وزيادةً على ذلك، وصَفَ "بينو" مَمارساتِ المُحرَّم بـ "التَّوفيقِيَّةِ"^(٣) وقال: إنَّه في ظلِّ الحُكمِ المُسلمِ، تتغلَّبُ شبكاتُ الرِّعايةِ المُعقَّدةِ والولاءاتِ الاجتماعيَّةِ عادةً على توبيخِ رجالِ الدِّينِ، ولهذا قد يشتركُ الهندوسُ والسُّنَّةُ في الهندِ. في مَواكبِ المُحرَّم.^(٤)

وخلافاً لما في جنوبِ آسيا، بالكادِ يَمكُنُ الحديثُ عَن مَجالسِ المُحرَّم المعاصرةِ وطقوسِها في سورياً بوصفِها ميادينَ للحوارِ "البينِ. عقائديّ" نظراً إلى قِلَّةِ عددِ السُّنَّةِ أو المُسيحيِّين الذين يشتركون في الطُقوسِ الشَّيعيَّةِ.^(٥) (على

(١) هوارث (الشَّيعَةُ الاثنا عشرِيون) ١٢٣-١٣٤، ١٦٣، ١٦٨-١٦٩.

(٢) شوبل (العروضُ الأدائيَّةُ الدِّينيَّةُ في الإسلامِ المعاصر) ٩٤.

(٣) بينو (حصان كربلاء).

(٤) المصدرُ السَّابِقُ ذاته.

(٥) يحضر عدد قليل من غير الشَّيعَةِ مُشاهدةً لمجموعات من الشَّبابِ الشَّيعَةِ وهم يمارسون التَّطبيرَ بعد صلاةِ الفجر. وعند الظَّهيرة تقريباً، حينما يتجمَّع الرِّجالُ الجَنوبِ الآسيويون جنوب المرقَدِ لأداء طقسِ الضَّرْبِ بالزَّناجيل، يتألَّفُ الجمعُ المُحتشد من السُّنَّةِ وغيرهم، وييدي بعضهم بصوتٍ مُنخفضٍ عدم استحسان. وللمزيد من المعلومات بشأن هذا الموضوع انظر الفصل التَّالِيَّ عَن "التَّقوى الكرنفاليَّة".

الرَّغْمَ مِمَّا أوردتهُ صحيفَةُ الواشنطن بوست في أحدِ تقاريرِها بشأنِ تشييعِ بعضِ
مِنَ السُّنَّةِ السُّوريِّينَ [اعتناقهم المذهبَ الشَّيعيَّ] أثناءَ الصِّراعِ المسلَّحِ بَيْنَ لبنانَ
وإسرائيلَ، تعبيراً عَن ولائهم لحزبِ الله).^(١)

تخدمُ مجالسُ العزاءِ، لا صلاةُ الجمعةِ. في سبيلِ المثالِ. في الأزمانِ التي
تمثُلُ فيها الطائفةُ الاثنا عشريةُ مجموعةً مُضطهدةً ومُقموعةً... تخدمُ غرضَ نقلِ
الرُّموزِ والعقائدِ الشَّيعيةِ. وقد كانتِ الوظيفةُ التَّعليميةُ لمجالسِ العزاءِ في
المُحرَّمِ على وفقِ المنظورِ التَّاريخيِّ منذُ بداياتِ ظهورِها، وما زالتِ تحظى بأهميةٍ
كبيرةٍ، فبعدَ واقعةِ الطَّفِّ في كربلاء؛ استغلَّت السيِّدةُ زينبُ وابنُ أُخيها (كلُّ
مناسبةٍ ممكنةٍ يجتمعُ فيها النَّاسُ لإلقاءِ الخطبِ التي تُشعرُ النَّاسَ بالحزنِ وتدفعُهُم
إلى البكاءِ).^(٢) وكانتِ السيِّدةُ زينبُ أثناءَ نشرِها رسالةَ كربلاء، (تدرَّبُ
المؤمنينَ... وتعرِّفُهُم إلى المبادئِ الإيديولوجيةِ الدَّقيقةِ التي دعا إليها الحُسينُ
وطلبَ الالتزامَ بها).^(٣) يزدادُ هذا الأمرُ أهميَّةً عندَ لحظِ تمثيلِ صلاةِ الجمعةِ
وخطبِها وحضورِهما الإلزاميَّ - بالنسبةِ للرِّجالِ - ظاهرةً حديثةً نسبياً في
المذهبِ الشَّيعيِّ، لأنَّها كانتِ تُعدُّ مُمارَسةً غيرَ مشروعةٍ في ظلِّ غيبةِ الإمامِ.^(٤)

(١) الن كنكمير "التَّحوُّلُ المذهبيُّ في سورياً لأجلِ السِّياسة: انتصار حزبِ الله في حربِ لبنان
يلهم بعضاً من السُّنَّةِ ويقنعهم باعتناق المذهبِ الشَّيعيِّ" الواشنطن بوست، السادس من تشرين
الأوَّل عام ٢٠٠٦.

http://www.washingtonpost.com/wb-dyn/content/article/2006/10/5/Ar2006100502073_pf.html
(٥٥ نيسان ٢٠٠٧).

(٢) هوارث، (الشَّيعة الاثنا عشريُّون) ٥-٦.

(٣) آغاي (ديناميات الجنوسة) ٥٣-٥٤.

(٤) هوارث (الشَّيعة الاثنا عشريُّون) ٤.

ولهذا خدمت مجالس العزاء في المحرم غرض تعريف الشيعة بخطابات راقية ورفيعة.^(١)

وتحدث "هوارث" في السباق ذاته في معرض تحليله لخطب المحرم الشيعة في (حيدر آباد) في الهند عن أهمية التربية والتعليم. وبينما حدد المكونات البنائية للمجالس الشيعية: (المجلس هو موقع يجتمع فيه الشيعة للإصغاء إلى الخطبة والتعبير عن حزنهم على ما حدث في كربلاء)... فقد ذكر "هوارث" أن خطب المحرم تبدأ عادة بمدح فضائل الأئمة المعصومين الأربعة عشر (الذين يشتملون على النبي محمد وابنته فاطمة والأئمة الاثني عشر). وبحسب "هوارث" تمثل هذه الخطب التي تتناول فضائل الأئمة وتحت المستمعين على الالتزام بها... تمثل في جوهرها وسيلة لتوحيد أفراد المجتمع المحلي وتعزيز إعجابهم بالأئمة المعصومين والاقتداء بأفعالهم؛ وزيادة على ذلك، تكون توصيفات مثل هذه بمنزلة أنموذجات للسلوك الأخلاقي.^(٢) ويحظى الإمام علي (الإمام الأول وأبو الإمام الحسين) بحصة الأسد من المديح والثناء بين الشخصيات الذكورية في هذه الخطب، ولما كان الإمام الوحيد الذي استلم مقاليد الحكم، فإنه يعد أنموذجاً للإنسان الحر والعادل

(١) شوبل (العروض الأدائية الدينية في الإسلام المعاصر) ٩٠.

(٢) هوارث (الشيعة الاثنا عشريون) ١٣٦-١٤٢.

والكريم.^(١) وقد شددت "ماري ألين هغلاند" على هذا الجانب من خلال اقتباسها إحدى المقولات المشهورة: (عش مثل عليٍّ ومث مثل الحسين).^(٢) ومما يلفت الانتباه حقاً، أنه على الرغم من الاحترام والتقدير العاليين اللذين يحظى بهما الإمام عليٌّ. على وجه العموم. ليس ثمة اتفاق بين الشيعة جميعاً على تجسيده الرجولة المثالية! فبحسب ما ذكرته (أم علي) التي درّسني اللغة العربية العراقية، لي: (لا فتى إلا علي، ولكني لا أتمنى الزواج منه).^(٣) وبحسب (إسحاق نقاش . Yitzhak Nakash) يفضل رجال القبائل العراقية في الجنوب العباس الذي قُتل مقطوع الكفين مع الحسين. شقيقه من أبيه. في كربلاء. فبوصفه رجلاً غير معصوم، (يمثل العباس رجلاً مؤالياً ومخلصاً وعادلاً من جهة؛ ومن جهة أخرى هو سريع الغضب ويعاقب من يقسم باسمه كاذباً).^(٤)

وعلى شاكلة الرجال، يوفر أنموذج كربلاء للنساء عدداً من الخيارات، إذ استشهدت "هوارث". في سبيل المثال. في أحد المجالس بخطبة مجّدت الملائية فيها فضائل فاطمة وأخلاقها. وفي هذا المثال تحديداً، تداخلت فضائل فاطمة وأخلاقها مع معاناتها وآلامها؛ فصبرها وتحملها هما أنموذجان معتبران

(١) انظر كذلك فشر (إيران من النزاع الديني إلى الثورة) ١٤٧.

(٢) ماري ألين هغلاند "الضرب بالزناجيل والأصولية: تشكيل (تحويل) المعنى والهوية والجندر من خلال طقوس العزاء النسوية الباكستانية"، مجلة الأنثولوجي الأميركية ٢٥ العدد ٢ (١٩٩٨) ٢٥٠.

(٣) ملحوظات حقلية صيف عام ٢٠٠٧؛ لندا هيس "رفض سيتا: استجابات الهنود لمعاملة الرجل المثالي القاسية لزوجته المثالية" مجلة أكاديمية الأديان الأمريكية ٦٧ العدد ١ (١٩٩٩) ١-٣٢.

(٤) نقاش (شيعة العراق) ١٧٨-١٧٩.

للسُّلوكِ الأخلاقيِّ الأثوئي،^(١) أمّا الأنموذجُ الأخلاقيُّ الأثوئي الثاني فهو زينب.

وتميّزُ النساءُ الشَّيعياتُ في لبنانَ بينَ التَّفسيرين "التَّقليديّ" و "المُوثَّق" لقِصَّةِ السَّيِّدةِ زينبَ وشخصيَّتها. فبحسبِ الأنموذجِ التَّقليديّ، اشتدَّ الحزنُ بزينبَ وأخذَ مِنْهَا الأَسَى كُلَّ مآخِذٍ بَعْدَ مَوْتِ أَخِيهَا الحُسَيْنِ، وتبعاً لذلك، فَهِيَ تُعدُّ أنموذجاً للنَّدبِ والحزنِ والعزاء؛ أمّا بحسبِ الأنموذجِ "المُوثَّق" الأحدث، فيجري التَّوكيدُ على كَيْفِيَّةِ وقوفِ زينبَ بوجهِ يَزِيدَ وإصرارِها على نشرِ قِصَّةِ كربلاءِ المُفجَّعةِ ورعايةِ النساءِ والأطفالِ الآخرين.^(٢) ونظراً إلى اشتراكِ عددٍ كبيرٍ مِنَ الشَّخصياتِ في أحداثِ كربلاءِ، سواءً بطريقَةٍ مَباشِرَةٍ أم غيرِ مَباشِرَةٍ؛ كما في حالةِ فاطمَةَ التي كانتَ حَاضِرَةً رُوحِيّاً،^(٣) فمِنْ ثَمَّ هُناكَ عدَّةُ أنموذجاتٍ مَقبولةٍ للسُّلوكِ الأخلاقيِّ ومصادِرُ للإرشادِ الرُّوحيِّ والأخلاقيِّ.^(٤) ومِنْ خلالِ تعدُّدِ هَذِهِ الأنموذجاتِ الورَعَةِ والتَّقِيَّةِ، تخدمُ طقوسُ المُحرَّمِ ورموزُهُ غايَتَيْنِ، هما توحيدُ المُشاركينَ، والتَّوفيقُ بينَ تنوُّعِهِم.

(١) هوارث (الشَّيعة الاثنا عشريُّون) ١٤٣، ١٤٨؛ موجان مومن (مُقَدِّمة إلى الإسلامِ الشَّيعيِّ) (نيوهافن: مطبعة جامعة ييل، ١٩٨٥) ٢٣٥؛ بينو (حصان كربلاء) ٦٤-٦٥.

(٢) لارا ديب "من العزاء إلى الحراك: السَّيِّدة زينب واللبانيات الشَّيعيات وتحولُ عاشوراء" في (نساء كربلاء) تحرير كامران آغاي (اوستن: مطبعة جامعة تكساس، ٢٠٠٥) ٢٤٢، ٢٥٥-٢٥٨.

(٣) هوارث (الشَّيعة الاثنا عشريُّون) ١٤٨.

(٤) آغاي "ديناميات الجنوسة" ٤٧.

التَّقْوَى الكَرْنَفَالِيَّةُ :

قد يبدو التَّكْثِيرُ بطقوسِ المُحَرَّم والحديثِ عَنْهَا بوصفِهَا كَرْنَفالاً أمراً غريباً للوهلة الأولى! ولكن؛ وبينما يمثلُ المُحَرَّم وغيرُهُ مِنْ مُناسَبَاتِ الوفاةِ الأخرى حدثاً حزيناً ومهيئاً وقوراً في المستوى النَّظَرِيّ، فإنَّ هَذِهِ المُناسَبَاتِ ذَاتِهَا تبدو ذاتَ طابعٍ أَكْثَرَ احتفاليَّةً وتأرجُحاً في أجوائِهَا وفعاليَّاتِهَا! وقد ذَكَرَ "شوبل" بهذا الصَّدَدِ قائلاً: (على الرُّغمِ مِنْ كونهِ مُناسَبَةً للحزنِ والنَّدبِ والعزاءِ، إلَّا أَنَّهُ ثَمَّةُ جوِّ كَرْنَفاليٍّ غَالِبٍ يعمُّ المكانَ).^(١) فحقيقةُ الاحتفالِ بعُرسِ القاسمِ . في سبيلِ المِثالِ . بوصفِهِ لحظةً لِلسَّعَادَةِ "غيرِ المُؤكَّدةِ أو المتحقَّقة" في سياقِ طقوسِ المُحَرَّم؛^(٢) يسهمُ في خَلْقِ تَجاوُرٍ فارِقٍ للحياةِ والموتِ، والعُرسِ والشَّهادَةِ.

وَمُمَارَسَاتُ المُحَرَّم في مَدِينَةِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ هِيَ مُمَارَسَاتُ كَرْنَفاليَّةٍ لجهةِ صَوَرِهَا "الاستعاريَّةُ المُتَخَيِّلَةُ" ثَمَّةَ تدفُّقِ الدَّمِ "الغروتسكيِّ"^(٣) مِنْ عَمليَّةِ

(١) شوبل (العروض الأدائية الدِّينية في الإسلام المعاصر) ١٢٦؛ بينو (حصان كربلاء) ٩٢؛ نقاش (شيعَة العراق) ١٤٦.

(٢) قارن مع فيرنيا (ضبوف الشَّيْخ) ١٩٨-١٩٩؛ ريتشارد ك. وولف، ريتشارد، "التَّجسيد والتَّأرجح: العواطف في شهر المُحَرَّم في جنوب آسيا" الدَّلِيل السَّنَوِيّ للموسيقا التَّقْلِيدِيَّة ٣٢ (٢٠٠٠) ١٠٨.

(٣) مُفردة (grotesque) الإنكليزيَّة مُشتَقَّة مِنْ (Grotta) التي تعني مغارة أو كهف. والغروتسك مُصطلح ارتبط عند ظهوره بالفنون الجميلة، إذ أُطلق في الأصل على الرِّسومات والتَّزيينات المكتشفة في أوابد كانت مَطمورة بالتراب في إيطاليا وتحتوي على رِسومات عجائبيَّة مثل حيوانات لها شكل نَباتيٍّ ووجوه إنسانيَّة مُصوَّرة بشكل غير مطابق لما يمكن أن تكون عليه في الواقع. وتوسَّع المعنى فيما بعد واستُخدمت الكلمة في علم الجمال كصفة أو طابع لكل ما هو غير منتظم ويتَّصف بالغرائبيَّة، ولكل ما يضحك من خلال المبالغة والتَّشويه ويتناقض مع ما هو سام ورفيع، أي إن الغروتسك دخل ضمن التَّصنيفات الجماليَّة، وحلَّ بعدا فلسفياً من حيث إنَّه يناقض ما هو نتاج الثقافة التَّقْلِيدِيَّة المُعترف بها ولا توجد في اللُّغة العربيَّة كلمة تعطي المعنى بكلِّ أبعاده، فقد تُرجمت كلمة غروتسك في بعض من الأحيان بالسَّاذِّ والقبيح، أو بالهزء والقبح

الضرب بالزناجيل والمقادير الكبيرة من الطعام المقدم. وتعكس (صورة الجسد الغروتسكية) التي قدمها "باختين" مشهد ضاربي الزناجيل الذين يستمرون في عرض ثيابهم البيضاء الملوّخة بالدم طوال اليوم. ويرش ضاربو الزناجيل أثناء أدائهم طقس الضرب في الضحى حتى عابري السبيل والمتفرجين بكميات من الدم فتغطي الأرضية لساعات طوال بالتراب الممزوج به. وتتولى الحوزات الدينية والمنظمات والعائلات تقديم الطعام والمشروبات قبل إقامة مواكب الضرب بالزناجيل في عاشوراء، وتعدّ "القيمة" التي تتكوّن من الرزّ الذي يعلوه مرقّ الفاصولياء واللحم من أشهر الأطباق التي تقدّم في العراق ومدينة السيّدّة زينب في موسّم عاشوراء، وبالإمكان إضافة الأكواب والأطباق البلاستيكية التي تُستخدم مرّة واحدة وكميّات الرزّ الأبيض المتناثرة في الشوارع إلى "المخلّفات الغروتسكية" التي تمثّل جزءاً من المشهد الكرنفالي. ولا يرمز الدم المراق من ممارسته التطبير، وكذلك وجبة "القيمة" إلى الحياة والموت فحسب، بل إنّهما يساعدان الشيعة في تحيّل معركة الطفّ في كربلاء والتّأهّي مع ما جرى فيها.

معاً، مع أنّ هذه المفردات كلّ على حدة لا تغطّي المصطلح بكامله؛ والواقع أنّه يصعب تحديد الغروتسك وتعريفه لأنّه نقيض كلّ ما يُنظّم في قوالب ويُحدّد بمعايير، أي إنّهُ يمكن أن يُعرّف من خلال ما هو عكسه. فهو القبح التشويهيّ بالنسبة لمفهوم الجميل، وهو الوضع بالنسبة لمفهوم الرّفيع والسّامي. ومع أنّ طابع الغروتسك موجود منذ القدم في الآثار والفنون والأدب، إلّا أنّ الاهتمام به من الناحية الجماليّة بدأ في القرن التاسع عشر مع الشاعر الفرنسيّ تيوفيل غوتييه، وقد طرحه بشكل نظريّ الكاتب الفرنسيّ فيكتور هوغو في مقدّمة مسرحيّة "كرومويل". وبعد ذلك؛ وفي بدايات القرن العشرين، تناول المنظر الرّوسيّ ميخائيل باختين مفهوم الغروتسك وتطوّره بنظرة شموليّة تطال الحياة الفنّ والأدب، وذلك في كتاباته عن الرّواية، وعلى الأخصّ كتابيّ (إبداع فرانسوا رابليه والثّقافة الهزليّة الشعبيّة في العصور الوسطى وعصر النّهضة) و(مشكلات في شعريّة دوستوفسكي). وتأتي المفردة في الدّراسة الحاليّة بمعنى الغريب وغير التقليديّ. (المترجمة).

ويمثّل الكرنفالُ الباخنيُّ بحسبِ (مايكل توسيغ . Michael Taussig) شكلاً من أشكالِ التّجاوزِ والانتهاكِ مِنْ حيثُ أنّه لا يمثّلُ فعلاً مختلفاً عَنِ المألوفِ والمعياريّ، وإنّما هوَ يعارضُهُ ويقوّضُهُ كذلك. (١) وثمّةُ شكلانِ مُحتمَلانِ مِنْ أشكالِ التّجاوزِ في المعتقدِ الشّيعيِّ، هما الغلوّ والتّقصيرُ. (٢) فالغلاةُ يرتكبونَ ذنبَ التّطَرُّفِ والغلوِّ مقابلَ المقصّرينَ الذينَ يخفّونَ في إيفاءِ آلِ البيتِ حقّهم مِنَ الاحترامِ والتّقديسِ؛ وفي الحالتينِ كلتيهما ينتهكُ الفردُ المتدينُ المعاييرَ التي وضَعها المختلفونَ مَعَهُ! إذْ يَمكِنُ القولُ: إنّ الأفرادَ الذينَ يمارسونَ التّطهيرَ أو الضّربَ بالزّناجيلِ. في سبيلِ المثالِ. يرتكبونَ ذنبَ "الغلوِّ" في حينِ بالإمكانِ النّظرُ إلى الأفرادِ الذينَ لا يمارسونَ الضّربَ بها على أنّهم مقصّرون!.

وممّا تجدرُ الإشارةُ إليه، حدوثُ كُلِّ مِنْ ذنبي (الغلوّ والتّقصيرِ) في علاقاتِ التّبادلِ. وبسببِ غيابِ الاتّفاقِ بينَ مراجعِ التّقليدِ المعروفينَ في مدينةِ السيّدَةِ زينبَ بشأنِ الحدودِ التي يَقعُ بعدها فِعْلُ "الانتهاكِ" فيما يَتَصَلُّ بالغلوِّ أو التّقصيرِ؛ ما زالَ الجدلُ والنّقاشُ بشأنِ ما يُعرفُ بـ (الانتهاكِ الطّقوسيِّ) محتدّمينَ بينَ رجالِ الدّينِ الاثنيَ عشرينَ وأتباعِهِم. ويرمي بعضُ مِنْ رجالِ الدّينِ. خصوصاً آيتا اللهِ الخامنئيّ وفُضّلُ الله. مِنْ يمارسُ التّطهيرَ بالتّخلُّفِ والجهلِ وعدمِ الانضباطِ؛ مقابلَ الشّيرازيينَ الذينَ يهاجمونَ ويدينونَ

(١) مايكل توسيغ (قبر والتر بنيامين) (شيكاغو، مطبعة جامعة شيكاغو، عام ٢٠٠٦) ١٦٠.

(٢) مومن (مُقدّمة للإسلام الشّيعي) ٨١.

المعارضين للتطير ويتهمّونهم بالتقصير.^(١) وهكذا، يتهم كل طرف الآخر بتجاوز الحدود "الناسبة والمقبولة" لممارسة التدّين وبانتهاكها.

ولا بدّ لي في هذا الموضع من التذكير بأنّ في دراستي لممارسات المحرّم (ولاسيّما التطير) قد استندت إلى مفهوميّن أساسيين، هما مفهوما "الكرنفال" لـ (باختين) و "المشهد" لـ (جي ديورد . Guy Debord) وقارنت بينهما بأسلوب مكّنني من التمييز لا بين العروض الأدائيّة الطقوسيّة المختلفة فحسب؛ وإنّما بين جمهور الحاضرين [الحاضرات في الدراسة الحاليّة] وعلاقاتهم بالمؤدّين. فبينما يشارك جمهور "باختين" في الكرنفال بهمة وفاعليّة، يلحظ جمهور "ديورد" المشاهد الأدائيّة (مثل عروض الصّرب بالزّناجيل العلنيّة) بأسلوب منفعل.^(٢) وبكلماتٍ أخرى: يفترض كرنفال "باختين" مجتمعاّ محلّيا؛ في حين يمثل جمهور "ديورد" مجتمعاّ متصدّعاّ.

والفكرة التي أوّد طرحها هي أنّ تأييد الشّيرازيّين لطقوس العزاء الدّمويّة، هو تأييد كرنفاليّ الطّابع في جوهره في ظلّ استناده إلى فرضيّة وجود مجتمّع محلّي يشارك في الطّقوس "الغروتسكيّة" بخلاف آتّي الله الخمينيّ والхамنئيّ، اللّذين تبنّيا وجهة نظر متوافقة مع مشهديّة "ديورد" لجهة تركيزهما على جمهور عالميّ مُشتّت منهمك في اللّحظ والحكم. وبناءً على ذلك، يبدو جليّا اختلاف الفكر التي يحملها الطّرفان بشأن العلاقة بين الجمهور والمؤدّين.

(١) يحظى الشّيرازيون بأهميّة بالغة لأنّهم أسّسوا وما زالوا يديرون الحوزة الأقدم والأكبر في مدينة /مرقد السيّدة زينب، وهي الحوزة الزّينبيّة.

(٢) لمزيد من المعلومات عن هذا الموضوع انظر الفصل المعنون بـ "التّقوى الكرنفاليّة".

ومثلاً برزَ واضحاً أعلاه، تشغلُ العلاقاتُ (بينَ المتقينَ الشَّيعَةِ وآلِ البيتِ أو بينَ المقلِّدينَ ومراجعِهِم) مَوْقِعاً محوريّاً في نظامِ التَّدِينِ الشَّيعِيِّ الاثني عَشَرِيِّ. بيدَ أنّي لمَ أكتفِ - في الدَّراسةِ الحَالِيَةِ - بالحديثِ عَنَ أَهمِّيَةِ هَذِهِ العلاقاتِ ومَوْقِعِهَا! إذْ حرَّصْتُ كذلكَ على الكَشْفِ عَنَ الأشْكالِ التي تَتَّخِذُهَا علاقاتُ التَّقْوَى والمُمارَساتِ التي تَدِيمُهَا وتدعّمُهَا.

ومثلاً بَيَّنْتُ (آن بترج . Anne Betteridge) يُعدُّ دخولُ النِّسَاءِ في علاقاتٍ تبادليَّةٍ مَعَ آلِ البيتِ مُكوِّناً جوهريّاً في تقوى النِّسَاءِ الشَّيعِيَّاتِ، بسببِ الدَّورِ الذي تضطلعُ بِهِ هَذِهِ العلاقاتُ في إنْشاءِ أنواعٍ مختلفَةٍ مِنَ المتطلَّباتِ؛ وفي تشكيلِ الأساسِ الذي تستندُ إليه المعجِزاتُ التي تمثُلُ ثَمرةَ الولايةِ / القداسَةِ.^(١) فالمرءُ لا يُولَدُ ومَعَهُ علاقَتُهُ بِآلِ البيتِ، بل ينبغي لَهُ هَذِهِ العلاقةُ أَنْ تُتِمَّ وتُدامَ، ويحرُصُ الشَّيعَةُ عَادَةً - عَنَ طريقِ زيارةِ أَصْرَحَةِ الأولياءِ ومقاماتِهِم وقراءةِ الزِّياراتِ (التي تَمَكِّنُ قراءَتُهَا عَنَ بُعْدٍ كَذَلِكَ) ونَذْرِ النُّذورِ والوفاءِ بِهَا - يحرُصُونَ على إقامةِ علاقاتٍ تبادليَّةٍ مَعَ الأولياءِ والصَّالحينَ. وثَمَّةُ اعتقادٍ شائعٍ وراسخٍ في أَنَّ زيارةَ الأولياءِ والصَّالحينَ مِنْ شَأْنِهَا إِسْبَاغُ "بركةٍ ونعمةٍ" خاصَّتَيْنِ على الفردِ، تكونانِ مَصْحُوبَتَيْنِ عَادَةً بِجوابٍ عَنَ مَسْأَلَةٍ أخلاقِيَّةٍ مُحدَدَةٍ كانَ الفردُ المتَّقِي في حَاجةٍ إلى حَسْمِهَا؛ أو في حَاجةٍ إلى التَّعَاثُفِ مِنْ مرضٍ مُحدَّدٍ. إذْ تَظْهَرُ فَاطِمَةُ الزَّهراءُ. في سَبيلِ المِثَالِ. في بعضِ مِنَ الأحيانِ لِلشَّيعِيِّ الَّذِي يَعاينُ مَرَضاً حَرِجاً. ويَكونُ ظَهورُهَا دوماً بَعاءةٍ سَوَداءَ وَوَجْهُهَا مُغَطَّى إِمَّا بِحِجَابٍ أَسْوَدَ وإِمَّا أَخْضَرَ. ثُمَّ تَعْمَدُ بَعْدَ ظَهورِهَا إِمَّا إلى لَمْسِ الجِرْحِ أو الجِزءِ المَرِيضِ مِنَ الجِسمِ، وإِمَّا أَنْ تَقْدُمَ المَاءَ إلى الشَّخْصِ الَّذِي يَجلُمُ بِهَا؛ كي

(١) بترج "تبادل الهدايا في إيران".

يشرب منه ابتغاء التعافي. وهذا يجعل ارتباط الشيعة بالزهراء ارتباطاً حسيّاً خاصّاً على الرغم من حدوث ذلك، إمّا عن طريق لمس الزهراء لمواقع الألم، وإمّا تقديمها ماء الشرب في أبعاد وظروف تتجاوز حدود التقوى المتأسّسة.

ويشكّل النذر إحدى الوسائل الأخرى المتاحة للارتباط بالبيت. (١) إذ تحدّثت "بترج" عن النذور التي تنذرُها النساءُ الشيعياتُ بنحو مباشرٍ في الأضرحة والمراقد المعروفة في إيران، إذ يندرن. في سبيل المثال. إقامة مجلس عزاءٍ خاصٍّ في حال استجاب الله لدعواتهنّ وتحققت رغباتهنّ. (٢) ويضدّق الأمرُ ذاته في مدينة السيّدة زينب، إذ تقيمُ نساءُ إيرانيّاتٍ - عراقيّاتٍ ما يُعرفُ بـ (السّفرة) (أو وليمة طعام) الممثلة في العديد من جوانبها لمجلس العزاء. (٣) وثمة أنواعٌ من النذور أكثر شيوعاً من غيرها، إذ تنذرُ النساءُ عادةً إقامة مجلس العزاء في محرّم العام القادم في حال تحققت رغباتهنّ بزواج البنات أو شفاء أحد أفراد العائلة من مرضه، أو ربّما يندرن تقديم الحليب (الذي يرمزُ إلى الطّفل عبد الله الرّضيع، ابن الحسين الذي مات عطشاً في كربلاء) أو تقديم ما يُعرفُ بـ "خبز العباس" مع اللّبن والخضراوات في مجالس تقيمها نساءٌ أخريات. (٤) ويمثّل مجلس العزاء بهذه الطّريقة جهداً مشتركاً يشترك في إقامته عددٌ من

(١) تنذرُ المرأةُ الشيعيّة لأحد الأئمة وتقسّم على أنّها ستطبخ وتهب مقدارا مُعيّنا من الطّعام إذا تحققت رغبتها في شفاء أحد الأشخاص العزيزين عليها أو نجاحه أو حتّى تحقّق الحمل ضمن مدّة زمنيّة محدّدة.

(٢) للاطلاع على سرد رائع لعلاقة التّبادل بين المذهب الشيعي الاثني عشري وآل البيت، انظر بترج "تبادل الهدايا في إيران".

(٣) السّفرة هي الوجبة الطقوسيّة التي يتعيّن تقديمها في أيّام خميس متعاقبة. تقيم المرأة سفرتين ثمّ تنتظر أن تتحقّق رغبتها. فإذا تحققت، تقيم السّفرة الثالثة، وإلا يبقى التّفاعل / الوفاء بالنذر مُؤجّلاً. ملاحظات حقليّة صيف عام ٢٠٠٨ و خريف عام ٢٠٠٩.

(٤) ملاحظات حقليّة ربيع عام ٢٠٠٩.

النِّسَاء اللَّائِي نَذَرْنَ فِي الْعَامِ الْمَاضِي وَتَحَقَّقَتْ أَمْنِيَّاهُنَّ. وبخلاف ذلك، وفي حالٍ لم تتحقّق الأُمْنِيَّةُ للمرأة غير مُلْزَمَةٍ بإقامة المجلس أو المُشَارَكَةِ فيه.^(١)

وعلى شاكِلَةِ النَّذْرِ، يتجذّر الطَّبُّ الرُّوحَانِيُّ الَّذِي يُمْكِنُ الحُصُولُ عَلَيْهِ فِي الشَّارِعِ فِي نِهَآيَةِ سَوَاقِ هَجَرَ فِي عَمَلِيَّةِ "التَّبَادُلِ" إِذْ لَا يَطْلُبُ المَعَالِجُ الرُّوحَانِيُّ المَالَ لِقَاءَ تَقْدِيمِ خِدْمَاتِهِ فَحَسْبُ، بَلْ إِنَّ عَمَلِيَّةَ التَّدَاوِي تَسْتَلْزِمُ مِنَ المَرِيضِ زِيَارَتَهُ عِدَّةَ مَرَّاتٍ، وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ عَمَلِيَّةَ الشِّفَاءِ تَسْتَلْزِمُ الكَثِيرَ مِنَ المَالِ وَالْوَقْتِ الَّذِي يَتِيحُ للمَعَالِجِ فَرْصَةَ التَّعَرُّفِ عَلَى مَرَضَاهُ أَثْنَاءَ مُرَاجَعَاتِهِمِ المَتَعَدِّدَةِ لَهُ؛ وَبَيْنَمَا يَقْدُمُ المَعَالِجُ القَهْوَةَ لِمَرَضَاهُ وَيُحَدِّثُ مَعَهُمْ، تَتَعَمَّقُ عِلَاقَتُهُ وَمَعْرِفَتُهُ بِهِمْ؛ وَزِيَادَةُ عَلَى ذَلِكَ، يَتِمِيزُ الطَّبُّ الرُّوحَانِيُّ بِطَابِعِهِ الكَرْنَفَالِيِّ اللَّافِتِ بِسَبَبِ ارْتِبَاطِهِ الوَثِيقِ بِاللُّغَةِ وَالرُّمُوزِ الدِّينِيَّةِ وَالثَّقَافَةِ المَادِّيَّةِ مِنْ جِهَةٍ، وَوَقُوفِهِ مَوْقِفَ المَعَارِضِ مِنَ التَّقْوَى وَالْوِلَايَةِ المَوْسَّسِيَّةِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى.^(٢) فـ "أَبُو عَلِيٍّ" مَثَلًا، يَسْتَخْدِمُ سَيْفَ التَّطْبِيرِ فِي عِلَاجَاتِهِ الرُّوحَانِيَّةِ، وَيُفْتَرِضُ بِهَذَا السَّيْفِ حِمَايَةَ المَرِيضِ مِنَ الجِنِّ أَوِ الأَرْوَاحِ الشَّرِيرَةِ! وَعَلَى الرُّغْمِ مِنْ ذَلِكَ، فَقَدْ أَكَّدَ أَبُو عَلِيٍّ أَنَّهُ نَجَحَ فِي تَوْطِيدِ عِلَاقَتِهِ بِالأَوْلِيَاءِ، وَقَالَ بِفَخْرٍ: إِنَّهُ قَدْ زَارَ مَرَاقِدَ الأُتَمَّةِ جَمِيعًا.

وَلَحِظْتُ - فِي إِحْدَى زِيَارَاتِي - وَجُودَ قِطْعَةٍ قِمَاشٍ خَضْرَاءَ فِي مَحَلِّ أَبِي عَلِيٍّ الَّذِي ذَكَرَ أَنَّهُ قَدْ أَخَذَهَا مَعَهُ إِلَى مَرْقِدِ الإِمَامِ الحُسَيْنِ، وَقَدْ دَابَّ أَبُو عَلِيٍّ عَلَى تَقْطِيعِ قِطْعَةٍ القِمَاشِ هَذِهِ إِلَى قِطْعِ صَغِيرَةٍ لِيُعْطِيَهَا إِلَى زَبَائِنِهِ الَّذِينَ سَتَتَقَلُّ.

(١) قَارَنَ مَعَ بَتْرَجِ "تَبَادُلِ الهِدَايَا فِي إِيرَانَ".

(٢) اللَّافِتِ لِلانْتِبَاهِ عَدَمِ انْتِقَادِهِ السُّلْطَاتِ الدِّينِيَّةِ عَلَنًا. فِي حَقِيقَةِ الأَمْرِ، لَا يَتَنَقَّدُ أَبُو عَلِيٍّ هَذِهِ السُّلْطَاتِ أَثْنَاءَ حَدِيثِهِ مَعَ مَرَضَاهُ إِلَّا بَعْدَ تَوْطِيدِ عِلَاقَتِهِ بِهِمْ.

بفضلِهَا. البركةُ والنَّعمةُ إليهم. وزيادةً على قطعةِ القماشِ، تعلو جدرانَ محلِّ أبي عليٍّ صُورُ الأئمةِ وفاطمةَ وزينبَ وبعضَ مِنَ الآياتِ القرآنيَّةِ، وعادةً - صُورَةُ الرَّئيسِ السُّوريِّ - بشارِ الأسدِ - الحاضرةُ على الدَّوامِ!. ويطلُّ أبو عليٍّ في صَلَاتِهِ مَحاولاً بِذَلِكَ أَنْ يَظْهَرَ مُوَهَّلَاتِهِ الدِّينيَّةَ "التَّقْلِيدِيَّةَ". وعلى الرَّغمِ مِنْ دَعَوَاتِهِ الورعةِ والتَّقِيَّةِ وتعليقاتِهِ الودودةِ التي تتخلَّلُ أَحاديثَهُ مَعَ مَرْضَاهُ، فَإِنَّهُ يقدِّمُ كَذَلِكَ إِحَالَاتٍ جَادَّةً إِلَى المَفْهُومَاتِ والمَمارَسَاتِ الدِّينيَّةِ، ولا يَكْفُ عَنْ اسْتِلْهَامِ الثَّرَاثِ عَنْ طَرِيقِ اسْتِشْهَادِهِ بِآيَاتِ القرآنيَّةِ عَنِ السَّحْرِ والجنِّ، بِإِدِّائِهِ أَنَّهُ يَتَّبِعُ مَا هُوَ "تَقْلِيدِيٌّ" ورَاسِخٌ "مِنْ خِلَالِ عَدَمِ اتِّفَاقِهِ مَعَ السُّلْطَانِ الدِّينيِّ المَوْسَسِيَّةِ.

الخاتمة:

مثلاً لحظنا أعلاه، ثمةُ أنموذجانِ نظريَّانِ سَاعَمتُ عليهما وأجري حواراً مَعَهُمَا فِي الفُصولِ التَّالِيَةِ، أوْلَهُمَا: أنثروبولوجيا الإسلامِ لـ "طلالِ أسد" الَّذِي يَتحدَّثُ عَنِ [الإسلامِ] كونه (تقليداً خطائياً) وثانيهما: أنموذجُ كربلاء، الَّذِي يَضَعُ (التَّديُنَ المَسالمَ والتَّقْلِيدِيَّ) جنباً إِلَى جنبٍ مَعَ (التَّديُنِ الحديثِ والثَّوريِّ). وتعملُ الدِّرَاسَةُ الحَالِيَّةُ فِي جَمْعِ هَذَيْنِ المَفْهُومَيْنِ اللَّذَيْنِ يمثِّلَانِ مُقَارَبَاتٍ مَعْرِفِيَّةً مُخْتَلِفَةً ابْتِغَاءً إِعَادَةِ النَّظَرِ فِي فَكْرَةِ "التَّقْلِيدِ". وَقَدْ أَفْضَتْ فِي شَرْحِ العِلاقَةِ بَيْنَ "التَّقْلِيدِ" و "التَّجَاوُزِ" ابْتِغَاءً تَسْلِيْطِ الضَّوْءِ عَلَى المَمارَسَاتِ والخطاباتِ التَّقِيَّةِ الَّتِي لَا تَبْدُو مُتَوَافِقَةً مَعَ أنثروبولوجيا الإسلامِ الأَسَدِيَّةِ [نسبةً إِلَى طلالِ أسد] وَلَا مَعَ تَفْسِيرَاتِ أنموذجِ كربلاءِ المَهيْمَةِ.

وقَدْ حَرَضْتُ أوْلاً عَلَى لَفْتِ الانْتِبَاهِ إِلَى التَّصَوُّرَاتِ والاستخداماتِ المَحَلِّيَةِ لِلتَّقْلِيدِ مِنْ خِلَالِ دِرَاسَةِ المَوْسَسَاتِ الدِّينيَّةِ فِي السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ أمثالِ الحَوَازِ

العلمية، والمرفد، وجمعيات المساعَدات الخيرية. كما تعقبت عملية تأسيس الولاية الدينية ونمو الحوزات والحسينيات وتنظيمها، وتأثير هاتين المؤسستين في التعليم الديني. كما أُرُخْتُ مفهوم الولاية الدينية وبحثت في دلالاته المتنوعة؛ ثم ناقشت - عن طريق دراسة الحوزات في مدينة السيِّدة زينب. دراسة عميقة - مسألة تأسيس الولاية الدينية، وطرحْتُ فكرة تقول: إنَّ عملية "مأسسة" الدين في مدينة السيِّدة زينب، أسفرت عن عملية تقييس (standaraization) ضمن الخطابات الدينية [أي جعل الممارسات ضمنها قياسية] وزيادة على ذلك، بيَّنت كيف أنَّ إعادة توجيه الحيز الطقوسي في الحوزات والمرفد قد أثر في بيداغوجيا الولاية وبناها.

وسأسلطُ الضوء في الفصل الثاني على التأثير العاطفي في سياق طقوس العزاء والعلاقة بين الأئمة أو آل البيت وأتباعهم، وقصائد العزاء الحزينة. وطرحْتُ. بالاعتماد على الفئات التصنيفية المحلية. رأياً يفيد أنَّ العاطفة تعمل في اتِّجاهين هما "أثار" و "ثار".^(١) وسأبيِّن كيف أنَّ العاطفة تشكِّل من الناحية المفهوماتيَّة أحد المكونات الأساسية في مجالس العزاء الطقوسية الشيعية؛ فهي تخلق. وفي الوقت ذاته. تدبُّ العلاقات مع الشيعة الآخرين ومع الأئمة من آل البيت عليهم أفضل الصلاة والسلام. وتفرض عملية اتباع آل البيت بوصفهم أنموذجات دور وأولياء صالحين؛ وتقليدِهم مُتطلِّبات محدَّدة على أتباعهم من

(١) يمكنها أن تنقل وتؤثر وترك انطبعا وكذلك يمكنها الاستشارة والتحريض. والمفردة الأولى مُشتقة من الفعل "أثر" والاسم "أثار" وتعني التعقُّب أو "الافتقاء للأثر". أمَّا المفردة الثانية فمُشتقة من الجذر "ثار" وهي جذر كلمة "ثورة". ويهر (قاموس اللغة العربية الحديثة) ٤، ١٠٩.

المؤمنين [المفلدين] الذين يلتزمون بها ويؤدونها من خلال المشاركة في مجالس العزاء ونذر التذوّر، والعمل كـ "ملاية" [في حالة النساء].^(١)

وسأتناول - في المبحث الأخير - مجالس العزاء المرفّمة (وسائل الإعلام الدينيّة الالكترونيّة) التي تبنّت - ابتغاء جلاء دورها - مفهومات (والتر بنيامين. Walter Benjamin) عن التمرّكز والتشتت لغرض إعادة صوغ ثنائيّة "أثار" و "نار" العاطفيّة.

وستؤلّف ممارسات عاشوراء الاثنا عشرية وخطاباته محور الفصل الثالث، إذ سأناقش، أولاً، آراء رجال الدين الشيعة وسجالاتهم ونزاعاتهم بشأن الولاية؛ زيادة على موافقهم حيال شرعيّة ممارسات الضرب بالزناجيل والتطهير وجوازها فقهيّاً.

وسأحرص ثانياً على لفت الانتباه إلى الطرائق التي تُعدّ الممارسات العاشورائيّة. بموجيها. خلاصيّة؛ مع تبيان المقصود بـ "الخلاص" في هذا السياق. وخلافاً للتوكيد العام على التّضحية في الأدبيّات الأكاديميّة المعنيّة بالطّقوس، ارتأيت العناية بالحديث عن مفهوم "المعجزة" الذي ربطته بممارسات تبادل الهدايا المؤسّية (نسبة إلى عالم الأنثروبولوجيا "مارسيل موس. Marcel Mauss") وسأختتم هذا الفصل بمبحث أناقش فيه ممارسة طقوس الضرب بالزناجيل العاشورائيّة وطرائق أدائها. وبلاستناد إلى فكر "مايكل توسينغ" الذي انتقد الأكاديميين لمبالغتهم في التّركيز على جوانب الطّقوس "النّظيفة"؛ ارتأيت مناقشة ممارسة الضرب بالزناجيل بوصفها جزءاً من تدوين مُنتهك (كموني)،

(١) ذكرت لي مجموعة من النساء الشيعيات العراقيّات أنّهنّ لم يكن يعرفن شيئاً عن مذهبهنّ الشيعي، وأنّهنّ امتنعن عن متابعة دراستهنّ الدينيّة، ورفضهن خيار العمل بصفة ملاية في زمن حكم صدام حسين نظراً إلى الشكوك السياسيّة التي كانت تحيط بالمذهب الشيعي والتضييق الذي مورس بحقه.

وتساعدُ فكرةَ التَّجَاوُزِ والانتَهَاكِ هنا في التَّفكيرِ بالجوانبِ الغروتسكيَّةِ والكرنفاليَّةِ المميَّزةِ لشهرِ المُحَرَّمِ.

وتبرزُ. في واقعِ الأمرِ. أهميَّةُ فكرةِ "التَّجَاوُزِ والانتَهَاكِ" بوضوحٍ أكبرٍ في الفصلِ الرَّابِعِ الذي تحدَّثُ فيه عَنَ الطَّبِّ "الرُّوحَانِيِّ" و "الإِيْمَانِيِّ". ويعكسُ مَفْهُومُ الطَّبِّ / العلاجِ في هذا السِّياقِ - وفي الوقتِ ذاتهِ يعتمدُ على - القوى العلاجيَّةِ / الشِّفائيَّةِ التي يحورُّها الأولياءُ مثلُ السيِّدةِ زينبَ.

وزيادةً على ذلك، لحظْتُ أنَّ المعالجينَ الرُّوحانيِّينَ الذينَ أَصْفُفُهُمْ في هذهِ الدِّراسةِ الأنثروغرافيَّةِ أَنَّهُمْ يَتِمَكَّنُونَ - مِنْ خِلالِ العلاجِ تحديداً - مِنْ إِيجَادِ المُسَوِّغَاتِ التي تَبَرِّرُ مُمَارَسَاتِهِمْ وتَقَدِّمُهَا بِوصفِهَا مُمَارَسَاتٍ أَخْلَاقِيَّةً (على العكسِ مِنَ السَّحَرِ الأَسْوَدِ الذي يلحقُ الأذى بالنَّاسِ، لا يَشْفِيهِمْ).

وبكلماتٍ مُوجِزةٍ: لَنْ أَكْتَفِيَ بِتَنَاوُلِ التَّدِينِ الشَّيْعِيِّ فِي سُوْرِيَّاتِ المَعَاصِرَةِ عَنَ طَرِيقِ دِرَاسَةِ المُوَسَّسَاتِ، والعواطفِ، والطُّقُوسِ، وتَصَوُّرَاتِ الوِلايَةِ، والتَّجَاوُزِ والانتَهَاكِ، والعلاجِ فحسبُ، بَلْ سَأَحْرُصُ عَلَى إِعَادَةِ النَّظَرِ والتَّفكيرِ مليّاً فِي مَفْهُومِ "التَّقْلِيدِ" كَذَلِكَ. وَأَوْدُ التَّوَكِيدَ عَلَى تَمَثِيلِ المَرْقَدِ / المَدِينَةِ مَوْقِعاً "هِيرُونَوِيّاً فُوكُوياً" مُمَيَّزاً فِي ظِلِّ تَمَثِيلِهِ حَيْزاً وَحَالَةً أَزْمَةً وَانْحِرَافٍ. إِذْ يُؤَلَّفُ كُلُّ مَنْ المَرْقَدِ - الَّذِي تُعَدُّ السَّيِّدَةُ زَيْنَبُ، الوَلِيَّةُ / الشَّخْصِيَّةُ المُقَدَّسَةُ الَّتِي تَعِيشُ حَالَةً أَزْمَةً رَمَزاً لَهُ،^(١) وَالمَرْقَدُ / المَدِينَةُ الَّتِي أُسِّسَتْ وَمَا زَالَتْ تَعْمَلُ بِوَصْفِهَا مُعَسْكراً

(١) هذا المصطلح (وليَّة . وليّ). مشتقٌّ من نظامِ الولاء الذي كان يربط الشَّخص (الرَّقِيقُ المُستَعْبَد) بِسَيِّدِهِ، وَيَعْنِي التَّعَلُّقَ بِهِ وَالاِنْقِيَادَ لَهُ مَعَ ارْتِبَاطٍ أَدَبِيٍّ وَمَادِّيٍّ بَعْدَ اعْتِاقِهِ مِنْ عِبَادَتِهِ؛ حَيْثُ يُمْكِنُ لِسَقْفِ العِلَاقَةِ المَادِّيَّةِ فِي الشَّرِيعَةِ الإِسْلَامِيَّةِ أَنْ يَرْتَفِعَ إِلَى حَدِّ التَّوَارِثِ بَيْنَ السَّيِّدِ وَعَبْدِهِ الَّذِي أَعْتَقَهُ. وَاسْتَعْمَلَ المِصْطَلَحُ هُنَا لَوُصْفِ العِلَاقَةِ بَيْنَ الشَّيْعَةِ وَالأَثَنَةِ وَآلِ البَيْتِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الوِلايَةِ الكَامِلَةِ مِنَ الشَّيْعِيِّ لَهُمْ. وَقَدْ كَانَ يُطْلَقُ عَلَى الْحَيِّ الشَّيْعِيِّ فِي بَعْضِ مِنْ أَحْيَاءِ دِمَشقَ اسْمِ (حَارَةِ المَتَاوِلَةِ) أَيِ المَتَوَلِّينَ لِآلِ البَيْتِ، وَفِي الْحَيِّ مَسْجِدٌ تَقَامُ فِيهِ الصَّلَوَاتُ عَلَى وَفْقِ المَذْهَبِ الشَّيْعِيِّ الاثْنَا عَشَرِيِّ ثُمَّ جَرَى تَغْيِيرُ الاسْمِ إِلَى حَيِّ (زَيْنِ العَابِدِينَ). وَيَقَعُ الْحَيُّ وَسَطَ

لـ "اللاجئين"، تؤلّف، حرفياً ورمزياً مواقع هيتروتوبية؛ وهي مواقع "انحراف" كذلك من حيث انحراف الأفراد الحاضرين والحجيج واللاجئين والدارسين في الحوزات عن "المألوف" و "المعياري" السائد في الأماكن الأخرى.

وبينما تحدّث العديد من معارفي الدمشقيين عن منطقة السيّدة زينب بوصفها قدرة ومتخلّفة؛ يرى الشيعة أمثال أمّ مصطفى أن العيش في هذه المنطقة، هو فعلٌ يجسّد التدين والتقوى.^(١)

سفح جبل قاسيون المطل على مدينة دمشق من جهة الشمال؛ بجوار حيّ (الحنابلة) الذي يقطنه السنّة. ويُشار إلى أن النساء الشيعيات في هذا الحيّ لم يكن يرتدين العباءة الشيعية؛ وقد كان المتشدّدون من الأحياء السنية المجاورة للحيّ الشيعي لا يتورّعون فيها بينهم عن وصف الشيعة بـ (الأرفاض) إضافة إلى كونهم (المتشدّدون) يمتنعون عن تقديم التّذوّر في مرقد السيّدة زينب؛ بينما يذهبون بها إلى مرقد الشيخ الصّوفي محي الدين بن عربي الواقع جنوب شرق حيّ زين العابدين والشال الشرقي من حيّ الصّالحية. وفي الوقت ذاته أطلقت الحكومة السّورية رسمياً. على الحيّ الكبير الواقع إلى جنوب مقابر أهل البيت وبداية الطريق السريعة المؤدّية إلى مطار دمشق الدولي... أطلقت عليه اسم (حيّ الأمين) نسبة للمرجع الشيعي الأعلى السيّد "محسن الأمين"؛ وكذلك سُمّي الشارع الرئيس في ذات المنطقة باسم شارع الأمين. وقد تعرّض الحيّ في عامي (٢٠١٥. ٢٠١٦) لأكثر من هجوم بالسيّارات المفخخة استهدف زوّاراً إيرانيين. وقد خبرت كلّ ذلك بنفسه كوني من سكّان حيّ الصّالحية بدمشق الواقع جنوب حيّ زين العابدين والملاصق له. (المقوّم اللغوي).

(١) كانت أمّ مصطفى شيعية عراقية متزوّجة من ابن عمّها، وكانا يعيشان في منطقة سنية في العراق قبل سقوط النظام في عام ٢٠٠٣. وبسبب عدم تمكّنه من العودة إلى العراق، حالياً، فكّرت العائلة في البقاء في سوريا وفي الوقت ذاته تقديم طلب لجوء إلى المفوضية السامية لللاجئين. وحينما جاءت أمّ مصطفى وزوجها أوّل مرّة إلى سوريا بعد عام ٢٠٠٣، عاشوا في منطقة سنية إلى الشمال من دمشق. وعلى الرّغم من أنّها لم تكن ترتدي ملابس شيعية واضحة، بل كانت ترتدي "المانطو" بدلاً من العباءة الشيعية التقليدية المحافظة، إلّا أنّها أحسّت بالحاجة إلى تقديم نفسها بوصفها شيعية واختارت في نهاية المطاف الانتقال إلى مدينة السيّدة زينب. وعلى شاكلة أمّ مصطفى، يرى الكثير من النساء الشيعيات العراقيات أن الانتقال للعيش في مدينة السيّدة زينب هو فعل يدلّ على التقوى والتدين. أمّا بالنسبة للسنّة العراقيين الذين تحدّث معهم، فكان وجود السيّدة زينب أقلّ أهميّة مقارنة بوجود العراقيين الآخرين والحصول على بعض من المساعدات. ملحوظات حقليّة صيف عام ٢٠٠٨ وخريف عام ٢٠٠٩.

الفصلُ الثَّانِي

مَأْسَسَةُ الْوَلَايَةِ وَالتَّقْوَى وَالتَّعَلُّمِ

ذكر (جونثان بيركي . Jonthan Berky) في مقالهِ "مدارسُ قُرُوسُطِيَّةٌ [مِنَ القُرُونِ الوُسْطَى] وحديثُهُ" أَنَّ التَّعْلِيمَ الإِسْلَامِيَّ فِي القُرُونِ الوُسْطَى لم يكنْ مرتبطاً بمؤسَّساتٍ مُحدَّدةٍ. فمع ميلِ البَاحِثِينَ والعُلَمَاءِ إِلَى التَّنْقُلِ مِنْ بِلَدٍ إِلَى آخَرَ، لم يكنِ المُسْلِمُونَ مهتمِّينَ بِـ "أينَ درسَ الفردُ"، وكانَ الأهمُّ هو "على يدِ مَنْ تتلمذُ." ^(١) وخلافاً لهذا التَّوجُّه، ومثلاً سَابِقاً فِي الفَصْلِ الحَالِي، يُلحَظُ أَنَّ الأَمْرَيْنِ كليهما مهمَّانِ ويؤثَّرانِ فِي بعضَهما بعضاً فِي المذهبِ الشَّيعِيِّ المعاصِرِ.

لم يعدِ التَّعْلِيمُ الاثنا عشرِي حَالِيّاً. خلافاً لما كانَ سائداً فِي الإِسْلَامِ فِي القُرُونِ الوُسْطَى. لا مَرَكِزِيّاً تَمَاماً! وثَمَّةُ أربعةِ مَراكِزٍ رِئِيسَةٍ يَتَعَلَّمُ فِيهَا الشَّيْعَةُ فِي الوَقْتِ الحَاضِرِ، هِيَ قُمْ، والنَّجَفُ، وكربلاءُ، والسَّيِّدَةُ زَيْنَب. هذا مِنْ جَانِبٍ، وَمِنْ جَانِبٍ آخَرَ، يُلحَظُ وجودُ الكَثِيرِ مِنَ الحَوَازِطِ العِلْمِيَّةِ المُخْتَلِفَةِ والمُتَنافِسةِ فيما بَيْنَها فِي كُلِّ واحِدَةٍ مِنَ مَراكِزِ التَّعْلَمِ هَذِهِ، وثَمَّةُ طُلَّابٌ مُخْلِصُونَ يدرِّسُونَ فِي أَكْثَرِ مِنَ حَوَزةٍ واحِدَةٍ، وثَمَّةُ العَديدُ مِنَ المَدْرِيسِينَ الذِّينَ يدرِّسُونَ فِي عِدَّةٍ حَوَازِطٍ فِي آنٍ واحِدٍ. وتبعاً لذلِكَ، يبدُو مُنطَفِياً ومَقْبُولاً اسْتِخدامُ مُفْرَدَةِ "الحَوَزةِ" بوصفِها مُفْرَدَةٌ جَامِعَةٌ تُشيرُ إِلَى مَراكِزِ التَّعْلَمِ فِي مُنطَقَةٍ مُحدَّدةٍ مِثْلِ حَوَزةِ النَّجَفِ عَلَى الرُّغْمِ مِنْ اِحْتِمَالِ إِشارَتِها إِلَى حَوَازِطٍ مُحدَّدةٍ تَعوَدُ إِلَى

(١) جونثان بيركي "مدارس في القرون الوسطى وحديثه: السياسة والتعليم ومشكلة الهوية المسلمة" في (تدريس الإسلام: ثقافة التعليم الإسلامي الحديث وسياساته) تحرير روبرت هفتر ومحمد قاسم زمان (برنستن: نيوجرسي: مطبعة جامعة برنستن عام ٢٠٠٧) ٤٣.

رجال دين محددين^(١) وتشبه الحوزات المتعددة الموجودة في منطقة محدودة .
 بطريقة ما . الكليات التي تنضوي تحت جامعة واحدة في نظام التعليم الحديث
 نظراً إلى حقيقة وجودها في مدينة واحدة وبانتحاء مدرسين وطلاب محددين؛
 وزيادة على ذلك، ولما كان لكل مركز تعليم تشكيلته العرقية المعروفة ومواقفه
 السياسية وتوجهاته العقائدية؛ فإن سؤال الشخص عن المكان الذي درس فيه
 يعني تلقائياً تخمين رجل الدين الذي تتلمذ على يديه والطلاب الذين درس
 معهم.

وحوزة السيدة زينب هي الأحدث والأقل شهرة بين هذه المراكز.
 وزيادة على ذلك، والأهم، أن هذه الحوزة تُعد من أكثر مراكز التعليم استقلالاً
 من الناحية السياسية^(٢). إذ لم تبد الحكومة السورية رغبة في التدخل كثيراً في
 شؤون هذه الحوزة، وحتى رجال الدين البارزون الذين يرأسون الشبكات
 التي تنتمي إليها الحوزات العلمية الفردية لا يقيمون واقعاً في مدينة السيدة
 زينب^(٣).

إن حادثة هذه الحوزات، وعدم خضوعها للرقابة المباشرة والمكثفة،
 وحقيقة اضطرارها إلى التعامل مع العدد الكبير من اللاجئين الذين تدفقوا من

(١) قارن مع خالد سندواي "التعليم في الحوزة ودوره في صوغ الهوية الشيعية الحديثة: حوزتا
 النجف وقم بوصفهما حالة دراسية" دراسات الشرق الأوسط ٤٣، العدد ٦ (٢٠٠٧) ٨٣١-٨٣٤.

(٢) قد يتغير هذا الوضع قريباً ويعتمد ذلك على الوضع السياسي في سوريا.

(٣) خلافاً لمراكز التعليم الأخرى، تأسست الحوزة في السيدة زينب بسبب طرد عدد كبير من
 الطلاب من العراق في سبعينيات القرن العشرين. وبسبب تنامي الطلب عليها والرغبة في
 الاستمرار في تلقي العلوم الدينية؛ شيدت الحوزات وتعددت، أما مراكز التعليم الأخرى فكانت
 تجذب الطلاب لأنها كانت تحتوي على حوزات سلفاً.

العراق (قَرَّرَ العديدُ منهم قضاءَ وقته في سوريا ابتغاءَ الدِّراسة في الحوزاتِ الدِّينية) يعني تعرُّص هذه الحوزاتِ إلى تَغْيِراتٍ هائلةٍ في العقديْن الأخيرين. وتشتمل هذه التَغْيِراتُ على مُعدَّلاتِ دخلٍ عالِيَةٍ لكوادرها، وطلّابها، وزوّارها وإعادة تنظيم مَكَائِيَةٍ كَبِيرَةٍ. ومثلما سَأَبَّيْنُ في الصَّفَحَاتِ التَّالِيَةِ، أثَّرتْ هذه التَغْيِراتُ كَثِيراً في العلاقاتِ الشَّخصِيَّةِ التي أثَّرتْ بدورها في التَّصَوُّراتِ السَّائدةَ عَنِ الولاية، والتَّقْلِيدِ، والتَّعليمِ.

سأركّزُ في هذا الفصلِ أَوَّلاً على التَغْيِراتِ المؤسَّسِيَّةِ التي وقعتْ أثناءَ عمليِ الحقليِّ الذي امتدَّ مِنْ عَامِ (٢٠٠٧ م) إلى عَامِ (٢٠١٠ م). وثانياً على جلاء تأثيرِ هذه التَغْيِراتِ في حيواتِ الشَّيعةِ المقيمينِ في مَدِينَةِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ. وسأتحدّثُ، أَوَّلاً عَنِ النُّخبِ الدِّينيةِ التي أسَّستِ المؤسَّساتِ المحليَّةِ وما زالتْ مستمرةً في قيادتها^(١) والادِّعاءاتِ التي تحرَّصُ على تقديمها بشأنِ الولاية الدِّينيةِ. وسأتناولُ ثانياً بالشرحِ والتَّحليلِ طبيعةَ المشهدِ المؤسَّسائيِّ في السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ، إذ سأسلطُ الضَّوءَ على خلفيَّةِ المرقِدِ التَّاريخيَّةِ، وانتشارِ مُنظَّماتِ المُسَاعَدَةِ الدِّينيةِ وخصوصاً المستشفياتِ والعياداتِ الطَّبيَّةِ، وأخيراً الحوزاتِ العلميَّةِ والحسنيَّاتِ. وسأبحثُ ثالثاً في مَفهُوماتِ التَّعليمِ التي تدعمُ التَّعليمَ الحوزويَّ الشَّيعيَّ وتشكِّلُ الأساسَ لَهُ؛ وسأحلِّلُ آليَّاتِ عملِ الحوزاتِ المحليَّةِ والتَّعليمِ الحوزويِّ مِنْ مَنظُورَيْنِ / سَوَالَيْنِ، هما: ما الطَّرِيقَةُ التي تَتَّبَعُها

(١) بينما يسيطر بعض من آيات الله سيطرة وثيقة على المدارس التي أسسوها، لا يجوز بعضهم الآخر القدر ذاته من السيطرة، فبعض من الحوزات تعمل بصورة مستقلة وبعضها يتنافس لتبجيل سيّد أو آية الله محدّد من خلال تعليق صوره على الجدران من دون الانتهاء له مؤسّساتياً.

الحَوَازَاتُ فِي تَشْكِيلِ مَلاَمَحِ الشَّيْعَةِ؟^(١) وَكَيْفَ تَوَثَّرَتِ التَّغْيِرَاتُ الْآخِرَةُ الَّتِي شَهِدَهَا التَّنْظِيمُ الْمَكَانِيُّ فِي الْمَنَاهِجِ التَّعْلِيمِيَّةِ الْحَوْزَوِيَّةِ؟^(٢) وَسَارُكُزُ. عَلَى وَجْهِ التَّحْدِيدِ. عَلَى أَحَدِ الْجَوَانِبِ الْمَهْمَةِ فِي التَّعْلِيمِ الْحَوْزَوِيِّ، وَهُوَ تَفْضِيلُ هَذِهِ الْحَوَازَاتِ "الْفَضِيلَةَ" عَلَى "الانْضِبَاطِ" عَلَى الرَّغْمِ مِنْ مَيْلِ التَّحَوُّلاتِ الْمَكَانِيَّةِ فِي الْآوَنَةِ الْآخِرَةِ إِلَى تَوْكِيدِ عُنْصَرِ الانْضِبَاطِ بِوُضُوفِهِ جُزْءاً مِنَ التَّقْوَى الشَّيْعِيَّةِ.^(٣)

أَدْعَاءُ حَيَازَةِ إِرْثِ النَّبِيِّ:

تَتَوَلَّى الشَّبَكَاتُ الْمُؤَلَّفَةُ مِنْ عَائِلَاتِ رِجَالِ الدِّينِ الشَّيْعَةِ وَالسَّادَةِ الَّذِينَ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ وَرَثَةُ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْأُئْمَةُ الْأَطْهَارِ (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ)... يَتَوَلَّوْنَ إِدَارَةَ أَكْثَرِيَّةِ الْحَوَازَاتِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَدِيدِ مِنَ الْحُسَيْنِيَّاتِ. وَلَكِنْ، بِأَيِّ مَعْنَى يَكُونُ رِجَالُ الدِّينِ الشَّيْعَةِ وَالسَّادَةِ وَرَثَةُ النَّبِيِّ وَالْأُئْمَةُ؟ وَمَا كَانَ الْأُئْمَةُ (بِاسْتِثْنَاءِ الْإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ) لَمْ يَتَوَلَّوْا إِلَّا نَادِراً أَيْ سُلْطَةً

(١) تربط لارا ديب (٢٠٠٦) مأسسة الولاية والمعرفة الدينيّة بعقلنة التدين وتحديثه. انظر ديب (الحدائثي المأسور). وعلى شاكلة ديب، ترى صوفيا بانديا أن مجالس العزاء التي تقيمها النساء في البحرين قد أضحت باطراد أداة للتطور والتعليم الاجتماعيّ. في هذا الفصل، سأستهلّ نقاشي بالحديث عن عملية المأسسة ثمّ التعليم الحوزويّ. انظر بانديا "المآتم الشيعية النسوية في البحرين".

(٢) شهد التّنظيم المكانيّ في مرقد السيّدة زينب وكذلك الحسينيّة الزينبيّة الأقدم والأكبر في المدينة عدّة تغيّرات بارزة بسبب تدفق عدد كبير من طالبي اللّجوء والسّائحين الدينيّين.

(٣) على الرّغم من الارتباط الوثيق بين الفضيلة والانضباط، إلّا أنّ ميشيل فوكو يبيّن أنّ التّوكيد على الانضباط نشأ مع الدّولة القوميّة الحديثة. ميشيل فوكو (المراقبة والمعاقبة: ولادة السّجن). ترجمة الآن شريدان (نيويورك: فنتيغ بوكس، عام ١٩٩٥).

سياسية، يتعيّن على الشيعة التّمييز بين السُّلطة (power) والولاية (authority).^(١)

يرى السّنة والشيعة كلاهما أنّ النّبي محمّداً عليه السّلام يجوز. شرعاً. كلّاً من السُّلطة والولاية. إلّا أنّ الخلافات نشبت بعد وفاة النّبي عام (٦٣٢ ميلادية) بشأن الشّخص الأحقّ بخلافته وتحديد صفّته.

ويرى السّنة أنّ الزّعامة السّياسيّة الشرعيّة - وبكلماتٍ أُخر: السيّادة التي تشتمل على كلّ من "السُّلطة" و "الولاية" كانت بيد أبي بكر الصّدّيق، ثمّ عمر بن الخطّاب، ثمّ عثمان بن عفّان، ثمّ عليّ بن أبي طالب؛ الذين أُطلق عليهم، وعُرفوا فيما بعد بـ "الخلفاء الرّاشدون الأربعة". وخلافاً للسّنة، يرى الشيعة أنّ الولاية الدّينيّة قد مرّت مباشرة من النّبي محمّد إلى الإمام عليّ، وهذا يجعل الخلفاء الثلاثة الذين حكموا قبله مغتصبين للسُّلطة وغير شرعيّين! وزيادةً على ذلك، أحدثت معركة كربلاء التي وقعت في عام (٦٨٠ م) انقساماً هائلاً بين سيادة السُّلطة المتمثّلة بالخلافة الأمويّة وبين الولاية الدّينيّة التي يجوزها الأئمّة المعصومون! وقد شكّل مقتل الإمام الحُسين في كربلاء انعطافاً تاريخيّاً لا سبيل إلى الرّجوع عنها في تاريخ الشيعة الاثني عشرين كونها أرّخت لحالة الانقسام بين السُّلطة والولاية.

ولا يشكّ في أنّ غياب الإمام المعصوم الثّاني عشر، الإمام المهديّ، بعد ذهابه في غيبته الثّانية الكبرى في عام (٩٤٠ م) قد أسهم في تعميق أزمة الولاية

(١) موجان مومن (مُقَدِّمة إلى الإسلام الشّيعي) (نيوهافن: كاليفورنيا، جامعة ييل، عام ١٩٨٥) ٧٧. ومثلما سأبيّن في المباحث التّالية، أرى أنّ مُفردة "ولاية" تنطوي على جانبين مهمّين: هما السُّلطة والولاية.

بين الشيعة الاثني عشرين. وبرزت منذ ذلك الحين وجهة نظر شيعة مهمة تقول: إنه في ظل غياب الإمام المعصوم، فإن آية سلطة سيادية هي بالضرورة سلطة غير شرعية. وبرز بموازاة هذا الرأي توجه آخر تمخض عن فكرة تنفيذ أن العلماء هم ورثة ولاية الإمام، ويتعين عليهم أداء دوره في توجيه المسلمين وتقديم الإرشاد الديني لهم.

كان العلماء في بادئ الأمر ورثة الأئمة والأنبياء لجهة دورهم في نقل المعارف [الدينية] فحسب؛ وهي المعارف التي تحولت بمرور الوقت إلى مجموعة العلوم الإسلامية. ثم أسهمت الأهمية المتنامية التي اكتسبتها الفقه منذ نهاية القرن الثامن عشر فصاعداً في فتح الطريق واسعاً أمام السجلات التي احتدمت في القرن العشرين، بشأن ضرورة أن يتمتع الفقهاء كذلك بحق الإمام المعين. إلهياً. بالسلطة السياسية وكذلك بولاية الإمام الدينية.^(١) يستهل كل مجتهد شيعي في الوقت الحاضر رسالته الفقهية التي تمثل حجته في المطالبة بالمرجعية، بتوضيح السبب الذي يجعل الشيعة. ما دائماً لا يستطيعون الاجتهاد بالاعتماد على أنفسهم. ملزمين بتقليد مجتهد أو مرجع تقليد. ويركز كل مجتهد على جملة من الأسباب والقيم والتفضيلات المختلفة التي تنطوي على مضمونات ونتائج مؤثرة ودالة فيما يتصل بتصورات الولاية، والقيادة، والمأسسة، والذاتية (subjectivity) التيفية. ويعد آيات الله على

(١) في سبيل المثال، مفهوم ولاية الفقيه الذي نادى به الإمام الخميني. انظر مير لتواك (علماء الشيعة العراقيون في القرن التاسع عشر: علماء النجف وكربلاء) (جامعة كامبرج عام ١٩٩٨).

الخامنيّ، وصادق شيرازي، ومحمّد حسين فضل الله من أبرز مراجع التقليد وأهمّهم في مدينة السيّد زينب^(١).

استهلّ آية الله عليّ الخامنيّ رسالته الفقهية برثاء الإمام الخميني، واستند في الأحكام الفقهية التي أوردّها (إمّا إلى رأي نبيل ومعتبر، وإمّا في بعض من الحالات إلى رأي أحد أبرز رجال الدين في زمانه ومؤسس الجمهورية الإسلامية في إيران، الإمام روح الله الموسويّ الخميني).^(٢) ويرى الخامنيّ أنّ حقيقة الدولة القومية الحديثة أسهمت في استعادة المذهب الشيعي والامة الشيعية. وتتمتع المؤسسات الحديثة في هذا المعنى بأهمية بالغّة في عملية الاستعادة هذه وتشغل موقعاً محورياً فيها. في الأقلّ. إلى الحدّ الذي يمكنها من أداء وظائفها في ظلّ غياب الإمام المهديّ؛ هذا من جانب، ومن جانب آخر، يرى الإخوة الشيرازيون (محمّد وحسن وصادق) أنّ استعادة المذهب الشيعي

^(١) يشغل الأسلوب الذي يبلغ الفقيه بموجبه منصب مرجع التقليد موقعاً حاسماً وأساسياً في آليات العمل التقليديّة في المرجعية. إذ من أجل إظهار اهتمام فقيه ما ببلوغ هذا الموقع، فإنّه يكتب رسالة يبيّن فيها آراءه في طيف واسع من الأحكام الدينيّة المسؤولة عن تنظيم مجمل جوانب حياة المسلم. وتتخذ هذه الرسالة عادة شكل هوامش يعلّق فيها الفقيه على رسالة مرجع دين سابق، ويحدث في بعض الأحيان قيام زملاء المجتهد بحثه على كتابة الرسالة، إلا أنّه يرفض! ويُعدّ رفضه هذا. على نحو عام. دليلاً على عدم اهتمامه بالنهوض بهذا الدور. ومن جانب آخر، قد يعود السبب في رفضه هذا، بالبداهة، إلى اعتقاده بأنّه من السابق لأوانه التصريح برغبته في شغل هذا المنصب.

وفيما يتصل بعامل العمر، وعلى الرّغم من أنّ الروايات تقدّم الإمامين الحسن والحسين بصورة المحاربين - الشباب، فإنّ أنموذج رجل الدين العظيم الذي شاع في العالم الشيعي، هو أنموذج البطريق، (الأب) الشرق أوسطيّ كبير السنّ. ولم يكن الشباب الذين تقدّموا لشغل هذا الموقع مقبولين بين رجال الدين ولا لدى عامّة الناس. انظر: الأعلام بين الشيعة مؤسّسة مرجعية التقليد لندا والبرج. الفصل الرابع عشر. ترجمة د. هناء خليف غني (المقوم اللغوي).

^(٢) السيّد عليّ حسيني خامنيّ. (تشريعات الإسلام العملية) (طهران: منظمة العلاقات الثقافية الإسلامية، ١٩٩٧) ٩.

والأمة الشيعية ليست مستحيلة في عالم مؤلف من دول قومية، ولكنها تستلزم تغييرات مؤسساتية. محدّدة وعميقة. ويردُّ السبب الرئيس في اتّخاذ هذا الموقف والرأي إلى توتر العلاقة بين الشيرازيين من جهة وكلٍّ من رجال الدين الشيعة العراقيين والحكومة الإيرانية من جهة أخرى! (١) وبدلاً من ربط ولايتهم الدينية بدولة قومية محدّدة، كرّس السيّد صادق الشيرازي الفصل الأوّل في عمله باللّغة الإنكليزية المعنون بـ (الفقه الإسلامي) لمناقشة مسائل الاجتهاد والتقليد. وتلخّص الصّفحة الأولى آراءه وفكره، حيث يقول: (من الصّروري والألزام أن يستند اعتقاد المسلم بأصول الدين إلى التّفكير المنطقيّ والبرهان، إذ يحقّ للمرء ألاّ يتبع الآخرين في هذه المسائل، بمعنى قبول آراء الآخرين بشأن هذه المسائل من دون سبب، أو توضيح، أو مُسببات منطقية).

وأصول الدين خمسة هي (١) التّوحيد، و (٢) العدل، و (٣) النّبوة، و (٤) الإمامة، و (٥) المعاد.

ويصدّق الأمر ذاته على أساسيات "فروع الدين" أو ممارسات الإسلام وأحكامه، مثل أداء الصّلوات اليومية والصّيام. وبقدّر ما يتعلّق الأمر بأحكام الإسلام وفروع الدين، يتعيّن على المكلف إمّا أن يكون مجتهداً، وإمّا مقلّداً، وإمّا محتاطاً. وينبغي للشخص الذي يتعذّر عليه أن يكون مجتهداً أو يمارس الاحتياط أن يقلّد مجتهداً؛ ويشتمل فعل التّقليد على التّقيّد بالأحكام الخاصّة بالعبادات والمعاملات، زيادةً على الأفعال الأخرى الواجبة، والمستحبة، والمكروهة، والمباحة. (وهذا هو واجب المؤمن في زمن الغيبة الكبرى؛ بقدر ما

(١) للاستزادة عن مناقشات مشمرة بشأن علاقة الشيرازيين بالعراق، وسوريّا، وإيران، ودول الخليج العربي، انظر لويز (السياسات الشيعية العابرة للقوميات).

يتعلّق الأمر بمعرفة الأحكام الإسلاميّة، حينما لا يتوفّر نائبٌ عن الإمام المتّظّر - عجل الله فرجه - يمكن الرجوع إليه، كما ورد في الحديث الشريف عن الإمام الحجة [المهدي] جعلت أرواحنا فداءه. [وفي ردّ منه على أحد أسئلة إسحاق بن يعقوب التي سأل فيها الإمام عن الجهة التي ينبغي الرجوع إليها في حالة الحوادث الواقعة في المستقبل... كتّب [الإمام] "أما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا، فإنّهم حجّتي عليكم، وأنا حجّة الله". وعليه، يحرم تحريماً قاطعاً الرجوع إلى سواه أو الاستعانة بهم).^(١)

ومثلاً هو واضح، فقد سلّط السيّد صادق الحسيني الشيرازي الضوء أولاً على خاصيّة "التفكير" الفردي والمستقلّ من خلال ترسيخ موقع أصول الدين الخمسة في المعتقد الشخصي. وخلافاً لأصول الدين، أكّد الشيرازي على أن "فروع الدين" أمثال الصلاة والصوم، لا يمكن أن تُستمدّ من التفكير أو المنطق الفردي، بل ينبغي تعلّمها من المصادر المؤثّقة، إذ يتعيّن على كلّ شيعيٍّ إمّا إتباع الآراء الفقهيّة لأحد رجال الدين وإمّا أن يضحّ هو نفسه مجتهداً (قادراً على الاجتهاد أو استنباط الأحكام الشرعيّة المستقلّة من مداركها المقرّرة) وزيادة على ذلك، شدّد صادق الشيرازي على لزوم أن يقلّد الشيعة العاديون مجتهداً أثناء غيبة الإمام، ولكنّه يبيّن في الوقت ذاته، أنّه (ليس ثمة مثل محدّد للإمام الغائب) وهذا يعني هجوماً مبطناً على آيتي الله الخميني والحامني اللّذين لم يكتفيا بالادّعاء بأن الفقهاء هو ورثة المناصب (الدينيّة والسّياسيّة) التي

(١) السيّد صادق الشيرازي (الفقه الإسلامي) (واشنطن العاصمة: كتب فاونتن، عام ٢٠٠٨)

يُحَوِّزُهَا الْأُئِمَّةُ، بَلْ أَكْثَرُ ضَرُورَةٍ وَجُودِ قَائِدٍ أَعْلَى وَاحِدٍ فَحَسْبُ. ^(١) وبناءً على رؤيتهم وموقفهم هذا، طالب الشيرازيون بإنشاء مجلس "شورى العلماء" مؤلف من عدد من مراجع التقليد بينهم الشيرازيون.

وبداهة، تؤثر آراء العلماء وعلاقتهم بالسلطات السياسية في الطرائق التي يتصورون بها علاقاتهم بأتباعهم أو مقلديهم. إذ يرى آية الله صادق الشيرازي الزعيم الرمزي للجماعة الشيرازية حالياً، ^(٢) أن الحاجة إلى التقليد تستند كليةً إلى "العقل" ومضموناته الاعتقادية. ^(٣) وكتب بأسلوب دفاعي أنه لا يحق لأي مجتهد أن يجبر أتباع مجتهد آخر على أن يتبعوه إذا كان الأخير مجتهداً معترفاً به شرعياً، ثم مضى في حديثه معرّفاً الشخص الذي يمكنه تقديم نفسه على أنه مرجع التقليد الشرعي. ^(٤) أما آية الله فضل الله، فيرى أن العلاقة بين المجتهد والمقلد هي علاقة خاصة يقبل فيها الأخير "إرشاد" الأول وولايته في مسائل الفقه والسلوكات الجسمية، أو "الهابيتوس". ^(٥) مقابل ذلك، يتولى المجتهد

(١) فهي بعد كل ذلك، ولاية الفقيه لا ولاية الفقهاء.

(٢) أسس حسن الشيرازي الحسينية الزينية في سوريا، ولكنه توفي بعد ذلك بقليل. وترغم محمد الشيرازي الجماعة الشيرازية حتى وفاته؛ وهو تحت الإقامة الجبرية في قم عام ٢٠٠١.

(٣) بينما يؤكد صادق الشيرازي على "العقل" فيما يتصل بالتقليد، فإنه اتبع "الأعقل" وفقاً لتعريف لارا ديب، فيما يتصل بطقوس عاشوراء.

(٤) صادق الشيرازي (الفقه الإسلامي) ٨-٩.

(٥) يترجم هذا المصطلح في العربية بلفظ التطبع أو السجية أو العقلية التي توجه السلوك توجيهها عفويًا وتلقائيًا ويأخذ هذا المفهوم أهميته في نسق المفاهيم المركزية عند بير بورديو مثل الحقل والرمز والعنف الرمزي. فالفرد يتشكل على نحو لاشعوري في بيئته الاجتماعية في غمر متدفق من الإشارات والمعاني والدلالات والوضعيات والرموز والتصورات التي تتفاعل لتشكل عمقه الوجداني السلوكي وتحدد طباعه ونظرته إلى الكون، وتنسج فيه هذه الآليات العفوية للسلوك والحياة والعمل والنظر. ويُعرف الهابيتوس بأنه نسق من الاستعدادات المكتسبة التي تحدد سلوك الفرد ونظرته إلى نفسه وإلى العالم الذي يكتنفه،

المسؤولية عَنْ تَصَرُّفَاتٍ مَقْلَدِهِ أَمَامَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. ^(١) أمَّا الإمام الخامنيّ، فلم يكن دفاعياً في رأيه مثل الشيرازي ولا مشدداً على المسؤولية مثل فضل الله، بل أسس ولايته بوصفه مجتهداً مستنداً إلى "الكاريزما" التي كان سلفه آية الله الخميني يمتنع بها وإلى سلطته، ^(٢) ومضى الخامني في ذلك إلى حد القول: إنه ليس من الضروري أن يستعين الشيعة بالمجتهد الأعلم لتوضيح مسألة شائعة نسبياً (وهذا يعني اعترافاً ضمنيّاً من جانبه بأنه قد لا يكون المجتهد الأعلم). ^(٣) وبكلماتٍ أخرى، تعكس كل رسالة يكتبها المجتهد علاقته (أو في حالة الخامني) تماهية مع السلطة السياسية التي تؤثر في دورها بعلاقته في أتباعه فيما يتصل بالمعرفة والمسؤولية.

المؤسسات الشيعية:

يعود تاريخ وجود المؤسسات الشيعية في سوريا إلى القرن الرابع عشر في الأقل. ^(٤) إلا أن التوسع والزيادة الحاليين في عدد المؤسسات الشيعية الاثني

وهو أشبه ما يكون بطبع الفرد أو بالعقلية التي تسود في الجماعة لتشكّل منطق رؤيتها للكون والعالم. ووفقاً لهذا التصور يُعدّ "الهابيتوس" جوهر الشخصية والبنية الذهنية المولدة للسلوك والنظر والعمل، وهو في جوهره نتاج لعملية استبطان مستمرة ودائمة لشروط الحياة ومعطياتها من خلال مختلف مراحل الوجود بالنسبة للفرد والمجتمع. (المصدر، د. أسعد علي وطفة، الهابيتوس في سوسيولوجيا بورديو، موقع مصر المدنية، ٢٠١٢، الانترنت).

^(١) (الفقه الميسر: سنّ التكليف) (بيروت: مؤسسة الأعلمي، عام ٢٠٠٥) ٦؛ محمد حسين فضل الله (الدليل الواضح للأحكام الإسلامية) (بيروت: دار الملاك، عام ٢٠٠١) ٢٦.

^(٢) الخامنيّ (مُنْتَخَبُ الْأَحْكَامِ) ٩-١٠.

^(٣) المصدر ذاته، ١٦-١٧.

^(٤) سابرنا ميرفن "عاشوراء: بعض من الملاحظات على الممارسات الطقوسية في مجتمعات محلية شيعية مختلفة: لبنان وسوريا" في (الشعبة الآخرون: من البحر الأبيض المتوسط إلى وسط

عَشْرِيَّةً فِي مَدِينَةِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ، هِيَ ظَاهِرَةٌ حَدِيثُهُ نَسِيًّا.^(١) وَيتبعُ هذا التَّوسُّعُ، بِحَسَبِ "سَابِرِينَا مِيرْفَن" اتِّجَاهَانِ وَتَقْلِيدَانِ مُنْفَصِلَانِ: هُمَا الْمَذْهَبُ الشَّيْعِيُّ الْإِثْنَا عَشْرِيُّ الْعِرَاقِيِّ مِنْ جِهَةٍ، وَالْمَذْهَبُ الشَّيْعِيُّ الْإِيرَانِيُّ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى.^(٢) وَتَحَدَّثُ "إِسْحَاقُ نَقَاشُ" فِي دِرَاسَتِهِ عَنِ الْمَذْهَبِ الشَّيْعِيِّ الْعِرَاقِيِّ فِي الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ عَنِ الْمَوْضُوعِ ذَاتِهِ أَيَّ ضَرُورَةِ تَمْيِيزِ الْمَذْهَبِ الشَّيْعِيِّ الْإِثْنَا عَشْرِيِّ فِي الْعِرَاقِ عَنِ نَظِيرِهِ فِي إِيرَانَ.^(٣)

كَانَتْ السُّلَالَةُ الصَّفَوِيَّةُ الَّتِي حَكَمَتْ إِيرَانَ لِلْمُدَّةِ مِنْ عَامِ (١٥٠١ م) إِلَى عَامِ (١٧٢٢ م) أَوَّلَ مَنْ أَدْخَلَ الْمَذْهَبَ الشَّيْعِيَّ الْإِثْنَا عَشْرِيَّ وَفَرَضَهُ عَلَى سُكَّانِ الْبِلَادِ. وَتَرَسَّخَ فِي مُقَابِلِ ذَلِكَ إِلَى الْغَرْبِ مِنْ إِيرَانَ. أَيَّ فِي الْعِرَاقِ. وَجُودُ الْمَذْهَبِ الشَّيْعِيِّ الْإِثْنَا عَشْرِيِّ عَلَى نَحْوِ رُئُوسٍ فِي مَدِينَتَيْ النَّجَفِ وَكَرْبَلَاءَ الْمُقَدَّسَتَيْنِ؛ وَيَعُودُ السَّبَبُ فِي اعْتِنَاقِ الْقَبَائِلِ الْعِرَاقِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ هَذَا الْمَذْهَبَ فِي جَزْءٍ مِنْهُ إِلَى عَمَلِيَّةِ التَّوطينِ فِي الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ. وَقَدْ وَصَفَ "نَقَاشُ" الْمَذْهَبَ الشَّيْعِيَّ الْإِيرَانِيَّ بِأَنَّهُ أَكْثَرُ تَصَوُّفًا؛ فِي حِينٍ يَمِيلُ الْمَذْهَبُ الشَّيْعِيُّ الْعِرَاقِيُّ إِلَى التَّرَكِيزِ عَلَى قِيَمِ الرُّجُولَةِ الْقَبِيلِيَّةِ. وَيُلْحِظُ. عَلَى وَجْهِ الْعُمُومِ. حُضُورَ هَذَيْنِ التَّيَّارَيْنِ كُلِّهِمَا فِي سُورِيَا وَتَأْثِيرُهُمَا الْبَالِغُ فِي مُمَارَسَاتِ الشَّيْعَةِ الْإِثْنَا عَشْرِيَّةِ فِي مَدِينَةِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ.

آسِيَا) تَحْرِيرُ الْيَسَانْدَرُو مَنَسُوتِي، وَسِيلْفِيَا نَايِفَ، وَفَارِيَا نَ صَبْحِي (بِرْلِين: بِيْتَر لَانْغ فِيرْلَاغ، عَام ٢٠٠٧) ١٣٧-١٤٧.

(١) خَالِد سَنَدَاوِي، "دُورُ الشَّيْعَةِ فِي سُورِيَا" الْإِتِّجَاهَاتُ الْحَالِيَّةُ فِي الْأَيْدِيُولُوجِيَا الْإِسْلَامِيَّةِ ٨ (٢٠٠٩) ٨٢-١٠٧.

(٢) مِيرْفَن "السَّيِّدَةُ زَيْنَب: إِحْدَى ضَوَاحِي دِمَشْقِ أَم مَدِينَةٍ مُقَدَّسَةٍ شَيْعِيَّةٍ جَدِيدَةٍ؟".

(٣) نَقَاشُ (شَيْعَةُ الْعِرَاقِ) ٣-٩.

ويؤلف الإيرانيون، والعراقيون، و "الإيرانيون . العراقيون" الجماعات الشيعية الثلاث الأكبر في مدينة السيدة زينب،^(١) ويتصف الإيرانيون . في أكثر الأحيان . بكونهم زواراً مؤقتين . وبحسب ما بيّنته "ميرفن" تُعد زيارة مرقد السيدة زينب بمنزلة "حج الفقراء"^(٢) بالنسبة للكثير من الإيرانيين الذين تتألف أكثريتهم من أبناء الطبقة العاملة وسكان الأرياف وكبار السن . ويتألف العراقيون في مدينة السيدة زينب من خليط من السنة والشيعية كليهما . ويُعد الإيرانيون - العراقيون من أوائل العراقيين الذين أقاموا في مدينة السيدة زينب في سبعينيات القرن العشرين وثمانينياته . ويُلاحظ . على وجه العموم . أن هؤلاء كانوا . وما زالوا . يرتبطون بعلاقات مع الحوزات العلمية لأنهم يعدّون أنفسهم عراقيين بانتماؤات إيرانية أو أفغانية .

وقد تحدّث (نقاش) في دراسته عن ظاهرة الرّيجات المختلطة والتّخاطب الاجتماعي بين العراقيين والإيرانيين في مدن النّجف و كربلاء المقدّستين . وقد استقرّ العديد من الطّلبة ورجال الدّين الإيرانيين في هذه المدن وعاشوا فيها لعدّة أجيال^(٣) . وعلى الرّغم من ذلك، ثمة عداء ونفور بين الشيعة العراقيين والشيعة الإيرانيين (وحتى الشيعة الإيرانيين - العراقيين) وقد يختار بعض من

(١) الإيرانيون - العراقيون هم العراقيون ذوو الأصول الإيرانية . إذ تعود أصول العديد من رجال الدين في كربلاء، مثلاً، أمثال الشيرازيين إلى إيران، وما زالوا يتحدثون اللغة الفارسية . وقد دأب رجال الدين الشيعة في التّنقل بين البلدين على نحو منتظم في القرون الخمسة الأخيرة، ولذا يمكن القول: إن تسمية "العراقيين . الإيرانيين" هي تسمية مضللة . قارن مع فاروق - سلاغيت وسلاغيت، (العراق منذ عام ١٩٥٨) ص ٢٥٨ .

(٢) ميرفن، يُردّ السّبب في تسمية "عاشوراء" بـ "حج الفقراء" إلى حقيقة أنّ الحصول على فيزا إلى سوريا والسّفر إليها أسهل وأقلّ تكلفة منه إلى المملكة العربية السعودية .

(٣) نقاش، (شيعية العراق) ١٣-٤٨ .

الشَّيْعَةُ الْعِرَاقِيَّةُ الْاِمْتِنَاعُ عَنْ الْاِنْضِمَامِ إِلَى الْحُسَيْنِيَّاتِ أَوْ الْحَوَزَاتِ الْعِلْمِيَّةِ الَّتِي يَدْرُسُ فِيهَا الْكَثِيرُ مِنَ الْإِيرَانِيِّينَ! (١)

عَلَّقَتْ إِحْدَى النِّسَاءِ الْعِرَاقِيَّاتِ الْعَجَائِزِ قَائِلَةً لِي أَثْنَاءَ حَدِيثِي مَعَهَا فِي مَجْلِسِ عَزَاءٍ خَاصٍّ: إِنَّ الْحَوْزَةَ هِيَ اخْتِرَاعٌ إِيرَانِيٌّ، وَإِنَّهُ لَيْسَ ثَمَّةَ امْرَأَةٍ مُحْتَرَمَةٍ تَذْهَبُ إِلَيْهَا! لَأَنَّ الْإِيرَانِيِّينَ يُؤْمِنُونَ بِالْمَتْعَةِ أَوْ الزَّوْاجِ الْمُؤَقَّتِ. الَّذِي تَعُدُّهُ نَوْعًا مِنْ أَنْوَاعِ الدَّعَارَةِ. (٢) وَعَلَى الرُّغْمِ مِنْ ذَلِكَ، تَعُودُ أَصُولُ الْعَدِيدِ مِنَ الْمَلَائِيَّاتِ الْعِرَاقِيَّاتِ إِلَى إِيرَانَ، وَمَا زَالَتِ الدَّعَوَاتُ تُوجَّهُ إِلَيْهِنَّ لِيَرَأْسْنَ مَجَالِسَ الْعَزَاءِ النِّسَائِيَّةِ الْعِرَاقِيَّةِ. (٣) وَبِدَاهَةِ، تَسْتَلْزِمُ الْقَوْمِيَّةُ عَلَى نَحْوِ مُتَوَقِّعِ النِّسْيَانِ زِيَادَةً عَلَى التَّذَكُّرِ. (٤)

وَقَدْ أَسْهَمَتْ الْمَصَالِحُ الْإِيرَانِيَّةُ فِي تَعْزِيزِ النَّمُوِّ وَالتَّنَوُّعِ اللَّذَيْنِ شَهِدَتْهُمَا الْمَازِسَاتُ وَالْمُؤَسَّسَاتُ الْاِثْنَا عَشْرِيَّةُ فِي مَدِينَةِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ وَفِي سُورِيَا بِعَامَّةٍ؛

(١) اكْتَسَبَتْ مَسْأَلَةُ الْهُوِيَّةِ الْاِثْنِيَّةِ أَهْمِيَّةً كَبِيرَةً فِي السَّنِينَ الْآخِرَةِ بِسَبَبِ الْحَرْبِ وَالصَّرَاحِ فِي الْعِرَاقِ. إِذْ لَا تَجِدُ أَمَّ أَحَدٍ، وَهِيَ شَيْعِيَّةٌ عِرَاقِيَّةٌ مِنْ بَغْدَادِ الْحُضُورِ إِلَى الْحَوْزَةِ الزَّيْنَبِيَّةِ فِي سَبِيلِ الْمَثَالِ بِسَبَبِ وُجُودِ الْإِيرَانِيِّينَ الَّذِينَ تَعُدُّهُمْ أَعْدَاءً! مَلَحُوظَاتٌ حَقْلِيَّةٌ، الثَّلَاثَاءُ ١٩ حَزِيرَانَ عَامَ ٢٠٠٨. وَيُرَجِّحُ مَعْرِفَةَ الْمَسْئُولَاتِ عَنْ إِدَارَةِ الْحَوْزَةِ الزَّيْنَبِيَّةِ بِهَذِهِ التَّجَاذِبَاتِ بَيْنَ الطَّرْفَيْنِ، وَرَبَّمَا كَانَ هَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي اسْتِحْضَارِهِنَّ الدَّائِمَ لِلْعِرَاقِ، وَسَرَدَهُنَّ الْقِصَصَ بِشَأْنِ حَيَوَاتِهِنَّ فِيهِ وَإِبْرَادَهُنَّ الْأَمْثَلَةَ الَّتِي تَصْدُقُ عَلَى الْعِرَاقِ فِي الْكَثِيرِ مِنَ الصُّفُوفِ الدَّرَاسِيَّةِ (أَمْثَالُ الْفَقْهِ).

(٢) مَلَحُوظَاتٌ نَقْدِيَّةٌ، الْأَحَدُ ١٨ كَانُونِ الثَّانِي عَامَ ٢٠٠٩.

(٣) الْأَلْفَاتُ لِلانْتِبَاهِ أَنَّهُ عَلَى الرُّغْمِ مِنْ حُضُورِ الرُّوَاطِ الدِّيْنِيَّةِ الْعَابِرَةِ لِلْقَوْمِيَّاتِ، لَيْسَ ثَمَّةَ مَوْقِفٍ مُحَدَّدٍ إِزَاءَهَا بَيْنَ السَّكَّانِ. وَعَلَى الرُّغْمِ مِنْ أَهْمِيَّةِ هَذِهِ الرُّوَاطِ لِلْمَغْتَرِبِينَ وَالْحِجَاجِ الَّذِينَ يَأْتُونَ فِي زِيَارَاتٍ قَصِيرَةٍ، يَتَسَمَّى الْاِنْقِسَامُ بَيْنَ السَّكَّانِ بِكَوْنِهِ سَيِّدَ الْمَوْقِفِ فِيهَا يَتَّصِلُ بِمَوْقِفِهِمْ حَيَالُ التَّجَمُّعَاتِ الدِّيْنِيَّةِ، وَالْحَوَزَاتِ الْعِلْمِيَّةِ، وَالْمَنَاطِقِ الْمَجَاوِرَةِ لَهُمْ.

(٤) مِثْلَمَا قَالَ أَرْنِسْتُ رِنْيَانُ فِي الْمَحَاضِرَةِ الْمُعَنْوَنَةِ بِ "مَا الْقَوْمِيَّةُ؟" (١٨٨٢): النِّسْيَانُ، سَامُضِي بَعِيدًا إِلَى حَدِّ الْقَوْلِ: إِنَّ الْخَطَأَ التَّارِيخِيَّ، هُوَ الْعَامِلُ الْحَاسِمُ فِي خَلْقِ الْأُمَّةِ". الْمَصْدَرُ: (أَنْ تَصْبِحَ قَوْمِيًّا دَلِيلٌ) تَحْرِيرٌ، جِيُوفِ أَلِي وَرُونَالْدُ غَرِيغُورُ سَانِي (نِيُيُورُكْ: جَامِعَةُ اَكْسْفُورْد، عَامَ ١٩٩٦) ٤٥.

إذ تمكّنت المراقدة التي تعودُ إلى "آل البيت" بمُساعدَةِ الأموالِ الإيرانيَّةِ مِنَ الانتعاشِ والتَّوسُّعِ، وكذلكِ إنشاءُ المدارسِ الشَّيعِيَّةِ.^(١) وبفضلِ تجديدِ المراقدةِ وتدفُّقِ السَّائِحِينَ فِي المُنَاسَبَاتِ الدِّينِيَّةِ، شهدتْ المَدِينَةُ افْتِتَاحَ أسْوَاقٍ جَدِيدَةٍ، وخلقَ المَزِيدُ مِنْ فُرْصِ العَمَلِ لِلسُّورِيِّينَ ولغَيرِهِم. وفي الوَقْتِ ذَاتِهِ، شعرَ السُّورِيُّونَ الشُّنَّةُ بِعَاقِبَةِ والفِلَسْطِينِيِّونَ الَّذِينَ يَقيمُونَ فِي مَدِينَةِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ بِخَاصَّةٍ بِالْقَلْقِ مِنْ هَذِهِ الأَمْوَالِ، وبالشَّكِّ فِي دَعْمِهَا لِحزْبِ اللَّهِ اللَّبْنَانِيِّ وَالتَّروِيحِ لِلْمَذْهَبِ الشَّيعِيِّ! ويتعذَّرُ تحديدُ المَدَى الَّذِي تَدْعُمُ فِيهِ إِيْرَانُ فَعْلِيًّا الأَنْشِطَةَ الشَّيعِيَّةَ الْمُخْتَلِفَةَ. وَقَدْ أَخْبَرَنِي اثْنَانِ مِنَ الفِلَسْطِينِيِّينَ هَذَا الصَّدَدِ يَعِيشَانِ فِي مَدِينَةِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ (أَحَدُهُمَا كَانَ أَبًا وَالثَّانِي زَمِيلًا لَأَمَالٍ فِي الْحَوْزَةِ الشَّيرَازِيَّةِ) فِي مُنَاسَبَتَيْنِ مُفَصَّلَتَيْنِ أَتَتْهُمَا يَعْرِفَانِ أَشْخَاصًا عَرَضَتْ عَلَيْهِمُ إِيْرَانُ أَمْوَالًا لِلتَّحْوِيلِ مِنَ المَذْهَبِ الشُّنِّيِّ إِلَى الشَّيعِيِّ.^(٢) وَلَكِنِّي لَمْ أَلْتَقِ - شَخْصِيًّا - قَطُّ بِشَخْصٍ اسْتَلَمَ مُسَاعَدَاتٍ مَالِيَّةً مِنْ إِيْرَانٍ لِقَاءِ التَّحْوِيلِ إِلَى المَذْهَبِ الشَّيعِيِّ (مَا عدا، رُبَّمَا، اسْتِلَامَ مَبْلَغٍ مَالِيٍّ ضَمِيلٍ لِقَاءَ حُضُورِ الدَّرُوسِ الْحَوْزَوِيَّةِ، وَهُوَ مَبْلَغٌ يَسْتَلِمُهُ الدَّارِسُونَ فِي الْحَوْزَةِ جَمِيعًا). غَيْرَ أَنَّ انْتِشَارَ شَائِعَاتٍ مِثْلِ هَذِهِ تَشِيرُ إِلَى قَضِيَّةٍ أَكْبَر؛ تَتَّصِلُ بِحَدُوثِ تَحْوِيلٍ فِي السُّلْطَةِ وَعِلَاقَاتٍ هَامِيَّةٍ. وَعَلَى الرُّغْمِ مِنْ تَعَذُّرِ البَتِّ فِي مَسْأَلَةِ تَقْدِيمِ إِيْرَانِ المَعُونَاتِ المَادِّيَّةِ لِلْمُتَشَيِّعِينَ [الْمُتَحَوِّلِينَ إِلَى المَذْهَبِ الشَّيعِيِّ] مِنْ عَدَمِهِ، إِلَّا أَنَّ المُؤَكَّدَ وَالوَاضِحَ هُوَ تَمْوِيلُ

(١) ممَّا يَلْفَتُ الانْتِبَاهُ أَنَّ إِيْرَانًا لَا تَمُولُ رِجَالُ الدِّينِ الشَّيعَةِ جَمِيعًا، بَلْ بَعْضًا مِنْهُمْ. قَارَنَ مَعَ خَالِدِ سِنْدَاوِي "دَوْرَ الشَّيعَةِ فِي سُورِيَا".

(٢) مَلْحُوظَاتُ حَقْلِيَّةٍ، الجُمُعَةُ، الحَادِي عَشَرَ مِنْ كَانُونِ الأوَّلِ عَامِ ٢٠٠٩. كَانَ الرَّجُلَانِ كِلَاهُمَا مِنَ المَعَارِضِينَ الْمُتَشَدِّدِينَ لِلْمَذْهَبِ الشَّيعِيِّ وَالْإِيْرَانِيِّينَ بِعَاقِبَةِ، وَهَذَا يَدْفَعُنَا إِلَى التَّفَكُّيرِ بِاحْتِمَالِ مَبَالِغَتِهِمَا فِيمَا قَالَاهُ.

إيرانَ واسعَ النطاقِ لمَشروعاتِ البناءِ والتَّجديدِ، أمثالَ تجديدِ مرقدِ السَّيِّدةِ زينبَ. وقد اضْطَلَعَتِ الاستِثماراتُ العراقيَّةُ والإيرانيَّةُ الخاصَّةُ بدَوْرٍ كبيرٍ في انتعاشِ الأعمالِ والأنشطةِ التَّجاريَّةِ ونموِّ المدينةِ بمُعدَّلاتٍ لمْ يسبقْ لها مثيلٌ. مقابلَ ذلكَ، لمْ تفعلْ الحكومةُ السُّوريَّةُ الكثيرَ فيما يَتَّصِلُ بأوضاعِ المدينةِ، باستثناء - ربَّما - تعيينِ قوَّةٍ للشَّرْطَةِ ونصبِ ثكناتٍ عسكريَّةٍ قليلةٍ قُربَ المرقِدِ. وبكلماتٍ أخرى، بينما توفِّرُ الحكومةُ السُّوريَّةُ الأمنَ (من خلالِ ظُهوراتِ القوَّةِ [العسكريَّةِ] الواضحةِ) كانَ لرأسِ المالِ الأجنبيِّ (الشَّيعيِّ على ما يبدو) الدَّورُ الأكبرُ في تحسِينِ الظُّروفِ الاقتصاديَّةِ والاجتماعيَّةِ في المدينةِ. وثمَّةُ أمرٍ آخرٌ هو التَّفوقُ العدديُّ الواضحُ الذي أحرزَهُ الحجاجُ الإيرانيُّونَ والزَّوَّارُ الشَّيعَةُ الآخرونَ وغيرُهُم منَ المقيمينَ الأجانبِ على حسابِ الفلسطينيينَ والسُّوريينَ الآخرينَ المقيمينَ في المدينةِ، ومنْ ثمَّ، اكتساحُهُم هُهم ثقافيًّا ودينيًّا، ممَّا رفعَ مِنْ احتمالاتِ انتشارِ التَّشيعِ.

مرقدُ السَّيِّدةِ زينبَ:

تحدَّثتُ "سابرينا ميرفن" عَنْ تَعوُّدِ الشَّيعةِ والسُّنَّةِ كليهما زيارةَ مرقدِ السَّيِّدةِ زينبَ، وقالتُ: (تحدَّث الرَّحالةُ الأندلسيُّ، ابنُ جُبَيْرٍ (توفي عام ١٢١٧ م) في رحلاتِهِ عَنْ المَوْقعِ المُميِّزِ الذي يشغلهُ الشَّيعةُ في المنطقةِ، وَعَنْ تَفوقِهِم العدديَّ على السُّنَّةِ). ووصَفَ ابنُ جُبَيْرٍ زيارَتَهُ إلى المرقِدِ حيثُ قضَى ليلةً ابتغاءَ "التَّبرُّكِ".

ويرجعُ تأليفُ الشَّيعةِ الأكثريَّةِ العظمى مِنْ سَكَّانِ سورياً إلى القرنِ الرَّابِعِ عشرَ على الرُّغمِ مِنْ استمرارِهِم في العيشِ في دمشقَ. وزيادةً على ابنِ

جبير، فقد تحدّث ابنُ بطُوطَة (تُوفِّي عام ١٣٦٨ م) أو عام ١٣٦٩ م) وكتّاب آخرون كذلك عن مرقد السيّدة زينب، ولكنهم لم يتفقوا على أنّه قبر السيّدة زينب ابنة الإمام عليّ بن أبي طالب. إذ وصف الصوفي عبد الغني النابلسي (تُوفِّي عام ١٧٣١ م) (قبر تعلوه قبة ضخمة في موقع مجاور لجامع وحوض، ولحط قول "أحدِهِم" أنّه قبر السّت زينب. إلّا أنّه يرى أنّ السيّدة زينب مدفونة في القاهرة).^(١)

وقد جدّد مرقد السيّدة زينب ورُمّم مرّاتٍ عديدة في القرن العشرين، وبدأت عمليّات الترميم هذه على يد محسن الأمين (تُوفِّي عام ١٩٥٢ م) إذ شرعت الأسرة النّظاميّة السّوريّة المعروفة في تجديد المدخل الغربي للمرقد في عام ١٩٣٥ م) ثم تبرّع محمّد عليّ حبيب، أحد رجال الأعمال الباكستانيّين في عام ١٩٥٠ م) بالشّركات التي تزيّن القبر بعد أن منّ الله عليه بشفاء ابنه، وأعقب ذلك تحمّل أحد التجار العرب من الخليج تكاليف القيشانيّ^(٢) المعرق الذي يغطّي منارتي المرقد؛ وتبرّعت إيران بالمرقد ذاته، أمّا الباب الذهبي الذي يقع في مدخل (النساء) الغربيّ حاليّاً فكان هديّة من أحد التجار الإيرانيّين.

وخلافاً للمراقب الدّينيّة الأخرى، لا تتولّى وزارة الأوقاف السّوريّة إدارة المرقد إدارة مباشرة. بل تركت هذا الأمر لـ (عائلة المرتضى) التي واصلت إدارته منذ القرن الرابع عشر على الرّغم من تولّي الوزارة إدارة مرقد السيّدة رقيّة، ابنة

(١) ميرفن "السّيدة زينب: إحدى ضواحي دمشق أم مدينة شيعيّة مقدّسة جديدة؟" ووفقاً لميشيل زيني ثمة مرقدان على الأقل؛ يُعرف كلّ منهما بمرقد السيّدة زينب، أحدهما في دمشق والثاني في القاهرة، مصر. ويعتقد العراقيون الذين تحدّث معهم في أنّ زينب لم تُدفن في أيّ من المرقدين كليهما، بل في قبر غير معروف في العراق. قارن مع ميشيل زيني "صناعة التّاريخ: مرقد السيّدة زينب في دمشق" (ARAM) ١٩ (٢٠٠٧) ٦٩٥-٧٠٣.

(٢) خزف صينيّ مُلون، وفقاً لقاموس المعجم الوسيط.

الحُسَيْنِ أَخِي السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ، الَّذِي يَقَعُ عَلَى مَسَافَةٍ مِثْلَةِ مِثْرٍ مِنَ الْجَامِعِ الْأُمَوِيِّ. ودأبت الحكومةُ الإيرانيةُ لاسيَّما في العقدين الأخيرين في تمويلِ المرقِدِ وتجديده (وما زالت مستمرةً في صيانته وتوسيعه).^(١) وزيادةً على ذلك، تسيطرُ الحكومةُ الإيرانيةُ وقائدها الأعلى آيةُ الله عليَّ الخامنيُّ على خطبِ الجمعة في المرقدين كليهما، وثمةُ عدَّةُ مكاتبٍ في مرقِدِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ تعودُ ملكيَّتها وإدارتها إلى آيةِ الله الخامنيِّ يستعينُ بها الشيعةُ رجالاً ونساءً للاستفهامِ عَنْ بعضِ مِنَ المسائلِ والإشكالاتِ الفقهيَّةِ.

المستشفيات والمنظمات الخيرية:

(أصبحتِ الصَّحَّةُ تجارةً وعملاً). هذا ما قالتهُ آمالٌ بغضبٍ واستياءٍ بعدَ محاولتها العثورَ على طبيبٍ أسنانٍ يمكنها دفعُ تكاليفِ العلاجِ لَهُ بعدما حدَّدَ مركزُ الإسعافاتِ الأوَّليَّةِ الخيريُّ موعداً لها بعدَ شهرٍ مِنْ تاريخِ مُراجعتها، ثمَّ أُرْدِفَتْ: (سَأَمُوتُ مِنْ شِدَّةِ الْأَلَمِ!). وتمكَّنتِ آمالٌ في نهايةِ المطافِ مِنَ العثورِ على طبيبٍ "رخيصٍ" نسيباً على الرَّغْمِ مِنْ شعورها بالنَّدَمِ لخيارها هذا بسببِ استمرارِ شعورها بالألمِ.^(٢)

كانتِ آمالٌ الوسيلةُ التي تعرَّفتُ مِنْ خلالها على نوعيَّةِ النِّظامِ الصَّحِّيِّ في مدينةِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ، وكانتِ هيَ وزوجها يشعران بالفخرِ لأنَّهما لا يدينانِ بشيءٍ لأحدٍ، وبقدرةِ زوجِ آمالِ الذَّهابِ إلى الهندِ مرَّةً واحدةً في السَّنةِ لزيارةِ عائلتهِ هناك. وبينما يُمنَحُ العاملونَ في الحوزةِ وحتى الطلابُ - في حالِ

(١) المصدر ذاته.

(٢) ملاحظاتٍ حقليَّة، الثَّلاثاء، في السَّابعِ عشرِ من شباط، عام ٢٠٠٩.

تسجيلهم بدوام كامل وتلقيهم مُرتبات شهرية - تخفيضات علاجية كبيرة في مُستشفى الإمام الخميني؛ لم يكن زوج أمال يستلم الإعانات المالية الشهرية، ولم يكن متفرغاً كلياً للدوام في الحوزة، ويبدو أنه كان يرفض هذا الأمر لكرم أخلاقه وقدرته على إعالة نفسه وزوجتيه. حينما جُرحت أصبُع أمال الصغيرة جرحاً بالغاً احتاجت معه إلى تدخل جراحي لربط العصب؛ سارع زوجها إلى دفع تكاليف العملية نقداً، وواصل ذرع غرفة الانتظار جيئةً وذهاباً حتى خروجها من غرفة العمليات واستفاقتها من المخدر؛ كانت أمال تصرخ من شدة الألم، وعلى الرغم من ذلك، لم تأت الممرضة لمعرفة ما يجري ومعالجة الأمر إلا بعد أن هرعت إلى قاعة الاستقبال لشراء دواء يُخفف ألمها.^(١)

استعلمت أمال عن عددٍ من الجهات الطبية تراوحت بين الهلال الأحمر إلى الأطباء الخاصين، وقارنت بين الأسعار وأساليب التشخيص قبل أن تقرر الجهة التي ستستعين بها لإجراء العملية. كانت أمال على دراية تامة بطبيعة الخيارات المتاحة أمامها وحاولت الاستفادة من الإمكانيات المتوفرة. وبداهةً، تحوز كل "مجموعة بشرية" في مدينة السيّد زينب. كما في غيرها من المناطق. على مواردها الخاصة التي يمكنها الاستعانة بها: إذ يمتلك الفلسطينيون خيار الذهاب إلى مُستوصفات الأونروا (مُنظمة إغاثة اللاجئين التابعة للأمم المتحدة (UNWRA) في حين يأمل العراقيون الذين سجلوا لدى المفوضية السامية لشؤون اللاجئين (UNHCR) في الحصول على بعض من التعويضات أو الإعانات المادية.

(١) ملحوظات حقليّة، الثلاثاء ٢٤ تموز، عام ٢٠٠٨.

وكان دعم نظام البعث السوري [الاسمي] لنظام الرعاية الصحية المجانية، حتى العام (٢٠٠٦ م) يعني قدرة العرب جميعاً، بصرف النظر عن بلدهم (وهذا يعني شمول العراقيين) على الاستفادة من الخدمات التي تقدمها المستشفيات العامة التي تعاني. أصلاً. من قلة التمويل وضعف الإمكانيات مقابل كثرة الأعباء والمشكلات. وقد تغير الأمر بعد تدفق أكثر من مليوني لاجئ من العراق، إذ شرعت الحكومة السورية في تطبيق سلسلة من الإجراءات الصارمة فيما يتصل بمنح الفيزا ابتغاء تحديد إقامتهم وقدرتهم على الحصول على الخدمات العامة مثل الصحة والتعليم. ومقابل خلو منطقة السيدة زينب من المستشفيات الحكومية، ثمة منظمة الصليب الأحمر ومشفين أسسهما آيتا الله محمد محمد صادق الصدر (توفي في عام ١٩٩٩م) وعلي الخميني (على الرغم من تسمية المستشفى باسم آية الله الخميني). أسس مستشفى الصدر الذي يقع على بعد مئتي متر تقريباً من المرقد في تسعينيات القرن العشرين، أما مستشفى الإمام الخميني فيقع إلى الجنوب من منطقة المرقد، وقد شيد في العقد الأول من الألفية الثالثة، ويعد المشفيان. الصدر والخميني. كلاهما من المستشفيات الخيرية لأن العلاج فيهما أقل تكلفة مقارنة بالمستشفيات الخاصة الأخرى. وتمتع هذه المستشفيات. على وجه العموم. بسمعة جيدة على الرغم من أن العلاج فيها أعلى تكلفة من نظيراتها الحكومية. ويحصل الطلاب الذين يدرسون في حوزة الخميني على تخفيض لدى مراجعتهم مستشفى الإمام الخميني.^(١) وزيادة على ذلك، يعمل في المستشفين

(١) وفقاً لـ خالد سندواوي، يحصل طلاب الحوزة (وخصوصاً طلاب الحوزة الزينية) على رعاية صحية مجانية في مستشفى الإمام الخميني. ولكنني لم أتمكن شخصياً من التأكد من صحة هذا

كليهما العديد من الأطباء غير المسلمين، وهم مُستعدون لعلاج أي شخص بقدرته دفع المال.

الحَوَازَاتُ الْعِلْمِيَّةُ:

تُعَدُّ الحَوَازَةُ الزَيْنِيَّةُ الَّتِي أَسَّسَهَا السَّيِّدُ حَسَنُ مَهْدِي الْحُسَيْنِيِّ الشِّيرَازِيِّ الْعِرَاقِي (١٩٣٧. ١٩٨٠ م) أَوَّلَ حَوَازَةٍ عِلْمِيَّةٍ فِي مَدِينَةِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ. حَصَلَ السَّيِّدُ حَسَنُ وَأَخُوهُ مُحَمَّدُ الشِّيرَازِيُّ اللَّذَانِ وَلِدَا فِي كَرْبَلَاءَ، حَيْثُ أَنْشَأَ أَبُوهُمَا وَتَرَأَسَ إِحْدَى الْحَوَازَاتِ الْمَهْمَةِ... حَصَلَ عَلَى مَرْتَبَةِ مَرْجِعِ التَّقْلِيدِ فِي مَرَحَلَةٍ مُبَكَّرَةٍ نَسَبِيًّا مِنْ حَيَاتِيَّهِمَا^(١). وَادَّعَى الْأَخَوَانِ الشِّيرَازِيَّانِ. بِحَسَبِ لُورَنْسِ لُوير. حَيَازَتَهُمَا الْوَلَايَةَ الدِّينِيَّةَ بِفَضْلِ عُلُومِهِمَا وَتَحَدُّرِهِمَا مِنْ سَلَالَةٍ مَعْرُوفَةٍ (تَضُمُّ الْعَدِيدَ مِنْ رِجَالِ الدِّينِ الْمَهْمِينَ يَصِلُ نَسَبُهُمْ إِلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)^(٢). وَكَانَ الْأَخَوَانِ. عَلَى شَاكِلَةٍ غَيْرِهِمَا مِنْ رِجَالِ الدِّينِ الشَّيعَةِ. مِنْ النَّاشِطِينَ سِيَاسِيًّا، الْأَمْرُ الَّذِي أَدَّى إِلَى نَفْيِ حَسَنٍ فِي مَطْلَعِ سَبْعِينَاتِ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ. حَيْثُ اخْتَارَ التَّوَجُّهُ إِلَى دِمَشْقَ أَوَّلًا، وَقَرَّرَ، بَعْدَ لِقَائِهِ بِمَجْمُوعَةٍ مِنْ رِجَالِ الدِّينِ وَالطُّلَّابِ الْحَوَازِيِّينَ فِي مَدِينَةِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ، تَأْسِيسَ الْحَوَازَةِ الزَيْنِيَّةِ. وَعَلَى الرُّغْمِ مِنْ اتِّخَاذِ السَّيِّدِ حَسَنِ بَيْرُوتَ مَقَرًّا لِإِقَامَةٍ لَهُ، إِلَّا أَنَّهُ اعْتَادَ الْقُدُومَ إِلَى سُورِيَا لِإِلْقَاءِ الْمُحَاضَرَاتِ الدِّينِيَّةِ وَالتَّوَاصُلِ مَعَ

الادِّعاء. سنداوي "الحوزة الزينية في دمشق ودورها في التعليم الديني الشيعي" مجلة دراسات الشرق الأوسط ٤٥، العدد ٦٦٤ (٢٠٠٩) ٨٦٦.

(١) انتقدت مؤسسة التجف التي دخلت في تنافس مع حوزات كربلاء منذ مطلع القرن الثامن عشر الشيرازيين فيما يتعلق بهذا الأمر. انظر لوير (السياسات الشيعي العابرة للقوميات) ٨٨-٩١، ٨٩.

(٢) المصدر ذاته، ٩٠-٩١.

غيره من رجال الدين حتى اغتياله في بيروت في عام (1980 م) ومنذ ذلك الحين، تولى محمد أخوه الأكبر قيادة الشبكة السّيرازيّة وبضمنها الحوزة الزينبيّة على الرّغم من اختياره الإقامة في الخليج أولاً، ثمّ في قمّ في أعقاب الثورة الإيرانيّة في عام (١٩٧٩ م).^(١)

بلغ عدد الطّلاب الذين كانوا يدرسون في الحوزة الزينبيّة وفقاً لدراسة ميرفن التي أعدّها في عام (١٩٩٦ م) مئتي طالب.^(٢) وبحسب خبرتي في هذا المجال، يتباين عدد الطّلاب تبايناً كبيراً سنوياً. إذ بلغ عدد الطّالبات في الحوزة الزينبيّة في صيف عام (٢٠٠٧ م) مثلاً أكثر من مئة، مقابل تقلص هذا العدد إلى ستين طالبة فحسب في صيف العام (٢٠٠٨ م). ويُسمح للفتيات اللّائحيّ تجاوزن السّادسة من العمر بحضور الفصول الحوزويّة الصّيفيّة على الرّغم من أنّ الحد الأدنى المسموح به للتّسجيل في الحوزات هو سنّ السّادسة عشرة، وفي بعض من الأحيان أقلّ من ذلك. وتفرض بعض من الحوزات الأخرى حدوداً عمريّة أعلى،^(٣) إذ يسجل العديد من الطّلاب للدراسة في الحوزة بعد الانتهاء من الدّراسة الثّانويّة على الرّغم من تسجيل بعضهم للدراسة وهم في أواخر العشرينيّات من أعمارهم.^(٤) وشهدت السّنون الأخيرة تسجيل العديد من الشّيعّة العراقيّين (وغيرهم من أبناء المذهب الشّيعي) في الحوزات الدّينيّة من

(١) سابرينا ميرفن، "السّيّدة زينب: إحدى ضواحي دمشق أم مدينة مقدّسة شيعيّة جديدة؟".

(٢) المصدر ذاته.

(٣) مثال ذلك، رفضت حوزة الخميني قبول الطّلاب الذين تتجاوز أعمارهم الخامسة والثلاثين.

(٤) تتزوّج الفتيات في سوريا عادة بين عمر السّابعة عشرة والعشرين. ويعني هذا عملياً. أنّ أولادها حين بلوغها الثّلاثين، هم من طّلاب المرحلة الابتدائيّة، ممّا يمنحها فسحة من الوقت لحضور الدّروس الحوزويّة.

مثل الحوزة الزينية؛ بعضُهم لشعوره بالملل ورغبته بالتغيير، وبعضُهم ابتغاء التطُّع الاجتماعي أو ابتغاء التعلُّم أثناء وجودهم في المنفى؛ أو أثناء انتظار الفرصة المناسبة للانتقال إلى منطقة أخرى. وقد تشكَّل بطاقات الإقامة والمُرتَبات الضئيلة، وفرص تقوية الروابط والعلاقات الاجتماعية، وحتى التمتع بالهبة الاجتماعية محفزاتٍ إضافية من بين المحفزات الأخرى التي تدفع الأفراد إلى الدراسة في الحوزة.^(١)

وبسبب عدم تحمل الطلاب تكاليف دراستهم في الحوزات، تستمر هذه الحوزات في الاعتماد على رجال الدين الذين أسسوها وعلى شعبيتهم ومواردهم التي ترتبط بدورها ارتباطاً مباشراً بشعبيتهم وتعتمد عليها.^(٢) ووفقاً للتفسيرات والتقاليد الحالية، يحقُّ لرجل الدين الذي يتمتع بالكاريزما (الجاذبية الشخصية والقدرة على التأثير) الحصول على خمس الدخل الصافي الذي يحصل عليه مقلِّده في مقابل قيادته وإرشاده الدينيين. فقد كان "الخمس" في زمن النبي والأئمة المعصومين مورداً اقتصادياً يضعه المقلد للنبي وعائلته جانباً. أما حالياً، فيدعي رجال الدين الذين يتحدثون من سلاله النبي عادةً أنَّ هم الحق في هذا الخمس باعتبارهم ورثة النبي (بمعنى النسب والأصل).^(٣) وبحسب ما بيَّنته ميرفن، يمثل هذا الأمر عنصرَ عدم استقرار بسبب اعتماد ميزانية الحوزات على شعبية رجال الدين المؤسسين وعلى قدرتهم على التأثير في الأثرياء من أتباعهم ومقلديهم الذين يتعيَّن عليهم. وفقاً للفقهاء الإسلاميين

(١) لا تدفع الحوزة الزينية. على وجه العموم. مُرتَبات مالية لطلابها، ولكنها تساعدهم في الحصول على الإقامة في سوريا.

(٢) قارن مع ميرفن (عاشوراء) ١٣٧-١٤٧.

(٣) مومن (مقدمة إلى الإسلام الشيعي) ١٩٩، ٢٠٦-٢٠٧.

(الشيعي). دفعُ الخمسِ. وعلى الرغم من تمثيل ذلك عنصر عدم استقرارٍ مُحتمَلٍ نظرياً في الأقل. يندرُ أن يعمل رجال الدين من الناحية العملية لوحدِهِم في ظل تفضيلهم العمل الجماعي وفق نظام العائلات. فعندما اغتيل السيد حسن الشيرازي تولى أخوه إدارة شبكة المؤسسات التي أسسها الراحل^(١).

وبسبب غياب المساجد الشيعية المستقلة، تحولت الحوزات العلمية لا إلى مراكزٍ محوريةٍ للتعليم فحسب، بل إلى "أجهزة إرسال" مهمة ومعلمات تدل على الهوية العقائدية والسياسية. إذ يمثل حضورُ أتباع آية الله صادق الحسيني الشيرازي، أخي حسن ومحمد خطبة الجمعة وصلاتها في الحوزة الزينية. في سبيل المثال. تحديداً طقسياً ورمزياً لآية الله الخميني (الذي تلقى الخطبتان باسمه في مرقد السيدة زينب) ويُعدُّ أتباع رجل الدين. السياسي الشاب مقتدى الصدر. الجماعة الشيعية الأخرى الوحيدة في مدينة السيدة زينب التي تقيم صلاة جمعة مستقلة في الحسينية. وتتألف الجهات الرئيسة التي تراحم آية الله الخميني على ادعائه الولاية الدينية في مدينة السيدة زينب من الإخوة الشيرازيين الأربعة (محمد، وحسن، وصادق، ومجتبي)^(٢) والصدرين (محمد صادق الصدر [توفي محمد، وحسن، وصادق، ومجتبي] في عام ١٩٩٩ م، ومحمد باقر الصدر [توفي في عام ١٩٨٠ م] ومقتدى الصدر).^(٣) وفيما عدا هذه الجماعات الرئيسة وفي مقابلها، ثمة عددٌ كبيرٌ من الفاعلين في شوارع السيدة زينب.

(١) ميرفن (عاشوراء).

(٢) لويز (السياسات الشيعية العابرة للقوميات) ٩١.

(٣) آية الله الراحل محمد محمد صادق الصدر هو والد رجل الدين مقتدى الصدر. ومحمد باقر الصدر هو ابن عم آية الله محمد محمد وهو مقتدى الصدر. وخلافاً لأبيه وحيمه، لا يُعدُّ مقتدى فيها شرعياً، بل زعيماً سياسياً مؤثراً.

بلغ عددُ الحَوَازِ الْعِلْمِيَّةِ فِي مَدِينَةِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ، بِحُلُولِ عَامِ (٢٠٠٩ م) الْعَشْرِينَ.^(١) وَثَمَّةَ عَدَدٌ أَقْلُ مِنَ الْحَوَازِ فِي دِمَشْقَ وَقَرَبَ حِمَّصَ.

وَتَعْنِي مُفْرَدَةُ "الْحَوَزة" حَرْفِيًّا "زَاوِيَةً"^(٢) زَاوِيَةَ الْجَامِعِ أَوِ الْحُسَيْنِيَّةِ الَّتِي يَتَّخِذُهَا الْمُدْرُسُونَ الْحَوَزِيُّونَ مَوْقِعًا لِلِإِلْقَاءِ مُحَاضَرَاتِهِمْ، وَمَا زَالَتْ الْحُسَيْنِيَّةُ تَوَلَّفُ أَحَدَ الْأَجْزَاءِ الْمَهْمَةِ فِي الْعَدِيدِ مِنَ الْحَوَازِ الْعِلْمِيَّةِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ خُلُوءِ بَعْضِ مِنَ الْحَوَازِ مِنَ الْحُسَيْنِيَّاتِ وَالْعَكْسُ صَحِيحٌ تَقْلِيدِيًّا. وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَحْتِمَالِ تَمَثُّلِ الْحُسَيْنِيَّاتِ مُتَمَلِّكَاتٍ وَقَفِيَّةً،^(٣) يُلْحَظُ . عَلَى وَجْهِ الْعُمُومِ . تَمَثُّلُ الْحَوَزةِ جُزْءًا مِنْ شَبَكَةِ مَوْسَسَاتِيَّةٍ وَاسِعَةٍ تَضُمُّ (حَوَازِ، وَحُسَيْنِيَّاتِ، وَمُسْتَشْفِيَّاتِ) تَرْتَبُطُ ارْتِبَاطًا وَثِيقًا بِمَرْجِعِ تَقْلِيدِ مُحَمَّدٍ.^(٤)

(١) حَضَرَتْ بِانْتِظَامِ الصَّفُوفِ الدَّرَاسِيَّةِ فِي حَوَازَتَيْنِ هُمَا الْحَوَزةُ الزَّيْنَبِيَّةُ وَحَوَزةُ الصَّدْرَيْنِ فِي الْمَدَّةِ مِنْ صَيْفِ عَامِ ٢٠٠٧ حَتَّى نَهَايَةِ عَامِ ٢٠٠٩، وَحَضَرَتْ مَرَّةً وَاحِدَةً فِي حَوَزةٍ أُخْرَى هِيَ حَوَزةُ الْمَرْفُوعِي، وَزُرَتْ سِتُّ حَوَازَاتٍ أُخْرَى تَقْرِيْبًا لِحُضُورِ مَجَالِسِ الْعَزَاءِ الصَّبَاحِيَّةِ فِيهَا.

(٢) لَوِيْر (السِّيَاسَاتِ الشَّيْعِيَّةِ الْعَابِرَةِ لِلْقَوْمِيَّاتِ) ٧٣-٧٤؛ سِنْدَاوِي "التَّعْلِيمُ الْحَوَزِيُّ وَدَوْرُهُ فِي صَوْغِ الْهُوِيَّةِ الشَّيْعِيَّةِ الْحَدِيثَةِ" ٨٣٣. [تَعْنِي مُفْرَدَةُ الْحَوَزةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْأَصْلِ مَكَانًا نَحْصَلُ فِيهِ عَلَى أَوْ نَكْسَبُ أَوْ نَقْتَنِي شَيْئًا. وَيَشِيرُ فِعْلُ الْاِكْتِسَابِ هُنَا إِلَى الْمَعَارِفِ وَالْعُلُومِ لِاسْمِهَا الدِّينِيَّةِ مِنْهَا. وَاسْتِخْدَامُ التَّعْبِيرِ الْمَعْرُوفِ بِالْحَوَزةِ لَا يَقْتَصِرُ عَلَى الْعِرَاقِ فَحَسْبَ، فَهُوَ مَعْرُوفٌ فِي قَمٍّ بِالْأَسْمِ ذَاتِهِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ اخْتِلَافِ اللَّغَةِ. الْمَصْدَرُ: كَرِيْسْتُوفَ مَارْسِينُوسْكِي، "التَّفَكُّيرُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ: الْإِسْلَامُ الشَّيْعِيُّ فِي الْعِرَاقِ وَالْحَوَازَاتُ الْعِلْمِيَّةُ" مَرْكَزُ اس رَاجَنْتْرَامِ لِلدِّرَاسَاتِ الدَّوْلِيَّةِ، عَامِ ٢٠٠٧] (الْمُتْرَجِمَةُ).

(٣) مِثَالٌ عَلَى ذَلِكَ: كَانَتْ حُسَيْنِيَّةُ أَبِي الْفَضْلِ الْعَبَّاسِ فِي الْأَصْلِ شَقَّةً تَقِيْمُ فِيهَا أُمُّ سَلْمَى فِي الطَّائِقِ الْأَرْضِيِّ فِي أَحَدِ الْمَبَانِي الْوَاقِعِ إِلَى الْيَمِينِ مِنْ سَاحَةِ الْمَهْجَرَةِ الرَّئِيسَةِ، وَقَدْ أَوْصَتْ بِتَحْوِيلِ الشَّقَّةِ إِلَى مَكَانٍ تَجْتَمِعُ فِيهِ النِّسَاءُ لِإِقَامَةِ مَجَالِسِ الْعَزَاءِ الْحُسَيْنِيَّةِ. وَمَا زَالَتْ صُورَةُ أُمِّ سَلْمَى مُعْلَقَةً فِي نَهَايَةِ الْقَاعَةِ الَّتِي هَيَّئَتْ بَعْدَ إِزَالَةِ بَعْضِ مِنَ الْجِدْرَانِ. وَتَفَرِّضُ الْحُسَيْنِيَّةُ قَوَاعِدَ مُحَدَّدَةً يَتَعَيَّنُ الْإِلْتِزَامُ بِهَا؛ مِنْهَا عَدَمُ السَّحَابِ لِلْأَطْفَالِ دُونَ سَنِّ السَّابِعَةِ أَوْ الثَّامِنَةِ بِالْدُخُولِ، وَيَعْنِي هَذَا عَمَلِيًّا إِقْصَاءَ الْأَوْلَادِ جَمِيعًا بِسَبَبِ عَدَمِ سَحَابِ الْحُسَيْنِيَّاتِ بِاصْطِحَابِ الْأَطْفَالِ دُونَ سَنِّ الرَّابِعَةِ مَعَ أُمّهَاتِهِمْ.

(٤) تَوَدِّي بَعْضَ مِنَ الْحَوَازِ الْعِلْمِيَّةِ مَهْمَاتِ الْحُسَيْنِيَّاتِ كَذَلِكَ، إِذْ تُخَصَّصُ مَكَانًا مُحَدَّدًا لِإِقَامَةِ مَجَالِسِ الْعَزَاءِ، وَتُسْتَخْدَمُ الْقَاعَةُ الرَّئِيسَةُ الْوَاقِعَةُ فِي قِسْمِ النِّسَاءِ فِي الْحَوَزةِ الزَّيْنَبِيَّةِ "السَّيْرَازِيَّةُ"

وعلى الرُّغمِ مِنْ استنادِ المَبْنَى الهرمِيِّ لرجالِ الدِّينِ الشَّيعَةِ . نظرياً . إلى خصائصِ الجدارة، والأخلاق، وسعةِ المعرفة،^(١) إِلَّا أَنَّهُ ثَمَّةٌ عَوَامِلُ أُخْرَى تؤثرُ تأثيراً حَاسِماً وفعلياً في هذا المَبْنَى؛ مِنْهَا العلاقاتُ والرَّوابطُ الشَّخصيَّةُ، والإرثُ العائليُّ، والقدرةُ الاقتصاديَّةُ، والنُّفوذُ السِّيَاسِيُّ؛ زيادةً على الكاريزما الشَّخصيَّةِ . وتبعاً لذلك، يُرَجَّحُ أَنْ يعتمدَ عددُ المقلِّدين الذين يتبعون مرجعاً محدداً على مهاراته في التدريس وإنتاج تلاميذه أكثرَ منه على مُنجزه العلميِّ .

إنَّ الحُصُولَ على المزيدِ مِنَ الطُّلابِ الجددِ ونشرِ الكتبِ الجديدةِ لا يمثِّلانِ بأيِّ حَالٍ مِنَ الأحوالِ، الوسائلَ الوحيدةَ التي يعتمدُها المراجعُ لتوسيعِ مناطقِ نفوذِهِم . فحينما تعمَّقتْ شعبيَّةُ مدينةِ السَّيِّدَةِ زينبَ وذاعَ صيتها بوضفها محجَّاً وملاذاً لطالبي اللُّجوءِ، سارعَ السَّيِّدُ حسنُ الشَّيرازيُّ إلى تشييدِ أوَّلِ وأكبرِ حوزةٍ في المدينةِ حتَّى الوقتِ الرَّاهنِ، وكانَ مرجعُ التَّقْلِيدِ آيةُ اللهِ مُحَمَّدٌ مُحَمَّدٌ صَادِقُ الصِّدْرِ والدُّ مُقْتَدَى الصِّدْرِ، أوَّلَ مَنْ رعى وموَّلَ مُسْتَشْفَى لا يبعدُ سوى خمسينَ متراً تقريباً عَنِ الضَّرِيحِ.^(٢) وزيادةً على ذلك، حرصَ مُحَمَّدُ الصِّدْرُ على رعايَةِ المُسْتَشْفِيَّاتِ والمُؤَسَّساتِ الأُخْرَى وتمويلِها في بعضِ

بمنزلةِ حُسينيَّةٍ كلِّ يومِ ثلاثاءٍ، وكذلك في المناسباتِ الدِّينيَّةِ المهمَّةِ . وزيادةً على ذلك، يضمُّ قسمُ الرِّجالِ في الحوزةِ ذاتها عدَّةَ مكاتبٍ زيادةً على واحدةٍ من أكبرِ المكتباتِ في المنطقة . وتنصبُ الحوزاتُ على وجهِ العمومِ . ومنها الزَّينبيَّةُ . الخيمِ والسَّرادقِ في شهرِ المُحَرَّمِ لتوزيعِ الطَّعامِ والشرابِ على المعزَّين .

^(١) ثَمَّةٌ من يدَّعي ضرورةَ وجودِ مرجعٍ تقليدٍ أعلى واحدٍ . وعلى الرُّغمِ من ذلك ثَمَّةٌ عملياً . عددِ من مراجعِ التَّقْلِيدِ يراوحُ عادةً بين ثلاثةٍ إلى ستَّةٍ في كلِّ وقتٍ .

^(٢) ميرفن "السَّيِّدَةُ زينب: إحدى ضواحي دمشق أم مدينةٍ شيعيَّةٍ مُقدَّسةٍ جديدة؟" .

مِنْ أَحْيَاءِ بَغْدَادِ الْفَقِيرَةِ؛ مِمَّا أَكْسَبَهُ شَعْبِيَّةٌ كَبِيرَةٌ بَيْنَ سَكَّانِهَا مِنْ فَقَرَاءِ الشَّيْعَةِ.^(١) وَقَدْ اضْطَلَعَ إِرْتُ مُحَمَّدٌ مُحَمَّدٌ صَادِقُ الصَّدْرِ وَشَعْبِيَّتُهُ الْوَاسِعَةُ بِدَوْرٍ كَبِيرٍ فِي بَرُوزِ ابْنِهِ مُقْتَدَى الصَّدْرِ كَشَخْصِيَّةٍ دِينِيَّةٍ وَسِيَاسِيَّةٍ مُؤَثِّرَةٍ^(٢) فِي مَرَحَلَةٍ مَا بَعْدَ اغْتِبَالِهِ مَعَ مُؤَمِّلٍ وَمُصْطَفَى فِي عَامِ (٢٠٠١ م) عَلَى يَدِ الْأَجْهَزَةِ الْأُمْنِيَّةِ التَّابِعَةِ لِنِظَامِ صَدَّامِ حُسَيْنٍ. وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ كَثْرَةِ الْأَطْرَافِ الْفَاعِلَةِ فِي الْمَشْهَدِ اللَّبْنَانِيِّ، إِلَّا أَنَّ الشَّيْعَةَ اخْتَارُوا الْاعْتِمَادَ عَلَى حِزْبِ اللَّهِ الَّذِي يَرْتَبُطُ ارْتِبَاطًا وَاضِحًا بِآيَةِ اللَّهِ الْخَامِنِيِّ لَا بِصِفَتِهِ السِّيَاسِيَّةِ، بَلْ بِوَصْفِهِ مَرْجِعًا دِينِيًّا لَصَّمَانِ الْحُصُولِ عَلَى الْمُسَاعَدَةِ السِّيَاسِيَّةِ وَكَذَلِكَ الْأَجْتِمَاعِيَّةِ وَالْاِقْتِسَادِيَّةِ.^(٣) وَيُلْحَظُ . عَلَى وَجْهِ الْعُمُومِ . أَنَّ النُّخْبَةَ الدِّينِيَّةَ الشَّيْعِيَّةَ تَغْدُو أَكْثَرَ نَفُوذًا وَتَأْثِيرًا فِي بَعْضِ مِنَ الْحَالَاتِ حِينَمَا تَكُونُ الدَّوْلَةُ ضَعِيفَةً نَسْبِيًّا.

وَيَعْمَلُ رَجَالُ الدِّينِ الشَّيْعَةِ وَيَتَعَاوَنُونَ فِيهَا بَيْنَهُمْ ابْتِغَاءً ابْنِشَاءِ الْمَجْمُوعَةِ الْكَبِيرَةِ مِنَ الْمَوْسَّسَاتِ مِنْ مِثْلِ الْمَدَارِسِ، وَالْحُسَيْنِيَّاتِ، وَالْمُسْتَشْفَيَاتِ، وَالْقَنَوَاتِ التَّلْفَازِيَّةِ؛ وَدَوَامِ الْحَافَظَةِ عَلَيْهَا. وَعَلَى الرَّغْمِ مِنَ الْابْتِفَاحِ الَّذِي تَبْدُو عَلَيْهِ النُّخْبَةُ الدِّينِيَّةُ. نَظَرِيًّا. فِي ظِلِّ بَرُوزِ الْعَدِيدِ مِنَ رَجَالِ الدِّينِ الْجَدِيدِ الَّذِينَ تَمَكَّنُوا مِنَ الْوُصُولِ إِلَى مَرْتَبَةِ (آيَةِ اللَّهِ) يُلْحَظُ . عَلَى وَجْهِ الْعُمُومِ . أَنَّ

(١) بَعْدَ "السَّقُوطِ" فِي عَامِ ٢٠٠٣، أُعِيدَتْ تَسْمِيَةُ "مَدِينَةِ صَدَّامِ" الْمَدِينَةِ الْبَغْدَادِيَّةِ الشَّيْعِيَّةِ الْفَقِيرَةِ، فَأُضْحَتْ "مَدِينَةُ الصَّدْرِ" تَكْرِيماً لِآيَةِ اللَّهِ مُحَمَّدِ الصَّدْرِ. وَقَدْ تَحَوَّلَ جَيْشُ ابْنِهِ الْمَعْرُوفُ بِـ "جَيْشِ الْمَهْدِيِّ" فِي مَرَحَلَةٍ مَا بَعْدَ عَامِ ٢٠٠٣ إِلَى إِحْدَى الْقَوَى الْمُؤَثِّرَةِ وَالْفَاعِلَةِ فِي الْمَدِينَةِ.

(٢) خَوَانُ كُولِ (آيَاتِ اللَّهِ وَالدِّيمَقْرَاطِيَّةِ فِي الْعِرَاقِ) (لِيدَن: ISIM، ٢٠٠٦)؛ خَوَانُ كُولِ "الْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ وَالْجَمَاعَاتِ الدِّينِيَّةِ الشَّيْعِيَّةِ فِي عِرَاقٍ مَا بَعْدَ الْبَعْثِ" مَجْلَةُ الشَّرْقِ الْأَوْسَطِ ٥٧، الْعِدَدُ ٤ (٢٠٠٣) ٥٤٣-٥٦٦.

(٣) فِي سَبِيلِ الْمَثَالِ، كَانُوا يَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِي إِعَادَةِ بِنَاءِ مَنَازِلِهِمْ بَعْدَ كُلِّ مَوْجَةٍ عَنُفٍ وَتَدْمِيرٍ وَغَيْرِهَا مِنَ الْحَادِثَاتِ الْمَسَاوِيَّةِ.

العائلات الدينيّة الكبيرة والمعروفة مثل عائلة الحكيم، والشيرازي، والخويي، والحاتري، والصدر؛ تهيمن على المشهد هيمنةً شبه مُطلقة. وعلى الرغم من ذلك من وفرة رجال الدين الباحثين والنّاشطين في عائلة الشيرازي مثلاً، إلّا أنّهم قد لا يتمكّنون جميعهم من بلوغ مرتبة آية الله. ولهذا السّبب، يختار الشيرازيون - الذين لا يتمكّنون من بلوغ هذه المرتبة - العمل في وظائف إداريّة أو في الإشراف على بعض من جوانب العمل في هذه المؤسسات الدينيّة (العائليّة). وتميل العائلات الدينيّة. تقليديّاً. إلى التحالف مع غيرها من العائلات المناظرة والتّزواج فيما بينها.^(١)

وتبعاً لذلك، قد تتأثّر بعض من الموضوعات والمسائل الدينيّة بطبيعة التحالفات زيادّة على الآراء [الفقهية].^(٢) وهذا تحديداً هو المعنى الذي جعل "ويرنر أيند" يتحدّث عن الدور الأكبر للتحالفات العائليّة، والدينيّة، والاقتصاديّة أكثر من الآراء الفعلية في السّجلات الدينيّة في التّأثير في القرنين التاسع عشر والعشرين؛ بشأن ممارسة الضّرب بالزّناجيل الطّقوسيّة.^(٣) وعلى

(١) مومن (الإسلام الشيعي) ١٩٩-٢٠٠؛ لوير (السياسات الشيعة العابرة للقوميات).

(٢) أيند "الضّرب بالزّناجيل وعلماء الشيعة" ٣٢-٣٣.

(٣) المصدر ذاته، ٢٠-٣٦. ليس من الواضح هل يتحرّب رجال الدين الذين يجوزون مكاتب السيّد زينب ويتحالفون وفقاً لأرائهم، أم علاقاتهم العائليّة والاقتصاديّة، ويعود السّبب في ذلك إلى عدم إقامة أكثريتهم فيها (يقيمون عادة خارج البلاد). وعلى الرّغم من ذلك، فإن المدرّسين لا يتردّدون في العمل في حوزات ترتبط برجال دين لا يتّفقون مع مراجع التقليد الذين يقلدهم هؤلاء المدرّسون. إذ يدرّس بعض من المدرّسين، من مثل أمّ زهراء، الملاية العراقية ومدرّسة السّيرة النبويّة في كل من الحوزة الزينبيّة والحوزة الخمينيّة (الخامنيّة). وكما هو معروف، يختلف الشيرازيون والحاتميّون اختلافاً بيناً فيما بينهم بشأن العديد من الموضوعات منها السياسة، وتأدية الطّقوس.

شاكلة ذلك، يُلاحظُ تأثرُ السَّجالاتِ الدِّينيةِ وحتى المُشارَكةِ الشَّعبيةِ في طقوسِ الضَّرْبِ بِالزَّناجيلِ وارتباطُها الشَّدِيدِ بِالتَّحالفاتِ السِّياسيةِ.^(١)

وتظهرُ الحُسَينياتُ والحوزاتُ عادةً ولأَءَها وإعجابُها بِرجالِ دينٍ مُحدَّدينَ مِنْ خلالِ المُلصقاتِ الإعلانيةِ.^(٢) فجدرانُ الحوزةِ الزَّينيةِ . في سبيلِ المثالِ . مُزينةٌ بِصُورِ السَّادةِ مِنْ عَائلةِ الشِّرازيِّ، حسنٍ، ومُحمَّدٍ، وصادقٍ؛ زيادةً على اللُّوحاتِ التي تصوِّرُ "العبَّاسَ" [عليه السَّلامُ] والمُعلَّقةُ على جدرانِ الأكَثَرِيةِ العظمى مِنَ الحُسَينياتِ. إلَّا أنَّ هَذهِ الصُّورَ والمُلصقاتِ لا تُعدُّ، بِالصُّرُورةِ مؤشِّراً على الرُّوابطِ الوثيقةِ في الحُسَينياتِ المستقلَّةِ، ولكنَّها قد تُعبِّرُ عَنْ حُبٍّ أو شعورٍ بِالإعجابِ بِشخصيةٍ دينيةٍ مُحدَّدةٍ. ففي حُسَينيةِ الإمامِ زينِ العابدينِ المستقلَّةِ، ثَمَّةُ مُلصَقٍ على هيئةِ قلبٍ إلى اليسارِ مِنَ المنبرِ مُوطَّرٌ بِاللُّونِ الوردِيِّ بِقَدَمِ الشَّيخِ حسنِ نَصَرَ اللهُ، وهوَ شخصيَّةٌ سياسيَّةٌ وقِاديَّةٌ بارِزةٌ في حزبِ اللهِ اللَّبنانيِّ لا مرجعٍ تَقليدٍ مثلاً هوَ مَعروفٌ. وعلى الرُّغمِ مِنْ هَذا الانتماءِ "التَّصويريِّ" إذا جازَ لَنا القولُ؛ إلَّا أنَّ مَجالسَ العزاءِ التي تَقيمُها هَذهِ الحُسَينيةُ تختلفُ اختِلافاً بَيناً عَنِ الممارَساتِ والطُّقوسِ "العقلانيَّةِ" التي يَقيمُها الحزبُ.

و ثَمَّةُ لُوحَةٍ خَشِيبَةٍ يعلُوها التُّرابُ لدولةِ لَبنانَ مَعَ لُوحَةٍ شخصيَّةٍ أُخرى لموسى الصَّدرِ، مُؤسِّسِ حركةِ أَمَل (الحزبُ اللَّبنانيُّ الشَّيعيُّ الثَّاني إلى جَانِبِ حزبِ اللهِ) مُعلَّقةٌ في أَحَدِ جدرانِ القِسمِ المُخصَّصِ للنِّساءِ في حُسَينيةِ الولايةِ

(١) للاستزادة بشأن هذا الموضوع، الرَّجاءُ الاستعانةُ بِالجزءِ الأوَّلِ مِنَ الفِصلِ المَعنونِ بِـ "عاشوراء".

(٢) بَينما جرتِ العادةُ على تَزيينِ جدرانِ الحوزاتِ والحُسَينياتِ بالعَديدِ مِنَ المُلصقاتِ، فإنَّها على وَجهِ العَموُمِ، لا تُعرضُ سِوى صُورٍ لمرجعٍ أو سَيِّدٍ أو مرجعيٍّ تَقليدٍ / سَيِّدين (بَينَهما ارتباطُ وتوافقٌ في أَكثَرِ الأَحْياءِ).

المستقلة. وعلى نحوٍ فارقٍ، لم تكن اللبانيّات، بل العراقيّات والإيرانيّات على نحوٍ رئيسٍ هنَّ مَنْ يحضرنَ مجالسَ العزاء في هذه الحُسينيّة^(١). مقابل ذلك، تخلّو بعضُ من الحُسينيّات الأخرى مثل حُسينيّة أبي الفضل العباس المستقلّة من صُور رجال الدّين. ومما لا يُشكُّ فيه أنّ مضمونات هذه المجموعّة المتنوّعة من المُلصقات (صُور رجال الدّين، ورسومُ تصوّر آل البيت الأطهار، أو حتّى خرائطُ البلدان) المعروضة في الحُسينيّات المستقلّة منها وغير المستقلّة، لا تمثّل بالضرورة مؤشراً على انتماءاتٍ مرتاديها الإثنيّة أو العقائديّة.

وعلى غرار ذلك، لا تعكسُ علاقاتُ المدرّسين والملايات ووجهاتٍ نظريهم، بالضرورة علاقاتٍ ووجهاتٍ نظر العلماء الذين يترأسون المؤسّسات التي يعملون فيها^(٢). إذ تُضطرّ العديد من الحُسينيّات إلى الاستعانة بخدماتٍ مدرّسين يعملون في حُسينيّاتٍ وحوزاتٍ أخرى بسبب قلة عدد المؤهلين منهم^(٣). والطلّاب على علم بهذا الأمر، وهم على علم كذلك بهويّة المدرّسين الحضريّين وبالأراء ووجهات النظر التي يؤمنون بها وينقلونها في محاضراتهم. وتختلف المدارس الدّينيّة فيما بينها لجهة معايير القبول التي تعتمدها، وتعدّ المزايا التي توفرها، والإعانات الماليّة التي تدفعها للطلّاب. بحسب ملحوظة مايكل

(١) ملحوظات حقليّة، ربيع عام ٢٠٠٩.

(٢) الفئة الوحيدة من المدرّسين الذين يندر أن تشترك الحوزات في توظيفهم هم مدرّسو الفقه، ويُرَدّ السبب في ذلك إلى دراستهم وتبنيهم الأحكام الفقهيّة الخاصّة بمرجع التقليد الذي أسّس الحوزة. للاستزادة بشأن هذا الموضوع، انظر الفصل المعنون بـ "التقوى الكرنفاليّة".

(٣) كانت أم زهراء تدرّس السيرة النّبويّة في الحوزة الزينبيّة في عامي ٢٠٠٥ و ٢٠٠٦. ثم عملت في تدريس فن الخطابة في حوزة الصّدرين في عام ٢٠٠٨ إلى جانب استمرارها في تدريس بعض من المواد الأخرى في حوزة الإمام الخميني.

فشر... تعدُّ مِنَ العواملِ المهمَّةِ في جذبِهِم للدراسةِ فيها.^(١) وثمة أسبابٌ أخرى تقف وراء تفضيلِ حُسَيْنِيَّةٍ أو حَوْزَةٍ بعينِها على أخرى، مِنْهَا مثلاً مسألةُ اصطحابِ الأطفالِ، فخلافاً للحَوْزَةِ الزَيْنِيَّةِ، لا تسمَحُ حَوْزَةُ الإمامِ الخامِنِيّ بأنْ تضطجِبَ الأمّهاتُ أطفالَهُنَّ الصَّغارَ مَعَهُنَّ (يؤدِّي ذلك، حسبما لحظتُ الباحِثَةُ) إلى الكثيرِ مِنَ الصَّوْضَاءِ في الحَوْزَةِ الأولى). مقابل ذلك، توفَّرَ بعضُ مِنَ الحَوَازِ الأخرى، مثل حَوْزَةِ الخوجةِ الحاصِلَةِ على اعترافِ جامعةِ مانشستر، الكثيرِ مِنَ الخدماتِ مِنْهَا خدمةُ رعايَةِ الأطفالِ.^(٢)

وتعدُّ حَوْزَةُ الإمامِ الخمينيِّ التي أُسِّسَتْ في مطلعِ ثمانينياتِ القرنِ العشرينِ مِنْ أبرزِ الحَوَازِ وأعلاهَا مكانةً في مدينةِ السَّيِّدَةِ زينب - على الرُّغمِ مِنْ عدمِ وجودِ اتفاقٍ على ذلك - لأنَّها تشترطُ لقبولِ الطُّلابِ حصَّوْهُمْ على درجةِ البكالوريا أو السَّادسِ الإِعداديِّ زيادةً على رسائلِ تَرْكِيبَةٍ مِنْ شَيْخٍ يوكِّدُ

(١) فشر (إيران: من النزاع الديني إلى الثورة) ٨٠.

(٢) الخوجة هم من الشيعة الاثني عشريين الذين تعود أصولهم إلى جنوب آسيا وقد جلبهم البريطانيون إلى أفريقيا في النصف الثاني من القرن العشرين؛ وفي أعقاب الحركات المطالبة بالاستقلال التي نشطت في أفريقيا، رحل الكثير منهم إلى كندا، والولايات المتحدة، والمملكة المتحدة. وعلى الرغم من اختيارهم. على وجه العموم تقليد الإمام السيستاني، إلا أنَّ الحَوْزَةَ التي تحمل اسمهم لا ترتبط ارتباطاً مباشراً بالسيستاني، بل، بالأحرى بالرابطة الدولية للخوجة الاثني عشريين. ولا تقدِّمُ الحَوْزَةُ خدماتها التعلیمیَّةَ للطُّلابِ "المؤقتين أو العابرين" بل تشترطُ على طُلَّابِها الالتزامَ ببرنامِجِها الدِّرَاسيِّ، ثمَّ المشاركةَ في تعزيز مشروعاتها البحثية والتعلیمیَّةِ في المناطق الأخرى. للاستزادة بشأن حَوْزَةِ الخوجة في سوريا، انظر "تحديث برامج تدريب المبلغين - دمشق، سوريا"

<http://www.world-federation.org/Islamiceducation/Articles/MTPUpdate.htm>
(في العشرين من نيسان عام ٢٠١٢)

صَلَاحِيَّةُ الْمُرْشَحِ وَزَوْجَتِهِ / زَوْجِهَا وَأَخْلَاقُهُ الْعَالِيَّةُ.^(١) وَكَمَا هُوَ مَعْمُولٌ بِهِ فِي مَرَاكِزِ التَّعْلِيمِ الْآخَرَى فِي حَالَةِ الطُّلَّابِ غَيْرِ النَّاطِقِينَ بِالْعَرَبِيَّةِ؛ يَدْرُسُ الطُّلَّابُ غَيْرُ الْعَرَبِ فِي أَوَّلِ سَنَةِ دَرَاْسِيَّةٍ هُمْ فِي هَذِهِ الْحَوْزَةِ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ لِيَتِمَكَّنُوا فِيهَا بَعْدَ مِنْ مُوَاصَلَةِ دَرَاْسَتِهِمُ الْحَوْزَوِيَّةَ. وَيَتِمَتُّعُ الْمُدْرُسُونَ الْعَامِلُونَ فِيهَا بِمُؤَهَّلَاتٍ عَالِيَّةٍ بِفَضْلِ حُصُولِهِمْ عَلَى أَعْلَى الشَّهَادَاتِ فِي مَجَالِ تَخْصُّصِهِمْ (مُقَارَنَةً بِالْمُدْرِسِينَ فِي الْحَوْزَاتِ الْآخَرَى). وَزِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ، تَمَثَّلُ حَوْزَةُ الْخَمِينِي الْحَوْزَةُ الْوَحِيدَةُ. حَالِيًّا. الَّتِي تَدْفَعُ مُرْتَبَاتٍ شَهْرِيَّةً تَصِلُ إِلَى أَرْبَعِينَ دُولَارًا تَقْرِيْبًا زِيَادَةً عَلَى السَّكَنِ الْمَجَانِّي لِلطَّلَّابَاتِ. وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ بَعْضًا مِنَ الْمَدَارِسِ الدِّيْنِيَّةِ الْآخَرَى كَانَتْ تَدْفَعُ مُرْتَبَاتٍ أَقْلَ لِلطَّلَّابَاتِ، إِلَّا أَنَّهُمَا قَرَّرَتْ التَّوَقُّفَ عَنْ ذَلِكَ فِي صَيْفِ عَامِ (٢٠٠٨ م) بَعْدَ صُدُورِ أَمْرِ إِدَارِيٍّ بِذَلِكَ (اسْتُشْنِي مِنْ هَذَا الْقَرَارِ حَوْزَةُ الْخَمِينِي).^(٢) وَيُلْحَظُ. عَلَى وَجْهِ الْعُمُومِ. حِينَ الْمُقَارَنَةِ بَيْنَ حَوْرَتِي الْإِمَامِ الْخَمِينِي وَالْحَوْزَةِ الزَيْنَبِيَّةِ أَنَّ الْحَوْزَةَ الْأُولَى لَمْ تَكْتَفِ بِتَقْدِيمِ مُرْتَبَاتٍ شَهْرِيَّةٍ أَعْلَى لَطُلَّابِهَا، بَلْ إِنَّ طُلَّابَهَا يَتِمَتُّعُونَ بِنِظَامِ تَخْفِيزَاتٍ مَالِيَّةٍ لَدَى مُرَاجَعَتِهِمْ أَوْ تَلْقِيهِمُ الْعِلَاجَ فِي مُسْتَشْفَى الْإِمَامِ الْخَمِينِي إِلَى الْجَنُوبِ مِنَ الْمَرْقِدِ. وَبِكَلِمَاتٍ مُوجِزَةٍ: لَمْ تَأْتِ الشُّمْعَةُ وَالْمَكَانَةُ الْعَالِيَتَانِ اللَّتَانِ تَتِمَتُّعُ بِهِمَا حَوْزَةُ الْإِمَامِ الْخَمِينِي مِنْ فَرَاغٍ، بَلْ كَانَتَا نَتِيجَةً مُتَوَقَّعَةً لِحُمْلَةٍ مِنَ الْإِجْرَاءَاتِ مِنْهَا صَرَامَةٌ مُعَايِيرِ الْقَبُولِ وَالْمَزَايَا وَالْخِدْمَاتِ الَّتِي تَوْفَّرُهَا. وَمِمَّا يَلْفُتُ الْإِنْتِبَاهَ أَنَّ السَّبَبَ الرَّئِيسَ فِي هَذَا السَّخَاءِ الْإِسْتِثْنَائِيِّ يَعُودُ إِلَى حُصُولِ هَذِهِ الْحَوْزَةِ.

(١) تَشْتَرِطُ الْمَدَارِسُ جَمِيعًا عَلَى طُلَّابِهَا الْإِلْتِمَامَ بِمُعَايِيرِ سُلُوكِيَّةٍ مُخَدَّدَةٍ مِنْ مِثْلِ ارْتِدَاءِ الْحِجَابِ بِالنِّسْبَةِ لِلْفَتَيَاتِ.

(٢) مَلَحُوظَاتُ حَقْلِيَّةٌ، الْاِثْنَيْنِ، الرَّابِعِ مِنْ آبِ عَامِ ٢٠٠٨.

خلافاً للحوزات المستقلة الأخرى. على دعمٍ من إيران. وعلى نحوٍ فارقٍ، يرى آية الله الخامنئي ضرورةً ألا تعتمد الحوزة على الدولة!^(١)

الحُسَيْنِيَّاتُ:

الحُسَيْنِيَّةُ، بالتَّعْرِيفِ السَّهْلِ، هِيَ قَاعَةٌ مُخَصَّصَةٌ لِإِقَامَةِ مَجَالِسِ الْعِزَاءِ. وَثَمَّةٌ حُسَيْنِيَّاتٌ مُخَصَّصَةٌ لِلرِّجَالِ حُضْراً وَآخَرَى لِلنِّسَاءِ، وَثَمَّةٌ نَوْعٌ ثَالِثٌ يُسَمَّحُ فِيهِ بِإِقَامَةِ مَجَالِسِ الْعِزَاءِ لِلرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ كِلَيْهِمَا. وَتَتَّخِذُ الْحُسَيْنِيَّاتُ أَشْكَالاً مُخْتَلِفَةً، فِيهِ قَدْ تَوَلَّفَ جُزْءٌ مِنْ مَكَاتِبِ أَحَدِ رِجَالِ الدِّينِ، أَوْ جُزْءٌ مِنْ إِحْدَى الْحُوزَاتِ الْكُبْرَى أَوْ قَدْ تَتَّخِذُ شَكْلَ بِنَاءٍ مُسْتَقِلٍّ. وَتُعَدُّ حُسَيْنِيَّةُ أَبِي الْفَضْلِ الْعَبَّاسِ "الْخَاصَّةُ" أَحَدَ أَكْثَرِ الْحُسَيْنِيَّاتِ النَّسَائِيَّةِ التَّزَاماً بِالنَّظَافَةِ فِي مَدِينَةِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ فِيهِ. عَلَى وَجْهِ الْعُمُومِ. أَنْظِفُ مِنْ غَيْرِهَا، وَلَا تَسْمَحُ لِلْأُمَّهَاتِ بِاصْطِحَابِ الْأَطْفَالِ تَحْتَ سَنِّ الثَّانِيَةِ عَشْرَةَ. وَكَانَتْ الْحُسَيْنِيَّةُ فِي السَّابِقِ مَنْزَلاً أَوْصَى صَاحِبُهُ بِتَأْسِيسِ الْحُسَيْنِيَّةِ فِيهِ كَجُزٍّ مِنْ وَقْفٍ. وَبَصَرَفِ النَّظَرِ عَنِ الْجَهَةِ الَّتِي أَسَّسَتْ الْحُسَيْنِيَّةُ أَوْ تَمَوَّلَهَا، تَعْتَمِدُ عَمَلِيَّةُ صِيَانَتِهَا اعْتِمَاداً شَبَهَ تَامّاً عَلَى الْمُتَطَوِّعِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ فِي تَنْظِيفِهَا، وَإِدَارَةِ شُؤْنِ الطَّبْخِ، وَخِدْمَةِ الضُّيُوفِ، وَتَوْزِيعِ الطَّعَامِ وَالشَّايِ قَبْلَ الْمَجْلِسِ الْحُسَيْنِيِّ وَبَعْدَهُ. وَتَقْدُمُ هَذِهِ الْحُسَيْنِيَّاتُ فِي بَعْضِ مِنَ الْأَحْيَانِ أَنْوَاعاً مِنَ الْمُعْجَنَاتِ، وَالْكَبْكَبِ، وَالشُّطَائِرِ قَبْلَ الْمَجْلِسِ، وَ / أَوْ بَعْدَهُ، أَمَّا أَثْنَاءَهُ فَلَا يُقَدَّمُ سِوَى الشَّايِ. وَيُعَدُّ اسْتِخْدَامُ الْأَطْبَاقِ وَالْأَكْوَابِ الْبَلَّاسْتِيكِيَّةِ مُقَابِلَ الزُّجَاجِيَّةِ، وَنَوْعِيَّةُ وَكَمِّيَّةُ الْحُلُوبِ وَالْمَنَادِيلِ الْوَرَقِيَّةِ الَّتِي تُقَدَّمُ لِلضُّيُوفِ مُؤَشِّراً عَلَى الطَّبَقَةِ الَّتِي يَنْتَبِي

(١) سندواوي "الحوزة الزَّيْنَبِيَّةُ فِي دِمَشْقَ" ٨٣٨.

لها صاحبُ المجلس، وكذلك على حُسن ضيافته في المجالس الخاصة والعامة كليهما.

تولّى في مجالس العزاء التي حضرتها في المحرم في عامي (٢٠٠٨ / ٢٠٠٩ م) أحد الرجال تقديم "القيمة" إلى النساء في حُسينيّة فضل الله وحُسينيّة الولاية المستقلة. ويردُّ السبب في ذلك إلى خشية أصحاب المجلس من مُطالبة بعض من النساء المشاكسات بالمزيد من الطّعام وافتراسهم شعور النساء. على وجه العموم. بالخرج من فعل ذلك في حال تولّى رجل لا امرأة تقديم الطّعام! وفي واقع الأمر، فقد كانت عمليّة توزيع الطّعام في هذه الحُسينيّة أكثر هدوءاً وتنظيماً مُقارَنةً بغيرها من الحُسينيّات. مقابل ذلك، بدت حُسينيّة المتظر الكويّية أقلّ اهتماماً بمسألة طلب النساء كمّيّات إضافيّة من الطّعام. وزيادة على ذلك، اعتادت هذه الحُسينيّة تشغيل مكبرات الصّوت قبل ساعة من بدء مجلس العزاء للسّماح للنساء اللائي يرغبن في اللّطم أو أداء الزيارة. وتشهدُ أكثرية الحُسينيّات حضوراً لافتاً للملأيات ومساعداتهنّ (الرّادودات) وبدايةً مُنافسةً شديدةً فيما بينهنّ على الحصول على فرص تقديم عروضهنّ [الحُسينيّة] الأدائيّة، ومن ثمّ النّجاح في لفّ الانتباه.

وثمة سببان يجعلان عدد الملأيات في مدينة السيّدة زينب يفوق كثيراً عدد الفرص المتاحة لهنّ، هما المكانة الاجتماعيّة والدينيّة المتميّزة التي تتمتع بها مهنة "الملأية" وقلة الخيارات المتاحة أمام النساء لفعل شيء آخر يحظى بالاحترام والتّقدير! وثمة جانب آخر مهمّ يتصل بالعمل في هذا المجال، هو الدور الذي تضطلع به المُنافسة الشّديدة في تعزيز موقع الملأية وإضعافه في الوقت ذاته. فبينما يشتدّ التنافس فيما بين المتدربات / المساعدات على نيل رضا

"المَلَايَةُ" واستحسناتها. بسبب سيطرتها النسبية على ما يجري في المجلس. ثمّة تنافس من نوع آخر يتعلّق برغبتهم في تعلّم الآليات التي تمكنهم من الاستحواذ على موقع المَلَايَة ذاته [في المستقبل].

ويُلاحظ في هذا السياق الحضور الفاعل للمرأة التي تطمح إلى أن تصبح "مَلَايَة" أو هي "مَلَايَة" في الأصل؛ ولكن في أكثر من حُسينيّة، وقد يمتد نشاطهم إلى التدريس في الحوزات كذلك.

وقيادة المَلَايَة لمجالس العزاء العامّة هي من الأمور المألوفة والشائعة، أمّا قيادتها مجالس العزاء المنزليّة الخاصّة فتتم بناءً على طلب من إحدى نساء العائلة، كالأم مثلاً. وتُغطّى الجدران في هذه المجالس عادةً بقطعة قماشٍ سوداء اللون، وتُعدّ نوعيّة القماش زيادةً عن توفّر الفرش والأغطية، مثل السجاد والسائد في الغرف دليلاً على مكانة المضيف السوسيو. اقتصاديّة. وعلى الرغم من عدم تحدّر المَلَايَات جميعاً من نسل السادة أو النّبّي عليه أفضل الصلوة والسلام، تُعدّ مُناداة "المَلَايَة" بـ "يا علويّة" دلالة على التوقير والاحترام العالين.

تجلس المَلَايَات في مجالس العزاء الكبيرة والعامّة عادةً على وفق ترتيب مكانيّ مُعيّن. إذ تجلس أعلاهنّ مكانةً وأقدمهنّ في المهنة قريباً من المنبر، يليها في مُقدّمة المجلس المَلَايَات والعلويّات الأخريات حتّى في حالة عدم تأديتِهِنَّ طُفوس العزاء، وهو دليل إضافيٌّ على الرّفعة والمكانة اللّتين يتمتّعنّ بهما. وخلافاً لهذه المواقع، ليس ثمّة تعريف صارمٌ يحدّد مواقع جلوس النساء الأخريات بسبب تنوعهنّ من الفتيات صغيرات السنّ ووصولاً إلى العجائز؛ إذ يُلاحظ. على وجه العموم. تحرُّك النساء المرضعات والشابات بحريّة في أكثر الحُسينيّات. وبداهة، ثمّة تباينات مهمّة بين النساء في الكثير من الأمور؛ منها

اللباس، فبينما ترتدي العجائز والنساء الشابات المحافظات العباءة التقليدية السوداء في المجالس، تملُ غيرهنَّ إلى ارتداء عباات أضيَّ وأكثر بهرجةً لجهة تصاميمها (تُعرف محلياً بالعباءة الإسلامية). وزيادةً على ذلك، يُلاحظ تجرُّل بعض من المراهقات الصغيرات بنناطيل الجينز الضيقة، وثمة نساء شيعيات عراقيات وسوريات يرتدين ما يُعرف بالمناطو / المعطف، وهو سترٌ طويلة يصل طولها إلى الكعبين. ويجوزُ عددٌ قليلٌ من النساء على وشوم قبيلية في وجوههنَّ (يُعرف محلياً بالدك)، وهي دليلٌ واضحٌ على تحدُّرهنَّ من أصول عراقية ريفية. ولو أنعمَ أحدُ النظرَ للَحَظْ هذه الوشوم في وجوه حتى النساء متوسّطات العمر؛ لكنَّ الفرقَ بين الاثنين، أنَّه بدلاً من الوشم الذي يتخذُ هيئة نقاطٍ وتصاميم زرقاء مائلة للخضرة، تجري النساء الأصغر سنًا عمليةً وشم لحواجبهنَّ.^(١)

ويجري تقديم بعض من المعجنات والشاي قبل بدء المجلس عادةً، وقد تختارُ بعض من المجالس في مناسباتٍ خاصّة. على وجه العموم. تقديم أطباق الطعام والسّطائر بعد الانتهاء منها. وغنيٌّ عن البيان تجاذبُ النساء أطراف الحديث قبل المجلس وبعده، وفي بعض من الأحيان أثناءه!.

(١) يُعدّ السماح برسم الوشم من الموضوعات المثيرة للجدل في السيّدة زينب. فما زالت الوشوم الزرقاء المائلة إلى الخضرة شائعة بين العجائز العراقيات والسوريات المتحدرات من أصول ريفية. ويجوز الرجال وشوما على أيديهم تتخذ عادة شكل كلمات أو رموزاً في حين تتخذ الوشوم في حالة العجائز شكل نقاط في منطقة الذقن أو القدمين. وعلى الرغم من شيوع الممارسة، ترى بعضاً من النساء الشابات المحافظات أنَّ هذه الوشوم حرام لأنّها تمثل شكلاً من أشكال الزينة الظاهرة. أمّا وشم الحاجبين، فليس ثمة إدانة جماعية متفق عليها لهذه الممارسة لأنّها تبدو "طبيعية" ولا تمثل زينة إضافية. ملاحظات حقليّة، الأحد، في الرابع والعشرين من آب، عام ٢٠٠٨.

تعلُّمُ "التَّقليدِ" :

يبدأ هذا المبحث بطرح سؤالٍ بدهيٍّ هو: ممَّ يتكوَّنُ التَّعلُّمُ؟. فجزرُ الكلمةِ اللَّاتينيَّةِ (educere) يعني جَلَبَ أو إخراجَ ما كانَ "في الدَّاخلِ". أمَّا في اللُّغةِ العربيَّةِ، فثُمَّةٌ عدَدٌ مِنَ المُفْرَدَاتِ والمعاني تنطوي جميعُها على معنى "التَّعلُّمِ والتَّعلِّيمِ" وتقعُ جميعُها في حقلِ "التَّعلِّيمِ" الدَّلاليِّ، مِنْهَا "عِلْمٌ، وَفْقُهُ، وشعرٌ، ومعرفةٌ، وحكمةٌ".^(١) ووفقاً لموسوعةِ الإسلامِ، ينحصرُ الاختلافُ الفيلولوجيُّ (متعلِّقٌ بفقهِ اللُّغةِ) الرَّئيسُ بينَ "عِلْمٍ" و "مَعْرِفَةٍ" في إشارةِ المُفْرَدَةِ الأولى إلى الكَلِمَاتِ والتَّبَصُّراتِ الَّلاهوتِيَّةِ؛ خلافاً للمُفْرَدَةِ الثَّانِيَةِ التي تشيرُ إلى الجزئِيَّاتِ. وتنطوي مُفْرَدَةُ "مَعْرِفَةٍ" زيادةً على ذلكَ على معنىٍ آخرَ هو "الإِقْرَارُ" بشيْءٍ أو "الاعترافُ" بِهِ، إِنَّهَا بكلماتٍ أُخرى: نسخةٌ غيرُ كاملةٍ مِنْ "عَرَفَ" أو "عِلِمَ".^(٢) وكانت كلمةُ "دَرَسَ" التي اشتُقَّتْ مُفْرَدَةُ "مدرَسةٍ" مِنْهَا، تعني في الأصلِ "دراسةَ الفقهِ الدِّينيِّ" تحديداً" ثُمَّ تَوَسَّعَتْ لتشتمَلَ على دراسةِ العلومِ الأخرى كذلكِ.^(٣) ويعني التَّعلُّمُ ضِمْنًا "الفقهَ الدِّينيَّ".

ويرى العديدُ مِنَ الشَّيْعَةِ الَّذِينَ تَحَدَّثَتْ إِلَيْهِمْ في مَدِينَةِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ، أَنَّ التَّعلُّمَ لا يقتصرُ على "الفقه" بل يتجاوزُهُ. فوفقاً لأمِّ عليِّ النَجْفِيَّةِ، وَهِيَ شَيْعِيَّةٌ عِرَاقِيَّةٌ في مُتَصَفِ العَشْرِيَّاتِ مِنْ عَمْرِهَا ومتزوِّجَةٌ برجلٍ يكبرُها بنحوٍ مِنْ

(١) بول وولكر "المعرفة والتَّعلُّم" في (موسوعة القرآن) المحرَّر، جين مكأولف، المجلد ٣ (ليدن: برل، ٢٠٠٣) ١٠٠-١٠٤.

(٢) وولكر "المعرفة والتَّعلُّم" ١٠٠-١٠٤؛ ناويد كيرماني "الفكر" في (موسوعة القرآن المحرَّر) جين مكأولف، المجلد ٢ (ليدن: برل، ٢٠٠٢) ٥٤٨.

(٣) جيّ بدرسن، ومينبور رحمن و ر. هيلنبراند، "المدرسة" في (موسوعة الإسلام) تحرير ب. بيرمان، ث. بيانكوا، سي. أي. بوسوورث، أي. فان. دونزل، ودبليو. ب. هينيرش، الطبعة الثَّانِيَةِ، المجلد الخامس (ليدن: برل، ٢٠١٠) ١١٢٣-١١٥٤.

ثلاثين عاماً، فإنَّ التَّعليمَ الدِّينِيَّ المتَّمسَّسَ (أو الدِّراسةَ الحوزويَّةَ) هوَ تعليمٌ "واجبٌ" (إنَّه التَّزامٌ دينيٌّ). وقد أُنْهتْ أُمُّ عَلِيٌّ مرحلةَ السَّادسِ الإِعداديِّ، وتعلَّمتْ الخِياطةَ على يَدِ أُمِّهَا، وتحضَّرُ المِجالِسَ في الحوزةِ الزَّينبيَّةِ، ولكنَّها لَيسَتْ طالبةً منتزَمةً فيها، وهِيَ تَقْرُ بأنَّه لَيسَ ثَمَّةُ عِذرٍ مقنَعٍ يَمْنَعُها مِنْ دراسةِ الفِقه؛ خاصَّةً أنَّها لَمْ تَنجِبْ أَطفالاً يَشغُلُونَ وَقْتَهَا! تَقولُ أُمُّ عَلِيٍّ: (سَأُحاسِبُ على ذلكِ في يومِ الحِسابِ، يَنبغي لي معرفةُ تواريخِ ولادَةِ الأئمَّةِ المُعصومينَ مِنْ آلِ البيتِ وتواريخُ وفياتِهِم، إنَّ معرفَتَهُم تَجعلُنَا نَشعُرُ بِوجودِنا مَعَهُم، إنَّه ضَمَانٌ لِلشِّفاءِ وَشِفاةٌ لَنَا يَوْمَ القِيامَةِ).^(١)

وتبعاً لذلكِ، فالمعرفةُ التي تعتقِدُ أُمُّ عَلِيٌّ في أنَّها ضروريَّةٌ لها. ولغيرِها مِنْ الشَّيعةِ - هِيَ سيرةُ الأولياءِ والصَّالحينَ [آلِ البيتِ] لا الفِقهَ والشَّريعةَ؛ وزيادةً على ذلكِ، ترى أُمُّ عَلِيٌّ أنَّ العلاقةَ مَعَ أولياءِ الله الذينَ يَشتمَلُون لا على الأئمَّةِ المُعصومينَ الأربعةَ عَشَرَ فحسبُ، بل على غيرِهِم مِنْ أولياءِ الله الصَّالحينَ - مثلِ العباسِ وزينبَ عليهما السَّلامُ - وهِيَ علاقةٌ مهمَّةٌ وجوهريَّةٌ يَتعيَّنُ على أَتباعِ آلِ البيتِ العنايةُ بها وتقويتُها. وتُدْرُسُ مادَّتا السَّيرةِ والفِقهِ كلاهُما في الحوزاتِ العلميَّةِ في المستوى الأساسيِّ في السَّنَةِ الأولى، وكذلكِ في المدارسِ الصَّفيَّةِ. ويكفُّ الطُّلابُ عَن دراسةِ المادَّةِ الأولى في السَّنَةِ الثَّالثةِ عادةً مقابلَ استمرارِهِم في دراسةِ الفِقهِ حتَّى تخرُجَهُم في الحوزةِ.

ويَتحوَّلُ مَوْضوعُ طَبيعةِ الأشكالِ المُختلفَةِ مِنَ المعرفةِ وقيمتِها إلى درسِ قائمِ بذاتِهِ في المراحلِ المُتقدِّمةِ مِنَ التَّعليمِ الحوزويِّ. إذ تُلقِي أُمُّ مُصطَفَى المَراةُ صَحْمَةُ الجُثَّةِ في نَهايةِ الأربَعيَّاتِ أو بَدايةِ الخَمسينيَّاتِ مِنْ عَمَرِها، والشَّيرازيَّةُ

(١) مَلاحِظات حَقليَّة، الخَميس، ٣١ تمَّوز، عام ٢٠٠٨.

وزوجة المسؤول عَنْ قسم الرجال في الحوزة الزينية... تلقي درساً أسبوعياً عَنْ الأشكال المختلفة مِنَ المعرفة ومفهُوماتِ التعلُّم والمنطق في الفكر الإسلامي الذي تستعمل لأجله كتاب (أصول الكافي) لـ (محمد بن يعقوب الكليني) (المتوفى عام ٣٢٩ هـ . ٩٤١ م) وهو مجموعةٌ مِنَ الأحاديث الشيعية^(١).

وعلى شاكلةٍ غيرها مِنَ النساءِ كبيراتِ السنِّ ورفيعاتِ المكانةِ اللائي يعملنَ في الحوزة؛ ترتدي أمُّ مُصطفى العباءة والجلابية السوداء وكذلك حجاباً يمتدُّ ليغطي حاجبيها وذقنها،^(٢) وقد بدأت بتدريس (أصول الكافي) في خريف عام (٢٠٠٩ م) واستهلَّت مُحاضراتها ببيان أهمية العقل، والفكر، والمنطق، وهي ترى أنَّ "العقل الكامل" هو ذروة التقوى والتدين ومنتهاهما. ويشرُح (ناويد كيرماني . Navid Kermani) ما يعنيه الفعل "عقل" بقوله: (إنَّه عملية إدراكٍ تؤدِّي إلى الاعتقاد [التي] تشتملُ في القرآن على الإدراك والقدرة الحسية على الفهم، فهم القلب، وهي تعتمد... على استعمال الحواس).^(٣) وينطوي "العقل" هنا على معنى تجريبي (أمبريقي) أكثر منه تجريبياً.^(٤) والعقل في (أصول الكافي) هو النقيض للجهل الذي يذكّرنا

(١) (أصول الكافي) (بيروت: دار الكتب العلمية، عام ٢٠٠٥) ٢٠-١١.

(٢) ترتدي المدرّسات الأصغر سناً وغير المتزوجات اللائي يعملن في القسم النسائي في الحوزة الزينية بعامة عباءات سودا فوق (جلباب أو جلابية) متواضعة في تصميمها ولكنها ليست بالضرورة سوداء. ولم يشذ من هذا التوجه العام نحو ارتداء العباءة والجلباب بحسب ما لحظت. سوى أنيسة سلمى الشيعية الدمشقية، وأنيسة آية، طالبة الجامعة المصرية وابنة أحد رجال الدين الشيعة المصريين.

(٣) كيرماني، "الفكر" ٥٤٧-٥٤٨.

(٤) الإمبريقية: مذهب يرى أنَّ أصل المعرفة هو التجربة، ويُطلق عليه أيضاً اسم (المذهب التجريبي). (المقوم اللغوي).

بالجاهليّة، أي بنحو غير مباشرٍ بالعادات والتقاليد البربريّة في حقبة ما قبل الإسلام.^(١) والعقل هو ما يميّز الإنسان عن الحيوان. بحسب أمّ مُصطفى. أمّا العقل الكامل فلا يجوزُهُ سوى الأنبياء والمعصومين، ولهذا، يُسمّى الإمام عليّ العاقل أو الحكيم، وابنته السيّدة زينب العقيلة. وبحسب أمّ مُصطفى كذلك فقد كان معاوية بن أبي سفيان الذي تحدّى الإمام عليّاً في معركة صفين (عام ٦٥٧ م) ومؤسّس سلالة بني أميّة في دمشق ذكياً وماكراً وشريراً، ولكنه يفترق إلى "العقل الكامل"^(٢) الذي يتطلّب نوعاً من التّوير والروحانيّة المُفترية بالعدالة والحكمة، ويعني ذلك فعل الإحسان وما هو جميلٌ ومفيدٌ.^(٣)

قالت أمّ مُصطفى في إحدى مُحاضراتها الأسبوعيّة التي كرّستها لشرح "غاية حياة المسلم" ومقصدِها النهائي: إنّ العناية بالآخرين - من مثل أفراد العائلة المُقرّين والأصدقاء - وتلبية احتياجاتهم،^(٤) هي الغاية أو الهدف التي يتعيّن على المسلم وضعه نصب عينيه. ويمثّل هذا النوع من الانفتاح والتّواصل مع المُقرّين وغيرهم من الشيعة جزءاً ممّا يُعرف بـ "العقل الكامل".

(١) الكلينيّ (أصول الكافي) ١١-٢٠.

(٢) ملحوظات حقلية، الأربعاء، في الحادي والعشرين من تشرين الأوّل والأربعاء، في الثامن والعشرين من تشرين الأوّل، عام ٢٠٠٩.

(٣) رضا شاه - كاظمي (العدل والذكر: تعريف بروحانيّة الإمام عليّ) (نيويورك: أي. بي. توروس ومعهد الدراسات الإسماعيلية، عام ٢٠٠٦) ٧٩؛ ساجيكو موراتا ووليم جتك (رؤية الإسلام) (نيويورك: باراغنز هاوس، عام ١٩٩٤) ٣٦٥-٣١٧. وزيادة على هذه الجوانب الجماليّة والأخلاقيّة، يجوز العقل كذلك على معانٍ عمليّةٍ بالغة الدقّة منها: عقل الدابة: صمّ رُسغها إلى عضدها وربطها معاً بالعقال لتبقى باركة، عقل الظل: انقبض وانزوى عند مُنتصف النهار، عقل الدوّاء البطن: أمسكه بعد إسهال، عقل القليل: أدّى ديبته، عقل عنه: أدّى عنه ما لزمه من دية. وعلى الرّغم من ذلك، ووفقاً لموسوعة القرآن، لم تحز أيّ من تنويعات الجذر "عقل" التسعة والأربعين على المعاني الأخيرة. قارن مع كيرماني "الفكر" ٥٤٧.

(٤) ملحوظات حقلية، خريف عام ٢٠٠٩.

وتشرح أمّ مُصطفى مُستندةً في ذلك إلى كتاب آية الله محمد الشيرازي (عن السبيل) أسباب "تحلف" الشرق الأوسط واندلاع الحروب الأهلية والفساد: إنه الافتقار العام لـ "العقل الكامل" بين المسلمين.^(١) فلو كان المسلمون يُحوزون عقلاً كاملاً لفهموا أنّ الفساد والحروب يُضّرّان بهم جميعاً. ويعني هذا. وهذا هو الأهم. أنّ العقل الكامل يقترن بالجوانب العملية والأخلاقية أكثر منه بالميتافيزيقية.

وإلى جانب أمّ مُصطفى، تشرح "أنيسة آية البنّا" المدرّسة المصريّة الجامعية المثقفة والشابة التي تحاضر في حوزة الصدرين، مقاربتّها للمعرفة والتعلّم في إحدى محاضراتها الصيفية التي كرّستها لشرح مناهج الكتابة البحثية.^(٢) فوفقاً لها، ثمة أربعة أنواع من المعارف أو العلوم التي ترتّبها بحسب نوع منهج الاشتقاق إلى: "الوحي" وهو أفضل هذه العلوم، فالعلوم الحدسية المعتمدة على أشكال المعرفة الفطرية (مثل التّبصّرات الصوفية)^(٣) وتظهر العلوم "العقلية" مباشرة بعد "الحدسية" تليها العلوم "الحسية" التي تمثّل الأشكال الحسية أو التجريبية الصّرفة من المعرفة؛ وتستند العلوم العقلية إلى الاستنتاج المنطقي والقياس (يحمل "العقل" هنا معنى أكثر ضيقاً مقارنة بـ "العقل الكامل" الذي تحدّث عنه أمّ مُصطفى) وهذا هو المستوى الذي تُكتب فيه أكثر البحوث. ترى أنيسة أنّ الغاية من البحث هي الوصول إلى الحقيقة

(١) سيّد محمد حسيني الشيرازي (السبيل إلى إنفاض المسلمين) (الكويت: دار العلم، عام ٢٠٠٩).

(٢) ملحوظات حقلية، عام ٢٠٠٨. تقدّم الحوزات الأخرى دروساً في منهجية الكتابة البحثية. تقول أنيسة إنّها تدرّس طلاب المرحلة الرابعة آليات كتابة البحث مرّة واحدة في الأسبوع ابتغاء تمكينهم من الكتابة والنشر. ملحوظات حقلية، الأربعاء، ٣٠ أيلول، عام ٢٠٠٩.

(٣) ويهر، قاموس اللغة العربية الحديثة، ١٦٢.

الإلهية بالضرورة التي يتعدّر بلوغها عن طريق العقل البشريّ وحده. ^(١) وتوافق أنيسة أم مصطفى رأيها الذي يفيد أن الذكاء والعقل (البشريّين) المنتظمين لوحدهما لا يكفيان لبلوغ الحقيقة والتحوّل إلى شخص متديّن أنموذجي (أو الحصول على "العقل الكامل" كما تصفه أم مصطفى). وتأسيساً على ذلك، فإنّ التعلّم الوضعي / العلمانيّ ليس كافياً؛ ولهذا يلتبس الشيعة العاديون (المقلدون الشيعة) العون والإرشاد من آل البيت الممثلين بالعلماء من رجال الدين ابتغاء الوصول إلى أعلى مستويات الحقيقة والتدين.

ولكن من أين يحصل الشيعة العاديون على هذا الإرشاد؟

وفقاً لأم مصطفى، وكذلك الملاية زهرة، ثمة طريقتان لنقل المعارف الدينية وقرس "العقل الكامل" وتنميته هما: التعلّم الحوزوي، ومجالس العزاء [الحسينية] الطقوسية. ^(٢) وتسهم هاتان الطريقتان في إعداد المشاركين وجذب انتباههم بمستويين مختلفين؛ وفي الوقت ذاته مترابطتين ومتجاورتين. إذ لا يقتصر التعلّم الحوزوي على المحاضرات فحسب، بل إنه يشجّع على النقاش، ويستلزم من الطلاب المذاكرة والقراءة واجتياز الامتحانات. وخلافاً لهذا النوع من التعلّم، قد تختار مجالس العزاء (وقد لا تختار) تقديم المحاضرات؛ ^(٣) إذ يجري التركيز في الحسينيات على البكاء والرثاء وإثارة العواطف أكثر منه على التعلّم. وبينما تركّز الحوزات على الإدراك المعرفي، تركّز

(١) تعني المسؤولية الاجتماعية المشاركة في نقل المعارف. وتسهم أنيسة من خلال عملها في التدريس في نقل المعرفة الدينية إلى الطالبات في حوزة الصّدرين. كما إنها تعمل بين الحين والآخر في تقديم المحاضرات في القسم الخاص بالنساء في المصلّى.

(٢) ملحوظات حقليّة، ربيع عام ٢٠٠٨ وخريف عام ٢٠٠٩.

(٣) على شاكلة المشاركين الذين تحدّثوا إلى لارا ديب، لا تنظر الملايات في مدينة السيّدة زينب إلى رواية مآسي أهل البيت بوصفها محاضرات. قارن مع ديب "من الرثاء إلى المشاركة الفاعلة".

الحُسَيْنِيَّاتُ عَلَى التَّأثيرِ العَاطِفِيِّ^(١) وترتبطُ الطَّرِيقَتَانِ فِيمَا بَيْنَهُمَا ارتباطاً
إيديولوجياً ومكانياً وثيقين بسببِ انعقادِ المَجَالِسِ فِي الحَوَازِ وتَشْجِيعِ
الأخيرةِ الطُّلَّابِ والمُقلِّدينَ عَلَى حُضُورِ المَجَالِسِ؛ وَزِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ، يَتَوَقَّفُ
سِيرُ النِّظَامِ الدِّرَاسِيِّ فِي الحَوَازِ، وَيَحُلُّ مَحَلَّهُ المَجَالِسُ الَّتِي تُعْقَدُ فِي المُنَاسَبَاتِ
الدِّينِيَّةِ المَهْمَةِ مِثْلَ أَيَّامِ وَلَادَةِ الأئِمَّةِ المَعْصُومِينَ وَوَفَايَتِهِم، وَكَذَلِكَ غَدِيرُ خَمٍّ،
[يَوْمُ مُبَايَعَةِ الإِمَامِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ]. وَيَسْتَشْهَدُ المَدْرُسُونَ وَالْمَلَائِكَةُ
الْحَوَزِيُّونَ عَادَةً بِمَقُولَةِ "المَجَالِسُ مَدَارِسُ" تَعْظِيمًا مِنْهُمْ لِدَوْرِهَا فِي تَعْلِيمِ
الشَّيْعَةِ وَتَنْفِيزِهِمْ بِأُمُورٍ مُعْتَقَدِهِمْ. وَقَدْ لَا تَتِمَكَّنُ النِّسَاءُ، مِثْلُ أُمِّ عَلِيٍّ النَّجْفِيَّةِ
مِنْ حُضُورِ الدُّرُوسِ الْحَوَزِيَّةِ، وَلَكِنَّهَا فِي الأَقْلِّ تَحَاوُلُ حُضُورَ المَجَالِسِ
بِالنِّظَامِ.

وَعَلَى الرُّغْمِ مِنْ أَهْمِيَّةِ الحَوَازِ وَالمَجَالِسِ وَارتباطِهما الوثيقِ، إِلَّا أَنِّي
فَضَّلْتُ دِرَاسَتَهُمَا كَلًّا عَلَى حَدَّةٍ. وَسَارَكُزُّ فِي المَبَاحِثِ التَّالِيَةِ عَلَى البِيدَاوَجِيَا
(عِلْمُ أَصُولِ التَّرْبِيَةِ وَالتَّدْرِيسِ) الْحَوَزِيَّةِ؛ عَلَى الرُّغْمِ مِنْ عَوْدَتِي المَقْتَضِبَةِ إِلَى
الحُسَيْنِيَّاتِ فِي نِهَآيَةِ الفَصْلِ لِمُنَاقَشَةِ التَّأثيرَاتِ الَّتِي مَارَسَتْهَا التَّغْيِيرَاتُ المَكَايِبَةُ

(١) بداهة، يتمتع كل من التأثير العاطفي والإدراك المعرفي. على وجه العموم. بأهمية بالغة في كل من التعليم الحوزوي ومجالس العزاء. ويرد السبب في تمييزي بينهما إلى نيتي وضع توازيات مع وصف لارا ديب لمجالس النساء الشيعية في لبنان. إذ تركز المجالس "التقليدية" على التأثير العاطفي في حين تركز "الحديثة" منها على الإدراك المعرفي. ومن المهم هنا لحظ إمكان القول: إن السبب في تركيز الحوزات على "العقلانية" (أو الإدراك) يُرَدُّ إِلَى تَأْلِيفِ الحَوَازِ أَحْيَازًا ذَكَوْرِيَّةً مُقَابِلَ مَجَالِسِ العَزَاءِ الَّتِي تَرْكَزُ عَلَى "العواطف" لِأَنَّهَا تُمَارَسَاتُ نَسْوِيَّةً (لِجِهَةِ اعْتِمَادِهَا عَلَى أَوَّلِ مَجْلِسِ عَزَاءِ أَقَامَتِهِ السَّيِّدَةُ زَيْنَبُ عَلَيْهَا السَّلَامُ). لِلِاسْتِزَادَةِ بِشَأْنِ دَوْرِ العَوَاطِفِ، أَحْيَلِكُمْ إِلَى الفَصْلِ التَّالِي: "التَّقْوَى المَوْثُورَةُ عَاطِفِيًّا".

في نقل المعارف والتراث. ويؤلف الدور الذي تضطلع به مجالس العزاء في تعزيز التدوين والورع محور الفصل القادم (التقوى المؤثرة عاطفياً).

تنمية الموضوعات «subjects» التقيية:

في صباح أحد الأيام، قالت أم رضا إحدى طالبات المرحلة الرابعة في الحوزة الشيرازية، وأم عراقية لطفلين في نهاية العشرينيات من عمرها: إنَّ الناس يكرّرون عليها السؤال التالي: (لم تدرسين إذا لم يدفعا لك نقوداً؟). كما لو أنَّ كلَّ شيءٍ يتعلق بالمال! لا يعلم هؤلاء التأثيرات التي تمارسها الحوزة في الزواج والحياة الأسرية والأطفال! أصبحت بعد دراستي في الحوزة أمّاً أكثر تفهماً وقدرة على التحمّل. كما تحسّنت علاقتي بزوجي كثيراً).

وتخبر أم رضا الناس في بعض الأحيان، أنّها تدرس لأجل الحصول على الإقامة، وبناءً عليه فهي تقدّم دراستها بصيغ الضرورة الفقهية والسياسية التي تعدّها فكرة غير قابلة للجدل.^(١)

وتذكر "أنيسة سلمى" وهي شابة إيرانية - سورية غير متزوجة، وتعمل مدرّسة في الحوزة الزينية. أنّ الغاية الأهمّ للتعليم الحوزوي هي الغاية الأخروية.^(٢) وهي ترى أنّ اكتساب المزيد من التقوى هو خطوة تحضيرية لكي تصبح تابعاً ومساعداً للإمام الغائب المهديّ. ونظراً إلى توقّع الشيعة أن يقود الإمام المهديّ الجيش ضدّ المسيح الدجال، فإنّ اتّباع الإمام يعني أن تكون

(١) ملحوظات حقليّة، الأربعاء ٢١ تشرين الأول عام ٢٠٠٩.

(٢) ملحوظات حقليّة، الاثنين، ١٤ كانون الأول عام ٢٠٠٩.

واحدًا مِنْ جنودِهِ. وبكلماتٍ أُخرى: إِنَّ التَّركِيزَ على الذاتِ يَساعِدُ الشَّيعةَ في الاستعدادِ والتَّدرُّبِ في انتظارِ الثَّورةِ المُوجَّلةِ.^(١)

والغايةُ مِنَ الدَّراسةِ في الحوزةِ بالنِّسبةِ لِكُلِّ مَنْ آمَ رِضاَ وأنيسةَ سلمى، هِيَ أَنْ تكونَ شيعيًّا أَفْضَلَ تَدِينًا وأَكْثَرَ وَرَعًا. إِلَّا أَنَّهُ ثَمَّةُ اخْتِلافٍ كَبِيرٍ بَيْنَ ما يَعتنِيهِ ذَلِكَ لَأَمْ رِضاَ وما يَعتنِيهِ لِأَنيسةَ! فغايةُ آمَ رِضاَ مِنَ الدَّراسةِ الحوزويَّةِ هِيَ أَنْ تكونَ أَكْثَرَ تَقوى. وخلافًا لها، تَرى أَنيسةُ أَنَّ الغايةَ مِنَ الدَّراسةِ هِيَ أَنْ تكونَ أَكْثَرَ انضباطًا؛ والانضباطُ والفضيلةُ متشابهان، ولكنَّهما ليسا الشَّيءَ ذاتُهُ.

ويمكُنُ القَوْلُ . بالقياسِ: إِنَّهُ ثَمَّةُ اخْتِلافٍ بَيْنَ الطَّهارةِ الطُّقوسِيَّةِ والصَّحَّةِ، إذ يَربُغُ المسلمونَ الحداثيونَ أمثالَ عالِمِ الدِّينِ والفقيهِ والمجدِّدِ الإسلاميِّ المِصرِيِّ مُحَمَّدُ عبْدُهُ (١٨٤٩-١٩٠٥م) أو الشَّيعةُ الحداثيونَ أمثالَ أَتباعِ الخامنِيِّ في إيرانَ وحزبِ اللهِ في لبنان... يَربُغونَ في دِماجِ الطَّهارةِ الطُّقوسِيَّةِ بِمفهُوماتِ الصَّحَّةِ الحديثَةِ. ولهذا، يَناقِشُ المدرِّسونَ والطُّلابُ عَادةً الطَّهارةَ الطُّقوسِيَّةَ التي تنطوي على مَضمُوناتٍ صَحِّيةٍ حَتَّى في الحوزةِ الزَّينبيَّةِ. وعلى الرُّغمِ مِنْ ذلكَ، نلحِظُ في أعقابِ تجمُّعاتِ العِزاءِ العامَّةِ الرَّئيسَةِ أَنَّهُ حَتَّى المدرِّسونَ يَعلِّقونَ في بعضٍ مِنَ الأحيانِ بِأسلوبٍ متَهَكِّمٍ على وَضْعِ الحِمَاماتِ الصَّحِّيةِ في الحوزةِ الزَّينبيَّةِ مَبِينينَ أَنَّ الطَّهارةَ لا تَتطلَّبُ النِّظافةَ أو النِّظافةَ الصَّحِّيةَ.^(٢) ويشتمَلُ مثالُ آمَ مُصطَفى المَعروفُ بـ "العقلُ الكاملُ" على كُلِّ مِنَ الانضباطِ والفضيلةِ؛ ويشجِّعُ التَّعليمُ الحوزويُّ في مَدِينَةِ السَّيِّدةِ زَيْنَبَ بِصُورةِ

(١) بهذا المعنى، فهي "خلاصية" و "ثورية" وتنسجم مع نمطي أنموذج كربلاء كليهما. قارن مع آغاي، (شهداء كربلاء)؛ ديب (الحداثي المأسور).

(٢) ملاحظات حقليَّة، ربيع عام ٢٠٠٩.

عَامَّةً عَلَى التَّحَلِّي بِكُلِيَّيْهَا وَيَعْمَلُ فِي تَنْمِيَّتَيْهَا. وَلَكِنِّي . وَبِحَسَبِ مَا سَأَبِّحُ أَذْنَاهُ .
لَحِظْتُ أَنَّ الْفَضِيلَةَ لَا الْإِنْضِبَاطَ هِيَ بِؤْرَةُ الْإِهْتِمَامِ وَالتَّرَكِيزِ الرَّئِيسَةِ فِي التَّعْلِيمِ
الْحَوْزَوِيِّ . عَلَى وَجْهِ الْعُمُومِ .

أَنَّ تَكُونَ مَنْضَبِطاً وَفَاضِلاً عَنْ طَرِيقِ تَرْكِيزِ النَّفْسِ، ^(١) هُمَا عَمَلِيَّتَانِ
مُتَشَابِهَتَانِ لِهَاجَةِ أَنَّ الْغَايَةَ مِنْهُمَا هِيَ إِنْتَاجُ شَيْعِيٍّ أَكْثَرَ وَرِعاً وَتَدْنِيّاً، إِلَّا أَنَّهُمَا
يُخْتَلِفَانِ فِي طَرِيقَةِ إِعْدَادِهِمَا الْأَفْرَادَ لِلِارْتِبَاطِ بِالْعَالَمِ الْخَارِجِيِّ، حَيْثُ يَسْهُمُ
إِنْضِبَاطُ الْأَفْرَادِ، بِالْمَعْنَى الْفَوْكُوِيِّ لِلْكَلِمَةِ فِي مُسَاعَدَةِ الْحُكُومَاتِ فِي مُرَاقَبَةِ
السُّكَّانِ وَإِدَارَتِهِمْ. ^(٢) وَبِعَيْنِي الْإِنْضِبَاطُ، ضَمْنِيّاً الْإِنْتَاجِيَّةَ وَالتَّقَدُّمَ. وَلَيْسَتْ
الذَّوَاتُ النَّقِيَّةُ أَخْلَاقِيّاً أَوْ الطَّاهِرَةُ... لَيْسَتْ بِالضَّرُورَةِ قَادِرَةٌ عَلَى الْإِنْتِاجِ
الْاِقْتِصَادِيِّ أَوْ مِهْتَمَّةٌ بِهِ! فَالْفِكْرَةُ الشَّرَازِيَّةُ عَنِ الذَّاتِ النَّقِيَّةِ، هِيَ أَنَّهَا ذَاتٌ مُمْتَنَّةٌ
وَطَيِّبَةٌ وَكَرِيمَةٌ وَمُتَدَرِّبَةٌ عَلَى مُحَاسَنَةِ الْفَضَائِلِ. لَا الْمَهَارَاتِ الْقَابِلَةِ لِلتَّسْوِيقِ.

وَأَنَّ تَقْسِيمَ الْفَضِيلَةِ وَالرَّفْعَ مِنْ شَأْنِهَا عَلَى حَسَابِ الْإِنْضِبَاطِ يَبَيِّنُ السَّبَبَ
الَّذِي يَجْعَلُ الْحَوْزَةَ الزَّيْنِيَّةَ وَغَيْرَهَا مِنَ الْحَوَازَاتِ؛ تَقَدُّمٌ بِنَحْوِ مُتَوَاصِلٍ وَدَائِبٍ
دُرُوساً فِي مَوْضُوعَاتِ الْأَخْلَاقِ وَالشَّخْصِيَّةِ الْمُسْتَقِيمَةِ، لَا اللُّغَةَ الْإِنْكِلِيزِيَّةَ
مَثَلاً!. وَمِنْ الْجَدِيرِ بِاللَّحْظِ أَنَّ عِدداً قَلِيلاً مِنَ الْحَوَازَاتِ تَقَدُّمُ فُضُولاً دَرَاسِيَّةً
عَنْ أَنْوَاعٍ مِنَ الْمَعْرِفَةِ أَكْثَرَ "عِلْمَانِيَّةً" مَعَ تَوْكِيدِهَا عَلَى الْفُضُولِ الَّتِي تَسَاعَدُ فِي
تَنْمِيَةِ التَّقْوَى وَالْوَرَعِ لَدَى الْأَفْرَادِ. إِذْ تَقَدُّمُ الْحَوْزَةِ الْأَفْغَانِيَّةِ. فِي سَبِيلِ الْمَثَالِ .
مُحَاضَرَاتِ صَبَاحِيَّةٍ لِلْفَتَيَاتِ الْمَرَاهِقَاتِ لِتَعْلِيمِهِنَّ اللُّغَةَ الْإِنْكِلِيزِيَّةَ وَالْمَهَارَاتِ

(١) وَبِهِر (قَامُوسُ الْعَرَبِيَّةِ الْحَدِيثَةِ) ٣٨٠.

(٢) الْفَوْكُوِيُّ نِسْبَةً إِلَى مِيشِيلِ فَوْكُو (ضَرُورَةُ حِمَايَةِ الْمُجْتَمَعِ: مُحَاضَرَاتُ فِي الْكَلِّيَّةِ الْفَرَنْسِيَّةِ)
الْعَامِينَ ١٩٧٥-١٩٧٦، الْمَحَرَّر: بُوْرُوْبِرْتَانِي وَالْيَسَانْدُرُو فُونْتَانَا، تَرْجُمَةُ: دِيْفِيد مَاسِي (نِيُوبُورْك:
بِيكَادُور، ٢٠٠٣) ٢٣٩-٢٦٣.

الحاسوبية. وتُلاحظ بهذا الصدد مُطالبةُ الطَّالِبَاتِ في الحوزة الزَّينبية بتعليمهنَّ اللغة الإنكليزية أكثرَ مِنْ مرَّةٍ في الأسبوع، إلَّا أنَّ المسؤولةَ عَنِ الحوزة لم تستجب لطلباتهنَّ.

يستغرقُ تعليمُ النِّسَاءِ الشَّيعِيَّاتِ التَّقِيَّاتِ في الحوزة الزَّينبية أربعَ سنينَ، ويُطلبُ مِنَ الطَّالِبَاتِ في المرحلة الأخيرة أو المتخَرَّجَاتِ، في بعضِ مِنَ الأحيان تدريسُ المراحلِ الأوَّليَّة؛ وبدايةً، يعملُ في الحوزة أساتذة مختصُّون. وتُدرَّسُ أكثرُيَّةُ المَوْضُوعَاتِ مثلَ المنطقي، والنَّحو، والقرآن والتفسير، والتَّربية، والبلاغة، والمذاهب،^(١) والتَّبليغ؛ لَعَامٍ أو عَامَيْنِ دراسيَّينِ في مراحلِ الدِّراسة المختلفة. ولا يتجاوزُ عددُ الموادِّ الثَّابِتةِ في المنهاج الدِّراسيِّ الثَّلاث، وهي: العقائد (التي تتولَّى تدريسها أُمٌّ عليٌّ التي تدرِّسُ في الحوزة الحمينية كذلك) والأخلاق (التي تتولَّى أُمٌّ حيدر، مسؤولة الحوزة تدريسها) والفقه (الذي تُدرِّسه أُنيسَةُ عاليَّة التي يعملُ والدُّها مدرِّساً في قسم الرِّجالِ في الحوزة). ومنَ الجديرِ بِاللَّحْظِ أَنَّ الفضلَيْنِ كليهما يدورانِ حَوْلَ "المُمارَسةِ الصَّحيحةِ أو المستقيمة" وواحدٌ فحسبُ مُخَصَّصٌ للفكرِ التَّقليديِّ (orthodoxy). وزيادةً على ذلك، بالإمكانِ القَوْلُ: إِنَّ الفضلَيْنِ الدِّراسيَّينِ عَنِ المُمارَسةِ الصَّحيحةِ والفقه والأخلاقِ هُمَا فضلانِ معيَّنانِ بتدريسِ الانضباطِ والفضيلةِ على التَّوالي. حينما زارتِ ابنةُ آيةِ الله رضا الشِّيرازيَّ (المُتوفى عام ٢٠٠٨ م) وهو ابنُ آيةِ الله محمد الشِّيرازيَّ (المُتوفى عام ٢٠٠١ م) وابنُ أُختِ السيِّدِ حسنِ الشِّيرازيَّ (المُتوفى عام ١٩٨٠ م) ... حينما زارتِ الحوزة الزَّينبية في آبَ عام (٢٠٠٨ م) قدَّمتُ مُحاضرةً أَكَّدْتُ فيها أَنَّ العقائدَ هُوَ الدَّرْسُ الأهمُّ بينَ

(١) تدرس الطَّالِبَاتُ في هذا الفصل الأديان الثلاثة: اليهودية والمسيحية والإسلام.

دروس الحوزة: (حينما نموت، العقيدة هي الشيء الأهم).^(١) فلا شيء، سوى العقيدة، يضمن أنك ستبقى مسلماً إلى نهاية حياتك. وحينما يتوجه [المسلمون] للعيش في الغرب، فإنهم يضلون الطريق لأن عقيدتهم ليست قوية بما يكفي. وعندما تكون عقيدتك ضعيفة، ستجعلك الفلسفة وغيرها من الموضوعات التي تدرس في الجامعات الغربية تشك ثم تفقد إيمانك، وهذا يؤدي بك إلى الكفر. والعكس صحيح، فإذا كانت عقيدتك قوية، فإن دراسة أي موضوع ستقوي إيمانك وتجعله أكثر صلابة. كان هناك عالم فلك مسيحي ساعدته دراسة الكون على أن يكون أكثر. لا أقل. شَبَّهَ بالمومن. كان هذا العالم يتوجه إلى الكنيسة ابتغاء الصلاة كل يوم أحد، وكان كيانه كله يصرخ: الله أكبر!. وفي أحد الأيام كان هذا العالم يتحدث إلى أحد المسلمين، فقال لهذا المسلم: كلما درست أكثر، ازددت اقتناعاً بضرورة وجود خالق لهذا الكون. فأجابهُ المسلم مستشهداً بآيات من الذكر الحكيم تبين أن المعرفة تقود إلى الإيمان. وقد أثرت الآيات في العالم المسيحي تأثيراً كبيراً فاعتنق الإسلام وأصبح مسلماً.

نحن بحاجة إلى دراسة العقائد والقرآن حتى نضبح أكثر ثباتاً ونؤثر في الآخرين، يتشرب الفساد في العالم هذه الأيام، ويتعين علينا محاربتُهُ والتصدي له، ويتعين علينا، أولاً أن نتغير ونبدأ بأنفسنا، كي نتمكن بعدها من تغيير الآخرين والتأثير فيهم).^(٢)

وبحسب ما توجي به مُحَاصَرَةُ ابنة آية الله رضا الشيرازي، تشير العقيدة إلى مضمون القنوات والمعتقدات الدينية.

(١) العقائد جمع كلمة عقيدة.

(٢) ملحوظات حقلية، الثلاثاء، الخامس من آب عام ٢٠٠٨.

يتعلّم طلابُ الحوزة في عامهم الدّرَاسيّ الأوّل أسس الدّين التي تتألّف من أصول الدّين وفروعِهِ،^(١) ثمّ تشعّبُ دروسُ العقائد وتُدْرَس بالتفصيل في المرحلة الرَّابِعة والأخيرة من الدّرَاسة. وتشرحُ أمّ عليّ المدرّسة مفهومات البعث، والقيامة، ويوم الحساب بتفصيل أكبر؛ ولحظتُ آمالَ الفلسطينيّة التي اعتنقت المذهب الشّيعي وتبلغ من العمر ثلاثين عاماً، أنّ دروس العقائد مفيدة للغاية. وعلى الرّغم من أنّه لم يسبق لها أن درست في الجامعة، إلّا أنّها كانت تفكّر في جملة من المسائل تدفعها إلى التساؤل: (من خلق الله؟ وكيف بقدره الله أن يبعث البشر يوم القيامة؟) وقادتها هذه التساؤلات إلى ما يمكن عدّه. بحسبِ آمال. استنتاجاتٍ كافرة، إنّ دراسة العقائد في الحوزة أسهم في تنويرها فلسفيّاً وزوّدَها بالكثير من الإجابات المقيّنة.^(٢)

وتمثّل الأخلاق أحدَ الموضوعات الأخرى المهمّة في الحوزة الزّينية. وحينما عرّضتُ برنامجي الأسبوعيّ على "أمّ أوس" المدرّسة في الحوزة، لحظتُ أنّ حوزة الصّدرين تجمعُ بينَ تدريسِ موضوعي الأخلاق والسّيرة، لأنّ دراسة سيرِ حياة النّبيّ محمّد والأئمّة المعصومين (عليهم السّلام) يعني بالضرورة. دراسة الأخلاق،^(٣) وهذا. خلافاً للحوزة الزّينية التي تُدرّس الموضوعين كلّاً على حدة، حيثُ يُقتصرُ تدريسُ سيرة آل البيت فيها على المرحلة الدّرَاسيّة الأولى فحسب. وتتولّى مسؤوليّة الحوزة، أمّ حيدر، عادةً تدريسَ مادّة الأخلاق

(١) يتوزع الدّين في المذهب الشّيعي الاثني عشريّ على خمسة أصول هي: التّوحيد، والعدالة، والنّبوة، والإمامة، والقيامة؛ وعشرة فروع هي: الصّلاة، والصّوم، والحجّ، والزّكاة، والخطب، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والولاء والبراء.

(٢) ملحوظات حقليّة، خريف عام ٢٠٠٩.

(٣) ملحوظات حقليّة، صيف عام ٢٠٠٨.

خلال العام الدراسي؛ ولكنني لحظتُ أثناءَ حضورِي الفصولَ الدَّرَاسِيَّةَ الصَّيْفِيَّةَ أَنَّ "أُمَّ عَلِيَّ" مدرَّسةَ العقائد، لا "أُمَّ حيدرٍ" هِيَ مَنْ كَانَتْ تدرِّسُ مَادَّةَ الأخلاقِ.

وبالإمكانِ تقسيمُ مُحَاضَرَاتِ أُمَّ عَلِيَّ عَنِ الأخلاقِ إلى ثلاثةِ أَفْصَاحٍ بحسبِ المَوْضُوعِ. إذُ تشرُحُ أُمَّ عَلِيَّ، أَوَّلًا كَيْفَ يَتَعَيَّنُ عَلَى الفردِ أداءُ نوافِلِ أو صَلَواتِ مُسْتَحَبَّةٍ إِضَافِيَّةٍ مُحَدَّدَةٍ، لتنتقلَ بعدَ ذلكَ إلى الحديثِ، بنحوٍ منتظمٍ ومكرورٍ عَنِ واجِبَاتِ الفردِ حَيَالٍ والذِّيه؛ وتستشهدُ "أُمَّ عَلِيَّ" ثالثًا، بِأَمْثَالٍ وَحِكَمٍ تَقِيَّةٍ لَهَا دَلَالَتُهَا، وتحتُ الطَّالِبَاتِ جميعًا على الاشتراكِ في مُناقَشَتِهَا.

ويتلخَّصُ أَحَدُ الطُّقُوسِ الإِضَافِيَّةِ الَّتِي تَحْرُصُ "أُمَّ عَلِيَّ" عَلَى تَشْجِيعِ تَلْمِيزَاتِهَا عَلَى الِاتِّزَامِ بِتَأْدِيَتِهَا فِي "أَعْمَالِ أُمِّ دَاوُدَ" الَّتِي تَسْتَغْرُقُ. وَفَقًا لَهَا. خَمْسَ سَاعَاتٍ. وَعَلَى الرُّغْمِ مِنْ طُولِ المَدَّةِ الَّتِي تَسْتَغْرِقُهَا هَذِهِ الأَعْمَالُ، إِلَّا أَنَّهُ، وَفَقًا لَأُمِّ عَلِيَّ - مَرَّةً أُخْرَى - شَدِيدَةُ الفَاعِلِيَّةِ.

سُمِّيَتْ هَذِهِ الأَعْمَالُ بِاسْمِ "أُمِّ دَاوُدَ" الَّتِي كَانَ ابْنُهَا مَسْجُونًا، فَتَوَجَّهَتْ إِلَى الإِمَامِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ الَّذِي أَخْبَرَهَا بِأَدَاءِ مَجْمُوعَةٍ مُحَدَّدَةٍ مِنَ الصَّلَواتِ فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ ثَلَاثَاءَ مِنْ شَهْرِ رَجَبٍ. وَفَعَلَتْ أُمَّ دَاوُدَ مَا أَخْبَرَهَا بِهِ الإِمَامُ فَكُوفِنَتْ بِإِطْلَاقِ سِرَاحِ ابْنِهَا مِنَ السَّجَنِ؛ وَحِينَئِذٍ خَرَجَ الابْنُ مِنَ السَّجَنِ، أَخْبَرَ أُمَّهُ أَنَّهُ رَأَى فِي اللَّيْلَةِ ذَاتِهَا الَّتِي كَانَتْ فِيهَا أُمَّهُ تُؤَدِّي الصَّلَواتِ نُورًا فَعَلِمَ أَنَّهُ سَيُخْرِجُ مِنَ السَّجَنِ قَرِيبًا. وَحِينَئِذٍ بَيَّنَتْ "أُمَّ عَلِيَّ" أَنَّ أَدَاءَ أَعْمَالِ. أُمِّ دَاوُدَ. مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَعِيدَ الأَسْرَى وَيَفْكَ كَرْبَ المَسْجُونِينَ والمُهْمُومِينَ، شَرَعَتْ بَعْضُ مِنَ الطَّالِبَاتِ فِي تَدْوِينِ المَلْحُوظَاتِ، وَلَمَّا كَانَتْ أَكْثَرِيَّةُ طَالِبَاتِ الحُوزَةِ مِنْ طَلَّابِ اللُّجُوءِ العِرَاقِيِّينَ الَّذِينَ مَا زَالَ العَدِيدُ مِنْ أَفْرَادِ أَسْرِهِمْ فِي قَبْضَةِ العَنْفِ

المواصل في بغداد، كانت صلوات. أم داود. شديدة الأهمية. وحينما سألت "أم علي" تلميذاتها هل ستؤدّي إحداهنّ هذه الصلوات، رفع عددٌ لا بأس به أيديهنّ دلالة على الرغبة في ذلك.^(١)

ومما يؤسف له أنّي لم أعرف هل التزمت الطالبات فعلياً بتأدية هذه الأعمال أم لا؟ وهل تحققت النتائج المطلوبة بعد أدائها!.

وزيادة على سؤال الطالبات عن رغبتهنّ في أداء الصلوات الإضافية (النوافل) طلبت "أم علي" من الطالبات تسجيل ما يفعلنه في أيام الأسبوع، ثمّ إبلاغها ابتغاء غرس الانضباط والتقوى. ولتحقيق هذه الغاية، سلّمت "أم علي" تلميذاتها، في بداية الفصل الدراسي، مجموعة من الأوراق تضم مجموعة من النقاط لأداء الأعمال الصالحة وتجنّب الأفعال الطالحة؛ إذ خصّصت القائمة في سبيل المثال. خمسين نقطة لأداء الصلاة اليومية في أوقاتها، وثلاثين نقطة لأداء صلاة تسبيح الزهراء،^(٢) وعشرين نقطة لتلاوة دعاء كميل، وخمسين نقطة لطاعة الوالدين والزوج، وخمسين نقطة لارتداء الحجاب، وخمسين نقطة للامتناع عن الكذب، وخمسين نقطة للامتناع عن الإصغاء إلى الموسيقى.^(٣)

ومن خلال تخصيص قيمة رقمية للأفعال اليومية وسؤال الطالبات أن يذكرن بصوت عال كم عدد النقاط التي أحرزتها في الأسبوع؛ تعمل "أم علي" على غرس قيم الانضباط والفضيلة. وبينما ذكر عدد لا بأس به من الطالبات

(١) ملحوظات حقلية، الثلاثاء، الخامس عشر من تمّوز عام ٢٠٠٨.

(٢) يؤدّي المصلّي تسبيح الزهراء بعد الانتهاء من الصلوات اليومية الخمس. ويتألف هذا التسبيح من قول "الله أكبر" ثلاثاً وثلاثين مرّة، ومثلها لـ "الحمد لله" و "سبحان الله" أربعاً وثلاثين مرّة.

(٣) من الجدير بالتحظ أن أم علي ليست الوحيدة التي توزع أوراقاً مثل هذه على طالبات الحوزة. حيث يحدث الأمر ذاته في حوزة الصدرين. ملحوظات نقدية، الثلاثاء، الثامن من تمّوز عام ٢٠٠٨.

أَتَهَنَ نَسِينَ . بشكلٍ طبيعيٍّ . تدوينَ النُّقَاطِ اليَوْمِيَّةِ ، لم تتردَّدْ بعضُ من زميلاتِهِنَّ في الإعلانِ عَنْ عددِ النُّقَاطِ الَّتِي أَحْرَزَتْهَا بِفَخْرٍ وَخِيَلَاءٍ .

وعلى الرُّغمِ مِنْ أَهْمِيَّةِ زيارَةِ الوالِدَيْنِ وَنيلِ رِضاهُمَا كَوْنَهَا إِحدَى الفقراتِ الَّتِي أَشارَتْ إِلَيْهَا قائِمَةُ الواجباتِ الأسبوعيَّةِ؛ إِلَّا أَنَّ "أُمَّ عَلِيَّ" شعرتْ بِضُرُورَةِ المُواظَبَةِ على تذكيرِ الفتياتِ بِأَهْمِيَّةِ احترامِ الوالِدَيْنِ ومعامَلتِهِنَّما بِطريقةٍ لائِقَةٍ، إذْ لا يَنبغي للوالِدَيْنِ أَنْ يُضْطَرَّا إلى الطَّلَبِ في حَالِ حاجَتِهِنَّما إلى شَيْءٍ، بل يَتعيَّنُ على الطَّالِبَاتِ تلبيةُ طلباتِهِنَّما وإعطاؤُهُما ما يَحْتَاجَانِ إِلَيْهِ وهنَّ راضياتٌ ومبتَسِئاتٌ: (تَذَكَّرْنَ الأَلامَ الَّتِي عَانتَها أُمَّهاتُكُنَّ في سَبيلِ رِعايَتِكُنَّ، ولا تَنسِينَ أَنَّ آباءَكُنَّ هُم مُصَدِّرُ كُلِّ صَلاحٍ وَخَيْرٍ).^(١) وَقالَتْ أُمُّ عَلِيٍّ في مُناسِبَةٍ أُخَرى: إِنَّ اللهَ سِيعاقِبُ الفتياتِ اللَّائِي لا يَصَلِّينَ، ولا يَعطِينَ الصَّدقاتِ، ولا يَقرَأْنَ القرآنَ لِلتَّرحُّمِ على والِدَيْهِنَّ الأَمواتِ لَأَتَهَنَّ لَأَيَّهِنَّ لا يَبْدِينَ المقدارَ اللَّازِمَ مِنَ الاحترامِ والتَّوقِيرِ لَهُنَّ.^(٢) إِنَّ المرءَ يَطهِّرُ نَفْسَهُ مِنْ خِلالِ تَوقِيرِهِ لوالِدَيْهِ واحترامِهما.

طَرَحَتْ "أُمُّ عَلِيَّ" إِحدَى المَقُولاتِ والمَثَلِ الفِلسَفيَّةِ لِلنَّقاشِ الصِّفِيِّ، هِيَ: (الدُّنْيا سَجَنُ المُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الكافِرِ، وما أَصْبَحَ فِيها مُؤْمِنٌ إِلَّا حَزيناً) وَشَرَحَتْ أُمُّ عَلِيٍّ في نِهايةِ الدَّرْسِ مَعنى المَقولَةِ مُبيِّنَةً، أَنَّهُ بَيْنَ المُؤْمِنِ المُقَيَّدِ بالأَحكامِ والضُّوابِطِ، فَإِنَّ الكافِرَ لا يَتَقَيَّدُ بِها (أَضافَتْ إلى الكافِرِ قائلَةً: إِنَّ عَدَمَ التَّقَيَّدِ يَشتمَلُ على أَيِّ شَخْصٍ غَيرِ مُلتَزمٍ أو مُنضَبِطٍ في سَلوَكاتِهِ). وَتَراى "أُمُّ عَلِيٍّ" أَنَّ التَّقَيَّدَ بالقَواعِدِ والأَحكامِ أَمْرٌ جَوهريٌّ لِلتَّقوى والتَّديُّنِ، لَأَنَّ جَهادَ

(١) مَلاحِظاتِ نَقديَّة، السَّبْت، الثَّاني عَشَرَ مِنْ تَمَوزِ عام ٢٠٠٨ .

(٢) مَلاحِظاتِ نَقديَّة، السَّبْت، الثَّاني مِنْ آبِ عام ٢٠٠٨ .

النفس هو الجهاد الأعظم. ثم أردفت قائلة: (ما الفرق بين هذا الطفل [أشارت بيدها إلى طفلها الصغير] والحيوان؟ لا فرق، كلاهما يرغبان في الأكل عند شعورهما بالجوع، ويصرخ الطفل باكياً إذا لم يحصل على ما يشبع جوعه. إن الذي يجعلنا بشراً هو قدرتنا على التحكم بأنفسنا.)^(١) تقصد "أم على" ضمناً أن المؤمن له القدرة على ضبط نفسه بنحو أكبر من الشخص الذي لا يلتزم بأحكام الإسلام، والتزامه هذا يجعله أكثر إنسانية. وكما أوضح هذا المثال، أن يكون الفرد إنساناً يستلزم منه التحلي بالقدرة على الانضباط والتحكم بنفسه.

وعلى الرغم من أن "أم حيدر" لم تُدرّس في الحوزة في صيف عام (٢٠٠٨ م) إلا أنها جاءت إلى قاعة الدرس مرتين، وتحدثت مع الطالبات بشأن بعض من المسائل المهمة ذات الصلة بالأخلاق. وقد ركزت "أم حيدر" في حديثها على موضوعين محددين، هما ضرورة ارتداء الطالبات الحجاب المناسب، ومشروعية ممارسة التطبير. ويندر في المرحلتين الثالثة والرابعة، أن تحدثت "أم حيدر" عن ضوابط تنظيمية وقواعد وأحكام محدّدة؛ وعضاً عن ذلك، نراها تقرأ وتقتبس كثيراً من كتاب آية الله محمد الشيرازي عن الأخلاق؛ ويحدث في بعض من الأحيان أن تخرج أم حيدر عن سياق الموضوع لتوجيه نصيحة عامة! إذ حذرت في إحدى المرات أثناء مناقشتها شروء المادّية من مخاطر المادّية ودورها في تقويض قيم الحب والحياة الزوجية السعيدة، وللتدليل على صحّة كلامها روت قصة امرأة شابة اشتكت إليها من ضيق ذات يد زوجها وتدهور أوضاعه الماليّة، وأنها انتظرت - بسبب الفقر - ست سنين لكي تتزوج، لأن

(١) ملحوظات حقليّة، الثلاثاء، ٢٩ تمّوز عام ٢٠٠٨.

عائلتها لم تكن موافقة على الزواج، وها هي تسمح للمادية بتدمير سعادتها بعد زواجها! (١)

ويعدُّ الفقه من أهمِّ الموضوعات التي تُدرَّس في فصول الحوزة الزينية، حيث يجري التركيز عليه كثيراً. ويعودُّ السبب في ذلك إلى أهميَّة هذا الموضوع، لا في مجال تنمية التقوى لدى الشيعة وتعزيزها فقط، بل لتعزيز العلاقة بين المقلِّدين ومراجع التقليد وللحفاظ عليها كذلك. والفقه هو الموضوع الوحيد الذي يتولَّى تدريسه مدرِّسون ثابتون يرتبطون برجال دين غائبين؛ يمثلون الزعماء الروحيين في كلِّ حوزة، ويدينونهم بالولاء. وتبعاً لذلك، يغدو هؤلاء المدرِّسون حلقات وصل بين الطلاب وبين المراجع، ويعملون في نقل المعارف والعلوم والتقاليد.

وتركز دروس الفقه في المرحلة الأولى في الفصول الصيفية التي تنظمها الحوزة الزينية على العبادات التي تشتمل على الصلاة والصوم والطهارة الطقوسية. أمَّا في المستوى الابتدائي فتركز هذه الدروس على الفرق بين المذهبيَّ السنيِّ والشيعيِّ، لا الاختلافات فيما بين الشيعة أنفسهم.

ففي سبيل المثال، يغسلُ السُّنة. على وجه العموم أيديهم. وأفواههم، وأنوفهم، ووجوههم ثلاث مرَّات في الوضوء، بينما يذكر مدرِّسو الفقه في مدينة السيِّدة زينب أنَّه لا ينبغي للشيعة غسل هذه الأجزاء سوى مرَّة واحدة أو مرَّتين لا ثلاثاً (كما يفعلُ السُّنة) وزيادةً على ذلك، بينما لا يُعدُّ ملزماً الجمع بين صلاتي الظهر والعصر وصلاتي المغرب والعشاء بالنسبة للسُّنة، يُلحظُ تشجيع المدرِّسين والطلاب على الجمع بينهما. وثمة اختلاف آخر بين الشيعة

(١) ملحوظات حقليَّة، الأربعاء، ٢١ تشرين الأوَّل عام ٢٠٠٩.

وبين السُّنة بشأن هل تتعين قراءة سورة الفاتحة أثناء الوقوف في الركعتين الثالثة والرابعة في صلاتي الظهر والعشاء. فالسُّنة يقرؤونها في ركعات الصلاة جميعها بينما يشجع الشيعة على قراءة التسبيح "سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر" ثلاث مرات.

كانت "أم أحمد" في حوزة الصدرين مقتنعة بأن إحدى زميلاتها كانت سنية متزوجة من شيعي عراقي، وعلى الرغم من أن هذه الزميلة لم تعترف قط بأنها سنية، إلا أن الشكوك ما زالت تساور أم أحمد بخصوص هذا الموضوع.. فأم أحمد نفسها كانت متزوجة من عراقي سني، وقد سألت المدرسة في إحدى المرات، بحسب ما أخبرني به: (هل ما زال يجوز لنا تلاوة سورة الفاتحة في الركعتين الثالثة والرابعة؟) (١).

وزيادة على الاختلافات المذهبية الطقسية، تركّز دروس الفقه في المرحلة الأولى عادةً على اثنين من الموضوعات اليومية المحددة، هما الحجاب والموسيقا. إذ تؤكد العلوية "عالية" بانتظام على أهمية تغطية منطقة الذقن، ويسهم أسلوب التحجّب هذا بنحو واضح ومرئي في تمييز المرأة الشيعية عن السنية والأقلية عن الأكثرية، واللامتمين عن المتمين. ووفقاً للعلوية "عالية" يُعدّ "المانطو" المعطف الطويل الذي ترتديه النساء السوريات في المدن، مقبولاً شرعياً، ولكنه أقل احتشاماً من العباءة العراقية التقليدية. والامتناع عن الاستماع إلى الموسيقى هو أحد العوامل المهمة الأخرى التي تساعد في أن تصبح تقياً؛ ولهذا، يلجّ مدرّسو الفقه والمواد الأخرى في الصفوف الحوزوية الصيفية والمنظمة على تذكير الطالبات بحرمه الاستماع إلى الموسيقى. وفي

(١) ملحوظات حقليّة، صيف عام ٢٠٠٨.

الحالتين كليهما، تواصل الطالبات السؤال والبحث عن استثناءات! مثل: (هل النشيد الوطني والأغاني التي يغنيها الأطفال في مدح الرئيس حلال؟ وماذا عن الموسيقى الكلاسيكية الأوروبية؟! ويبدو واضحاً أنه ليس ثمة اتفاق بشأن هذا الموضوع. إذ تحدثت إحدى الطالبات في الكورسات الصيفية معترضة على ما ذكرته عالية، إذ قالت: (آية الله فضل الله يجيز الاستماع للموسيقى الكلاسيكية والآلاتية).^(١) وتحرم في فقه آية الله صادق الشيرازي حتى الموسيقى التي لا تصاحبها كلمات آئمة لأنها تقود إلى الضلال، ولكن صادقاً الشيرازي نفسه لا يرغب في التخلي تماماً عن تكنولوجيا الإعلام والاتصالات. فبعد كل ذلك، هو جزء من شبكة واسعة من مؤسسات دينية حريصة على إيصال رسائلها من خلال امتلاك استديوهات تصوير، ومخازن أقراص مُدججة وحتى قناة تلفزيونية فضائية. ولهذا السبب، يحث المدرسون في الحوزة الزينية الشيعة على الاستماع إلى الخطب الدينية المسجلة، واللطميات والموالد النبوية.^(٢) ومما يدل على ذلك وجود مركز إعلامي في الطابق الأرضي من الحوزة الزينية، يعرض مجموعة من أعمال الروايد العراقيين والكويتيين ويبيعها.

ولما كانت العلوية "عالية" مدرّسة مادة الفقه في الحوزة الزينية تتبنى الآراء الشيرازية، فإنها لا تردد في الاستشهاد بالآراء والأحكام الفقهية المتفق عليها؛ ولا سيما تلك التي تتوافق مع آراء الشيرازيين ووجهات نظرهم. إلا أن

(١) ملحوظات حقليّة، صيف عام ٢٠٠٨.

(٢) ولادات الأئمة هي المناسبات الوحيدة التي يحتفل فيها الشيعة ويعبرون عن فرحهم، بإلقاء القصائد وغيرها من الفعاليات.

ذلك لا يمنعها من الإقرار بالآراء الفقهية الأخرى كونها آراءً صحيحةً ومعتبرةً. ففي أحد الأيام سألتها طالبة: هل يمكن لشيعية متديّنة وملتزمة أن تأكل من منازل مسلمين لا يدفعون الخمس بانتظام؟ فأجابتها مؤكدة أن على الشيعة أن يتجنبوا أكل الطعام الذي لم يُدفع الخمس عنه. وحينما اشتكت آمال، الفلسطينية التي تشيعت، أن هذا سيجرمها من الأكل من بيت والديها، أخبرتها "عالية" أنه يتعين عليها في هذه الحالة الالتزام برأي السيستاني في هذه المسألة؛ إذ بينت لها أن السيستاني سمح بزيارة منزل الوالدين والأكل عندهما حتى إذا لم يكونا يدفعان الخمس لأن الحفاظ على الروابط العائلية أكثر أهمية من تجنب الأشخاص الذين يرتكبون إثم الامتناع عن دفع الخمس.^(١)

إن القول بإمكان أن تتبع النساء الشيعيات مراجع تقليد آخرين في بعض من المسائل [الحياتية] يعنى اعتماد المدرسة "أنيسة عالية" مبدأ المرونة في نقل المعرفة. وهي بناء على ذلك. لا تمثل محض مسؤولية إدارية تمطية تكرر بشكل تقليدي ما يقوله رجال الدين. وبالنظر إلى تمثيلها نقطة الارتباط الشخصية الرئيسة بين الطالبات وبين آية الله صادق الشيرازي، فإن وجودها يسمح للطالبات بالنقاش والأخذ والرد مع مدرّساتهن.^(٢) وتطرح أنيسة أسئلة الطالبات على والديها الذي يقوم بدوره بعرضها على آية الله، ولهذا فمعرفتها بآراء مراجع التقليد الآخرين يزودها بذخيرة معرفية تفيدها وتميزها في نقاشها

(١) ملحوظات حقلية، خريف عام ٢٠٠٩.

(٢) لحظت في الفصل الذي كرّسته لطقوس عاشوراء، أن الرجال لا النساء هم من يقومون بتوزيع الطعام في المحرم كي لا تطالب النساء بالمزيد منه. وبكلمات أخرى: بقدره النساء الشيعيات السوريات مناقشة الموضوعات والتباحث بشأنها مع غيرهن من النساء، ولكنهن على وجه العموم. يشعرن بالإحراج من مناقشتها مع الرجال لاسيما رجال الدين.

مَعَ الطَّالِبَاتِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ توكِيدِهَا الْمُسْتَمِرَّ أَنَّهَا لَيْسَتْ مُجْتَهِدَةً، وَإِنَّمَا هِيَ وَسِيطَةٌ وَمُسْتَشَارَةٌ بِطَرِيقَةٍ مَا.

وَتُعَدُّ مَوْضُوعَاتُ الزَّوْجِ وَتَعْدُدُ الزَّوْجَاتِ وَالْمَتْعَةِ (الزَّوْجُ لِمَدَّةٍ مُحَدَّدَةٍ) مِنْ أَكْثَرِ الْمَوْضُوعَاتِ إِثَارَةً لِلْجَدَلِ وَالتَّقَاشِ بَيْنَ أُنَيْسَةَ عَالِيَّةَ وَالطَّالِبَاتِ فِي الْمَرْحَلَةِ الرَّابِعَةِ! فَبَيْنَمَا كَانَتْ أُنَيْسَةُ تَحَاوُلُ فِي إِحْدَى مُحَاضَرَاتِ الْفَقْهِ شَرْحَ مَسْأَلَةِ تَعْدُدِ الزَّوْجَاتِ وَتَقْدِيمِ مُسَوِّغَاتِ تَبَرُّرِهَا؛ عَبَّرَتْ "سَمُرٌ" وَهِيَ عِرَاقِيَّةٌ شِيعِيَّةٌ فِي الْخَامِسَةِ وَالثَّلَاثِينَ مِنْ عَمْرِهَا عَنْ اعْتِرَاضِهَا الشَّدِيدِ عَلَى تَعْدُدِ الزَّوْجَاتِ، بَعْدَمَا رَأَتْ بَأْمَ عَيْنَيْهَا كَيْفَ دَمَّرَ زَوَاجُ أَبِيهَا الثَّانِي حَيَاتَهُمُ الْأُسْرِيَّةَ،^(١) وَحِينَذَا ذَكَرَتْ "عَالِيَّةُ" أَنَّ تَعْدُدَ الزَّوْجَاتِ يَسْهُمُ فِي تَخْفِيفِ الْمَسْئُولِيَّةِ عَنْ كَاهِلِ الزَّوْجَاتِ، عَارَضَتْهَا أَكْثَرِيَّةُ الطَّالِبَاتِ اللَّائِي كُنَّ مَتَزَوِّجَاتٍ بِخِلَافِ أُنَيْسَةَ، وَأَكْذَنْ أَنَّ عَدَمَ مَحْيَءِ الزَّوْجِ لَيْلًا إِلَى الْمَنْزَلِ لَا يَعْنِي تَقْلِيلَ الْمَسْئُولِيَّاتِ عَنْ كَاهِلِ الزَّوْجَةِ حَيَالِ الْمَنْزَلِ وَالْأَطْفَالِ. وَزِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ، فَإِنَّ فِكْرَةَ عَدَمِ وَجُودِ زَوْجٍ فِي الْمَنْزَلِ لَيْلًا تَبْعُثُ الْخَوْفَ فِي نَفُوسِهِنَّ.

حَاوَلْتُ أُنَيْسَةَ فِي دَرَسِ الْفَقْهِ ذَاتِهِ شَرْحَ مُمَارَسَةِ "الْمَتْعَةِ" وَإِيجَادَ مُسَوِّغٍ لَهَا، وَتَحَدَّثْتُ عَنْ حَالَتَيْنِ يُمْكِنُ أَنْ تَفِيدَ الْمَرْأَةُ فِيهِمَا مِنْ هَذِهِ الْمُمَارَسَةِ: أَوَّلًا فِي حَالَةِ وَجُودِ أَرْمَلَةٍ وَمَعَهَا أَطْفَالٌ وَلَكِنَّهَا لَا تَمْلِكُ الْمَالَ لِإِعَالَتِهِمْ وَلَا مَنْزَلًا يَأْوِيهِمْ، فَيُمْكِنُهَا أَنْ تَطْلُبَ مَنْزَلًا وَتَحْصُلَ عَلَيْهِ عَنْ طَرِيقِ زَوَاجِ الْمَتْعَةِ. إِلَّا أَنَّ الْمَثَالَ لَمْ يَحْظَ بِتَأْيِيدِ "سَمُرٍ" الَّتِي اعْتَرَضَتْ مُحْتَجَّةً بِأَنَّ الْأَمْرَ قَرِيبُ الشُّبْهِ بِمُمَارَسَةِ الدَّعَارَةِ. أَمَّا الْمَثَالُ الثَّانِي الَّذِي أوردته "أُنَيْسَةُ" فَهُوَ التَّعَامُلُ مَعَ مَدَّةِ زَوَاجِ الْمَتْعَةِ بِوُضُفِهَا مَدَّةً ارْتِبَاطًا، فَبَدَلًا مِنْ (الزَّوْاجِ بِالْمَعْنَى الْمُتَعَارَفِ عَلَيْهِ، يَرْتَبِطُ

(١) مَلَحُوظَاتُ حَقَلِيَّةٍ، الْأَحَدُ، الْخَامِسُ مِنْ كَانُونِ الْأَوَّلِ عَامَ ٢٠٠٩.

السُّورِيُّونَ فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ مِنْ خِلَالِ "كُتُبِ الْكِتَابِ" أَيْ إِنَّهُمْ "يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ" وَيُمْكِنُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَعْلُ أَيِّ شَيْءٍ يَرِيدُونَهُ! ^(١) وَلَكِنَّهُمْ غَيْرُ مَتَزَوِّجِينَ مِنَ النَّاحِيَةِ الْجَمَاعِيَّةِ!). كَانَتْ عَالِيَةً تَشِيرُ إِلَى مُمَارَسَةِ اجْتِمَاعِيَّةٍ مُنْتَشِرَةٍ بَيْنَ السُّنَّةِ فِي سُورِيَا؛ الَّذِينَ يَرْتَبِطُونَ مَدَّةً مِنَ الْوَقْتِ بِمَا يُعْرِفُ بِالْخُطْبَةِ قَبْلَ اِتِّمَامِ الزَّوْاجِ الْفَعْلِيِّ، وَلَأَجْلِ جَعْلِ الْخُطْبَةِ شَرْعِيَّةً إِسْلَامِيَّةً، يَصْبُحُ الشَّابُّ وَالْفَتَاةُ مَتَزَوِّجِينَ "شَرْعِيًّا" مِنْ دُونِ الْعَيْشِ مَعًا أَوْ تَسْجِيلِ الْعَقْدِ فِي الدَّوَائِرِ الرَّسْمِيَّةِ، وَفِي حَالٍ فَقَدَتْ الْفَتَاةُ عَذْرِبَتَهَا أَثْنَاءَ الْخُطْبَةِ، يَلْحَقُ الْعَارُ بِهَا وَتَسْوَأُ سَمْعُهَا، وَهَذَا قَدْ يُؤَثِّرُ سَلْبًا فِي فُرْصِ زَوَاجِهَا أَوْ الْخِيَارَاتِ الْمُتَّاحَةِ أَمَامَهَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ. (وَلِذَا، فَزَوَاجُ الْمُتْعَةِ أَوْ الزَّوْاجُ الْمُؤَقَّتُ يَسَاعِدُ النِّسَاءَ، فَإِذَا لَمْ يَنْتَهِ زَوَاجُ الْمُتْعَةِ / الْخُطْبَةُ بِزَوَاجٍ دَائِمٍ مُؤَثَّقٍ، وَالْفَتَاةُ لَمْ تَعُدْ عَذْرَاءً، فَعَلَى الْأَقْلِ يُمْكِنُ التَّعَامُلُ مَعَهَا عَلَى أَنَّهَا مُطْلَقَةٌ [بَدَلًا مِنْ فَقْدَانِهَا عَذْرِبَتَهَا قَبْلَ الزَّوْاجِ]. ^(٢))

وَتَمَّةُ نَقْطَتَانِ يُمْكِنُ الْاِسْتِشْهَادُ بِهِمَا تَدَحُّضَانِ مَا تَوَرَّدَ "أَنْبَسَةُ عَالِيَةً" أَوْ هُنَا أَنَّ زَوَاجَ الْمُتْعَةِ غَيْرَ قَانُونِيٍّ فِي سُورِيَا وَمُسْتَهْجَنٌ بَيْنَ السُّورِيِّينَ السُّنَّةِ، وَهَذَا يَعْنِي أَنَّهُ إِذَا فَقَدَتْ الْفَتَاةُ عَذْرِبَتَهَا أَثْنَاءَ زَوَاجِهَا مُتْعَةً فَإِنَّهَا لَنْ تَكُونَ بِأَفْضَلِ حَالٍ مِنْ فَقْدَانِهَا عَذْرِبَتَهَا خَارِجَ إِطَارِ الزَّوْاجِ!، وَثَانِيًا، إِنَّ طَلَاقَ الْمَرْأَةِ هُوَ أَمْرٌ شَائِنٌ وَغَيْرُ مَقْبُولٍ اجْتِمَاعِيًّا.

وَبَصَرُفِ النَّظَرِ عَنِ الْفَوَائِدِ الَّتِي قَدْ تَجَنَّبَهَا النِّسَاءُ مِنْ زَوَاجِ الْمُتْعَةِ، تَحَدَّثَتْ "سَمُرٌ" عَنِ شَبَهَاتِ الْفَسَادِ الَّتِي تَنْطَوِي عَلَيْهَا مُؤَسَّسَةُ الْمُتْعَةِ، وَذَكَرَتْ لَنَا هَذَا

^(١) تعني عبارة "كتب الكتاب" كتابة عقد زواج ديني قد يُوثَّق وقد لا يُوثَّق في المحاكم الرسمية. ^(٢) قابلت أثناء عملي الحقلي امرأة شيعية من حمص تزوجت رجلاً سعودياً متزوجاً. كان الزواج زواج متعة لمدة شهر واحد. ثم تزوجا دائماً بعقد مُوثَّق. ملحوظات حقليّة، الأحد، الرابع من تشرين الثاني عام ٢٠٠٩.

الصَّدد: (ثُمَّ شَيْخٌ فِي الْمَرْقَدِ يَحَاوُلُ إِقْنَاعَ النِّسَاءِ بِالنَّوْمِ مَعَهُ، وَيَقُولُ: إِنَّ الْمَتْعَةَ حَلَالٌ! حَتَّى لَوْ كَانَتْ الْمَرْأَةُ مَتَزَوَّجَةً) أَوْمَأَتْ عَالِيَةً وَالطَّالِبَاتُ الْأَخْرِيَّاتُ بَرُؤُوسِهِنَّ مُوَافِقَاتٍ. وَأَرْدَفَتْ سَمُرُ: (ثُمَّ نِسَاءٌ يَتَزَوَّجْنَ زَوَاجَ مَتْعَةٍ حِينَمَا يَكُونُ أَزْوَاجُهُنَّ غَائِبِينَ فِي رِحَالٍ عَمَلٍ أَوْ مَخْتَفِينَ) وَوَافَقَتْهَا "عَالِيَةً" الرَّأْيِ قَائِلَةً: (لَا تَشْعُرِي بِالذَّهْشَةِ، يَحْدُثُ هَذَا فِي الْعِرَاقِ، وَإِيرَانَ، وَسُورِيَا، وَلِبْنَانَ، وَدُولِ الْخَلِيجِ). وَتَحَدَّثَتْ بِالتَّفْصِيلِ عَنْ كُلِّ بَلَدٍ تَقَطُّنُهُ أَقْلِيَّةٌ شِيعِيَّةٌ مُعْتَبَرَةٌ لَكِي تَبَيَّنَ أَنَّهُ لَيْسَ ثَمَّةَ مُجْتَمَعٍ مَحَلِّيٍّ أَرْقَى أَخْلَاقِيًّا مِنْ غَيْرِهِ فِي هَذَا الْجَانِبِ. وَاخْتَمَمَتْ "أَنْبَسَةَ عَالِيَةً" الدَّرْسَ بِمُنَاقَشَةِ الزَّوْاجِ فِي الْإِسْلَامِ، وَأَكَّدَتْ عَلَى أَنَّ الزَّوْاجَ فِي الْإِسْلَامِ لَا يَمِيزُ بَيْنَ النَّاسِ: فَالْفَتَيَاتُ الْهَاشِمِيَّاتُ وَالثَّرَيَّاتُ (الَّلَائِي يَتَحَدَّرُ نَسْلُهُنَّ مِنْ آلِ الْبَيْتِ) يُمْكِنُهُنَّ الزَّوْاجُ مِنْ رِجَالٍ فَقَرَاءٍ مِنْ غَيْرِ الْهَاشِمِيِّينَ. وَلَكِنَّهَا نَفْسَهَا؛ زِيَادَةً عَلَى الْكَثِيرِ مِنَ الْعُلُويَّاتِ الْأَخْرِيَّاتِ، يَفْضَلْنَ الْبَقَاءَ عَانَساتٍ عَلَى الزَّوْاجِ بِرَجُلٍ عَامِّيٍّ (لَا يَنْتَبِي لِطَبَقَةِ السَّادَةِ).^(١)

تَعْتَمِدُ الْعُلُويَّةُ "عَالِيَةً" الشَّابَّةُ فِي مُتَنَصِّفِ الْعَشْرِيْنِيَّاتِ مِنْ عَمْرِهَا وَغَيْرُ الْمُتَزَوَّجَةِ عَلَى سُلْطَةِ الشُّيرَازِيِّينَ وَنَفُوذِهِمْ بِوَصْفِهِمْ مُجْتَهِدِينَ سَادَةً، وَتَحْرُصُ عَلَى دَعْوِهِمْ. وَتَحْطَى بِاحْتِرَامِ الطَّالِبَاتِ لِسَعَةِ مَعْرِفَتِهَا بِالْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ، وَمَكَانَتِهَا الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَعِلَاقَاتِهَا؛ وَلَكِنَّهُنَّ فِي الْوَقْتِ ذَاتِهَ يَعْدُدُنَّهَا شَدِيدَةَ الْمَثَالِيَّةِ وَغَيْرَ عَمَلِيَّةٍ وَقَلِيلَةَ الْخَبَرَةِ وَسَادَجَةً! لِأَنَّهَا تَعِيشُ حَيَاةَ مَأْمُونَةٍ كَوْنَهَا الْبَنْتُ الْكَبْرَى غَيْرَ الْمُتَزَوَّجَةِ لِرَجُلٍ دِينٍ بَارِزٍ عَالِي الْمَكَانَةِ! وَبِدَلَاً مِنَ التَّعَاطِي مَعَ الْعَالَمِ

^(١) يتحدَّر السَّيِّدُ / السَّادَةُ مِنْ سَلَالَةِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ جِهَةِ الْأَبِ عَادَةً.

"الواقعي" يبدو أن "عالية" تقضى جلّ وقتها في قسم النساء في الحوزة الزينية منهجكة في عملها في التدريس والتبليغ في المجالس.^(١)

وتوجّه الطالبات عادةً الانتقادات ذاتها إلى "أنيسة سلمى". فعلى الرغم من الإعجاب الذي تبديه آمالٌ بمعرفة "أنيسة سلمى" بالثقافة الشعبية والتطورات العلمية، إلا أنّها تنتقدُها لتدريسها الفتيات موضوعات تفتقر إلى الخبرة فيها، مثل تنشئة الأطفال. وهذا يعني أن جهود مدرّسات الحوزة لغرس قيم التقوى والورع في نفوس الطالبات، لا تمرّ من دون انتقادات؛ وربّما خلافات واعتراضات!

تركّز الفصول الدّراسية التي تحدّثت عنها أعلاه عن الانضباط والفضيلة، ولكنّي أميل إلى التّمييز بينهما، لأنّي لحظت في العديد من الأمثلة والحالات أثناء دراستي الحقلية أن الحوزات العلمية مثل الحوزة الزينية، تشجّع على الفضائل (أمثال الصبر والتواضع) ولكنها تهمل الانضباط (أمثال دقة المواعيد والتزام الهدوء داخل الصف) وقد اشتكت آمالٌ في سبيل المثال. من التأثير السلبي الذي يخلّفه عدم تقيّد إدارة الحوزة في الالتزام بتطبيق القواعد والأحكام في غرس قيم الانضباط في الطالبات. وانسجاماً مع القاعدة التي يجري عادةً التّوكيد على أهمّيّتها ويندرُ تطبيقها (القاعدة التي تقول: إنّهُ إذا تأخّرت الطالبة، فإنّها تُمنع من دخول المحاضرة ويتعيّن عليها الانتظار حتّى المحاضرة التالية) طلبتُ آمالٌ إذناً خاصاً من المديرّة لدخول المحاضرة الأولى،

(١) حينما تزوّج زوج آمال للمرة الثالثة ولم يرسل لها مالا حين ولادتها ابنها، اكتفت عالية بالقول متسائلة: (ولكن كان يتعيّن عليه إرسال المال إليها!). لم تتمكّن عالية من تقديم أيّ حل عمليّ لمعضلة آمال. ملحوظات حقلية، الأحد، ١٢ كانون الأول عام ٢٠٠٩.

لأنَّهَا ستَتَأَخَّرُ في اليوم التَّالِي بِسَبَبِ سَفَرِ زَوْجِهَا إلى خَارِجِ البِلَادِ؛ وَحِينَمَا وَصَلَتْ في اليوم التَّالِي وَدَخَلَتْ غَرَفَةَ الْمَسْؤُولَةِ ابْتِغَاءَ تَسْجِيلِ اسْمِهَا في سَجَلِ الْحُضُورِ، أَخْبَرَتْهَا الْأَخِيرَةُ أَنَّ عَلَيْهَا أَنْ تَنْتَظِرَ حَتَّى الْمَحَاضِرَةَ التَّالِيَةَ وَمَنْعَتَهَا مِنْ الدُّخُولِ. وفي اليوم التَّالِي، تَأَخَّرَتْ طَالِبَةُ كُسُولَةٍ نَصْفَ سَاعَةٍ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ سَمَحَتْ لَهَا أُمُّ حَيْدِرٍ مَدْرَسَةُ مَادَّةِ الْأَخْلَاقِ بِالدُّخُولِ مِنْ دُونِ أَنْ تَنْطَقَ بِكَلِمَةٍ! وَشَعَرَتْ أَمَالَ بِالْغَضَبِ وَقَالَتْ: (لَيْسَ ثَمَّةُ دَاعٍ لَاتَّبَاعِ الْقَوَاعِدِ).^(١)

أَدَلَّتْ أَمَالَ بِهَذِهِ التَّعْلِيلَاتِ فِي كَانُونِ الثَّانِي عَامَ (٢٠٠٩ م) وَلَكِنِّي غَادَرْتُ الْحَقْلَ فِي نَهَايَةِ شَهْرِ شَبَاطٍ مِنَ الْعَامِ ذَاتِهِ، وَشَهِدْتُ الْمَدَّةَ الْفَاصِلَةَ بَيْنَ مَغَادَرَتِي الْحَقْلَ وَبَيْنَ عَوْدَتِي إِلَى سُورِيَا فِي أَيْلُولِ عَامَ (٢٠٠٩ م) عَدَدًا مِنَ التَّحَوُّلَاتِ وَالْأَحْدَاثِ الْمُهَمَّةِ. وَبَيْنَمَا اسْتَمَرَّتِ الْمَدْرَسَاتُ فِي الْحَوْزَةِ الزَّيْنَبِيَّةِ فِي التَّسَاهُلِ أَوْ فِي عَدَمِ التَّقْيِيدِ بِتَطْبِيقِ الْقَوَاعِدِ فِي أَفْضَلِ الْفُرُوضِ؛ شَهِدْتُ الْحَوْزَةَ ذَاتُهَا تَعْدِيلَاتٍ مَكَانِيَّةً ابْتِغَاءَ تَعْزِيزِ الْإِنْضِبَاطِ.

إِعَادَةُ تَوْجِيهِ الْحَيَازِ الطُّقُوسِيِّ:

شَهِدَ مَرْقُدُ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ تَغْيِرَاتٍ هَائِلَةً أثنَاءَ السَّنِينَ الثَّلَاثِ الَّتِي قَضَيْتُهَا فِي الْعَمَلِ الْحَقْلِيِّ. وَقَدْ بَلَغَ عَدْدُ اللَّاجِئِينَ الْعِرَاقِيِّينَ ذُرُوتَهُ فِي أَوَّلِ زِيَارَةٍ لِي إِلَى سُورِيَا فِي عَامِ (٢٠٠٧ م) ثُمَّ بَدَأَ هَذَا الْعَدْدُ بِالْإِنْخِفَاضِ تَدْرِيجِيًّا، وَمَا زَالَ مُسْتَمِرًّا فِي الْإِنْخِفَاضِ خُصُوصًا بَعْدَ الْإِضْطِرَابَاتِ الَّتِي شَهِدَتْهَا الْبِلَادُ فِي صَيْفِ الْعَامِ (٢٠١١ م) وَخَرِيفِهِ. وَقَدْ أَثَّرَتْ هَذِهِ التَّغْيِرَاتُ الدِّيمُغْرَافِيَّةُ (السُّكَّانِيَّةُ) تَأْثِيرًا كَبِيرًا فِي الْمُنَاسَّاتِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي رَدَّتْ عَلَى ذَلِكَ بِإِعَادَةِ تَنْظِيمِ

(١) مَلَحُوظَاتُ حَقْلِيَّة، الْاِثْنَيْنِ، ٢٦ كَانُونِ الثَّانِي عَامَ ٢٠٠٩.

مَسَاحَة وجودها المكانية وموجوداتها المادية. ولأهميّة هذا الموضوع، سأناقش في المباحث التالية التّنظيمات المكانية في حوزات السيّدّة زينب وحسينيّاتها وتأثير ذلك في المجتمع المتدين وتأدية الطُّقوس ونقل المعارف الدّينية.

وبالإمكان. على وجه العموم. مُقارَنَة تنظيم الحيز في الحوزة أو الحُسينيّة بغرفة الجلوس في البيوت اللّبنانيّة التي حلّلتها (مايكل غلزنان . Michael Gilsenan) في (معرفة الإسلام).^(١) كانت هذه الغرفة. بحسب غلزنان. أحد أهمّ الغرف في البيوت اللّبنانيّة في النّصف الأوّل من القرن العشرين، وكانت متعدّدة الوظائف، يفرش فيها الضُّيوف الوسائد والمخدّات على الأرض وظهورهم للجدار ليشكّلوا بذلك حلقة.^(٢) وعلى العكس من الصّالون فرنسي الطّراز الذي تبنّاه اللّبنانيون من الطّبقتين الوسطى والعليا، واستعاضوا به عن المجلس، حيث يمكن فيه للضيوف مُشاهدة قطع الأثاث التي يمكن المأل من اقتنائها؛ وقد بيّن "غلزنان" أنّ تواضع المجلس يسهم في تحويل الانتباه بعيداً عن المكان إلى الضُّيوف أنفسهم. (النّاس هم محور المجلس، لا الأثاث ولا الموجدات).^(٣)

وبينما يُرجّح انقراض المجلس [بوصفه حيزاً مكانيّاً] عمليّاً في لبنان، إلّا أنّه ما زال يشغل موقِعاً بارزاً في أكثرية المنازل في مدينة السيّدّة زينب، بصرف النّظر عن الطّبقة الاجتماعيّة التي يتّمي إليها أصحابها. وزيادة على ذلك، ثمة تشابه جوهريّ بين المجلس الذي تحدّث عنه "غلزنان" وبين العديد من

(١) غلزنان (معرفة الإسلام) ١٨٠-١٩١.

(٢) على نحو مماثل لذلك ثمة في الحسينيّات وسائد في الأرضيّة وبمحاذاة الجدران للجلوس والنّوم عليها. وهذه الأحياز مرّبة بعناية ويخلع النّاس أحذيتهم قبل دخولها.

(٣) غلزنان (معرفة الإسلام) ١٨٠-١٨٧.

الحَوَازَاتِ وَالْحُسَيْنِيَّاتِ فِي مَدِينَةِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ لِهَجَةِ تَوَاضِعِهَا النَّسَبِيَّ وَوُضَائِعِهَا الْمُتَعَدِّدَةَ؛ إِذْ تُسْتَخْدَمُ الْقَاعَاتُ الَّتِي تُسْتَغَلُّ عَادَةً لِنَتْنِظِيمِ الصُّفُوفِ الْحَوَازِيَّةِ صَبَاحًا فِي إِقَامَةِ مَجَالِسِ الْعَزَاءِ مَسَاءً. فِي سَبِيلِ الْمَثَالِ لَا الْحَصْرِ. وَيُلْحَظُ تَبَعًا لِذَلِكَ. عَلَى وَجْهِ الْعُمُومِ. اسْتِخْدَامُ الْحَيَزِ ذَاتِهِ لَعَدَّةِ أَغْرَاضٍ، مِنْهَا التَّعْلِيمُ، وَإِقَامَةُ طُقُوسِ الْعَزَاءِ، وَالتَّنَشُّهُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ. وَعَلَى شَاكِلَةِ مَجَالِسِ "غَلَزْنَانِ" تُفَرِّشُ الْحَوَازَاتُ وَالْحُسَيْنِيَّاتُ بِالْوَسَائِدِ الَّتِي تُصَفُّ بِمَحَازَاةِ الْجِدَارِ زِيَادَةً عَلَى الْأَفْرَشَةِ وَالشُّجَادِ السَّمِيكِ الَّذِي يَغْطِي الْأَرْضِيَّةَ،^(١) وَتُمَيِّزُ هَذِهِ الْأَحْيَازُ بِنَتْنِظِيمِهَا وَتَرْتِيبِهَا، وَيَخْلَعُ النَّاسُ أَحْدِيَّتَهُمْ قَبْلَ دُخُولِهَا. أَمَّا الْفَرْقُ بَيْنَ هَذَا النُّوعِ مِنَ الْمَجَالِسِ وَبَيْنَ الْمَجَالِسِ الَّتِي تَحْدُثُ عَنْهَا "غَلَزْنَانِ" فَيَتِمَثَّلُ فِي وَجُودِ الْعَدِيدِ مِنَ الصُّوَرِ الَّتِي تَعْلَقُ عَلَى جِدَارِ الْحُسَيْنِيَّاتِ وَالْحَوَازَاتِ، مِثْلَ صُورِ الْإِمَامَيْنِ الْحُسَيْنِ وَالْعَبَّاسِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَصُورِ رَجُلِ الدِّينِ الشَّيْعِيِّ حَسَنِ نَصْرِ اللَّهِ زَعِيمِ حَزْبِ اللَّهِ. مُقَابِلَ ذَلِكَ، لَا تَظْهَرُ هَذِهِ الصُّوَرُ كَثِيرًا فِي الْمَنَازِلِ الْخَاصَّةِ فِي مَدِينَةِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ تَسْمِيَةِ الْغُرْفَةِ الرَّئِيسَةِ عَادَةً بِالْمَجْلِسِ.^(٢)

حَدَّثَتِ التَّغْيِرَاتُ الْأَبْرَزُ. الَّتِي لَحِظْتُهَا. فِي الْحَوَازَةِ الزَّيْنَبِيَّةِ فِي صَيْفِ عَامِ (٢٠٠٩ م) وَخَرِيفِهِ. فِي أَحَدِ الصَّبَاحَاتِ الْخَرِيفِيَّةِ الَّتِي وَافَقَتْ يَوْمَ الْغَدِيرِ، يَوْمَ إِعْلَانِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْإِمَامَ عَلِيًّا بْنِ أَبِي طَالِبٍ خَلِيفَةً لَهُ،

(١) فِي الشَّقِّقِ وَالْبُيُوتِ الْعَرَبِيَّةِ كُلِّهَا، وَلَكِنْ لَيْسَ فِي الْفَنَادِقِ الَّتِي يَقِيمُ فِيهَا الْإِيرَانِيُّونَ وَالْعَرَبُ مِنْ دَوْلِ الْخَلِيجِ، حَيْثُ تُزَوَّدُ غُرَفُ الْمَعِيشَةِ بِوَسَائِدٍ مُنْخَفِضَةٍ وَقَدْ تُسْتَعْمَلُ كَغُرَفِ نَوْمٍ.
(٢) ثَمَّةُ بَدَلًا مِنْ ذَلِكَ شَاشَاتٌ تَلْفَازُ عَرِيضَةً فِي أَمَاكِنَ شَبِيهِةٍ بِالْمَذْبَحِ فِي الْجِدَارِ تُعَرِّفُ الصُّيُوفَ وَتُوَجِّهُ انْتِبَاهَهُمْ إِلَى مَا يَحْدُثُ خَارِجَ مَنَظِقَةِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبِ.

كَانَتْ الْإِدَارَةُ قَدْ انْتَهَتْ لِلتَّوَمَنِ إِعَادَةُ تَرْيِينِ الْقَاعَةِ الرَّئِيسَةِ. ^(١) وَكَانَتْ مَوَادُّ الزَّيْنَةِ هَذِهِ مَكْلَفَةً لِلْغَايَةِ، وَكَانَتْ فَاطِمَةُ. إِحْدَى الطَّالِبَتَيْنِ غَيْرِ الْمُتَزَوِّجَتَيْنِ فِي الْمَرْحَلَةِ الرَّابِعَةِ. مُتَمِيمَةً؛ بِمَعْنَى ارْتِبَاطِهَا بِصِلَةِ قَرَانَةٍ بِالْإِدَارَةِ، وَقَدْ ذَكَرَتْ فَاطِمَةُ أَنَّ الْمُلْصَقَ الْكَبِيرَ الَّذِي يَغْطِي الْجِدَارَ الْجَنُوبِيَّ قَدْ كَلَّفَ الْحَوِزَةَ خَمْسَةَ آلَافٍ لِيرَةً سُورِيَّةً (مَا يَعَادِلُ مِثْلَهُ دُولَارٍ). وَعَلَى غَرَارِ فَاطِمَةَ، شَعَرْتُ "إِخْلَاصٌ" بِغَضَبٍ شَدِيدٍ، وَأَدَانْتُ إِدَارَةَ الْحَوِزَةِ لِإِنْفَاقِهَا أَمْوَالِ الْمُؤْمِنِينَ، (الخَمْسَ) عَلَى الزَّيْنَةِ بَدَلًا مِنْ إِنْفَاقِهَا عَلَى احْتِيَاجَاتِ الْحَوِزَةِ وَالْفُقَرَاءِ. ^(٢) وَاشْتَرَتْ الْإِدَارَةُ تِسْعَةَ مُلْصَقَاتٍ فِي الْأَقْلَى، وَكَانَتْ هُنَاكَ أَشْرَطَةُ مُلَوَّنَةٌ تَتَدَلَّى مِنْ السَّقْفِ وَنَجُومٌ مَعْدِنِيَّةٌ مُتَالِئَةٌ مُرْصَعَةٌ بِأَحْجَارٍ كَرِيمَةٍ كَبِيرَةٍ مُمَاطِلَةٌ لَزِينَةِ أَشْجَارِ الْمِيلَادِ. وَلَمْ تَكُنِ الْحَوِزَةُ الزَّيْنِيَّةُ تُسْتَخْدَمُ هَذِهِ الزَّيْنَةُ قَبْلَ عَامِ (٢٠٠٩ م) وَتَرَامَنَ ذَلِكَ مَعَ وَضْعِ الْإِدَارَةِ مَنْصَّةً مَسَاحَتُهَا خَمْسَةَ عَشَرَ مِترًا أَمَامَ الْمَنْبَرِ. بَيْنَمَا كَانَتْ الْمَلَايَةُ فِي مَجَالِسِ الْعَزَاءِ الْأُسْبُوعِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ الْحَوِزَةُ تَقِيمُهَا حَتَّى صَيْفِ عَامِ (٢٠٠٩ م) تَجْلِسُ عَلَى دَرَجَاتِ مَنْبَرٍ وَحِيدٍ فِي الْجَانِبِ الشَّامِلِيِّ مِنَ الْقَاعَةِ لَكِّي تَكُونُ فِي اتِّجَاهِ الْقِبْلَةِ، وَكَانَتْ الْمَلَايَةُ تَجْلِسُ بِمَكَانٍ يعلُو قَلِيلًا بَقِيَّةَ الْجَالِسَاتِ، وَلَكِنَّهَا الْآنَ تَغْدُو جُزْءًا مِنْ مَجْلِسِ الْعَزَاءِ أَثْنَاءَ قِيَادَتِهَا لَهُ. وَتَبَعًا لِذَلِكَ، فَقَدْ أَسْهَمَتْ هَذِهِ الْمَنْصَّةُ الْجَدِيدَةُ. عَمَلِيًّا. فِي عَزْلِ الْمَلَايَةِ وَمُسَاعَدَاتِهَا الْمُقَرَّبَاتِ مِنَ الْعُلُويَّاتِ اللَّائِي يَجْلِسْنَ بِجَانِبِهَا عَادَةً عَنْ الْحَاضِرَاتِ؛ عَلَى الرَّغْمِ

(١) يَتَأَلَّفُ قِسْمُ النِّسَاءِ بِأَكْمَلِهِ مِنْ غُرْفَةٍ أَرْضِيَّةٍ ثَانِيَةِ، وَمَكْتَبَةٍ وَالْحُسَيْنِيَّةِ الَّتِي تُمَثِّلُ قَاعَةً كَبِيرَةً فِي الطَّابَقِ الثَّالِثِ مِنَ الْحَوِزَةِ الزَّيْنِيَّةِ الَّتِي تُصَلُّ مَسَاحَتُهَا إِلَى سِتِّ مِثْلَيْ مِترٍ تَقْرِبًا، وَثَمَّةُ ثَلَاثَةِ صُفُوفٍ أَصْغَرٍ وَمَطْبُخٍ وَمَكْتَبِ إِدَارَةٍ وَحَمَامَاتٍ.

(٢) يُفْتَرَضُ بِالشَّيْخَةِ دَفْعَ (٢٠٪) ضَرِيَّةٍ خَمْسٍ عَنْ صَافِي الرِّيحِ. وَالشَّيْخَةُ فِي مَدِينَةِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبٍ مُتَازِيُونَ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يُخْفُونَ حَقِيقَةَ عَدَمِ رِضَاهُمْ عَنْ أُسْلُوبِ إِنْفَاقِ بَعْضِ مِنْ رِجَالِ الدِّينِ السَّادَةِ لِأَمْوَالِ الْخَمْسِ الَّتِي يُحْصَلُ عَلَيْهَا أَتْبَاعُهُمْ بِشَقِّ الْأَنْفُسِ.

مِنْ أَهْنَنْ كَنْ يُوْلَفَنْ جَزْءاً مِنْ مَجْلِسِ الْعَزَاءِ فِي السَّابِقِ، وَأُضْحَتْ هُؤْلَاءِ الْعُلُوبِيَّاتُ مِنْ عَامِ (٢٠٠٩ م) فَصَاعِداً، يَجْلِسْنَ بِمَكَانٍ أَعْلَى مِنَ السَّابِقِ. وَزِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ، أُحِيطَتِ الْمَنْصَّةُ بِسُلْسَلَةٍ مَعْدِنِيَّةٍ رَقِيقَةٍ أَسْهَمَتْ. رَمْزِيّاً وَجَسْديّاً. فِي كَسْرِ حَلْقَةِ الْعَزَاءِ وَخَلَقَتْ حُدُوداً مَكَائِيَّةً وَرَمْزِيَّةً وَاضِحَةً بَيْنَ جُمْهُورِ "الْحَاضِرَاتِ" وَالْمَلَايَاتِ وَالْعُلُوبِيَّاتِ.

أُضْحَتْ الْمَنْصَّةُ مَعْلَماً [مَكَائِيّاً] ثَابِتاً فِي الْقَاعَةِ الرَّئِيسَةِ فِي الْحَوِزَةِ الزَّيْنِيَّةِ أَوْ (الْحُسَيْنِيَّةِ) وَبَرَزَتْ إِلَى جَانِبِ الْمَنْصَّةِ تَغْيِرَاتٌ أُخْرَى أَقْلٌ وَضُوحاً وَثَبَاتاً. وَكَانَ اثْنَانِ مِنَ الصُّفُوفِ الدَّرَاسِيَّةِ الصَّبَاحِيَّةِ يُعْقِدَانِ فِي قَاعَةِ الْحُسَيْنِيَّةِ (لَعْدَمِ وَجُودِ عَدَدٍ كَافٍ مِنَ الصُّفُوفِ لِكُلِّ الْمَرَاكِحِ). وَبَصَرَفِ النَّظَرِ هَلْ تُعْقَدُ الدَّرُوسُ فِي صُفُوفٍ دَرَاسِيَّةٍ مُكَرَّسَةٍ لِهَذِهِ الْغَايَةِ أَمْ فِي الْحُسَيْنِيَّةِ؟.

لَحِظْتُ أَنَّ الدَّرُوسَ قَدْ قَدِّمَتْ بِأَسْلُوبٍ يِمَاطِلُ مَجَالِسَ الْعَزَاءِ مِنْ حَيْثُ جُلُوسُ الْحَاضِرَاتِ جَمِيعاً عَلَى الْوَسَائِدِ عَلَى هَيْئَةِ حَلْقَةٍ، وَاسْتَعْمَلْتُ فِي رِبْعِ عَامِ (٢٠٠٩ م) الْمُنَاضِدَ وَالْكَرَاسِيَّ الْمَكْتَبِيَّةَ؛ وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ الْمُدْرِسِينَ لَمْ يَعُودُوا يَفْتَرِشُونَ الْأَرْضَ وَيَجْلِسُونَ فِي مَسْتَوَى جُلُوسِ الطُّلَابِ. (عَلَى الرَّغْمِ مِنْ وَجُودِ اسْتِثْنَاءٍ وَاحِدٍ: إِذْ تَجَاهَلْتُ "أُمُّ عَلِيٍّ" مَدْرَسَةَ مَادَّةِ الْعَقَائِدِ . بَيْسَرِ . الْمَنْصُذَةِ وَالْكَرْسِيِّ وَافْتَرَشْتُ الْأَرْضَ قِبَالَ طَالِبَاتِهَا).

وَتَمَّةً فِي حَوِزَةِ الصَّدْرَيْنِ طَاقِبَانِ مُخَصَّصَانِ لِلْفُصُولِ الدَّرَاسِيَّةِ، وَيُوجَدُ فِي الطَّابِقِ الْأَوَّلِ مَطْبَخٌ وَحُسَيْنِيَّةٌ مُؤَلَّفَةٌ مِنْ قَاعَةٍ كَبِيرَةٍ مَا زَالَتْ حَيْزاً ذِكُورِيّاً، وَتَمَّةً أَرْبَعُ غُرَفٍ فِي هَذَا الطَّابِقِ وَمِثْلُهَا فِي الطَّابِقِ الثَّانِي تَعْمَلُ جَمِيعُهَا بِوُضُفِهَا صُفُوفاً دَرَاسِيَّةً. وَيَدْرُسُ الرِّجَالُ فِي هَذِهِ الصُّفُوفِ صَبَاحاً تَتَبِعُهُمُ النِّسَاءُ فِي وَقْتِ الظَّهِيرَةِ؛ وَتُصَفُّ الْوَسَائِدُ فِي الطَّابِقِ الثَّانِي بِمُحَازَاةِ الْجَدْرَانِ. وَتَمَّةً فِي

الطابق الثالث كراسي موصقة بمناضد كتابة يجلس عليها الطلاب زيادة على منصدة أكبر وكرسي مخصص للمدرس.

وتلقى المحاضرات والدروس عادة في الطابق الثالث كي يتمكن الطلاب من تدوين الملاحظات والدروس باستخدام المناضد، بعكس الاجتماعات التي تُعقد في الطابق الثاني في إحدى الغرف المفروشة بالوسائد، لأن هذه هي الوسيلة الأمثل لاستيعاب عدد أكبر من الطلاب في الغرف الصغيرة نسبياً (لا تتجاوز مساحتها ستة أمتار). وخلافاً للحوزة الرئيسية، يجلس الطلاب في حوزة الصّدرين في مستوى جلوس المدرسين أنفسهم. وهكذا، يجلس الجميع. أساتذة وطلاباً. إمّا على الكراسي (كما في الطابق الثالث) وإمّا على الوسائد، أو يفترشون الأرض (كما في الطابق الثاني).

وعلى نحو مماثل لحوزة الصّدرين، يستعمل الرجال حوزة المنتظر صباحاً تتبعهم النساء في وقت الظهيرة. ولا تشغل هذه الحوزة بناء كاملاً، بل طابقاً أرضياً كان في السابق شقة مؤلفة من ثلاث غرف نوم. وجُهِزَت "غرفة المعيشة" في الوسط بوسائد وأرائك منخفضة، وثمة كرسي وُضِعَ بعيداً عن مدخل الغرفة يجلس عليه الشيخ ليدرس الطالبات في الساعة الأولى؛ ويُقدّم الشاي في وقت الاستراحة الأولى بعد انتهاء الدرس الأول، ثم تتوجه طالبات المرحلتين الثالثة والرابعة إلى صفوفهنّ المزودة بالوسائد فحسب، لا الأرائك، وتبقى طالبات المرحلة الأولى في غرفة المعيشة؛ في حين شغلت الإدارة الغرفة الثالثة. وبينما يبقى الشيخ جالساً على الكرسي في هذه الحوزة، يجلس الطلاب على وسائد وأرائك منخفضة تعتمد على مرحلتهم الدراسية، وعلى نحو مماثل

للطَّالِبَاتِ، تجلسُ مدرِّساتُ المرحلتينِ الثَّانِيَةِ والثَّالِثَةِ على الوسائدِ أو يفترشنَ الأرضَ.

أثَّرتْ عملِيَّةُ إعادةِ تنظيمِ الأحيازِ المَكَانِيَّةِ . لاسيَّما في الحوزةِ الزَّيْنِيَّةِ . تأثيراً ملحوظاً في نوعِيَّةِ مجالسِ العزاءِ الطُّقُوسِيَّةِ والتَّعليمِ الحوزويِّ، وتجلَّى هذا التأثيرُ واضحاً في جانبينِ أساسيينِ . إذ أسهمتْ المنصَّةُ المُحاطةُ بسلسلةٍ معدنيَّةٍ أولاً . ومثلها لحظنا أعلاه . في تمييزِ المَلَايَةِ والمدرِّساتِ "جسدياً" عَنْ جمهورهنَّ وطالباتهنَّ؛ وزيادةً على ذلك، أسهمتْ المنصَّةُ في بروزِ "نخبةٍ" دينيَّةٍ في مجالسِ العزاءِ! ففي كلِّ مجلسٍ يحضرُ عددٌ مِنَ النِّسَاءِ (قد يتراوحُ العددُ بينَ عشرِ نساءٍ إلى خمسِ عشرةِ امرأةً في الحوزةِ الزَّيْنِيَّةِ) العديدُ بينهنَّ علويَّاتٌ مِنْ صديقاتِ المَلَايَةِ أو مِنْ راعياتِ المكانِ أو المجلسِ . وقد كانتْ هؤلاءِ النِّسوةُ اللَّائِيَّاتُ يجلسنَ بجوارِ المَلَايَةِ أو قريباً منها قبلَ إقامةِ المنصَّةِ يمثِّلنَ نخبةً مُفتحةً . ولكنَّ بعدَ إقامتها، أضحى هذا الحيزُ، رمزياً ومكانياً معلِّماً مُغلَقاً في وجهِ الأخرياتِ، وأضحَتِ المَلَايَةُ والمدرِّساتُ أبعدَ جسدياً وأقلَّ قدرةً على التَّواصلِ المباشرِ، وأدَّى ذلكَ بعملِيَّةِ نقلِ المعارِفِ الدِّينيَّةِ إلى أن تكونَ أَقلَّ تجذُّراً في علاقاتِ التَّواصلِ الشَّخصيَّةِ . وثانياً، أسهمتْ عملِيَّةُ إعادةِ التَّرتيبِ المَكَانِيَّةِ هذهِ في زيادةِ مُعدَّلاتِ التَّشَتُّبِ الذَّهنيِّ في الفصولِ الدِّرَاسِيَّةِ .

كَانَ الأَطْفَالُ يتجوَّلونَ في المكانِ ويلعبونَ براحتهم في الأوقاتِ العاديَّةِ ولمْ يكونوا منضبطينَ في سلوكاتهم، غيرَ أنَّ التَّنظيَّاتِ المَكَانِيَّةَ الجديدةَ استلزمَتْ توافراً عنصراً الانضباطِ . إذ لمْ يكنْ يُفترضُ بالأطفالِ الصُّعودُ إلى المنصَّةِ أو المنبرِ أو الكرسيِّ الذي تجلسُ عليه المدرِّسةُ؛ على الرُّغمِ مِنْ جاذبيَّةِ هذهِ الأشياءِ لهم . ونتيجةً لذلكَ، عانتِ الأمَّهاتُ (بلغَ عددُ الطَّالِبَاتِ الأمَّهاتِ

في المرحلة الرَّابِعةِ اللَّائِي يَصْطَحِبْنَ مَعَهُنَّ طِفْلاً واحداً في الأقلِّ بنحوٍ منتظمٍ أربع من العدد الكلي البالغ عشر طالبات)، بعدَ هذهِ التَّغْيِراتِ المَكَانِيَّةِ حَالَةُ الشُّرُودِ الذَّهْنِيِّ فِي الدُّرُوسِ لِاضْطِرَارِهِنَّ إِلَى المَنَادَاةِ عَلَى أَطْفَالِهِنَّ وَنَهْرِهِمْ عِنْدَ صُعُودِ المَنْصَةِ أَوِ العِبَثِ بِالسَّلْسَلَةِ الحَدِيدِيَّةِ.

الخاتمة:

يسألني السُّنَّةُ في سورِيَا عَادَةً حِينَما أَخْبَرُهم عَنْ دراستي للمذهبِ الشَّيعِيِّ المعاصِرِ (لَمْ لَا يَتِمَكَّنُ الشَّيْعَةُ مِنْ نَسْيَانِ مَا جَرَى فِي المَاضِي؟).

لا يَمَكُنُ. في واقع الأمر. بوضوح نسيان أحداثِ المَاضِي بعدَ مَا أَضْحَى سرْدُ كَرِبَلَاءَ واستدكارُهُ الطُّقُوسِيَّ إِلَى جَانِبِ الانْقِسَامِ الرَّاسِخِ بَيْنَ السُّلْطَةِ والولايةِ متجدِّرينَ مُؤَسَّسَاتِيًّا! إِذْ يَشْكَلُ هَذَا السَّرْدُ والطُّقُوسُ الأساسَ الَّذِي يَسْتَنْدُ إِلَيْهِ "التَّدِينُ المَعْيَارِيُّ" وثَمَّةُ ثَلَاثُ جِهَاتٍ فَاعِلَةٌ نَهَضَتْ بِدَوْرٍ مُحَوْرِيٍّ فِي مَأَسَسَةِ العِلَاقَةِ بَيْنَ أَهْلِ البَيْتِ وَالشَّيْعَةِ^(١) فِي سورِيَا المَعَاصِرَةِ هِيَ: المَرْجِعِيَّةُ، وَالْحَوْزَةُ، وَالْحُسَيْنِيَّةُ. حَيْثُ يَدْرُسُ الطُّلَّابُ فِي الحَوْزَةِ الرِّبَنِيَّةِ "ولايةَ عَلِيٍّ" الَّتِي تَفَرِّقُ السُّنَّةَ عَنِ الشَّيْعَةِ، وَتَطْرَحُ المَدْرَسَاتُ فِي الحَوْزَةِ فِكْرَةً سَهْلَةً تَقُولُ: أَنْ تَكُونَ مِنْ شِيعَةِ عَلِيٍّ يَعْنِي (حَرْفِيًّا) القَبُولَ بولايَتِهِ، وَقِيَادَتِهِ، وَإِرْشَادِهِ، وَسُلْطَتِهِ الدِّينِيَّةِ.^(٢)

(١) ثَمَّةُ اخْتِلَافٍ مَهْمٌ. بِحَسَبِ فِرْنُونِ شوبِل. بَيْنَ السُّنَّةِ وَالشَّيْعَةِ لجهةِ توكيدِ الشَّيْعَةِ عَلَى الوَلَاءِ لِلنَّبِيِّ بِوصفهِ شَخْصاً وَلأَفْرَادَ عَائِلَتِهِ. انْظُرْ شوبِل، (العروضُ الأدبِيَّةُ الدِّينِيَّةُ فِي الإِسْلَامِ المعاصر) ١٦.

(٢) مَلْحُوظَاتُ حَقْلِيَّةٍ، صَيْفُ عَامِ ٢٠٠٨ وَخَرِيفُ عَامِ ٢٠٠٩.

وقد حاز الأئمة الاثنا عشر تاريخياً الولاية الدينية، ولكنهم . عملياً . لم يستلموا السلطة السياسية بعد وقعة كربلاء في عام (٦٨٠ م) وفي هذا السياق، كتب كل من (سعيد أمير أرجمند . Said Amir Arjmond) و (موجان مومن . Moojan Momen) وغيرهما... كتبوا الكثير عن "أزمة الولاية" بعد دخول الإمام الثاني عشر "المهدي" مرحلة الغيبة الكبرى في عام (٩٤٠م).^(١) وقد قال رجال الدين في بادئ الأمر: إنهم ورثة الأئمة لجهة قدرتهم على تفسير النصوص، والقرآن، والأحاديث النبوية، واشتقاق الأحكام الفقهية وممارسة الاجتهاد فحسب؛ وأضحت أنشطة رجال الدين الشيعة وأعمالهم بمرور الزمن أكثر احترافاً وتنظيماً وتماسكاً. وأدى ما يُعرف بـ "انتصار الأصوليين" على "الأخباريين" في القرن الثامن عشر إلى مركزية الولاية الفقهية ومأسسة بنيتها هرمية صارمة يترفع على قممها الفقهاء المختصون أو مراجع التقليد.^(٢) ويُعد آيات الله الخامتي، والشيرازي، وفضل الله من أهم هؤلاء الفقهاء وأبرزهم في سوريا المعاصرة، وخصوصاً في مدينة السيّدة زينب.

ناقشت في هذا الفصل ادعاء آيات الله بالولاية من خلال مؤلفاتهم الفقهية أولاً، وتحدثت ثانياً عن تطور المؤسسات الدينية في مدينة السيّدة زينب التي تضم المرقد، والحوزات، والحسينيات، والمستشفيات؛ وحللت ثالثاً نوع التعليم والمواد الدراسية التي تلقاها الطالبات في الحوزات المحلية، ولاسيما الزينية والشيرازية، وبينت أن عملية تكوين الأفراد المتدينين تركّز على

(١) سعيد أمير أرجمند (الولاية والثقافة السياسية في المذهب الشيعي) نيويورك: ساني برس، عام

١٩٨٨؛ مومن (الإسلام الشيعي) ٧٦-٨٢، ١٦١-١٩٩ .

(٢) مومن (الإسلام الشيعي) ١٨٤-٢٠٧ .

خاصَّتِي الفُضِيلَةُ والانضباطِ المتشابهَتَيْنِ نَسِيبًا والمختلفَتَيْنِ في الوقتِ ذاته. ودرستُ أخيراً كيفَ أثَّرتْ عمليَّةُ إعادةِ تنظيمِ الحيزِ مكانيًّا في كلِّ مِنَ المُجْتَمَعِ المتدينِّ، والطُّقُوسِ، والتَّعليمِ الدِّينيِّ. وسلَّطَ هذا الفصلُ الضَّوءَ كذلكَ على الدَّورِ الَّذِي تَضطلعُ بِهِ الحُسَيْنِيَّاتُ والحَوَزاَتُ في تنشئةِ الأنواعِ المختلفةِ مِنَ الذَّوَاتِ (أي الذَّوَاتِ الفاضِلَةِ والمنضبطةِ). وزيادةً على ذلكَ، لا تخلو عمليَّتا تشكيلِ الأفرادِ ونقلِ المعارِفِ مِنَ المَعَارِضَةِ أو الاحتجاجِ.

ويمكنُ القولُ . في واقعِ الأمرِ . : إِنَّ السَّبَبَ الرَّئِيسَ في بروزِ هذهِ الخلافاتِ والاعتراضاتِ هوَ أَنَّ نَقْلَ المَعْرِفَةِ (التَّقاليدِ) وتشكيلِ الأفرادِ لا يَحْدُثانِ في الفراغِ أو المستوىِ التَّجريديِّ، ولكنَّهما يتجذَّرانِ في العلاقاتِ؛ فالشَّخْصُ المتدينُّ الكاملُ، بالنِّسبةِ لأمِّ مُصطفى لَيْسَ هوَ الشَّخْصُ الطَّيِّعَ ولا المنضبطَ، بل الشَّخْصُ الَّذِي يحوزُ "العقلَ الكاملَ" الَّذِي يستلزمُ توافراً عناصرَ مُحدَّدةً مِنْها الفهمُ، والحسَّاسيَّةُ، والعمليَّةُ، والأخلاقُ.

الفصل الثالث

التَّقْوَى الْمُؤَثِّرَةُ عَاطِفِيًّا^(١)

(١) المفردة (affect) التي ترد في عنوان هذا الفصل (affective piety) عدّة معان، ولأهمّيّتها، ارتأيت إيرادها جميعا، وهي: أثار العواطف أو المشاعر، أثر؛ أثر (في)؛ ادعى؛ ادعى به؛ أصاب؛ اصطنع؛ أصيب به؛ ألم به؛ انتاب؛ انعكس على؛ أهمّ؛ تصنّع؛ تظاهر به؛ تكلف؛ حاق به؛ حصل على؛ حل به؛ عرض له؛ لحق به؛ مس؛ نال من؛ وقع في؛ أثر في؛ حرك المشاعر؛ تظاهر به؛ شعور أو عاطفة؛ نزع إلى؛ فعل؛ ومعناها في الطبّ (عاطفة) وفي علم النفس (وجدان) وفي التعليم (انفعال). وللصفة من هذه المفردة (affective) عدّة معان تدور في المدار ذاته: عاطفيّ؛ مؤثّر؛ مثير للعاطفة؛ محرّك للمشاعر؛ شجيّ؛ وجدانيّ. ولا بدّ من التنويه بأنّي لم ألزم بمفردة محدّدة من المفردات المذكورة أعلاه في ترجمتي للنصّ، لأنّها ترد صفة تارة وفعلا أو اسما تارة أخرى، بل فضّلت مراعاة السياق، ولهذا اقتضى التنويه. (المترجمة)

مُقَدِّمَةٌ:

(انتهي إلى نوعية البرامج التلفزيونية التي تشاهدها، فهي تؤثر فيك). هذا ما قالت "أنيسة سلمى" المدرسة في الحوزة الزينية وقد خرجت عن موضوع الدرس، لتبين التأثير الذي يمارسه مسلسل "مهند و نور" التركي المذبلج الذي حظي بنسب مشاهدة عالية وشعبية واسعة في منطقة الشرق الأوسط في صيف عام (٢٠٠٨ م)... لتبين تأثيره في ابنة أختها^(١) ذات الخمسة أعوام؛ التي سألتها عن كيفية حمل إحدى الممثلات على الرغم من كونها غير متزوجة؟! وزيادة على ذلك، كانت الفتاة الصغيرة تحاول تقليد تصرفات العشاق في المسلسل من خلال التحديق في أحد أولاد الجيران.^(٢) ووفقاً لأنيسة، ليست البرامج والمسلسلات التلفزيونية هي الوحيدة التي تؤثر سلباً في أخلاقيات الشيعة المتقين الذين ينبغي لهم لا الحذر منها وتجنبها فحسب، بل كذلك إسداء النصح إلى الأصدقاء والجيران وأفراد العائلة الأكبر سناً، الذين لا يؤدون الصلاة، وتبهيهم إلى ضرورة تغيير أنماط حياتهم. وإذا لم ينفع معهم النصح والإرشاد، ينبغي عندئذ تجنبهم ما استطاع الفرد إلى ذلك سبيلاً؛ وزيادة

(١) على الرغم من احتفاظ أنيسة سلمى بشبابها، إلا أن حديثها وسلوكها يوحيان بصرامة العجائز وتجهمهن!. إذ تعكس حتى ملابسها هويتها المختلطة، فهي ترتدي العباءة الإيرانية. الشادور - فوق المعطف الطويل الشائع في سوريا - المانطو. وتميل أنيسة الفتاة الزينة والفاضلة إلى إيجاد مسوغات علمية تبرر آراءها وتدعمها. واطبت أنيسة بعد نيلها درجة البكالوريوس على تثقيف نفسها ذاتياً عن طريق قراءة الكتب ومشاهدة الأفلام الوثائقية التي كانت تعرضها في الصف في بعض من الأحيان، وهي تعمل في تدريس المواد "العلمية" وأنواع أخرى من الموضوعات الناشطة مثل المنطق، وتنشئة الأطفال، والأديان المقارنة، والدعوة أو التبليغ. وتقويم فهم الشيعة العاديين وممارساتهم هو هدف أنيسة وغايتها ما دامت غير متزوجة.

(٢) ملحوظات حقليّة، ١٨ أيلول، عام ٢٠٠٩.

على ذلك، وابتغاء التَّعَرُّضِ للمؤثَّراتِ الإيجابيةِ حضراً، ينبغي للفردِ الانتظامُ في حضورِ مجالسِ العزاءِ وقضاءِ الوقتِ مع غيره مِنَ الشَّيْعَةِ الْمُتَّقِينَ.

وترى أنيسةً وغيرها مِنَ المدرِّساتِ والمُلاياتِ ضرورةَ عدمِ الدُّخُولِ في مواجهةٍ مباشرةٍ معَ الفكرةِ التي تقولُ: إِنَّ الظُّروفَ والنَّاسَ الآخرينَ يؤثِّرونَ في الأفرادِ، بل بالأحرى، يتعيَّنُ على الأطرافِ المعنيةِ الاعترافُ بهذا الأمرِ والتَّعاملُ معه بحكمةٍ ودرايةٍ.^(١)

ولهذا، ينصبُّ اهتمامي في هذا الفصلِ على دراسةِ تمارساتِ العزاءِ التَّقيَّةِ مِنْ خلالِ تحليلِ أنماطِ التَّأثُّرِ العاطفيَّةِ الملازمةِ لها والعلاقاتِ الأحشائيَّةِ التي تخلُقُها وتديمُها. وسأعتمدُ في مُناقشتي هذه الجوانبَ على فكرةِ (سارة أحمد . Sara Ahmed) التي تقولُ فيها: إِنَّ العاطفةَ ترطمُ بالأسطحِ، وكذلك فكرةُ (وليم كوني . William Connolly) عن وجودِ (إشاراتٍ متعدِّدةٍ للذَّاتِيَّةِ وما بينَ الذَّاتِيَّةِ)^(٢) تسمحُ للأفرادِ في التَّواصلِ والتَّأثُّرِ عَاطَفيّاً بأساليبٍ أخرى غيرِ العقلِ.^(٣)

(١) وفقاً لأنيسة، يعني ذلك الحرص على التَّواصلِ مع الأصدقاء المُتَّقِينَ وتجنُّبِ الأفراد الذين قد يمنعون الفرد من السَّيرِ في الطَّريقِ المُستقيم.

(٢) وليم كوني (لَمْ أُنَا لَسْتُ عِلْمَانِيّاً)؛ (مينوبولس: جامعة مينوسيتا، عام ١٩٩٩)؛ انظر كذلك جوديث بتلر (الذَّاتُ تصف نفسها) (نيويورك: جامعة فوردهام، عام ٢٠٠٥).

(٣) تضمُّ قائمة الباحثين الآخرين الذين تناولوا التَّأثُّرَ العاطفيَّ في الإسلام كلاً من تشارلس هيرشكايند وديفيد ثيرفجل اللذين رفضا الفكرة التي تقول: إِنَّ الأخلاقَ يتعيَّنُ أن تتجذَّرَ في التَّفكيرِ المنطقيِ المُستقلِّ والاستقلالِ الذَّاقيِّ. ولفنا الانتباه إلى الطَّرائق التي تتأثَّرُ بها السَّياساتُ بـ "الأحشائيِّ والدَّاخِلِيِّ". وتحَدِّثُ هيرشكايند في (المنظر الصُّوريُّ الأخلاقيُّ: خطب الكاسيت والفضاءات العامَّة المضادَّة الإسلاميَّة) تحديداً عن كيفيَّة تمكَّن بعض من المسلمين من تطوير قدراتهم على أن يتأثَّروا من خلال الإصغاء إلى الخطب الدِّيْنِيَّة المُسجَّلة.

وسأناقش أولاً نمطين من أنماط التأثير، وأشرح علاقتهما بأنموذج كربلاء، وكذلك العلاقة بين التأثير العاطفي والحقيقة.

وسأنتقل بعد ذلك لمناقشة كيف تسهم مجالس العزاء الاستذكارية التي يقيمها الشيعة الاثنا عشريون في تفعيل أنماط النقل والبث العاطفية التي تؤثر في الأفراد المتقين الطامحين، وتعزيز علاقتهم بآل البيت عليهم السلام.

إن مجالس العزاء لا تسمح للنساء الشيعيات بالتماهي مع آل البيت وتمصهم فحسب، بل تمكنهن كذلك من فهم تجارب المعاناة والألم؛ بوصفها تجارب مشتركة تربطهن بالأولياء والصالحين.

وزيادة على ذلك، سأناقش في هذا السياق أهمية [فعل] الانتظار وأخلاقياته، زيادة على العملية التي تغدو بوساطتها المرأة ملاًية. وسألقي في الختام نظرة على وسائل الإعلام التقيية. لاسيما المراثي. (قصائد العزاء) الحسينية المسجلة ابتغاء فهم الكيفية التي تؤثر فيها "عاطفياً" في الشيعة المتقين، وعلاقتهم بغيرهم من المتقين.

ويطرح الفصل الحالي فكرة تفيد أن الطُقُوس تعمل (ويعتقد الشيعة في أنها تعمل) على وفق نمطين مؤثرين عاطفياً يؤديان دوراً في خلق علاقاتهم مع آل البيت وإدامتها، وبالنتيجة مع الله جلّ جلاله. ويستثير النمطان كلاهما الفكر وتجارب الألم والمعاناة التي تتحوّل إلى الأساس المشترك الذي يمكن بالاستناد إليه تأسيس الحيوات والعلاقات التقيية.^(١)

^(١) مثال على ذلك: تتحدث المملّيات والمشاركات في مجالس العزاء عادة عن أعمال العنف المتواصلة في العراق، إذ تدعو المملّية للعراق وأهله في خاتمة الدعاء. ويخوض الحضور من النساء في الشأن السياسي والحرب والعنف قبل المجلس وبعده. وبيّنت إحدى العلويات بعد انتهاء مجلس العزاء في حسينية زين العابدين أن العراقيين في موقع أفضل من غيرهم يؤهلهم لفهم

التأثر، والعاطفة، والعلاقات التّقيّة:

ترى "سارة أحمد" أنّ أفعال التّحدّث والإصغاء والرّؤية جميعاً "تؤثّر" فينا. فالأحاسيس (التي تعدّها سارة مساويةً للعواطف) تتقلّب بين الأفراد؛ والسبب في تمتّع هذه الأحاسيس بقدرة التأثير، هو احتكاكها بالأسطح وصوغها الأجساد.^(١) وبلاستناد إلى فكرة "سارة" التي تقول: إنّ العاطفة تؤثّر في الأفراد. أرى أنّ العاطفة في مدينة السيّدة زينب تأخذُ نمطين أدائيّين في الأقل! إذ يمكن للعاطفة أن تؤدّي عملاً؛ بمعنى أنّها "تشتغل" على الآخرين وعلى علاقاتهم بغيرهم^(٢) من طريقيّين؛ إذ يمكنها أن (تحرك، تثير، تستثير، تحفّز) (ثار)^(٣) وبقدرتها كذلك على أن (تؤثّر أو تترك انطباعاً) (آثاراً).^(٤) ويشتقّ المعنى الأوّل من جذر الفعل "ث - ا - ر" الذي يؤلّف كذلك جذر كلمة "ثورة".^(٥) وتشغل فكرة الثورة. مثلما هو معلوم. موقعاً محوريّاً في

معاناة آل البيت لأنهم عانوا كثيراً وذاقوا الأمرين في عهد الظلم والطغيان. ملحوظات نقدية، الأحد في الرابع والعشرين من آب، عام ٢٠٠٨.

(١) سارة أحمد (سياسات العاطفة الثقافية) (أدبيرة: جامعة أدبيرة، عام ٢٠٠٤).

(٢) ويهر (قاموس العربية الحديثة) ٦٤٤-٧٤٥. (عمل، تنفيذ، شغل).

(٣) المصدر ذاته، ص ١٠٩.

(٤) المصدر ذاته، ٣-٤.

(٥) آلاف لانتباه اختلاف مفهوم التمرد الذي توحى به ضمناً مفردة "ثورة" وتداخله مع "العصيان" و "الانتفاضة" أو "الانقلاب" [الكلمة الواردة في النص هي (revolution) والترجمة المتعارف عليها لهذه الكلمة هي "ثورة" - المترجمة]. يبدو الاختلاف واضحاً وهو اختلاف في الواجهة والتوكيد حين استعماله. وابتغاء توضيح هذا الأمر، تُسمّى الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩م في اللغة الإنكليزية بـ "الثورة" فحسب؛ في حين يسمّى الحدث ذاته في اللغة العربية بـ "الثورة الإيرانية"؛ وهي تسمية تؤكد الجوانب الغاضبة والحياشة في التمرد / الثورة. مقابل ذلك، تعني مفردة "انقلاب" حرفياً "تغيّر بالقلب" وهو معنى له دلالات أعمق من مثلاً. التمرد الهائج لمراهق مندفع. وعلى الرغم من ذلك، قد نسأل إذا كانت هذه الفكرة تستدعي بالبداية

المذهب الشيعي لا يرتبطاً بها لا بثورة الحسين عليه السلام فحسب، أو وقعة كربلاء عام (٦٨٠ م) بل بالتحضيرات المتواصلة لثورة الإمام المهدي القادمة. أما المفردة الأخرى "آثار" المشتقة من جذر كلمة "أ. ث. ر" والاسم منها "آثار" فتعني "التقاليد" أو "الأثار". ويسهم الكلام الذي يترك "أثراً" في جعل المستمعين يتأملون.^(١)

ولا يحل هذا التداخل بين مفردتي "آثار" و "نار" إلى التفسيرات المزدوجة التي قدمها كل من (كامران آغاي، ولارا ديب، وصوفيا بانديا) فحسب، بل إنه يؤدي دوراً كبيراً في إثرائها وتطويرها.^(٢)

يتحدث هؤلاء الباحثون عن حدوث انتقال مميز من التفسيرات "التقليدية" و "الخلاصية" إلى التفسيرات "الثورية" في النصف الثاني من القرن العشرين. وأود هنا التصريح بتحفظي على وجهة نظرهم بخصوص أنموذج كربلاء، لأنني أعتقد بضرورة تجنب التعامل مع النمطين بوصفهما، بالضرورة "حصريين" على نحو متبادل.

وعلى شاكلة نمطي التأثير العاطفي، ينبغي التعامل مع التفسيرات "التقليدية" و "الثورية" بوصفها مكملّة ومعتمدة على شطريها الآخر؛ وسأبين في المباحث التالية. وكذلك في الفصل الرابع عن عاشوراء. كيف تغلغل نمطا

تفسيراً لغوياً، والتي توافّق أن يستحضرها حزب البعث في سوريا حينما تحيل إلى عملية (تبعث) البلاد.

(١) وفقاً لأمّ زهراء، تؤثر الكلمات تأثيراً كبيراً في القلوب "الريقة". ملحوظات نقدية، الاثنين، في الرابع عشر من كانون الأول، عام ٢٠٠٩.

(٢) آغاي، (شهداء كربلاء)؛ ديب، (الحدائي المأسور)؛ بانديا "المآتم الشيعية النسوية في البحرين".

التأثير والتفسير في مجالس العزاء الحسينية وفي العلاقة بين آل البيت وبين أتباعهم، وكذلك اللطيمات الشيعية والموالد المسجلة والمتلفزة.

ولأهمية الموضوع لدراساتي الحالية، طرحتُ ثنائية "نار" و "أثار" على بساط البحث مع "أم محمد" في الحسينية الزينية بعد انتهاء الدوام في أحد الأيام.

كانت "أم محمد" في منتصف الثلاثينيات من عمرها ولها ثلاثة أولاد، يستخدم أحدهم عجلة للمعاقين. كانت "أم محمد" مدرّسة للغة الإنكليزية في إحدى المدارس الثانوية قبل أن تقع في الحب وتزوج وتترك العمل؛ وقد أحبّت "أم محمد" الفكرة، فقالت: (تشمّل مجالس العزاء الحسينية على النمطين، إذ تترك الدروس التي تُقدّم فيها أثراً عميقاً وتجعل الحاضرين يفكّرون، أمّا النعي أو اللطيمات فتشيرهم وتهيجهم).^(١) كما ترى "أم محمد" أن نمطي التأثير العاطفي كليهما هما وجهان لعملة واحدة.

وعلى شاكلة ذلك، بينت كل من "أم زهراء" والعلوية "مرضية" وهما من الملايات البارزات اللائي يشاركن بانتظام في المجالس في مدينة السيّد زينب ابتغاء توكيد دور العاطفة في مجالس العزاء؛ أن الغاية التي تطمح إلى تحقيقها هي التأثير في الحاضرات وجعلهنّ يبكين أو في الأقلّ يتظاهرنّ بالبكاء (التباكي).^(٢) وادّعت "أم زهراء" والعلوية "مرضية" أن واجبهنّ الأخلاقيّ يحثّ عليهنّ جعل الحاضرات يتجاوبنّ ويبكين! لأنّ فعل البكاء يساعد في

(١) ملاحظات نقدية، الاثنين، في الرابع عشر من كانون الأوّل، عام ٢٠٠٩.

(٢) قارن مع محمود الشيرازي (الشريعة الإنسانية) (بيروت: دار الصادق، عام ١٩٩٨)، ٦٠-٦٢.

ترقيق قلوب الشيعة^(١) وبحسب ما ذكرته "أم زهراء" فإن المرأة الوحيدة التي لا تقتنع أو تتأثر بالنصح والخطب الدينية هي المرأة ذات (القلب القاسي). ويعد فرعون في القرآن الأنموذج الأسمى للطغيان والتكبر الذي وصفه الله عز وجل بقاسي القلب مرتين، المرة الأولى في سورة يونس حيث يقول: (وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ).^(٢) والمرة الثانية في سورة غافر، حيث يقول: (الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٌ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنْ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ).^(٣)

وتدل محاولة الفرد ترقيق قلبه وتعزيز درجة تجاوبه مع الطقوس المؤثرة عاطفياً "مجازياً" على عملية تحويله إلى فرد متق ومتدين. ولهذا، يتعين على الشيعة المتقين. وفقاً لوجهة النظر هذه. تعزيز الإحساسات، من مثل الانفتاح على تأثيرات مجالس العزاء الحسينية الطقوسية والتجاوب بفاعلية معها.^(٤)

(١) ملحوظات نقدية، الأحد، في الثامن عشر من كانون الثاني، عام ٢٠٠٩ والثلاثاء، في العشرين من كانون الثاني، عام ٢٠٠٩. قارن مع صبا محمود، (سياسات التقوى).

(٢) الآية (٨٨).

(٣) الآيات (٣٧، ٢٥).

(٤) يهدر لفت الانتباه إلى أن مجالس الموالد التي تُقام بمناسبة ولادة أحد الأئمة المعصومين أو السيدة زينب، لا تشتمل على إلقاء المحاضرات (التي تساعد المشاركين في التأمل). وحينما سألت أم زهراء عن ذلك، أجابتنى أنه ليس ثمة من يرغب في التفكير في المناسبات السعيدة. وينطوي التفكير بحسب ما علمت. في هذه الحالة. على مضمونات جانبية تخص تأمل الأحداث

وبحسبِ مَا لحظْنَا أعلاه، نصَحَتْ "أَنِيسَةُ سلمى" طَالِبَاتِهَا بِالتَّأَنِّي وَالْحَذَرِ عِنْدَ اخْتِيَارِ الصَّدِيقَاتِ، لِأَنَّ المَحِيطِينَ بِنَا "يُؤَثِّرُونَ" فِينَا وَيَجْعَلُونَنَا "نَفَكَّرَ" وَ "يَحْرُضُونَنَا".

وتشبهُ فِكْرُهُ "أَنِيسَةُ" عَنِ الصَّدَاقَةِ الَّتِي يَسَاعِدُ بِمُوجِبِهَا الصَّدِيقَانِ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ فِي تَعْزِيزِ إِيْمَانِهِمَا وَمَوَاصَلَةِ السَّيْرِ فِي طَرِيقِ الصَّلَاحِ، وَهِيَ فِكْرُ الفِيلَسُوفِ اليُونَانِيِّ أَرِسْطُو عَنْهَا. إِذْ يَرَى أَرِسْطُو أَنَّهُ ثَمَّةُ ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ مِنَ الصَّدَاقَةِ (Philia): أَوَّلُهَا الصَّدَاقَةُ الْمُسْتَمَدَّةُ مِنَ الْمُنْفَعَةِ الْمُتَبَادَلَةِ، وَهِيَ الَّتِي تَتَحَدَّدُ قِيَمَتُهَا فِي نَظَرِ الْفَرْدِ بِمَقْدَارِ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَجْنِيَ مُقَابِلَ مَا يُعْطِي؛ وَثَانِيهَا، الصَّدَاقَةُ مِنْ أَجْلِ الْمَتْعَةِ، وَتَتَحَدَّدُ قِيَمَتُ هَذَا النُّوعِ مِنَ الصَّدَاقَةِ بِدَرَجَةِ الشُّعُورِ بِالْأَنْسِ وَالبَهْجَةِ عِنْدَ الْحَدِيثِ مَعَ الطَّرَفِ الْآخَرِ؛ أَمَّا ثَالِثُهَا فَهِيَ صَدَاقَةُ النَّاسِ الطَّيِّبِينَ الَّذِينَ يُحِبُّونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا لِأَنَّهُمْ طَيِّبُونَ^(١). وَتَبَعًا لِذَلِكَ، فَإِنَّ الشَّكْلَ

الحزينة وتذكرها. ملاحظات نقدية، الأحد، في الحادي والعشرين من تشرين الثاني، عام ٢٠٠٩؛ ويهر (قاموس اللغة العربية الحديثة) ٧٢٤-٧٢٥.

(١) مكنتير (بعد الفضيلة) ص ١٥٨. أودّ تبيان التالي فيما يتصل بترجمة النص الأصلي المعني بالنوع الثالث من الصداقة، إذ يمكن ترجمته كما هو إلى (أما النوع الثالث من الصداقة فيُستمد من الاهتمام المشترك بالأشياء التي تعود ملكيتها لكليهما ومن ثم فهي لا تعود حصرياً لأي منهما). ولكنني اخترت العبارة الواردة في متن النص المترجم بعد مراجعتي عددا من المصادر المتوفرة في شبكة الأنترنت. وأودّ أن أضيف التالي إلى ما ذكر أعلاه لأهميته (يرى أرسطو أن صداقة المنفعة وصداقة المتعة يمثلان أنواع الصداقة غير الكاملة أو العرضية، لأنها تخضع لتأثير المتغيرات الظرفية، ولا تدوم إلا بدوام المنفعة أو المتعة. وأما صداقة الأخيار الذين يحب بعضهم بعضا لطبيعتهم فهي صداقة الفضيلة التي هي أتم أنواع الصداقة لأن كل طرف يريد الخير للآخر ولا يقصد من وراء ذلك مصلحة خاصة، هذا إضافة إلى أن كل طرف يجلب المنفعة والمتعة للطرف الآخر من غير أن تكون المنفعة أو المتعة هي الهدف الأساسي المتوخى من الصداقة) المصدر: أحمد أغبال، مفهوم الصداقة عند أرسطو.

المثالي من الصداقة، هو الشكل الذي يجتمع فيه الأصدقاء (أطراف العلاقة) على هدف مشترك، هو السعي في سبيل الله وعرز الفضائل والتقوى والورع.^(١) ويتعين على الأصدقاء . وفقاً لأنيسة سلمى . مساعدة أحدهم الآخر في السعي لكي يكونا أكثر ورعاً وتديناً . وعلى شاكلة وجهات النظر الشيعة أمثال وجهة نظر سلمى، تحظى أشكال الصداقة الأرسطوطاليسية المثالية وعملية العرز الناجح لفضائل محددة بأهمية بالغة إذا أراد الفرد الحصول على السعادة والرضا والقناعة البشرية.

وأودد لفت الانتباه إلى أن فكرة الصداقة الأرسطوطاليسية تشدد على السعي المشترك لـ "التحلي" بالفضائل العامة وتضعه في منزلة أعلى من معرفة الأصدقاء أحدهم الآخر؛^(٢) وبكلمات أخرى: ترتبط الفكرة التي تقول: إن على الأصدقاء معرفة أحدهم الآخر أيديولوجياً بتصورات مفهوماتية محددة عن الانفرادية التي تفترض وجود ذات جوهرية ينبغي التفتيش داخلها لنيل السعادة.^(٣) ويحظى التأكيد على الغايات التفتية المشتركة في مدينة السيدة زينب بالأولوية، ويتقدم على الفكرة التي تقول: إن على الأصدقاء أن يعرفوا "أسرار" بعضهم.

الاحقائق المتصنعة:

(١) ملحوظات عقلية، محاضرات عن (أصول الكافي) الأربعاء، ٢٨ تشرين الأول عام ٢٠٠٩.

(٢) قارن مع صبا محمود (سياسات التقوى).

(٣) قارن مع أدث زانتو علي - ديب، "الحوار بين ديني في سوريا: السياسة والأخلاق وسوء التواصل" مجلة (Political Theology) ٩، العدد ١ (٢٠٠٨): ٩٣-١١٣؛ أدث زانتو، "بيداغوجيات التدين: كتب الأطفال الدينية، الأخلاق وبروز الفرد المتقي" سمبوزيا: مجلة الطلبة الخريجين في مركز دراسة الأديان في جامعة تورنتو، العدد ١ عام (٢٠٠٩): ٦٢-٧٨.

كُنْتُ أَنَا وَأَمَّالٌ أَثْنَاءَ تَوَجُّهِنَا رَاجِعَتَيْنِ إِلَى الْمَنْزِلِ؛ كُنَّا، نَشْتَرِي شِطَائِرَ "فَلَافِلَ" أَوْ "كَبَابَ" بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْآخِرِ مِنَ الْمَحَالِّ الصَّغِيرَةِ الْمُصْطَفَّةِ بِمُحَاذَةِ الشَّارِعِ. وَيِيْدِي أَصْحَابُ الْمَحَالِّ عَادَةً رَغْبَةً فِي الْحَدِيثِ مَعَنَا وَسَوَّالِنَا عَنْ مَوَاطِنِنَا، وَكُنْتُ أَجِيبُ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ عَادَةً بِأَنِّي مِنْ أَلْمَانِيَا؛ وَهُوَ جَوَابٌ صَحِيحٌ وَمَحَادُّ سِيَاسِيًّا،^(١) وَكَانَتْ أَمَّالٌ تَوَاجُهُ صُعُوبَةً أَكْبَرَ فِي الْإِجَابَةِ مِمَّا أَوَاجِهُهُ! إِذْ كَانَ النَّاسُ يَفْتَرِضُونَ عَادَةً أَنَّهَا مِنَ الْخَلِيجِ، لِأَنَّهَا كَانَتْ تَرْتَدِي النِّقَابَ أَوْ غِطَاءَ الْوَجْهِ، وَيَعْنِي افْتِرَاضُهُمْ هَذَا . عَلَى وَجْهِ الْعُمُومِ . أَنَّهُمْ سِيفَعُونَ أَسْعَارَ الْبَضَائِعِ، وَلِهَذَا كَانَ مِنْ مَصْلَحَتِهَا إِخْبَارُهُمْ أَنَّهَا مِنْ سُورِيَا! وَعَلَى الرُّغْمِ مِنْ ذَلِكَ، لَمْ تَكُنْ أَمَّالٌ تَرْغَبُ فِي إِخْبَارِهِمْ أَنَّهَا فِلَسْطِينِيَّةٌ مِنَ السُّكَّانِ الْمَحَلِّيِّينَ؛ نَشَأَتْ وَتَرَبَّتْ فِي مَنْطِقَةِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ، وَتَشِيعَتْ وَتَزَوَّجَتْ بِرَجُلٍ غَيْرِ عَرَبِيٍّ. لَقَدْ كَانَتْ أَمَّالٌ تَخْشَى مِنَ الْخَوْصِ فِي هَذَا الْأَمْرِ، وَمِنْ ثَمَّ شَعُورَ أَهْلِهَا الَّذِينَ لَمْ يَكُونُوا رَاضِينَ عَنْ زَوَاجِهَا بِالْأَنْزِعَاجِ، وَلِهَذَا كَانَتْ تَمِيلُ . عَلَى وَجْهِ الْعُمُومِ . إِلَى الْكَذْبِ بِشَأْنِ هَذَا الْأَمْرِ ابْتِغَاءً تَلَافِي الْحَرْجِ، فَكَانَتْ تَخْبِرُهُمْ أَنَّهَا سُورِيَّةٌ مِنْ مَدِينَةٍ صَغِيرَةٍ أُخْرَى تَقْطُنُهَا أَكْثَرِيَّةٌ شِيعِيَّةٌ، وَعِنْدَمَا كُنْتُ أَسْأَلُهَا عَنْ السَّبَبِ الَّذِي يَدْفَعُهَا إِلَى الْكَذْبِ عَلَى أَصْحَابِ الْمَحَالِّ، كَانَتْ تَقُولُ لِي: إِنَّهَا لَا تَرْغَبُ فِي مَنَحِ النَّاسِ فُرْصَةَ التَّحَدُّثِ عَنْهَا أَوْ عَنْ عَائِلَتِهَا، وَبَيَّنْتُ أَنَّهَا لَيْسَتْ مُضْطَّرَّةٌ لِقَوْلِ الْحَقِيقَةِ لِهَوْلَاءِ الْبَائِعِينَ، فَلَهُمُ الْحَقُّ فِي طَرَحِ السُّؤَالِ وَلَهَا الْحَقُّ فِي الْكَذْبِ!^(٢)

(١) لو أخبرتهم بأني من الولايات المتحدة أو من كندا، فإن ذلك قد يؤدي إلى دخولي في نقاش مُطَوَّلَ معهم بشأن الحرب المستمرة في العراق وأفغانستان أو حتى الدَّعم الأمريكي لإسرائيل.

(٢) ملحوظات نقدية، الأحد في الخامس من كانون الثاني، عام ٢٠٠٩.

وبقولٍ مختلفٍ: يعني التوكيدُ على تأثيرِ الحديثِ على حسابِ مضمونهِ الحقيقيِّ والصَّحيحِ أنَّ قولَ الحقيقةِ لا يحملُ الوزنَ ذاتهَ في المذهبِ الشَّيعيِّ كما في المسيحيَّةِ الحديثةِ المبكِّرةِ. في سبيلِ المثالِ. وفي الأقلِّ وفقاً لتفسيرِ الفيلسوفِ الفرنسيِّ (ميشيل فوكو . Michel Foucault).^(١) تَعَيَّنَ على الشَّيعةِ لأنَّهم أقلِّيَّةٌ بينَ المسلمينَ وعانُوا الاضطهادَ والمطاردةَ في بعضٍ مِنَ الأحيان... تَعَيَّنَ عليهم إنكارُ هويَّتِهِمْ أو كتمُها ابتغاءَ البقاءِ على قيدِ الحياة! وتبعاً لذلك، لا يعتقدُ الشَّيعةُ أنَّ الحقيقةَ هيَّ الشَّيءُ الذي "يحرِّرُ" الفردَ، ولا يعني ذلك أنَّ الحقيقةَ الدِّنيَّةَ والسَّعيَ لنيلِ هذا النوعِ مِنَ الحقيقةِ غيرُ مهمَّينِ، بل إنَّه يقدِّمُ الحقيقةَ على أنَّها ليستَ تلكَ "الحقيقةُ" التي ينبغي الكشفُ عنها، بل إنَّها. مثلاً لحظنا أعلاه. الحقيقةُ التي ينبغي التَّوصُّلُ إليها.

وتُعرفُ فكرةُ إخفاءِ الفردِ هويَّتهِ الشَّيعيَّةِ أو حتَّى إنكارِها في حالِ التَّعرُّضِ للخطرِ على نطاقٍ واسعٍ بـ "التَّقِيَّةِ" أو "الكتْمَانِ".^(٢) ويحرِّصُ الجميعُ في مدينةِ السَّيِّدةِ زينب: شيعةٌ وسنةٌ، عراقيَّينَ وفلسطينيَّينَ؛ وغيرُهم الكثيرُ على الاحتفاظِ بالأسرارِ ابتغاءَ حمايةِ خصوصياتِهِمْ وسمعتِهِمْ وأمنِهِمْ الشَّخصيِّ! وعلى الرُّغمِ مِنْ ذلك، يَسْأَلُ النَّاسُ أَحدهُمْ عَنِ الْآخِرِ أسئلةً مباشرةً وحتَّى تفصيليَّةً، وبحسبِ ما ذكرتهُ آمالُ: للنَّاسِ الحقُّ في السُّؤالِ، وَمِنْ الفِظاظَةِ عَدَمُ

(١) بينما يؤكِّدُ المذهبُ الشَّيعيُّ على التَّقِيَّةِ، يركِّزُ فوكو على الاعترافِ.

(٢) قارن مع مازيا دكَّاك "التَّخْفِي في عَرِّ النَّهَارِ: الأهميَّةُ العمليَّةُ والعقائديَّةُ لممارسةِ التَّقِيَّةِ في الإسلامِ الشَّيعيِّ" مجلَّةُ أكاديميَّةِ الأديانِ الأمريكيَّةِ ٧٤، العدد ٢ (٢٠٠٦) ٣٢٤-٣٥٥. الألفاظُ للاتباعِ ارتباطُ مُفردةِ "التَّقِيَّةِ" اتِّمولوجيًّا {كلمةٌ يونانيَّةٌ مركبةٌ تعني: علمُ الحياة. المقوِّمُ اللُّغويُّ} مع مُفردةِ "تقوى" التي تُترجمُ، عمليًّا إلى "ورع" أو "تدبُّن" ولكنها تحملُ في الوقتِ ذاته مضموناتِ "الحفاظِ على" أو "الدِّفاعِ عن". ويهر (قاموسُ اللغةِ العربيَّةِ الحديثةِ) ١٠٩٤-١٠٩٥.

الإجابة عَنْ أَسْئَلَتِهِمْ، وَلَكِنِّي أَمْتَلُكَ الْحَقَّ كَذَلِكَ فِي كِتَابِي [الكذبِ بِشَأْنِ] هَوَيْتِي؛ مِنَ الْأَفْضَلِ الكذبُ، وَهُوَ تَصَرُّفٌ مُهَذَّبٌ، عَوِضًا عَنْ عَدَمِ الإِجَابَةِ عَنْ الْأَسْئَلَةِ.

(يَجِبُكَ النَّاسُ هُنَا عَلَى الْكَذْبِ!) لَمْ تَكُنْ "أُمُّ أَوْسٍ" الْعِرَاقِيَّةُ اللَّاجِئَةُ فِي سُورِيَا الْوَحِيدَةُ الَّتِي صَرَّحَتْ لِي بِذَلِكَ،^(١) وَقَدْ اضْطَرَّتْ "أُمُّ أَوْسٍ" إِلَى تَرْكِ مَنَزْلِهَا فِي بَغْدَادَ بَعْدَ تَضْيِيقِ جَيْشِ الْمَهْدِيِّ الْخُنَاقَ عَلَى عَائِلَتِهَا، لِأَنَّ زَوْجَهَا الرَّاحِلَ كَانَ سَيِّئًا وَهَيَّ شَيْعِيَّةً؛ وَأَخْبَرْتَنِي قَصَّتْهَا عَلَى الرُّغْمِ مِنْ أَنَّهَا لَمْ تَكْشِفْ عَنْهَا لِأَحَدٍ آخَرَ فِي سُورِيَا.

بَدَأْتُ "أُمُّ أَوْسٍ" فِي حُضُورِ مَجَالِسِ الْعِزَاءِ وَالصُّفُوفِ الدَّرَاسِيَّةِ فِي حَوْزَةِ الصَّدْرَيْنِ الَّتِي تَمَثِّلُ جِزَاءً مِنَ الْمُنْظَمَةِ الَّتِي اضْطَرَّتْهَا إِلَى مُغَادَرَةِ مَنَزْلِهَا! كَمَا لَوْ أَنَّهَا تَوَدُّ اخْتِبَارَ صَبْرِهَا وَمَدَى قُدْرَتِهَا عَلَى التَّحَمُّلِ أَثْنَاءَ وَجُودِهَا فِي سُورِيَا. وَحِينَمَا سَأَلْتُهَا كَيْفَ تَمَكَّنَتْ مِنَ التَّزَامِ الصَّمَتِ - الْعَيْشِ فِي حَالَةِ الْكَذْبِ - قَالَتْ: إِنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي لَهَا فَعْلٌ ذَلِكَ لِأَنَّهَا امْرَأَةٌ "شَرِيفَةٌ" وَ "نَبِيلَةٌ" وَرَبَّةُ مَنَزَلٍ، وَكَانَ يَتَعَيَّنُ عَلَيْهَا أَدَاءُ عِدَّةِ أَدْوَارٍ عَلَى أَيَّةِ حَالٍ: مَنْظَفَةٌ، وَأُمٌّ، وَمُدْرَسَةٌ، وَطَبَّاحَةٌ، وَمُرْفَهَةٌ، وَعَاشِقَةٌ!.

وَلَا تَوَلَّفُ الْفُجُوءَاتِ [التَّكْتُمُ عَلَى الْحَقِيقَةِ] مُشْكَلَةً فِي ذَاتِهَا حِينَمَا تَتَعَلَّقُ "الْحَقِيقَةُ" الَّتِي يَسْعَى النَّاسُ إِلَى الْحُصُولِ عَلَيْهَا؛ خُصُوصًا فِي سِيَاقِ إِقَامَةِ عِلَاقَاتِ الصَّدَاقَةِ بِالْغَايَاتِ الْمَثَالِيَّةِ؛ بـ "غَايَةِ" وَرِعَةٍ وَتَقِيَّةٍ تَفُوقُ فِي أَهْمِّيَّتِهَا غَايَةَ

(١) مَلَحُوظَاتُ نَقْدِيَّة، الْجُمُعَةُ، فِي الثَّامِنِ مِنْ آبِ عَامِ ٢٠٠٨.

كشف الحقائق "السريّة" عَنْ الشَّخْصِ نَفْسِهِ أَوْ عَنْ الْمُتَرَبِّينَ.^(١) ويُلاحظُ، في هذا السِّياقِ، أنَّ تحويلَ المحورِ الذي تدورُ حولهُ الأحاديثُ والعلاقاتُ إلى الحقائقِ والفضائلِ والمثُلِ الدِّنيَّةِ يسمحُ للأفرادِ بأنَّ يتصرّفوا كما لو أنَّهم يمثلونَ لقيمٍ مُحدَّدةٍ، ويحتفظونَ في الوقتِ ذاتهِ بخصوصيّاتهم، ويلتزمونَ الصَّمتَ بشأنِ عيوبِهِم ونقائصِهِم،^(٢) وتمثِّلُ هذهُ الأحاديثُ مؤشراً على طبيعةِ الأخلاقِ والآمالِ والأحلامِ الشَّائعةِ في مناطقٍ مثلِ هذهِ.

ويُعدُّ الكذبُ بشأنِ الحياةِ الشَّخصيَّةِ عادةً كذبةً. بيضاءً. أو ذنباً صغيراً. وبيَّنت "غدير" هذا الصِّدق، وهي شابةٌ سنيَّةٌ مُتقنَّةٌ في العشريَّينِ من عمرِها أنَّه: مِنْ الأفضَلِ الكذبُ على منحِ الآخرينَ فرصةً للنَّميَّةِ والقبولِ والقالِ.^(٣) وهي ترى. في اتِّفاقٍ واضحٍ معَ أمِّ أوُسٍ. إمكانَ إيجادِ مسوِّغٍ أخلاقيٍّ يبرِّرُ فعلَ "الكذبِ" في حالِ أسهمَ هذا الفعلُ في حمايَةِ سمعةِ الفردِ، ومنعِهِ مِنَ التَّحوُّلِ إلى مادَّةٍ دسمةٍ تلوكُّها الألسُنُ. وقولُ كذبةٍ بيضاءٍ (أو اللُّجوءُ للتَّقيَّةِ ابتغاءَ حمايَةِ الفردِ) قد يتركُ أثراً أقلَّ وطأةً على علاقاتِ الفردِ وسمعته؛ إذ إنّها قد تثيرُ وتبيحُ وتحركُ الأفرادَ والعلاقاتَ بدرجةٍ أقلَّ مِنْ قولِ الحقيقةِ "كاملاً". ولهذا السَّببِ، تمثِّلُ النَّميَّةُ لا الكذبُ بشأنِ تفاصيلِ حياةِ الفردِ الشَّخصيَّةِ وهويَّتهِ

(١) قارن مع ميشيل دي سيرتو (ممارسة الحياة اليوميّة) ترجمة ستيفن رندل (بيركلي: جامعة كاليفورنيا، عام ١٩٨٤) ١٨٣-١٨٤.

(٢) أوضحت ليزا ويدن (١٩٩٩) أنَّه يتعيَّن على الجميع في سوريا أن يتصرّفوا "كما لو أنَّهم يؤمنون بالدَّعاية البعثيَّة". ويدن (التياسات الهيمنة: السِّياسة والبلاغة والرَّموز في سوريا المعاصرة) (جامعة شيكاغو، عام ١٩٩٩).

(٣) ملحوظات نقدية، صيف عام ٢٠٠٧.

الحقيّة فعلاً منفراً أخلاقياً،^(١) وهي . خلافاً لاستيعابِ المثلِ التّقيّة . أي الكذبُ بشأنِ الدّاتِ وإنكارِ العيوبِ والنّقائصِ الأخلاقيّة . تُعدّ أحد أنواع الكلامِ المدمّرة التي قد تؤدّي إلى تدميرِ العلاقاتِ وحتىِ الحيوّاتِ الأسريّة.^(٢) وبسببِ إدراكِهم الآثارَ السّليبيّة التي يخلّفها الكلامُ، تركّز المدرّساتُ في الصّفوفِ الدّراسيّة الصّيفيّة في الحوزة الرّزينيّة على التّحذيرِ مِنَ الاشتراكِ في فعلِ النّميّة مِنْ خلالِ رواية ونقلِ أحاديثِ النّاسِ بعضِهِمْ عَنْ بعضٍ، أو الإصغاءِ إليها أو إلى الموسيقا.^(٣) وتحدّرُ العلويّة "عالية" مدرّسة مادّة الفقه في

(١) حتّى في الوصايا العشر في سفر الخروج وسفر التّثنية، يُبلغ المؤمنون ألا يصغوا إلى "الشّهادة الكاذبة" ضدّ الآخرين الموازية للنّميّة والخوض في القيل والقال، ولكن ليس الكذب بشأنِ هويّة الفرد الشخصيّة.

(٢) أكثر ما يعتمد الشيعة عليه في الاستدلال على مشروعيّة التّقيّة قول الله تعالى: (لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ) ٢٧ آل عمران. كذلك يبيح السنّة الكذب في حالة ما إذا كان طريقاً للوصول إلى خير، واستدلوا على ذلك بالقرآن والحديث؛ فمن القرآن قول الله تعالى: (إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) ١٠٥ . ١٠٦ النّحل. التي نزلت بعد الذي حدث مع الصّحابي "عمار بن ياسر" يوم أخذه الوثنيون وصاروا يعذبونه إلى أن نطق بالرجوع عن الإسلام والكفر به؛ ثم أتى إلى النّبي عليه السّلام يخبره. فنزلت الآية؛ ثم قال له النّبي عليه السّلام: إن عادوا لمثلها فعد. أي إن أرادوا تعذيبك إن لم تنطق بالكفر فانطق. وأمّا ما استدلوا به من الحديث فهو ما رواه الإمام البخاريّ من أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم سُمع يقول: (ليس الكذاب الذي يصلح بين النّاس فينمي خيراً أو يقول خيراً) وزاد الإمام مسلم في صحيحه على هذا الحديث أنّ النّبي محمّداً عليه السّلام لم يسمح (في شيء ممّا يقول النّاس) أنّه كذب إلا في ثلاث: الحرب، والإصلاح بين النّاس، وحديث الرّجل امرأته وحديث المرأة زوجها). غير أنّ ذلك لا يندرج تحت مُسمّي التّقيّة حيث لا وجود لمثل هذا المصطلح عندهم وإنّما يُوصف بـ "الكذب المحمود". يُشار إلى أن كتابي البخاريّ ومسلم بما فيها من أحاديث مروية عن النّبي محمّد عليه السّلام هما عند المسلمين السنّة المصدر الرّئيس المُعتمد عليه في التّشريع بعد القرآن الكريم. (المقوم اللّغوي).

(٣) ملحوظات نقدية، الثلاثاء، ٨ تموز عام ٢٠٠٨.

الحَوْزَةُ الزَّيْنِيَّةِ، و "أُم حيدر" المديرة الطَّالِبَاتِ عَادَةً مِنْ اقترافِ هذا الفعلِ مِنْ خلالِ الاستشهادِ بِالآيَةِ مِنْ سُورَةِ الْحَجَرَاتِ: (وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا).^(١) مُشِيرَةً إِلَى أَنَّ اللَّهَ يُعَاقِبُ مَنْ يَغْتَابُ عِقَابًا صَارِمًا لِقِيَامِهِ. **مَجَازِيًا**. بِقَتْلِ إِنْسَانٍ آخَرَ وَتَنَاوُلِ لَحْمِهِ.^(٢) وَبَيَّنَّتِ الْعُلُوبَةُ "عَالِيَةُ" التَّشَابُهَ بَيْنَ الْغِيْبَةِ وَبَيْنَ الْمَوْسِيقَا **لِجَهَةِ قَدَرِئِهِمَا عَلَى الْإِثَارَةِ وَالتَّهْمِجِ**؛^(٣) إِذْ يَتْرُكُ كِلَاهُمَا أَثْرًا سَيِّئًا بَالِغًا فِي الْمَسْتَمْعِينَ وَيُوقِظُ مَشَاعِرَ غَيْرِ مُحْتَرَمَةٍ. وَتَذَكَّرْنَا "عَالِيَةُ" هُنَا بِأَنْيَسَةِ سَلَمَى الَّتِي قَالَتْ: إِنَّ الْغِيْبَةَ وَالْمَوْسِيقَا كِلَاهُمَا تَتْرَكَانِ أَثْرًا وَتُؤَثِّرَانِ فِي النَّاسِ،^(٤) وَبِقُدْرَةِ الْأَصْدِقَاءِ فَعَلَ الشَّيْءُ ذَاتِهِ، أَيْ التَّأْثِيرُ فِي أَصْدِقَائِهِمْ، وَبِقُدْرَةِ الصَّدِيقِ سِوَاءٍ أَكَانَ مَعْصُومًا أَمْ غَيْرَ مَعْصُومٍ أَنْ يُؤَدِّيَ دَوْرًا إِمَّا فِي تَعْزِيزِ تَدْنِي الْفَرْدِ وَتَقْوَاهُ وَإِمَّا فِي زَعَزَعَتِهِمَا، وَيُمْكِنُ لِلْأَفْرَادِ حِمَايَةُ خُصُوصِيَّتِهِمْ وَأَمْنِهِمْ مِنْ خِلَالِ الْإِشْرَاقِ فِي الْحَدِيثِ عَنِ الْمُثَلِّ الدِّيْنِيَّةِ وَالتَّعَرُّضِ الدَّائِمِ لِلْمُؤَثَّرَاتِ التَّقِيَّةِ.

(١) الآية (١٢). مَلَحُوظَاتُ نَقْدِيَّة، الثَّلَاثَاء، ٥ آبَ عَامِ ٢٠٠٨ وَالسَّبْتُ التَّاسِعُ مِنْ آبَ عَامِ ٢٠٠٨.

(٢) يُمْكِنُ هُنَا . بِطَرِيقَةِ أَفْضَلِ . الْإِسْتِشْهَادِ بِآيَةٍ أُخْرَى تَتَحَدَّثُ عَنْ قِبَاحَةِ فِعْلِ "النَّمِيمَةِ" تَحْدِيدًا وَهِيَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: (وَلَا تُطْعِ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ هَمَازٌ مَشَاءُ بَنِيْمٍ) ١١٠. الْقَلَمِ. لِأَنَّ الْغِيْبَةَ كَمَا هِيَ بِالتَّعْرِيفِ: ذِكْرُ مَسَاوِي الشَّخْصِ لِلْغَيْرِ فِي غِيَابِهِ. وَأَمَّا النَّمِيمَةُ فَهِيَ نَقْلُ كَلَامِ الْأَشْخَاصِ السَّيِّئِ عَنْ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ. (الْمَقْوَمُ اللَّغَوِي).

(٣) مَلَحُوظَاتُ حَقْلِيَّة، السَّبْتُ، ١٢ تَمُوزَ، عَامِ ٢٠٠٨.

(٤) الْمُفْرَدَاتُ الْعَرَبِيَّةُ هِيَ الْمُفْرَدَاتُ الَّتِي اسْتَعْدَمَهَا الْمُحَاوِرُونَ. قَارَنَ مَعَ سَارَةِ أَحْمَدِ، (سِيَاسَاتُ الْعَاطِفَةِ الثَّقَافِيَّة) (نِيُيُورْك: رُوتَلِج ٢٠٠٤) ١-١٩.

النَّدْبُ الطُّقُوسِيُّ:

تُعَدُّ مَجَالِسُ الْعَزَاءِ الْأُسْبُوعِيَّةُ إِحْدَى أَهَمِّ الْمَهَارَسَاتِ الْأَخْلَاقِيَّةِ وَالْعَاطِفِيَّةِ الْمُؤَثِّرَةِ فِي مَدِينَةِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ، حَيْثُ يَنْدُبُ الشَّيْعَةُ وَفَاءَ الْأُئَمَّةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ (لَا سِيَّامَا الْإِمَامِ الْحُسَيْنِ). وَوَفْقًا لِآيَةِ اللَّهِ مُحَمَّدٍ الشَّيرَازِيِّ، أَخِي السَّيِّدِ حَسَنِ الشَّيرَازِيِّ، مُؤَسِّسِ الْحَوْزَةِ الزَّيْنَبِيَّةِ، فَإِنَّ أَهَمِّيَّةَ هَذِهِ الْمَجَالِسِ تَكْمُنُ فِي دَوْرَهَا فِي نَقْلِ الشَّعَائِرِ الْحُسَيْنِيَّةِ.^(١)

وَالشَّعَائِرُ، هِيَ جَمْعُ مُفْرَدَةٍ "شَعِيرَةٍ" الْمُشْتَقَّةُ مِنَ الْفِعْلِ "شَعَرَ" الَّذِي يَعْنِي فِي الْعَرَبِيَّةِ (عَرَفَ، أَحَسَّ بِدَاخِلِهِ، تَخَيَّلَ، أَدْرَكَ).^(٢) وَهِيَ تَشِيرُ بِوصفِهَا اسْمًا إِلَى كُلِّ مِنَ الْمَعْرِفَةِ الْحَدِيثِيَّةِ وَالشَّعْرِ. وَقَدْ كَانَ إِلْقَاءُ الشَّعْرِ فِي مَنْطِقَةِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي مَرَحَلَةٍ مَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَالْمَذْهَبِ الشَّيْعِيِّ الْمُبَكِّرِ يَحْمِلُ "ثِقْلَ التَّارِيخِ" وَقَدْ يَتَجَاوَزُ هَذَا الْأَمْرُ حَدَّ عَدِّهِ وَجَهًا لِلتَّارِيخِ؛ مِنْ خِلَالِ تَذْكِيرِ الْمُسْتَمْعِينَ بِالْأَحْدَاثِ الْمَاضِيَةِ وَالْمَسْئُولِيَّاتِ وَالتَّدَاعِيَّاتِ النَّاجِمَةِ عَنْهَا.^(٣) وَهَذَا مَا فَعَلَتْهُ السَّيِّدَةُ زَيْنَبُ الَّتِي أَذَاعَتْ أَنْبَاءَ مَقْتَلِ أَخِيهَا الْإِمَامِ الْحُسَيْنِ مِنْ خِلَالِ إِلْقَائِهَا الْقَصَائِدَ الْحُسَيْنِيَّةَ الَّتِي تَدَّعِي النِّسَاءَ الشَّيْعِيَّاتُ فِي السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ أُمَّهُنَّ يُعَذِّنَ تَجْسِيدَهَا فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ. وَمِنْ خِلَالِ اسْتِخْدَامِ طَرِيقَةٍ مُعَيَّنَةٍ فِي الْقِرَاءَةِ وَالنَّعْيِ، فَإِنَّ زَيْنَبَ لَا تَعْمَلُ فِي نَقْلِ الْآثَارِ^(٤) أَوْ الْأَخْبَارِ وَتَبْلِيغِ الْمُسْتَمْعِينَ

(١) مُحَمَّدُ الشَّيرَازِيُّ (الشَّعَائِرُ الْحُسَيْنِيَّةُ) (بيروت: دار السَّاقِي، عام ١٩٩٨).

(٢) ويهر (قاموس اللغة العربيَّة الحديثة) ٤٧٣-٤٧٤.

(٣) قَارَنَ مَعَ السَّيِّدِ أَكْبَرَ حَيْدَرَ (إِحْيَاءُ كَرِبْلَاءِ: الْمُحَرَّمُ فِي الذَّاكِرَةِ الْجَنُوبِ الْأَسْويَّةِ) (نيويورك: جامعة أكسفورد، عام ٢٠٠٦).

(٤) الْمُفْرَدَةُ مُشْتَقَّةٌ مِنْ "أ. ث. ر." يُوَثِّرُ، يُجَبِّرُ أَوْ يَنْقُلُ، لِحُظِّ أَنْ الْآثَارَ وَالْإِنْطِبَاعَاتِ مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْفِعْلِ ذَاتِهِ. ويهر، قاموس اللغة العربيَّة الحديثة ٣-٤.

المتقين بها فحسب، بل إنها تحرضهم وتثيرهم^(١) من خلال تذكيرهم بواجبهم حيال النبي والأئمة الأبرار، وتقيم علاقة عاطفية مؤثرة معهم. وتبعاً لذلك، يسهم الندب والبكاء لأجل الحسين في تحويل رواية تاريخية محدّدة إلى نوع من المعرفة شديدة التأثير من جانب، ويفرض مُتطلبات محدّدة على الشيعة، من جانب آخر.

ووفقاً للملاية "أم زهراء" تؤثر الملاية في المستمعات (ذوات الأذان المتدربة) اللائي يتجاوبن مع محتوى عرضهنّ الأدائي "العاطفي عبّرة" ومع محتواه الأخلاقي "الفلسفي عبّرة".^(٢) وقد بينَ (جونثان شانون . Jonathan Shannon) الذي كتبَ عن عروض أدائية عاطفية وجمالية ماثلة؛ بينَ في هذا الصدد أنّه لكي يتحقّق عنصر النّجاح، يتعيّن على المؤدّين والمستمعين، في الموسيقى الكلاسيكية العربيّة تجاوب أحدهم مع الآخر (الطرب). وعلى شاكلة الأداء الفنيّ النّاجح للموسيقا العربيّة الكلاسيكيّة، يتعيّن على الملاية التحليّ بالقدرة على قراءة جمهورها والاستجابة لاحتياجاته بطريقة مناسبة باستخدام وسائل متنوّعة منها الارتجال.^(٣) وبالإمكان مقارنة مجالس الندب والعزاء مع أفعال أدائيّة أخرى تعتمد على الارتجال؛ فبحسب ما بينته العلوية "مرضية" الملاية الأبرز في الحوزة الزينبيّة في إحدى خطبها: بالإمكان الإفاضة في بعض

(١) الكلمة مُشتقة من "ث.ا.ر" "ي.ث.و.ر" الحظ أنّ الثورة والانتفاضة مُشتقتان من جذر الفعل ذاته. ويهر (قاموس اللغة العربيّة) ١٠٩.

(٢) أخبرني أم زهراء بذلك في أكثر من مجلس: "أدث، لا تنسي أنّ المجالس هي عبّرة وعبّرة". ملاحظات نقدية، الأربعاء في الحادي والعشرين من كانون الثاني، عام ٢٠٠٩، والأحد، الأول من شباط، عام ٢٠٠٩.

(٣) قارن مع شانون (بين أشجار الياسمين).

مِنْ أَجْزَاءِ الْخُطْبَةِ مُقَابِلَ اخْتِصَارِ أَجْزَاءِ أُخْرَى مَعَ اعْتِمَادِ ذَلِكَ عَلَى طَبِيعَةِ الْمُنَاسَبَةِ وَالْجُمْهُورِ.^(١)

وَتَوَلَّفُ الْمُشَارَكَةَ فِي الطَّقْسِ الْاسْتِذْكَارِيَّ وَسِيلَةً لِحَقِيقِ التَّقْوَى، وَفِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ التَّعْبِيرُ عَنْهَا أَثْنَاءَ قِيَامِ الْمَلَايَةِ بِإِجْبَارِ جُمْهُورِهَا عَلَى التَّجَاوِبِ مَعَهَا، وَفِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ أَيْضًا شَرْحُ الطَّرِيقَةِ الَّتِي يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِمْ بَوْسَاطَتِهَا فَعْلُ ذَلِكَ. وَتَتَحَدَّثُ الْمَلَايَاتُ بِانْتِظَامٍ عَنْ ضَرُورَةِ تَجَاوِبِ النِّسَاءِ الْمُشَارِكَاتِ فِي طَقْسِ الْعَزَاءِ مَعَهَا، وَيُشْرَحْنَ كَيْفِيَّةَ قِيَامِهِنَّ بِذَلِكَ: إِذْ يَنْبَغِي لِلْمُسْتَمْعَاتِ أَنْ يَشْعُرْنَ بِالْحَزَنِ وَعَلَيْهِنَّ الْبُكَاءُ فِي مَجَالِسِ الْعَزَاءِ. تَقُولُ الْمَلَايَةُ "أُمُّ زَيْنَبَ" عَادَةً لِلنِّسَاءِ اللَّائِي يَسْتَمَعْنَ إِلَيْهَا: (إِذَا لَمْ تَتِمَّكِنَنَّ مِنَ الْبُكَاءِ، تَظَاهَرْنَ بِالتَّبَاكِي الَّذِي بِفَضْلِهِ تَحْصُلُنَّ عَلَى الثَّوَابِ الْإِلَهِيِّ ذَاتِهِ الْمِثَالِ لِثَوَابِ الْبُكَاءِ، وَسَيَسَاعِدُكُنَّ التَّبَاكِي. إِنْ شَاءَ اللَّهُ. فِي الْبُكَاءِ بَلَا حَزَنٍ وَلَا عَنَاءٍ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ).^(٢) وَلَا يُمِثِّلُ سَحْبُ الْجُزْءِ الْعُلُويِّ مِنَ الْعِبَادَةِ أَوْ الْحِجَابِ لِنُغْطِيَةِ الْوَجْهِ أَوْ. تَلْقَائِيًّا. إِخْفَاءِ الْوَجْهِ بِالْيَدَيْنِ وَالتَّصَرُّفُ كَمَا لَوْ أَنَّكَ تَبْكِينَ... لَا يُمِثِّلُ أَمْرًا مَقْبُولًا فَحَسْبُ، بَلْ إِنَّهُ خَطْوَةٌ نَحْوَ التَّحَوُّلِ إِلَى شِيعِيَّةٍ تَقِيَّةٍ وَأَكْثَرُ صَلَاحًا. إِنَّ التَّبَاكِي لَا يَعْنِي التَّظَاهَرَ بِالْبُكَاءِ مِنْ دُونِ الشُّعُورِ بِالْحَزَنِ عَلَى وَفَاةِ الْأُثْمَةِ مِنْ آلِ الْبَيْتِ، أَيْ إِنَّهُ لَا يَعْنِي عَدَمَ الصَّدْقِ. إِنَّهُ لَيْسَ كَذِبًا، بَلْ إِنَّهُ، بِحَسَبِ مَا كَتَبَ السَّيِّدُ حَسَنُ الشَّيرَازِيُّ، (يُقَارَبُ الْبُكَاءُ، فَهَنَّاكَ صَوْتُ الْبُكَاءِ وَاضْطِرَابُ عَضَلَاتِ الْوَجْهِ، وَهَنَّاكَ الْحَرَكَاتُ الْجَسْمِيَّةُ وَضَرْبُ الصَّدْرِ).^(٣) وَيَعْبُرُ التَّبَاكِي عَنْ الرَّغْبَةِ فِي

(١) مَلْحُوظَاتُ حَقْلِيَّةٍ، الْأَرْبَعَاءُ، ٩ تَمُوزُ عَامَ ٢٠٠٨.

(٢) مَلْحُوظَاتُ حَقْلِيَّةٍ الْخَمِيسَ، ١ كَانُونِ الثَّانِي عَامَ ٢٠٠٩ وَالسَّبْتَ، ١٤ تَشْرِينِ الثَّانِي عَامَ ٢٠٠٩.

(٣) الشَّيرَازِيُّ (الشَّعَائِرُ الْحُسَيْنِيَّةُ) ٦٠. مَا لَمْ أَيْنِ الْعَكْسَ، تَرَجَمْتُ بِنَفْسِي الْمَقَاطِعَ جَمِيعًا.

إظهارِ التعبيرِ عَنِ الحزنِ خارجيّاً، وهو لا يختلفُ عَنِ الحزنِ الدّاخليّ الذي يُتوقَّعُ مِنَ الشَّيْخَةِ الشُّعُورُ بِهِ حينَما يَصْغُونَ إلى تفاصيلِ وقعةٍ كربلاء. ويُتوقَّعُ مِنَ التّظاهرِ بالبكاءِ أو التّبَاكِي أَنْ يُوَثِّرَ لا في الفردِ الذي يودِّيه فحسبُ، بل في أولئك الذين يَصْغُونَ إليه ويَشَاهِدُونَ مَنْ يقومُ بِهِ. إِنَّهُ مُمارَسَةٌ عاطفيّةٌ مؤثِّرةٌ تُساعدُ في إنتاجِ الحقيقةِ التي يحاكيها.

يساعدُ البكاءُ والتّبَاكِي أثناءَ حُضورِ المجالسِ . إلى جانبِ دورهِ في لفتِ الانتباهِ إلى أداءِ المَلَايَةِ السّاحِرِ للقلوبِ... يساعِدُ النِّسَاءُ على تحمُّلِ الأزماتِ والأوقاتِ الصّعبةِ. ففي أحدِ المجالسِ المؤثِّرةِ أثَّرَ المجلسُ "حرفياً" في المشارِكاتِ، وعلى الرُّغمِ مِنْ أَنَّ المَلَايَةَ لَمْ تَلَقِ آيَةً خطبةً، إلّا أنّها أدَّتْ عدداً مِنَ اللَّطَمِيَّاتِ التي أثَّرتْ كثيراً في العديدِ مِنَ النِّسَاءِ الحاضراتِ ودفعتهنَّ إلى الوقوفِ وصَفْعِ وجوههنَّ؛ وتوجَّهتْ إحدى النِّسَاءِ العراقيّاتِ الكبيراتِ في السَّنِّ إلى المَلَايَةِ وقالتْ لها: رَحِمَ اللهُ والديج^(١) على هذا الأداءِ البارعِ، لو لم يكنِ الأمرُ مرتبطاً بمصائبنا ومآسينا، لما أثَّرتْ فينا مصائبُ آلِ البيتِ وأحزائهم^(٢). ويبدو واضحاً أَنَّ الأزماتِ المؤلِّمةَ والمتواصلةَ التي خربتُها هذه المرأةُ وغيرُها جرّاءَ الحروبِ المتعاقبةِ وفقدانِها الأحبةِ مِنْ أهلِها قد أسهمتْ في مُساعدَةِ الشَّيْخَةِ على تَقْمِصِ مأساةِ آلِ البيتِ "عاطفيّاً" ويعني هذا أَنَّ أهمّيّةَ تحلّي المَلَايَةِ بصوتِ حزينٍ وشجيٍّ يوازي في أهمّيّتهِ قدرةَ المستمعاتِ على تحلّي ألمِ الآخرينَ والشُّعُورِ بِهِ، الذي سيكونُ أسهلَّ في حالِ خوضهنَّ تجاربَ المعاناةِ والفقدِ ذاتها.

(١) والديجي: أي والديك. في لهجة من يقلب الكاف جيماً. (المقوم اللغوي).

(٢) ملحوظات حقليّة، الأحد، ٢٤ آب عام ٢٠٠٨.

ولأنَّ مجالسَ العزاءِ تمثِّلُ الوسيلةَ الأبرزَ والأهمَّ لكي يَصْبَحَ الفردُ تقيًّا بالنسبةِ للشيعة؛ يحاولُ رجالُ الدِّينِ وآياتُ الله ومراجعُ التَّقليدِ مُساعَدةَ أتباعِهِمْ مِنْ خلالِ رعايَةِ هذهِ المجالسِ والإشرافِ عليها في حوزاتِهِمْ ومكاتبِهِمْ، إذُ تستضيفُ الحوزَةُ الرِّبَنيَّةُ . في سبيلِ المثالِ . مجالسَ أُسبوعيَّةٍ للرِّجالِ والنِّساءِ كلاًّ على حدةٍ. ويستضيفُ الشِّرازيُّونَ في بعضِ مِنَ المُناسباتِ الخاصَّةِ، في رمضانَ أو المُحرَّمِ مثلاً مجالسَ عزاءٍ يوميَّةٍ كذلك. وتستضيفُ الحوزَةُ الحيدريَّةُ التَّابِعةُ لآيةِ الله "فَضْلُ اللهِ" مجالسَ عزاءٍ أُسبوعيَّةٍ مُخصَّصةً للرِّجالِ مَعَ قدرةِ النِّساءِ على مُتَابَعَةِ ما يجرى فيها مِنْ شِرفَةٍ عالِيَةٍ. وتتيحُ الحوزاتُ الصَّغرى مِنْ مثْلِ حوزَةِ بني هاشمٍ وحوزَةِ الإمامِ الجوادِ التَّابِعةِ للتَّبَرِيزيِّ للنِّساءِ فرصةً مُشاهَدةَ مجالسِ الرِّجالِ في المُحرَّمِ مِنْ خلالِ شاشاتٍ تلفزيونيَّةٍ تتدلَّى مِنَ السَّقْفِ تَبَثُّ بَثًّا مَباشِراً، وثَمَّةَ حُسينيَّاتٍ هِيَ أوقافُ دينيَّةٍ تستضيفُ مجالسَ أُسبوعيَّةٍ مُخصَّصةً للنِّساءِ، ويفيدُ المُشارِكُونَ في مجالسِ العزاءِ . وبداهةً المُتَوَقِّ الذي تَبَرَّعَ بالوقوفِ . مِنْ ثوابِ هذهِ المجالسِ . وبينما يُرَجَّحُ تقديمُ المَلَّياتِ عروضَهُنَّ الأدائيَّةَ في أَكثَرِ مِنْ حُسينيَّةٍ واحدةٍ وفي المنازلِ الخاصَّةِ، اعتادتْ هؤلاءِ المَلَّياتُ قِراءةَ أسماءِ الأشخاصِ الذينَ رَعَوْا هذهِ المجالسَ في نَهايتِها أو في الدُّعاءِ الختاميِّ، وتخصُّهُمُ بثوابِها. ويكتسبُ علماءُ الدِّينِ الطَّامِحُونَ الشَّرعيَّةَ مِنْ خلالِ رعايَةِ مجالسِ العزاءِ الطُّقُوسيَّةِ؛ وهذا يسمَحُ هُمْ في توجيهِ مَضمُوناتِها وربَّما تحديدها ناهيكَ عَنِ التَّأثيرِ فيما يجرى فيها.

مَجَالِسُ الْعِزَاءِ:

يبدأ المجلس حينما تعطي الملائة المنبر،^(١) ويعني هذا في المجلس الخاصة جلوس الملائة في مقعدٍ مغطى بقطعة قماشٍ أسود، في حين تجلس النساء الأخريات على الأرض أو وسائل منخفضة. وثمة بضعة درجات واسعة تصعدُها الملائة قبل بلوغ المنبر في الحسينيات الكبيرة المخصصة لإقامة مجالس العزاء، ولا تجلس الملائة على وجه العموم. في أعلى المنبر، بل تختار لنفسها إحدى الدرجات. وبينت "أم عيسى" الملائة التي ما زالت في مرحلة التدريب... بينت السبب في ذلك قائلة: ولما كان المنبر يعودُ رمزياً إلى الحسين عليه السلام، فإن الجلوس على درجة أدنى منه يرمز إلى موقع الملائة بوصفها خادمةً له.^(٢) وعلى الرغم من ذلك، تشير حقيقة جلوس رجال الدين البارزين أعلى المنبر إلى أن الموقع الذي تختاره الملائة يرمز كذلك إلى مكانتها المتدنية في البناء الهرمي الديني خلافاً للملاي أو الشيوخ الذكور! وثمة ما يدل على ذلك في الحوزة الزينية مثلاً، فثمة صورة للقائد الحلي للعائلة الشيرازية آية الله صادق الشيرازي تعلقو الدرجة التي تجلس عليها الملائة مباشرة.

قد تبدأ الملائة المجلس بقراءة "الزيارة" الخاصة بأحد الأئمة المعصومين الذي كُرس المجلس له. وتمثل الزيارات صيغاً صلواتيةً أنموذجيةً يمكن العثور عليها في اثنين من أهم كتب الزيارات الشيعية هي: (مفاتيح الجنان)

(١) يمثل الوصف التالي رواية عامة تستند إلى خمس خطب وعظية وخطبة حسينية وعدد من مجالس العزاء التي حضرها في سوريا. وتراوح عدد المجالس التي حضرها بين ثلاثة إلى أربعة مجالس أسبوعياً (عدا المجالس في المحرم).

(٢) ملحوظات نقدية، الأحد، ٢٠ كانون الأول عام ٢٠٠٩.

و(ضِيَاءُ الصَّالِحِينَ)^(١) أو قد تبدأ المَلَايَةُ بلطِيمِيَّة (قَصِيدَةُ رثاءِ حَزِينَةٍ) بطِيمِيَّة مَصْحُورِيَّة بلطم إيقاعيٍّ خفيفٍ على الصَّدرِ، حيثُ تُضْرَبُ الكَثِيرُ مِنَ النِّسَاءِ رَكْبَهُنَّ أو أَفْخَاذَهُنَّ بَدَلًا مِنْ صُدُورِهِنَّ. ثُمَّ تَتَلَوُ المَلَايَةُ بَعْدَ هَذِهِ المُقَدِّمَةِ الصَّلَوَاتِ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الَّتِي تَتَضَمَّنُ وَصْفًا قَصِيرًا قِيَاسِيًّا لِمُعَانَاتِهِمْ وَاضْطِهَادِهِمْ تَحْتَمُّهَا بِمَقُولَةٍ: يَا لَتَنَا كُنَّا مَعَكُمْ [فِي وَقْعَةِ كَرْبَلَاءَ] فَنفُوزَ فُوزًا عَظِيمًا).

وَتَتَلَوُ المَلَايَةُ هَذِهِ الصَّلَوَاتِ بِأَسْلُوبٍ رَثَائِيٍّ حَزِينٍ ابْتِغَاءَ تَهْيِئَةِ الْأَجْوَاءِ فِي الْمَجْلِسِ وَالتَّمْهِيدِ لـ "لَطِيمِيَّةِ النَّعْيِ" الَّتِي تَعْقِبُهَا. وَعَلَى الرُّغْمِ مِنْ قَصْرِ مَدَّةِ النَّعْيِ تَغْطِي الْعَدِيدُ مِنَ النِّسَاءِ وَجُوهَهُنَّ بِالْعِبَادَةِ كَمَا لَوْ أَنَّهُنَّ يَمَارِسْنَ. وَفِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ. يَعِدِدْنَ أَنْفُسَهُنَّ لِلنَّدْبِ وَالْعَزَاءِ الَّذِي سِيَأِي دَوْرُهُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْمَجْلِسِ.

ثُمَّ تَتَقَلُّ المَلَايَةُ إِلَى طَرَحٍ مَوْضُوعٍ دَرَسَهَا وَمَحَوْرِهِ، وَيَتِمُّ ذَلِكَ إِمَّا مِنْ خِلَالِ الْاِقْتِبَاسِ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَوْ أَحَدِ الْأَحَادِيثِ الْمُتَعَلِّقِ بِمَحَوْرِ الْمَوْضُوعِ (تَعُودُ الْأَحَادِيثُ إِمَّا إِلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ وَإِمَّا إِلَى الْأَئِمَّةِ الْمَعْصُومِينَ) وَقَدْ تَطَرَّحُ المَلَايَةُ وَتَنَاقَشُ عِدَدًا مِنَ الْمَسَائِلِ الْفَقْهِيَّةِ وَالْعَقَائِدِيَّةِ بِوَصْفِهَا جُزْأً مِنْ خُطْبَتِهَا؛ إِذْ نَاقَشْتُ أُمَّ حَيْدِرٍ، مَسْؤُولَةُ الْقِسْمِ النِّسَائِيِّ فِي الْحُوزَةِ الزَّيْنَبِيَّةِ فِي أَحَدِ الْمَجَالِسِ الَّذِي أُقِيمَ فِي الْمُحَرَّمِ عَامَ (٢٠٠٩ م) فِي سَبِيلِ الْمِثَالِ مَسْأَلَةَ جَوَازِ دُخُولِ النِّسَاءِ الْحَيِّضِ مَرَقَدَ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ أَثْنَاءَ عَقْدِ الْمَجْلِسِ.^(٢)

(١) قَارَنَ مَعَ عَبَّاسِ الْقَمِّيِّ (مِفَاتِيحُ الْجَنَانِ) بَيْرُوتَ، دَارُ الْمُتَرَضَى، عَامَ ٢٠٠٤.

(٢) مَلَحُوظَاتُ حَقْلِيَّةٍ، الْخَمِيسَ، ١٢ شِبَاطَ عَامَ ٢٠٠٩.

وَبَيَّنَتِ الْعُلُوِّيَّةُ "عَالِيَةُ" الْمَدْرَسَةَ فِي الْحَوْزَةِ الشِّيرَازِيَّةِ فِي أَحَدِ دُرُوسِ الْخُطَابَةِ ضَرُورَةَ أَنْ تَحْرَصَ الْمَلَايَةُ عَلَى أَنْ تَجْعَلَ دَرَسَهَا قَصِيْرًا،^(١) وَتَتَعَيَّنَ عَلَيْهَا كَذَلِكَ النَّجَاحُ فِي شَدِّ انْتِبَاهِ الْمَسْتَمْعَاتِ مِنْ خِلَالِ سَرْدِ الْقَصَصِ الْمُثْبِرَةِ لِلْاهْتِمَامِ وَالْحَدِيثِ عَنِ الْمَسَائِلِ الْمَفِيدَةِ هُنَّ. ^(٢) فَمِنْ غَيْرِ الْمَجْدِي مَثَلًا الْحَدِيثُ عَنْ ضَرُورَةِ ارْتِدَاءِ الْحِجَابِ لِمَسْتَمْعَاتِ يَرْتَدِيْنَهُ جَمِيعُهُنَّ. وَلِهَذَا يَتَعَيَّنُ عَلَى الْمَلَايَةِ حِينَ مُحَاطَةِ الْمَسْتَمْعَاتِ التَّقِيَّاتِ الْوَرَعَاتِ الْحَدِيثُ مَثَلًا عَنْ ضَرُورَةِ الصَّلَاةِ فِي أَوْقَاتِهَا بَدَلًا مِنْ الْحَدِيثِ عَنْ ضَرُورَةِ الْإِتْرَامِ بِالصَّلَاةِ فَحَسْبُ؛ وَزِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ، يَتَعَيَّنُ عَلَى الْمَلَايَاتِ عَلَى وَجْهِ الْعُمُومِ مُوَاءَمَةٌ خُطْبِيْهِنَّ وَدُرُوسِيْهِنَّ مَعَ اهْتِمَامَاتٍ وَاحْتِيَاجَاتٍ جُمُوهَرِيْنٍ مِنَ الْمَسْتَمْعَاتِ.

وَابْتِغَاءَ تَوْضِيْحِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ بِتَفْصِيْلٍ أَكْبَرَ، تَكْمُنُ الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ الْعُلُوِّيَّةَ "عَالِيَةَ" سَرَدَتْ الْقِصَّةَ التَّالِيَةَ: (ثَمَّةَ شَيْخٍ تَوَجَّهَ لِلْمُشَارَكَةِ فِي أَحَدِ مَجَالِسِ الْعِزَاءِ الْحُسَيْنِيَّةِ فِي مَنْطِقَةِ رِفْيَةِ، وَقَدْ تَفَاجَّى مِنْ عَدَمِ تَجَاوُبِ الْحَاضِرِيْنَ فِي الْمَجْلِسِ مَعَ لَطَمِيَّتِهِ وَقِصَائِدِهِ الْحَزِيْنَةِ الْمَبْكِيَّةِ. وَلَشُعُورِهِ بِخِيْبَةِ الْأَمَلِ، سَأَلَ الشَّيْخُ مُضِيْفَهُ هَلْ كَانَ صَوْتُهُ ضَعِيْفًا أَوْ مَنْفَرًا، فَأَكَّدَ لَهُ الْأَخِيْرُ أَنَّ لَطَمِيَّتَهُ كَانَتْ جَمِيْلَةً وَمُؤَثِّرَةً. فَكَّرَ الشَّيْخُ لِبَرَهَةٍ مِنَ الْوَقْتِ ثُمَّ تَوَجَّهَ إِلَى الْمُضِيْفِ لِسُؤَالِهِ عَنْ أَهْمٍ مَا يَشْغُلُ سَكَّانَ الْقَرْيَةِ، فَأَجَابَهُ الْمُضِيْفُ: إِنَّهُ تَرْبِيَةُ الْحَيَوَانَاتِ. فِي الْمَجْلِسِ التَّالِيِ، أَعَادَ الشَّيْخُ سَرْدَ وَقْعَةِ كَرْبَلَاءَ بِاسْتِخْدَامِ مُصْطَلَحَاتٍ مُحَلِّيَّةٍ، إِذْ ذَكَرَ لَهُمْ أَنَّ قُطِيْعَ حَيَوَانَاتٍ يَزِيْدُ قَتْلَ حَيَوَانَاتِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَبَكَى الْمَسْتَمْعُونَ

(١) بِمَعْنَى مَا "مَجَالِسُ الْعِزَاءِ الْمُوثَّقَةِ وَالْحَدِيثَةِ" هِيَ بِسَهُولَةِ مَجَالِسِ أَضْحَى الْحَدِيثِ فِيهَا يَشْغُلُ مَوْقِعًا مَحَوْرِيًّا فِي حِينِ تَقْلُصَتْ الْأَجْزَاءُ الْآخَرَى إِلَى حَدِّهَا الْأَدْنَى.

(٢) مَلْحُوظَاتٌ حَقْلِيَّةٌ، الْأَرْبَعَاءُ، ٣٠ تَمُوزِ عَامِ ٢٠٠٨.

مباشرةً لسماعهم ذلك) وحالاً انتهت "عاليه" من سرد القصّة ضجّت قاعةُ الدّرس بالضحك. إذ أسّس التّوظيف "الكوميديّ" للحيوانات بالمعنى المجازيّ والسّرديّ شعوراً مُتخيلاً بالتّفوق لدى جمهور الحاضرات في الحوزة من خلال مساواة المستمعين الآخرين بمواشيهم العزيرة على قلوبهم.^(١) وعلى نحوٍ فارق، يُلحظ أنّ طلاب الحوزة الزّينية ومدّرسيها هم من يوصفون عادةً بالمتخلّفين والمفتقرين إلى العقلانيّة من لدن بعضٍ من الشيعة الآخرين، أمثال مقلّدي آيتي الله الخامنيّ وفضل الله.

يوظّف أنبأ مُقتدى الصّدر في مدينة السيّدّة زينب لغة خطابٍ قوميّةٍ للخطّ من مكانة الشّيرازيّين بين العراقيّين. ويتقن العديد من المدرّسين والملايات في الحوزة الزّينية التّحدّث بالّلغة الفارسيّة، ويستخدمونها في بعض من الأحيان للحديث فيما بينهم مؤلّفين بذلك نخبة لغويّة. ولكنهم حينما يتحدّثون أو يخاطبون مستمعهم، يستعملون اللّهجة المحليّة "الشّروكيّة" المعروفة في الأجزاء الجنوبيّة من العراق؛ وبذلك يؤسّسون لادّعائهم بالانتماء إلى العراقي. ولكنّ هذا لا يعني هيمنة هذه اللّهجة على المحتوى اللّغويّ في المجلس، إذ تستعمل الملاية اللّغة العربيّة الكلاسيكيّة عند تلاوتها آيات من القرآن الحكيم أو الأحاديث النّبويّة. ووفقاً للعلويّة عاليّة؛ الملاية حرّة في اختيار إلقاء إمّا خطبة طويلة وإمّا قصيرة مع لحظ الميل العامّ إلى تقديمها باستعمال مزيج من اللّغة العربيّة القياسيّة الحديثيّة والشّروكيّة.^(٢) وتقدّم الخطبة عادةً بالّلغة العربيّة القياسيّة الحديثيّة مع إمكان سرد بعض من القصص

(١) ملاحظات حقليّة، الأربعاء، ٩ تمّوز عام ٢٠٠٨.

(٢) ملاحظات حقليّة، الأربعاء، ٣٠ تمّوز عام ٢٠٠٨.

القصيرة إما باستعمال اللهجة الشروكية وإما العامية السورية ابتغاء جعلها أكثر تأثيراً، وزيادة على ذلك، تهيمن هذه اللهجة شيئاً فشيئاً على اللطمية التي تعقب الخطبة، وتعكس اللغة العربية القياسية الحديثة التي تُستخدم في الخطبة. إلى حدّ ما. ما هو عقلائي ورسومي وموضوعي وآخر. وتمثل الخطبة التي تستعمل هذا النوع من اللغة رسالة من الأعلى من نظام أشمل راع! وخلافاً لها، يعكس مضمون اللطمية التي تُنشد بالنيابة عن السيّد زينب (التي ترثي مقتل إختها ووالدها) عادةً مصائب النساء الشيعة وبؤس المسحوقين والمضطهدين والجاهير التي طالت معاناتها.

ثم تروي الملائية - بعد الخطبة - قصة تدور حول مأساة أحد الأئمة المعصومين، وتخبر مستمعاتها من خلال سردها هذه القصة، كيف يجسّد هذا الإمام فضيلة "بعينها" لتنتقل بعد ذلك إلى الحديث عن مصيبة هذا الإمام وكيف عانى واضطهد على يد الطغاة والحاquدين مستخدمةً لأجل ذلك النعي^(١). ويؤدّي بناء المجلس - زيادةً على إثارة مشاعر الغضب والحنق الأخلاقي - دوراً كبيراً في تحريض المستمعات وتشجيعهنّ على نصرّة آل البيت والافتداء بأخلاقهم.

ويعكس "النعي" الذي يروي مصائب آل البيت نطاقاً من أساليب الرثاء التي تتبع ترتيباً محدداً، ولكنها تسمح كذلك بالارتجال ضمن هذا الشكل. وبداهة، يتعيّن على الملائية البارعة أن تحفظ القصص عن ظهر قلب زيادةً على

(١) قارن مع هوارث (الشيعة الاثنا عشريون) ١٣٦-١٤٩.

آلافٍ مِنَ الأبياتِ الشُّعريَّةِ مِنْ قَصائِدِ الرِّثاءِ الَّتِي تَساعَدُها في الارتجالِ^(١). وعلى الرُّغمِ مِنْ ذلكَ، إلّا أنَّه لا يرتجلُ سوى عددٍ قليلٍ مِنَ المِلاياتِ اللَّائِي تَميلُ أَكثَرِيَّتُهُنَّ إلى استعمالِ أنموذجاتٍ مِنْ "مجاميعِ مِصائِبِ آلِ البيتِ" لِلشَّيخِ مُحَمَّدٍ الهِندائِيِّ^(٢). وخِلافًا لِلخطبةِ، يَكُونُ النِّعْيُ عَادَةً بِاللُّهجةِ الشُّروكيَّةِ، أو اللُّغةِ العامِّيَّةِ الشَّاعِنةِ في جنوبِ العِراقِ^(٣).

تَرى المِلايَةُ العلويَّةُ "مِرضيَّةً" أَنَّ المِلايَةَ البَارِعَةَ والقويَّةَ والقادرةَ على التَّأثيرِ يَنبغي لها أَنْ تتحلَّى بالقُدرةِ على استِشارةِ مِشاعِرِ الحِنانِ والرِّقةِ والشَّجَنِ في نفوسِ المِستمِعاتِ^(٤). وابتِغاءَ النِّجَاحِ في ذلكَ، يَنبغي لِلمِلايَةِ أَنْ تَتقنَ لُغةَ جُمهورِها، بِمعنى اللُّغةِ القِياسِيَّةِ الحَديثةِ وَكَذلكَ العامِّيَّةِ، وَتَحتَاجُ كَذلكَ إلى أَنْ تَتمتَّعَ بالقُدرةِ على التَّجَوابِ مَعَ توفُّعاتِ مِستمِعاتِها وَاحتِياجَاتِها بِصُورةٍ مَناسِبَةٍ؛ زِيادةً على التَّحدُّثِ إِلَيْهِنَّ فِيمَا يَخُصُّهُنَّ وَيَتعلَّقُ بِهِنَّ. وَزِيادةً على ذلكَ،

(١) روت ستيفانيا باندولفو قصَّةَ شاعر طموح طلب منه أستاذه أن يحفظ عن ظهر قلب ألف قصيدة. اختفى الطالب لمدة من الوقت وشرع بعد عودته يلقي على مسمع أستاذه القصائد لأيام. ثم طلب الأستاذ من تلميذه نسيان هذه القصائد كي تتاح له فرصة أن يكون شاعرا. انظر باندولفو (مأزق الملائكة: مشاهد من حيز ذاكرة مغربي) (جامعة شيكاغو، عام ١٩٩٧) ٢٨٥. قارن مع ابن خلدون (المقدمة) ترجمة فرانز روزنثال، ن. جي. داود، الطبعة السادسة (جامعة برنستون) ٤٤٨.

(٢) ملاحظات حقلية، صيف عام ٢٠٠٨، تستخدم العلوية مرضية هذه المجموعة لتدريس الخطبة للنساء المهتمات. وثمة كُتبيات تعلم الراغبين كيفية كتابة الخطب تُباع في المكتبات المحلية. وعلى الرغم من ذلك، تفضل أكثرية الملايات كتابة خطبهن وأحاديثهن الخاصة أو التعاون والانضمام إلى خطيبة بارعة أخرى تكتب خطبها بنفسها.

(٣) تختلف مجالس العزاء في السيدة زينب في هذا الجانب عن المجالس "الحديثة والثورية" الواعية ذاتيا في لبنان التي تستخدم اللغة العربية القياسية الحديثة. انظر ديب (الحداثي المأسور) ١٤٤-١٤٦.

(٤) ملاحظات حقلية، الخميس، ١٢ تموز عام ٢٠٠٧، والاثنين، ٢٣ حزيران عام ٢٠٠٨. قارن مع شانون (بين أشجار الياسمين) ٨٥-٨٧.

ينبغي للملّاية أن تدرب صوّمتها وتحافظ عليه. وتؤكد أنيسة عاليّة بهذا الصّد في درسها عن الخطبة أن على الملّاية أو الخطيبة ألا تشرب الحليب قبل بدء الخطبة لأنّه يؤدّي إلى إفراز البلغم. وبالمثل، يتعيّن عليها تجنب تدخين السجائر مقابل شرب الكثير من الماء الممزوج بالليمون والعسل.^(١)

وعلى الرّغم من هذا التركيز الواضح على الملّاية، إلّا أنّه لا يمكن القول: إنّها هي الوحيدة المسؤولة عن نجاح العرّض الأدائي في المجلس. إذ يتوقع من المستمعات أن يندبن ويتجنبن ويبكين بأسلوب عاطفيّ جيّاش محدث للضوضاء أثناء النّعي استجابةً منهنّ لما تقوله وتفعله الملّاية. ومثلاً لحظنا أعلاه، تذكر الملّيات جمهورهنّ من المستمعات بين الحين والآخر بأنّ "التّبكي" شأنه شأن البكاء له الأثر والثواب ذاته.^(٢)

ويقلّد الشيعيّ الذي يمارس "التّبكي" فعل البكاء جسديّاً لكي يتمكن من البكاء، وذرف الدموع! ويتعلّم الناس كيف يتجاوبون مع الملّاية بشكل مناسب وفاعل بفضل استمرارهم في حضور المجالس وممارستهم طقوسها.^(٣)

(١) ملحوظات حقليّة، الأربعاء، ٦ آب عام ٢٠٠٨.

(٢) ملحوظات حقليّة، الخميس، ١ كانون الثاني عام ٢٠٠٩. قارن مع الشيرازيّ (الشعائر الحسينيّة) ٦١.

(٣) على شاكلة راوي القصص / الحكواتي لوالتر بنيامين، تسهم الملّاية في صوغ "التّحفة" من خلال، عمليّة "الّسب". هه شكانند (المنظر الصّوّغيّ الأخلاقيّ) ٢٦. (الّسب هم المحلّة التّفانيّة للعمليّات الخا، حتّى إذ مح، تسب الفتات الصّخ، والمادّ المذابة في الماء في المنخفضات بساطة عما الّسب (مثا المياه الّباح) فتكون مظاه حمله حتّة حديدية مثا دلتا الأنهار، والكثبان الّملّية الطّبقات الّملّية غها، بسده ما مح، في هذه العمليّة مماثلاً لما تفعله الملّاية التي تسب من خلال، لطماتنا وقصائدها عهضما الأدائيّة في تكه مظاه نفسيّة تسب في حدان النساء الشيعيّات فتساعدهنّ على التّماهي مع آل البيت والتّعاطف مع مصائبهم. (المترجمة).

وتشترك الأطراف جميعاً في عملية تفاعل وتجاوب متبادلة بين الملائية والمستمعات إليها، ويؤلف مجلس العزاء بهذا المعنى فعلاً بالمشاركة، إنه مشروع جمالي وأخلاقي^(١).

ترتدي الأكثرية العظمى من النساء اللاتي يحضرن مجالس العزاء العباءات السوداء الواسعة^(٢) وعندما يحين وقت البكاء، تغطي العديد منهن وجوههن بهذه العباءات، وهذا يمنعهن من رؤية إحداهن الأخرى وهن يكيبن؛ على الرغم من استماعهن إلى تنهات بعضهن بعضاً وأنيهن.

وحينما شاركت في المجلس، شعرت بعد تغطيتي لوجهي بالعباءة السوداء أن وجودي بعيداً عن الأضواء والنظرات المتطفلة، قد عزز قدرتي على السمع. وفي واقع الأمر، فقد ساعدتني الخصوصية المرئية في التركيز على ما يقال وفي التنبه إلى الصور الشعرية والمكون العاطفي في صوت الملائية.

وفي محاولة منها لتنبه الحاضرات إلى قرب انتهائها من النعي، تشرع الملائية في تلاوة صيغة محددة تستحضرها حين سماع خبر وفاة شخص ما: (إننا لله وإنا إليه راجعون). وبعد تلقيهن هذه الإشارة، تكف النساء عن البكاء،

(١) إنه مشروع جمالي بالمعنى الذي تقصده سوزان باك - مورس التي لحظت بعد عملية تأمل عميقة في دراسة والتر بنيامين (الفن في عصر الإنتاج الميكانيكي) أن الجماليات تنبثق من (المفردة الإغريقية القديمة التي تعني "ما يمكن إدراكه عن طريق المشاعر". الجمالي (aisthikos) هو تجربة الإدراك الحسية.... إنه شكل من أشكال الإدراك الذي يتحقق عن طريق حواس التذوق واللمس، والسمع، والبصر والشم؛ وبكلمات أخرى: إنه النطاق الكامل للأجزاء الحسية في الجسد) سوزان باك - مورس "الجماليات والمخدر: وجهة نظر أخرى في دراسة والتر بنيامين". تشرين الأول ٦٢ (١٩٩٢) ٦. وبكلمات أخرى: تؤلف المجالس مشروعاً جمالياً لأنها ترمي إلى إنتاج نوع محدد من التجربة الحسية وتشهد تصورات المشاركين الإدراكية.

(٢) ترتدي النساء العباءات التي تمتد من الرأس إلى أخمص القدم وتغطي الجسم كله. تُصنع العباءة العراقية (التي تُعد الأكثر تقليدية) من ثمانية أمتار، وهذا يجعلها ثقيلة وواسعة. وتستلزم العباءة الخليجية كمية قماش أقل، وهي أضيق وأخف وزناً.

ويجففن دموعهنَّ، ويكشفن عن وجوههنَّ. وعادةً ما تكون عيون بعض من النساء قد اغرورقت بالدموع مقابل نساء أخريات خلت عيونهنَّ منها، وتتيح المدة التي تستغرقها عملية الانتقال من النعي إلى اللطمية للملاية فرصة ارتجال بعض من الأبيات الشعرية، وقد تعتمد الملاية أو إحدى مساعدهاتها ابتغاء تنبيه الحاضرات إلى بدء اللطمية إلى التصفيق بيديها كليهما أو ضرب الكتاب الذي تستخدمه لقراءة قصائد الرثاء أو النعي.

وقد تختار الملاية أداء لطميتين أو ثلاث في مجالس العزاء الأسبوعية، وقد يزداد هذا العدد في بعض من المناسبات الخاصة أو في شهر المحرم، وتسم اللطمية الأولى التي تعقب النعي عادةً بكونها بطيئةً خلافاً لـ "اللطميات" اللاحقة التي تكون أسرع وتيرةً. ويرجح أن تختار الملاية أداء لطميات مطوّلة وفيها الكثير من التفاصيل في حال عقد المجلس في شهر المحرم أو في العاشر منه تحديداً، يوم مقتل الإمام الحسين عليه السلام. وتعتمد النسوة الحاضرات في الأيام العادية، إلى ضرب صدورهنَّ وربما صفع خدودهنَّ بلطف في اللطمية الأخيرة أثناء جلوسهنَّ على ركبهنَّ في شكل حلقة دائرية. وقد تحرّك النسوة أجسامهنَّ نحو الأعلى والأسفل أثناء صفعهنَّ خدودهنَّ، أو جباههنَّ، أو ضربهنَّ صدورهنَّ. وتخلع الشابات غير المتزوجات عادةً حجاباتهنَّ وقد يحركن شعور رؤوسهنَّ نحو الأمام والخلف دلالةً على التفاعل والحزن.

إِنَّ أَفْعَالَ الحزن والعزاء الجسديَّةِ هَذِهِ الَّتِي تَشْتَرِكُ النِّسَاءُ الشَّيْعِيَّاتُ فِي أَدَائِهَا لَيْسَتْ أَفْعَالًا دُمُويَّةً (عَادَةً) عَلَى الرُّغْمِ مِنْ كَوْنِهَا مَجْهُدَةً جَسَدِيًّا، وَتَبْدُو شَدِيدَةً التَّنَاقُضِ مَعَ فِكْرِ الانضِبَاطِ الجَسَدِيِّ الْحَدِيثَةِ.^(١)

وَيُحْتَمَمُ مَجْلِسُ الْعَزَاءِ عَادَةً وَيَصُلُّ إِلَى ذُرْوَتِهِ فِي "الدُّعَاءِ" الَّذِي يَجْرِي تَوْجِيهُهُ بِنَحْوِ "دَائِرِي" فِي الْمَجْلِسِ بَعْدَ طَرَائِقَ، وَلَيْسَ مِنَ الصَّرُورِيِّ لِمَنْبَرِ الْمَلَايَةِ أَنْ يَكُونَ فِي اتِّجَاهِ مُحَدَّدٍ؛ إِذْ يَقَعُ الْمَنْبَرُ فِي الْقِسْمِ الْخَاصِّ بِالنِّسَاءِ فِي الْحُوزَةِ الزَّيْنِيَّةِ (وَكَذَلِكَ فِي حُسَيْنِيَّةِ أَبِي الْفَضْلِ الْعَبَّاسِ) فِي الطَّرَفِ الشَّامِلِ الْقِصِيِّ مِنَ الْقَاعَةِ. وَتَبَعًا لَذَلِكَ، تَوَاجَهُ الْمَلَايَةُ جِهَةً الْجَنُوبِ. وَهُوَ اتِّجَاهُ الْقِبْلَةِ فِي مَدِينَةِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ. عَلَى الرُّغْمِ مِنْ جُلُوسِ الْعَدِيدِ مِنَ النِّسَاءِ بِطَرِيقَةٍ تَجْعَلُ الْكُعْبَةَ (الْقِبْلَةَ) تَقَعُ خَلْفَ ظَهْرِهِنَّ. وَلِهَذَا السَّبَبُ، تَكُونُ الْكَلِمَاتُ الْأُولَى مِنَ الدُّعَاءِ مَصْحُوبَةً عَادَةً بِإِعَادَةِ تَوْجِيهِ جَسَدِيَّةٍ وَزَمْنِيَّةٍ، وَبَيْنَمَا يَعْمَلُ الْمَجْلِسُ وَمَا يَجْرِي فِيهِ فِي اسْتِذْكَارِ مَا حَدَثَ فِي الْمَاضِي، يَشِيرُ الدُّعَاءُ إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ؛ إِلَى قَرَبِ ظَهْرِ الْإِمَامِ الْمَهْدِيِّ، وَهُوَ يُوَحِّدُ الْحَاضِرَاتِ أَثْنَاءَ تَعْيِيرِهِنَّ عَنْ الْوَلَاءِ لآلِ الْبَيْتِ وَتَجْدِيدِهِنَّ الْبَيْعَةَ لِلْإِمَامِ الْغَائِبِ. وَخَتَامًا، تَسْأَلُ الْمَلَايَةُ الْمُسْتَمْعَاتِ أَنْ يَصَلِّينَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ فَتَرُدُّ عَلَيْهَا الْحَاضِرَاتُ بِقَوْلِهِنَّ: (اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ

(١) تَحْلَعُ الْفَتَيَاتُ الصَّغِيرَاتُ وَالشَّابَّاتُ فِي مَجَالِسِ الْعَزَاءِ فِي الْمُحَرَّمِ، وَكَذَلِكَ فِي الْحُوزَةِ الزَّيْنِيَّةِ، وَفِي مَجَالِسِ الْمُحَرَّمِ الْخَاصَّةِ الَّتِي تَقِيمُهَا أُمُّ زَهْرَاءَ... يَخْلَعْنَ بَانَتْظَامَ حِجَابَاتِهِنَّ وَيَنْضَمْنَ إِلَى حَلْقَةِ النِّسَاءِ الْمَهْتَاجَةِ الَّتِي تَتَشَكَّلُ أَمَامَ الْمَلَايَةِ. وَتَتَشَكَّلُ حَلَقَاتٌ مِثْلُ هَذِهِ حَيْثُ تَصْفَعُ النِّسَاءُ خُدُودَهُنَّ فِي بَعْضِ مِنَ الْمَجَالِسِ الْأُخْرَى بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْآخِرِ، وَلَكِنْ وَقُوفَ النِّسَاءِ وَتَحْرُكَهُنَّ بِشَكْلِ دَائِرِيٍّ أَوْ نِصْفِ دَائِرِيٍّ أَثْنَاءَ صَفْعِهِنَّ خُدُودَهُنَّ لَا يَحْدُثُ سِوَى فِي الْمُحَرَّمِ وَمُنَاسِبَاتِ الْوَفَاةِ الْمَهْمَةِ الْأُخْرَى. وَقَدْ لَحِظْتُ فِي الْحُوزَةِ الزَّيْنِيَّةِ سَقُوطَ امْرَأَةٍ أَوْ اثْنَتَيْنِ مَغْمِيًّا عَلَيْهِمَا فِي مَجَالِسِ الْعَزَاءِ فِي الْمُحَرَّمِ، إِلَّا أَنَّ "خَادِمَاتِ الْحُسَيْنِ" الْمَتَطَوِّعَاتِ حَاوَلْنَ تَهْدِئَةَ الْمَشَارَكَاتِ الْمَهْتَاجَاتِ. وَيَجْرِي فِي هَذِهِ الْمَجَالِسِ تَشْجِيعُ الْحَاضِرَاتِ عَلَى صَفْعِ الْخُدُودِ وَضَرْبِ الصَّدُورِ وَعَلَى إِظْهَارِ الْوَلَاءِ لآلِ الْبَيْتِ وَالتَّعْبِيرِ عَنْ شِدَّةِ حُبِّهِمْ.

حمّدي) ثمّ تطلّب من الجميع قراءة سورة الفاتحة على أصحاب المجلس / الرّاعين له وعلى أنفسهم لأجل طلب الشّفاء وتحقيق الأمانيات وتلبية الاحتياجات. وقد تطلّب بعض من النّساء اللّائي لديهنّ حاجات خاصّة - مثل إصابة أحد أفراد عائلتهنّ بمرض شديد - من الملاية سؤال الحاضرات جميعاً الصّلاة على النّبي مرّة أخرى وقراءة سورة الفاتحة. وبينما تتلو النّساء الفاتحة مرّة أخرى، يبدأ بعضهنّ في الخروج في حين تبقى أكثريتهنّ جالسات في انتظار الشّاي والبسكويّ الجافّ، وقد تختتم الملاية مجلسها بإبلاغ الحاضرات ببعض من الأخبار، ثمّ ينهكنّ بعدها بالحديث مع الصّديقات والجيران.

وتمرّ مجالس العزاء الأسبوعيّة بدورات عاطفيّة مؤثّرة كذلك، إذ تبدأ هذه المجالس بقصائد بطيئة النّغمات و "حزينة". وبعد ترك "الانطباع" المبدئيّ المطلوب، تلقي الملاية درساً تختتمه بالنّعي، وتقوم الحاضرات أثناء النّعي بالبكاء أو التّبكي الذي يخدم غرض التنفيس التّطهيريّ والعاطفيّ عن الأحزان، ثمّ تبدأ جهارة أصواتهنّ بالارتفاع تدريجيّاً أثناء أدائهنّ اللّطميّة حتّى يصلنّ إلى نعمة إيقاعيّة عالية ومؤثّرة. وينتهي الطّقس ختاماً بهدوء مفاجئ وإعادة توجيّه والابتهاال إلى الله بالتّعجيل بعودة الإمام الغائب عليه السّلام.^(١)

(١) في عملها عن طقوس العزاء التي تقيمها النّساء الشّيعيّات في لبنان؛ جاورت لارا ديب المجالس "التقليديّة" و "الحديثيّة والمؤثّقة" ووضعتها جنباً إلى جنب، وبيّنت أنّه في مجالس العزاء التقليديّة تميل الملايات إلى التركيز على العاطفة والبكاء والجماليّات بعكس المجالس "الحديثيّة والمؤثّقة" التي تركّز على الوضوح والفهم والدّقة التّاريخيّة. والنّقطة التي أودّ لفت الانتباه إليها بشأن هذا التّقسيم الثنائيّ الذي وضعته ديب، هو أنّه يسهم ضمنياً في منح المجالس المؤثّقة قيمة تربويّة / بيداغوجيّة أعلى، وي طرح فكرة تقول: إنّ بقدرة الأسلوبين كليهما أن يكونا مؤثّرين عاطفياً من النّاحية البيداغوجيّة. ولا مراء في الأثر البالغ الذي تركه مجالس العزاء "التقليديّة" و "المؤثّقة" جميعها في الحاضرات، فهي تستثير، وتحرض وتنقل تقاليد خطائيّة متنوّعة. إلّا أنّ التّأثير الذي تمارسه هذه المجالس يختلف في طبيعته. إذ تختلف المجالس "الحديثيّة والمؤثّقة" عن

أثناء الانتظار:

تقضي النساء قبل المجلس وبعدَه الوقت في التَّحدُّث والجلوس والانتظار. إنَّهنَّ يقضينَ الوقتَ في الحُسينيَّة،^(١) إنَّهنَّ ينتظرنَ صديقاتهنَّ، أو شربَ الشَّاي وتناولَ الكعك والبسكويت الجاف الحلو؛ كما إنَّهنَّ ينتظرنَ وقتَ الغروب للصَّلاة في الحُسينيَّة. وبمستوى عامٍّ أكبر، تنتظرُ الكثيرُ من هؤلاء النسوة لأنَّهنَّ من العراقيَّات طالبات اللجوء اللَّائِي يعشنَ حالةَ عدم استقرارٍ دائمةٍ يقضينها في انتظارٍ مُستقبلٍ أفضل، إنَّهنَّ ينتظرنَ انتهاءَ الحرب، وينتظرنَ إعادةَ توطينهنَّ، ويتساءلنَ أثناء ذلك عن أشكالِ حياتهنَّ في المُستقبل.

ويكتسبُ فعلُ "الانتظار" معنىً دينيًّا عميقاً للكثير من النساء الشيعيات، أمثال أم محمَّد، التي تقول: ثمة انتظارٌ غيرُ مجدٍ، حينَ يقضي بعضُ من العراقيَّين الوقتَ بدهاءةٍ في الجلوس في البيت ومُشاهدة التِّلغزيون، وثمة من يقضي الوقتَ في الدِّراسة وحُضورِ المجالس الدِّينيَّة، ولكن دعونا نقول: إنَّكَ تجلسُ وتنتظرُ عقدَ المجلس حتَّى لو لم يُعقد قطُّ، وسيسجِّلُ اللهُ هذا الانتظارَ في ميزانِ حسناتِكَ كما لو أنَّكَ حضُرتَ المجلس فعلاً. وهذا يعني أنَّ انتظارَكَ لم يذهب سدىً، بل كان مفيداً.

المجالس "التقليدية" لجهة الممارسات الجسدية الشائعة فيها، ولجهة أنماط الانتباه الجسدية التي تتطلبها. ويشكِّل نوعا المجالس كلاهما أمثلةً مُناسبة على البيداغوجيا الدِّينية على الرَّغم من تأثرهما بتصورات مفهوماتية مختلفة بشأن الوضع الجسدي والزَّوج النَّفسيَّة التي يتعيَّن أن تلازم التَّعلم أو في واقع الأمر تولِّفه. قارن مع ستارت "اتجاهات التفسير". ٩٥٣-٩٦٩.

(١) تميل الطَّالبات في الحوزة الزَّينية إلى أخذ إذن بالخروج بعد مدَّة قصيرة من انتهاء الدُّروس الحوزويَّة في السَّاعة الحادية عشرة والنِّصف. وتسرع أكثرُيتهنَّ في الرَّجوع إلى البيت قبل عودة أطفالهنَّ من المدارس وحلول وقت طعام الغداء.

وشرحت أم محمد، وهي أم عراقية لها من الأطفال ثلاثة وطالبة في المرحلة الرابعة من الدراسة الحوزوية... شرحت ما تعنيه من خلال سردها القصة التالية: أراد رجل أن يعقد مجلس عزاء، ولم يكن لدى أصدقائه الوقت الكافي لحضوره، ولكنه تمكن في نهاية المطاف من إقناع أقرب أصدقائه إليه فحضر وبدأ المجلس، شكا الصديق من عدم حضور أصدقائهما الآخرين، فطمأنه صاحب المجلس قائلاً: لا عليك، لنبدأ القراءة (قراءة مصائب آل البيت). وحالما بدءا القراءة، سمعا بكاء إحدى النساء؛ لقد انضمت فاطمة الزهراء عليها السلام إلى المجلس.

ومضت أم محمد في شرحها مبينة أن مجرد الانتظار في الحوزة يعني أنك أضفت رقماً آخر إلى قائمة الأفراد الذين يتبعون آل البيت؛ ثم حاولت تأكيد فكرتها بسرد قصة أخرى:

(استيقظ رجل في أحد الأيام وهو فاقد لبصره. لقد رأى حلمًا، وفي الحلم كان في كربلاء وشاهد نفسه على تل في جانب جيش يزيد؛ شعر الرجل بالهلع، ولذلك لم يشترك في المعركة ولكنه تراجع ليراقب ما يجري من بعيد، ثم ناداه الحسين وقال له: لم قاتلت ضدي؟ فقال: ولكني لم أفعل. فقال له الحسين: إن حقيقة بقائك على ذلك التل تعني أنك أسهمت في زيادة عددهم). أي عدد أعداء الحسين، ثم سألتني أم محمد: ألم يكن لدى يزيد سبعون ألف رجل ولدى الحسين سبعون فحسب؟. الفرق بين عديد جيش يزيد وجيش الحسين

واضحٌ وضوحُ الشمسِ، وعلى الرغمِ من ذلك، فحتى الرجل الواحدُ يمكنه أن يؤثرَ في المعركة.^(١)

ترى أم محمد أن الانتظارَ في الحوزة والجلوسَ فيها أو قضاءَ الوقتِ في الحُسَيْنِيَّاتِ ليسَ مَضِيعَةً للوقتِ، وابتغاءَ تأكيدِ فكرتها، استشهدتْ بمثالٍ قالت فيه: (إن جلوسِي معكِ سيُكتبُ إن شاء الله في ميزانِ حسناتي، لأننا نتحدثُ عن أمورٍ دينيةٍ. إن قيمةَ الانتظارِ تعتمدُ على النيةِ).^(٢) ويمثلُ الانتظارُ لأم محمد جزءاً من الحياة، وهو بالضرورة يؤثرُ في حياتنا. وتبعاً لذلك، تتمثلُ الأسئلةُ الجوهريةُ بالنسبة لها في التالي:

أولاً: كيف ينبغي للشيعَةِ المتقينَ قضاءَ أوقاتهم أثناءَ الانتظارِ؟
ثانياً: ما الشيءُ الذي يتعينُ على الشيعةِ انتظارُهُ؟.

وبصرفِ النظرِ عن العودةِ إلى العراقِ أو الاستقرارِ في مكانٍ آخر، تؤكدُ أم محمدُ أهميةَ أن يدركَ الشيعةُ أنهم في واقع الأمرِ ينتظرونَ عودةَ الإمامِ المهديِّ في نهايةِ الزَّمانِ. وزيادةً على ذلك، لحظتُ أم محمد أن انتظارَ الإمامِ يستلزمُ التحليَّ بالأدبِ والالتزامَ بالأعرافِ المشابهة لتأدبِ الطالبةِ أثناءَ انتظارِها وصولَ المدرسة؛ حيثُ يتعينُ على إحدى الطالباتِ. في سبيلِ المثالِ. مسحُ السُّبُورَةِ أو مراجعةُ المُلحُوظاتِ التي دوَّنتها من المُحاضرةِ السابقة؟! فإثناء ذلك. وعلى نحوٍ مماثلٍ، يتعينُ على الشيعةِ الاستعدادُ والتَّيقُّظُ أثناءَ انتظارِهم الإمامِ المهديِّ.

^(١) بينت العلويةُ عالية أن على الملاية أن تروي القصصَ المتقنة والمؤثرة لأن القصصَ تثرِي أي خطبة أو مجلس وتجعلها أكثر جاذبية. ملاحظات نقدية، الاثنين، في الثالث والعشرين من حزيران، عام ٢٠٠٨، والاثنين السابع من تموز عام ٢٠٠٨.
^(٢) ملاحظات حقلية، الأحد، ٢٠ كانون الأول عام ٢٠٠٩.

وبينما يُرَجَّحُ أن تكون مُناقشةُ الموضوعاتِ الدِّينيةِ وتعلُّمُها نشاطاً مثاليّاً، لَحِظْتُ أنَّ النِّساءَ الشَّيعيّاتِ يقضينَ أكثرَ أوقاتِهِنَّ في الحديثِ عَن شُؤونِ الحياةِ اليوميَّةِ العاديَّةِ. إذُ تناقُشُ النِّساءُ اللَّائِيَّ يَحْضُرْنَ مَجالِسَ العزاءِ. في سبيلِ المثالِ لا الحصرِ. عدَّةُ موضوعاتٍ متنوِّعةٍ مِنْها الهجرةُ، ومُنظَّماتُ المُجتمعِ المدنيِّ، والسِّياسةُ، والعنفُ.^(١) وهذه الموضوعاتُ هي الأكثرُ شيوعاً حتَّى بينَ غيرِ العراقيِّينَ؛ ولهذا الأمرِ مسبباتُهُ! إذُ يحوزُ الكثيرُ مِنَ الشَّيعةِ السُّوريِّينَ في مدينةِ السَّيِّدةِ زينبَ عائلاتٍ لهُم تقيُّمٌ في بلدانٍ أخرى مثلَ لبنانَ، والمملكةِ العربيَّةِ السَّعوديَّةِ، والكويتِ. وقد قابلْتُ في مجلسٍ عزاءٍ خاصٍّ في أربعينيَّةِ الإمامِ الحُسينِ في عامِ (٢٠٠٩ م) عدداً مِنَ النِّساءِ السُّوريَّاتِ اللَّائِيَّاتِ تزوَّجْنَ مِنَ عراقيِّينَ.^(٢) وسمعتُ أثناءَ وجودي في المجلسِ قصَّةَ زواجٍ إحدى النِّساءِ مِنَ عراقيٍّ عاشَ في الولاياتِ المتَّحدةِ لبضعِ سنينَ، وقد وعدَ الرَّجُلُ هذهَ المرأةَ باصطحابِها مَعَهُ، ولكنَّها ما زالتُ تنتظرُ منذُ خمسِ سنينَ، وقد كانَ الرَّجُلُ يأتي إلى سورياً بينَ الحينِ والآخرِ ليزورها، وأصبحَ لديهم ثلاثةُ أطفالٍ. وثمَّةُ أخرياتٍ غيرُ هذهِ المرأةِ أصبَحْنَ زوجاتٍ ثانيَّاتٍ لعراقيِّينَ محتاجونَ إلى رخصِ الإقامةِ في سورياً (الضُّروريَّةُ لمُساعدَتِهِم في الحُصولِ على عملٍ، ومن ثمَّ ضَمَانُ القدرةِ على إعالةِ زوجاتِهِم وعائلاتِهِم). وإذا اكتسبَ هؤلاءُ الرَّجالُ صِفَةَ لاجئينَ وفقَ نظامِ المُفوضَّيةِ السَّاميةِ لشُؤونِ اللَّاجئينَ، تحسُّلُ العائلةِ بأكملِها

(١) في سبيلِ المثالِ، تناقُشُ النِّساءُ في حوزةِ الصِّدِّيقينَ عادةَ زيارَتِهِنَّ إلى المُفوضَّيةِ السَّاميةِ قبلَ الصِّفوفِ الدِّرَاسيَّةِ وبعدها. (تولَّفَ النِّساءُ العراقيَّاتِ اللَّائِيَّاتُ بطلين اللجوءِ إلى أوروبا أو أمريكا الشَّمالِيَّةِ الأكثرِيةِ العظمى من الطالباتِ في هذهِ الحوزةِ). مقابلَ ذلكَ، تتحدَّثُ الطالباتِ في الحوزةِ الزَّينبيَّةِ عادةً عَن مُنظَّماتِ المُجتمعِ المدنيِّ والخدماتِ التي تقدِّمُها.

(٢) مَلاحِظاتٌ حقليَّةٌ، الثَّلاثاء، ١٣ كانون الثَّاني عامِ ٢٠٠٩ والخميس، ٥ شباط عامِ ٢٠٠٩.

على رواتب منتظمة حتى يتم توطينهم في بلد ثالث (إمّا في أوروبا الغربية أو أمريكا الشمالية) وبسبب عدم قبول هذه الدول بنظام تعدد الزوجات، يترك الرجل زوجته الثانية عادةً في سوريا. وإذا اختارت المرأة البقاء متزوجة، فإنها ستحصل على مرتب شهري متواضع زيادةً على مرتب ضئيل لكل طفل، وهذا يجعل المرأة تعيش في دوامة متواصلة، فهي غير قادرة على الانضمام إلى زوجها وفي الوقت ذاته مضطرةً ماليًا إلى الاستمرار في الارتباط معه ورعاية الأطفال! وبينما تنتظر النساء تقديم الطعام بعد مجلس عزاء خاص أقيم على وفق النمط السوري،^(١) اقتربت إحدى النساء من الملاية وسألته: هل يمكنك عمل استخارة؟^(٢) لأتمكن من معرفة هل سأحصل على وظيفة في المفوضية

^(١) يغلب على هذا المجلس الطابع السوري وفقًا لآمال بسبب عدم تضمّنه اللطميّات وتحدّث الملاية باللهجة السورية. وتتميّز مجالس العزاء العراقية بكونها أكثر شيوعاً في السيّدة زينب من المجالس السوريّة.

^(٢) ثمة طرائق متنوعة يمكن اتّباعها لعمل الاستخارة أكثرها شيوعاً في مدينة السيّدة زينب . بحسب ملحوظاتي التقديّة . هي الاستخارة بالكتب (القرآن عادة) واستخدام سُبْح الصّلاة . في حالة الاستخارة بالكتب، يمكن للفرد إمّا استخدام القرآن وإمّا بعض من كُتُب الاستخارة الخاصّة الشائعة في المكتبات الحوزويّة . وفي حالة استخدام القرآن ابتغاء الاستخارة، يتعيّن على الفرد التوضّؤ وقراءة سورة الفاتحة قبل الشّروع في الاستخارة ثمّ فتح القرآن عشوائياً وقراءة الأسطر الأولى، ثمّ محاولة تفسيرها بطريقة تجعله يعرف هل الآية تصبّ في صالحه أم لا . في سبيل المثال، تُعدّ الآيات التي تتحدّث عن الجنّة حسنة ومبشرة بالخير على وجه العموم مقابل الآيات التي تتحدّث عن النار والجحيم التي تُعدّ غير إيجابيّة . ويصدق الأمر ذاته في حالة الاستخارة باستخدام الكُتُب، إذ يُفسّر ما هو مكتوب في الصّفحة التي يختارها الفرد عشوائياً (بعد أداء الوضوء وقراءة سورة الفاتحة) بطريقة تجعله يعرف هل الأمر الذي ينوي القيام به سيؤدّي إلى نتيجة إيجابيّة أم سلبية (خبرة الإمام الصادق عليه السّلام [بيروت: لبنان، مؤسسة البلاغة، عام ٢٠٠٢].) في حالة الاستخارة بسبحة الصّلاة، يبدأ الفرد بخزعة يختارها عشوائياً، ثمّ بحسب خرزتين خرزتين في كل مرّة . فإذا بقيت خرزة واحدة قبل الوصول إلى القصبّة المؤدّية إلى الشّراية، وهي مجموعة الخيوط المتدلّية بشكل فضفاض من السّحّة، فإن ذلك يعني ضرورة المضّي في أداء الأمر، أمّا إذا بقيت أكثر من خرزة واحدة، فيعني العكس، أي ضرورة الامتناع عن

السَّامِيَّة لِشُؤُونِ اللَّاجِئِينَ غداً؟^(١) وسألت امرأةً أُخْرَى المَلَايَةَ: هل ستحملُ ابنتُها أم لا؟. وتسعى مثل هؤلاءِ النِّسوةِ مِنْ خلالِ هَذِهِ الأَسْئَلَةِ الخاصَّةِ بِأُمُورِ شَخْصِيَّةٍ إِلَى الحُصُولِ عَلَى إِجَابَاتٍ مُتَفَائِلَةٍ تَعُدُّ بِهَا . بِلاغِيًّا وَطُقُوسِيًّا . مَجَالِسُ العِزَاءِ الحُسَيْنِيَّةِ .^(٢)

تروي النِّسَاءُ العِراقِيَّاتُ قِصَصًا كَثِيرَةً عَنْ فِظَائِعِ الحَرْبِ، والجِرائِمِ، وَعَمَلِيَّاتِ الخُطْفِ، والقتلِ، والاعتِصَابِ! . وَقَدْ سَمِعْتُ فِي إِحْدَى المَرَّاتِ أَتْنَاءَ حُضُورِي مَجْلِسِ عِزَاءٍ خَاصًّا حَدِيثًا رَوَتْ فِيهِ المَرْأَةُ كَيْفَ قَتَلَ زَوْجُهَا أَحَدَ الأَشْخَاصِ أَتْنَاءَ الحَرْبِ، وَهُوَ الآنَ يَقْبَعُ فِي السَّجَنِ.^(٣) وَذَكَرْتُ امْرَأَةً فِي الأُرْبَعِينِيَّاتِ مِنْ عَمَرِهَا فِي مَجْلِسٍ آخَرَ: جِئْنَا إِلَى سُورِيَا لِأَنَّنا لَمْ نَسْتَطِعْ البَقَاءَ فِي العِراقِ؛ وَعَلَى الرُّغْمِ مِنْ أَنَّنا شِيعَةٌ، إِلَّا أَنَّنا لَمْ نَكُنْ بِمَأْمِنٍ مِنْ بَعْضٍ مِنَ الجَمَاعَاتِ المُسَلَّحَةِ أَمْثالَ جَيْشِ المِهْدِيِّ، وَفِي أَحَدِ الأَيَّامِ وَبَيْنَمَا كُنْتُ بِمُفْرَدِي مَعَ بَنَاتِي فِي المَنْزِلِ، ظَهَرَتْ مُجْمُوعَةٌ مِنَ الشَّبَابِ المُسَلَّحِ عِنْدَ بَابِ مَنْزِلِي، قُلْتُ لَهُمْ: اغْتَصِبُونِي وَلَكِنْ لَا تَمْسُوا بَنَاتِي بِسُوءٍ.^(٤) وَلَمْ تَقُلْ المَرْأَةُ مَاذَا حَدَثَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَيَبْدُو أَنَّ المُسَلَّحِينَ قَدْ غَادَرُوا مِنْ دُونِ أَنْ يَفْعَلُوا شَيْئًا لِلْعَائِلَةِ، لِأَنَّهُ لَوْلَا ذَلِكَ، لَمَّا أَقْدَمَتِ المَرْأَةُ عَلَى رِوَايَةِ هَذِهِ القِصَّةِ . وَيَنْدُرُ أَنْ تَرُويَ النِّسَاءُ القِصَصَ

أدائه. وَاللَّافَتْ لِلانْتِبَاهِ فِي المَجَالِسِ المَذْكُورَةِ أَعْلَاهُ اسْتِخْدَامُ المَلَايَةِ سَبِيحَةِ الصَّلَاةِ لِأداءِ الاسْتِخَارَةِ.

(١) مَلِحُوظَاتُ حَقْلِيَّةٍ، الثَّلَاثاء، ١٣ كَانُونِ الثَّانِي عام ٢٠٠٩.

(٢) خِلافًا لِلِاسْتِخَارَةِ الَّتِي يَجْرِيهَا السَّنَّةُ، لَيْسَ القِصْدُ مِنْ طَرِيقَتِي الاسْتِخَارَةِ الشَّيْعِيَّةِ المَذْكُورَتَيْنِ أَعْلَاهُ التَّحْذِيرُ، بَلْ إِنْ القِصْدُ مِنْهَا هُوَ تَشْجِيعُ الفِرْدِ فَحَسَبَ إِمَّا عَلَى المِضِيِّ قَدَمَا فِيمَا يَنْوِي فَعْلَهُ أَوِ الكَفِّ عَنْهُ.

(٣) مَلِحُوظَاتُ حَقْلِيَّةٍ، الأَحَد، ٥ كَانُونِ الأوَّل عام ٢٠٠٩.

(٤) مَلِحُوظَاتُ حَقْلِيَّةٍ، الأَرْبَعاء، ٢١ كَانُونِ الثَّانِي عام ٢٠٠٩.

كاملة، ربما لأمتها مؤلمة جداً، أو ربّما لرغبتهم في تحقيق أكبر قدر ممكن من التأثير الدرامي.

وعلى الرغم من عدم بلوغ القصص نهاياتها المتوقعة (وربّما بسبب ذلك) فإنّها تتحوّل إلى دليل دامغ على معاناة هؤلاء النساء التقيّات وتضحياتهنّ الذاتية.^(١)

وزيادةً على مُشاطرة بعضهنّ بعضاً الألم والشكوى بسبب صعوبات الحياة - ومن خلال ذلك إظهار تقواهنّ وتديّنهنّ - يبدو أنّ النساء يتنافسن كذلك فيما بينهنّ ومع اللامتممين. فبينما كانت إسرائيل تقصف غزّة أثناء استذكّار الشيعة في مدينة السيّدة زينب مصائب عاشوراء ووقعة كربلاء، لحظت حديث النساء المكروّر عن ذلك الموضوع في مجالس العزاء العامّة والخاصّة كليهما.

فقد لحظت في أحد المجالس الخاصّة، انهماك "ميامي" و "أمّ حسن" وهما من نساء الطّبقة الوسطى العالية اللّتين دأبت في الحديث معهما في مجالس العزاء الأخرى في مناقشة عمليّات قصف غزّة التي توقّفت قبل ثلاثة أيّام، وعلى الرغم من ذلك، ما زال المسؤولون عن المساعداّت الإنسانيّة غير قادرين على إغاثة الجرحى والمحتاجين، وقد بلغ عدد الضّحايا الذين سقطوا في هذه

(١) في كتابه: (المعاناة الخلاصيّة في الإسلام) كتب محمّد أيّوب أنّ عائلة النّبي لها القدرة على التّوسّط لدى الله بالتّابة عن أتباعهم بسبب مُعاناتهم العميقة. قارن مع محمّد أيّوب: (المعاناة الخلاصيّة في الإسلام: دراسة في جوانب عاشوراء التّعيديّة في المذهب الشّيعي الاثني عشريّ) (نيويورك: موتون، عام ١٩٧٨). يُنظر كذلك: طيبة حسن الخليفة شريف "السّرديات المقدّسة التي تربط النساء الشّيعيات العراقيّات من خلال الزّمان والمكان" في (الشّبكات المسلمة من الحجّ إلى الهوب هوب) تحرير مريم كوك وبروس لورنس (تشابل هل: جامعة نورث كارولينا، عام ٢٠٠٥) ١٣٢-١٥٤.

العمليات ألفاً ومئتي قتيل وخمس مئة جريح، وقد شعرت آمال السوربة التي انضمت إلى الحديث بحزنٍ خاصٍ على الجرحى الذين أُصيبَ العديدُ منهم بالعمى، وتساءلت "ميامي" والمرأة العراقية الأخرى: ما الذي سيفعله هؤلاء الجرحى الآن؟. واشتكت من تركيز وسائل الإعلام على عرض صور الجرحى والأطفال الضعفاء بوصفهم الضحايا الرئيسيين. وفي مقابل ذلك شعرت هاتان المرأتان بأن وسائل الإعلام لم تنصف الأطفال العراقيين المساكين، ولم تكن عادلة معهم لجهة تخصيص الوقت الكافي لهم في برامجها أثناء تغطيتها الحرب في العراق.^(١)

لا ترمي النساء العراقيات - من الحديث عن مصاعبهن والتجارب الصادمة التي خضنها في العراق والأماكن الأخرى - إلى تقوية أو إصرر العلاقة فيما بينهن فحسب، بل إنهن يجددن معالم المجتمع المتدين والمظلوم. وبحسب ما ذكره "أميل دوركيم" فإن التجمعات الطقوسية لا تنتج المجتمع المحلي فحسب أو (الكوميتاس) بحسب "فكتور تيرنر" بل إنها تحدّد الإقصاءات كذلك. إلا أن هذه الإقصاءات غير مطلقة، بل ثمة درجات متباينة من الإقصاء أو التضمين. ففي الحالة المبينة أعلاه، وضعت النساء العراقيات الأطفال الفلسطينيين جنباً إلى جنب مع العراقيين على الرغم من أن الفلسطينيين مقصيون هنا مرتين، مرةً لأنهم غير عراقيين وأخرى لأنهم سنة لا شيعة. وتنطوي مسألة المسلحين العراقيين الشيعة الذين يضايقون المدنيون على إشكالية عميقة، فهم، أولاً عراقيون وثانياً شيعة، ولكنهم. وهذا ما بدا واضحاً غير متدينين ولا متقين. ويزج المثل السوري التالي بنحو مناسب الأسلوب

(١) ملحوظات حقليّة، الأربعاء، ٢١ كانون الثاني، عام ٢٠٠٩.

الذي يُتَّبَعُ في رسم هذه الحدود: (أنا على أخي، وأنا وأخي على ابن عمي، وأنا وأخي وابن عمي على الغريب).

وتروي النساءُ الشيعياتُ قصصاً إيجائيةً كذلك، إذ يتحدثْنَ . في سبيل المثال . عَنْ قِصَصِ التَّشْيِيعِ وَعَنْ الْمُعْجَزَاتِ وَقِصَصِ الإِصْلَاحِ الْأَخْلَاقِيِّ الَّذِي يَتِمُّ بِفَضْلِ التَّمَسُّكِ بِالتَّقْوَى وَالْوَرَعِ؛ وَهَذِهِ الْقِصَصُ جَمِيعاً مُرَحَّبٌ بِهَا وَتُرَوَّى قَبْلَ مَجَالِسِ الْعَزَاءِ وَبَعْدَهَا. وَيَحْصُلُ الضُّيُوفُ فِي حُسَيْنِيَّةِ وَلَايَةِ عَلِيٍّ فِي بَعْضِ مِنَ الْأَحْيَانِ عَلَى وَجْهَةِ طَعَامٍ قَبْلَ انْعِقَادِ الْمَجْلِسِ، وَفِي بَعْضِ مِنَ الْأَحْيَانِ بَعْدَ انْتِهَائِهِ بِوَقْتٍ طَوِيلٍ، وَتَطْلُبُ أُمُّ جَعْفَرٍ مِنَ الْحَاضِرَاتِ جَمِيعاً الْوُقُوفَ لِكَي تُوَدِّيَ لَطَمِيَّتَهَا الْخَتَامِيَّةَ الْحَمَاسِيَّةَ. وَلَكِنْ، وَبِسَبَبِ انْتِهَاءِ النِّسَاءِ لِلتَّوَمِّنِ تَنَاولَ أَطْبَاقِ الْهَرِيْسَةِ،^(١) نَادَتْ إِحْدَى الْعَجَائِزِ بِصَوْتٍ عَالٍ رَافِضَةً الْاِمْتِثَالَ لَطَلْبِ أُمِّ جَعْفَرٍ: (كَلَّا! دَعُونَا نَجْلِسُ) وَهَكَذَا، اسْتَمَرَّتِ الْحَاضِرَاتُ فِي الْجُلُوسِ، وَقَرَأَتْ الْمَلَايَةُ الدُّعَاءَ الْخَتَامِيَّ، وَشَرَعَتْ الْحَاضِرَاتُ حَالَ الْاِنْتِهَاءِ مِنْهُ فِي الْحَدِيثِ وَالضَّحْكِ فِي حِينٍ سَحَبَتْ مَسَاعِدَهُ الْمَلَايَةُ سَبْكَارَةً لَتَدْخِينَهَا، وَهُوَ مَشْهُدٌ تَنْدُرُ رُؤْيَاهُ! وَقَرَّرَتْ هَذِهِ الْمَسَاعِدَةُ الْعِرَاقِيَّةُ الَّتِي دَخَنْتْ أَخَذَ مَكْبَرِ الصَّوْتِ وَسَرِدَ بَعْضٌ مِنَ الْقِصَصِ الَّتِي تَرَوِي إِحْدَاهَا قِصَّةَ امْرَأَةٍ مَرِيضَةٍ حَصَلَتْ عَلَى قَدَحٍ مِنَ الْمَاءِ وَشَرِبَتْهُ، وَحِينَذَا زَارَتْ الطَّبِيبَ فِي الْيَوْمِ التَّالِي، لَحَظَ الطَّبِيبُ تَعَافِيَهَا وَاخْتِفَاءَ مَظَاهِرِ الْمَرَضِ نَهَائِيًّا!. وَتَقْلِيدِيًّا فَإِنَّ "الْمَرْأَةَ" الَّتِي سَلِمَتْ الْمَرِيضَةُ الْمَاءَ مَعْرُوفَةٌ لَدَى مَسَاعِدَةِ الْمَلَايَةِ: إِنَّهَا الزَّهْرَاءُ عَلَيْهَا السَّلَامُ.

(١) الهريسة هي أكلة شرقية بامتياز، تُقدَّم عادة في مجالس العزاء وفي بعض من الأحيان في خيام الضيافة في شهر المحرم. وتتألف مكوناتها من الدجاج والتودل مطبوخة بالحليب والقرفة. وتختلف المواد التي تُعد منها الوجبة بحسب البلد، فالهريسة العراقية التي يشيع تقديمها في المحرم تختلف عنها في سوربة مثلاً.

في قصّةٍ أخرى كانت امرأةٌ في حاجةٍ ماسّةٍ إلى عمليّةٍ جراحيةٍ في ساقها، ولكنّها كانت شديدة الخوف من إجرائها، فحلّمت أنّ امرأةً جاءت إليها في المنام وقرأت عليها أحد الأدعية ابتغاء شفاء ساقها، فشعرت المريضة بالتّحسّن في اليوم التّالي، ولم تذهب لإجراء العمليّة؛ وحينما استدعاها الطّبيب أخبرته أنّ صحتّها قد تحسّنت وأنها برأت من مرضها.

وسردت امرأةٌ أخرى من الحاضرات قصّة رجل كان في السّجن. وفي أحد الأيام رأت أمّه في المنام الزّهراء عليها السّلام وهي تسلّمها قدحاً من الماء شرب منه ابنها، فأطلق سراحه في اليوم التّالي.

ثم روت الملاية قصّة أخرى ادّعت أنّها قد حدثت لها شخصيًّا؛ فقبل بضعة سنين وبعد أن أنجبت ابنتها لم يكن بقدرتها إرضاعها لجفاف الحليب في صدرها. ولهذا، زارت والدتها مرقد الإمام العباس في كربلاء للدّعاء لابنتها وجلبت لها ماء من الصّريح؛ وفي اليوم التّالي كان صدرها مليئاً بالحليب وتمكّنت من إرضاع الطّفلة.

وبعد الانتهاء من رواية قصصها الإعجازيّة، قرأت مساعديها من أحد الكتب التي بحوزتها قصيدة نعت فيها مصائب فاطمة الزّهراء ولتكون خاتمةً لسلسلة القصص التي رويت في المجلس.^(١)

ترك رواية القصص عن الأعمال الإعجازيّة آثاراً عميقة في نفوس المستمعات! إذ تسهم هذه القصص في تغذية روح الأمل والثّقة بالله والأئمّة المعصومين. أمّا القصص الأخرى عن الحرب في العراق وأعمال العنف فتثير غضب المستمعات حتّى في حالة عدم مطالبتهنّ باتّخاذ ما يلزم حيالها. وقد

(١) ملحوظات حقليّة، الجمعة، ٩ كانون الثّاني، عام ٢٠٠٩.

أَتَاخَتْ هَذِهِ الْقَصَصُ الإِعْجَازِيَّةَ لِلْمُسْتَمِيعَاتِ فِي الْحَالَةِ السَّابِقَةِ فِرْصَةَ التَّوَاصُلِ
مَعَ بَعْضِهِنَّ بَعْضًا. أَحْشَائِيًّا. وَمَعَ الْأُئِمَّةِ الْمَعْصُومِينَ.

عَلَى خُطَى أُئِمَّةِ الشَّيْعَةِ:

تَرَكْتُ الْقَصَصُ الَّتِي تُرَوَّى عَنِ الْأُئِمَّةِ، سَوَاءً زُوِيَتْ فِي سِيَاقِ الْمَجَالِسِ
(مِثْلًا بَيْنًا أَعْلَاهُ) أَمْ خَارِجَهَا... تَرَكْتُ آثَارًا عَمِيقَةً فِي نَفُوسِ الْمُسْتَمِيعِينَ الْمُتَّقِينَ،
وَقَدْ تَدَفَّعُهُمْ إِلَى الْقِيَامِ بِفِعْلٍ مَا. وَيُمْكِنُ لِهَذِهِ الْقَصَصِ أَنْ تَجْعَلَ الشَّيْعَةَ الْمُتَّقِينَ
يَفْكُرُونَ وَيَشْعُرُونَ، وَقَدْ تَدَفَّعُهُمْ إِلَى الْبَكَاءِ وَضَرْبِ أَنْفُسِهِمْ بِالزَّانِجِيلِ. وَلَكِنْ
ثُمَّ سَوَّالٌ يَطْرُحُ نَفْسَهُ هُوَ: هَلْ ثَمَّةُ وَسِيلَةٍ أُخْرَى - إِلَى جَانِبِ الْقَصَصِ -
يَرْتَبِطُ بِوَسَاطَتِهَا الشَّيْعَةُ بِالْأُئِمَّةِ؟

ذَكَرْتُ "لَارَا دِيب" فِي أَحَدِثِ دِرَاسَاتِهَا الَّتِي تَنَاوَلَتْ فِيهَا الْأُئِمَّةَ
بِوُصْفِهِمْ أَنْمُودَجَاتٍ أَدْوَارَ، أَنَّهُ بَيْنَمَا يَحْسُدُ الرِّجَالُ الشَّيْعَةَ الْحُسَيْنَ، يُطْلَبُ مِنَ
النِّسَاءِ تَقْلِيدُ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ.^(١) وَيَبْدُو جَلِيلًا. بِحَسَبِ دِيبٍ. أَنَّ الْمَسْأَلَةَ هُنَا تَتَعَلَّقُ
بِالتَّمْيِيزِ الْقَائِمِ بَيْنَ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى.

وَسَأَبْدَأُ فِي الْمَبْحَثِ الْحَالِيِّ بِهَذَا التَّمْيِيزِ، وَلَكِنِّي لَنْ أَكْتَفِيَ بِذَلِكَ، بَلْ
سَأَحْرُصُ عَلَى تَطْوِيرِهِ. وَثَمَّةُ جَانِبٍ مُحَدَّدٌ أَوْدُ لَفَتْ الْإِنْتِبَاهَ إِلَيْهِ هُوَ أَنَّ "الْجَنْدَر" لَا
يَشْكُلُ الْأَدَاةَ التَّحْلِيلِيَّةَ الْوَحِيدَةَ الَّتِي تَتَعَيَّنُ الْعِنَايَةُ بِهَا، إِذْ يَنْبَغِي كَذَلِكَ
الْعِنَايَةُ بِمَسْأَلَةِ مَعْصُومِيَّةِ الْمَرَأَةِ مِنْ عَدَمِهَا. وَبِكَلِمَاتٍ أُخْرَى: إِذَا كَانَ الْإِمَامُ

(١) لَارَا دِيب، "تَقْلِيدُ الْمِثَالِ وَ / أَوْ تَحْسِيدُهُ: جَنْدَرَةُ الْأَطْرَافِ الزَّمَنِيَّةِ وَأَنْمُودَجَاتِ الدَّورِ الْإِسْلَامِيَّةِ
فِي لُبْنَانَ الشَّيْعِيَّةِ". مَجْلَةُ الْأَنْثُولُوجِي الْأَمْرِيكِي ٣٦ الْعِدَدُ ٢ (٢٠٠٩) ٢٥٠.

مَعْصُومًا، فَإِنَّ الشَّيْعَةَ سَيَقْلُدُونَهُ^(١) وزيادةً على ذلك، ونظراً إلى تكريسِ الشَّيْعَةِ أَنْفُسَهُمْ إلى وَلِيَّاتٍ مِنَ الْجَنَسِ الْآخِرِ [أَيِ مِنَ النِّسَاءِ]، لا بدَّ لي في هذا الموقعِ مِنْ طَرَحِ فِكْرَةٍ مُفَادَهَا مِثْلُ الْأَثْمَةِ فِي حَالَاتٍ مِثْلِ هَذِهِ إِلَى الْعَمَلِ بِوَصْفِهِمْ أَثْمَةً مُنَاصِرِينَ وَدَاعِمِينَ أَكْثَرَ مِنْهُمْ أَنْمُودَجَاتِ دَوْرٍ؛ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ إِمْكَانِ تَكْرِيسِ الْفَرْدِ نَفْسَهُ إِلَى إِمَامٍ رَاعٍ مِنْ جَنْسِهِ.

وِخِلَافًا لِمَا فِي حَالَةِ أَنْمُودَجَاتِ الدَّوْرِ، لَا يَقْلُدُ الشَّيْعَةُ الْأَثْمَةَ الْمُنَاصِرِينَ أَوْ يَجْسِدُونَهُمْ، بَلْ إِنَّهُمْ يَرْتَبِطُونَ بِهِمْ عَنْ طَرِيقِ بَعْضٍ مِنَ الْمَهَارَسَاتِ التَّبَادُلِيَّةِ. أَوْ الْعَمَلِ كَمَلَّاتٍ فِي حَالَةِ النِّسَاءِ.

وَابْتِغَاءَ شَرْحِ هَذِهِ الْجَوَانِبِ بِتَفْصِيلٍ أَكْبَرَ، سَأُنَاقِشُ أَوَّلًا كَيْفَ تَوَثَّرَ مَسْأَلَةُ الْمَعْصُومِيَّةِ فِي الطَّرَائِقِ الَّتِي يَرْتَبِطُ بِوَسَاطَتِهَا الشَّيْعَةُ بِالْأَثْمَةِ، وَفِي الْأَسَالِيبِ الَّتِي يُوْظَفُهَا أَتْبَاعُ آلِ الْبَيْتِ رِجَالًا وَنِسَاءً ابْتِغَاءَ تَجْسِيدِ أَنْمُودَجَاتِ الدَّوْرِ الْإِمَامِيَّةِ وَتَقْلِيدِهَا؛ وَسَأُنْقُلُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى دَرَاةِ الْأَسَالِيبِ الَّتِي يَرْتَبِطُ بِوَسَاطَتِهَا هَؤُلَاءِ الْأَتْبَاعُ بِالْأَثْمَةِ الْمُنَاصِرِينَ، وَسَأُرَوِّي ثَالِثًا قِصَصَ ثَلَاثِ مَلَايَاتٍ ابْتِغَاءَ مَعْرِفَةِ السَّبَبِ وَالْكِفِيَّةِ الَّتِي جَعَلَتْهُنَّ يَعْمَلْنَ فِي هَذَا الْمَجَالِ، وَجَلَاءَ آيَاتِ ارْتِبَاطِهِنَّ بِالْأَثْمَةِ الْمُنَاصِرِينَ.

(١) يَتَّسَمُ الْمَوْقِفُ بِكَوْنِهِ أَكْثَرَ تَعْقِيدًا فِي حَالَةِ النِّسَاءِ. فَالْمَرَأَةُ الْوَحِيدَةُ الْمَعْصُومَةُ هِيَ فَاطِمَةُ الَّتِي تُؤْفِتُ شَاةً. وَزِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ، يَمِيلُ النَّاسُ فِي مَدِينَةِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبٍ إِلَى تَفْضِيلِ زَيْنَبٍ (غَيْرِ الْمَعْصُومَةِ) عَلَى فَاطِمَةَ. وَيُمْكِنُ تَبَعًا لَذَلِكَ لِلتَّمْيِيزِ الَّذِي وَضَعْتَهُ لَارَادِيْب، وَالَّذِي تَقُولُ فِيهِ: إِنْ الرِّجَالُ يَقْلُدُونَ الْأَثْمَةَ الْمَعْصُومِينَ فِي حِينَ تَقْلُدُ النِّسَاءُ غَيْرَ الْمَعْصُومَاتِ؛ أَنْ يَصْمَدَ، لَوْ لَمْ يَتَعَلَّقِ الْأَمْرُ بِالْإِمَامِ الْعَبَّاسِ. فَالْعَبَّاسُ (وَهُوَ الْإِمَامُ غَيْرُ الْمَعْصُومِ) أَكْثَرُ شَعْبِيَّةٍ مِنَ الْحُسَيْنِ أَوْ عَلِيِّ الْمَعْصُومِينَ كُلِّيهِمَا. وَيَحْرُصُ الرِّجَالُ الشَّيْعَةُ عَلَى وَجْهِ الْعُمُومِ عَلَى تَقْلِيدِ الْإِمَامِ الْعَبَّاسِ أَكْثَرَ مِنْهُ تَجْسِيدِهِ.

ووفقاً لـ "الاراديب" يجري تشجيع الرجال الشيعة في لبنان على تجسيد الأئمة المعصومين (وخصوصاً الإمامان عليّ والحسين) من خلال المشاركة في القتال. وابتغاء تطوير ما ذكرته "ديب" سأمضي بعيداً إلى حد القول: إنه لا يمكن للرجال الشيعة تجسيد هذين الإمامين المعصومين تجسيدا كاملاً سوى في الموت عن طريق نيل الشهادة.^(١) وخلافاً لما ذكر للتو، لا يشجع الرجال في مدينة السيّد زينب. على وجه العموم. وعلى الأقل ليس رسمياً على تجسيد الأئمة من خلال التوجه إلى ساحات القتال في العراق أو لبنان. وفي واقع الأمر، فقد أبدت النساء اللائي تحدثت إليهن إعجابهن بالإمام عليّ، ولكنهن لم يكن راجيات في أن يقلدنه أزواجهن في القتال والموت كشهداء! إذ تشعر "أم عيسى البصريّة" التي تبلغ الثلاثين والمتزوجة، ولكنها لم تنجب أطفالاً، والتي سنعرض لقصتها في المبحث المعنون بـ (أن تصبجي ملأية)... تشعر في سبيل المثال بنوع وثيق من الارتباط بالإمام عليّ. إنهما معجبة به لمثاليته، وشجاعته، وورعه، ونكرانه ذاته؛ ولكنها - على الرغم من ذلك - لا تريد أن تفقد زوجها في الحرب، وهو الضابط العسكري السابق شديد الانضباط، بل إنهما لا تريد أن يكون زوجها مثل الإمام عليّ لسببين هما: زواج الإمام بأكثر من امرأة واحدة، وضيّق ذات اليد الذي كان يعانيه.^(٢)

(١) لا تنسجم مفهومات التجسيد والتقليد تماماً مع وجهات المفردتين "ثار" و "آثار". ويمكن مع ذلك بنحو سائب القول: إن الرجال المتقين "يثارون" و "يدفعون" إلى القيام بشيء ما (ثار) حينما يحسدون الأئمة المعصومين (عن طريق التوجه إلى ساحة القتال). وخلافاً للرجال، تقلد النساء التقنيات الوليات الصالحات من خلال التجاوب مع "الآثار" والتعرض لها. ولا يمكن للنساء أن تغدو أكثر نشاطاً وفاعلية لجهة التأثير في النساء الأخريات إلا من خلال العمل كملاية.

(٢) ملحوظات حقليّة، الأحد، ٢٠ كانون الأوّل عام ٢٠٠٩.

وخلافاً لما في لبنان، حيث يحظى الحسين وعلي بأهمية بالغة كونهما أئمةً ذكوراً؛ وثمة إمام آخر يحظى بشعبية أكبر في مدينة السيّد زينب هو الإمام العباس. فوفقاً لـ "إسحاق نقاش" يفضل رجال القبائل في جنوب العراق (على شاكلة الكثير من الشيعة في سوريا الذين يؤلف العراقيون أكثريتهم) العباس أخا الحسين غير الشقيق الذي قُتل في كربلاء، لأنه كان مالياً وصديقاً وعادلاً، ولكنه سريع الغضب كذلك، وهو ما ينسجم مع قيم الرجولة القبليّة العراقيّة المثاليّة.

ويحظى العباس بمكانة خاصّة، وقد تطوّرت حوله عبادة شخصيّة؛ حتّى إنّ رجال القبائل يخلفون باسمه، وهو حلف ملزم، لأنّ العباس - خلافاً للحسين - لا يغفر، ويفتقر إلى ميزة الصبر؛ وإذا حنث فردٌ ما بالقسم المسمّى باسم العباس، فإنّ الإمام سيردّ عليه سريعاً لأنّه معروفٌ (بسرعة انتقامه).^(١) وتبدّى مكانة العباس في نفوس العراقيين واضحةً من خلال ميل الكثير منهم إلى تسميته "العباس".^(٢) إلّا أنّ العباس غير معصوم خلافاً لأبيه عليّ وشقيقه من أبيه الإمام الحسين. وهذا يعني أنّ بقدره الشيعة تقليده ومساءلته في آن معاً. وتبعاً لذلك، يمثّل العباس أنموذج دور مرن لجهة أنّ معصوميّته تسمح لأتباع آل البيت بالتحاوّر والنقاش بشأن الانتماء، والولاء، والتّقوى، والشفاء. ولا يمثّل العباس مثلاً يحرص الشيعة على تقليده، إذ لم أقابل شخصاً يدّعي بوجوب أنّ يصبح الفرد الشيعي عباساً، بل إنهم يحرصون. على وجه العموم. على تقليد خصاله الإيجابيّة.

(١) نقاش (شيعة العراق) ١٧٨.

(٢) ملحوظات حقليّة، الاثنين، ٢٦ كانون الأوّل عام ٢٠٠٩.

وتمثّل فاطمةُ الزَّهراءُ المَعْصومةُ وابنتُها السيِّدةُ زينبُ الوليّتينِ وأنموذجاتِ الدَّورِ الأنثويَّةِ الأهمَّ في المذهبِ الشَّيعيِّ الاثني عَشَريِّ، وهما متساويتان تقريباً من حيث شعبيّتهما في هذا المذهب. ويذكر "كامران آغاي" و "لارا ديب" وغيرُهما حدوثَ تحوّلٍ في كلّ من إيران ولبنان في النّصفِ الثَّاني من القرنِ العشرين؛ لجهة التّوكيد من المَعْصومةِ فاطمةَ إلى السيِّدةِ زينب. (١) إذ تمثّل فاطمةُ المَعْصومةُ مثالَ الأنوثةِ الورعةِ، والتَّقِيَّةِ، والصَّامِتَةِ، والمطيعةِ. (٢) وخلافاً للمَعْصومةِ، يقدّمُ سلوكُ زينب. غير المَعْصومةِ. في وقعةِ كربلاء نطاقاً واسعاً من التمثيلات فيما يتصل بمثُلِ الأنوثةِ التَّقِيَّةِ. (٣)

وتخطى فاطمةُ وزينبُ كلاهما بأهمّيّةٍ ومكانةٍ بارزتين في سورياً، غير أنَّ النِّساءَ الشَّيعيّاتِ يتبنَّعن طرائقَ مختلفةً في مُقارَبةِ هاتينِ الوليّتينِ. وعلى الرُّغمِ من تمثيلهما كليهما أنموذجاتِ دَوْرٍ، إلّا أنَّ "لارا ديب" لحظت أنَّ النِّساءَ لا يملنُ إلى التَّعبيرِ عن رغبَاتِهِنَّ في أن يضبْحنَ (أو يحسِّدنَ) وليّاتِ إناثاً، وبدلاً من ذلك، ومثلاً سائبين أدناه، تستحضرن النِّساءَ الشَّيعيّاتِ فاطمةَ المَعْصومةَ ويستلهنَّها طقوسياً؛ في حين يمثّلن زينبَ ويقلدنَّها طقوسياً. وتشغلُ فاطمةُ وزينبُ مواقعَ متعارضةٍ رمزيّاً وبنائياً في المجالسِ، إذ تتحدّثُ الرَّاويّةُ / المَلّايةُ

(١) يؤكّد كلّ من ديب و آغاي على حدوث تحوّل خطابيّ من فاطمة إلى زينب، من التّدين (التقليدي) المفعّل إلى التّدين "الثوري" (والحديث).

(٢) بسبب تقديم فاطمة بوصفها المَعْصومة الصَّامِتة والمطيعة، فإنَّ الرّغبة في تجسيدها لن "تخرض" الموالين من الشيعة على الفعل الثوري.

(٣) تميّز النِّساءُ الشَّيعيّاتِ في لبنان بين التفسير "التقليدي" لقصة زينب وشخصيّتها والتفسير "الموثق". فخلافاً للأنموذج "التقليدي" الذي يروي كيف أخذ الحزن من زينب كل مأخذ بعد فقدها أخاها الحسين، تركّز النسخة "الموثقة" على ما فعلته زينب لجهة وقوفها بوجه يزيد ونشرها قصّة وقعة كربلاء المفجعة ورعايتها الأطفال والنساء الأخريات. ديب "من العزاء إلى الجهاد". ٢٥٨-٢٥٥، ٢٤٢.

عَادَةً بَصَوْتُ زَيْنَبَ (ولكنَّهَا لَا تَجْسِدُهَا، بِمَعْنَى أَنَّهَا لَا تَصْبُحُ السَّيِّدَةَ زَيْنَبَ خَارِجَ حَيْزِ الْمَجَالِسِ).

وإبتغَاء استحضارِ فاطمةَ ومُحَاطَبَةِ جُمْهُورِهَا مِنَ الْحَاضِرَاتِ، بَيَّنَّتِ الْعُلُوبِيُّ "مَرْضِيَّةً" فِي أَحَدِ الْفُصُولِ الدَّرَاسِيَّةِ الصِّفِيَّةِ عَنِ الْخُطْبَةِ الْحُسَيْنِيَّةِ، أَنَّهُ يَتَعَيَّنُ عَلَى الْمَلَايَةِ أَنْ تَتَخَيَّلَ وَجُودَ آلِ الْبَيْتِ وَخَاصَّةً فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ دَاخِلَ الْقَاعَةِ وَفَوْقَ الْحَاضِرَاتِ؛ تَنْظُرُ مِنَ الْأَعْلَى إِلَى مَا يَدُورُ فِي الْمَجْلِسِ.^(١) وَلَمْ تَكُنْ فَاطِمَةُ (تَوَفِّيَتْ فِي عَامِ ٦٣٢ أَوْ ٦٣٣ م) فِي قَيْدِ الْحَيَاةِ حِينَمَا حَدَّثَتْ وَقَعَةُ كَرْبَلَاءَ (فِي عَامِ ٦٨٠ م) وَلَكِنَّهَا تَشْغُلُ مَوْقِعًا مَحْورِيًّا فِي مَجَالِسِ الْعِزَاءِ بِوُضُفِهَا أَمَّا ثَكَلَى مَفْجُوعَةً. وَقَدْ طُرِحَ فِي أَحَدِ الْأَيَّامِ فِي شَهْرِ الْمُحَرَّمِ سُؤَالٌ بِشَأْنِ مَدَى وَاقِعِيَّةِ فِكْرَةِ حُضُورِ الزَّهْرَاءِ فِي مَجَالِسِ الْعِزَاءِ جَمِيعًا!، وَفِي مُحَاوَلَةٍ مِنْهَا لِلْإِجَابَةِ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ، بَيَّنَّتْ أُمُّ حَيْدَرٍ مَسْؤُولَةَ الْقِسْمِ النِّسَائِيِّ فِي الْحَوَازَةِ الزَّيْنَبِيَّةِ ضَرُورَةَ التَّفَكِيرِ فِي الزَّهْرَاءِ بِوُضُفِهَا الشَّمْسِ الَّتِي تَشْرُقُ عَلَى الْجَمِيعِ، وَلِهَذَا فَهِيَ تَعْلُو كُلَّ مَجْلِسٍ وَتَحْلُقُ فَوْقَهُ.^(٢) وَتَخَاطَبُ الْمَلَايَةَ الْمَعْصُومَةَ فَاطِمَةَ وَتَسْتَشِيرُ حُضُورَهَا بِأَسْلُوبٍ طُقُوسِيٍّ مِنْ خِلَالِ الْحَدِيثِ بِالنِّيَابَةِ عَنْ زَيْنَبَ. وَبِمَعْنَى مَا، فَإِنَّ مَجْلِسَ الْعِزَاءِ يَمُهِدُ الطَّرِيقَ لِإِقَامَةِ عِلَاقَةٍ مُتَبَادَلَةٍ وَمُؤَثِّرَةٍ عَاطِفِيًّا بِأَسْلُوبٍ طُقُوسِيٍّ، وَتَتَجَلَّى هَذِهِ الْعِلَاقَةُ الْمُتَبَادَلَةُ بَعْدَ طَرَائِقَ وَأَوْجِهٍ، فَهِيَ مُتَبَادَلَةٌ عَاطِفِيًّا: إِذْ تَحْضُرُ فَاطِمَةُ الْمَجَالِسَ، وَتَتَعَاطَفُ مَعَ الشَّيْعَةِ الَّذِينَ يَتِمَاهَوْنَ مَعَ مَآسَاتِهَا وَيَبْكُونَ لِأَجْلِهَا، وَهِيَ تَشْفَعُ لَهُمْ وَتَرْدُّ بِسَرْعَةٍ عَلَيْهِمْ.

(١) مَلَحُوظَاتُ حَقْلِيَّةٍ، الْاِثْنَيْنِ، ٢٣ حَزِيرَانِ عَامِ ٢٠٠٨.

(٢) مَلَحُوظَاتُ حَقْلِيَّةٍ، الْأَحَدِ، ٤ كَانُونِ الثَّانِي عَامِ ٢٠٠٩.

يُعدّ (الوقوف إلى جانبِ فاطمة) في مدينةِ السيِّدة زينبَ مسألةً خطائيَّةً حاسِمةً وفاصلةً، ومماثلَّةً في أهميَّتها للسَّجَالِ الخاصِّ بالتَّطهير.^(١) ويحرصُ الشِّيرازيُّونَ إلى جانبِ أكثريةِ رجالِ الدِّينِ الآخرينَ في مدينةِ السيِّدة زينبَ على التَّرويجِ "لآلامِ فاطمة" والتَّشجيعِ على نشرِها. وتنظِّمُ الحوزةُ الزَّينبيَّةُ التي تحوِّزُ على الحُسينيَّةِ النَّسائيَّةِ الأكبرِ في المدينةِ أسبوعاً طويلاً اسمُهُ "الفاطميَّاتُ" تُقامُ فيه مجالسُ عزاءٍ يوميَّةٌ تُكرَّسُ لتخليدِ ذكرى وفاةِ فاطمة.^(٢) وفي مقابلِ الشِّيرازيِّين، يقلُّ آيتا الله فضلُ الله والخامنيُّ من أهميَّةِ المُعتقِدِ الشَّيعيِّ الشَّائعِ على نطاقٍ واسعٍ الذي يقولُ: إِنَّ أَصْحَابَ أُيُّهَا قَدْ أَسَاؤُوا مُعَامَلَتَهَا بَعْدَ وَفَاتِهِ.^(٣) وبلاستنادٍ إلى آرائهم، يمكنُ افتراضُ أنَّ السُّنَّةَ خصوصاً السُّنَّةَ مِنْ سَكَّانِ المنطقةِ، ينزِعُونَ. تقليدياً. نحوَ الاصطفافِ مَعَ فَضْلِ اللهِ والخامنيِّ.^(٤) وعلى الرُّغمِ مِنْ ذلكَ، يبدوُ السُّنَّةُ المحليُّونَ أكثرَ ارتياحاً في التَّعاملِ مَعَ الشِّيرازيِّينَ الذينَ عاشوا إلى جنبهم لأكثرَ مِنْ ثلاثةِ عَقدٍ، وتوجَّهَ جيلٌ كاملٌ مِنْ أبنائهم إلى المدارسِ مَعاً.^(٥)

تحرصُ المِلايَّةُ في أسبوعِ الفاطميَّاتِ الذي تقيمهُ الحوزةُ الزَّينبيَّةُ على تمجيدِ فضائلِ العقلِ^(٦) والخشوعِ.^(١) وكلاهما أقربُ إلى الوجاهيةِ العاطفيَّةِ لـ

(١) انظر الفصل الخاصَّ بعاشوراء.

(٢) مَلحوظات حقلية، (المجالس) من الثَّالثِ إلى السَّابعِ من حزيران عام ٢٠٠٨.

(٣) ستيفن روزني "مأساة فاطمة الزَّهراء: عن سجلاتِ اثنين من رجالِ الدِّينِ الشَّيعَةِ في لبنان" في (الشَّيعَةُ الاثنا عشرِيُّونَ في العالمِ المعاصر: الثقافةُ الدِّينيَّةُ والتَّاريخُ السِّياسيُّ) تحرير رينر برونر وويرنر آيند (ليدن: برل عام ٢٠٠١) ٢٠٧-٢١٩.

(٤) آمالُ الفِلسطيَّةِ، في سبيلِ المثال.

(٥) مَلحوظات حقلية، الجمعة، ١٨ أيلول عام ٢٠٠٩.

(٦) ويهر (قاموسُ اللُّغة العربيَّةِ الحديثة) ٦٣٠-٦٣١.

(أثار) مِنْهُ إِلَى (ثَار) وَالْأَلْفَتْ لِلانْتِبَاهِ أَنْ فَضِيلَةَ "العقل" تَخْتَلِفُ عَنْ "المنطق" لجهة العقلانيَّة. ووفقاً لهانز ويهر. (Hans Weher)، يشتمل الحقل الدلاليُّ لمُفْرَدَةِ "عقل" على "دفع الدِّية" وفكرة التَّحْلِي بـ "الحكمة" في مُوَاجَهَةِ المَأْسِي (أَيِ إِنَّ "العقلانيَّ" لَا يَعْنِي هُنَا "المنطقيَّ") وَبِكَلِمَاتٍ أُخَرَ: حِينَمَا نَصِفُ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءَ وَزَيْنَبَ بِأَنَّهُمَا تَحْلِيَانِ بـ "العقل" فَإِنَّا نَقْصِدُ بِذَلِكَ أَنَّهُمَا صَبُورَتَانِ، وَحَكِيمَتَانِ، وَوَاعِيَتَانِ، وَمَتَّقَتَانِ.

وَكَمَا فِي الْمُنَاسَبَاتِ الْمَهْمَةِ الْآخَرَى، تَقْدُمُ النِّسَاءُ الشَّيْعِيَّاتُ فِي أُسْبُوعِ الْفَاطِمِيَّاتِ عَرُوضاً أَدَائِيَّةً مُمَسَّرَحَةً تَرْوِي قِصَصَ آلِ الْبَيْتِ الْمَفْجَعَةِ أَثْنَاءَ الْمَجْلِسِ (تُعرفُ مَحَلِّيًّا بِـ "التَّشَابِيهِ") وَبَيْنَمَا تَعِيدُ الْمَلَايَةُ سَرْدَ تَفَاصِيلِ الْقِصَّةِ الْمَحِيطَةِ بِوَفَاةِ فَاطِمَةَ، تَدْخُلُ سِتُّ نِسَاءٍ يَرْتَدِينَ عِبَاءَاتٍ سُوداً وَحِجَابَاتٍ خَضْرَاءَ وَوُجُوهُهُنَّ مُغَطَّاءَةً، وَهُنَّ يَحْمِلْنَ صُنْدُوقاً (يَرْمِزُ إِلَى الْكَفَنِ) مُغَطَّى بِقِطْعَةٍ قَمَاشٍ خَضْرَاءَ؛ وَبَيْنَمَا تَسِيرُ النِّسْوَةُ بِبَطْنِ حَامِلَاتِ النَّعْشِ بَيْنَ الْحَاضِرَاتِ، تَسْتَوْقِفُهُنَّ النِّسَاءُ لِعَمَلِ الْعَقْدِ فِي قِطْعَةِ الْقَمَاشِ الْخَضْرَاءِ ابْتِغَاءً تَلْبِيَةً حَاجَاتِهِنَّ، مِثْلَ شِفَاءِ مَرِيضٍ هُنَّ أَوْ عَوْدَةِ أَحَدِ الْغَائِبِينَ سَالِمًا.

وَبَعْدَ سَرْدِ مَصَائِبِ فَاطِمَةَ، تَغَادِرُ الْمَجْلِسَ النِّسَاءُ الْإِلَائِيَّ يَحْمِلْنَ النَّعْشَ، وَبَعْدَ أَنْ تَجَفَّفَ النِّسَاءُ دُمُوعُهُنَّ، يَبْدَأُ الْجُزْءُ الْآخِرُ مِنَ الْمَجْلِسِ، وَهُوَ اللَّطْمِيَّةُ. وَيَعْتَمِدُ عِدْدُ اللَّطْمِيَّاتِ الَّتِي تُؤَدِّيهَا الْمَلَايَةُ عَلَى رَغْبَتِهَا وَمَدَى اهْتِمَامِ الْحَاضِرَاتِ وَطَبِيعَةِ الْمَجْلِسِ، إِذْ تَحْتَوِي الْمَجَالِسُ أَمْثَالَ تِلْكَ الَّتِي تُعْقَدُ فِي الْأَيَّامِ الْعَشْرِ الْأُولَى مِنَ الْمُحَرَّمِ وَفِي أُسْبُوعِ الْفَاطِمِيَّاتِ عَلَى فِقَرَاتٍ خَاصَّةٍ تَرْتَبِطُ بِالسَّرْدِ

(١) ويهر (قاموس اللغة العربيَّة الحديثة) ٢٣٩. مَلْحُوظَاتُ حَقْلِيَّة، الْمَجَالِسُ مِنَ الثَّالِثِ إِلَى السَّابِعِ مِنْ حَزِيرَانَ عَامِ ٢٠٠٨.

الاستذكاري، إذ تستخدم بعض منها - خصوصاً في ذكرى وفاة فاطمة المعصومة - عموداً خشبياً (يتراوح قطره بين خمسة إلى سبعة سنتيمترات وطوله متران في الأقل) وتنتح قطعة فمّاش دائرية خضراء اللون، تتخذ هيئة تنورة مثبتة في طرفه العلوي في كلّ مرّة يضرب الطرف الآخر من العمود بالأرض بنحو إيقاعي؛ حينها أعلنت الملائة في الحوزة الزينية أن قطعة القماش الخضراء ستستخدم أشبه بالمظلة نهضت النساء الحاضرات وتجمعن تحتها؛ في حين انهمكت نساء أخريات في عقد العقد في أطراف القطعة^(١) وحينها سألت عن معنى وجود العمود، بدا لي أنه ليس ثمّة واحدة بين الحاضرات تعرف معناها! وقالت مياي: إنه مجرد تقليد عراقي^(٢). ويمكن القول: إن النساء اللائي تجمعن تحت قطعة القماش يأخذن مكان أهل البيت بوصفهن "أهل الكساء" (العباءة)^(٣) ثم تشرع النساء المجمعات تحت قطعة القماش والحاضرات الأخريات في إنشاد "اللازمة" في استجابة منهن

(١) ملحوظات حقليّة، الخميس، ١٢ كانون الثاني عام ٢٠٠٩. لا تضرب النسوة وجوههن فحسب في المجالس الفاطمية؛ بل إتهنّ يخلعن حجاباتهنّ ويحرّكن رؤوسهنّ جيئةً وذهاباً. ويقع فعل ضرب الوجوه بنحو أكثر انتظاماً من الأنواع الأخرى من طقوس تحريك الشعر. وتقوم الشابات الأصغر سناً - إلى أواخر الثلاثينيات - عادة بتحريك الشعر.

(٢) ملحوظات حقليّة، الخميس، ١٢ كانون الثاني عام ٢٠٠٩.

(٣) أهل العبا أو أهل الكساء. وصف إسلامي أطلق على أسرة النبي محمد عليه السلام. وذلك عقب نزول الآية: (فَمَنْ حَاكَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ). آل عمران "٦١" إثر جدل عقائدي وقع بين النبي محمد عليه السلام وعدد من مسيحيي الجزيرة العربية؛ ذكر المفسرون أنه وفد نجران، حيث انتهى الجدل إلى طريق مسدودة فنزلت الآية، فدعا النبي عليه السلام أهل بيته وجعلهم تحت عباءته؛ وجرى ما ذكرته الآية. وتأتي الخيمة هنا اقتباساً للعباءة (الخيمة). يُشار إلى أن خلافاً وقع بين السنة والشيعة حول من الذين يشملهم هذا الوصف وأن النبي عليه السلام جعلهم تحت عباءته، حيث ذهب الشيعة إلى أن المقصودين هم: علي وفاطمة والحسن والحسين. وذهب السنة إلى إضافة زوجات النبي وأبنائه. (المقوم اللغوي).

للطِمْيَّةِ الْمَلَايَةِ: دَخِيلُ يَالزَّهْرَةَ دَخِيلٌ.^(١) (نَادَيْتُكَ يَا فَاطِمَةُ الزَّهْرَةَ، تَوَسَّلْتُ بِكَ يَا فَاطِمَةَ). وتعني كلمة "دَخِيلٌ" في العربية القياسية الحديثة، حرفياً "د.خ.ل. أو "ث.ق.ب.". ^(٢) وتأسيساً على ذلك، فإنَّ مَا تَفْعَلُهُ النِّسْوَةُ هُوَ مُحَاوَلَةُ الدُّخُولِ فِي "بِرْكََةِ" الزَّهْرَاءِ وَنَيْلُ شَفَاعَتِهَا.

وتتزامنُ ضَرْبَاتُ العَمُودِ المَرْتَفَعَةِ مَعَ اللَّطِمْيَّةِ السَّرِيعَةِ الْآخِرَةِ الَّتِي تَوَدِّيْهَا الْحَاضِرَاتُ فِي المَجْلِسِ قَبْلَ الدُّعَاءِ الَّذِي يُؤْلَفُ خَاتِمَتُهُ. وَاللَّافْتُ لِلاتِّبَاهِ عَدَمُ سَعْيِ الْحَاضِرَاتِ فِي المَجْلِسِ إِلَى تَجْسِيدِ فَاطِمَةَ، بَلْ إِنَّهُنَّ يَحْرُضْنَ عَلَى مَنَادَاتِهَا وَتَحْيُلُ حُضُورَهَا بَيْنَهُنَّ أَثْنَاءَ مُشَارَكَتِهِنَّ فِي المَجَالِسِ الْفَاطِمِيَّةِ.

وخلافاً لوفاةِ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ، لَا يَجْرِي تَحْلِيدُ وَفَاةِ زَيْنَبَ بِالْقَدْرِ ذَاتِهِ مِنْ الْحَيَوِيَّةِ وَالطَّاقَةِ. وَثَمَّةٌ بِحَسَبِ اعْتِقَادِي. ثَلَاثَةُ أَسْبَابٍ تَعْلُلُ هَذَا الْأَمْرَ، هِيَ: **أَوَّلًا:** إِنَّ زَيْنَبَ لَيْسَتْ مِنَ الْأَنْثَمَةِ الْمَعْصُومِينَ الْأَرْبَعَةَ عَشَرَ. وَيُمَثِّلُ شُهَدَاءُ كَرْبَلَاءَ إِلَى جَانِبِ زَيْنَبَ الشَّخْصِيَّاتِ الْآخَرَى الْوَحِيدَةَ غَيْرَ الْمَعْصُومَةِ نِسْبِيًّا الَّتِي يَجْرِي رِثَاؤُهَا فِي أَوَاقَاتٍ مُحَدَّدَةٍ.

ثَانِيًا: إِنَّ الْأَسْلُوبَ الَّذِي تَوَفِّيتُ فِيهِ السَّيِّدَةُ زَيْنَبُ لَا يُمَثِّلُ الْمَأْسَاءَةَ الْأَكْبَرَ فِي حَيَاتِهَا.^(٣)

(١) "دَخِيلُ يَا زَهْرَةَ دَخِيلٌ" هِيَ النِّسْخَةُ الْعَامَّةِيَّةُ الشَّائِعَةُ مِنْ "دَخِيلُكَ يَا زَهْرَةَ دَخِيلُكَ".

(٢) وَبِهَر (فَامُوسُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْقِيَاسِيَّةِ الْحَدِيثَةِ) ٢٧٣-٢٧٤.

غَيْرَ أَنَّ الْمَعْنَى الْمَقْصُودَ هُنَا تَحْدِيدًا بِكَلِمَةِ (دَخِيل) هُوَ التَّجَاءُ الشَّخْصِ إِلَى آخِرِ بَدْخُولِهِ بَيْتَهُ أَوْ حَدُودِهِ، لِسَبَبِ مَا؛ مِنْ نَحْوِ ارْتِكَابِهِ خَطَأً أَوْ جَرِيمَةً؛ وَهُوَ مَا يَعْنِي فِي عَرَفِ الْأَعْرَابِ مَنَحَهُ حَقَّ الْحَيَاةِ وَالْجَوَارِ؛ وَفِي مَرَحَلَةٍ لَاحِقَةٍ الشَّفَاعَةُ لِلدَّخِيلِ لَدَى صَاحِبِ الْحَقِّ ثُمَّ حُلُّ الْخِلَافِ، وَرَبَّهَا يَتَكَلَّفُ الْمَجِيرُ دَفْعَ الْمَالِ إِتِمَامًا لْجَوَارِهِ. وَهَكَذَا تَأْتِي مُفْرَدَةُ دَخِيلٌ هُنَا حَيْثُ (تَشْبَهُ. يَشْبَهُ) الدَّاخِلُ عَلَى فَاطِمَةَ نَفْسَهُ بِمَجْرَمٍ أَوْ خَاطِئٍ يَرْجُو الْجَوَارِ وَالْحَيَاةَ وَالْمُسَاعَدَةَ الْمُمَثِّلَةَ بِنَيْلِ الْبِرْكََةِ لِلخُرُوجِ مِنَ الْأَزْمَاتِ الَّتِي يَكُونُ الشَّخْصُ وَاقِعًا فِيهَا. (المَقُومُ اللَّغَوِيُّ).

(٣) مَصَائِبُ زَيْنَبِ الْكُبْرَى هِيَ فَقْدُهَا أَبُويَهَا وَإِخْوَانَهَا وَأَبْنَاءَهَا.

ثالثاً: إِنَّ زَيْنَبَ تَوَلَّفُ . سلفاً . جزءاً مِنْ مَجَالِسِ الْعِزَاءِ الَّتِي تُقَامُ، وَمِنْ خِلَالِ الرِّثَاءِ بِاسْمِ زَيْنَبَ وَبِالنِّيَابَةِ عَنْهَا.

ولكنَّ المَلَايَةَ لَا تَحْسُدُ زَيْنَبَ، بِمَعْنَى إِنَّهَا لَا تَضْبُحُ السَّيِّدَةَ زَيْنَبَ بَعْدَ انْتِهَاءِ الْمَجْلِسِ! بَلْ إِنَّهَا تَقْلُدُهَا، وَتَعِيدُ تَقْدِيمَهَا الْمَرَّةَ تَلَوَ الْأُخْرَى، خُصُوصاً فِي عِلَاقَاتِهَا مَعَ الْآخَرِينَ. وَتَخَاطَبُ الْمَلَايَةَ مِنْ خِلَالِ حَدِيثِهَا فِي الْمَجْلِسِ وَتَمَثِيلِهَا صَوْتَ زَيْنَبَ وَمَعَانِيَهَا، تَخَاطَبُ النِّسَاءَ الْحَاضِرَاتِ فِي الْمَجْلِسِ وَكَذَلِكَ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ الْحَاضِرَةَ دَوَاماً وَالْغَائِبَةَ فِي آنٍ مَعاً.

والعِلَاقَةُ بَيْنَ زَيْنَبَ وَفَاطِمَةَ هِيَ عِلَاقَةٌ مُتَبَادَلَةٌ فِي الْعَدِيدِ مِنَ الْمَسْتَوِيَّاتِ، فِيهِ عِلَاقَةٌ مُتَبَادَلَةٌ شِعْرِيّاً: فِي مَجْمُوعَةِ شِعْرِيَّةٍ مَعْرُوفَةٍ بِعَنْوَانِ: (مَصَائِبُ الزَّهْرَاءِ) تَتَحَدَّثُ الشَّاعِرَةُ بِاسْمِ زَيْنَبَ، وَتَرْتِي لَوْفَاةَ أُمِّهَا فَاطِمَةَ الْمَعْصُومَةَ. وَيَنْتَقِلُ كُلُّ سَطْرِ مِنْ سَطُورِ الْقَصِيدَةِ جَيَّةً وَذَهَاباً بَيْنَ التَّحَسُّرِ عَلَى مَصَائِبِ زَيْنَبَ وَالتَّحَسُّرِ عَلَى مَصَائِبِ أُمِّهَا الزَّهْرَاءِ، وَتَصُورُ السُّطُورُ الْإِفْتِحَاحِيَّةُ فِي الدِّيَوَانِ زَيْنَبَ وَهِيَ تَبْكِي وَتَرْتِي جِرَاحَ أُمِّهَا الْمَمِيَّةَ، وَتَبْكِي زَيْنَبَ كَذَلِكَ عَلَى حَالِهَا وَمَا جَرَى لَهَا كَوْنَهَا طِفْلاً وَحِيدَةً يَتِيمَةً، وَتَشْكُو حَزَنَهَا قَائِلَةً: رَاحَتْ الرَّبْتُنِي [أَيَ تُوَفِّيَتْ أُمِّي الَّتِي رَبَّتْنِي صَغِيرَةً] ^(١) وَمِنْ خِلَالِ وَصْفِهَا لِأُمِّهَا بِصَيْغِ ذَاتِيَّةٍ تَعْبُرُ عَنْ نَفْسِهَا وَمَا جَرَى لَهَا؛ تَشَدُّ زَيْنَبُ فِي رِثَائِهَا عَلَى عِلَاقَتَيْهَا الْوَثِيقَةِ الَّتِي لَا تَنْفَضُّ عِزَّهَا، وَهَكَذَا، تَلْتَحِمُ مَعاً عُنَاصِرُ الْحُبِّ وَالتَّقْوَى وَالْوَرَعِ عِلَاقِيّاً فِي كُلِّ مِنَ الْقَصِيدَةِ وَالْمَجْلِسِ. ^(٢)

(١) أُمُّ شِبَاءِ فَرَجِ اللَّهِ الْأُسْدِيِّ، (دِيَوَانُ آلَامِ الزَّهْرَاءِ) (البصرة، العراق، مَنَشُورَاتُ طَلِيعَةِ النُّورِ، عَامَ ١٩٦٥) ٥.

(٢) لَا يُمْكِنُ تَعْمِيمُ حَالَةِ الْحُبِّ وَالْعِلَاقِيَّةِ هَذِهِ فِي ظُلِّ تَمَحُّورِهَا حَوْلَ أَهْلِ الْبَيْتِ تَحْدِيداً.

وتتوسَّلُ النِّسَاءُ مِنْ خِلَالِ إِقَامَتِهِنَّ مَجَالِسَ الْعِزَاءِ حُضُورَ الْأُئِمَّةِ الْمُؤَثِّرِ عَاطِفِيًّا. وَتَتَحَدَّثُ الْمَلَائِيَةُ فِي هَذِهِ الْمَجَالِسِ بِصَوْتِ زَيْنَبَ وَلَكِنَّهَا لَا تَجَسَّدُهَا؛ بِمَعْنَى إِنَّهَا لَا تَوَدُّ أَنْ تُصْبِحَ السَّيِّدَةُ زَيْنَبَ (وَتَفْقَدَ أَفْرَادَ عَائِلَتِهَا فِي الْمَعْرِكَةِ). وَعَلَى الضَّدِّ مِنَ الرِّجَالِ اللَّبْنَانِيِّينَ الَّذِينَ يَجْرِي تَشْجِيعُهُمْ عَلَى تَجْسِيدِ الْحُسَيْنِ (عَنْ طَرِيقِ نَيْلِ شَرَفِ الشَّهَادَةِ) تَرْمِي النِّسَاءُ إِلَى تَقْلِيدِ الْوَلِيَّاتِ فَحَسْبُ؛ عَلَى الرُّغْمِ مِنْ دَوْرِ الْمَعْصُومِيَّةِ فِي جَعْلِ الْحَدِّ الْجَنُوسِيِّ الْفَاصِلِ أَكْثَرَ تَعْقِيدًا.^(١) وَحِينَئِذٍ تَعْبُرُ النِّسَاءُ الشَّيْعِيَّاتُ هَذَا الْحَدَّ الْجَنُوسِيَّ الْفَاصِلَ مِنْ خِلَالِ تَكْرِيسِ حَيَوَاتِهِنَّ لِلْأُئِمَّةِ الذُّكُورِ وَمُؤَالَاتِهِمْ، يَمِيلُ هَؤُلَاءِ الْأُئِمَّةُ إِلَى الْعَمَلِ بِوَصْفِهِمْ أُنْمَةً رَاعِيْنَ / مُنَاصِرِينَ، يَفْرُضُونَ مُتَطَلِّبَاتٍ مُعَيَّنَةً عَلَى النِّسَاءِ الْمُوَالِيَّاتِ مِنْ خِلَالِ تَشْجِيعِهِنَّ عَلَى تَعْزِيزِ أَوَاصِرِ الْعِلَاقَةِ مَعَهُمْ، إِمَّا عَنْ طَرِيقِ الْمُشَارَكَةِ فِي مُمَازَسَاتٍ تَبَادُلِيَّةٍ طُقُوسِيَّةٍ مُحَدَّدَةٍ وَإِمَّا بِالْعَمَلِ كَمَلَائِيَّاتٍ.^(٢)

الارتباطُ بالأئمةِ المناصرينَ ومنَ خِلالِهِم:

تُعَدُّ مَسْأَلَةُ الْارْتِبَاطِ بِالْأُئِمَّةِ زِيَادَةً عَلَى تَقْلِيدِهِمْ مَسْأَلَةً مُهِمَّةً لِلْغَايَةِ. مِثْلَمَا بَيَّنَّتِ الْعُلُويَّةُ عَالِيَّةً فِي أَكْثَرِ مِنْ مُنَاسَبَةٍ. بِسَبَبِ تَمْثِيلِ آلِ الْبَيْتِ وَاسْطَةً أَوْ رَابِطَةً شَخْصِيَّةً مِمَّا تَلَهُ لِلْوَاسِطَةِ الَّتِي يَحْتَاجُهَا الْفَرْدُ لَصِمَانٍ يُصَالِ صَوْتُهُ إِلَى الْمَسْئُولِينَ الْكِبَارِ وَالْمُلُوكِ.^(٣) وَعَلَى شَاكِلَةِ الْعِلَاقَاتِ الْآخَرَى، تَتَعَيَّنُ إِقَامَةُ هَذِهِ الْعِلَاقَةِ وَالْحِفَاطُ عَلَيْهَا "طُقُوسِيًّا" فِي هَذِهِ الْحَالَةِ مِنْ خِلَالِ مَجَالِسِ الْعِزَاءِ وَنَذْرِ النُّدُورِ.

(١) الجنوسِيّ نسبة إلى الجنوسة وهو مُصطلح يرادف مُصطلح الجندر. (المَقُومُ اللَّغَوِي).

(٢) على الرُّغْمِ مِنْ وَجُودِ الْكَثِيرِ مِنَ النِّسَاءِ اللَّائِيَّاتِ يَصْبِحْنَ مَلَائِيَّاتٍ ابْتِغَاءً تَقْلِيدَ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ عَلَى نَحْوِ أَفْضَلِ.

(٣) مَلْحُوظَاتُ حَقْلِيَّة، الْخَمِيسَ، ١٠ تَمُوزِ عَامِ ٢٠٠٨.

وتؤكدُ عاليه قائله: إنَّ المنافع المتأثية من العلاقة النَّاجحة والقوية لا حصر لها، منها الشفاء، والتعافي الجسدي والميتافيزيقي والاجتماعي، وكذلك الشفاعة في الشؤون الدنيوية والأخروية.^(١) وقد يرتبط الشيعة بالأئمة مثلما لحظنا أعلاه من خلال حضور مجالس العزاء والإصغاء إلى القصص المفيدة والمعبرة عن الأئمة، وتتضمن الوسائل الأخرى التي يمكن بواسطتها للنساء في مدينة السيدة زينب الارتباط بالأئمة قراءة بعض من الصلوات والأدعية الخاصة وحملها معهن؛ ونذر التدوير التي يطلبن من خلالها من الأئمة تحقيق بعض من حاجاتهن أو تلبية بعض من أمنياتهن.

وثمة وسيلة أخرى ترتبط النساء الشيعة. مثل أم محمد. بواسطتها بالبيت، هي الاحتفاظ بحِرْز خاص في جيبها.^(٢) والحِرْز هو قصاصة من الورق تدون عليها كتابات خاصة نقلتها أم محمد من (مفاتيح الجنان) أحد أشهر كتب الأدعية والصلوات الشيعية، ويفترض بهذا الحِرْز أن يحفظ الفرد ويجعله يشعر بالأمان، وتحمله أم محمد لهذا السبب في جيبها أينما وحيثما تذهب، وهي لا ترى مشكلة في ذلك، فهو مناسب وتقليدي، وقبل كل ذلك، هو منقول من (مفاتيح الجنان).

وابتغاء توضيح الغاية من حمل الحِرْز بتفصيل أكبر، أنقل ما ذكرته أم محمد حيث تقول: كل إمام يمتلك حِرْزاً وخاتماً خاصاً يلبسه، نحن نلبس خواتم مُرصعة بأحجار العقيق، والتركواز، والكوارتز، لأن الله قد خلق الجبال

(١) ملحوظات حقليّة، السبّ، ٣١ تشرين الأوّل، عام ٢٠٠٩، والسبّ، ٢٦ كانون الأوّل عام ٢٠٠٩ - التاسع من المحرم عام ١٤٣١.

(٢) ملحوظات حقليّة، الثلاثاء، ١٥ كانون الأوّل عام ٢٠٠٩.

من هذه الأحجار أولاً. ولهذا يجب آل البيت هذه الأحجار، ولهذا نلبسها. ألم تفرئي كتاب "مفاتيح الجنان"؟!.

وزيادة على ما ذكر أعلاه، يمثل نذر النذور وسيلة أخرى للارتباط بالبيت والحصول على الشفاء، بمعنى تعافي أحد أفراد الأسرة من مرض ما أو النجاح في المدرسة أو العمل. ويمثل تقديم الطعام، أو ما يعرف محلياً "بالسفرة" إحدى الوسائل الشائعة لنذر النذور، والسفرة نوع محدد من المجالس، فحينما تنذر المرأة نذراً، يتعين عليها إقامة مجلسي سفره في يومي خميس متتاليين؛ وتمثل السفرة طقساً نسائياً مميزاً تستضيف فيه المرأة التي تنذر النذر النساء في مجلس تعقده في منزلها أو في الحسينية، ويتعين عليها إيقاد الشموع في هذا المجلس الذي تشارك النساء فيه في أداء إحدى اللطميات،^(١) ثم توزع على الحاضرات شطائر تحتوي على قليل من الكراث أو البقدونس وأحد أنواع الأجبان أو اللبن الذي يمكن فرشه داخل الشطيرة، زيادة على كمية قليلة من عجينة حلوة مطبوخة كثيفة القوام. وبعد انتهاء السفرة، تتراحم النساء للحصول على الشموع التي يطفئنها أثناء نذرهن نذوراً جديدة.^(٢) وإذا لم يتحقق ما أرادته صاحبة السفرة، تبقى السفرة الثالثة مؤجلة إلى حين تحقيق

(١) للاستزادة بشأن السفرة، انظر ادث زانتو، "السيدة زينب في دولة الاستثناء: الإمامة الشيعية بوصفها "حياة لائقة" في سوريا المعاصرة" المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط ٤٤، العدد ٢ (٢٠١٢) ٢٩٣-٢٩٣.

(٢) آن بترج "نذور النساء المسلمات الحضريات المثيرة للجدل في إيران: عوالم مسكوت عنها" في (حيوات النساء الدينيّة في الثقافات غير الغربيّة) تحرير نانسي أوير فالك و ريتا غروس (سان فرانسيسكو: هاربر ورو، عام ١٩٨٠) ١٤١-١٥٥؛ بترج، "تبادل الهدايا في إيران" ١٩٠-٢٠٢؛ ملحوظات حقليّة، الثلاثاء، ١٥ كانون الأول عام ٢٠٠٩.

غايتهَا. أمَّا في حَالَةِ تَحْقِيقِهَا، فَإِنَّهَا تَقِيَمُ السُّفْرَةَ الثَّالِثَةَ فِي الْخَمِيسِ التَّالِيِ قَبْلَ صَلَاةِ الظُّهْرِ.

يَجْرِي فِي كُتُبِ الْأَدَبِ الشَّعْبِيِّ الْمَتَوَفَّرَةِ فِي الْعَدِيدِ مِنْ مَحَالِّ بَيْعِ الْكُتُبِ فِي مَدِينَةِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ وَصُفِّ الْعِلَاقَاتِ الْمَشْمُورَةِ بَيْنَ الشَّيْعَةِ، وَآلِ الْبَيْتِ مِنْ جِهَةٍ، وَالْأَثَمَةِ الْمُنَاصِرِينَ لَهُمْ مِنْ جِهَةٍ وَيُنَظِّمُونَ الدُّورَ وَالتَّرْوِيجَ لَهَا مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى. وَقَدْ شَرَحَ السَّيِّدَانِ "حَسَنُ نَجِيبُ مُحَمَّدٌ" (٢٠٠٨ م) وَهَاشِمُ النَّاجِي الْمَوْسَوِيُّ الْجَزَائِرِيُّ (بَلَا تَارِيخ)... شَرْحًا لِلتَّأَثُّرَاتِ الْمَلْمُوسَةِ وَالْعَمِيقَةِ الَّتِي تَمَارَسُهَا الْعِلَاقَاتُ الَّتِي يَجْرِي تَحْسِيدُهَا طُقُوسِيًّا فِي الْمَجَالِسِ لَجِهَةٍ دَوْرَهَا فِي مَنَحِ الْمَوَالِينِ [الشَّيْعَةِ] الْبَرَكَةَ فِي هَذَا الْعَالَمِ وَكَذَلِكَ فِي الْعَالَمِ الْآخَرِ.

كَتَبَ السَّيِّدُ مُحَمَّدٌ: (فِي تَأْمُلِنَا لِفَوَائِدِ الْمَجَالِسِ وَآثَارِهَا وَبَرَكَاتِهَا، نَلْحِظُ أَنَّهَا تَرَكُ أَثْرًا إِيْجَابِيًّا فِي أَفْرَادِ الْمُجْتَمَعِ، وَتَتَضَمَّنُ هَذِهِ الْفَوَائِدُ: تَذَكُّرُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى... وَمَا دَامَ النَّاسُ مُسْتَمِرِّينَ فِي عَقْدِ هَذِهِ الْمَجَالِسِ الْمُكْرَسَةِ لـ "اللَّهُ تَعَالَى" فَإِنَّهَا تَسْهِمُ^(١) فِي نَشْرِ الدِّينِ وَالْوَعْيِ وَالْمَحَبَّةِ، وَلَيْسَ ثَمَّةَ بَدْعَةٍ تُلْحِقُ الضَّرَرَ حِينَ يَمَارَسُ الْفَرْدُ [مُمَارَسَةَ] الدِّينِ).^(٢)

وَزِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ، تَشْتَمِلُ هَذِهِ الْفَوَائِدُ وَالْآثَارُ وَالْبَرَكَاتُ عَلَى إِحْيَاءِ أَمْرِ آلِ الْبَيْتِ،^(٣) وَالتَّذْكِيرِ الْمُتَوَاصِلِ بَوْلَايَتِهِمْ،^(٤) وَتَرْقِيقِ الْقُلُوبِ، وَغَفْرَانِ

(١) ويهر (قاموس اللغة العربية القياسية) ١٧-١٨.

(٢) مُحَمَّدٌ (آثَارُ الْمَجَالِسِ الْبَيْتِيَّةِ وَبَرَكَاتِهَا) ١٨.

(٣) يَشِيرُ "أَبُو مُحَمَّدٍ" هُنَا إِلَى مَا رَوَى عَنْ الْإِمَامِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ (أَبُو عَبْدِ اللَّهِ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْمَوْلُودِ عَامَ ٨٠ هـ وَالْمُتَوَفَّى عَامَ ١٤٨ هـ. وَهُوَ الْإِمَامُ السَّادِسُ مِنَ الْأَثَمَةِ الْاِثْنِي عَشَرَ) مِنْ قَوْلِهِ: أَحْيُوا أَمْرَنَا، رَحِمَ اللَّهُ مَنْ أَحْيَا أَمْرَنَا. (الْمَقْوَمُ اللَّغَوِيُّ).

(٤) ويهر (قاموس اللغة العربية القياسية) ٢٦ (أ.م.ر.).

الذُنُوبِ.^(١) وَبَيَّنَ السَّيِّدُ مُحَمَّدٌ، الَّذِي أَفَاضَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ الْفَوَائِدِ الْأَكْثَرِ رُوحَانِيَّةً وَ "جَسَدِيَّةً وَاجْتِمَاعِيَّةً" أَنَّ الْمَجَالِسَ تَسْتَدْعِي رَحْمَةَ اللَّهِ وَالْحُضُورَ الْمِتَافِيزِيْقِيَّ لِآلِ الْبَيْتِ وَالْمَلَائِكَةِ.^(٢)

أَنْ تَصْبِحَ الْمَرْأَةُ مَلَايَةً (الْمَرْأَةُ النَّادِبَةُ) :

بَيَّنَتْ "لَارَا ديب" أَنَّ النِّسَاءَ الشَّيْعِيَّاتِ فِي لَبْنَانَ لَا يُصْبِحْنَ السَّيِّدَةَ زَيْنَبَ، وَمِنْ ثَمَّ هُنَّ لَا يَجْسِدْنَهَا بِالطَّرِيقَةِ ذَاتِهَا الَّتِي يَجْرِي فِيهَا تَشْجِيعُ الرِّجَالِ عَلَى أَنْ "يُصْبِحُوا حُسَيْنًا" عَنْ طَرِيقِ الْقِتَالِ وَالِاسْتِشْهَادِ. وَزِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ، تَقْلُدُ النِّسَاءَ الشَّيْعِيَّاتُ الْبَنَانِيَّاتُ السَّيِّدَةَ زَيْنَبَ فِي سَبِيلِ الْمِثَالِ مِنْ خِلَالِ التَّطَوُّعِ لِلْعَمَلِ فِي الْمُنْظَمَاتِ الْخَيْرِيَّةِ. وَخِلَافًا لَهُنَّ، لَا تَتَطَوَّعُ سِوَى الْقَلِيلِ مِنَ النِّسَاءِ الشَّيْعِيَّاتِ فِي سُورِيَا لِلْعَمَلِ فِي هَذِهِ الْمُنْظَمَاتِ؛ بَلْ تَظْهَرُ هَؤُلَاءِ النِّسَاءُ تَقَوَاهُنَّ وَتَدْبِئُهُنَّ مِنْ خِلَالِ الْعَمَلِ كَمَلَايَةٍ، إِلَى جَانِبِ ارْتِدَاءِ الْمَلَابِسِ التَّقْلِيدِيَّةِ الْمَحْتَشِمَةِ، وَهُوَ أَمْرٌ تَفْعَلُهُ كُلُّ النِّسَاءِ عَلَى وَجْهِ الْعُمُومِ؛ وَتَشْعُرُ بَعْضُ مِنَ النِّسَاءِ أَنَّهُنَّ مُلْزَمَاتٌ بِالْعَمَلِ فِي هَذَا الْمَجَالِ بِسَبَبِ الرُّؤْيِ وَالْأَحْلَامِ الَّتِي يَرِيْنَهَا فِي مَنَامَاتِهِنَّ عَنْ الْأَثَمَةِ الْمَعْصُومِينَ وَغَيْرِ الْمَعْصُومِينَ، وَتَخْتَارُ أَخْرِيَاتُ الْعَمَلِ كَمَلَايَاتٍ لِرَغْبَتِهِنَّ فِي خِدْمَةِ أَثَمَةِ مُحَدِّدِينَ.

إِخْلَاصُ:

تَعْمَلُ "إِخْلَاصُ" الْبَغْدَادِيَّةُ، وَهِيَ أُمُّ لُخْمَسَةِ أَطْفَالٍ وَفِي مُتَتَصِفِ الثَّلَاثِينَ مِنْ عَمْرِهَا مَلَايَةً، وَهِيَ كَذَلِكَ طَالِبَةٌ فِي الْمَرْحَلَةِ الرَّابِعَةِ فِي الْحَوْزَةِ الزَّيْنِيَّةِ.

(١) مُحَمَّدٌ (آثَارُ الْمَجَالِسِ الْبَيْتِيَّةِ وَبِرَكَاتِهَا) ١٥٣.

(٢) الْمَصْدَرُ ذَاتَهُ.

وبعد الإصغاء إلى أدائها المبهّر والمؤثّر في أحد مجالس العزاء، سألتها عن السبب الذي دفعها إلى العمل في هذا المجال،^(١) فأخبرتني بأنّها رأت السيّدة زينب. التي تعدّها مولاتها الشّخصيّة المفضّلة في أحد أحلامها. قبل عام تقريباً من مُغادرتها العراق في عام (٢٠٠٥ م) وأنّ السيّدة زينب أخبرتها في الحلم بأنّها ستصبح مَلَايَة: (سنأخذك، ولكن ليس الآن). وبعد رؤيتها هذا الحلم، اشترت كتاب لطميّات، ثم "قرأت" [أدّت وترأست] مجلساً في منزلها لتدشن بذلك عملها كمَلَايَة.

وابتغاء معرفة المزيد عن ظروف عملها، سألتها: يعني هذا أنّك تعملين كمَلَايَة منذ خمس سنين؟. فأجابت: حسناً، ولدتُ ابنتي في أحد الأعوام ومرضتُ، ولهذا لم أشارك في مجالس العزاء في موسمين متتاليين، وهذا يعني أنّي لم أخدم آل البيت سوى ثلاث سنين. ولهذا، فإنّ العمل مَلَايَة يوازي. وفقاً لإخلاص. خدمة آل البيت بهمة وإخلاص ونشاط. ويمثّل ذلك نوعاً من أشكال العبادة الشّخصيّة والمرنة والعفويّة؛ بمعنى قدرة المرأة على الاستمرار في هذا العمل أو تركه، هذا من جانب، ومن جانب آخر، يؤلّف العمل كمَلَايَة عمليّة متكاملة تتطلّب جهوداً متواصلة.

أنّ تصبّح المرأة تقيّة يعني في أحد جوانبها، أن تعمل في خدمة آل البيت من خلال العمل مَلَايَة. إنّها تخدم آل البيت جميعاً، ولكنّها في الوقت ذاته تكرّس حياتها لوليّ أو وليّة تختصّها من دونهم، وقد تختار المَلَايَة وليّاً / وليّة، وقد يحدث العكس، أي أن يختارها أحد الأولياء / الوليات كما حدّث لإخلاص التي زارتها السيّدة زينب في الحلم.

(١) ملحوظات حقليّة، الجمعة، ٢٥ من كانون الأوّل عام ٢٠٠٩.

أُمُّ عَيْسَى:

لَمْ يَكُنْ بِقُدْرَةِ "أُمِّ عَيْسَى" الْإِنْتَظَارُ حَتَّى يَخْتَارَهَا إِمَامٌ! بَلْ إِنَّمَا حَرَصَتْ وَسَعَتْ إِلَى "رُؤْيَةِ" آلِ الْبَيْتِ فِي الْأَحْلَامِ. إِذْ أَخْبَرْتُني: إِذَا كُنْتَ تَرْغِبِينَ فِي رُؤْيَةِ الْإِمَامِ عَلِيٍّ، يَتَعَيَّنْ عَلَيْكَ أَنْ تَقْرَأِي عِدَّةَ مَرَّاتٍ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ:

نَادِ عَلِيًّا مَظْهَرَ الْعَجَائِبِ تَجِدُهُ عَوْنًا لَكَ فِي النَّوَائِبِ

تَقُولُ أُمُّ عَيْسَى: إِنَّمَا تَرَى آلَ الْبَيْتِ فِي كُلِّ مَرَّةٍ تَوَاجَهُ فِيهَا الْمَشْكِلَاتِ وَالْمَصَاعِبِ، وَهُمْ يَمْدُونُ إِلَيْهَا يَدَ الْعَوْنِ، وَيَسَاعِدُونَهَا، وَيَمْنَحُونَهَا الْقُوَّةَ، وَيَقْدُمُونَ لَهَا النُّصْحَ وَالْمَشُورَةَ. (١)

أُمُّ عَيْسَى فِي مَطْلَعِ الثَّلَاثِينَاتِ مِنْ عَمْرِهَا، وَهِيَ مِنْ مَدِينَةِ الْبَصْرَةِ. وَكَانَ زَوْجُهَا يَعْمَلُ مَهْنَدَسًا فِي الْقَوَّاتِ الْعَسْكَرِيَّةِ الْعِرَاقِيَّةِ، وَهُوَ يَطْبُقُ النِّظَامَ الْعَسْكَرِيَّ فِي الْمَنْزِلِ كَذَلِكَ! وَتَشْتَأِقُ إِلَى عَائِلَتِهَا كَثِيرًا، وَتُرَوِّي لِي وَالْأُمُّ يَعْتَصِرُ قَلْبَهَا: إِنَّمَا لَمْ تَرَ عَائِلَتَهَا مِنْذُ عَامٍ وَشَهْرَيْنِ، وَهِيَ لَا تَحْضُرُ الدَّرُوسَ الْحُوزَوِيَّةَ. وَخِلَافًا لِإِخْلَاصِ، لَا تَرَعَى أُمُّ عَيْسَى وَلَا تَقِيمُ الْمَجَالِسَ فِي مَنْزِلِهَا؛ إِنَّمَا تَرِيدُ أَنْ تَكُونَ مَلَايَةً مُحْتَرَفَةً، وَلِهَذَا بَيَّنْتُ تَقُولُ: أَتَحَدِّثُ مَعَ الْمَنِيرِ، أَتَحَدِّثُ مِنْ قَلْبِي وَأَعِدُّ عَمَلِي كَمَلَايَةٍ. حَالِيًّا. بِمَنْزِلَةِ بَرَكَةٍ وَمُعْجَزَةٍ، وَحِينَئِذٍ تَمْرُضُ الْمَلَايَةَ فِي حُسَيْنِيَّةِ زَيْنِ الْعَابِدِينَ وَلَا تَكُونُ قَادِرَةً عَلَى قِيَادَةِ الْمَجْلِسِ، أَحْلُ مَحَلَّهَا.

وَقَدْ عَرَضْتُ لِي أُمُّ عَيْسَى مِنْ تَلْفُونِهَا الْخُلُويِّ الْخَاصِّ مُقَاتَعَ فَلَمِيَّةً تَصَوَّرُ أَدَاءَهَا فِي أَحَدِ الْمَجَالِسِ فِي يَوْمِ الْغَدِيرِ. وَقَالَتْ: إِنَّمَا قَدْ عُرِضَ عَلَيْهَا الْعَمَلُ مَسَاعِدَةً مَلَايَةً فِي دِمَشْقَ، وَلَكِنَّ الْمَسَافَةَ بَيْنَ مَحَلِّ سَكْنِهَا وَالْعَاصِمَةِ كَبِيرَةٌ جَدًّا، وَلِهَذَا، لَمْ يُوَافَقْ زَوْجُهَا عَلَى عَمَلِهَا هُنَاكَ، وَيَقْتَصِرُ عَمَلُهَا حَالِيًّا فِي

(١) مَلْحُوظَاتُ حَقَلِيَّةٍ، الْأَحَدُ، ٢٠ كَانُونُ الثَّانِي عَامَ ٢٠٠٩.

حُسَيْنِيَّ زَيْنِ الْعَابِدِينَ وَأُمِّ الْبَنِينَ،^(١) وَهِيَ مَشْغُولَةٌ عَلَى الدَّوَامِ، وَتَقُولُ عَنْ ذَلِكَ: لَيْسَ لَدَيَّ وَقْتُ فَرَاغٍ أَوْ وَقْتُ أَصِيْعُهُ مِنْذُ بَدَأْتُ الْعَمَلَ فِي خِدْمَةِ آلِ الْبَيْتِ. وَلِهَذَا، فَالْعَمَلُ مَلَايَةً. بِحَسَبِ أُمِّ عَيْسَى. هُوَ نَتَاجُ لِرَغْبَتِهَا الْخَاصَّةِ وَرَغْبَةِ آلِ الْبَيْتِ كَذَلِكَ، وَقَدْ كَانَتْ أُمُّهَا وَجَدَتْهَا كِلَاهُمَا مَلَايَيْنِ، وَلَكِنَّهُمَا تَرَكَتَا الْعَمَلَ حِينَمَا مَنَعَ رَأْسُ النِّظَامِ الْعِرَاقِيِّ السَّابِقِ، صَدَّامُ حُسَيْنُ الشَّيْعَةِ مِنْ تَأْدِيَةِ الْكَثِيرِ مِنَ الطُّقُوسِ الْخَاصَّةِ بِهِمْ؛ وَلَمْ تَكُنْ أُمُّ عَيْسَى لَتَفَكَّرَ فِي أَنْ تَوَاصَلَ مَسِيرَتُهَا حَتَّى سَنِينَ قَلِيلَةٍ مَضَتْ، وَلَكِنَّهَا غَيَّرَتْ رَأْيَهَا بَعْدَ سَقُوطِ صَدَّامِ وَقُدُومِهَا إِلَى سُورِيَا. وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ تَمَثِيلِ الْإِمَامِ عَلِيِّ إِمَامَتِهَا الْمُفْضَلِ، كَانَتْ "فَاطِمَةُ الزَّهْرَاءُ" هِيَ مَنْ نَادَتْهَا فِي الْحَلَمِ، وَطَلَبَتْ مِنْهَا أَنْ تَكُونَ مَلَايَةً.

تَقُولُ أُمُّ عَيْسَى: رَأَيْتُ "الزَّهْرَاءُ" جَالِسَةً فِي الْمَنِيرِ، وَطَلَبْتُ مِنِّي الْقُدُومَ وَالْمُشَارَكَةَ فِي مَجْلِسِ الْعَزَاءِ. وَهَذِهِ دَعْوَةٌ رُيُوبِيَّةٌ، بِحَسَبِ أُمِّ عَيْسَى، وَكَذَلِكَ إِخْلَاصٌ، إِنَّهَا دَعْوَةٌ مِنْ وَلِيَّةٍ أُنْثَى، وَهُوَ مَا يَضْفِي الشَّرْعِيَّةَ عَلَى رَغْبَتِهَا فِي أَنْ يَصْبَحْنَ مَلَايَاتٍ.

وَتَضْفِي فَاعِلِيَّةُ الْأَحْلَامِ الشَّرْعِيَّةَ عَلَى مَا تَفْعَلُهُ النِّسَاءُ، أَوْ يَنْوِينُ فَعْلَهُ لِحُجَّةٍ أَلَّا تَنْحَازَ الْمَلَايَةُ إِلَى أَحَدٍ. فَفِي شَهْرِ الْمُحَرَّمِ عَامَ (١٤٣٠ هـ) الَّذِي وَافَقَ

(١) زَيْنِ الْعَابِدِينَ الْمَوْلُودُ عَامَ ٣٨ هـ. وَهُوَ الْإِمَامُ الرَّابِعُ مِنَ الْأَئِمَّةِ الْاِثْنَا عَشَرَ، كُنِيَّتُهُ أَبُو مُحَمَّدٍ وَاسْمُهُ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. وَمِنْ أَلْقَابِهِ: السَّجَّادُ، وَابْنُ الْخَيْرَتَيْنِ؛ وَذَلِكَ لِشَرَفِ نَسَبِهِ مِنْ جِهَةِ أَبِيهِ الْحُسَيْنِ وَجِهَةِ أُمِّهِ شَاهِ زَهْرَانَ الْفَارَسِيَّةَ مِنْ سُلَالَةِ كَسْرَى. وَمِمَّا مَدَحَهُ بِهِ الشَّاعِرُ أَبُو الْأَسْوَدِ الدَّؤَلِيُّ قَوْلُهُ:

وَأُمُّ الْبَنِينَ هِيَ إِحْدَى زَوْجَاتِ الْإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ بِاخْتِيَارِ عَقِيلِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ لَهَا لِأَخِيهِ. وَوُلِدَتْ عَامَ (٥٥ هـ) كَانَ اسْمُهَا فَاطِمَةُ فَطَلِبَتْ مِنَ الْإِمَامِ بَعْدَ زَوَاجِهِ مِنْهَا تَغْيِيرَ اسْمِهَا، لِأَنَّهُ يَذْكُرُ الْحُسَيْنَ وَالْحُسَيْنَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بِأُمُّهُمَا فَاطِمَةَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَدْ تَوَقَّيْتُ. فَكَانَ لَهَا مَا طَلَبَتْ.

كانون الأول عام (٢٠٠٨ م) وكانون الثاني عام (٢٠٠٩ م) عثرت أم عيسى على حُسَيْنِيَّة ثانيةٍ يمكنُها فيها أداء لطمِيتَيْن، واحدةٍ قبلَ المُحَاصَرةِ الرَّئِيسَةِ وأخرى بعدها، وجاءت امرأةٌ أخرى أثناء المُحَاصَرةِ وأخبرت الحاضرات عن رؤيتها حلمًا في صَبِيحَةِ هذا اليوم، طلبت فيه فاطمةُ الزَّهراءُ مِنْها أن تشارك في مجلس عزاءٍ، وهي أوَّلُ مُشارِكَةٍ لها. وبسببِ هذا الحلم، مُنحت المرأةُ مكانَ أم عيسى في المجلس، وسُمح لها بأداء اللَّطِيميَّةِ الأخيرة؛ ولم تكن أم عيسى راضيةً عما حَدَثَ، لكنَّها استسلمت له.^(١) ومثلما هو واضحٌ، فقد خدِمت الأحلامُ في هذه الحالةِ غرضَ إضفاءِ الشَّرِعيَّةِ على ادِّعاءاتِ اثنتينِ مِنَ المَلَّياتِ المبتدئاتِ، وكذلك فسحت المجالَ للتَّنَافُسِ والاعتراضِ و "الجدالِ".

أم زهراء:

تعدُّ أم زهراء، وهي أمُّ لثلاثِ بناتٍ وفي مُتَصفِ الأربعمِئَاتِ مِنْ عمرها، مِنْ أشهرِ المَلَّياتِ وأكثرهنَّ شَعْبِيَّةً في مَدِينَةِ السَّيِّدَةِ زَيْنَب. وقد جاءت إلى سورياً بعدَ سقوطِ النِّظامِ في العراقِ في عام (٢٠٠٣ م) ويعملُ زوجها لدى آية الله الحائريِّ. قالت أم زهراء: إنِّي أردتُ أن أكونَ مَلَايَةً بعدَ أن فقدتُ طفلاً وأنا بعمرِ السَّابعةِ والعشرين.^(٢) وهي لم تكن الوحيدةَ في قرارها هذا وسعيها إلى أن تُصَبِّحَ مَلَايَةً! إذ بدأت أختها الأكبرُ التي تعملُ مَلَايَةً في السُّويِدِ عملها معَ أم زهراء التي قالت: إنَّني أرغبُ في أن يُصَبِّحَ حزني مثيلاً وذا معنى. وبينما تَحَصَّصَتْ أختها الأكبرُ في إلقاءِ الخطبِ، كانت أم زهراء تركزُ

(١) مَلحوظات حَقليَّة، الأحد، ٨ شباط عام ٢٠٠٩.

(٢) مَلحوظات حَقليَّة، الأحد، ٧ تشرين الثاني عام ٢٠٠٩.

على النّعيّ والطّميّات. وبكلماتٍ مُوجِزةٍ، أَصْبَحَتْ أُمُّ زَهْرَاءَ مَلَايَةً ابْتِغَاءَ رِثَاءِ الأُثَمَّةِ وإِقامةِ العِلاقاتِ وتوطيدِها.

تبيّنُ قصّةُ أُمِّ زَهْرَاءَ وكذلك قصّتنا إخلاصَ وأُمِّ عيسى أهميّةِ العِلاقاتِ التّبادليّةِ والحفاظِ عليها للتّدينِ الشّيعيّ الاثنِي عَشْرِيّ، وتكْمُنُ أهميّةُ هذا النّوعِ مِنَ العِلاقاتِ في امتدادِها مِنْ خلالِ الزّمانِ والمكانِ. وَمِنْ نافِلَةِ القولِ أهميّةُ الدّورِ الَّذِي تنهَضُ بِهِ مجالسُ العِزاءِ الشّيعيّةِ في إِدامةِ العِلاقاتِ بَيْنَ آلِ البَيْتِ والشّيعَةِ، وفيما بَيْنَ الشّيعَةِ أَنفُسِهِم، الأحياءِ مِنْهُم والأَمْواتِ! ^(١) وقد تَقَرَّرُ العائِلَةُ إِقامةُ مجلسِ عِزاءٍ ابْتِغَاءَ إِيجادِ عريسٍ لِإحدى بناتِها، إِذْ يَحْدُمُ عَقْدُ المَجلسِ عِدَّةَ أَغراضٍ، مِنْها أَنَّهُ يُسَمَحُ لعددٍ لا بأسَ بِهِ مِنَ الحَمَواتِ "المُحْتَمَلاتِ" برؤيةِ الفِتياتِ المُؤَهَّلاتِ لِلزّواجِ اللَّائِي يقدّمُنَ المُعْجَناتِ، وكذلك تَعزِيزُ أواصِرِ العِلاقاتِ الاجْتِماعِيّةِ. ويمكنُ القولُ تَبَعاً لذلِكَ: إِنَّ العَمَلَ كَمَلَايَةً في المَجالسِ أو الحِراسِ على إِقامَتِها والحُضورِ والمُشارَكَةِ فيها، تَمَثِّلُ مُمارَسَةً مُتَبادَلَةً. وَيستلْزِمُ العَمَلَ كَمَلَايَةً والارتِباطُ بِآلِ البَيْتِ والتّوسُّطُ بَيْنَهُم وبَيْنَ الشّيعَةِ العادِيّينَ القُدرةَ على التّفاعِلِ، والتّجاوُبِ، وإِقامةِ العِلاقاتِ والصّداقاتِ "الأَرسطوطاليسِيّةِ". ^(٢) وتَحَرَّصُ كُلٌّ مِنَ العُلويّةِ مَرَضِيّةٍ وَأُمِّ

(١) في حالة وفاة أحد أفراد العائلة، تُقام عادة عدّة مجالس عزاء في منزله. ولا تختلف مجالس العزاء هذه كثيراً عن مجالس العزاء "العاديّة" الأخرى لجهة أن المتوفى لا يُذكر اسمه إلا في الدّعاء الأخير.

(٢) وفقاً لأرسطو: ثمة ثلاثة أنواع من الصّداقة، أفضلها تفترض سعيًا مُشتركًا لتحقيق الصّلاح. قارن مع أدث - زانتو "الحوار الدينيّ الدّاخليّ في سورّيّا" ١٠٤.

زهراء. وهما من أكثر المَلَايَاتِ شهرةً في مدينةِ السَّيِّدةِ زينب. ^(١) على تشجيع طالباتهنَّ والمَلَايَاتِ المندربَاتِ الطَّاحَاتِ على مُواصلَةِ قراءةِ الكُتُبِ عَنْ آلِ البيتِ والإِصْغَاءِ إِلَى المَجَالِسِ المُتلفِزةِ التي يقيمُها رِجَالُ الدِّينِ المَعْرُوفُونَ، فَمِنْ خِلَالِ قِراءةِ سِيرِ آلِ البيتِ والتَّأمُّلِ في أَعْمَالِهِم وأَقْوَالِهِم، تتعلَّمُ المَلَايَاتُ المبتدئاتُ كَيْفِيَّةَ الارتباطِ بِهِم وخدمَتِهِم.

وتشُدُّ المَلَايَةُ البَارِعَةُ عَادَةً القِصَّائِدِ الدِّينِيَّةِ التي تروي سِيرَ الأئِمَّةِ مِنْ آلِ البيتِ، وتؤثِّرُ في الحاضراتِ؛ ويتعيَّنُ عليها (أَنْ تَمْتَلِكَ صَوْتًا شَجِيًّا يجعلُ الحاضراتِ يَبْكِينَ) هذا مَا تَحْبِرُ بِهِ العلويَّةُ "مَرْصِيَّةُ" طالباتِها. ^(٢) وزيادةً على ذلك، يتعيَّنُ على المَلَايَةِ المَوْهُوبَةِ التَّحَلِّيَ بالوكالةِ العاطفيَّةِ المؤثِّرة. وقد علَّقتُ سَمْرُ هذا الصَّدِيدِ. وهِيَ طالِبَةُ سورِيَّةٍ في السَّنَةِ الرَّابِعَةِ مِنَ الدَّرَاسَةِ في الحَوْزَةِ الزَّينَبِيَّةِ على أداءِ المَلَايَةِ العِراقِيَّةِ مِنْ أَصُولِ إِيْرَانِيَّةٍ في المَرْحَلَةِ الأولى التي ترتدي النِّظَارَاتِ في القِسْمِ النِّسَائِيَّ قائلَةً: (مو بيدي [ليس الأمرُ بيديّ])، إنَّهَا تجعلُنِي أَبْكِي). ^(٣) فالنَّدْبُ والرَّثَاءُ فِعْلَانِ فاضِلَانِ مُحْمُودَانِ في سِيَاقِ الطُّقُوسِ الشَّيعِيَّةِ فِي الأَقْل، إنَّهُمَا تعبيرٌ عَنِ الحِزَنِ الذي يشعُرُ بِهِ الفردُ. حَسَبًا يُوَكِّدُ النَّاسُ فِي السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ. جَرَاءَ فَقْدِ الأَهْلِ أو العَنَفِ أو الفَقْرِ. ^(٤) ووفقاً لَأَمِّ زَهْرَاءَ، يتعيَّنُ

(١) كلتاها تؤدِّيَانِ فِي الحَوْزَةِ الزَّينَبِيَّةِ وَفِي الحُسَيْنِيَّاتِ الأُخْرَى. وَتَدْرُسُ أُمُّ زَهْرَاءُ كَذَلِكَ مَوْضُوعَاتٍ أُخْرَى غَيْرَ الخُطْبَةِ فِي حَوْزَةِ الإِمَامِ الحَمِينِي، وَكَانَتْ تَدْرُسُ مَادَّةَ السَّيْرِ فِي الحَوْزَةِ الزَّينَبِيَّةِ فِي عَامِي ٢٠٠٦-٢٠٠٧.

(٢) مَلَحُوظَاتُ حَقْلِيَّة، صَيْفُ عَامِ ٢٠٠٧، وَالاثْنَيْنِ، ٢٣ حَزِيرَانِ عَامِ ٢٠٠٨.

(٣) مَلَحُوظَاتُ حَقْلِيَّة، الجُمُعَةُ، ٢٥ كَانُونِ الأوَّلِ عَامِ ٢٠٠٩.

(٤) فِي سَبِيلِ المِثَالِ كَانَ مَوْضُوعُ العَنَفِ المُتَوَاصِلِ فِي العِراقِ مِنَ المَوْضُوعَاتِ الشَّائِعَةِ فِي أَحَادِيثِ الحاضراتِ وَالمَلَايَةِ. تَدْعُو المَلَايَةُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الدَّعَاءِ الخَتَامِيَّ أَنْ يَمُنَّ بِالأَمْنِ وَالسَّلامِ عَلَى العِراقِ. وَتَنَاقِشُ النِّسَاءُ عَادَةَ الشُّؤُونِ السِّيَاسِيَّةِ وَالحَرْبِ وَالعَنَفِ قَبْلَ مَجَالِسِ العِزَاءِ وَبعدها. فِي أَحَدِ الأَيَّامِ فِي حُسَيْنِيَّةِ زَيْنِ العَابِدِينَ، بَيَّنَّتْ إِحْدَى العُلُوبَاتِ العِجَازُ بَعْدَ انْتِهَاءِ المَجْلِسِ أَنَّ

على الشَّيْعَةِ الْمُتَّقِينَ البكاءَ على مَا يَجْرِي فِي غَزَّةَ، وَكَذَلِكَ زِيَارَةُ الْمَقَابِرِ؛^(١) إِنَّهَا تَوَلَّفَتْ جِزَاءً مِنْ كَوْنِكَ إِنْسَانًا، وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَشَارِكُ فِي الْمَعَارِكِ الَّتِي كَانَ أَصْحَابُهُ وَأَلْ بَيْتِهِ يُقْتَلُونَ فِيهَا، وَيُعْتَقَدُ فِي أَنَّهُ كَانَ يَزُورُ قَبْرَ عَمِّهِ الْحَمْزَةِ.

وَلَكِنْ امْتَلَاكَ قَلْبٌ رَقِيقٌ قَدْ لَا يَكُونُ كَافِيًا! إِذْ تَذَكَّرُ أُمُّ زَهْرَاءَ الْمُدْرَسَةَ فِي الْحَوَازَةِ طَالِبَاتِهَا وَجُمْهُورَهَا بِأَهْمِيَّةِ التَّعْلِيمِ،^(٢) وَهِيَ تَعْتَقِدُ فِي أَنَّ الْعَيْشَ فِي الْمَنَفَى وَمُعَانَاةَ الْفَقْرِ وَالْعَوَزِ لَيْسَا عَذْرًا كَافِيًا يَبْرُرُ إِهْمَالَ تَعْلِيمِ الْأَطْفَالِ، وَلِهَذَا تَبَيَّنَ أُمُّ زَهْرَاءَ فِي مَجَالِسِهَا كَيْفَ عَاشَ الْأَئِمَّةُ حَيَاةَ مَلُؤَهَا الْفَضِيلَةَ وَالتَّقْوَى عَلَى الرُّغْمِ مِنْ اضْطِهَادِهِمْ وَمُعَانَاتِهِمْ، حَيْثُ تَقُولُ: عَانَى الْأَئِمَّةُ صُنُوفًا مِنَ الْقَهْرِ وَالتَّضْيِيقِ، كَانُوا يَعِيشُونَ تَحْتَ الْإِقَامَةِ الْجَبْرِِيَّةِ، وَقَصَّوْا سَنِينَ طَوِيلَةً فِي السَّجَنِ، وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ هَذَا مِنْ تَنْشِئَةِ أَوْلَادِهِمْ وَأَتْبَاعِهِمْ وَتَرْبِيَتِهِمْ تَرْبِيَةً صَحِيحَةً؛ كَانُوا يَعْلَمُونَهُمُ الْقُرْآنَ وَالْفِرْقَ بَيْنَ الْحَلَالِ وَبَيْنَ الْحَرَامِ!.

وَلَكِنْ، مَا نَوْعُ التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ الَّلَّذِينَ تَعُدُّ بِهِمَا أُمُّ زَهْرَاءَ؟.

لَا يَدُورُ التَّعْلِيمُ فِي وَاقِعِ الْأَمْرِ. بِرَأْيِ أُمِّ زَهْرَاءَ. حَوْلَ الْحَقَائِقِ وَالْأَرْقَامِ الْمَجْرَدَةِ، بَلْ إِنَّهُ حَوْلَ "كَبْرِ عَقْلِكَ" أَيِ تَنْمِيَةِ إِدْرَاكِاتِكَ الْعَقْلِيَّةِ وَتَعَمِيقِ وَعَيْكَ بِالْعَلَاقَاتِ وَالْمَسْئُولِيَّاتِ.

وَتَشْتَرِكُ الْمَلَائِيَةُ جَمِيعًا فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ، هُوَ جَلْبُهُنَّ مَكْبَرٌ صَوْتٍ وَمِكْرَفُونًا مَحْمُولًا. وَسَوَاءٌ أَكَانَتْ الْمَلَائِيَةُ "تَقْلِيدِيَّةً" أَمْ "ثَوْرِيَّةً" يَتَعَيَّنُ عَلَى

الْعِرَاقِيِّينَ أَكْثَرَ قُدْرَةٍ مِنْ غَيْرِهِمْ عَلَى فَهْمِ مُعَانَاةِ آلِ الْبَيْتِ وَتَقْدِيرِهَا لَأَنَّهُمْ أَنْفُسُهُمْ عَانُوا كَثِيرًا مِنَ الظُّلْمِ وَالطُّغْيَانِ. مَلْحُوظَاتٌ حَقْلِيَّةٌ، الْأَحَدُ، ٢٤ آبَ عَامِ ٢٠٠٨.

(١) مَلْحُوظَاتٌ حَقْلِيَّةٌ الْأَحَدُ، ١٨ كَانُونِ الثَّانِي عَامِ ٢٠٠٩.

(٢) مَلْحُوظَاتٌ حَقْلِيَّةٌ، السَّبْتُ، ٢٣ آبَ عَامِ ٢٠٠٨.

"الحقيّة" منهنّ بحسبِ آمالٍ، أن تمتلكِ العِدَّةَ الخاصّةَ بها (وهذا يتضمّنُ . زيادة على المعدّاتِ المذكورة أعلاه . لباساً مناسباً ومجموعةً من قصائدِ الرثاءِ لإنشادها ودفترٍ ملحوظاتٍ لمجلّسها).^(١) وتوفّرُ الحُسَيْنَاتُ والحَوَازُ عَادَةً الأجهِزةَ الصّوتيّة، إلّا أن النّاسَ العاديّينَ الذينَ يودّونَ عقدَ المجالسِ الحُسَيْنِيَّةِ يطلبونَ عَادَةً مِنَ المَلَايَةِ جلبَ معدّاتها الصّوتيّة الخاصّة، وهذا يؤدّي إلى جعلِ الحياة أكثرَ صُعوبةً بالنّسبةِ للملّاياتِ الطّامحاتِ، أمثالَ أمّ عيسى التي اشتكتُ مِنْ أن امتلاكَ هذه الأجهِزة الصّوتيّة، هو أكثرُ أهميّةً مِنَ الرّغبةِ الصّادقةِ في خدمةِ آلِ البيتِ!^(٢) إنّ امتلاكَ وسائلٍ مكنّنةٍ وتوسّطٍ (mediation) هو ما يجعلُ المَلَايَةَ مَلَايَةً "حقيقيّة" مستقلّةً.

توسّطُ التّقوى:

ثمّة ثلاثة ذنوبٍ دأبتُ أمّ حيدرٍ مسؤولّة القسمِ النّسائيّ في الحوزة الزينبيّة على تحذير طالباتها منها: عدم ارتداءِ الملابسِ المحتشمةِ المناسبةِ، والنّميمّة، والاستماعُ إلى الموسيقى، ويرتبطُ الذّنْبَانِ الأخيرَانِ تحديداً ارتباطاً وثيقاً بمسألةِ التّأثيرِ العاطفيّ؛ ونظراً إلى تناولنا النّميّةَ في مبحثٍ سابقٍ، سنركّزُ في المبحثِ الحاليّ على الموسيقى والغناء، لا سيّما المُسجَلِ مِنْهَا.^(٣)

دأبتُ المدرّساتُ والمسؤولاتُ في الحوزة على طرحِ مسألةِ الاستماعِ إلى الموسيقى في كلّ من الفصولِ الدّراسيّةِ العاديّةِ والصّيفيّةِ. ويتفقُ الجميعُ على أن

(١) ملحوظات حقلية، الخميس، ١٠ تمّوز عام ٢٠٠٨.

(٢) ملحوظات حقلية، الخميس، ١٠ تمّوز عام ٢٠٠٨.

(٣) تتوفّر الأقراص المدّجة الدّينيّة منها وغير الدّينيّة بكثرة في مدينة السيّد زينب، وتتراوح أسعارها بين ١٠٠ ليرة و ٢٥٠ ليرة (يوازي مبلغاً يتراوح بين خمسين سنتاً إلى دولارين).

موسيقا "البوب" الغربية منها والعربية والأغاني التي يؤدّيها المغنون أمثال نانسي عجرم وعمرو دياب هي موسيقا حرام. ويتفق الجميع كذلك على أن الأغاني الدنيئة الشيعة التي تؤدى في مناسبات الأفراح أو الولادة واللطميات لا تمثل غناء أو موسيقا حراماً؛ وعلى الرغم من ذلك، يحتدم النقاش بشأن الموسيقا الكلاسيكية الغربية والشرق أوسطية والأغاني السنية الدنيئة المصحوبة بالآلات الموسيقية، أمثال الأغاني التي يؤدّيها المغني بريطاني الجنسية أذريجان في الأصل سامي يوسف. أما "الأغاني الوطنية" أمثال النشيد الوطني فكانت تجري مناقشتها بعناية وحذر!

وقد طرحت أم محمد الشيعة من تكرير في أحد الأيام سؤالاً بشأن الأغاني الوطنية التي كان ابنها يجبر على إنشادها في المدرسة، وأخبرتها العلوية عالية عن اختلاف الرأي بين مراجع الدين بشأن هذا الموضوع، إذ لا يجزئ آية الله الشيرازي ولا ينصح بالاستماع إلى هذه الأغاني أو إنشادها؛ مقابل آية الله السيستاني الذي يسمح بها. وبسبب انعدام الخيارات أمام الابن، قالت العلوية لـ (أم محمد): إنه يمكنكم العمل برأي السيد السيستاني في هذه المسألة.^(١)

وفي محاولة منها لتعليل السبب في حرمة الغناء والموسيقا، قالت العلوية عالية: إنها تصيب الناس بالجنون، وهي تثير الشهوة والمشاعر المحرمة. وخلافاً للموسيقا والأغاني، يسهم الاستماع إلى تلاوة القرآن أو الموالد في

(١) لا يجزئ في المذهب الشيعي. على وجه العموم. تقليد أكثر من مرجع دين واحد. ولكن في حال الضرورة، كانت النساء الشيعيات اللائي تحدّثن معهن يستعنّ في بعض من الأحيان بأحكام رجال دين آخرين لإيجاد مسوغ شرعي لأفعالهن. ملحوظات حقليّة، الثلاثاء، ٨ تموز عام ٢٠٠٨ والاثنين، ١١ آب عام ٢٠٠٨.

إِراحَةِ النَّفْسِ وَالتَّمَتُّعِ بِالسَّكِينَةِ وَالهَدْوَةِ.^(١) وَبَيْنَمَا يُرَجِّحُ أَنْ يَصْدُقَ تَمَيُّزُ الْعُلُوِّيَّةِ عَالِيَّةٍ فِي حَالَةِ الْمُقَارَنَةِ بَيْنَ "البُوبِ" وَ "تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ" لَا يُمْكِنُ عَدُّ اللَّطِمِيَّاتِ مَرِيحَةً فَعَلِيًّا إِذَا كَانَتْ الْغَايَةُ مِنْهَا جَعْلَ النَّاسِ يَكُونُ وَيَضْرِبُونَ أَنْفُسَهُمْ بِالزَّنَاجِيلِ! وَثَمَّةَ سُؤَالٍ آخَرُ يَمْلِي ذَاتَهُ فِي هَذَا الْجَانِبِ هُوَ: مَا الْمَوْقِفُ حِيَالِ الْأَغَانِي الْوُطَنِيَّةِ الدِّينِيَّةِ أَمْثَالِ الْأَغَانِي الَّتِي يَنْشُدُهَا حَزْبُ اللَّهِ أَوْ جَيْشُ الْمَهْدِيِّ؟.

فِي وَاقِعِ الْأَمْرِ، أَرَى أَنَّ الْاسْتِنَادَ إِلَى أُنْمُودَجِي التَّأَثُّرِ الْعَاطِفِيِّ الْمزدوجَيْنِ (أَثَارَ وَثَارَ) وَتَطْوِيرَهُمَا - عَلَى الرَّغْمِ مِنْ غِيَابِ أُنْمُودَجٍ وَاضِحٍ وَدَقِيقٍ يُمْكِنُ بِمَوْجِبِهِ تَصْنِيفُ الْمَوْسِيقَا إِمَّا إِلَى مُبَاحَةٍ وَإِمَّا مُحَرَّمَةٍ - قَدْ يَسْهُمُ فِي تَسْلِيْطِ الضَّوْءِ عَلَى التَّمَيُّزِ بَيْنَهُمَا الَّذِي يَحْتَدِمُ بِشَأْنِهِ الْجَدُلُ بَيْنَ رَجَالِ الدِّينِ الشَّيْعَةِ وَالنَّاسِ الْعَادِيِّينَ؛ وَزِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ، أَرَى إِمْكَانَ رِبْطِ هَذَيْنِ الْأُنْمُودَجَيْنِ بِتَمَيُّزٍ "وَالْتَرِ بِنِيَامِينَ" الَّذِي فَرَّقَ بَيْنَ الْفَنِّ الَّذِي يَتِيحُ لِلنَّاسِ فُرْصَةً "التَّرْكِيزِ" وَبَيْنَ الْفَنِّ الَّذِي "يَشْتَتُ" / يَصْرَفُ "الْإِنْتِبَاهَ" انْتِبَاهَهُمْ؛ بِنَحْوِ يَسَاعِدِيٍّ تَعْمِيقٍ فَهْمُنَا لِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ.^(٢)

وَطَبَقًا لِهَذَا الْمُخْطَاطِ، يُرَجِّحُ أَنْ تَكُونَ الْمَوْسِيقَا مَقْبُولَةً دِينِيًّا فِي مُنَاسَبَاتِ الْمَوَالِدِ وَاللَّطِمِيَّاتِ، كَلَطِمِيَّاتِ (بِاسْمِ الْكِرْبَلَائِيِّ) مِثْلًا الَّتِي تَسْمَحُ لِلنَّاسِ بِالتَّرْكِيزِ، وَتَتْرَكُ أَثَارًا فِي الْمُسْتَمْعِينَ. وَخِلَافًا لَهَا، لَا تَحْطَى الْمَوْسِيقَا الَّتِي تَشْتَتُ وَتَثِيرُ الْمَشَاعَرَ بِالْقَدْرِ ذَاتِهِ مِنَ الْمَقْبُولِيَّةِ؛ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ اعْتِمَادِ ذَلِكَ عَلَى رَجُلٍ

^(١) يرى آية الله فضل الله أَنَّ الْمَوْسِيقَا الْكَلَّاسِيكِيَّةَ الْغَرْبِيَّةَ تَهْدَأُ الْأَعْصَابَ وَتُخَفِّضُ عَلَى التَّفْكِيرِ الْمُنْطَقِيَّ، وَلِهَذَا فَهُوَ يَبِيحُهَا خِلَافًا لِآيَةِ اللَّهِ الشَّيرَازِيِّ الَّذِي يَحْرِمُ أَنْوَاعَ الْمَوْسِيقَا جَمِيعًا.

^(٢) وَالتَّرِ بِنِيَامِينَ (إِضَاءَات) تَحْرِير: حَنَّا أَرْنَدَت، تَرْجُمَةُ هَارِي زَوْهَن (نِيُيُورْك: كُتُبُ شُوكِن، ١٩٦٨) ٢٣٩.

الدين والغايات التي تجري إثارة المستمعين لأجلها. فإذا كانت الغاية هي إثارة الشهوة وتشيت الانتباه، فالموسيقا مُحَرَّمَةٌ قطعاً، أما إذا كان الهدف من الأغاني التي قد تكون مصحوبةً بالعزف على الأدوات الموسيقية استثارة همم المقاتلين كما في حالة حزب الله أو كسب دعم الشيعة التقليديين وتعاطفهم مع الجماعات الشيعية المسلحة مثل جيش المهدي؛ فإنها تكون مباحة. وفي حالة مثل هذه، تغدو مسألة تحريم الاستماع إلى الموسيقا من عدمه مسألة سياسية كذلك.

الموسيقا الحرام والموسيقا الحلال في عصر "الإنتاج الميكانيكي"؛

في كتابه (الفن في عصر الإنتاج الميكانيكي) ميّز بنيامين "بين نمطين من أنماط تصوّر الفن والتعامل معه، إذ كتب بنيامين: إن الفن الأصلي، أمثال الفن الذي كان يُنتج قبل عصر "الإنتاج الميكانيكي" يجوز على "هالة" خاصة به، ويحث المستمعين على "التركيز" خلافاً للفن الذي يُنتج بأسلوب شامل، ويسهم في "تشيت" المستمعين.^(١)

ويعني الشكل الأول من الفنون (رجلاً يركّز على عمل فني ويستغرق فيه، إنه يغوص في داخله).^(٢)

وترتبط المفردة الثانية "تشيت" بالتطورات التكنولوجية الحديثة بسبب دور (عملية إنتاج الفن الميكانيكية في تغيير ردود أفعال الجماهير وطبيعة تعاطيهم مع الفن).^(٣) وابتغاء تعزيز فكرته، أورد بنيامين مثالا آخر تحدث فيه

(١) المصدر ذاته.

(٢) المصدر ذاته.

(٣) المصدر ذاته، ٢٣٤.

عَنْ الفلم بوصفه شيئاً يعزُّزُ خاصِّيَّةَ "التَّشَتُّتِ" لَأَنَّهُ لَا يَسْمَحُ لِلْمَشَاهِدِينَ
بِتَأَمُّلِ الْمَشَاهِدِ وَالصُّوَرِ الَّتِي تَمَرُّ مِنْ أَمَامِهِ. (١)

وَتتَوافَقُ فِكْرَةُ بِنْيَامِينَ عَنْ التَّرْكِيزِ لِحِجَةِ التَّأَثُّرِ الْعَاطِفِيِّ مَعَ نَمَطِ التَّأَثُّرِ
الْعَاطِفِيِّ الَّذِي يَقَعُ فِي الْمَجَالِسِ (وَنَاقَشْنَاهُ فِي الْمَبَاحِثِ أَعْلَاهُ) وَلَمَّا كَانَا كِلَاهُمَا
يَتَطَلَّبَانِ وَيُوجِبَانِ ضِمْنِيًّا بَوُجُودَ مُشَاهِدٍ مُفَكِّرٍ وَمَتَأَمِّلٍ؛ وَتَتَرَكُّ الْأَعْمَالُ الْفَنِيَّةُ
الَّتِي تَسَاعِدُ عَلَى "التَّرْكِيزِ" انْطِبَاعًا فِي الْمُسْتَمْعِينَ، وَتَمَكِّنُهُمْ مِنَ الْاسْتِمَاعِ
"الْأَخْلَاقِيِّ". وَبَيْنَمَا يَبْدُو هَذَانِ الْجَانِبَانِ مُتَوَافِقَيْنِ إِلَى حَدٍّ كَبِيرٍ، يُرَجَّحُ
الاعتِرَاضُ عَلَى الرَّأْيِ الْآخِرِ الْخَاصِّ بِـ "التَّشَتُّتِ" كَوْنَهُ يَنْطَوِي عَلَى إِشْكَالِيَّةٍ
عَمِيقَةٍ وَلَمَّا كَانَ الْفَنُّ الَّذِي "يُشَتَّتُ" قَدْ لَا يَدْعُو بِالضَّرُورَةِ إِلَى الثَّوْرَةِ. فَبَعْدَ كُلِّ
ذَلِكَ، قَدْ تَطَلَّبُ حَتَّى الثَّوَرَاتُ "تَرْكِيزَ" الْجُهُودِ وَ "تَنْسِيقَهَا" أَكْثَرَ مِنْ
"تَشْتِيَتِهَا" وَعَلَى الرُّغْمِ مِنْ ذَلِكَ، مَا زَالَ بِالْإِمْكَانِ رِبْطُ مُفْرَدَةِ "ثَار" الَّتِي تَعْنِي
عَدَمَ الْاسْتِقْرَارِ وَالْهِيَاجَ بِمَفْهُومِ بِنْيَامِينَ عَنْ التَّشَتُّتِ.

وَقَدْ نَاقَشَ "تشارلس هيرشكايند" فِي كِتَابِهِ (الْمَنْظَرُ الصَّوْتِيُّ الْأَخْلَاقِيُّ)
مَفْهُومَ الْاسْتِمَاعِ الْأَخْلَاقِيِّ بِنَحْوِ بَارِعٍ وَمُفِيدٍ. (٢) فَوْقَهَا لَهُ، يَمَارِسُ السَّنَةَ فِي
مَضَرِّ هَذَا النُّوعِ مِنَ الْاسْتِمَاعِ مِنْ خِلَالِ حُضُورِ الْأَشْكَالِ الدِّينِيَّةِ مِنْ وَسَائِلِ
الْإِعْلَامِ ابْتِغَاءَ تَنْمِيَةِ الذَّاتِيَّاتِ الْفَاضِلَةِ وَالتَّقْيَةِ، وَعَلَى شَاكِلَتِهِمْ، هُنَاكَ الْكَثِيرُ مِنَ
الشَّيْعَةِ فِي مَدِينَةِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ الَّذِينَ يَحْرُضُونَ عَلَى أَنْ يَكُونُوا أَكْثَرَ تَدْنِيًّا
وَصَلَاحًا مِنْ خِلَالِ الْمُشَارَكَةِ فِي مَجَالِسِ الْعِزَاءِ وَمُشَاهَدَةِ مَجَالِسِ الْعِزَاءِ
وَالْمُحَاضَرَاتِ الْمُتَلَفِزَةِ وَالْإِصْغَاءِ إِلَى اللَّطِمِيَّاتِ الْمُسَجَّلَةِ وَالْمَوَالِدِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي

(١) الْمَصْدَرُ ذَاتَهُ، ٢٣٨.

(٢) هِيرشكايند (الْمَنْظَرُ الصَّوْتِيُّ الْأَخْلَاقِيُّ).

يؤدّيها رواديدُ معرُوفونَ أمثال "باسم الكربلائي" الذين يستخدمون هذه الوسائل بوصفها تكنولوجيات ذات "فوكوية" أو وسائل لتنمية الحساسيات الورعة والتّقيّة وتعزّيزها،^(١) ويسمح هؤلاء المستمعون لأنفسهم ويحرصون على أن يتأثّروا عاطفيّاً، وهذا بدوره يتطلّب منهم تركيزاً [عالياً].

ومثلاً تبيّن أعلاه، ثمة أشكال من وسائل الإعلام الشّيعيّة لا ترمي بالضرورة إلى "الاستماع الأخلاقي". إذ يعرض أنصارُ مُقتدى الصّدْرِ في سبيل المثال . ويبيعون أقراصاً مُدجّجة تضم أغنيات نُظمت على وقع أصوات اللّطميّات الإيقاعيّة (التي تركز على صوت ضرب الرّجال لصدورهم). وتستخدم هذه التّسجيلات صوّراً ولغة دينيّة وجملة من المؤثّرات الأخرى، أمثال مشاهد للتفجيرات والعمليّات العسكريّة في العراق يقوم بإعدادها هواة؛ وتسهم هذه التّسجيلات المعروضة للبيع في السّوق عادةً في "تشيت" انتباه المارة، الذين يتوقّفون ويحدّثون في الشّاشة المنصوبة في أعلى (الكشك) وقد لحظت توقّف النّاس وتحديقهم في كلّ مرّة كنتُ أمرُّ بها قرب (الكشك).^(٢)

ويتألّف عابرو السّبيل / المتفرّجون عادةً من مجموعاتٍ غير محدّدة من الأشخاص، تتراوح بين الحجاج الشّيعية ورجال الشرطة السّوريين الذين يرتدون الزي الرّسمي (يُرجّح أنّهم من السّنة). وعلى الرّغم من ذلك إلّا أنّه

(١) قارن مع ميشيل فوكو "تكنولوجيات الذّات" في (تكنولوجيات الذّات: حلقة نقاشيّة مع ميشيل فوكو) تحرير، لوثر أتش مارتن، هاك غاتمان، وباترك أتش هاتن (بوسطن: جامعة ما سوشيسيتس، عام ١٩٩٨) ١٦-٤٦.

(٢) الكشك: مُصطلح سوري يُقصد به عُرفٌ غير اسميّة لبيع السّلع الخفيفة تكون ذات أشكال وأحجام مختلفة تُقام خارج الأبنية في أماكن مناسبة على الأرصفة العريضة وزواياها. وغالبا ما يتجاوز العاملون فيها حدودها فيعرضون بضائعهم أمامها وفي جوانبها (المقوم اللّغوي).

ندر أن شاهدتُ أحداً يشتري هذه الأقراص. ولهذا، أرى أنّها لا تخدمُ غرضاً ما خلا تشتيتِ انتباهِ المتفرّجينِ المارّةِ بدلاً من جذبهم وحثّهم على التّجاوب! وزيادةً على ذلك، تجرُّ هذه الأقراصُ المشاهدينَ على الرّبطِ بينَ جيشِ المهديّ وزيارةِ السيّدة زينب جسدياً (أكثرُ منه فلسفياً أو فكرياً) من خلالِ تشتيتِ الانتباه؛ وفي الوقتِ ذاته إضفاءُ الشّرعِيّةِ على هذا الجيشِ، وذلك عن طريقِ الجمعِ بينَ الجماليّاتِ الدّينيّةِ (بمعنى التّصوُّرِ الإدراكيّ الحسيّ)^(١) وصورِ المقاومةِ المسلّحةِ ضدّ القوّاتِ الأمريكيّةِ في العراق.

واللّا فُتْ للانتباه، أنّ الطّموحاتِ أو التّوظيفاتِ السّياسيّةِ المقترنةَ بأغنيّاتٍ محدّدةٍ لا تجعلُ هذه الأغنيّاتِ غيرَ مقبولةٍ دينيّاً، وذلك بسببِ وفرةِ التّفسيّراتِ الثّوريّةِ في المذهبِ الشّيعيّ والاستخداماتِ السّياسيّةِ للطّقوسِ الشّيعيّةِ (وبضمنها الأناشيدُ) حتّى قبلَ عملِ "بنيامين" (الفنُّ في عصرِ الإنتاجِ الميكانيكيّ).^(٢) وتبدو هنا التّفاصيلُ المتعلّقةُ بالغايةِ منَ نظمِ هذه الأغانيِ والطّرفِ المستفيدِ منها أكثرَ أهميّةٍ في النقاشاتِ الخاصّةِ بجوازها منها منَ حقيقةِ تسييسها! وتختلفُ وسائلُ الإعلامِ الشّيعيّةِ في هذا الجانبِ تحديداً، عن تصوُّرِ "بنيامين" عن الفنِّ حينما كتّب: (يسهمُ الإنتاجُ الميكانيكيُّ في تحريرِ العملِ الفنّيِّ منَ الاعتمادِ الطّفيليِّ "على الطّقوسِ" والسّماحِ لهُ بالاعتمادِ على مُمارَسةٍ أخرى "السّياسة").^(٣) وهذا يعني أنّ المكننةَ تسمحُ بالتّسييسِ وفقاً لـ "بنيامين".

(١) باك - مورس "الجماليّات والمخدر" ٦.

(٢) قارن مع أغاي (شهداء كربلاء)؛ ديب: (الحدائيّ المأسور)؛ حسين "عزاء التّاريخ وتاريخ العزاء" ٧٨-٨٨.

(٣) بنيامين (إضاءات) ٢٢٤.

لا يمكنُ في مُناسَبَاتٍ ولاداتِ الأئمَّةِ واللطمِيَّاتِ الشَّيعِيَّةِ القولُ: إِنَّ المَكْنَنَةَ . بمعنَى الإنتاجِ والبتِّ الشَّامِلِ للأقراصِ المُدبَّجَةِ . هِيَ المَسْؤُولَةُ عَنْ تَسْيِيسِ الأَغَانِي الدِّينِيَّةِ . وعلى الرُّغمِ مِنْ ذَلِكَ، إلَّا أَنَّ فكرةَ بنيامينَ مَا زالتْ مفيدةً في حَالِ التَّوكِيدِ على دورِ المَكْنَنَةِ في السَّمَّاحِ بنوعِ مُحَدِّدٍ مِنَ التَّسْيِيسِ؛ تَسْيِيسٍ مُشْتَبَّ يُخْضَعُ الجُمهورُ بموجِبِهِ لِمَشْرُوعِيَّةٍ مَجْمُوعَةٍ أو تفسِيرٍ مُحَدَّدٍ، ليسَ مِنْ خِلَالِ التَّأَمُّلِ العميقِ، بل مِنْ خِلَالِ التَّعَرُّضِ المُشْتَبَّ لِأَغَانٍ شَائِعَةٍ جَاهِرِيًّا تُثِيرُ المستمعينَ وتُحْتُمُّ أَحْشَائِيًّا.

بِاسْمِ الكِرْبَلَائِيِّ وَالِاسْتِمَاعِ الأخْلَاقِي:

يُعدُّ "باسمُ الكِرْبَلَائِيِّ" أحدَ أشهرِ منشَدِي اللَّطْمِيَّاتِ وأكثرِهِم شَيعِيَّةً بَيْنَ الشَّيعَةِ في العَالَمِ . وقد كَانَ بِاسْمُ جزءاً مِنْ موجَةِ العِرَاقِيِّينَ الَّذِينَ فُرُوا مِنَ العِرَاقِ فِي ثَمَانِيَّاتِ القَرْنِ العِشْرِينَ حِينَما طُرِدَ صَدَّامُ حُسَيْنُ وَهَجَرَ أَرْبَعِينَ أَلْفَ شَيعِيٍّ بِتَهْمَةِ التَّبَعِيَّةِ لِإِيرَانَ، وَانْتَقَلَ بِاسْمُ مَعَ عَائِلَتِهِ إِلَى مُحَافَظَةِ أَصْفَهَانَ فِي إِيرَانَ حَيْثُ دَرَسَ فَنَّ أَدَاءِ اللَّطْمِيَّاتِ . وَأَسْهَمَ الدَّعْمُ الدِّينِيُّ الَّذِي تَلَقَّاهُ مِنْ مُؤَسَّسَاتٍ دِينِيَّةٍ، وَالَّذِي اتَّخَذَ شَكْلَ دَعْوَتِهِ إِلَى المُشَارَكَةِ فِي مَجَالِسِ عَزَاءٍ وَمُنَاسَبَاتٍ دِينِيَّةٍ أُخْرَى... أَسْهَمَ فِي تَعْزِيزِ مَسَارِهِ المِهْنِيِّ ودَعْوِهِ مَعْنَوِيًّا.

وَفِي المُحَرَّمِ عَامَ (٢٠٠٧ م) حَضَرْتُ أَدَاءً حَيًّا لِبَاسْمِ فِي الحَوْزَةِ الشِّيرَازِيَّةِ فِي مَدِينَةِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ، وَشَاهَدْتُهُ فِي الشَّاشَةِ لِأَنِّي كُنْتُ فِي الطَّابِقِ العلَوِيِّ المُخَصَّصِ لِلنِّسَاءِ فِي حِينِ كَانَهُ هُوَ يُوَدِّي فِي قَاعَةِ الرَّجَالِ فِي الطَّابِقِ الأَرْضِيِّ . كَانَهُ هَذَا المَجْلِسُ عَامًّا، وَلِذَلِكَ كَانَ مَكْتَظًّا بِالنَّاسِ،^(١) وَشَاهَدْتُ الكِرْبَلَائِيَّ

(١) مَلَحُوظَاتُ حَقَلِيَّةٍ، الأَرْبَعَاءُ، ٨ آبِ عَامِ ٢٠٠٧ .

في مجلسٍ آخرٍ في حريفٍ عام (٢٠٠٩ م) حينما أُنشدَ في حُسَيْنِيَّةِ المُصْطَفَى
المستقلَّة. (١)

لَمْ يَخْصُصْ الْمُنْظَمُونَ فِي هَذِهِ الْحُسَيْنِيَّةِ أَمَاكِنَ لِلنِّسَاءِ، وَلِذَا انْتَهَى الْأَمْرُ
بِهِنَّ إِلَى الْجُلُوسِ عَلَى قِطْعٍ بِلَاسْتِيكِيَّةٍ فُرِشَتْ خَارِجًا فِي الشَّارِعِ! وَعَلَى الرَّغْمِ
مِنْ بَرُودَةِ الْجَوِّ وَاضْطِرَارِهِنَّ إِلَى اسْتِنشَاقِ الدُّخَانِ الْمُنْبِعِثِ مِنْ عَوَادِمِ
السَّيَّارَاتِ الْمَارَّةِ، إِلَّا أَنَّ النِّسَاءَ تَحْمَلْنَ كُلَّ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ الْاسْتِغَاةِ إِلَى الْكَرْبَلَائِيِّ
مِنْ خِلَالِ مَكْبَرَاتِ الصَّوْتِ! وَتَنَعَكُسُ شَعْبِيَّةُ بَاسْمٍ فِي السُّوقِ فِي الْمِيبَعَاتِ،
وَتَتَشَرُّ صُورُهُ فِي الْكَثِيرِ مِنَ السَّلْعِ الشَّائِعَةِ فِي الْمَرَاقِدِ الْمُقَدَّسَةِ وَالْأَمَاكِنِ
الدِّيْنِيَّةِ، أَمْثَالِ سِلَاسِلِ الْمِفَاتِيحِ، وَالْمَحَافِظِ الشَّخْصِيَّةِ، وَالْوَسَائِدِ، وَأَغْلَفَةِ
الْأَقْرَاصِ الْمُدْجَجَةِ.

وَيَتَمَيَّزُ صَوْتُ بَاسْمٍ بِالْقُوَّةِ وَغَلَبَةِ الْحَزَنِ، وَيُمْكِنُ سَمَاعُهُ فِي السُّوقِ لِأَنَّ
العديدَ مِنْ بَاطِعِي الْمُقْتَنِيَّاتِ الدِّيْنِيَّةِ يَشْعُلُونَ لَطِمِيَّاتِهِ أَوْ أَعْمَالَهُ الْمُسْجَلَةَ الْأُخْرَى
(يَعْتَمِدُ ذَلِكَ عَلَى الْمُنَاسَبَةِ). فِي الْأَفْلَامِ الْفِيدْيُوِيَّةِ الْمَعْرُوضَةِ لِلْبَيْعِ فِي الْمَحَالِّ
الْمُنَشَّرَةِ حَوْلَ صَرِيحِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ، وَيَضْطَحِبُ صَوْتُ بَاسْمِ الْجُمْهُورِ فِي
زِيَارَاتِ افْتِرَاضِيَّةٍ إِلَى الْمَرَاقِدِ الشَّيْعِيَّةِ فِي الْعِرَاقِ، وَإِيرَانَ، وَسُورِيَا، أَوْ يَأْخُذُهُمْ
إِلَى أَحْدَاثٍ بَعِيدَةٍ تَارِيخِيًّا مِنْ خِلَالِ أَدَائِهِ الْمَسْرُحِيِّ لِسَرْدِ كَرْبَلَاءَ؛ وَتَصُورُ
الْأَفْلَامِ الْقِيَاسِيَّةُ الْأُخْرَى بَاسْمًا فِي الْحُسَيْنِيَّاتِ وَهُوَ يَقُودُ مَجَالَسَ مَكْتَنَظَةً بِالْمُؤَالَيْنِ
الذُّكُورِ.

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ أَنْاشِيدَ بَاسْمٍ لَيْسَتْ سِيَاسِيَّةً بِالْمَعْنَى الْحَرْفِيَّ لِلْكَلِمَةِ،
إِلَّا أَنَّهُ يُمْكِنُ وَضْفُهَا بِالْمَهْمَةِ سِيَاسِيًّا. إِذْ تَبَّتْ قَنَاةُ (مُوسَى الْكَاطِمِ) التَّلَفَازِيَّةُ

(١) مَلَحُوظَاتُ حَقْلِيَّةٍ، الْأَرْبَعَاءُ، ١٤ تَشْرِينَ الْأَوَّلَ عَامَ ٢٠٠٩.

التي يرعاها الشيرازيون عرضاً حياً لباسم الكربلائي الذي كان ينشد في الكاظمية في العراق بعد مدة قصيرة من التفجير الثلاثي الذي استهدف زواراً شيعة في طريقهم إلى مرقد الكاظميين^(١). وتساعد المشهد الحية والمتواصلة للانفجارات المميّة... تساعد المستمعين في هذه الحالة في الشعور بمراثي باسم التقيّة، وتجعل من عرضه الأدائي وثيق الصلة بما يجري في العراق في الوقت الحاضر! إنَّها وسيلة لتذكيرهم بالظلم والمصائب التي ما برحوا يكابدونها.

وعلى الرغم من قلة عدد العراقيين الذين يكونون فعلياً أو يضربون أنفسهم بالزناجيل أثناء استماعهم إلى التسجيلات أو مشاهدتهم العروض الحية، إلا أن عروض باسم الأدائيّة تبقى فاعلة لجهة حجم تأثيرها في المستمعين^(٢). إن تفاعل باسم وسرعة تجاوبه مع الشؤون الداخليّة تمكّن الشيعة من التركيز على المغزى الكامل الذي تنطوي عليه أحداث محدّدة، وتجعلهم يتأملونها زيادة على التفكير في المضمونات الدنيّة لأناشيد باسم التي يبدو واضحاً قدرتها على التأثير في المستمعين من خلال تشجيعهم على التأمل من جانب، ومن جانب آخر إثارتهم، خصوصاً إذا كان هؤلاء المستمعون متمرسين في فن الاستماع الأخلاقيّ ومؤلفين مع مجالس العزاء الشيعة.

وتتسم تسجيلات باسم الصوتيّة والصوريّة بكونها مثيرة ومحفزة جهالياً لجهة تناغمها مع التّصوّرات الحسيّة (حتى لو لم تدفع المستمعين إلى البكاء الفعليّ أو الضرب بالزناجيل). وينهض صوت الأيدي التي تضرب الصدور

(١) ملحوظات حقليّة، الاثنين، ٢٨ تموز عام ٢٠٠٨.

(٢) ملحوظات حقليّة، الخميس، ٢٦ حزيران عام ٢٠٠٨.

بقوّة بدور كبير في الحفاظ على إيقاع قصائد الرثاء الشّجيرة؛ ومن باب الإجمال، تسهم هذه القصائد في تذكير المستمعة التّقيّة بحواشها الجسديّة؛ أو بإمكان ارتباطها، جسديّاً، بزَيْنَب أو الحُسَيْن. (١)

يقول يحيى، وهو أحد سكّان مدينة السيّد زَيْنَب الذي تشيّع: إنّهُ يحبّ الاستماع إلى باسم حينما يكون مُتعباً، أو مُحبطاً، أو غاضباً^(٢)، وهو يصف لطمية باسم بالحيويّة، والمُحفّزة، والمُعبرة في آن معاً، وحتى المريحة. ويتابع القول: إنّهُ حينما يستمع إلى لطمية باسم، فإنّه يتأمّل حياته ويتذكّر ضالّة مشكلاته ومُحْزِهِ مُقارنَةً بِمُحْزَنِ زَيْنَب والحُسَيْن عليهما السّلام. (٣) وتنفق "أمّ أحمد" الأرملة العراقيّة والطّالبة في الحوزة مع ما قاله يحيى. إذ يُسهم الاستماع إلى باسم والتركيز على مصائب آل البيت واستحضارها في التّخفيف من شدّة آلامها، وجعلها نسبيّة على الرّغم من أنّها لا تؤدّي إلى تشييت انتباه المستمعة وإلهائها عن فقد الأحبة الذين لا يمكنُ نسيائهم قطّ. (٤) إلّا أنّ هذا الكلام لا يصدّق على وسائل الإعلام والتّواصل الشّيعيّة جميعاً، لأنّها لا تؤثر في تصوّرات المستمعين أو المشاهدين الحسيّة بالقوّة أو الأسلوب ذاته.

(١) وفقاً لشارلس هيرشكايند (٢٠٠٦)، يؤثّر الاستماع الورع في المستمعين تأثيراً كبيراً. ولكن، وبينما يؤثّر الاستماع إلى باسم الكربلائيّ تأثيراً كبيراً في المستمعين، إلّا أنّه لا يحلّ قطّ محلّ طقوس العزاء بمُجملها.

(٢) ملاحظات حقليّة، الثّلاثاء، ١٧ حزيران عام ٢٠٠٨.

(٣) ملاحظات حقليّة، الثّلاثاء، ١٧ حزيران عام ٢٠٠٨.

(٤) ملاحظات حقليّة، الجمعة، ٢٢ آب عام ٢٠٠٨.

عواطف مُقتدى الصدر المشتتة:

بحسبِ مَا لحظْنَا أعلَاهُ، ثَمَّةَ نَوْعٍ غَيْرِ عَادِيٍّ مِنْ وَسَائِلِ الإِعْلَامِ الشَّيْعِيَّةِ الَّتِي كَانَ يُمْكِنُ شِرَاؤُهَا فِي مَعْرِضِ الْكِتَابِ الصَّنِيفِيِّ السَّنَوِيِّ فِي مَدِينَةِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ حَتَّى عَامِ (٢٠٠٩ م) الَّذِي شَهِدَ نِزَاعًا بَيْنَ مُقْتَدَى الصَّدْرِ وَأَحَدِ الْمَسْؤُولِينَ الْمَحَلِّيِّينَ اضْطُرَّ مَعَهُ أَنْصَارُ الْأَوَّلِ إِلَى الْإِنْسَحَابِ مِنَ الْأَمَاكِنِ الْعَامَّةِ.^(١)

يُنْصَبُ فِي مَعْرِضِ الْكِتَابِ السَّنَوِيِّ صَفٌّ مِنَ الْخِيَامِ الَّتِي تَعْرُضُ الْكُتُبَ قِبَالَةَ الْجِدَارِ الْجَنُوبِيِّ لِمَجْمَعِ مَرْقِدِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ؛ يَسْتَمِرُّ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ خِلَالَ فَضْلِ السَّيَاحَةِ الصَّنِيفِيِّ، حَيْثُ يَأْتِي الزُّوَارُ مِنْ دَوْلِ الْخَلِيجِ الْعَرَبِيِّ لَزِيَارَةِ الْمَرْقِدِ وَالتَّمَتُّعِ بِالْجَوِّ الْبَارِدِ نَسِيًّا فِي سُورِيَا.^(٢) وَثَمَّةَ شَاشَةٍ عَرْضُهَا عَشْرُونَ إِنْشَاءً، تُبَثَّتُ فِي مَوْقِعٍ اسْتِرَاطِيغِيٍّ بَيْنَ اثْنَيْنِ مِنْ مَدَاخِلِ الْمَرْقِدِ الْعَامَّةِ، تُخْدَمُ غَرَضَ الْإِعْلَانِ عَنْ خِيَمَةٍ صَغِيرَةٍ لِبَيْعِ الْكُتُبِ، تَقَعُ فِي نِهَآيَةِ صَفِّ الْخِيَامِ، وَتَشَتَّتُ انْتِبَاهَ الْمَارَّةِ بِمَا تَعْرُضُهُ مِنْ أَفْلَامٍ غَرِيبَةٍ!^(٣) فَالْصُّورُ الْمَتَدَفِّقَةُ مِنَ الشَّاشَةِ سِرْيَالِيَّةُ الطَّابَعِ، وَالْأَصْوَاتُ مُعَدَّلَةٌ كَالْكَتْرُونِيَّاتِ؛ وَتَحْتَشِدُ بِمُصْطَلَحَاتٍ دِينِيَّةٍ وَوَطَنِيَّةٍ. وَتَتَوَلَّى مُؤَسَّسَةُ الصَّدْرِ بِالنِّيَابَةِ عَنْ زَعِيمِهَا مُقْتَدَى عَرْضَ هَذِهِ الصُّورِ وَالْأَفْلَامِ.

(١) مَلِحُوظَاتُ حَقْلِيَّةٍ، الْخَمِيسَ، ٢٩ تَشْرِينَ الْأَوَّلَ عَامِ ٢٠٠٩.

(٢) تُمَثِّلُ السَّيَاحَةُ فِي السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ صِنَاعَةً مُتَكَامِلَةً تَسْتَمِرُّ طَوَالَ الْعَامِ بِفَضْلِ الزَّائِرِينَ الْقَادِمِينَ الْعِرَاقَ، وَإِيرَانَ، وَلُبْنَانَ، وَبَالَاكِسْتَانَ. إِلَّا أَنَّ ارْتِفَاعَ عِدَدِ الزَّائِرِينَ فِي فَضْلِ الصَّيْفِ يَجْعَلُ هَذَا الْفَصْلَ تَحْدِيدًا وَافِرَ الْأَرْبَاحِ، إِذْ تَرْتَفِعُ أَجْرَةُ الْغُرْفِ فِي الْفُنَادِقِ إِلَى ثَلَاثَةِ أَضْعَافٍ.

(٣) بَنِيَامِينَ (إِضَاءَات) ٢٣٩.

ومثلًا نَوَّهنا في مَوْقعٍ سَابقٍ، لا بِجورٍ مُقتدى الصِّدرِ مرتبةً آيةَ اللهِ؛ على الرُّغمِ مِنْ أَهمِّيَّتهِ ومَوْقعِهِ السِّيَاسِيِّ الَّذينَ حَازَهُما بِسَببِ كَثرةِ عَدَدِ أَتباعِهِ مِنْ الشَّبابِ المُسلَّحِينَ الَّذينَ نَظَمَهُمُ فِيمَا يُعرَفُ بـ (جيشِ المهدي).

ومُقتدى هُوَ ثالِثُ أبناءِ آيةِ اللهِ العَظَمَى مُحَمَّدٍ صَديقِ الصِّدرِ الَّذي قَتَلَتْهُ أَجْهزةُ صَدَّامِ حَسينِ الأُمَنيَّةِ في عَامِ (١٩٩٩ م) ويُعدُّ مُحَمَّدٌ بافِرُ الصِّدرِ. هُمُ مُقتدى. أحدَ آياتِ اللهِ العَراقِيِّينَ المَهمِّينَ الَّذينَ وقَفُوا في وَجهِ الحُكُومةِ العَراقِيَّةِ وقَتَلَ على يَدَيِها في عَامِ (١٩٨٠ م).^(١) وتَحدَّثُ عَائلةُ الصِّدرِ مِنْ سَلالةِ النَّبيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم مِنْ خِلالِ الإِمامِ الخامِسي، وتَستندُ في قاعدَتِها الشَّعبِيَّةِ إلى الطَّبَقاتِ الشَّيعِيَّةِ الفَقيرةِ الِتي يَقطنُ أَكثَرُيَّةُ أَفرادِها في المَناطقِ الفَقيرةِ في أَطرافِ بَغداد. وتَتمتَّعُ شَبكةُ المُنظَّماتِ الخيريَّةِ الِتي أُسَّسَتْها عَائلةُ الصِّدرِ ومواقِفُها السِّيَاسِيَّةُ الواضِحةُ والصَّريحَةُ بِجَاذِبِيَّةٍ شَديدةٍ بَينَ الشَّبابِ في المَناطقِ الحَضَريَّةِ.^(٢)

تبدأُ الأفلامُ الفِديويَّةُ بالدَّعايَةِ للمَصورِ / المَحَرِّرِ ثُمَّ يُقدِّمُ المَناشِدُ الحُسينِيَّ على أَنَّهُ الرَّادُودُ فلانُ الفَلائي، ويَحْصُلُ المَؤدُّونَ في هَذِهِ الفِقرةِ الإِعلانيَّةِ على ألقابٍ دينِيَّةٍ تَكونُ لَصيقَةً بِهِم. ويَكونُ العَرضُ دائِمَ الحَركةِ وسَريعَ التَغيُّرِ، وتَنقَسِمُ الشَّاشَةُ على عِدَّةِ أَجْزاءٍ، تَقدِّمُ عَروضًا مُختَلِفةً مُتواصِلَةً، وتَندَفِّقُ الصُّورُ بِسرعةٍ كَبيْرةٍ. وَقَدْ تَذكَّرتُ أَثناءَ مُشاهَدَتِي هَذِهِ الأفلامَ

(١) قول "الولايات المتحدة الأمريكية والفصائل الدينية في عراق ما بعد البعث".

(٢) المصدر ذاته ٥٤٤.

"بنيامين" الذي تحدث عن الفلم بوصفه أحد أبرز أنواع الأعمال الفنية
المُشتتة. (١)

يظهر مُقتدى الصّدر في فلم بعنوان (باسمك يا مُقتدى) جالساً في المنبر
أولاً، ثم بجانب والده المتوفى، ثم بين رجال دين آخرين، وينتهي هذا المشهد
فيعقبه آخر يُعيد تجسيد وقعة كربلاء، ويشبه ما يقوم به مُقتدى الصّدر بما فعله
الحسين عليه السّلام لجهة مقاومة الظلم والطغيان؛ ثم تتقل الكاميرا من
العراقيين المحتجين إلى صور أخبارية للرئيس الأمريكي جورج بوش، غايتها
توكيد موقف العراقيين الموحد والرافض للقوات العسكرية الأجنبية. ويعرض
الفلم في مشهد آخر أحد الجنود الأمريكيين مُحبطاً وخائفاً وفي وضعيّة الجنين،
وتتقل الكاميرا أثناء ذلك من تفجير إلى آخر "للاحتفال" بمآثر الرّفعة
والانتصار التي يحققها جيش المهدي.

تقدّم أفلام الصّدر الفيديويّة للمشاهدين صورة "شرّعت" دينياً من
خلال الإحالات اللفظيّة والبصريّة لسرد كربلاء. وتشدّد هذه الأفلام على قوّة
جيش المهديّ مقابل عجز الأمريكيان وضعفهم! وتبعاً لذلك، فهي تسهم في
تبلّد أحاسيس المشاهدين وتخديرهم وصرف انتباههم عن القصص
الأخرى (٢) التي تقع خارج مُتخيل الصّدر الاجتماعيّ - الأخلاقيّ الذي يدين
التدخل الأجنبيّ ويركّز على الهويّات القوميّة والطائفية. ولا تطلب أفلام
الصّدر من المشاهدين غير العراقيين الالتحاق بجيش المهديّ، ولا حتّى التبرّع
بالمال لقضيّتهم؛ ولما كنّا لم نشاهد سوى عدد قليل من الأشخاص يشترّون

(١) بنيامين (إضاءات) ٢٣٨.

(٢) باك - مورش "الجماليّات والمخدر" ٣٨.

الأقراص المندمجة من محل بيع الكتب الخاص بالصدر، فإنه لا يمكن وصف هذه الأفلام كونها تدعو للتركيز، بل إنها تشتت انتباه المارة الذين ينظرون إلى الشاشة ثم يغادرون المكان في نهاية المطاف. ولأن الربح المادي لا يمثل الغاية الرئيسة من افتتاح هذا المحل، يُرجح أن الغاية الرئيسة هي الترويج للصدر وتعزيز صورته العامة. ويمكن القول تأسيساً على ذلك: إن الغاية التي خصصت من أجلها مؤسسة الصدر هذا "الكشك" هي جعل المارة يقرؤن. حتى لو تم ذلك بأسلوب أحشائي وغير مقصود. بشرعية مسعى مقتدى الصدر وقوة حضوره. وقد تنبأ أحد المنشدين الحسنيين بأن أفراد جيش المهدي سيُخلدُون في التاريخ بوصفهم الأبطال الذين حرّروا العراق.^(١)

وعلى شاكلة غيرها من الموضوعات، تتباين الآراء والمواقف حيال هذه الأفلام والأغاني! فحينما سألت بضع نساء شيعيات عن رأيهن بأفلام الصدر، أجابت أمال الطالبة في الحوزة والتي تشيعت: إنني أعد الأفلام غير دينية على الرغم من ادّعاءاتها "الدينية"، وهي تقول ذلك على الرغم من عدم تيقنهما من إمكان وصفها بغير المحرمة.^(٢) ويمكن لحظ هذا الذي تقوله في مقابل ما تقوله أم أوس الأرملة العراقية التي تحضر الدروس في حوزة الصدرين. المرتبطة بمقتدى الصدر وعائلته. فقد وصفتها بـ (الأناشيد الوطنية).

والألفت للانتباه استخدام أم أوس لمفردة "أناشيد" التي تسهم في تمييز الغناء المباح دينياً والذي يقف. على وجه العموم. بالصد من الغناء غير المحرم. وحينما أخبرت أم أوس عن امرأة شيعية أخرى كانت أكثر تردداً في وصف

(١) الألبوم الأول، الأغنية التاسعة "هنا وقفنا، هنا....".

(٢) ملحوظات حقليّة، الاثنين، ١١ آب عام ٢٠٠٨.

أفلام الصدر بـ "المباحة" أجابت: مَنْ قَالَ ذَلِكَ؟! لَا بَدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ إِمَّا غَيْرَ عِرَاقِيٍّ وَإِمَّا سُيِّيًّا^(١). وعلى الرغمِ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا أَنَّ كَلَّاً مِنْ آمَالٍ وَأُمٍّ أَوْسٍ اتَّفَقْنَا عَلَى أَنَّ أَفْلامَ الصَّدْرِ غَيْرُ مَنْاسِبَةٍ لِلتَّأْمُلِ الدِّينِيِّ أَوْ تَهْدِئَةِ الْأَعْصَابِ الْمُنْهَكَةِ.

الخاتمة:

طُرِحَتْ فِي هَذَا الْفَصْلِ فِكْرَةٌ وَجُودَ نَمَطَيْنِ مِنَ التَّأَثُّرِ الْعَاطِفِيِّ هُمَا "أثار" و "ثار". ويؤثِّرُ هَذَانِ النَّمَطَانِ فِي الْأَفْرَادِ بِطَرَائِقَ مُخْتَلِفَةٍ قَلِيلاً، فَبَيْنَمَا يَجْعَلُكَ نَمَطُ "أثار" تَشْعُرُ وَتَتَأَمَّلُ؛ تُوَحِّي "ثار" ضِمْنًا بِالْهِيَاجِ، وَالتَّحْفِيزِ، وَحَتَّى الْغَضَبِ! وَقَدْ سَاعَدَنِي التَّرْكِيزُ عَلَى النَّمَطَيْنِ فِي دِرَاسَةِ طُقُوسِ الْعِزَاءِ الشَّيْعِيَّةِ فِي:

أَوَّلًا: التَّوْفِيقُ بَيْنَ التَّفْسِيرَيْنِ الْمَتَبَاعَدَيْنِ وَالْمُخْتَلَفَيْنِ عَادَةً لِأَنْمُودَجِ كِرْبَلَاءَ.

ثَانِيًا: لَفَتْ الْإِنْتِبَاهَ إِلَى الْأَنْهَاطِ الْأَحْشَائِيَّةِ حَيْثُ تَنْشَأُ الْعِلَاقَاتُ التَّقِيَّةُ، وَيَتِمُّ الْحِفَاظُ عَلَيْهَا فِيمَا بَيْنَ الشَّيْعَةِ، وَكَذَلِكَ بَيْنَ الْأُثْمَةِ وَاتِّبَاعِهِمْ مِنَ الشَّيْعَةِ.

ثَالِثًا: سَاعَدَنِي هَذَانِ النَّمَطَانِ فِي تَحْلِيلِ الْفُرُوقِ بَيْنَ الْأَنْوَاعِ الْمُخْتَلِفَةِ مِنْ وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ الشَّيْعِيَّةِ. وَالْأَلْفَتْ لِلإِنْتِبَاهِ أَنَّ النَّمَطَيْنِ كِلَاهُمَا مُتَجَدِّرَانِ فِي مُمَارَسَةِ النَّدْبِ الَّتِي تَسَاعِدُ الشَّيْعَةَ فِي النَّظَرِ إِلَى تِجَارِهِمُ الشَّخْصِيَّةِ الْمُؤَلَّةِ وَالْمُحِبَّطَةِ (سِوَاءِ أَكَانَ سَبَبُهَا الْحَرْبَ أَمْ الْمَرَضَ) مِنْ مَنْظُورِ مُعَانَاةِ آلِ الْبَيْتِ

(١) مَلَحُوظَاتُ حَقَلِيَّةٍ، الْاِثْنَيْنِ، ١١ آبَ عَامِ ٢٠٠٨.

ومصائبهم التي خبروها في كربلاء. وبقول مختلف: أضحت المعاناة الأساس الذي تستند إليه أولاً العلاقات المؤثرة عاطفياً، وثانياً عملية أن تكون تقياً. وأودُ ختاماً التأكيد مرةً أخرى على مسألة غاية في الأهمية لهذه الدراسة، هي تصوُّري أنموذج كربلاء مع ما ينطوي عليه من تمييز بين التفسيرات "الثورية" و "الخلاصية" بوصفه أنموذجاً يسمح ببرز أنماط تأثير عاطفية متعارضة - ولكنها ليست حصرية على نحو متبادل - موازية لفكر "أثار" و "ثار". وعلى الرغم من الاختلاف بين الفكرتين الأخيرتين، إلا أنَّهما يحوزان القدرة على العمل بالترادف، ولا سيما في السياق الطقوسي الملازم لمجالس العزاء الاستذكارية.

ويبدو . بطريقة ما . تمييز "مايكل غلزنان" بين النمطين "الفاعل" و "المنفعل" مناسباً وقابلاً للتطبيق. إذ يرى "غلزنان" أن التفسيرات الثورية هي تفسيرات فاعلة تصف الأنماط الخلاصية بكونها "منفعلة".^(١) وعلى الرغم من فائدة هذا التمييز، إلا أنني أعتقد في أنه يحاكم التفسيرات ويتعامل معها من منظور نجاحها السياسي والتاريخي في شعوب مُعبأة فعلياً! ولا ترى هذه التفسيرات سوى الناجح سياسياً بوصفه فاعلاً، ولا تقرُّ ب "فاعلية" النمط "المنفعل".^(٢) وزيادة على ذلك، يتصف النمطان كلاهما بأتهما "تقليديان" من حيث نقلهما لـ "التقاليد" (tradition).

(١) غلزنان (معرفة الإسلام) ٦١.

(٢) تمثل فكر طلال أسد عن الألم انتقاداً مناسباً لتمييز غلزنان: إذ يرى أسد أن مُساواة "المنفعل" مع "السلبى" خلافاً لتقديم "الناشط" كونه "إيجابياً" يسهم بالضرورة في المساواة بين الألم والانفعالية. (للاطلاع على نقاش أكثر عمقا وتفصيلاً بشأن هذا الألم الطقوسي والطقوس، انظر الفصل التالي) أسد (تشكيلات العلماني: المسيحية والإسلام والتحديث) (ستانفورد، كاليفورنيا: جامعة ستانفورد، عام ٢٠٠٣) ٦٧-٩٧.

ومقابل اللطميّات المسجّلة والمصوّرة التي تحفّز المستمعين، وتؤثّر فيهم،
وتشتّت انتباههم، هناك اللطميّات التي تستدعي التركيز والتأمل. وقد بيّنتُ
من خلال هذين النمطين، أنّ طقوس العزاء تمثّل شكلاً من أشكال التعليم،
وهذا يعني أنّ تعلّم النساء الشيعيّات وتلقّيهنّ التّدريب اللازم للعمل كملاّية،
يؤلّفان كلاهما وسيلةً مثاليّةً لكي يتحوّلن إلى نساءٍ تقيّات.

الفصل الرابع: عاشوراء

كرنفلة (١) التَّقوى

(١) تصرّفت في الترجمة هنا لعدم وجود فعل . على حدّ علمي . يمكن استخدامه مُشتقّ من الاسم "كرنفال"، ومعنى "كرنفلة" هنا هو جعل التَّقوى تأخذ طابعا كرنفالياً.

امتطيت صهوة الإيمان وحصان.
 عربيّ الهياة على الأرجح - تطعمه
 حلوى الرّوسغال^(١) والحليب طوال عام.
 وبينما كنت تسمّنه، كنت لا تكفّ عن ترويعه
 أو محاولة ترويضه
 بتقنيات آسيوية مختلفة
 لتجعله طيعاً خائفاً.
 ثم نظمت موكباً أو موكبين
 في شهر حزيران
 يتقدّمهما الحصانُ بهيّ الطلعة
 المزدان بالأشرطة والرايات
 كنت ترثي وتبكي بحرقة في الحرّ الشديد.
 كان المؤمنون منّا يسارعون في الزحف أدنى بطن الحصان.
 في كلّ مرّة كان فيها الحصان يتوقّف
 كان المؤمنون يمكثون هناك
 بين الحوافر السمراء الأربعة
 اتقاء لحرارة الشمس.
 (رضاً علي حسن. الندب وفعاليات أخرى).^(١)

^(١) نوع من أنواع الحلوى السّعيّة في مناطق شبه القارة الهندية. وهي مصنوعة من فطائر على شكل كرات؛ والجينا، هو نوع من أنواع الجبن الهندي، والعجين السّמיד المطبوخ في شراب خفيف مصنوع من السّكر. (الترجمة)

مُقدِّمة:
عاشوراء وعلماء الدين السُوريون:

تطرح سوريا حالة دراسية مذهلة تساعدنا في التفكير في سياسات العلماء وممارسات عاشوراء المثيرة للجدل في ضوء مفهوم "باختين" عن الكرنفال؛ لأنها إحدى البلدان القليلة التي لا تتدخل فيها الحكومة كثيراً في هذه السياسات، وتتسامح رسمياً. حتى مع الممارسات الشيعة المتطرفة والمستهكة! (٢)

ويقع هذا "التسامح" ضمن المعنى الذي وضعه (وندي براون . Wendy Brown) حيث تسمح أكثرية مستبدّة وطاغية وحكومة تظهر تفوقها الأخلاقي على الأقلية من خلال إبدائها "التسامح" ... تسمح لأقلية سكانية بالوجود وممارسة تقاليدها وطقوسها. (٣)

وينطوي الموقف في سوريا في حقيقة الأمر على مفارقة عميقة! فسوريا التي تمارس فيها طقوس عاشوراء التي تتضمن مواكب الضرب بالزناجيل الدموية، وتتسامح الحكومة معها، هي ذاتها البلد الذي كتب فيه السيد محسن الأمين (توفي عام ١٩٥٢ م) أحد أبرز مجتهد الشيعة في دمشق في زمانه... كتب في عشرينيات القرن العشرين كتباً يدين فيه هذه الممارسة؛ وهو ما أشعل

(١) رضا علي حسن، التراث وفعاليات أخرى في (الشيعة المفجوعون) (رفرديل. اون - هدسون: نيويورك: در شيب ميدوز، عام ٢٠٠٦) ١.

(٢) قارن مع ديب في (الحدائي المأسور)؛ نورتن "الطقس والدم والهوة الشيعة: عاشوراء في البطية، لبنان".

(٣) وندي براون (تنظيم النور: التسامح في عصر الهوية والإمبراطورية) (برنستون، نيوجرسي: جامعة برنستون، عام ٢٠٠٨).

فتبل الفتنة الكبرى بشأن هذه الطقوس والممارسات.^(١) وتعبّر مناجي قلق الأمين بشأن أسلوب تمثيل المذهب الشيعي عن أهمية المربي بالدرجة الأساس؛ زيادة على المسموع في عصر المشهد والإنتاج الميكانيكيين، وأخيراً التلفاز.^(٢) ويساعد الاهتمام بهذه الحواس والتصورات الإدراكية في تفسير السبب الذي جعل الأمين. في سبيل المثال. يعارض مشاركة النساء غير المحجبات في التشابه أو مسرحيات الآلام، ولم يكن الأمين يريد إلغاء طقوس عاشوراء جميعاً، بل كان يرمي إلى إصلاحها وتشذيبها ابتغاء تقديم صورة مناسبة، وحديثة، وعقلانية عن المذهب الشيعي؛^(٣) ولذلك قال. ابتغاء تحقيق ذلك. بحرمة مواكب التطبير، مؤكداً على أنها "بدعة" مستحدثة من مطلع القرن التاسع عشر،^(٤) وكان يأمل من خلال حديثه عن مواكب المحرم والتشابه وغيرها من الطقوس الشيعية بوصفها مواكب استعراضية في جوهرها... كان يأمل في تحويلها إلى أدوات أكثر فاعلية وكفاية للدعوة إلى المذهب عن طريق القضاء على المشاهد المؤذية بصرياً في ممارسات المحرم الشيعية. وغني عن البيان المعارضة الشديدة التي واجهتها آراء الأمين؛ لاسيما في المدن العراقية الشيعية التي وصلت حد اتهامه بالاستسلام لآراء السنة ووجهات نظرهم.

(١) قارن مع أبنيد "الضرب بالزناجيل في المحرم وعلما الشيعة" ١٩-٣٦. وبداية، لا يمثل الأفراد الذين يشاركون في التطبير والضرب بالزناجيل حالياً في مدينة السيدة زينب جزءاً من المجتمع المحلي الذي أيد الأمين وساند.

(٢) قارن مع جي ديورد (المجتمع والمشهد) (ديترويت: بلاك ورد، ١٩٩٥ [١٩٨٣])؛ هيرشكايند: (المنظر الصوتي الأخلاقي).

(٣) حاول الأمين إلى حد ما تخلص طقوس المحرم من خصائصها الكرنفالية.

(٤) قارن مع ارك هوبزبوم وتيرنس رانجر، المحرران (ابتداع الثقايلد) (مطبعة جامعة كامبرج، عام ١٩٩٢).

ومنذُ وقتِ (الفتنةِ الكبرى) دأبتِ القوى السَّيَاسِيَّةُ الشَّيْعِيَّةُ الفاعلةُ أمثال آيةِ الله الخامنيِّ في إيرانَ وحزبِ الله في لبنانَ في توظيفِ فكرِ الأَمِينِ وآرائِهِ التي حَرَّمَ فيها مُمارَسَةَ التَّطْيِيرِ الدَّمَوِيَّةِ.

فعلى شاكلةِ الأَمِينِ، ادَّعى كُلُّ مَنْ الخامنيِّ وحزبِ الله أنَّ مواكبَ التَّطْيِيرِ هَذِهِ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَنْفَرَّ الْمُهْتَدِينَ الْمُحْتَمِلِينَ إِلَى المذهبِ الشَّيْعِيِّ، وتحوِّلَهُمْ بعيداً عَنْهُ، ولهذا السَّبَبِ تحديداً ينبغي إبطاؤها والكفُّ عَنْهَا.^(١)

وعلى الرُّغمِ مِنَ المَوْقِفِ الَّذِي وَقَفَتْهُ سورِيَّاً إِزاءَ التَّطْيِيرِ العلنيِّ والذي بدأ أَكْثَرَ تَسَاحُحاً بِمَا فِي العِراقِ، ولِبنانَ، وإيرانَ؛ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ يَعْنِي وَقُوفَ السُّلْطَاتِ السُّورِيَّةِ مَوْقِفَ المُنْفَرِّجِ وامتناعها عَنْ مُحَاوَلَةِ تَنْظِيمِ هَذِهِ الطُّقُوسِ وَضَبْطِهَا؛ إِذْ تَعِي الحُكُومَةُ السُّورِيَّةُ تَمَاماً مَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ هَذِهِ الطُّقُوسُ والشَّعَائِرُ مِنْ إِشْكَالَاتٍ كَوْنَهَا مَثِيرَةً لِلجَدَلِ، إِلَّا أَنَّهَا امْتَنَعَتْ عَنْ اتِّخَاذِ قَرَارَاتٍ "بِرَاعِمَاتِيَّةٍ" مِثْلَ ضَبْطِ مَوَاقِبِ العِزَاءِ فِي المَحْرَمِ وتَحْجِيمِهَا.

ولِإِيرادِ بَضْعَةٍ أَمْثَلَةٍ سَهْلَةٍ عَلَى ذَلِكَ، لَحَظْتُ حَرَصَ السُّلْطَاتِ السُّورِيَّةِ فِي عَامِي (٢٠٠٨ م) وَ (٢٠٠٩ م) عَلَى تَنْظِيمِ الطُّقُوسِ مَكَانِيّاً ابْتِغَاءً مُرَاقِبَتِهَا وَالسَّيْطَرَةَ عَلَيْهَا؛ وَزِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ، كَانَ الشَّارِعُ الرَّئِيسُ فِي مَدِينَةِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ فِي السَّنِينَ الخَمْسِ الْأُولَى بَعْدَ الْأَلْفِيَّةِ الثَّانِيَةِ، يَكْتَضُ بِخِيَامِ الضِّيَافَةِ الَّتِي نَصَبَتْ عَلَى جَانِبَيْهِ ابْتِغَاءً خِدْمَةِ الزُّوَارِ فِي المَحْرَمِ. إِلَّا أَنَّ السُّلْطَاتِ مَنَعَتْ نَصْبَ هَذِهِ الخِيَامِ فِي هَذَا الشَّارِعِ بَعْدَ عَامِ (٢٠٠٧ م) وَثَمَّةَ حَادِثَةٍ أُخْرَى تَوَكَّدَ مَا لَحْظْنَاهُ أَعْلَاهُ، إِذْ أَظْهَرَتْ السُّلْطَةُ قُوَّتَهَا وَنَفوذَهَا اللَّذَيْنِ شَعَرَ بِهِمَا وَتَأَكَّدَ مِنْ وَجُودِهِمَا

^(١) السَّمَرِيُّ (أخبار الفقير في إثبات حرمة التطبير) ٥٣-٥٤؛ نورتن "الطقس، والدِّم، والهوية الشَّيْعِيَّة: عاشوراء في البَطْنِيَّة، لبنان" ١٤٧.

القاصي والداني في المرقد وحوله وبالقرب منه؛ بعدما رفضت إغلاق الشارع الرئيس لإتاحة الفرصة للزائرين / الحجاج التحرك بحرية.

ويُعدُّ كلٌّ من آية الله الخميني، والشيرازي، والصدر الذي يقبم ممثلوهم صلوات جمعة منفصلة؛ ويتنافسون فيما بينهم على الولاية الدينية المستمدة من ارتباطهم بهذه الشخصيات الكاريزماتية المؤسّسة (أي السيّد حسن الشيرازي وآية الله محمد الصدر، وآية الله الخميني)^(١) من بين أهمّ رجال الدين الشيعة وأبرزهم على الإطلاق في مدينة السيّد زينب. ويتنافس رجال الدين هؤلاء فيما بينهم في جوانب أخرى كذلك. إذ إنهم يرعون خيام الضيافة ويتناقشون بشأن أشكال التطبير الدمويّة. ويُعدُّ الشيرازيون (لاسيماً آية الله محمد الشيرازي) وآية الله الخميني بين أبرز الجهات الدينيّة التي انشغلت في مناقشة جواز ممارسة التطبير من عدمه، وثمة مهمات أخرى يقوم بها رجال الدين، إذ أظهر الشيرازيون وأتباع مقتدى الصدر اهتماماً كبيراً بنصب خيام الضيافة الأكبر والإشراف على توفير مُتطلّباتها.

وقد حلّلت في هذا الفصل ممارسات المحرّم من خلال تسليط الضوء على أنواع المشاركة، والتبادل، والتنافس فيما بين رجال الدين، والمؤسّسات، والأفراد؛ ووظفت في عمليّة التحليل هذه مفهوماً الكرنفال "الباختيني" الذي يجوز على بضعة جوانب مُميّزة، أمثال السوق، والوليمة، والجسد الغروتسكي^(٢). ومثلما بدا واضحاً، تتنازع ممارسات المحرّم وعقائدها في مدينة

(١) عيّن آية الله الخميني آية الله الخميني خليفة له وثمة اعتقاد شائع على نطاق واسع أن الخميني لم يكن ليصبح مرجعاً للتقليد بالاعتداد على نفسه فحسب.

(٢) مُفردة (grotesque) الإنكليزيّة مُشتقة من (Grotta) التي تعني مغارة أو كهف.

السَّيِّدَةُ زَيْنَبُ بِكُونِهَا كَرْنَفَالِيَّةٌ فِي جَوْهَرِهَا لَجْهَةٌ دَوْرَهَا فِي تَرْسِيخِ الْحُدُودِ الْمُجْتَمَعِيَّةِ وَالْجَسَدِيَّةِ وَالْإِحْتِفَاءِ بِهَا وَ"تَجَاوَزَهَا". فـ "خِيَامُ الصَّيَافَةِ" مَثَلًا، تُعَدُّ مَثَلًا نَاصِعًا عَلَى الطَّابَعِ الْكَرْنَفَالِيِّ الْمُلَازِمِ لِلطَّقُوسِ لَجْهَةٌ تَقْدِيمُهَا وَلِيَمَّةٌ تُخَلِّدُ بوساطَتِهَا ذَكَرَى الَّذِينَ عَانُوا الْجُوعَ وَالْعَطَشَ فِي كَرْبَلَاءَ.

ويعارضُ آيتا الله الحَمِينِيَّ وَالْحَامِنِيَّ مَوَاقِبَ التَّطْيِيرِ مُقَابِلَ تَأْيِيدِ الشَّيرَازِيِّ لَهَا بِسَبَبِ جَوَانِبِهَا الْغُرُوتَسْكِيَّةِ. وَيمتازُ مَفْهُومُ الْكَرْنَفَالِ "الْبَاحْتِنِيَّ" بِفَائِدَتِهِ لَجْهَةٌ دَوْرِهِ فِي مُسَاعَدَتِنَا عَلَى التَّفْكِيرِ بِمُمَارَسَاتِ الْمُحَرَّمِ وَخُطَابَاتِهِ بِطَرِيقَةٍ مُخْتَلَفَةٍ، وَلَأنَّهُ يَلْفُتُ الْإِتْبَاهَ إِلَى التَّدَاخُلِ بَيْنَ السُّلْطَةِ وَالْوِلَايَةِ مِنْ جِهَةٍ، وَالتَّقْوَى وَالْإِفْتِقَارِ إِلَيْهَا مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى. وَبَيْنَمَا انصَبَّ اهْتِمَامِي فِي

والغروتسك مُصْطَلَحٌ ارْتَبَطَ عِنْدَ ظَهْوَرِهِ بِالْفَنُونِ الْجَمِيلَةِ، إِذْ أُطْلِقَ فِي الْأَصْلِ عَلَى الرِّسُومَاتِ وَالتَّرِييْنَاتِ الْمُكْتَشَفَةِ فِي أَوَابِدِ كَانَتْ مَطْمُورَةٌ بِالتَّرَابِ فِي إِيْطَالِيَا وَتَحْتَوِي عَلَى رَسُومَاتٍ عَجَائِبِيَّةٍ مِثْلَ حَيَوَانَاتٍ لَهَا شَكْلٌ نَبَاتِيٌّ وَوُجُوهَ إِنْسَانِيَّةٍ مُصَوَّرَةٍ بِشَكْلِ غَيْرِ مُطَابِقٍ لِمَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ عَلَيْهِ فِي الْوَاقِعِ. وَتَوْسُّعُ الْمَعْنَى فِيمَا بَعْدَ وَاسْتُخْدِمَتِ الْكَلِمَةُ فِي عِلْمِ الْجَمَالِ كَصَفَةٍ أَوْ طَابَعٍ لِكُلِّ مَا هُوَ غَيْرُ مُنْتَظَمٍ وَيُتَّصَفُ بِالْغَرَائِبِيَّةِ، وَلِكُلِّ مَا يَضْحَكُ مِنْ خِلَالِ الْمُبَالَغَةِ وَالتَّشْوِيهِ وَتِنَاقُضٍ مَعَ مَا هُوَ سَامٍ وَرَفِيعٌ، أَيْ إِنْ الْغُرُوتَسْكُ دَخَلَ ضَمْنَ التَّصْنِيفَاتِ الْجَمَالِيَّةِ، وَحَمَلَ بَعْدًا فِلَسْفِيًّا مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ يَنَاقُضُ مَا هُوَ نَتَاجُ الثَّقَافَةِ التَّقْلِيدِيَّةِ الْمُعْتَرَفِ بِهَا وَلَا تَوْجِدُ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ كَلِمَةً تَعْطِي الْمَعْنَى بِكُلِّ أبعادِهِ، فَقَدْ تَرَجَمَتْ كَلِمَةُ غُرُوتَسْكُ فِي بَعْضِ مِنَ الْأَحْيَانِ بِالشَّاذِّ وَالْقَبِيحِ، أَوْ بِالْهَزْءِ وَالْقَبْحِ مَعًا، مَعَ أَنَّ هَذِهِ الْمَفْرَدَاتِ كُلَّ عَلَى حِدَةٍ لَا تَغْطِي الْمُصْطَلَحَ بِكَامِلِهِ؛ وَالْوَاقِعُ أَنَّهُ يَصْعَبُ تَحْدِيدُ الْغُرُوتَسْكُ وَتَعْرِيفُهُ لِأنَّهُ نَقِيضُ كُلِّ مَا يُنْتَظَمُ فِي قَوَالِبٍ وَيُحَدَّدُ بِمَعَايِيرٍ، أَيْ إِنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يُعْرَفَ مِنْ خِلَالِ مَا هُوَ عَكْسُهُ. فَهُوَ الْقَبْحُ التَّشْوِيهِِّيُّ بِالنَّسْبَةِ لِمَفْهُومِ الْجَمِيلِ، وَهُوَ الْوَضِيعُ بِالنَّسْبَةِ لِمَفْهُومِ الرَّفِيعِ وَالسَّامِيِّ. وَمَعَ أَنَّ طَابَعَ الْغُرُوتَسْكُ مَوْجُودٌ مِنْذُ الْقَدَمِ فِي الْأَثَارِ وَالْفَنُونِ وَالْأَدَابِ، إِلَّا أَنَّ الْإِهْتِمَامَ بِهِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْجَمَالِيَّةِ بَدَأَ فِي الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ مَعَ الشَّاعِرِ الْفَرَنْسِيِّ تِيُوفِيلِ غُوتِيَّيْهِ، وَقَدْ طَرَحَهُ بِشَكْلِ نَظَرِيٍّ الْكَاتِبُ الْفَرَنْسِيُّ فَيْكَتُورُ هُوجُو فِي مُقَدِّمَةِ مَسْرَحِيَّةِ "كُرومُوِيل". وَبَعْدَ ذَلِكَ؛ وَفِي بَدَايَاتِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ، تَنَاوَلَ الْمَنْظَرُ الرَّوْسِيَّ مِيخَائِيلَ بَاخْتِينَ مَفْهُومَ الْغُرُوتَسْكُ وَتَطَوَّرَ بِنَظَرَةٍ شَمُولِيَّةٍ تَطَالُ الْحَيَاةَ وَالْفَنَّ وَالْأَدَبَ، وَذَلِكَ فِي كِتَابَاتِهِ عَنِ الرِّوَايَةِ، وَعَلَى الْأَخْصِ كِتَابِيَّ (إِبْدَاعُ فَرَانْسُوَا رَابِلِيَّةِ وَالثَّقَافَةُ الْهَزْلِيَّةُ الشَّعْبِيَّةُ فِي الْعَصُورِ الْوَسْطَى وَعَصْرُ النِّهْضَةِ) وَ(مَشْكَلَاتُ فِي شَعْرِيَّةِ دُوسْتُوفِسْكِي). وَتَأْتِي الْمَفْرَدَةُ فِي الدِّرَاسَةِ الْحَالِيَّةِ بِمَعْنَى الْغَرِيبِ وَغَيْرِ التَّقْلِيدِيِّ. (الْمَرْجُوعَةُ).

النَّصْفِ الْأَوَّلِ مِنَ الْفَضْلِ الْحَالِيِّ عَلَى الْعُلَمَاءِ وَخُطَابَاتِهِمْ بِشَأْنِ طُقُوسِ الْمُحَرَّمِ وَاشْتِرَاكِهِمْ فِيهَا؛ نَزَعْتُ فِي النَّصْفِ الثَّانِي إِلَى التَّرْكِيزِ عَلَى الْعُرُوضِ الْأَدَائِيَّةِ الْعَامَّةِ. وَسَأَتَنَاوَلُ. تَحْدِيدًا. سِيَاسَاتِ خِيَامِ الضِّيَافَةِ وَالْجَدَلِ بِشَأْنِ التَّطْيِيرِ، ثُمَّ أَحْلُلُ مَفْهُومَاتِ الشَّيْعَةِ عَنِ الْخُلَاصِ وَالْمَعْجَزَاتِ؛ زِيَادَةً عَلَى أَشْكَالِ التَّجَاوُزِ وَالِانْتِهَاكِ فِي تُمَارَسَاتِ عَاشُورَاءَ.

وأودُّ، تحديداً طرح فكرة تقول: إِنَّ التَّصَوُّرَ الْيَهُودِيَّ . الْمَسِيحِيَّ عَنْ الْخُلَاصِ (salvation) غَيْرُ مُوَازٍ لِتَفْسِيرَاتِ أُنْمُودَجِ كِرْبَلَاءَ "الْخُلَاصِيَّةِ" (soteriological)^(١) إِنَّهُ غَيْرُ مُوَازٍ لِأَنَّ الْخُلَاصَ فِي رَأْيِ الشَّيْعَةِ يَتَضَمَّنُ عَمَلِيَّةً تَبَادُلِ مُوسِيَّةٍ (نَسَبَةً إِلَى الْعَالَمِ مُوسَى).^(٢) وَسَأَلْقِي أَخِيرًا نَظْرَةً عَلَى عُرُوضِ مَوَاقِبِ التَّطْيِيرِ الْأَدَائِيَّةِ فِي السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ. وَسَأَقَارُنُ فِي هَذَا الْمَبْحَثِ كَذَلِكَ بَيْنَ الْكَرْنَفَالِ "الْبَاخْتِنِيِّ" وَمَشْهَدِ "جَيِّ دِيُورْد" مِنْ خِلَالِ مُقَارَنَةِ مَوَاقِبِ التَّطْيِيرِ الَّتِي تُنَظَّمُ فِي الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ بِالْكَرْنَفَالِ؛ وَعُرُوضِ الضَّرْبِ بِالزَّنَاجِيلِ فِي وَقْتِ الظَّهْرِ بِالْمَشْهَدِ "الدَّيُورِيِّ". وَأَعْتَقِدُ عَلَى وَجْهِ الْعُمُومِ. فِي أَنِّي سَأَتَمَكِّنُ مِنْ خِلَالِ تَحْلِيلِ شَعَائِرِ الْمُحَرَّمِ بِالْإِحَالَةِ عَلَى بَاخْتِنِ وَدِيُورْدَ مِنْ

(١) يُمَثِّلُ ذَلِكَ نَقْدًا ضَمِينًا لِكِتَابِ أُيُوبَ عَنِ الْمُعَانَةِ فِي الْمَذْهَبِ الشَّيْعِيِّ. انْظُرْ مُحَمَّدَ أُيُوبَ (الْمُعَانَةُ الْخُلَاصِيَّةُ فِي الْإِسْلَام: دَرَاةٌ فِي جَوَانِبِ عَاشُورَاءِ التَّعْبُدِيَّةِ فِي الْمَذْهَبِ الشَّيْعِيِّ الْإِنْتِي عَشْرِي) (نِيُورْك: مُوتُون، عَامَ ١٩٧٨).

(٢) بِحَسَبِ أَرْكَ فُرُوم، اعْتَادَتِ الْكَاثُولِيكِيَّةُ الرُّومَانِيَّةُ النَّظْرَ إِلَى "الْخُلَاصِ" بِوَصْفِهِ جُزْءًا مِنْ عَمَلِيَّةٍ تَبَادُلٍ؛ فِي حِينٍ يَفِيدُ الْفَهْمَ الْمُهَيْمِنَ وَالشَّائِعَ فِي مَرَحَلَةٍ مَا بَعْدَ مَارْتِنِ لُوتْهِرَ أَنَّ الْخُلَاصَ هُوَ رَحْمَةٌ يَتَلَقَّاها الْفَرْدُ. وَيَعْكِسُ هَذَا التَّغْيِيرَ فِي الْمَوَاقِفِ بِالنَّسْبَةِ لِفُرُومِ تَحَوُّلًا ثَقَافِيًّا وَاقْتِصَادِيًّا كَبِيرًا نَحْوَ الرُّأْسَالِيَّةِ (مِنْ "الْكِيُونَةُ" إِلَى "الْتَمَلُّك"). أَرْكَ فُرُومَ (أَنْ تَمْتَلِكْ أَوْ أَنْ تَكُونَ) (نِيُورْك: كُونْتِينِيم، عَامَ ١٩٩٦).

جعل دراستي تتفاعل وتتجاوب مع الفهم السائد لأنموذج كربلاء الذي يقول: إِنَّ طُقُوسَ الْمُحَرَّمِ وَرُمُوزَهُ، هِيَ إِمَّا طُقُوسُ ثَوْرِيَّةٍ وَإِمَّا خِلَاصِيَّةٌ.^(١)

خِيَامُ الضِّيَافَةِ فِي الْمُحَرَّمِ الْحَرَامِ:

يشهد مرقدُ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ فِي الشَّهْرِ الْأَوَّلِ مِنَ السَّنَةِ الْهَجْرِيَّةِ تَغْيِراً هَائِلاً!^(٢)

ففي هذه الأيام تغطي الأعلام السوداء والخضراء الأزقة وأبواب المنازل وواجهات المحال، وتنتشر خيام الضيافة على طول شارع العراقيين والشارع الضيق الذي يربطه بالسوق الإيرانية، وتمتد بمحاذاة الجدار الشرقي من مجمع المرقد. وتُعدُّ رعاية خيام الضيافة في المحرم دليلاً عليّاً على عمق التدبير والتفوي! إنّه إظهارٌ للهوية، والولاء للمذهب الشيعي بعامّة ولجموعه محدّدة من الأفراد بخاصّة. ويرتبط الأفراد. بداهة. ولاسيما الأفراد الذين يمولون خيام الضيافة أو ينظمونها في مدينة السيّدة زينب عادة بحوزات أو حُسينيّات محدّدة.

وبصرف النظر عن الجهة التي تموّل هذه الخيام أو ترعاها (سواء أكانت معلنة معروفة أم تعمل خلف الكواليس) يشارك الشباب صغار السن، وحتى الأطفال في أداء الفعاليات المتنوعة التي تؤلّف هذا العرض العلنيّ.

^(١) قارن مع آغاي (شهداء كربلاء)؛ ديب (الحداثي المأسور)؛ بانديا، "المآتم الشيعيّة النسويّة في البحرين".

^(٢) غني عن البيان أنّ الشيعة لا يحتفلون بالسنة الإسلاميّة الجديدة لأنها تؤشّر إلى بداية المحرم، شهر الغزاء والمآتم.

تدير الحوزة الزينية التابعة للشيرازيين مطبخاً من خيمة نصبت في مدخلها الخلفي؛ وقد وضعت في أحد جوانب الخيمة لافتة طولها ستة أمتار تقريباً وعرضها متر ونصف المتر تقول: (جنوبي بالحسين دليل عقلي بالحسين).^(١) ومثلما هو واضح، تجمع اللفتة بين ادعاءين هما: الادعاء بالجنون، والادعاء بالعقل.

وأما الرجال المتطوعون في الخيمة "المطبخ" فهم يطبخون الرز ومرق الفاصولياء مع قليل من اللحم في قدر كبيرة تسع مئتي لتر. وبسبب التزام مطبخ المحرم في الحوزة الزينية بتقديم الطعام في ساعات محددة، يضطرب الناس خارجاً منتظرين دورهم وهم يحملون القدور والأواني والأوعية البلاستيكية، ويقدم العاملون في هذه الخيام الماء طوال الوقت بعكس الخيام التي تقدم العصائر أو الشاي التي يرجح ألا تكون مجهزة بهما على الدوام. وتلتزم العديد من الجهات التي تقدم الطعام في مدينة السيدة زينب، أمثال الحسينية الزينية، بمواقف محددة لتقديمه، مثلاً بعد مجلس العزاء مباشرة. وتبرع بعض من الشركات التجارية أو الأفراد بتقديم الطعام مرة أو مرتين فحسب في المحرم؛ وفي حالات مثل هذه، يستعاض عن الخيام بإئدة طعام متواضعة توضع على جانب الطريق لمدة قصيرة هي المدة التي تستغرقها عملية تقديم أطباق من الرز أو البازل و / أو اللحم. وتبرع بعض من الأفراد بمبلغ

(١) مقطع مأخوذ من: قصيدة (أنت . المجنون) للشاعر مهدي جناح الكاظمي عنوانها:

إنني المجنون مجنون الحسين. ومطلعها:

وهذا مسلك العشاق قبل
حسيني الهوى أحيأ بقتلي

جنوني بالحسين دليل عقلي
وسيف العشق يذبحني شهيدا

مِنَ الْمَالِ مَرَّةً وَاحِدَةً إِلَى إِحْدَى الْخِيَامِ الَّتِي تَقُومُ بَعْدَ ذَلِكَ بِتَوْزِيعِ الطَّعَامِ بِالْيَابَةِ عَنِ الْمَتْرَعِ. وَتُعَدُّ "الْقِيَمَةُ" الْوَجَبَةُ الرَّئِيسَةُ فِي شَهْرِ الْمُحَرَّمِ، وَهِيَ مُكَوَّنَةٌ مِنْ "تَمَنٍ" يَعْلُوهُ مَرُقٌ قِوَامُهُ الرَّئِيسُ لَحْمٌ دَجَاجٍ أَوْ لَحْمٌ بَقَرٍ، وَتَقْدَمُ الْخِيَامُ الشُّطَائِرُ فِي بَعْضِ مِنَ الْأَحْيَانِ. أَمْثَالُ خَبْزِ الْعَبَّاسِ^(١) فِي أَطْبَاقٍ بِلَاسْتِيكِيَّةٍ مَعَ قِطْعَةٍ مِنَ الْفَاكِهِةِ مِثْلَ الْمَوْزِ أَوْ الْبَرْتَقَالِ.

وَيَتِمَّعُ مُقْتَدَى الصَّدْرِ بِحَضُورٍ خَاصٍّ وَمُمَيَّزٍ فِي شَوَارِعِ مَدِينَةِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ. فِيهِ الْمُحَرَّمُ عَامَ (١٤٣٠ هـ) الْمَوَافِقِ كَانُونَ الْأَوَّلَ عَامَ (٢٠٠٨ / كَانُونَ الثَّانِي عَامَ ٢٠٠٩ م) رَفَعَتْ إِحْدَى الْخِيَامِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي نُصِبَتْ فِي الطَّرِيقِ الْعَامِّ الْمُوَدِّيِّ إِلَى الْمَرْقَدِ صُورَتَهُ. وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ، إِلَّا أَنَّ هَذَا الْحَضُورَ لَمْ يَمْنَعْ السُّلْطَاتِ مِنْ طُرْدِ مِمْلٍ مُقْتَدَى الصَّدْرِ مِنْ سُوْرِيًّا فِي أَعْقَابِ الْخِلَافِ الْعِلَنِيِّ الَّذِي نَشَبَ بَيْنَهُمَا! وَتِلَا ذَلِكَ قَرَارُ السُّلْطَاتِ مَنْعِ نَصْبِ الْخِيَامِ فِي الطَّرِيقِ الْعَامِّ فِي الْمُحَرَّمِ الثَّانِي (الْمَوَافِقِ كَانُونَ الْأَوَّلَ عَامَ ٢٠٠٩ / كَانُونَ الثَّانِي ٢٠١٠ م) وَلِهَذَا السَّبَبِ، فَقَدْ قَرَّرَ أَتْبَاعُ الصَّدْرِ نَصْبَ الْخِيَمَتَيْنِ التَّابِعَتَيْنِ هُمُ بَعِيداً عَنْ الطَّرِيقِ الْعَامِّ: وَاحِدَةً فِي الْحُوزَةِ الزَّيْنَبِيَّةِ قَرِيباً مِنَ الشَّارِعِ الرَّئِيسِ، وَأُخْرَى بِمَحَازَةِ الطَّرَفِ الشَّرْقِيِّ مِنْ شَارِعِ الْعِرَاقِيِّينَ، وَمَا زَالَتْ هَذِهِ الْخِيَامُ تَحْمِلُ الْعَلَامَاتِ ذَاتَهَا الَّتِي دَأَبَتْ فِي اسْتِعْمَالِهَا فِي السَّنِينَ السَّابِقَةِ، وَلَكِنَّهَا حَتَّ صُورَةَ مُقْتَدَى الصَّدْرِ وَاسْمَهُ.

وَلَا تَقْدَمُ خِيَامُ الصَّدْرِ. خِلَافاً لِلشَّيْرَازِيِّينَ. الطَّعَامُ يَوْمِيًّا، إِذْ تَقْدَمُ الْخِيَمَةُ الْقَرِيبَةُ مِنَ الْحُوزَةِ الزَّيْنَبِيَّةِ الشَّايَ بِالْحَلِيبِ الْحُلُوِّ الْمَمْزُوجِ بِحَبِّ الْهَالِ، أَمَّا

(١) تُعَدُّ هَذِهِ الشُّطْرَةُ مِنَ الْخَبْزِ وَالْبَقْدُونَسِ أَوْ النَّعْنَاعِ وَاللَّبَنِ. وَسَنَنْقُشُ أَذْنَاهُ سَبَبَ تَسْمِيَةِ هَذِهِ الشُّطْرَةِ بِخَبْزِ الْعَبَّاسِ وَتَقْدِيمِهَا فِي هَذِهِ الْمُنَاسِبَةِ.

الخيمة الأخرى قرب شارع العراقيين فلا تقدّم. على ما يبدو. الطّعام قُط. وبدلاً من ذلك، تؤدّي هذه الخيمة إلى غرفة مُصمّمة بأسلوبٍ واجهة المخزن الأماميّة، وهو أسلوبٌ جلوسٍ عربيٍّ لا يتطلّب سوى سجّادة وبعض من الوسائد، حيث يقضي الرّجال الشّباب فيها بعضاً من الوقت في صحبة أتباع الصّدر.

وتعكّس الخيمتان ادّعاءً مزدوجاً بالشرعيّة من جانب أتباع الصّدر، أوّلها قوميّ الطابع، إذ نصّب أتباع الصّدر "غرفة ضيافة" للزّائرين الذّكور في الشارع العراقيّ، كي يسيّئوا أنّهم (خلفاً للشّيرازيّين والхамنئيّين) يهتّمون بالعراق بصفّة عامّة، وبالعراقيين في السيّدة زينب بصفّة خاصّة؛ وزيادة على ذلك، فإنّ وُضع خيمة الصّدر إلى جانب الحوزة الزينبيّة التي يرعّاها الشّيرازيّون ويخدم الثّاني غرضٌ مُساوٍ مشروعيّة الصّدر الدّينيّة بنظيرتها الشّيرازيّة.^(١)

ويشارك الأثرياء إلى جانب الحوزات الدّينيّة، والمؤسّسات القادرة ماليّاً في مدينة السيّدة زينب في تمويل الخيام الأصغر حجماً التي تقدّم المرطبات أو تعرض مشاهد تمثيليّة مختارة من سرّد كربلاء. ومثلها هو الحال في كرنفال "باختين" تكتسب الرّتب الاجتماعيّة بعداً نسيباً، هذا إذا لم تتغيّر جذريّاً وتقلّب! إذ يخدم الأثرياء الذين لا يعدّون حتّى الشّاي عادةً في منازلهم... يخدمون عابري السّبيل الذين يضمّون طبقات النّاس كافّة بصرف النّظر عن العمر أو

(١) على الرّغم من أنّ مُقتدى الصّدر ليس مجتهداً، إلّا أنّه يسيطر على الجماعات المسلّحة المُستندة في وجودها إلى الحوزة. وهو يدّعي المشروعيّة [الدّينيّة] بفضل تحدّره من سلالة السّادة، وحقّيقه تمثيل والده وعمّه لا مرجعي تقليد فحسب، بل أعلى المراتب التي يمكن للفقيه الشّيعي بلوغها، وكذلك هما شهيدان (إذ قُتلا على يد النّظام في العراق الحاكم آنذاك).

القومية أو الجنس، فهناك النساء الشيعة، والأطفال، والسائحون الدينيون من إيران، وجنوب آسيا، والخليج، وحتى السنة والنور (العجبر). وقد أخبرتني هذا الصدد ابنة أبي مصطفى التي التقيتها في الحوزة الزينية وكيف أخذ أبوها وهو رجل الأعمال الناجح الذي يقيم في السيدة زينب منذ مدة طويلة الأيام العشرة الأولى من المحرم... كيف أخذ إجازة لتقديم الشاي بالحليب إلى الزوار من إحدى الخيام، وقالت لي: لم يكن بإمكانك أن تعرفي أنه كان يعرف إعداد الشاي سوى في هذه المناسبة، لم يكن يفعل ذلك في المنزل قط! (١).

وثمة جانب آخر يسهم في إضفاء الطابع الكرنفالي على خيام الضيافة في المحرم، يتعلق بدور هذه الخيام في قلب الموازين فيما يتصل بالظهور المرئي والعلمي للنساء.

ففي مدينة السيدة زينب. كما في العراق وإيران والباكستان (٢) يلاحظ خروج النساء - حتى اللائي يجلسن في البيت في الحالات الأخرى في الأيام العشرة الأولى من المحرم من بيوتهن (مع بناتهن وأطفالهن حتى الرضع منهم) لزيارة الحسينيات، والحوزات، ومرقد السيدة زينب، والمشاركة في شرب المربطات التي يقدمها الرجال في الخيام. وتبعاً لذلك، فالطقس العشوائي هو طقس "قلب" لجهة [قلبه الأمور رأساً على عقب] ولما كانت النساء هنَّ

(١) ملاحظات حقليّة، السبت، ١٩ كانون الأول عام ٢٠٠٩.

(٢) قارن مع ماري آلين هغلاند "طقوس النساء الشيعة في شمال غرب الباكستان: عيوب المقاومة ومعانيها" الفصلية الأنثروبولوجية ٧٦ العدد ٣ (٢٠٠٣) ٤١١-٤٤٢.

الَّلائي يَقِينَنَ فِي الْبَيْتِ فِي الْحَالَاتِ الْعَادِيَّةِ فِي حِينِ يَخْرُجُ الرَّجَالُ لِلتَّجَوُّلِ
وَالزِّيَارَةِ.

لكنَّ هذا لا يعني رضا الجميع وسعادته بهذه الممارسة الكرنفالية التي تتيح
للنساء التصرف على هذا النحو! فعلى الرغم من عدم امتناع الخيام. على وجه
العموم. عن تقديم المرطبات إلى النساء، إلا أن بعضهن يبدي امتعاضه من
خلال أساليب تتباين في مباشرتها ووضوحها! إذ تقدّم بعض من الخيام
المرطبات. في سبيل المثال. بأكواب زجاجية أو بلاستيكية في حين يقدمها
بعضها الآخر بأكواب تستعمل لمرة واحدة؛ ويضمن استخدام الأكواب
الزجاجية الصغيرة بقاء الزوار قريباً من الخيام ومن ثم التشجيع على التحدث
والدخول في حوارات. وقد لا تكون الأكواب التي تستعمل مرة واحدة
صديقة للبيئة، إلا أن بعضاً من النساء المحافظات يفضلنها لإمكان حملها
بعيداً؛ ومن ثم التقليل من وجودهن مع الرجال من غير المحارم.

ولا يلتزم الصّديون موقفاً واحداً حيال الجندر! ففي الخيمة المجاورة
للحوزة الشيرازية، يقدم الصّديون الشاي بأكواب زجاجية صغيرة، أمّا في
الخيمة الأخرى، فلا يقدمون الشاي سوى للجالسين في غرفة الضيوف
المفروشة بالسجاد والوسائد، والتي تُعدّ حيزاً ذكورياً بامتياز. وخلافاً
للصّديين، يبدو الشيرازيون أكثر حيادية حيال الجندر من خلال امتناعهم عن
تقديم الشاي وتقديمهم الطّعام من دون حافظات بلاستيكية. ولهذا، يأتي
الرجال والنساء بقُدورهم ومقاليهم ابتغاء الحصول على حصّة من الطّعام
تكفي لعائلة، ثم يأخذها العديد منهم إلى منازلهم لتناول العشاء، ولكن هذا
الاهتمام بالطعام أفراد العائلة لا يصدّق على الجميع، فثمة الكثير من الأشخاص

الَّذِينَ يَكْتُمُونَ بِالْوُفُوفِ خَارِجَ الْخِيَامِ وَمَرَائِزَ تَوْزِيعِ الطَّعَامِ فَيَأْكُلُونَ الْمَرَقَ الْمَخْلُوطَ بِاللَّحْمِ عَلَى "التَّمْنِ" ثُمَّ يَرْمُونَ مَا تَبَقَّى مِنَ الرُّزِّ عَلَى الْأَرْضِ.^(١) وعلى شَاكِلَةِ الكَرْنَفَالِ "البَاخْتِنِي" يَقَعُ التَّصَادُمُ بَيْنَ الْوُفْرِ وَالْفَقْرِ مِنْ جِهَةٍ، وَالْإِحْسَانِ وَالْهَدْرِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، وَتَعَكُّسُ صُورَةِ الْوَلِيمَةِ الْكَرْنَفَالِيَّةِ الَّتِي قَدَّمَهَا بَاخْتَيْنُ بَوْضُوحٍ وَدَقَّةِ الطَّرُقِ الْمَمْتَدَّةِ خَلْفَ الْحُوزَةِ الزَّيْنِيَّةِ الْمَلِيَّةِ بِأَكْدَاسٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الْقِمَامَةِ. وَتَبَعًا لَذَلِكَ، تَرْتَبِطُ كُلُّ مِنَ الْوَلِيمَةِ وَفَعْلِ التَّبَادُلِ، بِالضَّرُورَةِ، بِمَا هُوَ غَرِيبٌ (غَرُوتْسْكَ).

وَتَتَّبِعُ الْحُوزَاتُ اسْتِرَاتِيجِيَّاتٍ مُخْتَلِفَةً لِلتَّعَامُلِ مَعَ الْفَوْضَى. فَخِلَالِ مَجْلِسِ الْعِزَاءِ فِي الْمَحْرَمِ عَامَ (٢٠٠٨/٢٠٠٩ م) تَوَلَّى رَجُلٌ تَقْدِيمَ "الْقِيمَةِ" إِلَى النِّسَاءِ فِي حُسَيْنِيَّةِ فَضْلِ اللَّهِ وَحُسَيْنِيَّةِ الْوَلَايَةِ الْمُسْتَقْلَةِ، وَحِينَئِذٍ سَأَلْتُ عَنْ ذَلِكَ، أَخْبَرُونِي أَنَّ السَّبَبَ فِي اتِّخَاذِ هَذَا الْإِجْرَاءِ، هُوَ ضَمَانُ أَلَّا تَطَالِبَ النِّسَاءُ بِالْمَزِيدِ مِنَ الطَّعَامِ شَعُورًا مِنْهُنَّ بِالْإِحْرَاجِ. وَلَا تَحْرُسُ جَمِيعُ الْحُسَيْنِيَّاتِ عَلَى ضَبْطِ سُلُوكِ الْحَاضِرَاتِ، إِذْ تَبْدُو حُسَيْنِيَّةُ "الْمُنْتَظَرِ" الْكُوَيْتِيَّةُ الْمُخَصَّصَةُ لِلنِّسَاءِ. فِي سَبِيلِ الْمَثَالِ. أَقَلَّ اهْتِمَامًا بِشَأْنِ مُطَالَبَةِ النِّسَاءِ بِالْمَزِيدِ مِنَ الطَّعَامِ، بَلْ إِنَّهُمْ يَخْطِطُونَ لَذَلِكَ.^(٢) وَبِكَلِمَاتٍ مُوجِزَةٍ، وَبِدَلَالَةٍ مِنَ الْاِكْتِفَاءِ بِتَقْدِيمِ مَجْتَمَعٍ مُحَلِّيٍّ غَيْرٍ مَتَمَايِزٍ بِالْإِمْكَانِ فَهَمُّ أَنْوَاعِ الْمَشَارَكَةِ، وَالتَّبَادُلِ، وَالتَّنَافُسِ الْمَخْتَلِفَةِ الَّتِي تَوْسَّسُ لَهَا خِيَامُ الضِّيَافَةِ فِي الْمَحْرَمِ، وَتَحْرُسُ عَلَى الْمُحَافَظَةِ عَلَيْهَا وَتُعْزِيزُهَا بِوُصْفِهَا أَشْكَالًا كَرْنَفَالِيَّةً عَلَى نَحْوِ أَفْضَلِ مِنَ التَّدْبِيرِ الَّذِي يَحُوزُ كَذَلِكَ عَلَى أَثَرِ

(١) مَلَحُوظَاتٌ حَقْلِيَّةٌ، الثَّلَاثَاءُ، ٢٢ كَانُونِ الْأَوَّلِ عَامَ ٢٠٠٩.

(٢) وَزِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ، يَمْتَدُّ كَرَمُهُمْ لِيَشْتَمِلَ عَلَى تَوْفِيرِ أَجْهَازِ الصَّوْتِ السَّمْعِيَّةِ، إِذْ يُوَفِّرُ الْمَسْئُولُونَ فِي الْحُسَيْنِيَّةِ الْمِكْرَفُونَ لِمُدَّةِ سَاعَةٍ قَبْلَ بَدْءِ مَجْلِسِ الْعِزَاءِ الْيَوْمِيِّ لِلْسَّاحِ لَأَيَّةِ امْرَأَةٍ تَرْغَبُ فِي الْإِقَاءِ لَطْمِيَّةٍ أَوْ قِرَاءَةِ الزِّيَارَةِ.

كُمُونِيَّ غَايَتُهُ تَعَزِيزُ ادِّعَاءِ الْمُنَاصِرِينَ بِالتَّقْوَى وَالْوَلَايَةِ الدِّينِيَّةِ وَحَتَّى الْمَشْرُوعِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ.

تَبَايُنُ الْأَرَاءِ بِشَأْنِ التَّطْطِيرِ وَبِنَاءِ الْوَلَايَةِ الدِّينِيَّةِ:

يُعَدُّ الشِّيرَازِيُّونَ مَثْمَثِلِينَ فِي الْأَخِ الْأَكْبَرِ . مُحَمَّدُ الشِّيرَازِيُّ (تُوفِّيَ فِي عَامِ ٢٠٠١ م) وَصَادِقُ الشِّيرَازِيِّ الَّذِي أَضْحَى رَئِيسَ الشَّبَكَةِ الشِّيرَازِيَّةِ بَعْدَ وَفَاةِ مُحَمَّدٍ مِنْ أُبْرَزِ الْمُؤَيَّدِينَ لِمُحَاسِنَةِ التَّطْطِيرِ فِي مَدِينَةِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ.^(١)

أَسَّسَ مِيرْزَا مَهْدِي الشِّيرَازِيُّ (١٨٨٤-١٩٦٠ م) أَبُو مُحَمَّدٍ وَصَادِقُ الشِّيرَازِيِّ، إِحْدَى أَهَمِّ الْحُزَاتِ فِي كَرْبَلَاءَ فِي ثَلَاثِينَاتِ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ، ثُمَّ خَلَفَهُ ابْنُهُ مُحَمَّدٌ فِي إِدَارَتِهَا بَعْدَ وَفَاتِهِ. وَكَانَ مُحَمَّدُ الشِّيرَازِيُّ قَدْ أَعْلَنَ نَفْسَهُ مَرَجِعًا لِلتَّقْلِيدِ وَهُوَ لَمَّا يَزُلْ فِي الْعَشْرِينَاتِ مِنْ عَمْرِهِ، وَقَدْ أَهْلَهُ هَذَا لِرُؤُوسِ شَبَكَةِ الْمَوْسَّسَاتِ التَّابِعَةِ لِلْعَائِلَةِ (الَّتِي تَتَأَلَّفُ حَالِيًا مِنْ الْعَدِيدِ مِنَ الْحُسَيْنِيَّاتِ وَالْحُزَاتِ فِي الْعِرَاقِ، وَإِيرَانَ، وَسُورِيَا، وَالْبَحْرَيْنِ زِيَادَةً عَلَى قَنَاءِ تَلْفِزِيُونِيَّةٍ مَقَرُّهَا فِي مَدِينَةِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ) وَقَدْ عَارَضَتْ النُّخْبَةُ الدِّينِيَّةُ فِي النُّجَفِ مُعَارَضَةً صَرِيحَةً وَقَوِيَّةً إِعْلَانًا مُحَمَّدُ الشِّيرَازِيُّ نَفْسَهُ مَرَجِعًا فِي مَرَحَلَةٍ مُبَكِّرَةٍ مِنْ حَيَاتِهِ وَاتَّهَمَتْهُ بِالْاِفْتِقَارِ لـ "الصَّرَامَةِ الْأَكَادِيمِيَّةِ".^(٢)

(١) الإخوة الشِّيرَازِيُّونَ فِي مَدِينَةِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ هُمْ أَقَارِبُ وَلَكِنَّهُمْ لَا يَتَحَدَّرُونَ مُبَاشَرَةً مِنْ سُلَالَةِ مِيرْزَا الشِّيرَازِيِّ رَجُلِ الدِّينِ الْمَعْرُوفِ الَّذِي دَعَا إِلَى ثَوْرَةِ التَّبَغِّ فِي الْعَامِ ١٨٩١. [تَتَلَخَّصُ قِصَّةُ تِلْكَ الثَّوْرَةِ فِي أَنَّ زَوْجَةَ نَاصِرِ الدِّينِ شَاهِ، حَاكِمِ إِيرَانَ، قَرَّرَتْ الْاِمْتِنَاعَ عَنْ تَدْخِينِ التَّبَغِّ بَعْدَ إِعْلَانِ الْمَرَجِعِ حَرَمَتِهِ دِينِيًّا، حَيْثُ يَشِيرُ مَغْزَى الْقِصَّةِ إِلَى إِطَاعَةِ زَوْجِ الشَّاهِ لِلْمَرَجِعِ لَا لَزَوْجِهَا الْمَلِكِ. انْظُرِ الْأَعْلَمَ بَيْنَ الشِّيْعَةِ مَوْسَّسَةِ مَرَجِعَةِ التَّقْلِيدِ. لِنْدَا س. وَالْبَرْج. الْمُقَوِّمُ اللَّغَوِيُّ].

(٢) لَوِير (السِّيَاسَاتُ الشِّيْعِيَّةُ الْعَابِرَةُ لِلْقَوْمِيَّاتِ) ٩٠-٩١.

وأدّى نشاط الإخوة الشيرازيين في ستينيات القرن العشرين وسبعينياته في نهاية المطاف إلى إجبارهم على مغادرة العراق والعيش في المنفى. وكان السيد حسن الشيرازي (توفي عام ١٩٨٠ م) أخو محمد الأكبر، أول من شيد حوزة في مدينة السيّد زينب في عام (١٩٧٣ م) مؤسساً بذلك لتقليد هذا حذوه الكثير من رجال الدين بعده. وعلى الرغم من زيارات حسن الشيرازي المنتظمة للسيدة زينب، إلا أنه كان يعيش في بيروت بشكل رئيس إلى أن قتل رمياً بالرصاص هناك في عام (١٩٨٢ م) وبأمر محمد الشيرازي، حال مغادرته العراق إلى تأسيس قاعدة له أولاً في الكويت، ثم اختار قم مقراً له بعد نجاح الثورة الإسلامية في إيران في عام (١٩٧٩ م) إلا أن الظروف لم تكن مؤاتية حتى في إيران! حيث عاش محمد وأخوه الأصغر صادق الشيرازي بوصفهما لا متهمين، وتعرضوا لتهميش متزايد امتد ليشتمل على أيديولوجيتهم الثورية العابرة للقوميات التي فقدت بريقها، وأضحت بمرور الوقت مصدرًا للمشكلات للقيادة الإيرانية. وبصرف النظر عن طبيعة الاختلافات الفعلية القائمة فيما بينهم، إلا أن هذه الاختلافات جميعاً تلاشت في مدينة السيدة زينب واحتلت موقعا خلفيا مقارنة بالخلاف بشأن أشكال التطهير الدموية.^(١) ويعكس تأييد محمد الشيرازي لأشكال الضرب الدموية. مثل التطهير. في العاشر من المحرم تحليداً لذكرى وقعة الطف... يعكس ادعاءً بكونه شعبياً.^(٢) ونزع الشيرازيون عن طريق إحالتهم على المفكر الإيراني، "علي شريعني" المدفون في مقبرة مجاورة لمجمع مرقد السيدة زينب... نزعوا نحو

(١) قارن مع غلزنان (معرفة الإسلام) ٦١.

(٢) لويز (السياسات الشيعة العابرة للقوميات) ٩٤-٩٥، ٢١٤-٢١٦.

التَّمييز بين المذهبِ الشَّيعِيِّ (النَّقِيّ، والعَادِل، والشَّعْبِيّ) التَّابِع للإمامِ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ مِنْ جَانِبٍ؛ والمذهبِ الشَّيعِيِّ (الْفَاسِدِ والدُّنْيَوِيِّ) الْمُقْتَرِنِ بِالنُّجْبَةِ الدِّينِيَّةِ (فِي النَّجَفِ) مِنْ جَانِبٍ آخَرَ.^(١)

وَتُعَدُّ الْأَسْئَلَةُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِعَدَمِ مَعْصُومِيَّةِ زَيْنَبٍ مِنَ الْمَوْضُوعَاتِ الْمَحَوِّرِيَّةِ فِي السَّجَالِ بِشَأْنِ التَّطْيِيرِ بِسَبَبِ الْإِسْتِمْرَارِ فِي الْإِسْتِشْهَادِ بِهَا بِوُضُفِّهَا أَوَّلَ مَنْ مَارَسَ فِعْلَ التَّطْيِيرِ أَوْ ضَرَبَ النَّفْسَ بِالزَّنَاجِيلِ؛ فَوْقًا لِلْمَسْئُولَةِ عَنِ الْقِسْمِ النِّسَائِيِّ فِي الْحَوَازَةِ الزَّيْنَبِيَّةِ، وَوَقَفًا لـ "مَهْدِيٍّ مَعَاشٍ" الْمَعْرُوفِ بِدَعْمِ عَائِلَتِهِ وَمُسَانَدَتِهَا لِمَحَمَّدٍ الشِّيرَازِيِّ، فَقَدْ شَجَّتِ السَّيِّدَةُ زَيْنَبُ مُقَدِّمَةً رَأْسَهَا بِرِمَحٍ كَانَ مَعَهَا حُزْنًا عَلَى وَفَاةِ أُخِيهَا.^(٢) وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ زَيْنَبَ لَيْسَتْ مَعْصُومَةً "تَقْنِيًّا" إِلَّا أَنَّهُا تُعَدُّ، بِفَضْلِ كَوْنِهَا أُخْتِ الْإِمَامَيْنِ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ، وَبَنَتْ الْإِمَامَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَالْمَعْصُومَةَ فَاطِمَةَ وَحَفِيدَةَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ... تُعَدُّ أَقْرَبَ إِلَى الْمَعْصُومِيَّةِ مِنْ حَيْثُ الطَّبِيعَةُ وَالتَّنَشِئَةُ.^(٣) وَتَأْسِيسًا عَلَى ذَلِكَ، تَمَثَّلُ مَعْصُومِيَّةُ زَيْنَبَ الصَّغْرَى، لِمُؤَيِّدِي التَّطْيِيرِ أَمْثَالِ مُحَمَّدٍ الشِّيرَازِيِّ، دَلِيلًا كَافِيًا عَلَى مُشْرُوعِيَّةِ الْمُمَارَسَةِ أَوْ قَبُولِهَا الدِّينِيِّ؛ وَبِفَضْلِ تَأْيِيدِهِمْ مُمَارَسَةَ التَّطْيِيرِ بِوُضُفِّهَا دَلِيلًا عَلَى الْحُبِّ، وَالْإِحْتِرَامِ، وَالْوَلَاءِ لَزَيْنَبَ، يَسْتَمُدُّ الشِّيرَازِيُّونَ ادِّعَاءَهُمُ الْمَشْرُوعِيَّةَ - كَوْنَهُمْ يُمَثِّلُونَ سُلْطَاتٍ دِينِيَّةً - مُبَاشَرَةً مِنْ زَيْنَبَ. إِنَّهُمْ يَدْعُونَ الْقُرْبَ مِنْ آلِ الْبَيْتِ الْمَعْصُومِينَ مِنْ خِلَالِ زَيْنَبَ الَّتِي تَحُورُ

(١) آغاى (شهداء كربلاء) ١٠٠-١٠٣.

(٢) مَلْحُوظَاتُ حَقْلِيَّة، الْاِثْنَيْنِ، ٥ كَانُونِ الثَّانِي عَامَ ٢٠٠٩؛ مَهْدِيٍّ مَعَاشٍ (مَشْرُوعِيَّةُ الشَّعَائِرِ الْحُسَيْنِيَّةِ) (دَمَشَقُ: مُؤَسَّسَةُ الْإِمَامَةِ، عَامَ ٢٠٠٧) ١٧٧-١٧٨؛ لَوِير، (السِّيَاسَاتُ الشَّيْعِيَّةُ الْعَابِرَةُ لِلْقَوْمِيَّاتِ) ٩١-٩٢.

(٣) مَلْحُوظَاتُ حَقْلِيَّة، الْاِثْنَيْنِ، ٥ كَانُونِ الثَّانِي عَامَ ٢٠٠٩.

العصمة الصغرى؛ وزيادةً على ذلك، يحاول الشيرازيون من خلال هضمهم لسرد كربلاء المحافطة على موقف زينب الثوري (مقابل السلطة السياسية غير المشروعة) وعلى تعاطفها "الخلاصي" مع الجماهير المفجوعة، ثم تجسيدهما،^(١) ويدعم الشيرازيون. بطريقة ما. عقيدة التحرير الشيعية.

وابتغاء التصدي لادعاءات الشيرازيين، طرح آية الله الخامني فكرة مضادة تفيد أن هذا الحديث أو السرد [الخاص بالتطير] هو حديث ضعيف، وتبعاً لذلك، يرجح أنه غير صحيح.^(٢) وزيادةً على ذلك، لا يؤيد الخامني الذي يجوز سيطرة عقائدية على المرقد الفكرة التي تقول إن: المرقد ليس هو المكان الحقيقي الذي دفنت فيه السيدة زينب، كما اتخذ الخامني ما تصفه "لارا ديب" بالموقف "الحداثي والمؤقت" فيما يتصل بممارسة "التطير" إذ أبدى الخامني معارضة شديدة لهذه الممارسة لسببين، هما تمثيلها بدعة حديثة نسبياً (يعود تاريخها إلى القرن التاسع عشر) أولاً،^(٣) وثانياً لاعتقادها في أن الممارسة العامة والعينية للتطير تنقل صورة غير إيجابية عن المذهب الشيعي الاثني عشري للسنة والعالم أجمع.^(٤) وعلى نحو فارق، يستصوب حتى المعارضون "المشاهد التطير المشهدة" ويدعون أنهم "حداثيون وتوثيقيون" قوة الغروتسك "غير العقلانية" في بعض من الأحيان. إذ بادَرَ مكتب الخامني في

(١) للاستزادة بشأن هذا الموضوع عن التفسيرات "الثورية" مقابل "الخلاصية" انظر آغاى (شهداء كربلاء)؛ ديب (الحداثي المأسور).

(٢) الشمري (أخبار الفقير في إثبات حرمة التطير) ٢٢-٢٣.

(٣) الشمري (أخبار الفقير في إثبات حرمة التطير) ١٠؛ ديب (الحداثي المأسور) انظر كذلك أيند "الضرب بالزناجيل في المحرم".

(٤) الشمري (أخبار الفقير في إثبات حرمة التطير) ٥٣-٥٤.

مدينة السيِّدة زينب. في سبيل المثال. إلى توزيع كُتَيْبٍ ضِدَّ التَّطْيِيرِ،^(١) كانَ بمنزلةِ رَدِّ وَاِفِ فَضْلاً بِفَضْلٍ وَنَقْطَةً بِنَقْطَةٍ عَلَى كُتَيْبِ الشِّيرَازِيِّ - مَعَ تَغْيِيرٍ قَلِيلٍ، إِذْ تَحْتَوِي الصَّفَحَاتُ الثَّلَاثُ الْآخِرَةُ عَلَى صُورٍ لِعَمَلِيَّةِ تَطْيِيرِ فُتُوغْرَافِيَّةٍ بِالْأَسْوَدِ وَالْأَبْيَضِ، وَثَمَّةُ صُورَةٌ تَعْرُضُ طِفْلاً صَغِيراً يَبْكِي؛ وَيَعْنِي فِعْلُ الْبَكَاءِ هُنَا. ضَمْنِيّاً. أَنَّ الطِّفْلَ كَانَ خَائِفاً، وَلَمْ يَكُنْ مُشَارِكاً طَوْعِيّاً فِي التَّطْيِيرِ الَّذِي يَبْدُو وَاضِحاً أَنَّهُ يُؤْذِيهِ.

لَمْ يَكُنِ التَّطْيِيرُ فِي هَذِهِ الصُّورَةِ مُوَازِياً لِعَنْفِ الْمُحَرَّمِ دِينِيّاً فَحَسَبُ، بَلْ إِنَّ الْغَايَةَ مِنْ هَذِهِ الصُّورِ هُوَ التَّأْثِيرُ أَحْشَائِيّاً فِي الْمَشَاهِدِينَ الَّذِينَ لَمْ يَكُونُوا - حَتَّى هَذِهِ اللَّحْظَةِ - مُقْتَنِعِينَ تَمَاماً بِإِدَانَةِ الْخَامِنِيِّ لِهَذِهِ الْمَهَارَسَةِ، وَمِنْ الْمَهْمِ لِحُظِّ أَنْ الْمَعَارِضِينَ لِلْأَشْكَالِ الدِّمُومِيَّةِ مِنَ التَّطْيِيرِ لِيَسُوا بِالضَّرُورَةِ لِبَنَانِيِّنَ أَوْ مِنْ أَتْبَاعِ آيَةِ اللَّهِ فَضْلَ اللَّهِ أَوْ الْخَامِنِيِّ.

وَلَا يُمْكِنُ صَمَانُ الْمَشْرُوعِيَّةِ الدِّينِيَّةِ بِالِاسْتِنَادِ إِلَى الدَّعْوَةِ إِلَى الْإِمْتِثَالِ لِلْمَصَادِرِ "الْمَوْثِقَةِ" وَ "الْحَدَائِثِ" فِي ضَوْءِ ارْتِبَاطِ الْمَشْرُوعِيَّةِ بِفِكْرِ الْعَدَالَةِ الشَّعْبِيَّةِ. فَفِي سَبِيلِ الْمَثَالِ، لَمْ تَكُنِ السُّلْطَةُ السِّيَاسِيَّةُ الَّتِي يَحُوزُهَا آيَةُ اللَّهِ الْخَامِنِيُّ، بَلْ تَوْظِيفُهُ الْمَتَحَيِّزُ وَالْوَاضِحُ لِهَذِهِ السُّلْطَةِ فِي دَعْوِهِ لَتَرْشُحِ الرَّئِيسِ الْإِيرَانِيِّ السَّابِقِ "أَحْمَدِي نَجَاد" فِي انْتِخَابَاتِ عَامِ (٢٠٠٩ م) الرِّئَاسِيَّةِ؛ هُوَ مَا كَلَّفَهُ سُلْطَتُهُ الدِّينِيَّةُ وَمَشْرُوعِيَّتُهُ فِي أَعْيُنِ الشَّيْعَةِ الْإِثْنِي عَشَرِيَّةِ فِي مَدِينَةِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ. وَقَدْ بَيَّنَتْ "أَمَّالُ" هَذَا الصَّدْرِ. وَهِيَ السُّنِّيَّةُ الَّتِي تَشِيعَتْ، أَنَّ قَرَابَةَ دُزَيْنَةِ (١٢) شَخْصاً أَوْ أَكْثَرَ مِنْ أَصْدِقَاءِ زَوْجِهَا كَانُوا لَا يَشَارِكُونَ فِي

(١) بعد عام واحد من توزيع هذه الكتيبات مجّاناً، عُرضت للبيع لقاء مئة ليرة (أو دولارين) في إحدى المكتبات في مجمع المرقّد.

التطير، لأنهم اختاروا اتباع الخامنئي في هذه المسألة بوصفه مرجعاً للتقليد. ثم شهد هذا الوضع تغيراً بعد هذه الانتخابات، إذ شارك هؤلاء الرجال في مواكب التطير في مدينة السيّدة زينب بسبب استيائهم من الزعماء الإيرانيين،^(١) ومن خلال التطير وجرح مقدمات رؤوسهم بالسيوف، نقش هؤلاء الرجال احتجاجهم طقوسياً على أجسادهم.

ويقف مقتدى الصدر موقفاً رافضاً من التطير كذلك، ولكنه لا يصرّح بذلك علناً! ويُلحظ في هذا السياق وجود أتباعه في موقع مثير للفضول في مدينة السيّدة زينب بسبب تشجيع الصدر لأيدولوجية قومية متشددة، تضعه في موقع المعارض لكل من الخامنئي والشيّرازيين على أسس إثنية على الرغم من إقامة أسلاف مقتدى عدّة قرون في إيران؛^(٢) إلا أن ادّعاءات مقتدى غير التقليدية بالسلطة والزعامة بين العراقيين داخل البلاد وخارجها؛ تجعل علاقته أكثر توتراً بال خامنئي منها بالشيّرازيين،^(٣) ممّا قد يساعد في فهم السبب في امتناع الصدر عن دعم موقف الخامنئي وحزب الله حيال التطير. وبدلاً من محاولة اتخاذ موقف واضح في الجدل الدائر بشأن التطير، أعد أتباع مقتدى منهجاً بديلاً لجذب الشيعة (الذكور) في المحرم من خلال التوكيد على فضائل الضيافة والكرم ورعاية خيام الضيافة الأكبر في مدينة السيّدة زينب.

عاشوراء: التفسير الخلاصي:

(١) ملحوظات حقلية، الاثنين، ٢٨ كانون الثاني عام ٢٠٠٩.
(٢) غير مقتدى الصدر موقفه بمرور الوقت في العقد الأخير. ففي بادئ الأمر، وقف بالضد من إيران، ولكنه أصبح حالياً حليفاً معروفاً لها.
(٣) للاطلاع على المزيد بشأن مواقف مقتدى الصدر وتاريخ عائلته في العصر الزاهن ودورهم في النزاعات الدينية والسياسية المختلفة، انظر كول (آيات الله والديمقراطية في العراق)؛ كول "الولايات المتحدة والجماعات الدينية الشيعية في عراق ما بعد البعث".

لم يحظَ السؤالُ المتعلّقُ بـ: كيف ترتبطُ مُمارساتُ العزاءِ العاشُورائيّةُ بتصوّراتِ "الخلاصِ" المتنوّعةِ بالدراسةِ والاهتمامِ الكافيينِ في الأدبيّاتِ الأكاديميّةِ عن المذهبِ الشيعيِّ الاثنيِّ عشريِّ، وعلى الرُغمِ مِنْ نَشْرِ كتابِ "محمّدُ أيّوبُ" قبلَ الثّورةِ الإيرانيّةِ في عامِ (١٩٧٨ م) إلّا أنّه ما زالَ مفيداً ومرجعاً مُعتبراً في هذا المجال؛ حيثُ تبقى دراسةُ أيّوبَ عَنْ مُمارساتِ العزاءِ الشيعيّةِ في المُحرّمِ دراسةً تاريخيّةً غيرَ ملتزمةٍ بموقعٍ أو سياقٍ؛ ولا تفسّرُ دراسةُ "أيّوبُ" عَنْ المُعاناةِ الخلاصيّةِ الكيفيّةِ التي تختلفُ بها المُعاناةُ الخلاصيّةُ (salvific) الشيعيّةُ عَنْ التّصوّراتِ المسيحيّةِ عَنْ المُعاناةِ الخلاصيّةِ (redemptive).^(١)

وكتبَ الباحثونَ في المذهبِ الشيعيِّ في جنوبِ آسيا بعدَ الثّورةِ الإيرانيّةِ، أمثالَ (ديفيد بينو. David Pinault) و (توبي هوارث. Toby Howarth) عَنْ مُمارساتِ العزاءِ الشيعيّةِ "الخلاصيّةِ" بالاعتمادِ على تصوّراتٍ متنوّعةٍ عَنْ الهويّةِ الجمعيّةِ.^(٢) وتحوّلتْ بؤرةُ اهتمامِ بعضِ مِنَ الباحثينَ في أعمالهمِ الأكاديميّةِ الأحدثِ زمنيّاً عَنْ هذهِ المُمارساتِ أمثالَ "كامران آغاي" (٢٠٠٥) و "لارا ديب" (٢٠٠٦) غرباً إلى إيرانَ ولبنانَ على التّوالي؛ إذ انتقلَ هذانِ الباحثانِ كلاهما بعيداً عَنْ مفهوماتِ "الكميونتاس" والهويّةِ، خصوصاً بعدَ لحظهما أحدَ التّحوّلاتِ المهمّةِ التي وقعتْ أواخرَ القرنِ العشرينِ في طقوسِ العزاءِ الشيعيّةِ مِنْ التّوكيدِ على قيمَتها "الخلاصيّةِ" إلى التّوكيدِ على "كمونيّتها"

(١) يمضي ديفيد بينو بعيداً حدّ وضعِ توازياتٍ واضحةٍ وصرّوحةٍ بين المذهبِ الشيعيِّ والكاثوليكيّةِ. انظر بينو (حصان كربلاء).

(٢) بينو (حصان كربلاء)؛ هوارث (الشّيعَةُ الاثنا عشريّون).

الثَّورِيَّةَ". وقد نزعَ كُلُّ مَنْ "ديب" و "آغاي" بعدَ لحظِهما هذا التَّحوُّلَ نحوَ الإِفَاضَةِ في الحديثِ عَنِ الجَوَانِبِ "الثَّورِيَّةَ" على حَسَابِ "الخلاصِيَّةِ" التي أَضَحَّتْ مُفْرَدَةً مُغْلَفَةً ومَلَاذِمَةً^(١) لَأَيِّ تَفْسِيرٍ يَبْقَى مَهَادِنًا سِياسِيًّا.^(٢) سَأَتَنَاوَلُ في المَقَاطِعِ التَّالِيَةِ بِحَصَافَةٍ وَدَقَّةٍ الشَّكْلَ الشَّيْعِيَّ المَحِلِّيَّ والجَنُوبِيَّ مِنَ المَعَانَةِ "الخلاصِيَّةِ".

كَتَبَ "أَسَدُ" في (تَشكِيلَاتُ العِلْمَانِيَّ): (إِنَّهُ حَتَّى في اللُّغَةِ الإنكليزِيَّةِ الحديثَةِ المُبَكِّرَةِ، لم يَكُنْ ثَمَّةَ تَعَارُضٍ عَالَمِيٍّ مُفْتَرَضٍ بَيْنَ المُقَدَّسِ والمُدَّسِ،^(٣) فَالكَلِمَةُ الفَرَنسِيَّةُ "مُقَدَّسٌ" لم تَكُنْ جُزْءًا مِنْ لُغَةِ الحَيَاةِ المَسِيحِيَّةِ العَادِيَّةِ في القُرُونِ الوُسْطَى وَلَا في الأَزْمَانِ الحديثَةِ المُبَكِّرَةِ).^(٤) وَالكَلِمَةُ الأَكْثَرُ أَهْمِيَّةً وَشَعْبِيَّةً كَانَتْ (saintete) الَّتِي تَعْنِي: (صِفَاتُ البَرَكَةِ والإِحْسَانِ الَّتِي يَتِمَتُّعُ بِهَا أَفْرَادٌ مُحَدِّدُونَ وَآثَارُهُم المُقَدَّسَةُ، أَفْرَادٌ يَرْتَبِطُونَ ارْتِبَاطًا مُبَاشَرًا بِالنَّاسِ العَادِيَّيْنَ وَعَالَمِهِم العَادِيَّ).^(٥) وَمَفْهُومُ "الْقِدَاسَةِ" الأَسَدِيُّ مُفِيدٌ جَدًّا؛ لَاسِيَّما

(١) (blanket term) (معناها الحرفي "مفردة بطانة") كلمة أو عبارة (مصطلحية) تُستخدم لوصف مجموعات متعدّدة من الأشياء المتصلة فيما بينها مع لحظ تباين درجة هذه الصلة ضعفا وقوة. وقد تختلف درجة العلاقة. والمصطلح. على الأرجح. لا يقدم الكثير من التفاصيل عن الأشياء التي يصفها أو العلاقات فيما بينها، ولكن من السهل استخدامه وتذكره. وتعود نشأة هذه المصطلحات عادة إلى اللغة العامية الدارجة، ثم تصبح. تدريجياً. من المفردات المعروفة والمقبولة. وقد اخترت ترجمتها إلى "مغلّفة" وأعتقد في أنها توازي مصطلح مظلة (umbrella term) بمعنى مفردة جامعة شاملة. (المترجمة).

(٢) قارن مع نكي كدي، المحرّر (الدين والسياسة في إيران: المذهب الشيعي من المهادنة إلى الثورة) (نيوهافن: جامعة بيل، عام ١٩٨٣).

(٣) طلال أسد (تشكيلات العلماني) ٣١-٣٢.

(٤) المصدر ذاته، ٣٢.

(٥) المصدر ذاته.

عِنْدَ التَّفَكُّيرِ بِالسَّيِّدَةِ زَيْنَبَ بَوْصُفِهَا "وَلِيَّةٌ" بِقُدْرَاتٍ قَدْسِيَّةٍ عَلَى الشِّفَاءِ فِي هَذَا الْعَالَمِ وَالشِّفَاعَةِ بِالنِّيَابَةِ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْعَالَمِ الْآخِرِ.

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ قُدْرَةَ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ عَلَى الشِّفَاءِ وَالشِّفَاعَةِ تَنبُغُ مِنْ مُعَانَاتِهَا الشَّخْصِيَّةِ، إِلَّا أَنَّهُمَا لَيْسَا النَّتِيجَةُ الْمُبَاشِرَةُ لـ "التَّضَحِّيَةِ".

وَفِي كِتَابِهِ الْأَخِيرِ (التَّفْجِيرُ الْإِنْتَحَارِيُّ) حَذَّرَ "أَسَدٌ" مِنْ اسْتِخْدَامِ كَلِمَةِ "التَّضَحِّيَةِ" فِيمَا يَتَّصِلُ بِالإِسْلَامِ؛ لِاعْتِقَادِهِ فِي أَنَّهَا تَرْتَبُطُ ارْتِبَاطًا وَثِيقًا بِمَفْهُومِ "التَّكْفِيرِ عَنِ الْخَطَايَا" الْيَهُودِيِّ - الْمَسِيحِيِّ،^(١) وَلَكِنَّهَا غَيْرُ مُرْتَبِطَةٍ بِجَذْرِ الْكَلِمَةِ اللَّاتِينِيَّةِ الَّتِي يَعْنِي (أَنْ تَجْعَلَهُ مُقَدَّسًا).^(٢) وَبَيْنَمَا لَا أُرْمِي فِي دِرَاسَتِي هَذِهِ إِلَى تَجَاهِلِ مَفْهُومَاتِ (التَّكْفِيرِ عَنِ الْخَطَايَا، وَالتَّضَحِّيَةِ، وَالْخِلَاصِ) إِلَّا أَنِّي حَرِيصَةٌ عَلَى تَبْيَانِ الطَّرَائِقِ الَّتِي تَكُونُ فِيهَا مُمَارَسَاتُ الْمُحَرَّمَ "خِلَاصِيَّةً".

وَتَمَّةٌ فِي هَذَا السِّيَاقِ فِكْرَةٌ مُفِيدَةٌ أَوْدُ طَرَحَهَا هُنَا، تَقُولُ بِضُرُورَةِ رِبْطِ الْجَوَانِبِ الْخِلَاصِيَّةِ الْمُتَضَمِّنَةِ فِي مُمَارَسَاتِ الْعِزَاءِ الَّتِي يَمَارِسُهَا الشَّيْعَةُ فِي مَدِينَةِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ بِالطَّرَائِقِ الَّتِي تَوَلَّفُ هَذِهِ الْمُمَارَسَاتُ بِوَسَاطَتِهَا "اِقْتِصَادِيَّاتٍ تَبَادُلٍ" بَيْنَ الشَّيْعَةِ وَالْأَوْلِيَاءِ، أَكْثَرَ مِنْهَا "تَضَحِيَّاتٍ" لِأَجْلِ التَّكْفِيرِ عَنِ الذُّنُوبِ.

وَابْتِغَاءَ تَحْقِيقِ هَذِهِ الْغَايَةِ، أَوْدُ لَفَتَ الْإِنْتِبَاهَ أَوَّلًا إِلَى الطَّرَائِقِ الَّتِي يَسَاوِمُ الشَّيْعَةُ بِوَسَاطَتِهَا الْوَسَطَاءَ / الْأَوْلِيَاءَ أَمْثَالَ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ،^(٣) وَثَانِيًا إِلَى الطَّرَائِقِ

(١) طَلَالُ أَسَدٍ (التَّفْجِيرُ الْإِنْتَحَارِيُّ) (نِيُيُورِك: جَامِعَةُ كُولُومْبِيَا، عَامَ ٢٠٠٧) ٨٧-٨٩.

(٢) الْمَصْدَرُ ذَاتُهُ، ٤٣-٤٤.

(٣) قَارَنَ مَعَ آن بَرَجِجِ "تَبَادُلِ الْهَدَايَا فِي إِيرَانَ". بَيْنَمَا أُنَاقِشُ التَّصَوُّرَاتِ الشَّيْعِيَّةَ عَنِ الْعِلَاقَةِ وَإِقَامَةِ الْعِلَاقَاتِ (خُصُوصًا بَيْنَ الشَّيْعَةِ الْعَادِيَّةِ وَآلِ الْبَيْتِ مِنْ عَائِلَةِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ) فِي الْفَصْلِ الْخَاصِّ بِمَجَالِسِ الْعِزَاءِ، لَنْ أُنَاقِشُهُ بِمَزِيدٍ مِنَ التَّفْصِيلِ فِي هَذَا الْفَصْلِ.

المُحدَّدة التي يفهمُ الشَّيعةُ مِنْ خلالها "الخلاصَ" بوصفه فعلاً يمنحُهم منافع ومزايا دنيويَّة وأخرويَّة مثل الشَّفاء في هذا العالم،^(١) والشَّفاة في يوم القيامة.^(٢)

سأتناولُ في المقاطع المتبقِّية مِنَ المبحثِ أولاً الطَّرائق التي أُعيدَ بوساطتها تقديمُ مُمارَسة التَّطهير ومناقشتها في الصُّفوف الحوزويَّة النسويَّة ومجالس العزاء في الحوزة الرِّبنيَّة مِنْ خلال السَّردِّيات الإعجازيَّة. وسأناقشُ ثانياً الصِّلة بينَ عملِ التَّذوُّر والمعجزات وبينَ دورها في مُساعدة النِّساء الشَّيعيَّات في الارتباطِ بالأولياء.

التَّطهيرُ "الأداءُ الإعجازيُّ":

ترى الكثيرُ مِنَ النِّسوة اللَّائِي تحدَّثُ إليهنَّ في السيِّدة زينب أنَّ التفسيراتِ الخلاصيَّة أو التَّقليديَّة لسردِ كربلاء لا تركِّزُ كثيراً على الخلاصِ المُجرَّد أو الأخرويِّ بقدرِ ما تركِّزُ على المعجزاتِ الدُّنيويَّة في هذا العالم.^(٣) وبحسبِ ما بيَّنتُه (آن بترج. Anne Betteridge) ثمة نوعانِ مِنَ المعجزاتِ في المذهبِ الشَّيعيِّ المعاصرِ هما: المعجزة والكرامة،^(٤) الأولى "نادرةٌ ومزلزلةٌ" والثَّانيَّة هي (معجزاتٌ أكثرُ تواضعاً).^(٥)

(١) ويهر (قاموس اللغة العربيَّة) ٤٧٨.

(٢) المصدر ذاته، ٤٧٩.

(٣) قدِّمت أجزاء من هذا المبحث إلى دار برل لنشرها في إحدى الدِّراسات المُزمع تضمينها في مُجلَّد يتناول موضوع القدااسة عنوانه: (القدااسة في الدَّول الهشَّة) تحرير اندرياس بانداك و ميكل بيل.

(٤) بترج "مختصُّون في الفعل الإعجازي".

(٥) المصدر ذاته.

يميلُ النَّاسُ عِنْدَ زيارَةِ المراقِدِ . بحسبِ "بترج" . إلى طلبِ الكراماتِ أمثالَ شفاءِ المَرَضَى والحُصُولِ على وَظيفَةٍ أو الزَّواجِ ، وتقعُ أنواعُ المعجزاتِ التي يرتبطُ بها التَّطَيُّرُ في السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ في الفَتَةِ الأخيرةِ مِنَ المَعْجَزاتِ الصُّغرى أو الأكثرِ تواضِعاً لارتباطها الوثيقِ بالشفاءِ .

ولا يَتَّفِقُ المدرِّسونَ أو الطُّلابُ جميعاً أو بالضَّرورةِ في الحوزَةِ الزَّينبيَّةِ الشَّيرازيَّةِ مَعَ الشَّيرازيِّينَ بِشأنِ التَّطَيُّرِ،^(١) ولكنْ، وَحَتَّى في حَالَةِ غِيابِ الاتِّفاقِ فيما بَيْنَهُم ، ثَمَّةُ اتِّفاقٍ وَّاضِحٍ وَتَفاهُمٍ على أَنَّ الحوزَةَ . لَمَّا كَانَتْ تَتَّسِمُ إلى مرجعٍ تَقْلِيدٍ مُحدَّدٍ . لَيْسَتْ مَكَاناً مُحايداً . ويُلحَظُ هُنا ، أَنَّ المَدْرَسَةَ الوَحيدةَ التي تَعْمَلُ بِنَحْوِ ثابِتٍ في القِسمِ النِّسائيِّ في الحوزَةِ ، وَلَمْ تُجْلِبْ مِنْ خارِجِها ؛ هِيَ مُدْرَسَةُ الفَقْهِ أو الشَّرِيعَةِ الإِسْلامِيَّةِ . والعُلُوِّيَّةُ "عَالِيَةُ" هِيَ خَيْرٌ مِثالٍ على ذَلِكَ ، فَهِيَ أَهمُّ مُدْرَسَةٍ فقهٍ في الحوزَةِ الزَّينبيَّةِ ، وَهِيَ الأَكْبَرُ سَنّاً بَيْنَ الفَتياتِ المُوسَوَّياتِ بَناتِ أَحَدِ رِجالِ الدِّينِ المَهمِّينَ ، أو السَّادَةِ الَّذِي يَمثُلُ جِزءاً مِنَ الشَّبَكَةِ الشَّيرازيَّةِ .

وَتَمثُلُ "عَالِيَةُ" العَقْلانيَّةُ " مِنْ جَانِبٍ ، وَمِنْ جَانِبٍ آخَرَ ، يَمكُنُ القَوْلُ بِالقَدْرِ ذَاتِهِ إِنَّها تَشغُلُ مَوْقِعاً غامِضاً ومُلتَبِساً! . إذْ يَمكُنُ لِلمَراةِ بَلوغُ مَرتَبَةِ المَجتَهِدِ والتَّوَصُّلُ إلى الأحكامِ الفَقْهيَّةِ الخاصَّةِ بِها وَفَقاً لِلبَناءِ الهَرَمِيِّ الشَّيعِيِّ . وعلى الرُّغمِ مِنْ ذَلِكَ ، تَقْضي التَّقاليدُ بِعَدَمِ قَدْرَةِ الشَّيعةِ العادِيِّينَ أو المُقلِّدِينَ على الاتِّزامِ بالأحكامِ الفَقْهيَّةِ التي تَضَعُها النِّساءُ . وعلى الرُّغمِ مِنْ ذَلِكَ ، تَشغُلُ "عَالِيَةُ" . بِفَضْلِ كَوْنِها مُدْرَسَةً فقهٍ عَالِمَةً ومُحَرِّمَةً . عَملياً أَكثَرَ المَواقِعِ سُلْطَويَّةٍ في القِسمِ النِّسائيِّ في الحوزَةِ ؛ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَمْنَعِ الكَثِيرَ مِنَ

(١) مثال على ذلك، ثَمَّةُ مدرِّسونَ يَعمَلونَ في كُلِّ مِنَ الحوزَةِ الخامِثيَّةِ والشَّيرازيَّةِ .

الطَّالِبَاتِ مِنْ تَاجِلِ نَصَائِحِهَا الْفَقِهِيَّةِ فِيمَا يَتَّصِلُ بِالزَّوْجِ وَالْأَطْفَالِ، لِأَنَّهَا غَيْرُ مَتَزَوِّجَةٍ. ^(١) وَقَدْ لَحِظْتُ بَعْضَ مِنَ الطَّالِبَاتِ، أَنَّهُ لَمَّا كَانَتْ الْعُلُوبَةُ "عَالِيَةً" غَيْرَ مَتَزَوِّجَةٍ وَتَعْمَلُ فِي التَّدْرِيسِ، فَإِنَّهَا تَتَحَدَّى نَوَامِيسَ الْأَنْوَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي تَدْرُسُهَا، وَتَرْوِّجُ لَهَا، وَتَحَاوُلُ تَرْسِيخَهَا فِي الصُّفُوفِ الْحُزُونِيَّةِ.

وَزِيَادَةً عَلَى دُرُوسِ الْفَقْهِ، تَقْدِّمُ عَالِيَةً دُرُوسًا مُنْتَظَمَةً فِي مَجَالِسِ الْعَزَاءِ الْأُسْبُوعِيَّةِ التَّابِعَةِ لِلْحَوْزَةِ الشِّيرَازِيَّةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْمُنَاسَبَاتِ الْخَاصَّةِ، وَتَمَثِّلُ عَالِيَةً فِي هَذِهِ الْمَجَالِسِ إِحْدَى أَبْرَزِ الْمُتَحَدِّثَاتِ فِي مَدِينَةِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ فِيمَا يَتَّصِلُ بِالتَّطْبِيرِ؛ وَقَدْ قَدِّمْتُ عَالِيَةً فِي الْأَيَّامِ السَّابِعِ وَالثَّامِنِ وَالتَّاسِعِ مِنَ الْمُحَرَّمِ فِي كَانُونِ الثَّانِي مِنْ عَامِ (٢٠٠٩ م) ثَلَاثَ مُحَاضَرَاتٍ عَنْ هَذَا الْمَوْضُوعِ، تَحَدَّثْتُ فِيهَا عَنْ ثَلَاثَةِ جَوَانِبَ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ التَّطْبِيرِ، هِيَ: الْعَقْلُ، وَالشَّرِيعَةُ، وَالرُّوحَانِيَّةُ. ^(٢)

كَانَتْ مُحَاضَرَةُ عَالِيَةَ الْأَوَّلَى عَنْ الْيَوْمِ الْمُخَصَّصِ لِاسْتِذْكَارِ وَفَاةِ الْعَبَّاسِ، الْأَخِ غَيْرِ الشَّقِيقِ لِلْإِمَامِ الْحُسَيْنِ. ^(٣) وَبَدَأْتُ مُحَاضَرَتَهَا بِتَوْضِيحِ أَنَّ مُمَارَسَةَ التَّطْبِيرِ هُوَ مُعْجِزَةٌ، لِأَنَّهُ لَا يَسْبَبُ أَذَى دَائِمًا؛ فَبَعْدَ جَرَحِ مُقَدِّمَاتِ رُؤُوسِهِمْ بِالسُّيُوفِ، يُوَاصِلُ الْمُطَبَّرُونَ الْمَشْيَ فِي الْمَكَانِ بِشَكْلِ طَبِيعِيٍّ! وَعَلَى الرُّغْمِ مِنْ فَقْدِهِمُ الدَّمِ، تَوْكَّدُ "عَالِيَةُ" عَلَى أَنَّ قُدْرَةَ الْمُطَبَّرِينَ الْمُتَوَاصِلَةَ عَلَى الْعَمَلِ تَوَلَّفُ مُعْجِزَةً حَقِيقِيَّةً، وَبَيْنَمَا تَتَطَلَّبُ جُرُوحُ الرَّأْسِ الْأُخْرَى عِلَاجًا طَبِيبًا سَرِيعًا

(١) مَلَحُوظَاتُ حَقَلِيَّةِ، السَّبْتِ، ٥ كَانُونِ الْأَوَّلِ عَامِ ٢٠٠٩.

(٢) مَلَحُوظَاتُ حَقَلِيَّةِ، الْأَحَدِ، ٤ كَانُونِ الثَّانِي عَامِ ٢٠٠٩.

(٣) تُكْرَسُ الْأَيَّامُ الْعَشْرَةُ الْأَوَّلَى مِنَ الْمُحَرَّمِ لِرِثَاءِ شَهِيدِ مُحَدَّدِ نُوفِي فِي كِرْبَلَاءِ. وَبِسَبَبِ وَفَاةِ الشَّهَدَاءِ جَمِيعِهِمْ فِي الْعَاشِرِ مِنْهُ، يَعْكَسُ التَّرْتِيبُ الْمُحَدَّدُ الَّذِي يَجْرِي عَلَى وَفْقِهِ اسْتِذْكَارُ هَؤُلَاءِ الشَّهَدَاءِ / الْأَوْلِيَاءِ التَّقْضِيَّاتِ الْمُحَلِّيَّةِ.

ومباشراً، لا تحتاج الجروح التي تنتج عن التطهير علاجاً؛ وإن فقد الدم لا يسبب ضرراً. بحسب عالية. لقدرة الجسم على إنتاج المزيد منه، ويبدو أن قول "عالية" هذا يتعارض ضمناً مع الفكرة التي تقول: إن ما هو غريب مرئياً لا بد من أن يكون غير عقلائي. وتحدث "عالية" عن التطهير والجوانب الصحية من خلال الاستشهاد بالأحاديث النبوية: إذ بينت عالية أن النبي محمداً أقر استخدام الحجام والحجامة ومارسها بوصفها علاجاً طبيياً، وادعت أن ممارسة التطهير كانت موجودة في عهد النبي باسم حجامه الرأس التي تساعد في إخراج "الدم الفاسد" من الجسم.^(١) وتصور مقارنة عالية بين دم التطهير والدم الفاسد الناتج عن الحجامة؛ تصور النوع الأول من الدم على أنه شيء غريب ومنقر ينبغي إخراجُه من جسم المؤمن.^(٢)

ومثلما لحظنا أعلاه، فقد كرّس مجلس العزاء الأسبوعي للعباس الذي توفي وهو يخدم أطفال الحسين في وقعة كربلاء. ووفقاً للسرديات الشيعية، فقد منع جيش بني أمية عسكر الحسين من الوصول إلى نهر الفرات، مصدر المياه

(١) يرى العديد من الشيعة في السيدة زينب أن الرقي الأخلاقي ابتغاء التعافي من الأمراض والعلل لا يعني تنمية - ذاتية عقلانية أو منضبطة. بل إنه يعني ضمناً التطهير. وقد ساوى المصلحون الحديثون عادة الصحة (أو النظافة) مع الطهارة الطقوسية. وابتغاء فهم المواقف الشيعية فيما يتصل بالحجامة والتطهير أثناء شهر المحرم، من المهم الإصرار على تحديد اختلاف تحليلي بين الصحة (النظافة) والطهارة الطقوسية. فالقذارة النوعية (مثل الأتربة والأوساخ الناتجة عن العمل) لا تبطل الصلاة بعكس الافتقار إلى الطهارة الطقوسية التي تنتج. في سبيل المثال. من خروج الريح أو شرب الخمر، فهي تبطل الصلاة. وزيادة على ذلك، يسهم تحديد الاختلاف بين الطهارة والنظافة في توفير حيز للتفكير بشأن التعافي في خارج نطاق الأنموذج الطبي الغربي لصالح التركيز على مفهومات العلاج الطبي الإسلامية.

(٢) خلافاً لذلك، يرى حزب الله أن الدم الذي يفقده المطر هو دم ضائع مهذور، ولذلك يبين أن على الشيعة، بدلا من التطهير التبرع بالدم. انظر نورتن "الطقس والدم والهوية الشيعية: عاشوراء في النبطية، لبنان" ١٤٧-١٤٩.

الوحيد المتاح لهم، وبسبب العطش الذي كاد أن يفتك بـ (سُكَيْنَةَ) ابنة الحسين، غامر عنها العباس بالتوجه إلى داخل أرض العدو ليجلب لها الماء.

ولتوكيد الأثر المأساوي للقصة، تصر الملائية على أن العباس لم يشرب الماء حينما وصل إلى النهر على الرغم من شدة شعوره بالعطش: وهذا يعني أنه لن يشرب الماء ما دامت سُكَيْنَةُ عطشى، وقفل راجعاً إلى المعسكر وهو يحمل الماء، إلا أن العدو قطع عليه الطريق وهاجمه.

وأنشدت الملائية بعد ذلك قصيدة رثاء تصف فيها التفاصيل المروعة لحادثة قطع يد العباس اليمنى ثم اليسرى على يد جنود بني أمية، وكيف صاح العباس، ربّما للمرة الأولى والأخيرة في حياته على أخيه الحسين قائلاً: (يا أخي!) وتبعاً لذلك، يؤلف حديث عالية عن التطبير والمطيرين الذين لا يُصابون بالأذى حينما يمارسونه مقارنةً موجية بين المطيرين والعباس لجهة ولائهِ ورغبته في التضحية بنفسه وبدمه وتحمله الألم.

إن عملية وضع فعل "التطبير" جنباً إلى جنب مع "العباس" التي قامت بها عالية من شأنها أن تساعد في جمع بعض من العناصر التي قال عنها إسحاق نقاش: إنها نشأت في مجتمعين محليين. إذ كتب النقاش قائلاً: إن الشيعة الفرس هم أول من أدخل ممارسة التطبير إلى المراكز المقدسة في العراق، ولا سيما مرقد الحسين عليه السلام، ولهذا يعرف المطبرون بـ "محبّي الحسين" وزيادة على ذلك، بين النقاش أن مثل الذكورة الفارسية تبدو أكثر ارتباطاً بالحسين المعصوم (الأكثر تسامحاً) وأكثر تجسداً فيه من نظيرتها القبلية العراقية التي تقدّس العباس^(١). ومن خلال مقارنة العباس بالمطيرين، تجمع عالية معاً الرموز

(١) نقاش (شيعة العراق) ١٤٤-١٤٥.

والممارسات العراقية والإيرانية، متغلبةً بذلك على الاختلافات السياسية بفضل حب آل البيت والولاء لهم - حتى المعصومين منهم عصمةً صغرى أمثال السيِّدة زينب والعبَّاس.

قدَّمت "عالية" في ظهيرة اليوم التالي الذي كُرِّس لاستذكار عرس القاسم... قدَّمت مُحاضرةً عن الجوانب الفقهيَّة المتضمَّنة في التطبير^(١). وبدأت "عالية" التي وظَّفت المنهج الفقهيَّ البحثيَّ مُحاضرةً بفحص أصول الممارسة المُقرَّصة، فبيَّنت أنَّ السيِّدة زينب قد مارست التطبير برمح بعد رؤيتها رؤوس أفراد عائلتها المقطوعة مُعلَّقة على رؤوس الرماح؛ وعلى شاكلة السَّنة، يشتقُّ الشيعةُ الاثنا عشرُيون أحكامهم الفقهيَّة بشكلٍ رئيسٍ من القرآن؛ وبينما يعتمدُ السَّنة على الأحاديث النبويَّة مُصدراً ثانياً لهم، يميلُ الشيعةُ إلى توسيع نطاق هذه المصادر لتشتمل على أحاديث الأئمة المعصومين الأربعة عشر وأقوالهم، وهم: النبيُّ محمَّد، وابنته فاطمة، وزوجها عليُّ بن أبي طالب، ولولدهما الحسن والحسين، وتسعة أئمةٍ آخرون يتحدَّرون من سلالة الإمام الحسين عليهم السَّلام أجمعين^(٢).

وليسَتْ زينبُ معصومةً بحسب إحدى وجهات النظر المتشدِّدة، ولكنها، بوصفها أختَ الإمامين المعصومين الحسن والحسين، وابنةَ عليٍّ وفاطمةَ المعصومة، وحفيدة النبيِّ محمَّد، فإنَّها أقربُ ما تكونُ إلى العصمة بحكم الطَّبيعة

(١) ملاحظات حقلية، الاثنين، ٥ كانون الثاني عام ٢٠٠٩.

(٢) وهؤلاء التسعة الآخرون هم بحسب ترتيبهم الزماني: عليُّ بن الحسين زين العابدين. محمَّد بن عليٍّ الباقر. جعفر بن محمَّد الصادق. موسى بن جعفر الكاظم. عليُّ بن موسى الرضا. محمَّد بن عليٍّ الجواد. عليُّ بن محمَّد الهادي. الحسن بن عليٍّ العسكري. محمَّد بن الحسن المهدي المُتَظَر. (المقوم الغوي).

والتَّشْيِةُ^(١). وثُمَّ أَمْرٌ آخَرُ حَرَصَتْ "عَالِيَةُ" عَلَى لَفْتِ الْإِنْتِبَاهِ إِلَيْهِ، هُوَ أَنَّ الْإِمَامَ زَيْنَ الْعَابِدِينَ بْنَ عَلِيٍّ، كَانَ حَاضِرًا حِينَ مَا رَسَتْ عَمَّتُهُ زَيْنَبُ التَّطْيِيرِ، وَأَنَّهُ كَانَ لِيُخْبِرَهَا أَنْ تَكْفَ عَنْهُ إِذَا كَانَتْ الْمَارَسَةُ غَيْرَ مَقْبُولَةٍ لَهُ بِوَصْفِهِ إِمَامًا مَعْصُومًا، وَغَيْرَ مَقْبُولَةٍ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

حِينَمَا انْتَهَتْ عَالِيَةُ مِنَ الْإِقَاءِ مُحَاضَرَتِهَا، وَجَّهَتْ أُمُّ مُحْسِنِ الْمَسْؤُولَةِ عَنْ الْقِسْمِ النِّسَائِيِّ فِي الْحُوزَةِ السُّؤَالَ التَّالِيَّ: (هَلْ تَزَوَّجَ الْقَاسِمُ حَقًّا فِي كَرْبَلَاءَ، قَبْلَ الْمَعْرَكَةِ بِقَلِيلٍ، أَمْ لَا؟) ثُمَّ بَيَّنَتْ قَائِلَةً: (كَلَّا، لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ حَفْلٍ زَفَافٍ فِي كَرْبَلَاءَ، وَلَكِنْ رُؤْيَا زَفَافٍ ابْنِهَا هِيَ مَا تَرْغُبُ بِهِ كُلُّ أُمٍّ، وَلِهَذَا نَحْنُ نَرْغُبُ فِي تَحْقِيقِ أُمْنِيَّاتِ أُمِّ الْقَاسِمِ الَّتِي تَمْنَحُنَا بَرَكَاتِ آلِ الْبَيْتِ الْمَعْصُومِينَ). وَ "عَرَسُ الْقَاسِمِ" هُوَ حَدَثٌ كَرْنَفَالِيٌّ بِامْتِيَازٍ، لِأَنَّهُ يُحْتَفَى فِيهِ بِ (الْقَاسِمِ) وَفِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ يُحْزَنُ لِأَجْلِهِ؛ إِنَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَ الْأَصْدَادِ، فَيَجْعَلُهَا نَتِيجَةً لِدَلِكِ نَسَبِيَّةً.

يُجَلِّدُ هَذَا الطَّقْسُ وَفَاةَ الْقَاسِمِ. الْابْنِ الشَّابِّ لِلْإِمَامِ الثَّانِي الْحَسَنِ، الَّذِي أَرَادَ الْإِنْصِلَامَ إِلَى عَمِّهِ الْحُسَيْنِ فِي قِتَالِهِ ضِدَّ بَنِي أُمَيَّةَ، وَلَكِنَّ الْعَمَّ كَانَ مَتَرَدِّدًا فِي الْمَوْافَقَةِ؛ بِسَبَبِ صِغَرِ سِنِّ الْقَاسِمِ وَحَتْمِيَّةِ سَقُوطِهِ قِتْلًا فِي الْمَعْرَكَةِ. وَقَدْ كَانَ الْإِمَامُ الْحَسَنُ مُتَوَقِّفًا حِينَمَا تَوَجَّهَ الْحُسَيْنُ إِلَى كَرْبَلَاءَ، غَيْرَ أَنَّ الْوَدَّ وَالِدَتَهُ. وَفَقًّا لِلْقِصَّةِ. أَدْعَتْ أَنَّ الْحَسَنَ قَدْ أَنْبَأَهَا بِضُرُورَةِ إِرْسَالِ الْقَاسِمِ إِلَى الْمَعْرَكَةِ مَعَ عَمِّهِ الْحُسَيْنِ.

وَتَقْمَعُ النِّسَاءُ الشَّيْعِيَّاتُ دَوْرَ أُمِّ الْقَاسِمِ وَغَيْرِهَا مِنْ نِسَاءِ كَرْبَلَاءَ، وَيَرْتَبِطْنَ بِهِنَّ طُقُوسِيًّا مِنْ خِلَالِ إِقَامَةِ عَرَسِ الْقَاسِمِ. وَتَوَكَّدُ الْمَلَايَةُ فِي الْمَجْلِسِ عَلَى شَبَابِ الْقَاسِمِ وَضَعْفِهِ، وَعَدَمِ جَهُوزِيَّتِهِ لِحُوضِ الْمَعْرَكَةِ؛ وَزِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ،

(١) يَطْلُقُ الشَّيْرَازِيُّونَ عَلَى عَصْمَتِهَا: الْعَصْمَةُ الصَّغْرَى.

تقيم مجالس عزاء النساء عادةً عرساً "رمزياً" في الحوزات، أمثال الحوزة الزينية تشترك فيه امرأة أو اثنتان ترتديان العباءة السوداء وحجاب وجهه أخضر وأسود، ويظفن أرجاء الغرفة حاملات صواني الشموع، والبخور، والحناء التي يجري توزيعها في نهاية المجلس على النساء الحاضرات اللائي يعتقدن في أنها تحوز بركة آل البيت الذين أقيم المجلس لرائهم.

وتتميز التجاورات والفجوات الرمزية في هذه المناسبات بكونها كرنفالية في جوهرها. وتستند "عالية" في طرح حججها الفقهية إلى صمت أحد المعصومين. في إحدى الروايات أو السرديات التي تركز على السيدة زينب، المعصومة عصمة صغرى.^(١) وزيادة على ذلك، تتسم هذه الفجوات أو مناحي القصص^(٢) بكثرة التناقضات والتجاورات الكرنفالية التي تحيط بها: قصة فقد الأم طفلها، رغبتها المؤجلة دوماً بالمستحيل الذي لن يتحقق، بمعنى زواج ابنها؛ وأداء النساء الشيعيات التقمصي في "العرس الحزين" وهي تنافس في المفردات يرمز لحالة مستحيلة تشعر حيالها بالحزن، وتحتفي بها في الوقت ذاته.

في اليوم الثالث من قصة "عالية" ثلاثية الأجزاء، يُحبي الشيعة في التاسع من المحرم في مدينة السيدة زينب وفاة الرضيع "علي الأصغر".^(٣) ووفقاً لأدبيات السيرة الشيعية، فقد توفي علي الأصغر بسبب العطش الشديد

(١) قارن مع معاش (مشروعية الشعائر الحسينية) ١٧٧-١٧٨.

(٢) هي فجوات أو مناحي قصور من حيث إنها تقارب عادة، ولكنها لا تلبي قط معايير المصادقية المتفق عليها على وجه العموم. فالسيدة زينب. في سبيل المثال. ليست معصومة، والأحكام والآراء الفقهية لا تكون نافذة وملزمة إلا إذا كانت الأحاديث والأقوال التي تستند إليها تعود إلى الأئمة الأربعة عشر المعصومين. ويبين مؤيدو الخائمي. زيادة على ذلك. أن الحديث عن السيدة زينب والرمح هو حديث ضعيف، ولذا يفتقر إلى المصادقية.

(٣) ملحوظات حقلية، الثلاثاء، ٦ كانون الثاني عام ٢٠٠٩.

وجفافِ اللَّبَنِ (الحليب) في صَدْرِ أُمِّهِ. وتوضَّحُ المَلَايَةُ وتكرَّرُ على مَسَامِعِ
الحاضِرَاتِ حَادِثَةَ التَّمَاسِ الحُسَيْنِ مِنْ جَيْشِ أُمِّيَّةٍ تَزْوِيذُهُ بِالمَاءِ لِأَجْلِ الطِّفْلِ،
وَأَنَّهُ حِينَما حَاوَلَ الحُسَيْنُ الاقْتِرَابَ مِنَ النَّهْرِ، أَصَابَ جَيْشُ أُمِّيَّةِ الرِّضِيِّ بِسَهْمٍ
قَاتِلٍ. وَشَرَعَتْ المَلَايَةُ بَعْدَ سَرْدِهَا هَذِهِ التَّفَاصِيلَ وَإِنْشَادِهَا الْبَيْتَ التَّالِيَّ:

لَهْفَ نَفْسِي عَلَى الرِّضِيِّعِ الظَّامِي فَطَمَتُهُ السَّهَامُ قَبْلَ الْفِطَامِ
وَقَوْلَهَا: تَبَسَّمَ الرِّضِيُّعُ وَالسَّهْمُ يَخْتَرِقُ رَقَبَتَهُ ظَنًّا مِنْهُ أَنَّهُ سَيَشْرَبُ المَاءَ
أَخِيرًا... شَرَعَتْ فِي النَّحِبِ والبكاءِ.

وتروِي. فِي الحُسَيْنِيَّاتِ الْأَكْبَرِ مِثْلَ الزَّيْنَبِيَّةِ. امْرَأَةٌ تَحْمِلُ طِفْلاً حَقِيقِيًّا
وَتَرْتَدِي مَلَابِسَ الرِّجَالِ وَحِجَابًا أَيْضَ حَادِثَةَ مَقْتَلِ الطِّفْلِ الرِّضِيِّعِ؛ إِنَّهَا تُؤَدِّي
دَوْرَ الحُسَيْنِ وَهُوَ يَتَوَسَّلُ إِلَى جَيْشِ بَنِي أُمِّيَّةٍ لِيُخْلُوا السَّبِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ المَاءِ فِي
النَّهْرِ. وَعَلَى وَجْهِ الْعُمُومِ. تَقْدُمُ الحُسَيْنِيَّاتُ (عَلَى شَاكِلَةِ خِيَامِ الضِّيَافَةِ) الشَّيْ
إِلَى ضَيْفَاتِهَا اللَّائِي يَحْضُرْنَ مَجَالِسَ الْعِزَاءِ، وَتَحْصُلُ النِّسَاءُ الشَّيْعِيَّاتُ بِفَضْلِ
فِرَادَةِ هَذِهِ الْمُنَاسِبَةِ عَلَى حَلِيبِ سَاخِنٍ حَلَوِ الْمَذَاقِ (مُطْعَمٌ بِالْهَالِ أَوْ مِنْ دُونِهِ)
اسْتِذْكَاراً لِلطِّفْلِ الَّذِي مَاتَ عَطْشًا؛ وَثَمَّةٌ عَادَةً مُقْتَنِيَّاتٌ تَرَافِقُ إِحْيَاءَ ذِكْرِي
اسْتِشْهَادِ الطِّفْلِ الرِّضِيِّعِ أَمْثَالَ المِثْوَدِ الْمُعْطَاةِ بِقَطْعِ الْأَقْمِشَةِ الْخَضِرَاءِ، وَدُمَى
بِأَعْنَاقٍ نَازِفَةٍ، وَسَهَامٍ، وَمَحْطَى قَطْعِ الْقِمَاسِ الَّتِي تَغْطِي المِثْوَدَ بِأَهْمِيَّةٍ بَالِغَةٍ
خُصُوصاً لِلنِّسَاءِ الرَّاعِبَاتِ فِي نَذْرِ النَّذُورِ، إِذْ تَعْقُدُ الْوَاحِدَةَ مِنْهُنَّ طَرَفًا مِنْ قِطْعَةٍ
الْقِمَاسِ فِي كُلِّ مَرَّةٍ تَنْذُرُ فِيهَا نَذْرًا.

وَبَسَبَبِ حَرَصِ عَالِيَةٍ عَلَى سَرْدِ قِصَّةِ مَوْتِ الرِّضِيِّعِ الْمَاسَاوِيَّةِ وَرَبَطِهَا
بِالتَّطْبِيرِ؛ يُؤَلَّفُ حَدِيثُهَا عَنْ رُوحَانِيَّةِ التَّطْبِيرِ. عَمَلِيًّا. اثْنَيْنِ مِنَ السَّرْدِيَّاتِ

الإعجازية^(١) ووفقاً للسرد الأول، كان ثمة رجل يشارك دائماً في التطبير، وفي أحد الأعوام ألمَّ به مرضٌ شديدٌ، ولأنَّه كان يعلمُ بخطورة مرضه، عزمَ على عدم المشاركة في التطبير في ذلك العام، وبينما كان خارجَ بيته يشاهدُ المشاركين في موكبِ التطبير، فكَّرَ في الأمرِ مرَّةً أخرى؛ وتساءلَ في داخله: (هل ينبغي لي المشاركة في التطبير أم لا؟) وقرَّرَ أخيراً الخروجَ والمشاركة، وحينما شقَّ رأسه، تدفَّقَ الدَّمُ الأسودُ من الجرح، فسارعَ إلى المستشفى، وحسُنَ الحظُّ كانَ الطَّيِّبُ شيعياً! وبعدَ إجرائه الفحوصاتِ اللازمة، أخبره الطَّيِّبُ أنَّه كانَ محظوظاً؛ فلو لم يشارك في التطبيرِ وتدفَّقَ الدَّمُ خارجاً لكانَ مصيره الموت! وفي هذه الحالة، فإنَّ مشاركة الرجلِ في طقسِ التطبيرِ الدِّمويِّ قد أسهمَ على ما يبدو في إنقاذِ حياته.

ويمكنُ الاختلافُ بينَ وجهةِ النظرِ هذه ووجهةِ نظرِ حزبِ الله "المؤكِّدة والمُعظِّمة للحياة" في أنَّ حياةَ الرجلِ الذي اشترك في التطبيرِ هي مَنْ يجري إنقاذُها، وعوضاً عن ذلك، يشجِّعُ حزبُ الله المطبِّرينَ المحتمِلينَ على إنقاذِ حياة الآخرينَ مِنْ خلالِ التَّبَرُّعِ بالدَّمِ.

تدورُ قصَّةُ "عالية" الثانيةُ عَنَ أَحَدِ الصَّيْدَلَانِيَّينَ في مدينةِ الكوفةِ في العراقِ، إذ اعتادَ هذا الصَّيْدَلَانِيُّ في كُلِّ مَوْسَمٍ عَاشُوراءَ على بيعِ الدَّواءِ للمطبِّرينَ لمُعَالَجَةِ جروحِهِم؛ وفي أَحَدِ الأعوامِ توجَّهَ الأبُ في رحلةٍ إلى خارجِ البلادِ وكَلَّفَ ابنه أنَ يحلَّ محلَّه في إدارةِ الصَّيدليَّةِ، وأخبره قبلَ سَفَرِهِ عَنَ نوعِ

(١) من الجدير باللمحُ مُساواةِ عاليةِ بينِ الرُّوحانيَّةِ والإعجازيَّةِ. ومثلما برهنت في الفصل التَّالي الذي تناول "الشِّفاءَ المُستهكَّ"، تنطوي المُفردةُ العربيَّةُ "روحاني" على شاكِلةٍ المُفردةِ الإنكليزيَّةِ على معنى غامضٍ ملتبسٍ. إذ يشير كلاهما إلى تأثير السَّماويِّ أو البركة أو في الأقلِ القوى فوق الطَّبيعيَّةِ (إنَّما الجنُّ وإنَّما الملائكة).

المسحوق الأبيض الذي يبيعه للمطيرين. وحينما عاد الأب من رحلته، لحظ أن المسحوق المخصص للتطير ما زال كما هو؛ لم ينقص، فتحدث إلى ابنه وسأله: ألم يُع أي منه للمطيرين؟! فاعترف الابن بأنه باع المسحوق الخطأ، وعلى الرغم من ذلك، وبنحوٍ يثير الاستغراب والدهشة، عاد المطبؤون إليه في وقت متأخر من ذلك اليوم؛ وقالوا له: إنَّ مفعول المسحوق الذي أعطاهم إياه الابن كان أفضل من الذي تعودوا الحصول عليه من الأب!.

تقدّم "عالية" في مجلس العزاء الحديث عن قوى الشفاء الإعجازية التي يتمتع بها التطير - الجرح الذي يمنح الحياة للمطير - بالتزامن مع الحديث عن الموت المبكر للرضيع عبد الله... تقدّمها حديثين يمكن وصفهما كليهما بـ "غير العقلانيين" فهما بهذا المعنى إعجازيان. وزيادة على ذلك، يمتاز الفعلان كلاهما بكونهما متبادلين: ففي مقابل تضحية أحد أفراد آل البيت بحياته، يكتسب الموالون للطفل الرضيع وآله - أي الشيعة - الحياة والصحة، وهم يؤسسون بذلك للعلاقة بين الولي وأتباعه.

نذور المحرم:

لا تختلف التصورات الشعبية الشائعة بين الشيعة عن علاقتهم بالأئمة كثيراً عن الكُتبيات المؤدّة برسومات توضيحية التي توزّعها الكنائس المعمدانية وغيرها من الكنائس البروتستنتية. فوفقاً لهذه الكُتبيات، يمنح السيد المسيح أتباعه جميعاً "هدية مجانية" إنه يمنح موته بوصفه "خلاصاً"، ويُنظر إلى

فِعْلٍ "الموت" هنا بوصفه هدية يتعين على الأتباع قبولها؛ ويطلب أئمة الشيعة بنحو مماثل. بحسب أن بترج. من أتباعهم "الرد بالمثل وإرجاع الهدية".^(١)
يرتبط الشيعة الاثنا عشريون بعلاقات تبادل عاطفية قوية مع آل البيت، ويُعدُّ تقديم النذور إحدى الوسائل المهمة التي يتمكن الشيعة في مدينة السيِّدة زينب نساءً ورجالاً بوساطتها من إقامة العلاقات مع الأئمة وتعزيزها، غير أنَّ هذه النذور تختلف عن مفهومات التضحية والتكفير عن الذنوب (اليهودية . المسيحية) بسبب انطوائها على ما يُعرف بـ (المساومة والمقايضة) إذ يعدُّ الشيعيُّ في حالة النذر برعاية إحدى ممارسات التقوى أو المشاركة فيها مقابل تنفيذ رغبة محدَّدة له في هذا العالم أو تلبية حاجة؛ وبيَّنت "بترج" أنَّ النذر/ الهدية التي يقدمها الشيعيُّ مُقابل تحقيق رغبته هي هدية مثالية كونها تمثل احتفاءً بالتفاعل والعلاقة الناجحة بين المؤمن والإمام.^(٢)

وثمة أنواع مختلفة من النذور ينذرها الشيعة رجالاً ونساءً، ويأرسلونها، وقد ناقشنا سلفاً إقامة سفرة (وليمة) في الفصل السابق المعنون بـ (التقوى المؤثرة عاطفياً). وسناقش في هذا المبحث الفرعي الوفاء بالنذر زيادةً على ممارسة "قضاء الحوائج". وتعدُّ النساء . على وجه العموم في حال تحققت رغباتهنَّ بأنَّ يفعلن شيئاً محدَّداً، مثل إقامة مجلس عزاء أو تقديم بعض من الأشياء أو المعونات المالية في مجالس العزاء التي تقيمها نساء أخريات، حيث تعدُّ النساء الشيعيات في السيِّدة زينب مثلاً بإقامة مجلس عزاء في المحرم

(١) من الترتيبات الكنسية في عيد القيامة: المسيح قام من بين الأموات و وطئ الموت بالموت و وهب الحياة للذين في القبور. (المقوم اللغوي).

(٢) قارن مع أن بترج "تبادل الهدايا في إيران" ١٩٧-١٩٨ .

يستذكرن فيه عرس القاسم في حال تزوجت إحدى بناتهن، وإذا كانت المرأة قلقة بشأن الوضع الصحي أو الاقتصادي لأحد أبنائها، فقد تعد بإقامة مجلس عزاء مكرس لعبد الله الرضيع (علي الأصغر) أو في الأقل الإسهام في توزيع الحليب في مجالس العزاء في المحرم التي تُعقد تكريماً واستذكاً لابن الإمام الحسين.

وتشابه الأشياء التي يجري تبادلها في هذا النوع من النذور، وتتجاوز رمزياً في آن معاً! فإذا أرادت المرأة شفاء طفلها من مرض نزل به، فإنها تعد بتقديم الشيء الذي كان لينقذ عليها الأصغر، أي اللبن (الحليب). وبينت مي - إحدى النساء اللاتي تحدثت معهن - وهي شيعية عراقية مثقفة وكبيرة في السن تعيش في مدينة السيّد زينب... بينت في هذا الصدد أنها نذرت نذراً يخص أحد أبنائها في عام (٢٠٠٨ م).^(١) ولشعورها بالامتنان لتحقيق رغبتها، حرصت - على الرغم من الصعوبات الكثيرة التي واجهتها - على إحضار ثمان لترات من لبن (حليب) الأبقار الطازج من إحدى المزارع وأتت بها إلى مجلس عزاء خاص أقامته إحدى صديقاتها، حيث تأكدت من حصول الأطفال جميعاً (الذين يرمزون إلى علي الأصغر) على الحليب قبل نفاذه.

وحضور خاصية التشابه الرمزي بين رغبة المؤمن والهدية التي يعد بتقديمها قد لا تقع، بالضرورة؛ إذ يرجح أن تطلب النساء الشيعيات الكثير من الأشياء المتنوعة (ويشتمل ذلك على الشفاء من الأمراض، والزواج، والحمل، وسعة الرزق) حينما يعدن بإعداد شطائر "كف العباس" وتوزيعها. وتعد هذه الشطائر التي تختلف كمياتها بحسب عدد الأفراد الذين يتوقع توزيعها عليهم،

(١) ملحوظات حقليّة، الاثنين، ١٩ كانون الثاني عام ٢٠٠٩.

بين أرغفة خبز صاج محشوة بالبقدونس أو النعناع واللبن، وهي أحد الرموز الكرنفالية المميزة، إذ تدل هذه الشطيرة . عن طريق جعل كفي العباس المقطوعين قابلين للأكل . على حب العراقيين ولائهم لهذا الإمام^(١) ومثلما لحظنا في مثال السيّد مّي، لا تقدّم النساء الشّطائر إلّا إذا تحقّقت رغباتهنّ.^(٢) وتبعاً لذلك، فإنّ ممارسة نذر النذور، والتفاوض مع الأئمة، وإقامة مجالس العزاء أو الإسهام فيها يجعل من العزاء في شهر المحرم مشروعاً تشاركياً متواصلاً. وبداهة؛ تبقى بعض من الرغبات والوعود مؤجلة وغير متحقّقة، وفي حال عدم تحقّق الرّغبة، أي إذا لم يلبّ الإمام ما يترتب عليه، تكون صاحبة النذر غير ملزمة بتنفيذ الوعد الذي قطعتّه.

وتشبه الممارسة المعروفة بـ "فضاء الحاجة" النذر، ولكنها تختلف عنه مفهوماً. فبينما يمكن وصف نذر النذور بالمقايضة، تمكن مساواة "فضاء الحاجة" بالدفع المسبق، وبحسب ما بيّنته العلويّة أمّ حسين، إذا كانت المرأة ترغب بشدّة في الحمل مثلاً يتعيّن عليها تقديم الحليب، أو الأفضل إقامة مجلس عزاء باسم "علي الأصغر" في أقرب وقت ممكن.^(٤) وقد روت أمّ حسين كيف أنّها ساعدت إحدى الفتيات الراغبات في الزواج ولكنها لم تكن راضية عن الأشخاص الذين تقدّموا لخطبتها؛ كان ثمة عيب في شخص كل واحد منهم، ولهذا أقامت العلويّة مجلس عزاء - ارتدت فيه فستان عرس القاسم - إحياء

(١) نقاش (شيعية العراق) ١٤٣-١٤٨.

(٢) ملحوظات حقليّة، الأربعاء، ٢١ كانون الثاني عام ٢٠٠٩.

(٣) ويهر (قاموس اللغة العربيّة الحديثة) ٧٧١، ٢٢١.

(٤) ملحوظات حقليّة، السبت، في السابع من تشرين الأوّل عام ٢٠٠٩؛ قارن مع الموضوع ذاته، ملحوظات حقليّة، الاثنين، ٥ كانون الثاني عام ٢٠٠٩.

لذكرى هذا العرس (الذي لم يتم على نحوٍ فارقٍ) وفي غضون أسبوعين، ادّعت العلوية أنّ الفتاة قد خطبت. ويكمن الفرق في أحد المستويات بين "قضاء الحاجة" و "النذر" في الترتيب الذي تجري على وفقه الطقوس. ففي حالة النذر، يبقى جزء من الفعل الموعود (سواء إقامة مجلس أم المشاركة في تحمل تكاليفه أم إقامة سفرة) أو كله مؤجلاً حتى يتحقق الشيء المرغوب به (مثل الزواج أو النجاح في العمل أو الشفاء من مرض). أمّا في حالة قضاء الحاجة فينعكس هذا الترتيب، إذ تتفاوض النساء الشيعيات مع الأئمة عن طريق ممارسة نذر النذر؛ في حين يحاولن. بمعنى ما. في حالة "قضاء الحاجة" إجبارهم على تحقيق رغباتهن^(١). وعلى الرغم من ذلك، ثمة تشابه بين الممارستين من حيث أنّ الأتباع يقيمون علاقة متأرجحة مع إمام محدّد، لكن لا ينبغي لذلك أن يجعلنا ننسى الفجوة الهرميّة بين الشيعة والأئمة التي لا يمكن ردمها، وكذلك مخاطر الفشل والإخفاق، فهناك احتمال ألا تتحقّق الرغبة قطّ.

ووفقاً لأستاذ العلاقات الدوليّة والأنثروبولوجيا الأمريكيّ (أوغستوس ريتشارد نورتن . Augustus Richard Norton)، ثمة نساء

(١) وفقاً لتعريف رودى بارت، يمكن وصف هذه الممارسة بالسحر: "[Die] zwar unter Bezugnahme auf die offiziell geltende islamische Religion ausgeübt werden, die aber doch etwas anderes sind als blosse Frömmigkeitsübungem, weil sie nämlich der Erfüllung eines mehr (oder weniger egoistischen Zwecks dienen sollen."

رودى، مقتبس في ساين دوريمولر: (, Analyse, "Buch der probaten Mittel": kritische Edition und Übersetzung der Kitāb al-Muğarrabāt von Muhammad ibn Yūsuf as-Sanūsī (gest. um 895/1490) (Wiesbaden, Germany: Harrossowitz Verlag, 2005).

في لبنان يندرنَ النُّدُورَ ويعدنَ بالمُشارَكةِ في التَّطِيرِ إذا تَحَقَّقَتْ رَغَائِهُنَّ. ^(١) إِلَّا أَنِّي لَمْ أَقَابِلْ امْرَأَةً وَلَا رَجُلًا فِي مَدِينَةِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ نَذَرَ نَذْرًا مِثْلَ هَذَا. وَمِمَّا يَثِيرُ الْإِتْبَاهَ مَا كَتَبَهُ "دِفِيدُ بِنُو" عَنْ بَعْضِ مِنَ الرِّجَالِ فِي مَنَاطِقِ جَنُوبِ آسِيَا الَّتِي يَمَارُسُونَ أَشْكَالًا دُمُومِيَّةً مِنَ التَّطِيرِ طَلَبًا لِلْمَغْفِرَةِ لِرَكِبِهِم الصَّلَاةَ. ^(٢) وَيَبْدُو التَّطِيرُ فِي الْمِثَالِ الَّذِي أوردَهُ "بِنُو" شَبِيهًا بِـ "فَضَاءِ الْحَاجَةِ" بِاسْتِثْنَاءِ تَرْكِيزِهِ عَلَى الْخُلَاصِ فِي الْعَالَمِ الْآخِرِ بَدَلًا مِنْ تَحْقِيقِ الْمَعْجَزَاتِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا.

مَشَاهِدُ كَرْنَفَالِيَّةٍ:

لَحِظْتُ أَوَّلَ مُمَارَسَةِ تَطِيرِ حَيَّةٍ فِي عَاشُورَاءِ الَّذِي وَافَقَ كَانُونَ الثَّانِي عَامَ (٢٠٠٩ م) الْمَوَافِقِ عَامَ (١٤٣٠ هـ) إِذْ بَعْدَ صَلَاةِ الْفَجْرِ مَبَاشَرَةً فِي يَوْمِ عَاشُورَاءِ، يَشُقُّ الرِّجَالُ الشَّيْعَةُ جِهَاتٍ رُؤُوسِهِمْ بِسَيُوفٍ مُتَوَسِّطَةِ الطُّوْلِ. وَقَدْ قَضَيْتُ اللَّيْلَةَ فِي الْقِسْمِ النِّسَائِيِّ فِي الْحُوزَةِ الشَّيرَازِيَّةِ الَّتِي بَقِيَتْ مَفْتُوحَةً فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ فَحَسَبُ؛ أَتَحَدَّثُ مَعَ أُمِّ مُحَمَّدٍ، وَهِيَ طَالِبَةٌ فِي الْحُوزَةِ فِي مُتَتَصِفٍ الثَّلَاثِيَّاتِ مِنْ عَمْرِهَا مِنْ بَغْدَادَ وَأُمُّ لَثَلَاثَةِ أَطْفَالٍ.

عَمَلْتُ أُمُّ مُحَمَّدٍ فِي تَدْرِيسِ الْأَطْفَالِ فِي الْمَرْحَلَةِ الْإِبْتِدَائِيَّةِ قَبْلَ أَنْ تَتَزَوَّجَ وَقَبْلَ "السُّقُوطِ" (وَهِيَ الْمَفْرَدَةُ الَّتِي تَعُودُ الْعِرَاقِيُّونَ اسْتِخْدَامَهَا لَوْصِفِ مَا حَدَثَ فِي عَامِ (٢٠٠٣ م) أَيِ سَقُوطِ بَغْدَادَ، وَكَانَ زَوْجُهَا يَعْمَلُ فِي تَدْرِيسِ اللُّغَةِ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ كَذَلِكَ، وَهُوَ يَعْمَلُ حَالِيًا طَبَّاخًا! فِي حِينِ تَقْضِي هِيَ أَوْقَاتِ الصَّبَاحِ فِي الْحُوزَةِ وَأَوْقَاتِ الظَّهْرِ مَعَ أَوْلَادِهَا - أَحَدُهُمْ مُقْعَدٌ فِي عَجَلَةٍ

^(١) نورتن "الطقس والدم والهوية الشيعية: عاشوراء في النبطية، لبنان" ١٥١.

^(٢) ديفيد بنو "طقوس العزاء الشيعية وإعادة تفسير منهج الشفاعة: حالتان دراسيتان من الهند الحديثة" مجلة تاريخ الأديان ٣٨ العدد ٣ (١٩٩٩) ٢٩٧.

للمُعَاقِبِينَ. وَحِينَ أَخْبَرْتُهَا بِرَغْبَتِي فِي مُشَاهَدَةِ الْمَوَاقِبِ فِي الصَّبَاحِ سَأَلْتَنِي: هَلْ تَحْتَمِلِينَ مُشَاهَدَةَ مَا يَجْرِي فِي التَّطْيِيرِ؟. وَكَانَتْ قَلَقَةً بِشَأْنِ رَدِّ فِعْلِي عَلَى (التَّطَرُّفِ الْمَرْئِيِّ) الشَّاعِرِ فِي هَذَا "المشهد الكرنفالي".

وَلَيْسَتْ أُمُّ مُحَمَّدٍ الْوَحِيدَةُ الَّتِي تَشْعُرُ بِالْقَلَقِ حِيَالَ "التَّطَرُّفِ الْمَرْئِيِّ" أَوْ "المشهد الغروتسكي" الَّذِي يُمَثِّلُهُ التَّطْيِيرُ، فَآيَةُ اللَّهِ الْخَامِثِيَّةُ. مَثَلًا. يَحْرُمُ التَّطْيِيرُ هَذَا السَّبَبَ مُحْدِدًا،^(١) وَقَدْ أَسْبَغَ تَحْرِيمُهُ هَذَا مُصْداقِيَّةً عَلَى النَّظَرِيَّةِ الَّتِي وَضَعَهَا عَدَدٌ مِنَ الْبَاحِثِينَ الَّتِي تَقُولُ: إِنَّ الْمَرْئِيَّ / الْبَصْرِيَّ قَدْ أَضْحَى الْحَاسَةَ الْمُفْضَلَةَ لَدَيْنَا فِي الْقَرْنَيْنِ الْأَخِيرَيْنِ.^(٢) وَتَبَعًا لِذَلِكَ، لَيْسَ مَفَاجِئًا أَنْ يَسْهَمَ التَّوَكِيدُ "الْحَدَاثِي" عَلَى تَمَثُّلَاتِ الْهَوِيَّةِ. الْمَرْئِيَّةِ مُحْدِدًا - فِي جَعْلِ مَوَاقِبِ التَّطْيِيرِ (إِلَى جَانِبِ الزَّوْجِ الْمُؤَقَّتِ / الْمُتَعَةِ) أَحَدَ أَكْثَرِ الْمَوْضُوعَاتِ الْمُثِيرَةِ لِلجَدَلِ فِي الْمَذْهَبِ الشَّيْعِيِّ الْاِثْنِي عَشَرِيِّ، وَكَذَلِكَ حَوْلَهُ. وَبَسَبِّ تَحْوُلِ الْمَرْئِيِّ إِلَى الْحَاسَةِ الْأَكْثَرِ هَيْمَنَةً بَيْنَ الْحَوَاسِّ، يُلْحِظُ تَصَدُّرُ مَا يَجْرِي فِي هَذِهِ الْمَوَاقِبِ وَالطُّقُوسِ الْآخَرَى الْمُؤَثِّرَةِ بَصْرِيًّا وَاجْهَةً السَّجَالَاتِ وَالنَّقَاشَاتِ وَانْقِسَامُ الْأَرَاءِ بِشَأْنِهَا بَيْنَ مُؤَيِّدِ مَدَافِعٍ وَمُعَارِضٍ مُنَدِّدٍ، وَلِكُلِّ طَرَفٍ حُجُجُهُ وَفِكْرُهُ الَّتِي يَسُوقُهَا.^(٣)

إِنَّ هَذَا التَّوَكِيدَ عَلَى الْبَصْرِيِّ - مُحْدِدًا - هُوَ الَّذِي قَادَنِي إِلَى التَّفَكِيرِ بِالنَّظَرِيَّاتِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالصُّورِ الْغروتسكِيَّةِ. وَقَدْ لَحِظْتُ، فِي هَذَا السِّيَاقِ، اعْتِمَادَ الْأَدَبِيَّاتِ الْأَكَادِيمِيَّةِ الْمُتَوَفَّرَةِ فِي وَصْفِهَا وَتَنَاوُلِهَا لَطُّقُوسِ الْحَرَمِ الشَّيْعِيِّ عَلَى

(١) قَارَنَ مَعَ الشَّمْرِيِّ (أَخْبَارُ الْفَقِيرِ فِي حَرَمَةِ التَّطْيِيرِ) ٥٣.

(٢) قَارَنَ مَعَ دِيْبُورْد (مَجْتَمَعُ الْمَشْهَدِ)؛ هِيرْشْكَايْنْد، (الْمَنْظَرُ الصُّوْقِيُّ الْأَخْلَاقِيُّ).

(٣) انْظُرْ فِي سَبِيلِ الْمَثَالِ الْعَدَدَ الْكَبِيرَ مِنَ الْأَعْمَالِ الْمُؤَلَّفَةِ عَنْ عَرُوضِ التَّعْزِيَةِ الْأَدَابِيَّةِ. قَارَنَ مَعَ جَلُوسْكَي (التَّعْزِيَةُ: الطُّقُوسُ وَالْمَسْرَحُ فِي إِيرَانَ).

مَفْهُومَيْنِ أَسَاسَيْنِ هُمَا "الكرنفال" ^(١) و "المشهد" ^(٢) وعلى الرُّغمُ مِنْ ذَلِكَ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَجِرْ تَحْلِيلُ هَذِهِ الطُّقُوسِ مِنْ مَنظُورِ هَذَيْنِ المَفْهُومَيْنِ سِوَى فِي عِدَدٍ قَلِيلٍ مِنَ الدَّرَاسَاتِ عَنِ طُقُوسِ المَحَرَّمِ التَّوْفِيقِيَّةِ فِي مَنطَقَةِ الكَارِييِّ ^(٣). وَيتَعَيَّنُ لِهَذَا السَّبَبِ التَّمْيِيزُ بَيْنَ مَفْهُومَي "الكرنفال" و "المشهد" لِأَنَّهُمَا يُمَثِّلَانِ سَلَالَتِ نَظَرِيَّةٍ مُنْفَصِلَةٍ.

يَرَى "بَاخْتِن" أَنَّ الفَرْقَ الرَّئِيسَ بَيْنَ "الكرنفال" و "المشهد" هُوَ الِافتِقَارُ إِلَى المُشَاهِدِينَ "الْمُنْفَعِلِينَ" فِي الأَوَّلِ. (الكرنفالُ لَيْسَ مُشْهَدًا يَشَاهِدُهُ النَّاسُ؛ بَلْ إِيَّاهُمْ يَعِيشُونَهُ، وَيُشَارِكُ الكُلَّ فِيهِ لِأَنَّ فِكْرَتَهُ فِي جَوْهَرِهَا تَحْتَضِنُ النَّاسَ كَافَّةً وَتُسْتَوْعِبُهُمْ) ^(٤) وَيُؤَكِّدُ الكَرْنِفَالُ عَلَى المُجْتَمَعِ المَحَلِّيِّ. وَيَقُولُ "بَاخْتِن" عَنْهُ: (إِنَّهُ يَنْمِي مَوْقِفًا حَيَالِ العَالَمِ يَحَرَّرُ مِنَ الخَوْفِ، وَيَقْرُبُ العَالَمَ إِلَى الإنسانِ وَالإنسَانِ إِلَى أَخِيهِ). ^(٥) إِنَّهُ يَقِفُ بِالضَّدِّ مِنَ الكَآبَةِ، وَمِنَ الصَّرَامَةِ، وَالجَدِّيَّةِ

(١) آفَارِي وَاندرسن "فوكو والثورة الإيرانية"؛ فِيرِنَا (ضِيُوفُ الشَّيْخِ)؛ كُورُوم (الهُوسِي فِي تَرِينْدَاد)؛ نِقَاشُ (شِيعَةِ العِرَاق)؛ نُورْتِن "الطُّقُوسُ، وَالدَّمُ، وَالهَوِيَّةُ الشَّيْبَعِيَّةُ: عَاشُورَاءُ فِي النُّبْطَةِ"؛ بِينُو (حِصَانُ كَرْبَلَاءَ)؛ شُوبِل (العُرُوضُ الأدَائِيَّةُ الدِّينِيَّةُ فِي الإِسْلَامِ المَعَاوِرِ)؛ ثَيْس "طُقُوسُ المَحَرَّمِ وَالكَرْنِفَالُ فِي تَرِينْدَاد".

(٢) أَيْنْدُ "الصَّرْبُ بِالزَّنَاجِيلِ فِي المَحَرَّمِ" ٢٠؛ مِيرْفَن "عَاشُورَاءُ" ١٤٢.

(٣) كُورُوم "الهُوسِي فِي تَرِينْدَاد"؛ ثَيْس "طُقُوسُ المَحَرَّمِ وَالكَرْنِفَالُ فِي تَرِينْدَاد"؛ فِرَانَكُ كُورُوم وَبِيْتَرُ جُلُوسْكِي "التَّوَاغُلُ المُجْتَمَعِي وَأَدَاءُ طُقُوسِ المَحَرَّمِ فِي تَرِينْدَاد"؛ "دُورِيَّةُ الدَّرَامَا ٣٨، العِدَدُ ٢ (١٩٩٤) ١٥٠-١٧٥.

(٤) بَاخْتِن (رُوبَالِيَّةٌ وَعَالِمَةٌ) تَرْجُمَةُ هِيلِينِ أَيْسُولْسْكِي (بَلُومَنْغُوتُون: جَامِعَةُ أُنْدِيَانَا، عَامَ ١٩٨٤) ٧.

(٥) بَاخْتِن (مَشْكَالَاتُ فِي شَعْرِيَّةِ دِيَسْتُوفْسْكِي) تَرْجُمَةُ أُر. دَبْلِيُو. رُوتْسِل (آن آرْبُور، مَشِيغَان: أَرْدِيَس، عَامَ ١٩٧٣) ١٣٣.

الرَّسْمِيَّةَ أَحَادِيَّةِ الْجَانِبِ الَّتِي تُؤَلَّدُ مِنَ الْخَوْفِ، وَالتَّزَمَّتْ، وَمُعَادَاةِ الْارْتِقَاءِ وَالتَّغْيِيرِ، وَهُوَ يَرْمِي إِلَى جَعْلِ ظُرُوفِ الْوُجُودِ وَالنِّظَامِ الْاجْتِمَاعِيِّ مُطْلَقَيْنِ).^(١) ويشبهُ مَفْهُومُ "بَاخْتَيْنِ" الْكَرْنَفَالِيَّ مَفْهُومَ "الْوُقُوفِ بِعَتْبَةِ الشُّعُورِ"^(٢) الَّذِي وَضَعَهُ "فَكْتُور تِيرْنر" فِي تَوْكِيدِهِ عَلَى الْغُمُوضِ، وَوُقُوفِهِ بِالضَّدِّ مِنَ الْبِنِيَّةِ الرَّسْمِيَّةِ وَتَحْدِيدِهِ لَهَا. وَيَجِدُ التَّارَجُحُ الَّذِي يَمِيزُ كَلًّا مِنْ "الْوُقُوفِ بِعَتْبَةِ الشُّعُورِ" التَّيْرَنْرِيَّةِ وَ "الْكَرْنَفَالِ" الْبَاخْتَيْنِيَّ تَعْبِيرًا لَهُ فِي مُتَمَارَسَاتِ الْمُحَرَّمِ الشَّيْعِيَّةِ أَمْثَالِ ثَنَائِيَّةِ الْعِزَاءِ / الْإِحْتِفَالِ فِي عَرَسِ الْقَاسِمِ وَاسْتَشْهَادِهِ؛^(٣) وَعَلَى الرُّغْمِ مِنْ ذَلِكَ، وَبَيْنَمَا يَشَبْهُ مَفْهُومُ "تِيرْنر" الْجَانِبَ الْكَرْنَفَالِيَّ، إِلَّا أَنَّهُ يَفْتَقِرُ إِلَى تَرْكِيزِ الْأَخِيرِ عَلَى "الْبَصْرِيِّ" الَّذِي مَثَلًا نَوَهَتْ. أَعْلَاهُ يُعَدُّ حَاسِمًا لِعَمَلِيَّةِ التَّفَكِيرِ فِي مَوَاقِبِ التَّطْبِيرِ الدَّمَوِيَّةِ وَالسَّجَالَاتِ الْمُقْتَرِنَةِ بِهَا فِي مَنَاطِقِ الشَّرْقِ عَلَى وَجْهِ الْعُمُومِ [وَبَلَادِ الشَّامِ خُصُوصًا].

(١) المصدر ذاته.

(٢) الْمَقْصُودُ بِـ "الْوُقُوفِ بِعَتْبَةِ الشُّعُورِ" (liminality) وَفَقَ تَعْرِيفِ سِيمُورِ سَمِيْثِ هُوَ التَّالِي: حَسَبَ نَظَرِيَّةِ "طَقُوسِ الْعُبُورِ" لَارْنُولْد فَاَنْ جَنْبِ، الَّتِي تَمَّ تَطْوِيرُهَا بِصُورَةٍ مُكثَّفَةٍ فِي الدِّرَاسَاتِ الْأَنْثُرُوبُولُوجِيَّةِ لِلطَّقُوسِ؛ يُشَارُ إِلَى أَحَدِ مَرَاكِلِ طَقُوسِ الْعُبُورِ بِمَرَحَلَةِ "الْوُقُوفِ عَلَى عَتْبَةِ الشُّعُورِ" حَيْثُ يُنْظَرُ إِلَى الشَّخْصِ الَّذِي جَرَى تَكْرِيسُهُ بِاعْتِبَارِهِ يَقِفُ فِي هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ فِي حَالَةٍ خَاصَّةٍ بِمَعْزَلٍ عَنِ الْمَجْتَمَعِ وَالْحَيَاةِ الْعَادِيَّةِ، وَهِيَ مَرَحَلَةٌ يُنْظَرُ إِلَيْهَا بِاعْتِبَارِهَا مُقَدَّسَةً وَخَطِيرَةً مِنَ النَّاحِيَةِ الطَّقُوسِيَّةِ حَيْثُ يَتَعَرَّضُ فِيهَا الْفَرْدُ لِفَقْدِ الْقَدَاسَةِ أَوْ "التَّدْنِيسِ". رَاجِعِ شَارْلُوتِ سِيمُورِ سَمِيْثِ، مَوْسُوعَةُ عِلْمِ الْإِنْسَانِ: الْمَفْهُومَاتُ وَالْمُصْطَلَحَاتُ، عَامَ ١٩٨٩. تَرْجُمَةُ مَجْمُوعَةٍ مِنْ أَسَاتِذَةِ عِلْمِ الْاجْتِمَاعِ بِإِشْرَافِ مُحَمَّدِ الْجُوْهَرِيِّ، الْمَرْكَزُ الْقَوْمِيَّ لِلتَّرْجُمَةِ، عَامَ ٢٠٠٩، ص ٥٦٢؛ رَاجِعِ كَذَلِكَ تَعْرِيفًا آخَرَ تَقَدَّمَ بِهِ الْكَاتِبُ الْمَصْرِيُّ سَامِي خَشْبَةَ الَّذِي أَطْلَقَ عَلَى "الْوُقُوفِ بِعَتْبَةِ الشُّعُورِ" تَسْمِيَةَ "الْوَسْطِ الْمَرْحَلِيِّ". سَامِي خَشْبَةَ، مُصْطَلَحَاتُ الْفِكْرِ الْحَدِيثِ، عَامَ ٢٠٠٦، ص ٢٥١-٢٥٣. (الْمَرْجُوعَةُ).

(٣) اسْتِخْدَامُ شُوبِلِ بِنَحْوِ مَثَمَرِ مَفْهُومِ (الْوُقُوفِ بِعَتْبَةِ الشُّعُورِ) لِتِيرْنرِ فِي تَحْلِيلِهِ مُتَمَارَسَةِ التَّطْبِيرِ الطَّقُوسِيَّةِ فِي جَنْوُبِ آسِيَا. قَارِنْ مَعَ شُوبِلِ (الْعُرُوضُ الْأَدَائِيَّةُ الدِّينِيَّةُ فِي الْإِسْلَامِ الْمَعَاوِرِ).

وثمة فكرة طرحتها "ميشيل فوكو" تتصل اتصالاً مباشراً بما قيل أعلاه، إذ بين "فوكو" أن "المشهد" كان ذا طابع أكثر "كرنفالية" حتى مطلع القرن التاسع عشر، واختار من بين المشاهد الكثيرة التي كانت شائعة آنذاك مشهد "الإعدام" في أوروبا القرن التاسع عشر الذي كان يحوز - بحسب فوكو - على (محتوى كرنفالي متكامل، تُقَلَّبُ فيه القواعد، وتجري فيه السخرية من السلطة ويتحوّل فيه المجرمون إلى أبطال)^(١) وأردف "فوكو" قائلاً: (كان مشهد الإعدام العلني يتيح الفرصة لأداء أفعال (ساتورية)^(٢) مؤقتة، في ظروف ليس ثمة فيها شيء ممنوع فعله؛ أو تجري المعاقبة عليه. ويمكن للمجرم تحت حماية الموت المتوقع الوشيك، أن يقول كل شيء، ويمكن للمتفرجين أن يهتفوا).^(٣) ثم طرأ تغيير هائل على هذا المشهد حيث تحوّل في مطلع القرن التاسع عشر إلى إجراءات انضباطية صارمة في السجون، وتصاميم معمارية أمثال مبنى "بانوبتكون البشامي"^(٤) الذي صمّم "ليجعل نزيل السجن يعيش في حالة من المريبة الدائمة والواعية التي تخدم غرض توكيد الطابع الآلي لعمل السلطة).^(٥)

(١) فكه (المأقفة والمعاقة) ٦١.

(٢) عبد الآله ساته، عند الآمان، هه مقنة بالعبدة واللص، الصخب؛ احتفالات قديمة كانت تُقام سنوياً لآله ساته، ذال الحصاد. كانت الاحتفالات تبدأ في الساعة عشر من كانه ذال الأهل، وتستمر به من ذال، لكنما أصبحت تمتد فبالعدال أسبوعاً، ذال نشأت أصلاً عن كليات شك كانت تُدّ في الاحتفال، بذك ذال، ذال الشبهة. بهمه، السنن؛ فقدت أهميتها ذال، اعته وأصبحت مناسبة للاحتفالات العامة. حدّ ذال العبد كانا يُمنح ذال حبة مُقّة لفعلها ما حله لهم مدة العبد، كانت تُقام في عبد الآله ساته، ذال الالائه ذالبات، هتمنح الهدايا والعطايا. ومن الهدايا المعروفة في هذه المناسبة الشموع وتماثيل الطين الصغيرة. (الترجمة).

(٣) المصدر ذاته، ٦٠.

(٤) تتألف مُفردة بانوبتكون (panopticon) من مقطعين هما (pan) تعني (الكل) و (opticon) وتعني (المراقبة) أي إنها تعني (مراقبة الكل أو المراقبة الشاملة). والبانوبتكون هو نوع من السجون قام بتصميمه الفيلسوف الإنكليزي والمنظر

عمل "جي ديورد" في تطوير خط "فوكو" الفكري وواصل دراسة "المشهد" في أواخر القرن العشرين، حيث ظهر مرة أخرى بأشكال جديدة، إذ لم يعد المشهد. وفقاً لديورد (يمثل مجموعة من الصور؛ بل إنه أضحي بالأحرى علاقة اجتماعية بين الناس، تخدم الصور فيها غرض التوسط بينهم).^(٢) وقد وصف "ديورد" المجتمع الرأسمالي المتأخر الذي لم يعد يمتلك مجتمعاً محلياً، ولا يرتبط الأفراد فيه (سوى بعلاقة أحادية بالمركز ذاته الذي يحافظ على عزلة بعضهم عن بعض. ولهذا، فإن المشهد يوحد ما كان منفصلاً، ولكنه يوحد في حالة انفصاله وتشتيه فحسب).^(٣) وبقول موجز: أضحي المشهد أكثر تمايزاً. مفهوماتياً. من الكرنفال؛ لقد تحول إلى جزء من ذخيرة السلطة الضابطة، وأضحت فكرة الكرنفال مرتبطة بنحو رئيس بقلب بني السلطة وجعلها نسبية.

الاجتماعي جيرمي بنثام عام ١٧٨٥، حيث يسمح لمراقب واحد بمراقبة السجناء جميعاً من دون أن تكون لهم القدرة على معرفة ما إذا كانوا مراقبين أم لا، وهو يرمز إلى القوى غير المرئية. والبانوبتكون هو بناية أسطوانية، يتوسطها فناء فيه برج بنوافذ ذات فتحات واسعة تطل على غرف موجودة في البناية. عرض كل غرفة منها يساوي عرض البناية، ولها نافذتان واحدة داخلية تطل على البرج الموجود في الفناء، والأخرى خارجية تسمح بدخول ضوء الشمس. ويمكن بهذه الطريقة لفرد واحد في البرج أن يراقب السجناء الموجودين في الغرف جميعاً. وبهذا المعنى أضحي السجن أنموذجاً رمزياً لمؤسسات الضبط في القرن التاسع عشر جميعاً من مصانع، ومدارس، وثكنات، ومستشفيات؛ إلى آخره - التي وظيفتها الأساسية إنتاج أفراد خنوعين وطيعين. وبماثل البانوبتكون، لجهة الوظيفة التي يؤديها عملية المراقبة الاجتماعية الحديثة التي تخدم غرض مراقبة المجتمع ككل، لا بل إنها تجعل المجتمع رقيقاً على ذاته على الرغم من أنها لم تعد حبيسة المؤسسات وأسوارها. (المترجمة).

(١) المصدر ذاته، ٢٠١.

(٢) ديورد، مجتمع المشهد، ١٢-١٣.

(٣) المصدر ذاته، ٢٢.

واستناداً إلى مفهومي "الكرنفال" و "المشهد" يبيّن التحليل التالي كيف تتحدّى طقوس شهر المحرم الحكمة المقبولة فيما يتصل بـ "نموذج كربلاء" التي تقول: إنّ ممارسات هذا الشهر هي إمّا ممارسات "مهادنة" سياسياً (وخلاصيّة) وإمّا "ثوريّة" (١) إلا أنّ المشكلة مع هذه الثنائيات، تكمن في اختزالها (ممارسات عاشوراء وخطاباته) كافّة أمثال تلك التي في مدينة السيّدّة زينب إلى محض صفات محدّدة فحسب: "لاسياسي" "مهادين" "خلاصي" وغيرها؛ بداهة لأنهم لم يثوروا بنحو ناجح وعلنيّ ضدّ الحكومة السّوريّة. وبفضل التركيز على مفهومي "الكرنفال" و "المشهد" - عوضاً عن الاكتفاء بالاعتماد على هذه الصفات - أصبح ممكناً تجاوز تقسيم نموذج كربلاء وتحليل العلاقات بين المؤدّين وجمهورهم.

التّقوى المنتهكة والغروتسك:

انتقد "مايكل توسيغ" في مقالته عن "الانتهاك والتّجاوز" زميله فكتور تيرنر لطمسيه (الخصائص الأيروسيّة، (٢) والمبتدلة، والسّاديّة، والقاسيّة، والفاحشة، والمنحلة) عند دراسته طور الوقوف بعتبة الشّعور في الطّقس، (٣) وكتب عن كرنفال باختين مبيّناً: (صوّنت العناصر العاطفة للقلب والمثيرة للشفقة التي لازمت حقبة الحرب الباردة أن "رسالة" باختين التي ترجمت بعد ذلك بعقود إلى اللغة الإنكليزيّة، سيجري تطويرها وتشذيبها في التأمّلات

(١) قارن مع آغاخي (شهداء كربلاء)؛ ديب (الحداثي المأسور).

(٢) الأيروسيّة نسبة إلى الإله (أيروس) إله الحب والرغبة والجنس في الميثولوجيا اليونانيّة. (المقوم اللغوي).

(٣) توسيغ (قبر والتر بنيامين) ١٥٩.

البحيثة عَنْ الضَّحْك ؛ في حينِ سيقى رعبُ الكولاك^(١) غيرَ مدروسٍ بوصفه علامةٌ تدلُّ على الانتهاكِ بأسلوبٍ لا يقلُّ وضوحاً مِنْ دلالةِ الكرنفالِ عليه). (٢)

وبالإمكانِ . بسهولةٍ . تطبيقُ نقدِ "توسيع" على دراسةِ الطُّقوسِ الشَّيعيةِ كذلك، إذ لم يبدل "فيرنون شو بل" (١٩٩٣ م) و "ديفيد بينو" (٢٠٠١ م) - على الرغمِ مِنْ تناوُلِهِمَا طُقوسَ التَّطهيرِ الدَّمويَّةِ في دراساتهم . لم يبدلَا جهداً في التَّنْظيرِ لفعلِ الانتهاكِ بحدِّ ذاته، بل ركَّزَا على الإحساسِ بـ (الكميونتاس) الأَخويِّ الذي يفترضُ بالطُّقوسِ الإِسْهَامَ في خلقِهِ. (٣)

(١) گولاك (gulag) (أو مُعتقل سيبيريا): هو الاسم الذي كان يُطلق على مُعسكرات الاعتقال في الحقبة السوفيتية. يرجع تاريخ هذا المُعتقل إلى عام ١٩١٨، أي بعد عام واحد من قيام الثورة البلشفية التي تزعمها فلاديمير لينين (١٨٧٠-١٩٢٤)، ولكنه صار معلماً من معالم عصر جوزيف ستالين (١٨٧٨-١٩٥٣) الدُموي. كان هذا المُعتقل في عهده عبارة عن مُعسكرات للعمل الإلزامي والسَّخرة، وتعرَّضَ العاملون فيه إلى مختلف أنواع القمع والتَّكْييل، وكان مُعداً لانتهاك حقوق الإنسان جميعها. ويُقدَّر عدد ضحاياه في عهد ستالين (حكم للمدة من ١٩٢٩-١٩٥٣) بلغ نحواً من ثمانية عشر مليوناً سوفيتي سقط منهم قتيلاً نحو من خمسة ملايين شخص. (المترجمة).

(٢) المصدر ذاته، ١٦٠.

(٣) تنصب الحوزات، والحسينيات، والنقابات، والمنظمات الخيام حيث يوزَّع الشَّباب صغار السنَّ الشَّاي، والماء، والقهوة، والعصائر، والقيمة والرَّز. وتبعاً لذلك، تسهم طقوس المُحرَّم في توحيد جهود الشيعة وخلق الكميونتاس - ولكنَّ الالفت للانتباه، أنَّها تنمِّي روح التنافس بين الجماعات المختلفة، وقد تؤدِّي في بعض من الأحيان إلى العنف.

انظر كذلك: آغاي (شهداء كربلاء)؛ خوان كول (جذور المذهب الشَّيعي الهندي الشَّمالِي في إيران والعراق) (لوس انجلس: جامعة كاليفورنيا، عام ١٩٨٤)؛ فاروق - سلاغيت (لوس انجلس، العراق منذ عام ١٩٥٨)؛ حسين "عزاء التَّاريخ وتاريخ العزاء"؛ فالج عبد الجبار (الحركة الشَّيعية في العراق) (لندن: دار السَّاقِي، عام ٢٠٠٣)؛ نكي كدي (جذور الثورة) (نيوهافن، كاليفورنيا: جامعة ييل، عام ١٩٨١)؛ لوير (السياسات الشَّيعية العابرة للقوميات)؛ نقاش (شيعة العراق).

وسأحاول تطوير هذا التصور الروماني ل (الكوميونتاس) من خلال النظر لا إلى العرض الأدائي فحسب، بل إلى ردود الأفعال المتنوعة حيال مشاهد التطهير الدموي الغروتسكية كذلك. وزيادة على ذلك، سأدرس "التقوى المتهكّة" من خلال التركيز على جوانب الندب الجسدية من جانب، والتفكير بشأن مسألة "الإفراط والتجاوز" والشك (أكثر منه الإيمان) الذي تسفر عنه. وبسبب مناقشتنا المسبقة لجوانب الكرنفال "السوقية" - نسبة إلى السوق و "الوليمائية" سأنقل في المقاطع التالية إلى مناقشة عناصر "الغروتسك" والدموي، والجسدي خصوصاً في أشكاله المرئية - المشهدية في واقع الأمر - التي تبدى واضحة للعيان في مَوَاقب التطهير الدمويّة.

وكما في كرنفال "باختين" يتصدّر الجسم، وسوائله (الدم والمني)، وتجاوز حدوده المشهد العام في موسم عاشوراء،^(١) وهذا ما لحظته في صباح اليوم العاشر من شهر المحرم، فبعد شروق الشمس بقليل، انتظمت صفوف متوازية من رجال يرتدون دُشَادِيش في الحوزات والحسينيات (باستثناء حوزة الإمام الخميني بالتأكيد). يسير هؤلاء الرجال جماعياً جنوباً على طول الجانب الشرقي من المرقد، ويستمرّون بالسير حول جدرانهم متجهين نحو البوابة الجنوبية، التي يبقون أمامها بضع لحظات ثم يعودون سالكين الطريق ذاتها. ويحيط المطبّرون الذين يستديرون بأجسامهم بالموكب من الجوانب في حين يعلن آخرون عنه

(١) في إحدى المحاضرات عن التطهير قبل عاشوراء بقليل في عام ٢٠٠٩، بينت الملاية في الحوزة الزينية أن التطهير يمثل عملياً شكلاً من أشكال حجامة الرأس. وتعدّ الحجامة - حيث يُشق الجلد لترك الدم الفاسد ينساب في كأس مُسخّن سلفاً لممارسة طبّية يفترض أن النبي محمداً قد صادق عليها. وزيادة على ذلك، ما زلت الحجامة رائجة في مدينة السيدة زينب وبها رسيها "الأطباء الروحانيون" (أي السحرة). ملحوظات حقلية، الأحد، ٤ كانون الثاني عام ٢٠٠٩.

بَضْرِبِ الطَّبُولِ وعزفِ الأبواقِ التي تحاكي المعركة (معركة الطَّفِّ في كربلاء) وفقاً لآية الله محمد الشيرازي،^(١) وترمزُ للجنس وفقاً لباختين.^(٢)

ويحملُ بعضُ مِنَ المطبَّرينَ سيوفَهُمُ الخاصَّةَ أثناء سيرِهِم، ويضربُونَ مُقَدِّمَاتِ رُؤُوسِهِمُ التي حُلِقَتْ حديثاً بالحافَّةِ الكليَّةِ استعداداً للتَّطْيِيرِ، ثُمَّ يجرُحُ المطبَّرونَ الأكبرُ سناً وذوُ الخبرة أنفُسَهُمُ بينما يَدْعُ مطبَّرونَ آخرونَ المطبَّرينَ الأكثرَ خبرةً مِنْهُمُ يضربُونَ رُؤُوسَهُمُ مرَّةً أو مرَّتَيْنِ، وَهُمُ يفعلُونَ ذلكَ أثناء توقُّفِ الموكبِ - الذي يتكرَّرُ كلَّ خمسينَ متراً - عَنِ الحركةِ مدَّةَ دقيقتَيْنِ. ويبرزُ المطبَّرونَ. مَرَّتَيْنِ - بدشاديشِهِمُ البيضاءِ المُلَطَّخَةَ بالدمِ بينَ حشودِ الشَّيعةِ المعزِّينَ الذينَ يرتدونَ السَّوداءَ، ويسيرُ المطبَّرونَ الذينَ تنزفُ رُؤُوسُهُمُ دماً بَرَّهَوٍ وفَخْرٍ حَوْلَ المرقِدِ، ويحرصُونَ على التَّعبيرِ عَنِ احترامِهِمُ للسَّيِّدةِ زينبَ بالتَّوقُّفِ عِنْدَ بَوَابِي المرقِدِ الشَّرْقِيَّةِ والجنوبيَّةِ وَهُمُ يلوِّحُونَ بالراياتِ، وينفخُونَ بالأبواقِ، ويدقُّونَ الطَّبُولَ، ويصيِّحُونَ بصوتٍ عالٍ (حَيْدَرُ حَيْدَرُ!)،^(٣) وَيَعِدُّونَ السَّيِّدةَ زينبَ بالمُضِيِّ في هذا الطَّرِيقِ، ويلوِّحُونَ بأيديهِمُ

(١) محمد الشيرازي (الشُعائر الحسينية) (بيروت: دار السَّاقِي، عام ١٩٩٨) ١٢٥.

(٢) باختين (روباليه وعالمه) ٢٠٤.

(٣) حيدر. حيدرة: هو لقب الإمام عليِّ بن أبي طالب عليه السَّلام. وهو الاسم الذي أرادت أمه فاطمة بنت أسد أن تسميه به إِلَّا أَنَّ أباه سَمَّاهُ عليّاً. و "حيدرة" هو أحد ألقاب الأسد من مثل: (قسورة. أسامة. ليث. أبو الحارث...). وقد نُقِلَ عن الإمام عليِّ عليه السَّلام في معركة خيبر قوله:

أنا الذي سَمَّني أُمِّي حيدرة كليث غابات شديد قسورة وكثيراً ما يُضاف إلى اللقب "حيدر" وصف "الكَرَّار" أي الذي لا يتراجع في المعركة ويديم الهجوم على خصمه؛ وهو الوصف الذي أطلقه النَّبيُّ مُحَمَّدٌ عليه السَّلام على الإمام عليِّ عليه السَّلام في خيبر، حيث عسر على المسلمين فتح باب الحصن على الرَّغم من محاولاتهم المكرورة، وكانوا يرجعون من دون نتيجة، فقال النَّبيُّ عليه السَّلام: لأعطينَ الرَّايةَ غدا رجلاً يحبُّ الله ورسوله ويحبُّه الله ورسوله كَرَّارٍ وليس فَرَّاراً. (المَقُومُ اللُّغوي).

نحو المرقد ونحو الحشد المجتمع؛ في مُحَاوَلَةٍ مِنْهُمْ لتوكيد قدرتهم وعزمهم على الوقوف إلى جانب الحسين، ويكون كل ذلك مَصْحُوباً بهتافٍ يردُّدونه بصوت عالٍ: (يَا لَيْتَنَا كُنَّا مَعَكُمْ فَنَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً^(١)). وتراوح أعمار الرجال الذين يشاركون في هذا المشهد المؤثر عاطفياً؛ أو يكتفون بمشاهدته بين صغار السن بعمر الخامسة تقريباً الذين يحملهم آباؤهم على أكتافهم، وبين كبار السن. ويؤلف الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين العشرين والأربعين. على وجه العموم. الأكثرية العظمى من المطربين الذين يشاركون في هذا الطقس الذكوري، ويشتمل هؤلاء على الإيرانيين، والأفغان، والآسيويين الجنوبيين - مع تشكيل العرب الأكثرية.

وتوقعاً منهم لوصول موكب التطبير، تتجمع الحشود المؤلفة من النساء - من أمهات المطربين، وزوجاتهم، وأخواتهم، وبناتهم - وغيرهم من الرجال السنة والشيعة على حد سواء. وتبكي النساء عادةً أثناء مشاهدتهن المطربين؛ وتتميز الأجواء السائدة بكونها أجواء حزينة وحيوية في آن معاً، وتكون في بعض الأحيان احتفالية في بعض جوانبها. وثمة نساء يبكين من الحزن؛ وكذلك من الشعور بالفخر لمشاهدتهن أقرباءهن الذكور في الموكب وإحساساً بولائهم. ويساعد فعل مشاهدة الأقرباء الذكور وهم ينزفون دماً... يساعد النساء الشيعيات في التعاطف مع السيدة زينب؛ ويحضر القليل من المنتقدين والمتهكمين لمشاهدة المطربين بعد شروق الشمس بقليل لأن أكثريتهم تختار

(١) هذه الجملة اقتباس كامل واقتطاع من السياق "بالمعنى الإيجابي" للآية القرآنية رقم (٧٣) من سورة النساء: {وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ قَضِيلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً}. (المقوم اللغوي).

القدوم في وقت الظهيرة. وعلى الرغم من ذلك، إلا أن وقوفي توافق في صبيحة عاشوراء عام (١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩ م) قريباً من مجموعة من الشباب الفلسطينيين الذين اصطفوا على طول الجدار الشرقي خارج المرقد ابتغاء السخرية من الشيعة المشاركين في التطبير.^(١)

شعر بعض من الشباب الشيعي العراقي الذي كان يقف قبالة الفلسطينيين السنة بإهانة عميقة، وكان الطرفان في مطلع العشرينيات من أعمارهم تقريباً، وسل أحد الشبان العراقيين سيفه ذا الحافة الكليّة الذي لا يُستخدم فعلياً لشق مقدمة الرأس وتظاهر بضرب رأس أحد الفلسطينيين الذي تراجع سريعاً إلى الوراء لتفادي الضربة، سائحاً للشاب العراقي بالظهور بمظهر المنتصر. وبينما شعر الفلسطيني بالفرح، لم يفعل الشاب العراقي شيئاً ما خلا التظاهر بالضرب، ثم واصل سيره مع موكب التطبير في حين استعاد الفلسطيني رباطة جأشه وسط سخرية رفاقه منه.

كتبت "سابرينا ميرفن" في عام (٢٠٠٧ م): إن التطبير كان ممنوعاً في سورياً في بادئ الأمر، ثم سُمح به بعد ذلك في الصباح الباكر بعد شروق الشمس بقليل.^(٢) وزيادة على الصباح الباكر، شرع المطبؤون، منذ عام (م) في الأقل، بالمشاركة في الأشكال الدموية من التطبير التي كانت تؤدي في أوقات الظهر في أيام عاشوراء تحديداً، وإن حدث ذلك بنطاق أضيق. وشهد عام (٢٠٠٩ م) بروز مجموعتي تطبير صغيرتين في وقت الظهيرة. ويلاحظ أن أكثرية الذين يمارسون التطبير في وقت الظهيرة يمارسون الضرب بالزناجيل

(١) ملاحظات حقليّة، الأربعاء، ٧ كانون الثاني عام ٢٠٠٩.

(٢) ميرفن "عاشوراء" ١٤٢.

كذلك؛ ومّا يلفتُ الانتباه، أنّه على العكسِ مِنَ التّطهيرِ الذي يشتركُ فيه العربُ على نحوِ رئيسٍ، يشكّلُ الآسيويّونَ الجنوبيّونَ النّسبةَ الأكبرَ مِنْ مُمَارِسِي الضّربِ بالزّناجيلِ.

يُخْرِجُ الرّجَالُ الآسيويّونَ الجنوبيّونَ الذينَ لا يرتدونَ قمصاناً (تتراوحُ أعمارُهم بينَ مطلعِ العشرينيّاتِ والأربعينيّاتِ) ويمشونَ حفاةَ الأقدامِ... يُخْرِجونَ زناجيلهم، وهي أدواتُ يدويّةُ الصّنعِ تتألّفُ مِنْ مقابضٍ خشبيّةٍ وسلاسلٍ معدنيّةٍ خمسٍ متّصلةٍ بحافاتٍ طويلةٍ في نهايتها؛ طولُها سبعةُ سنتيمتراتٍ تقريباً، ويدوّونَ بمُارسةٍ طقسِ الضّربِ بعدَ صلاةِ الظّهرِ. وخلافاً للمطبّرينَ، لا يؤدّي هؤلاء الرّجالُ جميعاً عمليّةَ الضّربِ بالزّناجيلِ في الوقتِ ذاته. ويصلُّ هؤلاء الرّجالُ على شاكلةِ المطبّرينَ إلى مكانِ الموكبِ على هيئةِ جماعاتٍ (ولكنّهم لا يظهرونَ علناً مِنَ الحوزاتِ والحسينيّاتِ المجاورةِ) ثمَّ يتجمّعونَ بمُحاذاةِ الجدارِ الجنوبيِّ للمرقِدِ، ويباشِرُ هؤلاء الرّجالُ أداءَ اللّطميّةِ أوّلاً، ثمَّ ينشدُ أحدُهم شعرَ رثاءٍ إيقاعيٍّ باللّغةِ الأردنيّةِ مِنْ خلالِ مكبّرِ صَوْتٍ (لا يكونُ إلقاءُ الشّعْرِ هذا مَصْحوباً بضربِ الطُّبولِ) بينما يقفُ رَجَالٌ آخَرُونَ فِي صَفَّينَ ويضربونَ بأيديهم على صُدُورهم العاريّةِ ويكشفونَ عَن ظُهورهم المُعلّمةِ بالنّدوبِ البارزةِ مِنَ تطهيرِ العامِ الفائتِ؛ ثمَّ، يستلمُ الرّجالُ (اثنينِ اثنينِ أو ثلاثة ثلاثة، لكنْ لا كمجموعَةٍ كاملةٍ) الزّناجيلَ التي يشتركونَ في استخدامهاً واحداً تلو الآخرِ. ويصيحُ المطبّرونَ بنحوٍ مكرُورٍ وإيقاعيٍّ وبطيءٍ (حَيْدَر! حَيْدَر!) مستمرّينَ في السّيرِ وفي شقِّ مُقدّماتِ رؤوسهم. ويصلُّ الآسيويّونَ الجنوبيّونَ بصمّتٍ، ثمَّ ينشدونَ القصائدَ بينما تتجمّعُ الحشودُ مِنْ حولهم، ويبدأ هؤلاء الرّجالُ في تحريكِ زناجيلهم واحداً

تَلَوَ الْآخِرَ وَهُمْ يَهْتَفُونَ عَالِيًا (بَا حُسَيْن!) مَعَ كُلِّ نَقْرَةٍ مَسَارِعَةٍ. وَخِلَافًا لِلدَّمِ
الَّذِي يَتَدَفَّقُ مِنَ التَّطْيِيرِ وَيَلَطُّخُ الدَّشَادِيشَ الْبَيْضَ، يَنْبَجِسُ الدَّمُ جَرَاءَ الضَّرْبِ
بِالزَّنَاجِيلِ، فَتَنْتَشُرُ قَطْرَاتُ الدَّمِ عَلَى الْأَرْضِ وَعَلَى مَلَابِسِ الْآخَرِينَ (عَلَى
عَبَاءَتِي، وَيَدَيَّ وَوَجْهِي وَحَتَّى عَدْسَةِ كَمَرَتِي) فَيُؤَثِّرُ فِي جُمُوعِ الْمَشَاهِدِينَ وَيَتْرَكُ
آثَارًا وَيَجْعَلُ مَا حَدَّثَ فِي كِرْبَلَاءَ آثَارًا وَحَيًّا.

وَيَخْتَلِفُ الْأَفْرَادُ الَّذِينَ يَأْتُونَ بَعْدَ صَلَاةِ الْفَجْرِ مَبَاشَرَةً لِمُشَاهَدَةِ الْمُطْبَّرِينَ
عَنْ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَأْتُونَ لِمُشَاهَدَتِهِمْ فِي أَوْقَاتِ الظُّهْرِ، فَفِي الْحَالَةِ الْآخِرَةِ،
تَشْكُلُ زَوَاجَاتُ الْمُطْبَّرِينَ أَقَلِّيَّةً فِي الْحَشْدِ الْعَشَوَائِيِّ وَالْأَكْثَرِ تَنُوعًا، وَالَّذِي يُضْمُّ
السُّنَّةَ وَعَابِرِي السَّبِيلِ، وَالشَّيْعَةَ الَّذِينَ يَأْتُونَ لَزِيَارَةِ مَرْقَدِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ فِي
عَاشُورَاءَ؛ وَلَكِنَّهُمْ قَدْ لَا يَتَبَنَوْنَ. بِالضَّرُورَةِ. مَوَاقِفَ مُؤَيَّدَةً لِلتَّطْيِيرِ. فَفِي سَبِيلِ
الْمَثَالِ، تَوَافَقَ وَقُوفِي إِلَى يَسَارِ أَحَدِ رِجَالِ الشَّرْطَةِ قُرْبَ بَوَابَةِ الْمَرْقَدِ الْجَنُوبِيَّةِ فِي
ظَهِيرَةِ عَاشُورَاءَ عَامَ (١٤٣١ هـ. ٢٠١٠ م) حَيْثُ يَضْرِبُ الرِّجَالُ الْأَسْيُوثُونَ
الْجَنُوبِيُّونَ أَنْفُسَهُمْ بِالزَّنَاجِيلِ، وَعَبَّرَتْ إِحْدَى النُّسُوءِ مِنْ حِمَصِ التِّي كَانَتْ
تَقِفُ إِلَى جَوَارِي بِصَوْتٍ عَالٍ عَنْ رَفْضِهَا لِهَذِهِ الْمُمَارَسَاتِ ثُمَّ أَصَافَتْ: إِنَّ
زَوْجِي فِي وَاقِعِ الْأَمْرِ شِيعِيٍّ (يَعْنِي ذَلِكَ ضِمْنَا أَنَّهَا سُنِّيَّةٌ وَمِنْ ثُمَّ فَهِيَ أَفْضَلُ
وَأَكْثَرُ عَقْلَانِيَّةً).^(١) وَهَذِهِ الْمَرْأَةُ لَيْسَتْ الْوَحِيدَةُ فِي مَوْقِفِهَا هَذَا، إِذْ عَبَّرَتْ نِسَاءُ
أَخْرِيَّاتٍ كَذَلِكَ عَنْ رَفْضِهِنَّ وَاشْمِئزَازِهِنَّ مِنْ هَذِهِ الْمُمَارَسَةِ.

(١) لَكُونِي مُخَالِطًا لِهَذِهِ الْبَيْئَةِ وَعَارِفًا بِ(أَعْرَافِهَا) يُمْكِنُنِي الْقَوْلُ: غَيْرُ صَحِيحٍ اسْتِثْنَاكِ الْكَاتِبَةِ مِنْ
قَوْلِ هَذِهِ الْمَرْأَةِ (إِنَّ زَوْجِي شِيعِيٍّ) أَنَّهَا سُنِّيَّةٌ. وَإِنَّمَا تَقْصِدُ الْمَرْأَةُ بِكَلَامِهَا تَأْكِيدَ إِنْكَارِهَا لِمَا تَشَاهَدُ
حَيْثُ أَنَّ زَوْجَهَا لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ كَوْنِهِ شِيعِيًّا؛ وَعَدَمَ تَصَرُّفِهَا بِأَنَّهَا شِيعِيَّةٌ لَا يَسْتَلْزِمُ
أَنَّهَا سُنِّيَّةٌ؛ إِذْ لَا يُنْسَبُ لِسَاكْتِ قَوْلِ. وَقَدْ جَرَتْ عَادَةُ الزَّوْجَاتِ السُّورِيَّاتِ بِالْإِعْتِزَازِ وَالْإِسْتِنَادِ
إِلَى أَزْوَاجِهِنَّ فِيهَا إِذَا كُنَّ وَحِيدَاتٍ وَأُورَدْنَ أَنْ يَعْبَرْنَ عَنْ مَوَاقِفِهِنَّ. (الْمَقُومُ اللَّغْوِيُّ).

ويتنمي فعلاً المدح واللعن كلاهما. بنحو عام. إلى الكرنفال الباخيني^(١). وعلى الرغم من ذلك، إلا أن ثمة فرقاً مهماً بين الشَّباب الفلسطيني السَّنيِّ الذين أسلفنا الحديث عنهم والمرأة السُّوريَّة التي تحدَّثنا عنها أعلاه؛ هو أن المطبَّرينَ والمستهزَّينَ بهم كليهما، كانوا من السُّكَّانِ المحليِّينَ في الحالة الأولى، خلافاً للحالة الثَّانيَّة، حيث لم تكن النِّساء "الحمصيات" والمطبَّرونَ من جنوب آسيا من السُّكَّانِ المحليِّينَ، بل كانوا زوّاراً مُؤقَّتِينَ لا يجمعُهُم الكثير من أوجُه التشابهِ. وزيادةً على ذلك، كان التَّفَاعُلُ والاتِّصَالُ بين المطبَّرينَ ومشاهديهم يقعُ في الحالتينِ كليهما على وفقِ جوانبٍ مختلفةٍ من البينِ ذاتيَّة.

ففي حالة التَّطْيِيرِ. في سبيل المثال. يوجد موكبٌ، ومن ثمَّ فإنَّ المطبَّرينَ والمشاهدينَ. زيادةً على المستهزَّينَ المُحتمَلينَ. يسيرُونَ معاً، ويحيطُونَ بالمرقد! أمَّا في حالة الضَّرْبِ بالزَّناجيلِ، فيشاركُ المشاهدُونَ بنحوٍ رئيسٍ في فعلِ المُشاهدةِ البصريِّ فحسب؛ على الرغم من تعرُّضِ مَنْ هُم في الصُّفوفِ الأماميَّة التي تحيطُ بالمطبَّرينَ إلى رذاذِ الدَّم، وهذا يعني أن التَّجاوراتِ تكونُ أكثرَ تطرُّفاً [وغرابةً] في وقتِ الظَّهيرة.

ولا يقتصرُ التَّبَايُنُ في ردودِ الفعلِ حيالَ مَشَاهِدِ النَّدْبِ والعزاءِ على الحشودِ والجمهيرِ، إذ يصدُقُ الأمرُ ذاته على المطبَّرينَ الذينَ تختلفُ ردودُ أفعالِهِم بحسبِ وقتِ مُمارَسةِ التَّطْيِيرِ (في الصَّبَاحِ الباكرِ مقابلَ الضَّرْبِ بالزَّناجيلِ في الظَّهيرة) حيث يسيرُ المطبَّرونَ الذينَ يشاركونَ في الموكبِ بعدَ الفجرِ ببطءٍ أكثرَ ويبقُونَ معاً، وينشدُونَ قصائدَ الرِّثاءِ، وحتى يشقُّونَ جبهاتهم بالسُّيوفِ؛ فما يهيمُ هؤلاءِ الرِّجَالُ لا شقُّ جبهاتٍ رؤوسِهِم فحسب، بل كذلكِ فعلُ السَّيرِ

(١) باختين (روباليه وعالمه) ١٦٥، ٢١٢.

بمُصَاحَبَةِ الطُّبُولِ والأَبْوَاقِ - الجَانِبُ المِهْمُ هنا هُوَ إِصْدَارُ الأَصْوَاتِ
وَالصَّجِيجُ (كَمَا فِي المَعَارِكِ)^(١) - فَالْمِهْمُ أَنْ يَسْمَعَكَ النَّاسُ، وَأَنْ يَشَاهِدُوكَ
وَيُثَابِتَكَ مُلَطَّخَةً بِالدَّمَاءِ. وَفِي ظُلِّ حَالَةِ التَّحْفِيزِ وَالتَّعْبَةِ هَذِهِ، يُصَابُ عَدَدٌ قَلِيلٌ
مِنَ المَطِيرِينَ بِحَالَةٍ هِيَاجٍ شَدِيدَةٍ، وَيُؤَدِّي سَيْرُ المَشَاهِدِينَ وَالمَوَاقِبِ إِلَى خَلْقِ
تَجْرِبَةٍ عَامَّةٍ مُشْتَرَكَةٍ عَلَى الرُّغْمِ مِنْ أَنَّهَا قَدْ لَا تَكُونُ مُثَلَّةً لِتَجْرِبَةٍ مُجْتَمَعٍ مُحَلِّيٍّ.
وَخِلَافًا لِلْمَطِيرِينَ، يَدْخُلُ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الأَسْيَوِيِّينَ الجَنُوبِيِّينَ الَّذِينَ
يُضْرَبُونَ بِالزَّنَاجِيلِ فِي حَالَةٍ هِيَاجٍ! وَلِهَذَا يَتَعَيَّنُ عَلَى المَشَارِكِينَ الآخَرِينَ فِي
المَوَكِبِ مِنَ المَجْمُوعَةِ ذَاتَهَا تَهْدِئَتُهُمْ وَإِقْفَاهُ. وَأَعْتَقَدُ فِي أَنَّ الأَمْرَ بِالنِّسْبَةِ
لهَؤُلَاءِ الرِّجَالِ، لَا يَتَعَلَّقُ كَثِيرًا بِالتَّجْرِبَةِ الجَمَاعِيَّةِ الْخَاصَّةِ بِإِظْهَارِ رَغْبَتِهِمْ
بِالْوُقُوفِ إِلَى جَانِبِ الحُسَيْنِ؛ بِقَدْرِ مَا يَتَعَلَّقُ بِالظُّهُورِ الفَرْدِيَّةِ لَخِصَائِصِ
الْوَلَاءِ، وَالتَّدْنِي، وَالتَّقْوَى. وَبَيْنَمَا يَظْهَرُ هَؤُلَاءِ الرِّجَالُ وَيُضْرَبُونَ أَنْفُسَهُمْ
بِالزَّنَاجِيلِ ثُمَّ يَغَادِرُونَ المَكَانَ بَعْفَوِيَّةً؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَتِمَكَّنُونَ مِنْ لَفَتِ انْتِبَاهِ
المَشَاهِدِينَ بِالقَدْرِ ذَاتِهِ فِي حَالَةِ المَطِيرِينَ. وَبِكَلِمَاتٍ مُوجِزَةٍ. إِذَا أَرَدْنَا تَمْيِيزَ
"الْكِرْنَفَالِ" عَنْ "المَشْهَدِ" عَلَى وَفْقِ تَأْثِيرَاتِهِمَا. بِالإِمْكَانِ القَوْلُ: إِنَّ التَّطْيِيرَ يَقَعُ
فِي خَانَةِ "الْكِرْنَفَالِ" فِي حِينٍ يَقَعُ "الضَّرْبُ بِالزَّنَاجِيلِ" فِي خَانَةِ "المَشْهَدِ".

الشَّكُّ بِالإِفْرَاطِ:

مِنْ اللَّافَةِ لِلانْتِبَاهِ، أَنَّهُ بَيْنَمَا شَدَّةُ وِلَاءِ الرِّجَالِ وَإِظْهَارُهُمُ التَّقْوَى هُوَ مَا
يُثِيرُ الشَّكَّ، يُلَحِظُ أَنَّ السُّؤَالَ الَّذِي يَتَبَاحَثُ فِي شَأْنِهِ الشَّيْعَةُ لَا يَتَعَلَّقُ بِ"الْغُلُوِّ
وَالتَّشَدُّدِ" فِي حُبِّ الحُسَيْنِ، بَلْ يَتَعَلَّقُ بِمَعْرِفَةٍ: هَلْ وِلَاءُ المَطِيرِينَ هُوَ وِلَاءٌ

(١) الشَّيرَازِيُّ (الشَّعَائِرُ الحُسَيْنِيَّةُ) ١٢٥.

"حقيقي" أم لا! (١) إذ أخبرتني "هدى" الطالبة الجامعية العشرينية من بغداد. في سبيل المثال. أنها "بصراحة" تشك في أن الرجال الذين يرغبون في التطير ويأرسلونه في عاشوراء؛ كانوا ليقفون حقاً إلى جانب الحسين ويساندونه في معركة كربلاء فيما لو منحوا هذه الفرصة! (٢) وإذا كان وراء المطيرين حقيقياً، بمعنى أنهم أتقياء ومتدينون في المواقف الأخرى كذلك؛ فإنهم. بداهة. لا يحتاجون إلى التكفير عن ذنوبهم؛ هذا من جانب، ومن جانب آخر، إذا كان المطبرون متراخين في تأدية واجباتهم الدينية وضبط سلوكياتهم الاجتماعية، فإن مشاركتهم العلنية في التطير يعد عملاً "زائفاً"! هل يمكن "للعروض الأدائية الزائفة" أن تؤدي إلى الخلاص والتكفير عن الذنوب؟ ما زالت الإجابة عن هذا السؤال محل خلاف. (٣)

وزيادة على ذلك، ربطت "هدى" مسألة (العروض الأدائية الزائفة) بقلقها بشأن التمثيل البصري للمذهب الشيعي، (٤) فهي تعارض الأداء العلني للتطير، لأنها تعتقد في أنه يؤثّر سلباً في آراء الـ لا متمين ومواقفهم حيال المذهب. وتعتقد "هدى" في أنه إذا جرت ممارسة التطير سرّاً، بحيث لا يمكن مشاهدة العرض علناً، فإن المؤمنين إيماناً حقيقياً فحسب، هم من سيشاركون فيه فعلاً! وإلى جانب هذه الشكوك التي تبديها "هدى" ثمة أنواع أخرى من الشكوك المتبقية.

(١) قارن مع بينو "طقوس العزاء الشيعية وإعادة تفسير منهج الشفاعة" ٢٩٧.

(٢) قارن مع ملحوظات حقلية، الاثنين، ١١ آب عام ٢٠٠٨.

(٣) ملحوظات حقلية، الخميس، ٢١ آب عام ٢٠٠٨.

(٤) على الرغم من عدم اتفاق هدى مع الشيعة بشأن مسألة التطير، إلا أنها تحضر الدروس الصيفية في الحوزة التابعة لهم.

وانسجَماً مَعَ مَا صَرَّحَتْ بِهِ "هدى" مَضَتْ "أُنَيْسَةُ سَلَمَى" الشَّابَّةُ
والمدرِّسةُ غَيْرُ المتزوِّجَةِ في الحوزَةِ السِّيرَازِيَّةِ... مَضَتْ بعيداً إلى حَدِّ طَرَحِ هَذِهِ
المَسْأَلَةِ في الحوزَةِ قَبْلَ أُسْبُوعٍ مِنَ المُحَرَّمِ فِي عَامِ (١٤٣١هـ).^(١) فَبَعْدَ أَنْ
اخْتَتَمَتْ دَرَسَهَا فِي وَقْتٍ مُبَكِّرٍ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَقَدْ كَانَ عَنِ الدِّينِ الْمُقَارَنِ؛
أَخْبَرَتْ الطَّالِبَاتِ بِأَنَّهَا تَوَدُّ الْحَدِيثَ عَنْ أَمْرِ مِهْمٍ، وَبَادَرَتْهُنَّ بِالسُّؤَالِ: (هَلِ
تَسَاءَلْتُنَّ يَوْمًا عَنْ طَبِيعَةِ مُشَاعِرِ الْحَزَنِ وَالْفَرَحِ الَّتِي يَشْعُرُ بِهَا الْأَفْرَادُ فِي آنٍ مَعَآ فِي
الْمُحَرَّمِ؟) فَكَرَّتِ الطَّالِبَاتُ بِالْأَمْرِ، وَأَوَمَّاتُ بَعْضُهُنَّ بِرَأْسِهَا. وَمِنْ دُونِ
تَوْقُفٍ، وَاصَلَتْ أُنَيْسَةُ حَدِيثَهَا وَسَأَلَتْ سَوَالاً بِلَاغِيًّا: (لَمْ تَفَكِّرِينَ هَذَا الْأَمْرَ
عَلَى هَذَا النَّحْوِ؟ تَلَحُّظِينَ أَنَّهُ ثَمَّةُ نَوْعَانِ مِنَ الصَّحَكِ فِي الْمُحَرَّمِ. ثَمَّةُ ذَلِكَ
النَّوْعِ مِنَ الصَّحَكِ غَيْرِ الدِّينِيِّ [الفاحش]. وَحَتَّى السَّاخِرُ الَّذِي يُؤَدِّيهِ
الْمُتَهَكِّمُونَ - وَيتَعَيَّنُ عَلَيْكَ جَمِيعاً مَنْعٌ مَنْ يَقُومُ بِذَلِكَ وَتَحْذِيرُهُ خُصُوصاً فِي
مَجَالِسِ الْعَزَاءِ؛ مُقَابِلَ ذَلِكَ، ثَمَّةُ الشُّعُورِ بِالسَّعَادَةِ وَالْفَرَحِ الطَّبِيعِيِّ الَّذِي
يَحْدُثُ بَعْدَ الْإِنْتِهَاءِ مِنَ الْمَجْلِسِ. وَهَذَا النَّوْعُ مِنَ السَّعَادَةِ أَعَمَّقُ مِنْ سَعَادَةِ
الْمُتَهَكِّمِينَ "السَّطَحِيَّةِ" وَمَنْبَعُهُ الْمَهْدِيُّ، الْإِمَامُ الْغَائِبُ، إِنَّ مُصْدَرَ هَذَا الْفَرَحِ
هُوَ الْوُجُودُ بِقَرَبِ آلِ الْبَيْتِ فِي هَذَا الْوَقْتِ).^(٢)

الخاتمة:

بَعْدَ مَوَكِبِ التَّطْيِيرِ الصَّبَاحِيِّ، يُغْلَقُ مَرْقَدُ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ - الَّذِي يُتْرَكُ
مَفْتُوحاً طَوَالَ اللَّيْلِ (عَلَى شَاكِلَةِ الْحُسَيْنِيَّةِ الزَّيْنَبِيَّةِ) فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي تَسْبِقُ الْيَوْمَ

(١) مَلَحُوظَاتُ حَقَلِيَّةٍ، الْاِثْنِينَ، ١٤ كَانُونِ الْأَوَّلِ عَامِ ٢٠٠٩.

(٢) مَلَحُوظَاتُ حَقَلِيَّةٍ، الْاِثْنِينَ، ١٤ كَانُونِ الْأَوَّلِ عَامِ ٢٠٠٩.

العَاشِرَ مِنَ الْمُحَرَّمِ وَلَيْلَةَ وَلَادَةِ الْمَهْدِيِّ فَحَسَبُ - ابْتِغَاءَ تَنْظِيفِهِ. وَبَيْنَمَا يُغْلَقُ الْمَرْقَدُ فِي الصَّبَاحِ، تُرَوَّى قِصَّةُ مَقْتَلِ الْإِمَامِ الْحُسَيْنِ فِي الْحُسَيْنِيَّةِ.

ظَهَرَتْ فِي عَاشُورَاءَ عَامَ (١٤٣٠ هـ . كَانُونَ الثَّانِي ٢٠١٠ م) مَجْمُوعَتَانِ مَعَزِّيَتَانِ وَأَقَامَتَا مَجَالِسَ عَزَاءٍ عَلَنِيَّةً مِنْ خِلَالِ نَضْبِ مَكَبِّرَاتِ الصَّوْتِ لِيَسْتَخْدِمَهَا رِجَالُ الدِّينِ وَالرَّوَادِيدُ، وَبُسِطَتْ فِي الْخَارِجِ الْحَصَائِرُ الْمَصْنُوعَةُ مِنَ الْقَشِّ لِيُفْتَرِشَهَا النَّاسُ أَثْنَاءَ إِصْغَائِهِمْ إِلَى قِصَّةِ مَقْتَلِ الْإِمَامِ، وَاقْتَصَرَتْ إِقَامَةُ هَذَا النَّوعِ مِنَ الْمَجَالِسِ عَلَى هَذَا الْعَامِ، إِذْ صَدَرَتْ تَعْلِيمَاتُ بِمَنْعِهَا فِي مَوْسَمِ الْمُحَرَّمِ التَّالِيِ.

وَقَدْ لَحِظْتُ قَبْلَ صَلَاةِ الظُّهْرِ بِقَلِيلٍ مُشْهَدًا كَرَفَالِيًّا مِهْمًا آخَرَ وَقَعَ فِي سَاحَةِ الْعِرَاقِيِّينَ: إِذْ نُصِبَتْ فِي لَيْلَةِ الْيَوْمِ التَّاسِعِ مِنَ الْمُحَرَّمِ ^(١) خَمْسُ خِيَامٍ كَبِيرَةٍ فِي سَاحَةِ كِرَةِ الْقَدَمِ الَّتِي تَشْكَلُ مَرْكَزَ السَّاحَةِ، وَثَمَّةُ خِيَمَةٍ كَبِيرَةٍ وَاحِدَةٍ تُنْصَبُ فِي وَسْطِ السَّاحَةِ تَمَامًا، يَحِيطُهَا أَرْبَعُ خِيَامٍ رَمَادِيَّةٍ أَلْوَنُ أَصْغَرُ حِجْمًا. وَتَجْلِبُ النِّسَاءُ الشُّمُوعَ وَيُوقِدُهُنَّ دَاخِلَ الْخِيَامِ، وَيُخْلَعْنَ أَحْذِيَّتَهُنَّ قَبْلَ دُخُولِهَا عَلَى الرَّغَمِ مِنْ خُلُوقِ أَرْضِيَّتِهَا مِنَ الْفَرَشِ تَعْظِيمًا لِمَا جَرَى فِيهَا؛ وَتُشْعَلُ النَّارُ فِي ظَهْرِ الْيَوْمِ الْعَاشِرِ بِالْخِيَامِ الْمُحَاطَةِ بِآلَافِ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ الشَّيْعَةِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ جُزْءًا مِنْ عَرْضِ "النَّشَائِيهِ".

وَتَبْرُزُ أَوَّلًا مَجْمُوعَةٌ مِنَ النِّسَاءِ مِنَ الْخِيَمَةِ الرَّئِيسَةِ وَهِنَّ يَرْتَدِينَ الْعَبَاءَاتِ السُّودَاءِ وَالْحِجَابَاتِ خَضْرَاءَ اللَّوْنِ، إِثْنَهُنَّ (السَّبَايَا) اللَّائِي يَرْمِزْنَ لِلسَّيِّدَةِ زَيْنَبَ وَغَيْرِهَا مِنْ نِسَاءِ مُعَسِّكِرِ الْحُسَيْنِ وَأَبْنَائِهِ؛ وَمَا يَلْفُ الْإِنْتِبَاهُ تَأْدِيَةَ الرِّجَالِ لِأَدْوَارِ النِّسَاءِ فِي هَذَا الْعَرْضِ (عَلِمًا أَنَّ الرِّجَالَ مَا زَالُوا يُؤَدُّونَ أَدْوَارَ النِّسَاءِ فِي الْأَنْوَاعِ الْآخَرَى مِنَ النَّشَائِيهِ) وَشَهِدَ هَذَا الْوَضْعُ تَغْيِيرًا كَبِيرًا فِي السَّنِينَ الْآخِرَةِ، إِذْ شَرَعَتْ

(١) مَا يُعْرَفُ مَحَلِّيًّا بِـ "لَيْلَةِ الْمَحْيَا" أَوْ "الطَبْك" حَيْثُ يَسْهَرُ النَّاسُ إِلَى فَجْرِ الْيَوْمِ التَّالِيِ.

العلويات، أو المتحدرات من سلالة الإمام علي في التطويع لأداء دور زينب وغيرها من نساء كربلاء، وقد كانت العلويات من المنفيات من العراق، ومن ثم هنّ يشبهن "السبايا" ويمثلوهنّ لجهة تحدرهنّ من سلالة الإمام علي أولاً، ودورهنّ في عرض "التشابه" ثانياً. وعلى شاكلة المسرحية التي شاهدها مايكل غلزنان "في لبنان في خمسينيات القرن العشرين، فإنّ هذه التشابه تمثّل (توكيداً للنظام الاجتماعي الذي يتجسّد في العائلات المثقفة [يشتمل ذلك على عائلات العلويين والسادة])^(١) ثم، يبرز رجال يرتدون ملابس حمراء اللون ويمثلون بني أمية، ويشرعون في مطاردة النساء من خيمة إلى أخرى أولاً، ثم من الساحة ومن المسرح [موقع عرض التشابه] بعامة. وبينما يلعن جمهور المتفرجين جيش بني أمية، يضرم هؤلاء النار في الخيام التي تنهار في غضون ثوانٍ؛ ويهرع الحشود لإطفاء ما تبقى من نيران والحصول على بعض من قطع القماش المحروقة المتبقية لاعتقادهم في أنّها مباركة.

وتبعاً لذلك، يمثل هذا المشهد الكرنفالي الذي يصور قصّة القتل والتشريد والتدمير والسبي... يمثل خاتمة متوقّعة لـ "مجالس العزاء العلنية في عاشوراء"^(٢) حتّى انتشار ممارسة الضرب بالزناجيل في أوقات الظهيرة في الآونة الأخيرة.

وتستمرّ مجالس العزاء في العديد من الحسينيات حتّى اليوم الثالث عشر من المحرم، وهو اليوم الذي يفترض أنّ الحسين قد دفن فيه. إلّا أنّ عدد النساء ينخفض بشدّة، وحتّى خيام الضيافة يجري رفعها. ثمّ يعاد نصبها قبيل الأربعين بقليل، وهو اليوم الذي يؤسّر لنهاية مدّة الحداد. وباستثناء إعادة نصب خيام الضيافة والزيادة الملحوظة في عدد الحاضرين في مجالس العزاء المقامة في

(١) مايكل غلزنان (معرفة الإسلام) ٦٩.

(٢) باختين (رواليه وعالمه) ٢١١.

الحُسَيْنِيَّاتِ والحَوَازِ، تَتَوَقَّفُ فِي الْأَرْبَعِينَ عَرُوضَ الْمَشَاهِدِ الدَّمَوِيَّةِ وَحَرْقِ الخِيَامِ.

وتبعاً لدعوة "وليم كونولي" للباحثين لإيلاء المزيد من الاهتمام بالجوانب غير العقلانية المتضمنة في السياسة والخطاب السياسي، بينت في هذا الفصل؛ كيف يمتد خطا التقوى والسياسة كلاهما - بالنسبة للشيعة الذين يتأسون بالسيدة زينب ويشاركون في مواكب التطير - من خلال (مؤشرات متعددة من الذاتية والبن - ذاتية).^(١) وشرحت كذلك كيف تسهم ممارسات العزاء في المحرم وخطاباته في تقويض ما وصفته (سوزان باك . مورس . Suzan Buck - Morss)، متأثرة في ذلك بـ "والتر بنيامين" بـ (التغريب الحواسي الذي يقع في قلب جماليات السياسة).^(٢) وتقف ممارسات التطير الغروتسكية الشائعة في المحرم أمثال التطير والضرب بالزناجيل بالضد من التغريب الحواسي، على الرغم من أن الإفراط، كما بينت أعلاه، يسهم كذلك في تقويض مضادقته - أي التغريب - ويجعله غامضاً سياسياً ودينياً.

تجعلك مجالس العزاء العاشورائية. في واقع الأمر. أكثر وعياً ببعض من العلاقات المحددة السائدة فيها، ولكنها من جانب آخر، تؤكد وتشدّد على الحدود القائمة فيها. ووفقاً لآية الله محمد الشيرازي (توفي عام ٢٠٠١ م) تمنح مجالس العزاء الحياة والمعنى للمذهب الشيعي، وتظهر أن دعوته للثورة ليست دعوة قومية أو محلية داخلية.

(١) كونولي "لم أنا لست علمانياً (مينيولس: جامعة مينوسيتا، عام ١٩٩٩).

(٢) بك - مورس "الجماليات والمخدر" ٤.

وثمة اختلاف واضح بين آيات الله الشيرازي، والحميني، والصدر في هذا الجانب؛ فالشيرازي يقدم تصوراً عن الثورة بوصفها حدثاً يقع في مستوى الأمة في حين يميل آخرون نحو القومية ويعززون مفهومات الدولة القومية. يبدأ التغيير، بحسب أمّ مصطفى الشيرازي بـ كيف يفكر الشيعة^(١)، ولهذا دعت إلى القيام بثورة أخلاقية عامة. إلا أن التّضحيات التي تطلبها أمّ مصطفى هي تضحيات إعجازية؛ إنها نوع من التّضحيات يستلزم شيئاً أكبر من فعل التبادل، وهي تعدّ بتحقيق الشفاء، ولكنها. خلافاً لأنواع الشفاء الأخرى المتحقّقة في السيّد زينب. تعمل ضمن إطار الحوزات (أو في الأقل بعض منها).

(١) ملحوظات حقليّة، الأحد، ١١ تشرين الأوّل عام ٢٠٠٩.

الفصل الخامس الطب الروحاني

أَلَمْ يَنْحَسِرِ الْمَوْتُ، وَتَنْفَسْنَا الصُّعْدَاءَ،
 بَيْنَمَا السَّاحِرُ مِنْ شِيرَازَ
 رَمَى بِحَفْنَةٍ مِنَ الْأَرَزِ فِي الْهَوَاءِ
 وَشَقَّ سِرْبَ أَبِيضٍ مِنَ الْبَلَابِلِ حَمْرَاءِ الشَّوَارِبِ طَرِيقَهُ
 عَبْرَ السَّمَاءِ الزَّرْقَاءِ الدَّاكِنَةِ
 مَتَوَجِّهًا غَرْبًا صَوَّبَ شِيرَازَ.
 (رضا عليّ حسن، "السَّاحِرُ مِنْ شِيرَازَ")^(١)

التَّعْرِيفُ بِالْمُمَارَسَةِ الْخَالِفَةِ:

طَرَحَ "فَرْدَرِيكُ دَنِي" فِكْرَةً ذَاعَ صَيْتُهَا، تَفِيدُ أَنَّ الْإِسْلَامَ مَعْنِيٌّ
 بِالْمُمَارَسَاتِ أَكْثَرَ مِنْهُ بِالْعَقَائِدِ، بِمَعْنَى، أَنَّهُ يَقِيَمُ وَيُثَمَّنُ "الْإِسْتِقَامَةَ السُّلُوكِيَّةَ"
 بِنَحْوِ أَكْبَرَ مِنْ "الْإِسْتِقَامَةِ الْعَقَائِدِيَّةِ".^(٢)

وَقَدْ يَكُونُ أَحَدَ الْإِعْتِرَاضَاتِ الرَّئِيسَةِ أَنَّ وَجْهَةَ النَّظَرِ هَذِهِ هِيَ بِمَنْزِلَةِ
 تَأْصِيلٍ لَتَوْكِيدٍ دِينِيٍّ لَهُ عِدَّةُ أَسْبَابٍ تَارِيخِيَّةٍ وَسِيَاسِيَّةٍ مَهْمَةٍ. وَزِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ،
 يُمْكِنُ الْقَوْلُ: إِنَّ التَّوَكِيدَ عَلَى مَا يُعَدُّ مِنْهَجًا أَوْ سُلُوكًا صَحِيحًا فَقْهِيًّا يُوْجِي

(١) رضا عليّ حسن "السَّاحِرُ مِنْ شِيرَازَ" (الشَّيْعَةُ الْمَفْجُوعُونَ).

(٢) يرى "دَنِي" أَنَّ مُفْرَدَةَ "الْإِسْتِقَامَةَ السُّلُوكِيَّةَ" هِيَ إِعْتِرَافٌ بِمَرْكَزِيَّةِ الْفَقْهِ الْإِسْلَامِيِّ فِي حَيَاةِ الْمُسْلِمِينَ. وَهَذِهِ الْمَرْكَزِيَّةُ . بِحَسَبِ مَا أَعْتَقَدَ . لَا تُمَثِّلُ نَتَاجًا لـ "إِسْتِنْسَابِ" ضَمَنِ الْإِسْلَامِ. فَرْدَرِيكُ م. دَنِي، "الشَّعَائِرُ الْإِسْلَامِيَّةُ: مَنَظُورَاتٌ وَنَظَرِيَّاتٌ" فِي (مُقَارِبَاتٍ لِلْإِسْلَامِ فِي الدِّرَاسَاتِ الدِّينِيَّةِ) الْمَحَرَّرَ رِيْتَشَارْدُ سِي. مَارْتِنَ (أَكْسْفُورْد، الْمَمْلَكَةُ الْمُتَّحِدَةُ، مَطْبَعَةٌ وَنَوَلْد، عَامَ ١٩٨٥) ٦٣-٧٧. وَالْإِسْتِنْسَابُ (inherency) يَعْنِي مَسْأَلَةَ تَقْلِيدِيَّةٍ فِي السَّجَالَاتِ السِّيَاسِيَّةِ تُشِيرُ إِلَى حَاجِزٍ يُمَثِّلُ عَائِقًا أَمَامَ حَلِّ مَشْكَلَةٍ أَوْ دَفْعِ أَذَى فِي الْوَضْعِ الْقَائِمِ. وَثَمَّةُ أَرْبَعَةِ أَنْوَاعٍ هِيَ: الْإِسْتِنْسَابُ الْبَنَائِي، وَالْمَوَاقِفِي، وَالْوُجُودِي، وَاسْتِنْسَابُ الثَّغْرَةِ. (الْمُتَرَجِمَةُ).

ضَمْنًا بوجودِ الهُرْطَقَاتِ والمُمارَسَاتِ المخالِفَةِ وبَاهَمِيَّتِهَا، وبلقي بظلاله عليها في آنٍ معاً.^(١)

وسأتناولُ في هذا الفصلِ مُمارَسَاتِ "الطَّبِّ الرُّوحَانِي" التي تمثِّلُ أحدَ أشكالِ المُمارَسَاتِ الاثنيِّ عَشْرِيَّةِ المخالِفَةِ المهمَّةِ في مدينةِ السَّيِّدَةِ زَيْنَب. وأودُّ هنا طرحَ فكرةٍ نقولُ: إنَّ المُمارَسَاتِ الطَّيِّبَةَ / العلاجيَّةَ هذه تمثِّلُ أحدَ جوانبِ الدِّينِ الحيويَّةِ مِنْ جَانِبٍ، وَمِنْ جَانِبٍ آخَرَ، هِيَ مُمارَسَةُ مُنتَهَكَةٍ ومُدمِّرةٌ كُمُورِيًّا.

ويرى الكثيرُ مِنَ المسلمين، أنَّ هذه المُمارَسَاتِ العلاجيَّةَ تقاربُ السَّحَر! ويُسمحُ تبعاً لذلكِ التَّحليلُ الدَّقِيقُ لهذه المُمارَسَاتِ في إعادةِ النَّظَرِ في التَّمييزِ القائمِ بَيْنَ السَّحَرِ والدِّينِ في المذهبِ الشَّيعِيِّ الاثنيِّ عَشْرِيِّ المعاصِرِ.^(٢) ويتوزَّعُ الفصلُ الحَالِيُّ على ثلاثةِ مباحثٍ، سَأُسْتَهْلُ المبحثَ الأوَّلَ بمناقشةِ الأدبيَّاتِ المعنيَّةِ بـ "الإسلامِ والسَّحَر" والتَّعريفِ بالشَّيخِ (أبو أحمد) المَعَالِجِ الرُّوحَانِيِّ الشَّيعِيِّ الَّذِي يَعِيشُ وَيَعْمَلُ في مدينةِ السَّيِّدَةِ زَيْنَب.

(١) مازال السَّحَرُ بوصفه نوعاً من المُمارَسَةِ المخالِفَةِ يمارَسُ دوراً مهمّاً في حياة المسلمين في الشَّرْقِ الأوسط. إذ أتهمَ الرَّئيسُ الإيرانيُّ أَحمَدِي نَجَاد في سبيلِ المَثَالِ في عام ٢٠١١ بالمُشاركةِ في السَّحَرِ الأسودِ ابتغاءَ الفوزِ في الانتخابات. مايك شوستر، "أحمدي نجاد هو الخاسر في الصِّراعِ على السَّطْلَةِ في إيران" العاشر من أيار عام ٢٠١١. جُلَّ من الشَّبكةِ في الحادي والعشرين من آذار عام ٢٠١١.

(٢) لا يعدُّ الشَّيخُ أبو أحمد المَعَالِجِ الرُّوحَانِي الَّذِي ستحدِّثُ عنه أدناه نفسه ساحراً بسببِ اقترانِ مُفردةِ السَّحَرِ بالسَّحَرِ الأسودِ أو الصَّار. وعلى الرَّغمِ من ذلك، إلَّا أنَّ الكثيرين مَن يرتادون عبادته لا يعدُّونها تمييزاً حاداً مثل هذا. إذ ترى النِّساءُ والزَّبائنُ الشَّيعةُ أمثالَ أُمينة وأختها آمال أنَّ السَّحَرِ يشتملُ على السَّحَرِ الأسودِ والأبيض. وبسببِ التَّدَاخُلِ بَيْنَ كَيْفِ يَعْرِفُ العديدُ مِنَ الأفرادِ الذين تحدَّثتُ إليهم (وبضمنهم المتدربُ الشَّيخُ صالح الَّذِي يُعرفُ كذلك باسم أبي الحسن) السَّحَرِ والطَّبِّ الرُّوحَانِي، سألحظُ وأحاولُ مراعاةَ هذا التَّدَاخُلِ والتَّخَبُّطِ في مناقشاتي أدناه.

وسأناقش في المبحث الثاني، ممارسات أبي أحمد بوصفها "علومًا هامشيّةً / طرفيّةً" [بمعنى وقوعها على الأطراف].

أمّا المبحث الثالث فسأكرّسه لتحليل المعجزات التي لا تؤلّف جزءاً من المعتقد التقليدي ولا الهرطقي، وسأجادل في أنّها تؤدّي دوراً في تجسير الهوة القائمة بين الدين والسحر.^(١)

وعلى شاكلة الفصل السابق عن طقوس عاشوراء، يتصدّى الفصل الحالي لشعور "مايكل توسيغ" بالأسف على التّجاهل الأكاديمي لأشكال الدين "المُتّهكة".^(٢)

والممارسات العلاجية التي سأتناولها أدناه، هي ممارسات "مُتّهكة" بمعنى أنّها محلّ خلافٍ باسم الدين. وعلى الرّغم من حديثٍ عددٍ قليلٍ من الدّراسات التي تناولت "الإسلام" و"السّحر" عن تعذّر وصفهما بالمعارضين الدائمين أحدهما للآخر؛^(٣) إلّا أنّ تجاهل الممارسات المخالفة. على وجه العموم التي أضحت السّمة السائدة في الأعمال الأكاديمية، توجي ضمناً بعكس ذلك.

(١) وفقاً لهيرمان رينفرد، يستحيل فصل المعجزات بنحو كامل عن السّحر. فهو يرى أنّ المعجزات هي شكل من السّحر أكثر تطوّراً؛ هيرمان رينفرد (روايات السّحر والمعجزات في صحيح البخاري). (فريبيرغ ١٩١٥). والمقطع من ترجمتي.

(٢) توسيغ (قبر والتر بنيامين) ١٥٩.

(٣) مايكل دولز "نظريّة العلاج بالسّحر" في (السّحر والعرافة في الإسلام المبكر) تحرير أميلي سافيج - سمث (بيرلنغتون، دار نشر اشغيت، عام ٢٠٠٤) ٨٧؛ رودي بارت (رمزيّة الإسلام) (شنوتغارت: أنتون هيرزمان، عام ١٩٥٨) ٨٦-٨٨؛ جوتا شونفيلد، Über die Steine: das 14. Kapital aus dem Kitāb al-Muršid des Muhammad ibn Ahmad at-Tamīmī (فريبيرغ، ألمانيا: كارل شوارز فيرلاغ، عام ١٩٧٦) ٢٤-٢٥.

وما أودَّ طرحه، هو أنَّه ثَمَّةُ مُمارَساتٍ علاجِيَّةٍ تَسَمُّ بكونها مُمارَساتٍ شائعةً في مناطقٍ يمثِّلُ فيها المسلمونَ المَجْمُوعَةَ المهيمنةَ ثقافيًّا، ولكنَّها غيرُ مُستمدَّةٍ مِنَ الدِّينِ الإسلاميِّ تحديدًا.^(١) إنَّها تُولَّفُ جزءاً مِنَ "التَّقاليدِ الخطائيَّةِ" المُؤلَّفةِ للفئاتِ التَّحليليَّةِ التي يتعيَّنُ على أنثروبولوجيِّ الدِّينِ مِنْ خلالها. وفقاً لطلال أسد. مُقارَبَةُ المناهج والممارَساتِ الإسلاميَّةِ.^(٢) ويُلاحظُ. على وجهِ العموم. على الأعمالِ الأكاديميَّةِ، أنَّ مسألةَ السَّماحِ بمُمارَسةِ "السَّحرِ" والنِّقاشِ بشأنِ العلاقةِ بينَهُ وبينَ الدِّينِ، يمثِّلُ أحدَ المَوْضُوعَاتِ التي شكَّكتُ بنحوٍ عامٍ نسيًّا. محوِّراً في الأدبيَّاتِ الأكاديميَّةِ الألمانيَّةِ، وكذلك الدِّراساتُ التي تناوَلَتِ الطَّبَّ،^(٣) وعلمَ الفلكِ والتَّنجيمِ،^(٤) والأحجارَ الكريمةَ الخاصَّةَ،^(٥) والسَّحرَ^(٦) في القرونِ الوسطى.

(١) وضع مارشال هودغسن نمازاً بين الإسلامي (Islamic) و (Islamicate) ابتغاء تمييز المصطلح الأخير بوصفه ذلك الذي (لا يعود مباشرة إلى دين الإسلام ذاته، بل إلى البناء الاجتماعي والثقافي المرتبط تاريخياً بالإسلام والمسلمين، بين المسلمين أنفسهم وحتى بين غير المسلمين) (مارشال جي. أس هودغسن، (مشروع الإسلام) المجلد الأول (شيكاغو: جامعة شيكاغو، عام ١٩٧٤) ٥٩.

(٢) طلال أسد (فكرة أنثروبولوجيا الإسلام).

(٣) مانفرد أولمان (العلوم الطبيعيَّة والدَّنيويَّة في الإسلام) (ليدن: برل، عام ١٩٧٢)؛ مانفرد أولمان، (الطَّبَّ في الإسلام) (ليدن: بريل عام ١٩٧٠)؛ ديتريش براندنبيرغ، (الطَّبَّ والسَّحر: الشِّفاء والتداوي في العهد الإسلامي) (برلين: فيرلاغ برونو هيسلنغ، عام ١٩٧٥)؛ سيغفريد سيلغمان (العلاج بالسَّحر والعلاج ابتغاء الحماية من الأمور الغريبة) (شتوتغارت: سترينكر أونند شرويدر، عام ١٩٢٧).

(٤) براندنبيرغ (الطَّبَّ والسَّحر)؛ جورج صليباً "دور المنجم في المُجتمع الإسلامي في القرون الوسطى" في (السَّحر والعِرافة في الإسلام المبكر) تحرير أميلي سافج - سمث (بيرلنغتون، شركة اشغيت للنشر، عام ٢٠٠٤) ٣٤١-٣٧٠.

(٥) شونفيلد (Über Die Steine).

(٦) براندنبيرغ (الطَّبَّ والسَّحر)؛ بارت (رمزيَّة الإسلام) ٨٦-٩٢؛ دوروثي آنا ماريا بيلو (Die Quellen der Weisheit: die arabische Magie im Spiegel des Usūl al-

وعلى الرغم من ذلك، إلا أن المجتمع الأكاديمي في المملكة المتحدة وأمريكا الشمالية مازال يتجاهل هذه المسألة بصيغتها هذه. في الأقل.
ويرى. في السياق ذاته. العديد من الباحثين الإسلاميين وغير الإسلاميين زيادة على المسلمين العاديين، أن السحر كان يمثل وسيطاً في تمثيله حقيقة اجتماعية موثقة في القرآن والسنة.^(١) إذ كتب ابن خلدون المؤرخ والمفكر المسلم في القرن الرابع عشر (توفي عام ١٤٠٦ م) في مقدمته: إن البشر الأذكياء لا يمكنهم أن ينكروا وجود السحر.^(٢) وفي مقابل ذلك، ثمة من يعبر عن شككه أمثال أبي حنيفة والمعتزلة الذين لا يؤمنون به.^(٣) وزيادة على ذلك، وبينما أدان ابن خلدون وابن تيمية (توفي ١٣٢٨ م) السحر إدانة قاطعة؛ قال آخرون: إنه بسبب ورود حديث نبوي عن الإيمان بأثر العين الشريرة، فلا بد من أن تكون الممارسات التي تتصدى لهذه العين مباحة وجائزة.^(٤)
ولا يرتبط السحر ارتباطاً وثيقاً بالدين فحسب، بل إنه يعارضه كذلك، ووفقاً لعالم الاجتماع "دوركيم" فإن السحر له زبائن، ولكن ليس له أتباع.

Hikma von Ahmad 'Ali al-Būnī (هيلدشيم، ألمانيا: جورج اولمز فيرلاغ، عام ٢٠٠٥) ٤-٥.

(١) ساين دورميولر (Religiöse Magie im "Buch der probaten Mittel": Analyse, kritische Edition und Übersetzung der Kitāb al-Muğarrabāt (von Muhammad ibn Yūsuf as-Sanūsī (gest. um 895/1490) (ويزبادن،

ألمانيا: هاروسوتج، عام ٢٠٠٥) ٤-٥.

(٢) دولز "نظرية الطب الروحاني" ٩٥.

(٣) المصدر ذاته، ٩٦.

(٤) دور بميولر، ألياني (Religiöse Magie im "Buch der probaten Mittel") ٤-٥؛ دولز، "نظرية العلاج بالسحر".

وقد كَتَبَ "دوركيم": إِنَّ السَّحَرَ لَا يَخْلُقُ مُجْتَمَعًا مُحَلِّيًا. وَصَرَحَ بِأَنَّهُ (لَيْسَ ثَمَّةُ كَنِيسَةٍ سَحَرٍ).^(١)

لَيْسَ لَدَى الشَّيْخِ (أَبُو أَحْمَدَ) زَوَّارٌ مُنْتَظِمُونَ، وَلَا حَتَّى أَنْصَارٌ - وَلَكِنْ هَلْ لَدَيْهِ أَتْبَاعٌ؟! إِذْ يُؤَلَّفُ زَبَائِنُ أَبِي أَحْمَدَ مُجْتَمَعًا مُحَلِّيًا مُوقَّتًا، لَا تَنْهَمُ يَشْتَرِكُونَ فِي الْجُلُوسِ فِي الْغُرْفَةِ ذَاتِهَا وَيَتَحَدَّثُونَ أَثْنَاءَ انْتِظَارِهِمْ. وَلَا يَمَانَعُ الشَّيْخُ أَبُو أَحْمَدُ مِنْ قُدُومِ الْأَفْرَادِ طَلَبًا لِعَمَلِ الاسْتِخَارَةِ، وَهِيَ أَحَدُ أَشْكَالِ التَّنْجِيمِ وَالَّتِي سَأَتَحَدَّثُ عَنْهَا لَاحِقًا، وَلَكِنَّهُ يَطْلُبُ مِنْ بَعْضِهِمُ الْجُلُوسَ وَالْإِنْتَظَارَ فِي الرُّوَاقِ فِي حَالَةِ رَغْبَتِهِمْ بِاسْتِشَارَتِهِ وَالتَّحَدُّثِ مَعَهُ فِي أُمُورٍ شَخْصِيَّةٍ.

كَانَتْ زَوْجَةُ أَحَدِ الْجِيرَانِ تَأْتِي يَوْمِيًّا تَقْرِيْبًا إِلَى الشَّيْخِ أَبِي أَحْمَدَ لِلشَّكْوَى مِنْ آلامِ الظَّهْرِ وَالصُّدَاعِ، وَلَكِنَّهَا لَا تَجْلِبُ مَعَهَا أَفْرَادَ عَائِلَتِهَا أَوْ صَدِيقَاتِهَا؛ فَيَقْرَأُ الشَّيْخُ لَهَا بَعْضًا مِنَ الْأَدْعِيَةِ وَالصَّلَوَاتِ الْمُسْتَحَبَّةِ عَلَى رَأْسِهَا... وَهَذَا فَأَبُو أَحْمَدَ هُوَ مُعَالِجٌ بِالنَّسْبَةِ لَهَا أَكْثَرَ مِنْهُ رَجُلٌ دِينٍ؛ إِنَّهَا إِحْدَى نَصِيرَاتِهِ لَا أَتْبَاعِهِ.

وَإِذَا عَرَفْنَا "الْمُعَالَاةَ فِي التَّدْيِينِ" أَنَّهَا أَنْ تَصْبَحَ أَكْثَرَ تَقْوَى وَتَدْيِينًا، إِذَنْ، بِالِإِمْكَانِ تَمْيِيزُ الدِّينِ عَنِ السَّحَرِ مِنْ خِلَالِ دِرَاسَةِ غَايَتَيْهِمَا الْأَخْلَاقِيَّتَيْنِ. فَإِذَا كَانَتْ غَايَةُ الدِّينِ الَّتِي صِيغَتْ عَلَى نَحْوِ سَائِبٍ، هِيَ تَنْمِيةُ الذَّاتِ الْفَاضِلَةِ وَتَعَزِيزُهَا، إِذَنْ فَإِنَّ غَايَةَ السَّحَرِ هِيَ مَنْحُ الْإِحْسَاسِ بِ"الرَّاحَةِ".

وَيَرَى (رُودِي بَارْت . Rudi Paret) أَنَّ هَذِهِ الْغَايَاتِ هِيَ غَايَاتٌ مُخْتَلِفَةٌ جَذَرِيًّا، وَكَتَبَ فِي أَنَّ أَفْعَالَ السَّحَرِ (تُمَارَسُ بِالْإِحَالَةِ عَلَى الْإِسْلَامِ الرَّسْمِيِّ، وَلَكِنَّهَا مَعَ ذَلِكَ، لَا تَمَثِّلُ مُجَرَّدَ أَفْعَالٍ تَدْيِينٍ سَهْلَةٍ، بَلْ إِنَّهَا أَكْثَرُ مِنْ

(١) قَارَنَ مَعَ دُورْكِيمِ مُقْتَبَسَ فِي دُورْكِيمُولَرِ، الدِّينِ وَالسَّحَرِ، ٢.

ذلك، لأنّها تخدم، وبدرجات متباينة، أغراضاً آنيّة [تتصل بمصالح الفرد ورغباته الشخصية].^(١) ولهذا السبب تحديداً، قد يُنظر حتّى إلى تنمية الدّوات الفاضلة بوصفها فعلاً آنيّاً. وزيادةً على ذلك، تنطوي عمليّة وصف الممارسات غير المتوافقة مع التّقوى بأنّها (غير تقيّة / متديّنة) أو (سحريّة) على إشكاليّة كبيرة. إذ يمكن لبعضهم أن يحتاج ويقول: إنّ تقسيم "بارت" يغض الطرف عن مسألة ارتباط الدّين والسّحر بالتصوّرات العامّة عن التّعافي والعلاج. وبحسب (مايكل دولز . Michael Dols) (يمثّل السّحر في المجتمعات المسلمة عادةً طريقةً ابتهاجٍ وتضريح أكثر توكيديّةً أو صلاةً مُعزّزةً [تحتوي على مقدار أكبر من الشّحن].^(٢) وعلى شاكلة ذلك، وصف (ر. شمت . R. Schmitt) السّحر بأنّه (فعلٌ طقوسيٌّ، يُؤدّى في موقفٍ مناسبٍ من خلال استخدام وسائلٍ مُقدّسة . عبارةً عن رموز، وكلمات، وأفعالٍ . ومعرفةً كونيّةً ابتغاءً بلوغ غاية مُحدّدة من خلال التّوقّع الرّمزيّ للتّدخل الإلهي).^(٣) وعلى الرّغم من كتابته "شمت" عن السّحر في (العهد القديم)، إلّا أنّه من "خلال/ عن" وجهة نظرٍ إسلاميّةٍ شائعة، حينما أكّد اعتماد السّحر أو فاعليّته وتأثيره على مشيئة الله. وهذا يقودنا إلى ما قاله الشّيخ صالح وأبو أحمد، بنحوٍ يذكّرنا بتعريف "شمت" من أنّ أيّ إجراءٍ علاجيٍّ مُحدّد لا يُكتب له النّجاح ولن يتحقّق به الشّفاء إلّا بإذن الله.^(٤) وتبعاً لذلك، تبقى استعادة العالم، والعلاج،

(١) ترجمت العبارة بنفسى . بارت مُقتبس في دوريمبولر (الدّين والسّحر) ٤ .

(٢) دولز "نظريّة العلاج بالسّحر" ٨٧ .

(٣) شمت مُقتبس في دوريمبولر (الدّين والسّحر) ٣ . قمت بالترجمة بنفسى .

(٤) ملحوظات حقليّة، الأربعاء، ٢٨ تشرين الأوّل عام ٢٠٠٩ .

والدِّينُ، والسَّحَرُ مُعْتَمَدَةٌ جَمِيعُهَا عَلَى مَشِيئَةِ اللَّهِ فِي رَأْيِ الْمَعَالِجِينَ الرُّوحَانِيِّينَ،
وكَذَلِكَ رَجَالُ الدِّينِ.

وِثْمَةٌ وَسِيلَةٌ أُخْرَى يُمْكِنُ أَنْ يُمَيِّزَ السَّحَرِ عَنِ الدِّينِ إِلَى دَرَجَةٍ
بِقِيَانِ مَعَهَا مَنْفَصِلَيْنِ وَمُحَدَّدَيْنِ مَكَانِيًّا: إِذْ يَنْبَغِي لِلْفَرْدِ ابْتِغَاءَ حُضُورِ مَجَالِسِ
الْعَزَاءِ مِثْلًا، أَنْ يَذْهَبَ إِلَى حَوْزَةٍ أَوْ حُسَيْنِيَّةٍ. وَبِالْمِثْلِ، يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ ابْتِغَاءُ
الْحُضُورِ عَلَى "الطَّبِّ الرُّوحَانِيِّ" زِيَارَةُ الشَّيْخِ.

وِثْمَةٌ مُمَارَسَاتُ أُخْرَى، مِثْلُ ارْتِدَاءِ الطَّلَاسِمِ وَالتَّعْوِذَاتِ غَيْرِ الْمُحَدَّدَةِ
بِمَوْقِعٍ وَالْعَابِرَةِ لِلْحُدُودِ. وَزِيَادَةٌ عَلَى ذَلِكَ، تَوْكُّدُ الْمُنَاقَشَاتِ الْأَكَادِيمِيَّةِ بِشَأْنِ
الْمُمَارَسَاتِ الْمُخَالَفَةِ عَادَةً عَامِلِ الْجَنْدَرِ؛ إِذْ كَتَبْتُ (جَانِيسُ بُوْدِي . Janice Boddy)
زِيَادَةً عَلَى بَاحِثِينَ آخَرِينَ عَنْ "الزَّارِ" فِي السُّودَانِ، وَدَرَسْتُهُ بِوَصْفِهِ
بَدِيلًا جُنُوسِيًّا عَنْ "الْمُمَارَسَةِ التَّقْلِيدِيَّةِ".^(١) وَيُلْحِظُ عَلَى الْحَالَةِ السُّورِيَّةِ أَنَّهَا
تُخْتَلِفُ عَنْ دِينَامِيَّاتِ الْجَنْدَرِ الْمُتَمَاسِّسَةِ؛ وَفِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ تَحَاكِيهَا. فَمِنْ جَانِبٍ،
تُخْتَلِفُ الْأَحْيَاظُ اخْتِلَافًا مَلْحُوظًا بِسَبَبِ اسْتِقْبَالِ الشَّيْخِ أَحْمَدَ لَزَبَائِنِهِ مِنْ
الْجَنْسَيْنِ كِلَيْهِمَا؛ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ عِدَدَ النِّسَاءِ يَفُوقُ كَثِيرًا عِدَدَ الرِّجَالِ. وَزِيَادَةً
عَلَى ذَلِكَ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ وَجُودِ "مُعَالِجَاتِ رُوحَانِيَّاتٍ"، إِلَّا أَنَّنِي لَمْ أَقَابِلُ قَطُّ
أَثْنَاءَ دِرَاسَتِي الْحَقْلِيَّةِ "مُعَالِجَةً رُوحَانِيَّةً" وَحَتَّى (كَاتِيَا سُونْدَرْمَان . Katja Sündermann)
الَّتِي دَرَسْتُ أَكْثَرَ مِنْ اثْنَيْ عَشَرَ مُعَالِجًا رُوحَانِيًّا، لَمْ تَذْكُرْ
سِوَى عِدَدٍ قَلِيلٍ مِنَ النِّسَاءِ بَيْنَهُمْ.^(٢)

(١) فِي سَبِيلِ الْمِثَالِ، جَانِيسُ بُوْدِي (أَرْحَامُ وَأَرْوَاحُ غَرِيبَةٍ) (مَادِيسُون: جَامِعَةُ وَيْسْكُونْسِن، عَامَ ١٩٨٩).

(٢) سُونْدَرْمَان، (الطَّبِّ الرُّوحَانِيُّ فِي سُورِيَا الْمَعَاصِرَةِ).

ويعكس المحل الذي يعمل فيه الشيخ أبو أحمد التدبير المؤسسي، فالشيخ ومساعدُه أبو الحسن (صالح) هما مجهزا علاج؛ في حين تتألف أكثرية الزبائن من النساء. وتبعاً لذلك، يمكن القول: إن محل الأعشاب الذي يديره أبو أحمد هو حيز نسائي بامتياز؛ من حيث كونه مغلفاً بالسّائر على الرغم من بقاء الباب الأمامي مفتوحاً.^(١)

عمل الشيخ صالح أثناء عملي الحقلّي، على إعادة تنظيم الحيز المكاني الذي كان يؤلّف في السابق "عيادة" - تعني كلمة العيادة على وجه العموم غرفة استشارة أو مُستوصف طبيّ وتنطوي على إichاءات مؤسّساتيّة وطبيّة - فحوّله إلى مضافّة، أو غرفة ضيافة.^(٢) وتسمح هاتان التسميتان كلتاهما وتمنحان مسوّغاً يبرّر اختلاط الجنسين.

وابتغاء جمع البيانات الأثنوغرافيّة لهذا الفصل، قضيت أوقات الظهيرة في حريف عام (٢٠٠٩ م) مع الشيخ أبي أحمد الذي يقضي أيامه مع عامله وشريكه في العمل في محل الأعشاب الواقع في الطرف الغربيّ من حيّ "هجر" في شمال شرق المرقد، قرب مناطق سكن الفلسطينيين والجولانيين. قابلت الشيخ أبا أحمد وشريكه مُصادفةً بعد وصولي إلى مرقد السيّدّة زينب في عام (٢٠٠٨ م) وتجوّلي في الشوارع للبحث عن وكالات عقارات حقيقيّة. وكان صالح مساعد الشيخ وكيل عقارات كذلك، وحينما أخبرته عن اهتمامي

(١) ما لم يأت الرجال مع نساء قريبات لهم أو يكونوا هم أنفسهم زبائن، ولكن يبقى الرجال واقفين عند السّتارة. وفي حال دخولهم يقوم الشيخ صالح بـ "طردهم".

(٢) في الكتابة عن الحيز، قارن مايكل غلزنان عام (١٩٨٢) غرف المعيشة (التقليديّة) العربيّة والصّالونات أوروپيّة الطراز، وقال: إن التّنظيم [المكاني] التّقليديّ يعزّز إقامة العلاقات الاجتماعيّة في حين يشدّد الطراز الجديد على الديكور الذي اختاره المضيف. انظر غلزنان (معرفة الإسلام) ١٨٠-١٨٧.

بالطُّقوسِ الدِّينيَّةِ، دَعَانِي لدخولِ المحلِّ وعَرَّفَنِي بِالشَّيخِ أَبِي أَحْمَدَ؛ إِلَّا أَنِّي لَمْ أَتَابِعْ مَوْضُوعَ الطَّبِّ الرُّوحَانِيِّ فِي صَيْفِ ذَلِكَ الْعَامِ، وَاخْتَرْتُ اسْتِثْنَاءَهُ حِينَمَا عَدْتُ فِي الْعَامِ التَّالِي، حَيْثُ طَلَبْتُ مِنْ صَالِحِ مُسَاعِدَتِي فِي الْعُثُورِ عَلَى شَقَّةٍ، وَقَابَلْتُ الشَّيْخَ أَبَا أَحْمَدَ الَّذِي طَلَبَ مِنِّي زيارَتَهُ؛ وَرَوَى لِي أَثْنَاءَ ذَلِكَ اثْنَانِ مِنْ مَعَارِفِي تَجَارِبُهُمَا مَعَ الطَّبِّ الرُّوحَانِيِّ، وَفَكَّرْتُ عِنْدَهَا فِي أَنَّ هَذَا الْمَوْضُوعَ هُوَ بِمَنْزِلَةِ تَمَمِّهِ لِدِرَاسَتِي عَنْ التَّدِينِ الْمُؤَسَّسَاتِيِّ وَمَجَالِسِ الْعِزَاءِ فِي الْمَحْرَمِ. وَزِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ، وَبَيْنَمَا كُنْتُ أَشَاهِدُ أَبَا أَحْمَدَ وَهُوَ يَهَارِسُ مِهْنَتَهُ، لَحِظْتُ أَنَّ بَعْضاً مِنْ زِبَائِنِهِ كَانُوا طُلَّاباً فِي الْحَوْزَةِ. وَبِكَلِمَاتٍ أُخَر: ثَمَّةُ زِبَائِنُ يُفْتَرَضُ أَنَّهُمْ مُتَدِينُونَ. كَمَا جَمَعْتُ بَيَانَاتٍ مِنْ خِلَالِ قِرَاءَةِ الْكُتُبِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَوَفَّرَةِ فِي مَحَالِّ الْأَعْشَابِ عَنْ الطَّبِّ الرُّوحَانِيِّ.

وَفِي ضَوْءِ الْمَقْدَارِ الْكَبِيرِ مِنَ الْإِهْتِمَامِ الَّذِي يَبْدِيهِ رَجَالُ الدِّينِ بِمَوْضُوعَاتِ السَّحْرِ بِعَامَّةٍ، وَالطَّبِّ الرُّوحَانِيِّ بِخَاصَّةٍ، زِيَادَةً عَلَى حَقِيقَةِ بَحْثِ الشَّيْعَةِ الْعِرَاقِيِّينَ عَنْ الْمَعَالِجِينَ الرُّوحَانِيِّينَ، فَهَذَا يَعْنِي أَنَّ الْمُمَارَسَاتِ الْمَخَالَفَةَ تَوَلَّفُ جَانِباً مَهْماً مِنْ حَيَاةِ الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمِيَّةِ، وَأَنَّهَا تَسْتَحِقُّ التَّحْلِيلَ بِوُضُوفِهَا جُزْءاً مِنَ الْإِسْلَامِ "الشَّعْبِيِّ".

فِي مُوَاجَهَةِ الطَّبِّيبِ الرُّوحَانِيِّ:

إِنَّ حُصُولَ الْفَرْدِ عَلَى مَا يَرِيدُهُ مِنَ اللَّهِ أَوْ الْإِمَامِ عَنْ طَرِيقِ نَذْرِ النَّذُورِ [ذَاتِ الطَّابِعِ الدِّينِيِّ] قَدْ يَسْتَغْرِقُ وَقْتاً، أَشْهُراً أَوْ حَتَّى سِنِينَ. وَحِينَمَا يَشْعُرُ الشَّيْعَةُ بِالْيَأْسِ وَلَا يُمْكِنُهُمُ الْاسْتِمْرَارُ فِي انْتِظَارِ الْمَشِيئَةِ الْإِلَهِيَّةِ، فَإِنَّهُمْ قَدْ يَقَرَّرُونَ زِيَارَةَ "الطَّبِّيبِ الرُّوحَانِيِّ".

ويبيّن المثال التّالي هذا الإحساس بالرّغبة الملحة:

في اليوم الثّالث من زيارتي الحقلية الثّانية، كنتُ أتحدّث مع "آمال" في منزل عائلتها الذي يقع قريباً من منزل والدّيتها، وبينما كنّا على وشك المغادرة، جاءت أمّها لتبلغها خبراً سيّئاً: أبو محمّد يريد تطليق أُمينة. ابتنتها الأخرى وأخت آمال! هل تعرفين شيخاً ساحراً يمكنه منعه؟

ولائيّ كنتُ أعلم بعمل الشيخ صالح مع الطّبيب الرّوحانيّ أبي الحسن، توجّهتُ وآمال إلى "غرفة الاستشارة" مباشرة، وتحدّثنا إليه بشأن الموضوع أثناء شربنا القهوة. ثمّ جاءت أُمينة في اليوم التّالي مع طفلتيها الصّغيرين إلى شقّة آمال، حيث وافق أبوهما على رعاية الطّفل الرّضيع كي تتمكن أُمينة، وأختها آمال وأُمهما منى من زيارة الشيخ أبي أحمد الطّبيب الرّوحانيّ.

رحّب بنا الشيخ أبو أحمد في عيادته / محله، وطلب منّا الجلوس، ثمّ غادر المكان لإعداد القهوة. كان كريماً في ضيافته وعرض علينا السّكائر، وأوقد البخور. وأسهمت مدّة غيابه الطّويلة نسيّاً في تشجيع الزّبائن على الحديث والكشف عن متاعبهم، ومشكلاتهم، وتجاربهم الشخصيّة. وكان الشيخ يضيغيهم أثناء مجيئه وذهابه. وحينما استقرّ أخيراً في كرسيه، أخذ يطرح بحذرٍ تقيمه للموقف.

تحدّث مع أُمينة عن شخصيّتها، وماضيها، وزوجها، وحياتها ومشكلاتها، وكان يفعل ذلك ببطءٍ دائماً، وبصيغ نوعيّة، لاستشارة التعليقات التي توجّه، وتصحّح، وتعزّز توكيداتِه العامّة.^(١)

(١) يُعدّ "الإضمار" محوراً لممارسة السّحر، واعترف أبو أحمد لي بأنّه لا "يقول كلّ شيء". وادّعى أنّ ذلك سيؤدّي إلى أثر عكسيّ، وسيجعله وزبائنه يشعرون بالخرج.

وفي سبيل "إظهاره / كشفه" فحص الشيخ أبو أحمد علاقات أمانة الاجتماعية والعائلية وتوصل إلى تفسير: إن حمايتها تركزها، وألفت بلغة على أمانة وزوجها. واختبار فرضيته، استخدم الشيخ جسد الزبونة لمعرفة ما إن كان جرى عمل السحر لها في عملية يسميها الكشف، أو البحث أو الإظهار أو التعرض^(١). ومن خلال جعل جسم أمانة يرد ويتفاعل، أضحي هذا الجسم برهاناً على صحة الكشف الذي قام به الشيخ. إذ طلب منهم، أولاً، أن يمدوا أيديهم اليمنى، ثم بدأ يتلو تعويذاته التي ادعى أنها باللغة السريانية، لغة الجن؛ على الرغم من اشتغالها على مقاطع باللغة العربية (آيات من القرآن الحكيم وأسماء آل البيت، وبضمنهم الأئمة الأربعة عشر يذكرون كل على حدة).

وأخذ الشيخ أبو أحمد من تعلية الملابس الخاصة به سيفاً كليلاً طوله ثلاثون سنتراً، ولكنه صالح للاستعمال عند شحذه، واستخدامه كسيف تطهير، ولمس به رأس أمال لمساً رقيقاً وانتقل به يميناً ويساراً، ثم حركه قريباً من جسمها متجهاً من الأعلى إلى الأسفل، وشرح لي ما يقوم به مبيناً أن الجن يكرهون المعادن (الحديد)، ولهذا يغادرون جسم الزبون الذي يتلبسونه حالما يقرب المعالج المعدن منه! ثم تحرك الشيخ جيئةً وذهاباً وأمر الجن بتحريك يد الزبون / التي يرجح أنها ستتحرك إذا كان الزبون مسحوراً. وتبعاً لذلك، تتألف أولى مراحل الطب الروحاني أو الكشف العلاجي من إخراج "العمل" (الفعل الشرير). تتحرك أكثرية الأيدي؛ وعلى الرغم من وجود بعض من الزبائن الذين يعلن عنهم أبو أحمد بعد دقائق قليلة من مباشرته العمل، أنهم قد تخلصوا من السحر، وبعد تحرك اليد ومرور دقيقة من اللحظ المكثف، يشرع

(١) ويهر، قاموس اللغة العربية الحديثة ٢٨٩.

الشيخ وزبونه في مناقشة من قد يكون المجرم أو المعتدي؛ وفي حالة أقل تطرفاً، يخبر الشيخ النساء، في بعض من الأحيان، أنهن محسودات وأنهن مصابات بعين شريرة حسودة؛ إنه يخبرهن عن مخاوفهن ويقنعهن بأن أجسامهن تعمل بالضد منهن. والقصد من ممارسة الشيخ أبي أحمد هذه، هو أن يجعل جسم الزبونة وأحاسيسها تقنع بفضيلته وأدعائه، ويتلخص دور الزبونة في البرهنة على صحة هذه الادعاءات؛ إنها ترى وتشعر بالدليل، إنها ذاتها تمثل الدليل. (١)

وحالما يقنع الشيخ أبو أحمد زبونه أمانة بالسبب في متاعبها (وهي تؤمن بذلك سلفاً) يمضي في عمله للتخفيف من آثار هذه اللعنة [أو العمل] عن طريق تزويدها بـ "الحجاب"، وهو صيغة سحرية يكتبها على ورقة باللون الأحمر، ثم يضعها في قدح يملؤه بالماء، ثم يطلب منها أن تشرب منه. بعد ذلك، يطلب من أمانة أن تأخذ ورقة الحجاب [التي وضعها في حافظة بلاستيكية صغيرة جداً] وأن تغطسها في ماء ينغي لها أن تجعل زوجها يشرب منه ثلاثة أيام متتاليات. وأخبرها كذلك بضرورة قراءة آيات محددة من القرآن، وحذرهما من التصرف بغضب حيال ما قد يقوله زوجها: عليها أن تلتزم الهدوء مهما حدث. (٢)

لم يقع الطلاق بين أمانة وزوجها على الرغم من توعد إياها به، إلا أن فكرة قيام حماتها بعمل "سحر لها" ما زال يمنعها من الشعور بالراحة التامة. وبينما تمكن الشيخ من حل مشكلة أمانة الأنثى والمباشرة، ثمة جزء من عمل

(١) قارن مع بيير يوهانسن "من الكلمة إلى الأدلة الظرفية: الاعتراف والاجراءات القضائية في المجتمع الإسلامي: النظريات الفقهية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر" Ius Commune ٢٨ العدد ١ (٢٠٠١): ١-٤٦.

(٢) ملحوظات حقليّة، الاثنين، ٢١ أيلول عام ٢٠٠٩.

"المعالج الروحاني" يبقى دائماً مؤجلاً وغير محسوم. وبهذه الطريقة، تستمر العلاقة بين "المريضة" ومعالجها، إذ يتعين عليها أن تنتظر، ثم تعود إليه.^(١)

تساعد نظريته "نوسينغ" التي تقول: إن قوة السحر تكمن في طابعه السري من جانب؛ وفي مهارة الكشف عنه من جانب آخر... تساعد في التفكير بشأن "حقيقة" السحر، والأحلام، والمعجزات في مدينة السيّد زينب.^(٢)

ويكشف المرضى / الزبائن - أثناء انتظارهم - عن مكنونات أنفسهم، ثم يمرون بعملية "كشف" يجربها المعالج الروحاني الذي "يحجبهم" كجزء من العلاج، أو يمنحهم حجاباً؛ فالحجاب الذي يريده المريض / الزبون يحجبه من الأذى؛ إنه ورقة مستطيلة تُكتب عليها عبارات معينة، تُطوى على شكل مثلث وتُغلق وتُختتم. ومتى غُلقت هذه الورقة وخُتمت، لا ينبغي فتحها ولا ينبغي الكشف عما هو مكتوب داخلها قط. والآلة للانتباه أن تعليق الحجاب [بمعنى التعويذة أو التسمية] لا يُعدّ دوماً تجاوزاً للحدود الدينية المتعارف

(١) أخبرني أمال أخت أمينة بعد هذه الحادثة أنها قد استخدمت السحر في السابق في محاولة منها لحل مشكلاتها الزوجية. وخلافاً للشيخ أبي أحمد الذي تقدّره تقديراً عالياً على وجه العموم، فإنها تعتقد في أن المعالج الروحاني الذي لجأت إليه في الماضي كان يمارس السحر الأسود. لأن استعانتها به أدت إلى تطلبها. لجأت أمال إلى معالجة روحانية أخبرتها أنها ستحل مشكلاتها الزوجية جميعاً وطلبت منها جلب رأس خروف (ودجاجة يكون لون ريش رأسها أسود) وكفنا (قطعة قماش بيضاء تستعمل لتغليف الجثث). وطلبت المعالجة من أمال أن تلف الرأس والدجاجة، كلا على حدة بالكفن وتعقدتهما من طرفين ثم تدفنها في مقبرة في مكانين لا يفصلهما أكثر من مترين. وبعد قيامها بذلك، طلقت أمال خلال شهر. وهكذا لم تحل مشكلات أمال الزوجية بالطريقة التي تمنّتها. ملحوظات حقلية، الأربعاء، ٢٨ تشرين الأول، عام ٢٠٠٩.

(٢) نوسينغ (قبر والتر بنيامين) ١٢١-١٥٥.

عليها؛ لأنّها تشبه. وفي أحيان كثيرة تتضمّن - صيغاً معروفةً وشائعةً مثل صيغ صلاةٍ أو الأحرار^(١) في الكتب الدنيّة المعروفة أمثال (مفتاح الجنان).

تعريف الرقية الشرعية؛

وفقاً لما في البطاقة التعريفية، يظهر اسم الشيخ أبي أحمد ومساعدته أبي الحسن تحت العنوان التالي: (علاج الأمراض بالأعشاب الطبيعية).
ويذكر الشيخان في القائمة مُشكلات الخصوبة لدى النساء، وغيرها من الأمراض والحجامة والرقية الشرعية.

وقد تعني الرقية بحسب هانز ويهر. أي شيء من (سحر، تعويذة، تيممة، رقية)^(٢) وما يعلن عنه أبو أحمد وصالح، ويروّجان له هو (سحرٌ دينيًّا). وبحسب (سابين دوربميولر. Sabine Dorpmüller) تمثّل الرقية على وجه العموم شكلاً من أشكال "السحر" المسموح به، نظراً إلى استخدامه آيات من القرآن في عمل الرقية والتعويدات ابتغاء شفاء المرضى والأحباب. وزيادة على ذلك، يتضمّن هذا النوع المباح من السحر علاجات عشية مناسبة للإنسان، والاستخارة (مفردة تغطّي عدداً من الممارسات الرامية إلى مساعدة الأفراد على اتخاذ القرارات والبت في بعض من المسائل الحياتية) واستخدام "السحر الطبيعي" (لبس الخواتم المُرصعة بأحجار خاصّة) التي سنناقشها جميعاً أدناه.

(١) الأحرار. جمع حرز، وحرز الشيء هو المكان الذي يُوضع فيه لصورته والحفاظ عليه، وغالباً ما يُستعمل للأشياء النفيسة، ومنه اشتق الاسم المقصود هنا لجهة حفظ الشخص الذي يعلقه من الأرواح الشريرة والجنّ. (المقوم اللغوي).

(٢) ويهر (قاموس اللغة العربية الحديثة) ٣٥٥.

وتبعاً لذلك، أضحى السؤال المتعلق بالشَّيء الذي يؤلَّف السَّحر هو:
أين يوجد الحدُّ الفاصلُ؟.

جلبَ التَّحديثُ في أوربَّا معه مَفهُوماتٍ خطائيةً كثيرةً مِنْهَا "الدِّينُ
التَّنويريُّ" الذي يختلفُ عَنْ "الخرافة". وحدثتْ تَغْيِراتٌ ثَمائِلَةٌ في العَالَمَيْنِ
العَرَبِيِّ والإِسْلَامِيِّ، أعقبَهَا بروزُ تَغْيِيرٍ آخَرَ في الآوَنَةِ الأخيرة. فبعدَ أنْ تَزَعَمَتِ
الجَمَاعَاتُ السُّنِّيَّةُ المتطرِّفةُ الحملةَ ضِدَّ المراقِدِ الدِّيَنِيَّةِ وتقديسِ الأولياءِ، أَصْبَحَ
الشَّيْعَةُ. تحديداً - مُولَعِينَ، أو في الأقلِّ دفاعيينَ، بِشأنِ بعضِ الممارَسَاتِ،
أمثالِ لبسِ الخواتمِ المَرصُعةِ بأحجارٍ كريمةٍ خاصَّة. ويعني التَّصَدِّي للممارَسَاتِ
مثلِ هَذِهِ مُواجهَةَ الفردِ خَطَرَ نَعْتِهِ أو إدراجِهِ في خانَةِ الفكرِ الوَهَّابِيِّ، أحدِ
الكَلِمَاتِ المملُوعَةِ بَيْنَ الشَّيْعَةِ. إِلَّا أنَّ هَذَا لا يعني بآيَّةِ حَالٍ مِنَ الأحوالِ، أَنَّ
الشَّيْعَةَ في مَدِينَةِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ يَعْتَنُقُونَ "الْأَعْقَلَانِيَّةَ" في رَدِّ فِعْلٍ مِنْهُمْ على
السُّنَّةِ المَحَافِظِينَ.

يتحدَّثُ الشَّيْخُ أَبُو أَحْمَدَ مَعَ زَبَائِنِهِ عَادَةً عَنْ أنواعِ السَّحْرِ: فَتَمَّةُ سَحَرٍ
حَرَامٌ مُقَابِلُ "أَعْمَالٍ" حَلَالٍ. ويقتبسُ أَبُو أَحْمَدَ مِنَ الْقُرْآنِ لإثباتِ ما قالَهُ، ويبدأُ
بِالْفَرْضِيَّةِ الَّتِي تَقُولُ: (نَحْنُ لِسُنَا وَحِيدِينَ فِي هَذَا الْعَالَمِ)، وَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
فِي كِتَابِهِ: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)^(١) خَلَقَ اللَّهُ (الْجِنَّ وَالْإِنْسَ
لِيَعْبُدُوهُ. 'أَه! الْجِنَّ وَالْإِنْسُ!')^(٢) وَتَابَعَ الشَّيْخُ حَدِيثَهُ مُسْتَشْهِداً بِالْآيَةِ: (وَاتَّبِعُوا
مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سُلَيْمَانٍ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا
يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحَرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ

(١) سورة الذَّارِيَاتِ. الآية (٥٦).

(٢) مَلْحُوظَاتُ حَقْلِيَّة، الأُحَد، ١ تَشْرِينَ الثَّانِي عَامَ ٢٠٠٩.

مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمُرءِ
وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا
يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ
أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ^(١)

يَرَى الشَّيْخُ أَبُو أَحْمَدَ، أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تَثَبُّتُ أَنَّ السَّحَرَ هُوَ مُمَارَسَةُ قَدِيمَةٍ
وَالْهِيَّةُ فِي أَصْلِهَا، وَتَنْطَوِي عَلَى مَسْئُولِيَّاتٍ أَخْلَاقِيَّةٍ،^(٢) وَبَيَّنَّ أَنَّ السَّحَرَ الْحَرَامَ.
وَفَقْلاً لِلْقُرْآنِ. هُوَ السَّحَرُ الَّذِي يَفَرِّقُ الزَّوْجَ عَنْ زَوْجَتِهِ. وَأَكَّدَ الشَّيْخُ فِي مُقَابِلِ
ذَلِكَ أَنَّ لَمْ شَمَلَ الزَّوْجَيْنِ أَوْ الْعَائِلَةَ مَقْبُولٌ أَخْلَاقِيًّا، وَحَتَّى مَمْدُوحٌ
وَمُسْتَحْسَنٌ.^(٣) وَتَبَعًا لَذَلِكَ، فَإِنَّهُ مِنْ خِلَالِ تِلَاوَةِ آيَاتِ مِنَ الْقُرْآنِ؛ يَعْمَلُ
الشَّيْخُ أَبُو أَحْمَدَ فِي إِثْبَاتِ وَاقِعِيَّةِ مَهْنَتِهِ، وَمِنْ ثَمَّ جَوَازُهَا! وَيَسْتَشْهَدُ بِأَسْمَاءِ
الْأُتَمَّةِ الْأَرْبَعَةِ عَشَرَ فِي تَعْوِذَاتِهِ وَصَلَوَاتِهِ، وَهُوَ يَصِلُ بِانْتِظَامٍ وَبِنَحْوِ مَرِيٍّ
يَسْمَحُ لِلْآخَرِينَ بِمُشَاهَدَتِهِ، وَيُرَتِّدِي مَلَابِسَ الشُّيُوخِ الْقَبِيلِيِّينَ لَا رَجَالَ الدِّينِ،
وَيَسْتَمِعُ إِلَى بَاسْمِ الْكِرْبَلَائِيِّ زِيَادَةَ عَلَى الْكَلَّاسِيكِيَّاتِ الْعِرَاقِيَّةِ (الْأَغَانِي
الْوَطَنِيَّةُ وَالشَّعْبِيَّةُ) فِي تَلْفُونِهِ الْخَلْوِيِّ. وَتُظْهِرُ الصُّورُ الْمُعْلَقَةُ عَلَى الْجِدَارِ الْأُتَمَّةَ
الْمَعْصُومِينَ مَعَ لِحْظِ حَجَبٍ وَجُوهٍ الْمَهْدِيِّ وَالنِّسَاءِ خَلْفَ غِطَاءٍ.

يَجْلِسُ الشَّيْخُ خَلْفَ مَكْتَبٍ صَغِيرٍ مَرصُوفَةٍ جَوَانِبُهُ بِالْكِتَابِ، وَأَقْدَاحِ
قِيَاسٍ، وَأَقْلَامٍ، وَأَشْرَطَةِ قِيَاسٍ، وَلِحْظَتْ وَجُودَ حَاسُوبٍ عَاطِلٍ لِمَدَّةٍ وَجِيزَةٍ

(١) سورة البقرة. الآية (١٠٢).

(٢) بهذا المعنى يشابهه أبو أحمد العالم / رجل الدين الذي يُعَدُّ مُسْؤُولًا عَنْ مَقْلَدِهِ. انظر أدث زاتنو
"أصول تدريس التدين: كتب الأطفال الشيعة والأخلاق وبروز الموضوع المتدين" التدوة: مجلة
الخريجين عن مركز دراسة الدين في جامعة تورنتو (٢٠٠٩): ٦٢-٧٨.
(٣) ملاحظات حقليَّة، ٢٧ أيلول عام ٢٠٠٩.

(كَانَ الْحَاسِبُ، بِحَسَبِ مَا ذَكَرَهُ مَسَاعِدُ الشَّيْخِ، صَالِحٌ، لِلْعَرْضِ فَحَسِبُ). وهكذا، يدَّعي الشَّيْخُ المَشْرُوعِيَّةَ بوضْفِهِ "مَعَالِجاً رُوحَانِيّاً" مُسَلِّماً شِيعِيّاً، ويلتَمِسُهَا مِنْ خِلَالِ مَوْجُودَاتِ الثَّقَافَةِ المَادِّيَّةِ، والاكسسوارات المِهْنِيَّةِ وكذلك الطُّقُوسَ والعروضُ الأدائيَّةُ الجسديَّةُ. وقد ادَّعى الشَّيْخُ كَذَلِكَ زيارَتَهُ مرارَةً أَكْثَرَ الأُئِمَّةِ المَعْصُومِينَ فِي إِيْرَانَ والعِرَاقِ، وكَذَلِكَ تَوَجُّهُهُ إِلَى الحَجِّ، وَحَرَصَ عَلَى خَلْقِ الأَجْوَاءِ الَّتِي تُوحِي بِالْإِيْمَانِ، وَالْإِتِّفَاقِ، وَالْأَمَلِ - بَدَلاً مِنْ الحَسَدِ - بَيْنَمَا كَانَ يَخْرُجُ قِطْعاً مِنَ القِمَاشِ الأخضرِ الَّتِي يَصْطَحِبُهَا مَعَهُ إِلَى رِحَالَتِ الحَجِّ وَالَّتِي تَعَوَّدَ تَقْطِيعَهَا إِلَى قِطْعٍ مُتَبَايِنَةٍ فِي أَحْجَامِهَا لِيُوزَعَهَا عَلَى الزَّبَائِنِ الَّذِينَ يَحْتَفِظُونَ بِهَا كَرُقيَّةٍ شَرِيعَةٍ؛ إِنَّهُ. بِكَلِمَاتٍ أُخَرَ: يَسْتَخْدِمُ كَلاًّ مِنَ اللُّغَةِ والأَشْكَالِ الدِّينِيَّةِ المُسْتَمَدَّةِ مِنَ الثَّقَافَةِ المَادِّيَّةِ ابْتِغَاءَ الحُصُولِ عَلَى المَشْرُوعِيَّةِ وَحَتَّى الوَلَايَةِ الدِّينِيَّةِ.

وإِضَافَةً إِلَى مَا تَقَدَّمَ، يَحْرُصُ الشَّيْخُ. حَالِيّاً. عَلَى الحُصُولِ عَلَى أَشْكَالٍ دِنِيَّةٍ / عِلْمَانِيَّةٍ مِنَ الاحْتِرَامِ وَالهَيْبَةِ عَنْ طَرِيقِ اسْتِخْدَامِ التَّكْنُولُوجِيَا الحَدِيثَةِ، وَهُوَ يَحِيلُ فِي أَحَادِيثِهِ عَلَى المُمَارَسَاتِ الطَّبِيَّةِ الغَرِيبَةِ؛ فَهُوَ يَسْتَخْدِمُ هَاتِفَ الخُلُويِّ. فِي سَبِيلِ المِثَالِ. لِقِرَاءَةِ التَّعْوِيذَاتِ لَزَبَائِنِهِ الَّذِينَ يَتَّصِلُونَ بِهِ مِنْ الخَارِجِ. وَهُوَ يَعْطِي حُبُوبَ "أُومِيغَا ثَلَاثَةِ" لآلَامِ الرُّكْبَةِ، وَبِذَلِكَ يَدَّعِي السُّلْطَةَ بِفَضْلِ اسْتِعَانَتِهِ بِكُلِّ مِنَ الطَّبِّ الحَدِيثِ وَالتَّقَالِيدِ وَالمَعَارِفِ الطَّبِيَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ. وَهُوَ. زِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ. يَدَّعِي أَنَّهُ شِيعِيٌّ "حَدَائِيٌّ" وَ "عَقْلَانِيٌّ" بِسَبَبِ إِدَاتِهِ التَّطْبِيرِ. (١)

(١) قَارَنَ مَعَ دِيْبِ (الحَدَائِيِّ المَأْسُورِ). وَانْظُرِ الفَصْلَ الرَّابِعَ.

استحضار الجن:

على الرغم من تأكيد الشيخ أبي أحمد الشَّديد على جواز السَّحر الأبيض، إلا أن هذا لا يعني أنَّه لا يشارك في أفعالٍ مَكْرُوهَةٍ دينيًّا. فهو يستدعي الجن بين الحين والآخر. ففي سبيل المثال، حينما يعمل "عملاً" لجلب المحبة بين شخصين؛ فقد أخبرني "أبو الحسن" في إحدى زياراتي له: إني قد صيَّغتُ حدثاً استثنائياً في اللَّيلة الفاتية، إذ جاء أحد أصحاب المحالِّ مشتكياً من استمرار اختفاء النقود، وعلى الرغم من رفض الشيخ أبي الحسن سرد التفاصيل، إلا أنَّه ذكر أنَّه استحضر الجن ابتغاء معرفة الجاني الذي اتَّضح أنَّه أحد العاملين في المحلِّ الذي كان يسرق من عداة النقود.^(١)

وإضافةً إلى وظائفه التي أسلفنا الحديث عنها، يدعي الشيخ قدرته على تشخيص اللعنات وحالات التلبُّس بالجن، وهو يفعل ذلك. مثلاً لحظنا أعلاه. من خلال "الكشف" عن "العمل" وجعل أجسام الزبائن تنزعهم بمصداقية ما يقوم به. وثمة طريقة أخرى يستخدمها هي تفسير أحلام الزبائن، إذ قد تشتكي بعض من زبوانته من رؤية مشاهد جنسية فاحشة في أحلامهم! ويقرُّ الزبائن [رجالاً ونساءً] عادةً بتجارهم في هذا الجانب. والاستثناء هو في حالة الأم التي تشعر بالقلق من عدم رغبة ابنتها بالزَّواج، وعندها يجري الافتراض على وجه العموم. أن الفتاة لديها علاقة جنسية (مع الجن بدهاء) أو تكون شاهدة عليها، أو أنَّها على علاقة بجن يمنعها من الزَّواج.^(٢)

(١) ملحوظات حقليَّة، الخميس، ١٠ كانون الأوَّل عام ٢٠٠٩.

(٢) ملحوظات حقليَّة، الثلاثاء ١٧ تشرين الثاني عام ٢٠٠٩.

ويروي الزبائن أو الضيوف بين الحين والآخر أنواعاً أخرى من الأحلام. ففي إحدى المرات، وبينما كنت في المنزل أدون بعضاً من الملاحظات بشأن الحوزة، اتصل بي أبو الحسن لرغبته في تعريفني بأمر جورج المسيحية التي تقضي عامها مناصفة بين الولايات المتحدة وسوريا؛ كان أبو الحسن يريد أن يثبت لي تمتعه بسمعة "دولية" وأن قدوم زبائن من دول أخرى لاستشارته هو خير دليل على ذلك، ولهذا اتصل وطلب مني القدوم إلى المحل^(١).

جاءت أم جورج لاستشارة الشيخ بمسألة طلاقها وزواج ابنتها، وشخص الشيخ حالتها مبنياً أنه ثمة عمل معمول لها، بعد أن اختبر هل تحرّك يدها من تلقاء ذاتها أم لا؛ بعد أن جعلها تمسك قلماً يلامس قطعة من الورق بنحو ثابت، بينما كان يتلو عليها عبارات باللغتين العربية والشريانية، ويأمر يدها . باللغة العربية . لكي تكشف عن المسيء. وبعد فكّه رموز العلامات التي فعلتها، قرّر الشيخ أنها كتبت اسم (سالم) وهو رجل يهودي. وافقت أم جورج: فلدى زوجها شريك يهودي كان مهتماً بها عاطفياً. وشك أبو أحمد وأم جورج في أن هذا الشريك كان مسؤولاً كذلك عن عزوف ابنتها عن الزواج.^(٢) وتقع الحركة الجسمية اللاإرادية، أي شعور المرء بذاته، ولكنها ليست ذاته في الوقت ذاته... تقع في قلب هذه الممارسة.

وقد كانت الزبونة نفسها هي الشاهدة والمؤدية، إنمّا الوسيلة والغاية في آنٍ معاً.

(١) ملاحظات حقلية، الجمعة، ٢ تشرين الأول عام ٢٠٠٩.

(٢) ملاحظات حقلية، الثلاثاء، ١٧ تشرين الثاني عام ٢٠٠٩.

كَرَّرَتْ أُمُّ جُورْجَ زيارَتِهَا لِلشَّيْخِ بَعْدَ أُسْبُوعٍ، وَجَلَبَتْ فِي هَذِهِ الزَّيَارَةِ ابْنَتَهَا رَنا الْبَالِغَةَ مِنَ الْعَمْرِ اثْنَيْنِ وَعَشْرِينَ عَامًا، وَتَطَرَّقْنَا إِلَى مَوْضُوعِ الْأَحْلَامِ، وَأَبَدَتْ أُمُّ جُورْجَ رَغْبَتَهَا فِي سَرْدِ حَلْمِهَا: ^(١)

قَبْلَ عِدَّةِ سَنِينَ، حِينَمَا لَمْ يَكُنْ لَدَيْهَا سِوَى ابْنَتَيْهَا، كَانَتْ أُمُّ جُورْجَ تَرْغُبُ فِي إِنْجَابِ وَلَدٍ، وَفِي إِحْدَى اللَّيَالِي، رَأَتْ فِي الْمَنَامِ الْقُدَيْسَ جُورْجَ مَمْتِطِيًا حَصَانَهُ وَمَمْتَشِقًا رَحْمَهُ، فَتَوَجَّهَتْ إِلَيْهِ وَنَادَتْهُ فَتَوَقَّفَ وَانْتَظَرَهَا ثُمَّ سَأَلَهَا: (مَاذَا تَرِيدِينَ؟) فَطَلَبَتْ مِنْهُ أَنْ يَحَقِّقَ لَهَا رَغْبَتَهَا فِي إِنْجَابِ الْوَلَدِ. فَأَجَابَهَا: إِنَّ رَغْبَتَهَا سَتَحَقُّقُ. وَبَعْدَ أَقَلِّ مِنْ شَهْرٍ مِنْ رُؤْيَيْهَا الْحَلْمَ، وَجَدَتْ نَفْسَهَا حَامِلًا بِوَلَدٍ ذَكَرٍ.

كَانَ هَذَا الْحَلْمُ بِمَنْزِلَةِ مَصْدَرِ إلهَامٍ لَهَا، وَلِهَذَا شَعَرْتُ بِوَجُوبِ تَسْمِيَةِ طِفْلِهَا عَلَى اسْمِ الْقُدَيْسِ الَّذِي زَارَهَا فِي الْمَنَامِ امْتِنَانًا لَهُ. وَحِينَمَا ذَكَرْتُ ذَلِكَ لَزَوْجِهَا، لَمْ تَعْجَبْهُ الْفِكْرَةُ إِطْلَاقًا، بَلْ أَرَادَ مِنْهَا تَسْمِيَتَهُ عَلَى اسْمِ جَدِّهِ الْكَبِيرِ؛ ثُمَّ رَأَتْ حَلْمًا آخَرَ فِي الْمَنَامِ، رَأَتْ الْقُدَيْسَ جُورْجَ يَحْمِلُ طِفْلًا، وَطَلَبَتْ مِنْهُ أَنْ يَعْطِيَهَا الطِّفْلَ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَرِيدُ أَخْذَهُ بَعِيدًا، فَحَلَفَتْ فِي الْحَلْمِ أَنَّهَا سَتَسْمِي الْوَلَدَ عَلَى اسْمِ الْقُدَيْسِ إِذَا وَافَقَ عَلَى إِعْطَائِهَا الطِّفْلَ، وَلِهَذَا عَارَضَتْ زَوْجَهَا وَلَمْ تَلَبَّ رَغْبَتَهُ، وَأَصْبَحَتْ أُمُّ جُورْجَ.

لَقَدْ انْتَصَرَ حَلْمُهَا عَلَى "التَّقْلِيدِ" الَّذِي يَقْضِي بِتَسْمِيَةِ الْإِبْنِ عَلَى اسْمِ جَدِّهِ الْأَكْبَرِ مِنْ جِهَةِ الْأَبِ.

وَتَمَّةُ أَمْرَانِ أَوْدُ التَّنْوِيَةِ بِهِمَا هُمَا: إِمْكَانُ الْحَدِيثِ عَنْ هَذَا الْحَلْمِ بِصَيَغِ الْمُعْجَزَةِ؛ وَالنَّذْرُ الَّذِي نَذَرْتُهُ أُمُّ جُورْجَ فِي حَلْمِهَا حِينَمَا وَعَدْتُ الْقُدَيْسَ جُورْجَ

(١) مَلَحُوظَاتُ حَقْلِيَّةٍ، الْجُمُعَةُ، ٢ تَشْرِينَ الْأَوَّلَ عَامَ ٢٠٠٩.

أَنَّهُا سَتَسَمِّي ابْنَهَا بِاسْمِهِ. وفي وقتٍ متأخِّرٍ مِنْ مَسَاءِ الْيَوْمِ ذَاتِهِ، نَذَرَتْ أُمُّ جُورْجَ نَذراً آخَرَ، هُوَ أَنَّهُ إِذَا تَزَوَّجَتْ (خُطِبَتْ) ابْنَتُهَا فِي الْأُسْبُوعَيْنِ التَّالِيَيْنِ،^(١) فَاتِّمَّ سَتَذْبِجُ خُرُوفَيْنِ عِنْدَ مَحَلِّ الشَّيْخِ وَتَسَوِّزُ لِحْمَهُمَا عَلَى الْفُقَرَاءِ. وَلَكِنْ رَنَّا لَمْ تَزَوَّجْ خِلَالَ الْأُسْبُوعَيْنِ، وَلِهَذَا فَأُمُّ جُورْجَ غَيْرُ مُلْزَمَةٍ بِذَبْحِ الْخُرُوفَيْنِ.

كَانَتْ أُمُّ جُورْجَ إِحْدَى الزَّبَوَانِ الْمَسِيحِيَّاتِ الْقَلِيلَاتِ اللَّائِي يَتَرَدَّدْنَ عَلَى الشَّيْخِ أَبِي أَهْمَدَ الَّذِي كَانَ وَشْرِيكُهُ كَرِيمَيْنِ فِي تَوْزِيعِ الْبَطَاقَاتِ التَّعْرِيفِيَّةِ بِهِمَا ابْتِغَاءَ الْوُصُولِ إِلَى عَدَدٍ أَكْبَرَ مِنَ الزَّبَّائِنِ الْمُحْتَمَلِينَ. وَفِي وَاقِعِ الْأَمْرِ، يُولَّفُ السُّكَّانُ الْمُحَلِّيُونَ مِنَ النِّسَاءِ الْعِرَاقِيَّاتِ، وَالْفَلَسْطِينِيَّاتِ، وَالسُّورِيَّاتِ أَكْثَرِيَّةَ زَبَّائِنِ الشَّيْخِ، وَكَانَ الْعَدِيدُ مِنْهُنَّ. إِنْ لَمْ يَكُنْ أَكْثَرِيَّتُهُنَّ سِنِّيَّاتٍ، زِيَادَةً عَلَى الْعَدِيدِ مِنَ الشَّيْعِيَّاتِ، وَقَلِيلٍ مِنَ الْمَسِيحِيَّاتِ وَالْعَلَوِيَّاتِ.

وَفِيمَا يَتَّصِلُ بِمَوْضُوعِ الدِّينِ وَالْمَذْهَبِ الشَّيْعِيِّ، حَاوَلَ الشَّيْخُ أَبُو أَهْمَدَ شَرْحَ مَسْأَلَةِ الْمَتْعَةِ أَوْ الزَّوْاجِ الْمُؤَقَّتِ لـ (أُمِّ جُورْجَ). فَوْقَ لَهَا، بِقَدْرَةِ الرَّجُلِ الزَّوْاجُ مِنْ أَرْبَعِ نِسَاءٍ زَوَاجاً دَائِماً، وَيُمْكِنُهُ زِيَادَةً عَلَيْهِنَّ. أَنْ يَتَزَوَّجَ زَوَاجَ مَتْعَةٍ بِأَيِّ عَدَدٍ مِنَ النِّسَاءِ. وَقَدْ شَعَرْتُ أُمُّ جُورْجَ بِالْارْتِبَاكِ وَالْحَيْرَةِ وَهِيَ تَسْتَمِعُ إِلَى مَا يَقُولُهُ الشَّيْخُ الَّذِي أَضَافَ سَرِيعاً: (عَادَةً أَحَبُّ أَنْ أَتَزَوَّجَ زَوَاجاً مُؤَقَّتاً، وَبِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ، قَدْ نَتِمَكَّنُ مِنْ فَهْمِ بَعْضِنَا بَعْضاً). ضَحِكْتُ أُمُّ جُورْجَ وَسَارَعْتُ إِلَى تَغْيِيرِ الْمَوْضُوعِ.

وَتَحَوَّلَ "حَوَارُ" الشَّيْخِ أَبِي أَهْمَدَ الـ (بَيْنَ دِينِي) إِلَى مَشْهَدِ كَرْنَفَالِيٍّ، حَيْثُ التَّرَكِيزُ عَلَى الْجِنْسَانِيَّةِ بَوْصُفِهَا جُزْءاً مِنَ التَّدِينِ الشَّيْعِيِّ وَالتِّي تَقْوُصُ. وَفِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ. تَقَلَّبُ فِكْرُ الزَّوْاجِ الْقِيَاسِيَّةِ الْوَقُورَةِ.

(١) عَلَّقَتْ بَتْرَجَ (١٩٨٥) قَائِلَةً: إِنَّ تَحْدِيدَ النَّذْرِ بِسَقْفِ زَمَنِي هُوَ مِنَ الْأُمُورِ الشَّائِعَةِ.

لم يكن عملي الحقلّي في محلّ الشّيخ أبي أحمد كرنفاليّاً على الدّوام، ففي الأيّام العاديّة، كان الشّيخ يقضي وقته عادةً في أداء أنواع مختلفةٍ من السّحر الأبيض أو المباح من مثل الاستخارة بالقرآن والسّحر الطّبيعيّ الذي تعلّمه من عددٍ متنوّعٍ من المصادر.

الكتب والاستخارة بالقرآن؛

في كلّ مرّة يسأل فيها أبو أحمد عن موطنه، كان يبيّن بفخرٍ أن أصله من العراق، حيث ما زال لديه زوجتان وأكثر من عشرة أبناء متزوّجين و "مستقرّين" جميعهم في حيواتهم العائليّة، وهو فخورٌ بذلك، لأنّه يدلّ على أنّه إنسانٌ ناجحٌ ومتفوّقٌ. ويوجي شعوره بالفخر ضمناً بأنّ رخاء عائلته وازدهارها هو بمنزلة دليل على أنّ رزقه ومكسبه حلالٌ؛ لأنّ الرّزق الحرام سيفسدهم ويجعلهم يفتقون في حيواتهم.

يقول الشّيخ: إنّّه تعلّم مهنته في إحدى "الكليات" وهذا يعكس التّوجّه الجديد حيث تُضاف مُفردة "الكلية" إلى أيّ شكل آخر ممكن من أشكال المؤهّلات التّعليميّة ابتغاء التّمتّع بالمكائنة الاجتماعيّة، ولكنّه ينهل معلوماته ومعارفه من الكتب كذلك. وقد طلب منّي الشّيخ في إحدى المرات العثور على كتاب (شمس الشّمس)^(١) وهو كتابٌ مختصّ بالسّحر. وحينما عثرتُ على

(١) هو كتاب تخطيط تحت، علاج فائد، حانّة عديدة، دعوات، وأقسام، عذائب عظمه، وأدب، حلّ المحنة، والأسال، والتّفصح، فكّ السّحر، وط الدخ، والحفظ والتّحصر، حلّ الذّقة، حلّ الخطأ، الهمة والنّصر، وقم العده، تلمذ الطّال، قضاء الحاجة، تسهيل الدّواء، الحما، الانجاب، علاج الصّداء، الأهواء، أه صاف العمال، حاني، ومواقيت البخور، وشروط كلّ خدمة وكلّ فائدة روحانيّة مذكورة في هذا المخطوط الكتاب.

كُتِبَ أُخْرَى مَتَوَّعَةً أَمْثَالَ (شَمْسِ الْمَعَارِفِ) لِلْكَاتِبِ الْمَعْرُوفِ أَحْمَدَ الْبُونِيِّ،^(١) عُلِقَ الشَّيْخُ قَائِلًا: إِنَّهَا جَيِّدَةٌ، إِلَّا أَنَّ (شَمْسَ الشُّمُوسِ) يَفُوقُهَا جُودَةً. وَزِيَادَةً عَلَى الْجُلُوسِ مَعَهُ فِي أَوْقَاتِ الظَّهِيرَةِ، حَيْثُ كُنْتُ أَشْعُرُ بِالْمَلَلِ فِي بَعْضِ مِنَ الْأَحْيَانِ فِي انْتِظَارِ الزَّيَّاتِنِ، كُنْتُ أَجْلِبُ مَعِيَ كُتُبًا اشْتَرَيْتُهَا مِنَ الْمَكَاتِبِ التَّابِعَةِ لِلْحَوْزَةِ وَعِنْدَ جِسْرِ الرَّئِيسِ (الرَّئِيسِ) بِدَمَشَقَ.

كَانَ الشَّيْخُ أَبُو أَحْمَدَ يَسْتَعِينُ بِكُتُبٍ حَصَلَ عَلَيْهَا كَذَلِكَ مِنَ الْمَكَاتِبِ التَّابِعَةِ لِلْحَوْزَاتِ أَمْثَالَ الْكُتُبِ الْمُعَنُونِ بِ (خَيْرَةُ الصَّادِقِ) وَكَانَ يَسْتَخْدِمُهَا لِلِاسْتِخَارَةِ الَّتِي يُمْكِنُ عَدُّهَا أَحَدَ أَنْوَاعِ الْعِرَافَةِ / التَّنْجِيمِ؛ لَوْ لَمْ تَكُنْ مُتَجَذَّرَةً بِقُوَّةٍ فِي "الْمُمَارَسَةِ الْمُخَالَفَةِ". وَغَنِيٌّ عَنِ الْبَيَانِ مُمَارَسَةَ أَفْرَادِ الْمَذْهَبِ الشُّنِّيِّ وَالشُّعْبِيِّ كُلِّهِمَا الْاسْتِخَارَةَ؛ عَلَى الرُّغْمِ مِنْ اخْتِلَافِهَا قَلِيلًا. إِذْ تُمَارَسُ

كَأَنَّ تَضَمُّنَ شَيْءٍ حَاتٍ، وَدَسَافَةَ الْعِلْمِ الْهَاجِثَةِ، وَتَطَبُّقَاتِ عَمَلِيَّةٍ، وَشَيْءٍ حَالِ كِفَّةٍ عَمَّا الْفَائِدَةُ الْهَاجِثَةُ لِطُلَّابِ الْعِلْمِ وَالشُّبَّانِ خَالِدًا سَمَاءً فِي حِلْيَةِ الْمَحَبَّةِ، وَتَسْجِ الْحَسَنِ، وَحِلْيَةِ مَحَبَّةِ اللَّهِ حَ، وَطَاعَةِ اللَّهِ حَقَّةً، وَتَسْجِ الْحَسَنِ لِلخَطِيئَةِ وَالْإِهَابِ، وَحِلْيَةِ الْقُدِّ لِلْمُفَاقَةِ عَالِ اللَّهِ حَ، وَمَحَبَّةِ أَمِّ اللَّهِ حَ، وَمَحَبَّةِ النَّاسِ وَالْقَبُولِ بِنِعْمَةِ الْعَمَلِ الْحَظِّ فِي التَّحَارُّقِ وَالصَّفَقَاتِ، وَتَسْجِ الْأُمُورِ وَدَفْعِ النَّحْسِ، وَالذَّخُولِ عَلَى الْحُكَّامِ؛ وَغَيْرِهَا مِنْ الْفَوَائِدِ وَالْأَعْمَالِ الرُّوحَانِيَّةِ الْجَلِيلَةِ (الْمُتَحَمَّة).

(١) شَمْسُ الْمَعَارِفِ الْكَمَامَةِ، أَيْ شَمْسُ الْمَعَارِفِ وَلَطَائِفِ الْعَمَلِ، كِتَابٌ تَخَطَّطَ لِأَعْدَالِ سَحَابِ تَتَعَلَّقَ بِالْحَقِّ حَقِّمَا دِينِ الْإِسْلَامِ، وَنُسِبَ تَأْلُفُهُ إِلَى الْكَاتِبِ الْخَائِزِ أَحْمَدَ بْنِ عَلِيٍّ الْمَذْهَبِ الشُّنِّيِّ، سَنَةِ ٦٢٢ هـ تَمَّتْ طِبَاعَتُهُمَا حَدِيثًا مَعَ حَذْفِ وَتَحْدِثِ بَعْضِ مِنْ مَقْصِدَاتِهِ، وَكَانَ مَا نَالَ الْكِتَابَ بِنَوَالِ الْعَدِيدِ مِنْ أَمْرِ السَّحَابِ الْهَاجِثَةِ، أَمَّا عَنِ مَحْتَوَى هَذَا الْكِتَابِ فَهُوَ مَرْجِعٌ عَنِ الْمَوَاقِفِ الْهَاجِثَةِ وَالْمَقْصِدِ الْهَاجِثَةِ وَتَحْدِثِ الْحَقِّ.

وَفِيهِ وَصْفَاتُ خَطِيئَةٍ، وَشَعْدَةُ كَثَرَةٍ. وَالْمَذْهَبُ هَذَا مَعْرُوفٌ عِنْدَ الْمُتَعَمِّقِينَ بِالْهَاجِثَاتِ وَالسَّحَابِ وَضَبِّ الْأَمْرِ مَا شَاءَ، هَلْهُ مُؤَلَّفَاتُ فِي هَذَا الْمَدَانِ، وَلَقَدْ كَانَ بَعْضُ مِنَ الْحِلْمَةِ وَتَحْدِثِ عَمَّا فِي الْمَكَاتِبِ، وَتَحْدِثِ الْأَمْرَاتِ، وَتَحْدِثِ الْقَائِمِ، وَمِنْهَا التَّحْدِثُ الْحَقِّ وَكَانَ مَوْضِعُ تَعَاظٍ هَذَا النَّوْعِ مِنَ السَّحَابِ وَالطَّلَاسِمِ غَيْرِ الْمَفْهُومَةِ لَشَفَاءِ الْمُصَابِينَ بِالْمَسِّ حَسَبِ زَعْمِهِمْ. (الْمُتَرَجِمَةُ).

الاستخارةُ في المذهبِ السُّنِّيِّ عَنْ طريقِ صَلَاةِ رَكَعَتَيْنِ فِي اللَّيْلِ ابْتِغَاءَ الْحُصُولِ عَلَى إِرْشَادٍ مِنَ اللَّهِ أَثْنَاءَ النَّوْمِ، وَيُعَدُّ أَيُّ حُلْمٍ يَرَاهُ الْفَرْدُ لَيْلاً شُكْلاً مِنْ أَشْكَالِ الْإِرْشَادِ وَالتَّوْجِيهِ. وَثَمَّةُ نَوْعٍ آخَرٍ مِنَ الْاسْتِخَارَةِ يَشْتَرِكُ فِيهِ السُّنَّةُ وَالشَّيْعَةُ، هُوَ الْاسْتِخَارَةُ بِالْقُرْآنِ. فِيهِ الصَّفْحَةُ الثَّانِيَّةُ مِنْ (خَيْرَةِ الصَّادِقِ) يُعَرَّفُ الْقَرَاءُ مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ قَوْلُهُ وَفَعَلُهُ عِنْدَ الْاسْتِخَارَةِ، وَهُوَ:

(١) النِّبَّةُ الصَّادِقَةُ.

(٢) الصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ كَمَا فِي الْمَذْهَبِ الشَّيْعِيِّ الْاِثْنِي عَشَرِيِّ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ بِالْقَوْلِ: اَللّٰهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ.

(٣) قِرَاءَةُ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ مَرَّةً وَاحِدَةً.

(٤) قِرَاءَةُ: "يَا مَنْ يَعْلَمُ إِهْدِ مَنْ لَا يَعْلَمُ".^(١)

ثُمَّ يُؤْمَرُ مَنْ يُوَدُّ الْاسْتِخَارَةَ بِفَتْحِ الْكِتَابِ بِنَحْوِ عَشَوَائِيٍّ، حَيْثُ تَحْتَوِي كُلُّ صَفْحَةٍ فِي (خَيْرَةِ الصَّادِقِ) عَلَى يَمِينِ الْقَارِئِ عَلَى آيَةٍ قُرْآنِيَّةٍ سَتَظْهَرُ فِيهَا أَصْبَحَ حَالِيًّا النُّسْخَةُ الْقِيَاسِيَّةُ الْمُعْتَمَدَةُ مِنَ الْقُرْآنِ.^(٢) وَتُفَسِّرُ الْآيَةَ فِي الْجِهَةِ الْيُسْرَى، إِمَّا إِيْجَابًا (بِمَعْنَى امْضِ فِي الْأَمْرِ) وَإِمَّا سَلْبًا (بِمَعْنَى لَا تَفْعَلْهُ) أَوْ شَيْئًا ثَلَاثًا غَيْرَ مُحْسُومٍ؛ وَالتَّفْسِيرُ الَّذِي يَحْصُلُ عَلَيْهِ الرَّاعِبُ فِي الْاسْتِخَارَةِ مِنَ الْآيَةِ الْقُرْآنِيَّةِ هُوَ تَفْسِيرٌ مُّحَدَّدٌ سَلْفًا. وَيُمْكِنُ لِلنِّسَاءِ تَقْنِيًّا. عَمَلُ هَذِهِ الْاسْتِخَارَةِ بَأَنْفُسِهِنَّ، وَلَكِنْ بَعْضُهُنَّ غَيْرُ وَاعٍ لَذَلِكَ، وَلِهَذَا يَفْضُلُنَ رُؤْيَا الشَّيْخِ وَاسْتِشَارَتَهُ. وَالْاسْتِخَارَةُ لَيْسَتْ هِيَ الشَّيْءُ الْوَحِيدُ الَّذِي يَفْعَلُهُ عِنْدَ التَّوْجُّهِ إِلَى

(١) (خَيْرَةُ الصَّادِقِ) (بِירוْتِ مُؤَسَّسَةِ الْبَلَاغَةِ، عَامَ ٢٠٠٢) ٣، قَمَتْ بِالترجمةِ بِنَفْسِي.

(٢) أَقْصَدُ بِالنُّسْخَةِ الْقِيَاسِيَّةِ النُّسْخَةَ الْمِصْرِيَّةَ لِعَامِ ١٩٢٤، وَهِيَ النُّسْخَةُ الْأَكْثَرُ شُهْرَةً بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ حَالِيًّا.

الشيخ، فالجلوس في غرفة الضيوف، والإصغاء إلى مشكلات الآخرين ومتاعبهم، وشرب القهوة، هو جزء من التجربة.

ولا ينحصر عمل الشيخ أبي أحمد . على وجه العموم . في الاستشارة فحسب، فمثلاً، حينما سألته "نور" الملاية العراقية من البصرة، عما إذا كان ينبغي لها الزواج من خطيب محدّد، استخدم الشيخ الاستشارة، وكذلك الضرب بالرمل، حيث تُستخدم الأرقام ابتغاء التكهّن ومعرفة الغيب. حيث جمع أبو أحمد اسمي نور وخطيبها؛ ليحدّد مدى التوافق بينهما. وخلافاً للممارسة التقليدية، يؤكّد اسمها خاصيّة التحدّر من جهة الأمّ. وتبعاً لذلك، فالدين وكشف الطالع أو العرافة "يعكس" أحدهما الآخر.^(١)

يستشير الشيخ أبو أحمد علم الفلك كذلك حينما يخبر زبائنه هل الزواج مناسب لهم أم لا، وهل سينجبون ذريّة وكم عدد الأطفال. كما يحدّد أبو أحمد أبراجهم من القيمة الرقمية لأسمائهم وأسماء أمهاتهم الأول، ومن ثمّ فهو يحدّد مرتّين ملائمتهما للزواج بالاستناد إلى القيمة الرقمية لأسمائهم. ويرى الشيخ أنّ البرج "الصحيح" ينبغي أن يُحدّد بالاستناد إلى الاسم، لا تاريخ الميلاد.^(٢) وزيادة على ذلك، لا يرى أبو أحمد تناقضاً بين الأبراج والفلك من جهة، والدين من جهة أخرى، فهما لا يمثلان نقيضاً للتقوى العقلانيّة، ويؤلّفان جزءاً من أحد أشكال التقوى الواعيّة جسدياً وحسيّاً، إنّهما أشياء في الوجود في البصر الواضح المنظور، أشياء تؤثّر فينا وتجعلنا نشوّر.

(١) ملاحظات حقليّة، الأحد، ٢٧ أيلول عام ٢٠٠٩.

(٢) المصدر ذاته.

وَيُعَدُّ التَّنَجِيمُ بَيْنَ الشَّيْعَةِ فِي مَدِينَةِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ بِخَاصَّةٍ، وَبَيْنَ الْعَرَبِ
بِعَامَّةٍ، عِلْمًا يَضَاهِي فِي عَدَمِ دَقِّقِهِ عَدَمَ دَقَّةِ الْعُلُومِ الْآخَرَى.
لَا تَتَوَفَّرُ الْكُتُبُ الْمَذْكُورَةُ أَعْلَاهُ مِثْلُ (شَمْسُ الشُّمُوسِ) وَ(شَمْسُ
الْمَعْرِفَةِ) فِي مَحَالِّ الْكُتُبِ فِي مَدِينَةِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ، رَبَّمَا لِأَنَّهَا يَشْرَحَانِ كَيْفَ
يُمَارَسُ السَّحَرُ بِنَوْعِيهِ الْمَفِيدِ وَالضَّارِّ؛ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَمْنَعِ مَحَالَ الْكُتُبِ فِي
الْحَوَازِ مِنْ عَرْضِ مَجْمُوعَةٍ مُتَنَوِّعَةٍ وَكَبِيرَةٍ مِنَ الْكُتُبِ عَنْ مَوْضُوعَاتٍ مِثْلِ
التَّنَجِيمِ، وَقِرَاءَةِ الْكُفِّ، وَالِاسْتِخَارَةِ، وَكَيْفِيَّةِ تَفْسِيرِ الْأَحْلَامِ، وَأَحْجَارِ
الشِّفَاءِ، وَالْحِجَامَةِ؛ وَغَيْرَهَا مِنَ الْعُلُومِ الشَّعْبِيَّةِ لِلْبَيْعِ بِأَسْعَارٍ مَعْقُولَةٍ، لِأَنَّهَا
تَوَلَّفُ الْأَعْمَالُ "الْمُجَرَّبَةُ" الَّتِي وَصَفَتْهَا "سَابِين دُورِيمُولِر" مَقْتَبَسَةً وَصَفَهَا مِنْ
(أُولْمَان، ب) [التَّجْرِبَةُ هُوَ التَّأَكُّدُ مِنَ الْوَصْفَةِ مِنْ خِلَالِ الْإِخْتِبَارِ].^(١)
وَتَشْتَمِلُ . بِحَسَبِ الشَّيْخِ أَبِي أَحْمَدَ وَمُسَاعَدِهِ صَالِحٍ . سَوْقُ هَجَرَ عَلَى كُلِّ مِنْ
كُتُبِ الْإِسْتِخَارَةِ (تَسْمَى الْإِسْتِخَارَةُ بِالْقُرْآنِ الْإِسْتِخَارَةُ الْمُجَرَّبَةُ بِالْقُرْآنِ
الْكَرِيمِ) وَالْعِلَاجُ بِالْأَعْشَابِ (لِلْأَمْرَاضِ الْمُخْتَلِفَةِ).^(٢)

(١) دُورِيمُولِر (الدِّينَ وَالسَّحَر) ٣٩. العبارة بِاللُّغَةِ الْأَلْمَانِيَّةِ (empirica, durch Erfahrung bestätigte Rezepte).

(٢) ثَمَّةُ كُتُبٍ صَلَوَاتُ مُجَرَّبَةٍ. تَبِيعَ الْحَوَازَةُ الشُّبْرَازِيَّةُ هَذِهِ الْكُتُبَ لِإِنْقَازِهَا مِنَ الْإِنْهَارِ الْمَالِيِّ. وَيَسْأَلُ الزَّيَّاتِنُ كَذَلِكَ فِي بَعْضِ مِنَ الْأَحْيَانِ: "هَلِ الْعِلَاجُ مُجَرَّبٌ؟" وَبِدَاهَةٍ، يَجِيبُ الشَّيْخُ دَاتِمًا بِالْإِيجَابِ. وَلَكِنِّي لَحِظْتُ كَذَلِكَ أَنَّهُ يَسْتَخْدِمُ كَرِيمَ الْوَجْهِ النَّوْعِيِّ ذَاتَهُ لِعِلَاجِ أَنْوَاعٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنْ أَمْرَاضِ الْجِلْدِ!.

السَّحَرُ الطَّبِيعِيُّ: الأحجار والخواتم:

كَانَ الْمَسْلُومُونَ الْأَوَائِلُ يَعْتَقِدُونَ فِي أَنَّ الْمَوَادَّ الطَّبِيعِيَّةَ أَمْثَالَ الْأَحْجَارِ، تَحُوزُ عَلَى خَصَائِصَ مُخْتَلِفَةٍ، وَفَقاً لـ (اميلي سافج . سمث . Emilie SavageSmith) فِي كِتَابِهَا (السَّحَرُ وَالْعِرَافَةُ فِي الْإِسْلَامِ الْمُبَكِّرِ). وَقَدْ كَتَبَتْ (جوتا شونفيلد . Jutta Schönfeld) فِي سِيَاقٍ مُتَّصِلٍ عَنْ "أَدَبِ الْخَوَاصِّ" مِنْ الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ،^(١) الَّذِي يَشِيرُ إِلَى السَّمَاتِ أَوْ الْخَصَائِصِ "غَيْرِ الْمَنْظُورَةِ" أَوْ بِمَعْنَى آخَرَ، الْأَسَالِيبُ الَّتِي تَوَثَّرُ بِوَسَاطَتِهَا الْأَحْجَارُ شَبَهَ الْكَرِيمَةِ عَلَى مَنْ يَرْتَدِّيْهَا عَلَى هَيْئَةٍ خَاتِمٍ أَوْ مُجُوهَرَاتٍ، أَوْ أَنْوَاعِ الْحِلِيِّ الْآخَرَى.

وَقَدْ صَرَّحَتْ الْعِرَاقِيَّةُ "أُمُّ جَاسِمٍ" وَهِيَ فِي أَوَاخِرِ الْعَشْرِينَاتِ مِنْ عَمْرِهَا، وَأُمُّ لُطْفَلَيْنِ بِرَأْيِهَا فِي الْحَرَزِ وَالْأَحْجَارِ. كَانَتْ أُمُّ جَاسِمِ الْمَتَزَوِّجَةِ مِنْ ابْنِ عَمِّهَا الشَّيْعِيِّ الْمَحَافِظِ مِنْ تَكْرِيتَ إِحْدَى النِّسَاءِ الْعِرَاقِيَّاتِ الْقَلِيلَاتِ اللَّائِي قَابَلَتْهُنَّ، وَلَمْ يَكُنْ يَلْعَنُ إِيْرَانَ، بَلْ كَانَتْ تَقْدِّرُ كَثِيراً الْأَشْكَالَ الْإِيْرَانِيَّةَ مِنَ التَّقْوَى؛ وَقَدْ تَحَدَّثَتْ كَيْفَ أَنَّ النَّاسَ ذَوِي الْحَاجَاتِ أَوْ الرِّغْبَاتِ يَشْتَرُونَ حُلَقَاتِ فَضِيَّةٍ مُرْصَعَةً بِأَحْجَارٍ شَبَهَ كَرِيمَةٍ، خُصُوصاً الْعَقِيقَ وَالْفَيْرُوزَ، وَذَلِكَ فِي شَهْرِ رَجَبِ الشَّهْرِ السَّابِعِ مِنَ التَّقْوِيمِ الْإِسْلَامِيِّ، وَيَتَمُّ دَفْنُهَا مَعَ حَرَزٍ مَأْخُودٍ مِنْ كُتُبٍ مَعْرُوفَةٍ أَمْثَالَ (مِفَاتِيحِ الْجَنَانِ).^(٢)

(١) شونفيلد . Uber die Steine .

(٢) مَلْحُوظَاتُ حَقْلِيَّةٍ، الثَّلَاثَاءُ، ١٥ كَانُونِ الْأَوَّلِ عَامِ ٢٠٠٩.

ووفقاً للمعتقدات الشيعية، كان الأئمة يتخذون الخواتم المرصعة بالأحجار، ويشجعون أتباعهم رجالاً ونساءً على فعل الأمر ذاته، وثمة روايات وأحاديث تبين كيف أن أحجاراً محددة مثل العقيق والفيروز كانت مأخوذة من الجبال الأول التي خلقها الله عز وجل. (١) وثمة اعتقاد شائع يفيد بقبول صلاة من يرتدي خاتماً مرصعاً بالعقيق أثناء الدعاء أو السجود، (٢) ويرتدي رجال الدين والمسنون خواتم مرصعة بأحجار مثل هذه. وتندلج الخواتم والساعات المرصعة بالأحجار وتعرض للبيع بكثافة في المحال المنتشرة حول المرقد وفي مبنى المرقد في السابق. (٣) وقد تكون هذه الخواتم باهظة الثمن، وقد يدل وضعها في الأصابع على التدنّي والتّقوى أو الثروة، أو أنّها مجرد تفضيل جمالي. إنّها تؤلف جزءاً من "التقليد الكبير" أو المتوارث، لما كان رجال الدين هم المجموعة الرئيسة التي تتخذ خواتم مثل هذه. (٤)

(١) يذهب بعضهم إلى أن القرآن الكريم يشير إلى هذه الحجارة في الجزء الأخير من الآية (٢٤) من سورة البقرة: {وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ...}. (المقوم اللغوي).

(٢) النساء مثل أم أحمد في حوزة الصدرين، يحرّكن عادة خواتمهن الذهبية المرصعة بالعقيق أملاً في قبول الملائكة صلاتهن لدى رؤية الخاتم. ملحوظات حقليّة، صيف عام ٢٠٠٨.

(٣) حتى صيف عام ٢٠٠٨، كان هناك بائع صغير السن داخل المرقد بين المصلّي ومقام السيّدة زينب. وكان يبيع الخواتم الفضيّة المنقوشة بنقوش دينيّة، والكتب والأقراص المدبّجة، وبطاقات صغيرة مكتوب عليها بعض من الصلوات. وبعد عام ٢٠٠٨ اختفى الكشك وحل محله محل صغير يُعرف بكشك الحارس مجاور المصلّي، ثمّ فتح مكتب قبالة هذا المحل الجديد وظيفته تقديم الإرشاد الدينيّ بحسب القطعة الإرشاديّة معتمداً في ذلك على الأحكام الفقهيّة للإمام الخامنيّ.

(٤) ممّا يلفت الانتباه أنّه حتى الشيعة اللبنانيون لا يعدّون "تقليد" لبس الخواتم عملاً "غير عقلائي" أو "متخلّفاً". قارن مع خالد سندواويّ "أبلغ ابن عمك أن يلبس خاتماً في يده اليمنى ويرصّعه بالعقيق: ملحوظات عن لبس الخواتم في اليد اليمنى بين الشيعة" مجلة الدراسات السامية ٥٧ العدد ٢ (٢٠١٢)، ٢٩٥-٣٢٠.

وزيادةً على ذلك، تبع محالُّ الكتبِ التابعة للحِزاتِ كُتُباً تبيَّن "القوى العلاجية" التي تتمتع بها الأحجار الكريمة وشبه الكريمة المعروضة للبيع^(١). وتقع هذه الكتب في قسمين تقريباً يصف أولهما تأثير الأنواع المختلفة من الأحجار والمعادن، وهي مُرفقةً بصورة توضيحية، وتقدم ثانيهما إرشادات بشأن كيفية اختيار الأحجار. ويقدم هذا القسم للقارئ عدّة خياراتٍ منهجية: خارطةٌ تحدّد قيمًا رقميةً لكل حرفٍ في الأبجدية العربية، وتبيّن كيف يُشتق عددٌ مُحدّد من اسم الفرد (باستخدام اسم الشخص الأول أو اسم العائلة - لا اسم الأم كما في الممارسات المخالفة الأخرى) يصدّق على حجرٍ مُحدّد. وثمة طريقة أخرى تقتضي إضافة أرقام تاريخ مولد الشخص والاعتماد على الرقم الأخير في اختيار الحجر،^(٢) ويُضاف إلى ذلك اقتران كل علامة من علامات الأبراج بحجرٍ مُحدّد يتعيّن على الفرد اتّخاذهُ.

وبالإمكان شراء هذه الخواتم الفضيّة والذهبيّة والخواتم المرصّعة بالأحجار، والساعات المتدلّية مع الأحراز ومربّعات السحر^(٣) من محالّ المجوهرات في أنحاء المدينة كافّة؛ وفي شارع العراقيّين، وفي سوق هجر، وبمحاذاة الجدار الغربيّ، وعلى طول الطريق الرئيسيّة. وثمة محلّ يبيع الخواتم الفضيّة، والأحجار الكريمة، والساعات المتدلّية حصراً يقع عند البوابة الغربيّة

(١) سارة كاظم محمد (عالم الأحجار الكريمة) (بيروت: دار المعارف الهاشمية، عام ٢٠٠٦).
(٢) في سبيل المثال، إذا كان ميلاد الشخص في الثالث والعشرين من تشرين الأوّل سنة ١٩٨١، إذن $2+3+1+0+9+8+1=25$ ، وزيادة على ذلك $2+5=7$ ، فإن الحجر الأمثل لهذا الشخص هو العقيق الذي يُعرف بين الشيعة كذلك أنّه حجر النبيّ عليه أفضل الصلوة والسلام.
(٣) في الرياضيات المسلية المربّع السحريّ هو مصفوفة مُربّعة تضم مُربّعات أصغر تحتوي على أعداد صحيحة بحيث أنّ حاصل جمع الأرقام في كل من الصفوف والأعمدة والأقطار يبقى ذاته. (الترجمة)

لمجمّع المرقد. وكلُّ ساعةٍ مُزوَّدةٌ بشريطٍ لاصقٍ يبيِّن الغايةَ مِنْهَا أو "نوعَ مَفْعُولِهَا": هل هي للحفاظ، أم الشِّفاء مِنَ المرض، أم جلبُ الرِّزْق، أم المحبة والزَّواج. وثمة إلى الشَّمالِ مِنَ البوابةِ الغربيَّةِ رجلانِ يجلسانِ إلى مناضدٍ أكبرَ ويعرضونَ عدداً كبيراً مِنَ الأحجارِ توفَّرُ للمشتريينَ مجموعةً متنوعةً مِنَ الخواتمِ والسَّاعاتِ المعلَّقة؛ ويفترشُ اثنا عشرَ رجلاً تقريباً الأرضَ إلى الشَّمالِ مِنَ الجدارِ الغربيِّ خارجَ منطقةِ الظِّلِّ، مثلُ المسئولينَ الجالسِينَ على قارعةِ الطَّرِيقِ، يبيعونَ خواتمَ وأحجاراً قليلةً موضوعَةً على قِطْعٍ مِنَ القماشِ مفروشةٍ على الأرضِ أمامَهُم.

وقد كَتَبَتْ (آنماري شيمل . Annemarie Schimmel) في السِّياقِ ذاتهِ عَنِ الأهمِّيةِ الصُّوفيَّةِ والرَّمزيَّةِ العالِيَةِ التي تتمتَّعُ بها الأعدادُ والمربَّعاتُ المنقوشةُ على الأحجارِ.^(١) وترى "شيمل" وآخرونَ أنَّ الأرقامَ التي تُرتَّبُ في المربَّعاتِ تمثِّلُ "الْعاباً رياضيَّةً" ورموزاً قويَّةً وصلَّتْ جوانِبُها الصُّوفيَّةُ إلى الغربِ، إلَّا أنَّها خَلَفَتْ وراءَها جوانِبُها المبتكرةَ رياضيّاً؛^(٢) حيثُ تُكْتَبُ هذه المربَّعاتُ السَّحريَّةُ على "حجاباتٍ" ورقِيَّةٍ وعلى أحجارٍ تُلبَسُ كمجوهراتٍ، وحتى على خواتمٍ ذهبيَّةٍ. وإضافةً إلى ذلك، يَبْنَتْ "شيمل" أنَّ المربَّعاتِ المختلفةَ تخدمُ أغراضاً متنوِّعةً: (قُدِّمَتْ مربَّعاتٌ مُحدَّدةٌ إلى امرأةٍ تعاني آلامَ المَخاضِ ثُمَّ وُضِعَتْ على بطنِها لتسهيلِ عمليَّةِ الولادة)^(٣) وترمزُ المربَّعاتُ

(١) شيمل (لغز الأرقام) (نيويورك: جامعة أكسفورد، ١٩٩٣).

(٢) شيمل (لغز الأرقام) ٢٩-٣١؛ شويلر كيان "مربَّعات السَّحَرِ الإسلاميَّةِ والهنديَّة، الجزء الأوَّل" مجلَّة تاريخ الأديان ٨ العدد ٣ (١٩٦٩): ١٨١-٢٠٩؛ شويلر كيان، "مربَّعات السَّحَرِ الإسلاميَّةِ والهنديَّة، الجزء الثاني" مجلَّة تاريخ الأديان ٨ العدد ٤ (١٩٦٩) ٢٧١-٢٩٩.

(٣) شيمل (سحر الأرقام) ٣٢.

الأخرى رقمياً إلى أسماء الله الحسنى مثل "الحافظ".^(١) والنوع الأكثر انتشاراً من المربعات هو المربع (٣) في (٣) الذي يستخدم الأرقام جميعاً من واحد إلى تسعة، بحيث إذا جمعنا الأرقام عمودياً، أو أفقياً، أو قطرياً، يكون حاصل الجمع (١٥).

ويستخدم أبو أحمد المربعات (٣) في (٣) و (٩) في (٩) وهو يستخدم المربع الأخير تحديداً لعمل السحر الخاص بـ "جلب المحبة" وفي سبيل المثال لإرجاع الزوج أو الزوجة الغاضبة.

وقد كتب (شويلر كمان . Schuyler Cammann) إن الثقافات المختلفة تفضل وضع أرقام مختلفة في المربعات السحرية.^(٢) ومما يلفت الانتباه أن أبا أحمد وزبائنه لا يذكرون قط الرقم (٧٨٦) الذي يمثل القيمة الرقمية للبسملة بالنسبة للمسلمين في جنوب آسيا، وهو رقم ميمون عند لبسه منقوشاً في الحلي أو المجوهرات أو رسمه على الجدران. وعوضاً عن ذلك، كتب أبو أحمد الرقم (٦٦) في وسط جدران الغرفة الأربعة مبيناً أن هذا الرقم يمثل القيمة الرقمية لله.

وثمة إلى جانب هذه المربعات السحرية وبموازاتها صلوات قصيرة تؤخذ عادة من كتيبات الصلاة، أمثال (مفاتيح الجنان) تكتب في بعض من الأحيان في الحجابات أو الحلي والمجوهرات. ويحتوي (مفاتيح الجنان) على قائمة بالصلوات التي يفترض أن الأئمة من آل البيت كانوا يستخدمونها، وقد

(١) المصدر ذاته، ٣٣.

(٢) كامان "المربعات السحرية الإسلامية والهندية، الجزء الأول" ١٨١-٢٠٩؛ كامان "المربعات السحرية الإسلامية والهندية، الجزء الثاني" ٢٧١-٢٩٩.

تُكْتَبُ هَذِهِ الصَّلَوَاتُ عَلَى وَرْقَةٍ كَيْ تُحْمَلَ فِي الْجَيْبِ أَوْ الْمُحْفَظَةِ، أَوْ تُنْقَشَ عَلَى أَحْجَارٍ شَبِهَ كَرِيمَةٍ تُتَّخَذُ كَخَوَاتِمَ أَوْ قَلَانِدَ. وَحِينَمَا يُعْطِي الشَّيْخُ أَبُو أَحْمَدَ خَوَاتِمَ أَوْ حَجَابَاتٍ مِثْلَ هَذِهِ، فَإِنَّهَا تُعَدُّ جُزْءاً مِنْ "الْعُلُومِ الْهَامِشِيَّةِ / الْوَاقِعَةِ عَلَى الْأَطْرَافِ" وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ حِينَمَا يَشْتَرِي النَّاسُ مَوَادَّ مِثْلَ هَذِهِ قَرَبِ الْمَرْقِدِ؛ أَوْ حِينَمَا يَتَحَقَّقُ الشِّفَاءُ فِي الْمَرْقِدِ أَوْ حَوْلَهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُعَدُّ مَعْجَزَةً تَجَسَّرَ الْهُوَّةَ بَيْنَ الْمُتَمَارَسَةِ التَّقْلِيدِيَّةِ وَالْمُتَمَارَسَةِ الْمُخَالَفَةِ.

المُعْجَزَاتُ: (١)

ثُمَّ نَوْعَانِ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ. وَفَقَال (آن بترج). هِيَ الْمُعْجَزَاتُ الْكُبْرَى وَالْمُعْجَزَاتُ الصُّغْرَى الْمَعْرُوفَةُ بِالْكَرَامَاتِ، وَالْمُرْتَبِطَةُ بِالْقُدِّيسِينَ، وَالصَّالِحِينَ، وَالْأَثَمَةِ مِنْ آلِ الْبَيْتِ.

وَبَيْنَمَا قَدْ يَجْتَرِحُ الصَّاحُّونَ الْمُعْجَزَاتِ بِوَصْفِهَا شِكْلاً مِنْ أَشْكَالِ الْكَرَامَةِ، لَا يُمْكِنُ شَرَاءُ "الْمُعْجَزَاتِ" بِالطَّرِيقَةِ ذَاتِهَا الَّتِي يَشْتَرِي بِهَا الزَّبَائِنُ الْعِلَاجَ مِنْ أَبِي أَحْمَدَ أَوْ يَسْتَشِيرُونَهُ بِأُمُورِ حَيَوَاتِهِمْ! وَعَلَى شَاكِلَةِ السَّحَرِ، قَدْ تَقَعُ الْمُعْجَزَاتُ خَارِجَ الْمَوَاقِعِ الدِّيْنِيَّةِ الْمُؤَسَّسَاتِيَّةِ، وَقَدْ تَقَعُ كَذَلِكَ فِي الْأَحْيَازِ الْمُقَدَّسَةِ، وَالْحُوزَاتِ، وَفِي مَرْقِدِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ وَحَوْلَهُ. وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ اخْتِلَافِهِمَا، إِلَّا أَنَّهُ يُرَجَّحُ أَنَّ السَّحَرَ وَالْمُعْجَزَةَ كُلِيهِمَا يُمَثِّلَانِ أَشْكَالاً مِنَ الطَّبِّ الرُّوحَانِيِّ.

(١) قُدِّمَتْ أَجْزَاءٌ مِنْ هَذَا الْمَبْحَثِ لِلنَّشْرِ فِي دَارِ بَرْلِ بِوَصْفِهَا جُزْءاً فِي إِحْدَى الدَّرَاسَاتِ الْمُرْمَعِ تَضْمِينِهَا فِي مَجْلَدٍ يَتَنَاوَلُ مَوْضُوعَ الْقَدَاسَةِ عُنْوَانُهُ: (الْقَدَاسَةُ فِي الدَّوَلِ الْهَشَّةِ، تَحْرِيرُ، أَنْدَرِيَّاسَ بَانْدَاكُ وَمِيكَلِيلُ).

وسأدرس في هذا المبحث أولاً سرديات الشفاء العجائبي، ثم أنتقل لتحليل سرديات أحلام النساء الشيعيات. وأخيراً، سأنظر في الرؤى والمعجزات التي لا تساعد في الطب الروحاني، ولكنها تعدّ - في رأي الكثيرين - براهين من الله، وهي بذلك تساعد في هذا النوع من "الطب".

في أحد أيام خريف عام (٢٠٠٩ م) مباشرة بعد تجديد إقامتي في سوريا، وبينما كنت أسير بمحاذاة المركز الثقافي الإيراني، فكرت مع نفسي: (ينبغي لي أن أدخل المركز وأبحث في محتويات المكتبة لمعرفة نوعية الكتب الخاصة بممارسات العزاء في المحرم).

ولدى دخولي المركز، شاهدت صورة كبيرة للإمام الخميني، وبداء لي كأنه ينظر نحوي بإنعام - ولكني لا أستطيع الجزم بأنه هل كان ينظر إلي باستحسان أم بلوم وتقريع، وقد أخبرني الموظف أن المكتبة تقع في الطابق الأرضي، فتوجّهت إلى هناك.

تتألف المكتبة من غرفة كبيرة تصطف في جوانبها رفوف الكتب، وثمة منصدة في وسطها تماماً؛ يجلس إليها الدكتور سميح الحسيني، السوري الذي تشيع، والذي حصل على درجة الدكتوراه في الأديان المقارنة من فرنسا.

سألني عن نوع الكتب التي أبحث عنها، فأخبرته عن بحثي عن الكتب التي تتناول طقوس العزاء الشيعية، فأخبرني بأنهم لا يملكون الكثير من هذه الكتب التي تتوفر بكمية أكبر في مكتبة الأسد، ثم سألني مستغرباً: ولكن ما سبب اهتمامك بهذا الموضوع؟. فأخبرته عن موضوع بحثي واهتمامي بموضوعات الطقوس، والإمامة، ومفهومات الطب الروحاني؛ وأخبرته كذلك عن زيارتي ودراستي في عدد من الحوزات العلمية. وقد تجهّم وجهه

حينما أخبرته عن دراستي في الحوزة الشيرازية! إذ قال: (إِنَّهُمْ شَعْبِيُونَ وَلَا يَبَالُونَ بِالْعَمَلِ الْبَحْثِيِّ الرَّصِينِ. كَمَا إِنَّ تَصَوُّرَاتِهِمْ عَنِ التَّطْيِيرِ مَغْلُوطَةٌ جَمِيعًا) ثُمَّ عَرَضَ عَلَيَّ أَنْ يُخْبِرَنِي قِصَّةَ الشَّخْصِيَّةِ مَعَ الْمُعْجَزَاتِ.

حَدَّثَ ذَلِكَ فِي عَامِ (١٩٩٨ م) بَيْنَمَا كَانَ يَلْقِي وَرَقَتَهُ الْبَحْثِيَّةَ فِي أَحَدِ الْمُؤْتِمَرَاتِ فِي إِيرَانَ، إِذْ شَعَرَ فَجَاءَةً بِالْمِ فِي حَنْجَرَتِهِ، كَمَا لَوْ أَنَّ حَبَالَهَا الصَّوْتِيَّةَ قَدْ قُطِعَتْ. فَكَتَبَ لَصَدِيقِهِ، مَنْظُمَ الْمُؤْتِمَرِ فِي وَرَقَةٍ (الرَّجَاءُ رَافِقُنِي إِلَى الْمَنْزِلِ). وَبِدَاهَةً، شَعَرَ الصَّدِيقُ بِالْحَيْرَةِ وَالْحَرْجِ، وَلَكِنَّهُ حِينَما لَحَظَ عِجْزَهُ عَنِ الْكَلَامِ، عَرَضَ عَلَيْهِ مِرَافَقَتَهُ إِلَى مَنْزِلِهِ.

وَتَوَجَّهَ سَمِيرٌ إِلَى أَفْضَلِ الْأَطِبَّاءِ فِي إِيرَانَ الَّذِينَ أَخْبَرُوهُ: (نَحْنُ آسَفُونَ جَدًّا، وَلَكِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ الْكَلَامَ بَعْدَ الْيَوْمِ) وَوَصَفُوا لَهُ بَعْضًا مِنَ الْمَهْدَثَاتِ وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَطِيعُوا الْقِيَامَ بِأَكْثَرِ مِنْ ذَلِكَ. وَكَمَا هُوَ مُتَوَقِّعٌ، شَعَرَتْ زَوْجَةُ سَمِيرٍ بِالْحَزَنِ وَبَكَتْ كَثِيرًا. وَحِينَما وَصَلَ سَمِيرٌ وَزَوْجَتُهُ إِلَى مَطَارِ دِمَشْقَ، كَانَ أَحَدُ أَصْدِقَائِهِ فِي انْتِظَارِهِ فِي صَالَةِ الْاسْتِقْبَالِ؛ رَأَى الصَّدِيقُ زَوْجَةَ سَمِيرٍ وَهِيَ تَبْكِي، فَظَنَّ أَنَّهَا تَبْكِي فَرَحًا لِرُجُوعِهَا إِلَى دِمَشْقَ، إِلَّا أَنَّهَا أَخْبَرَتْهُ بِالنَّبَاةِ عَنْ زَوْجَتِهَا: (لَمْ يَعُدْ بِقُدْرَةِ سَمِيرِ الْكَلَامِ!) وَكَانَ صَدِيقُ سَمِيرٍ قَدْ نَظَّمَ مَوْعِدًا لَهُ لِلِاقْتِاعِ مُحَاضَرَةٍ فِي السَّابِعَةِ مَسَاءً مِنَ الْيَوْمِ التَّالِيِ دَعَا إِلَيْهَا أَرْبَعِينَ أَسَاتِذَا وَطَبِيبًا تَقْرِيبًا، وَلَمْ يَكُنْ سَمِيرٌ يَعْلَمُ بِمَا أَعَدَّ لَهُ صَدِيقُهُ الَّذِي انْزَعَجَ كَثِيرًا مِنْ اِحْتِمَالِ فَشَلِّ مَا خَطَّطَ لَهُ.

وَتَوَجَّهَ الصَّدِيقُ وَضِيفُهُ الْمَرِيضُ فِي الْيَوْمِ التَّالِيِ إِلَى طَبِيبٍ مَعْرُوفٍ (وَتَوَافَقَ أَنْ كَانَ شَيْعِيًّا) فِي دِمَشْقَ مَخْتَصِّ فِي الْأُذُنِ وَالْأَنْفِ وَالْحَنْجَرَةِ. وَمَرَّةً أُخْرَى، كَرَّرَ الطَّبِيبُ الدَّمَشْقِيُّ مَا قَالَهُ الْأَطِبَّاءُ فِي إِيرَانَ: (أَنَا آسَفٌ، وَلَكِنَّكَ لَنْ

تستطيع الكلام بعد اليوم). وفي الساعة الخامسة مساءً، كتب سمير لصديقه: (اذهب بي إلى السيِّدة زينب) وعند باب المرقِد، طلب سمير من صديقه أن يتركه يتدبَّر أمره لوحده.

توجَّه الصديق لقراءة الزيارة وتوجَّه سمير مباشرةً إلى داخل المرقِد حيث الضريح. وهناك، تعلَّق بالشباك وقال في داخله: (يا سيِّدة زينب، ثمة مؤتمر مهمُّ اليلة. إذا كانت كلمتي مهمَّة لك، وإذا كنت تسمعينني. دعيني أتكلّم، وإلا فلتبقيني صامتاً) ثم أخذ يستمع إلى صوته وهو يعلو شيئاً فشيئاً منادياً: (اللهم صلِّ على محمَّد وآل محمَّد، اللهم صلِّ على محمَّد وآل محمَّد!) ثم توجَّه إلى صديقه وقال: (يمكننا الذهاب!) وشعر صديقه بالدهشة، وهذا أقلُّ ما يمكن أن يُقال.

تحدَّث سمير في ذلك المساء ساعتين متواصلتين بينما كان صديقه جالساً قبالة للتأكد من أن كلَّ شيء على ما يرام، لأنَّه لم يكن مصدقاً ما كان يجري. لم يعد سمير يشعر بالألم وكان يتحدث بطلاقة. وحينما عادَ إلى إيران، سأله الأطباء: (يبدو أن الأطباء في سورياً أفضل ممَّا في إيران! من الطَّبيب الذي عالجك؟) فأجابهم سمير (كانت طبيبةً)، فسألوه: (أين درَّست؟ في أمريكا، أوروبًا؟)، فأخبرهم سمير: (كلا، إنَّها السيِّدة زينب! اللهم صلِّ على محمَّد وآل محمَّد!).^(١)

يرى الدكتور سمير أن المهمَّ في الأمر ليس حدوث المعجزة فحسب، بل المكان الذي وقعت فيه، ولهذا فهو يشدُّد - من خلال التأكيد على وقوع المعجزة في مرقِد السيِّدة زينب - على مصداقية السيِّدة زينب، ويعبر عن

(١) ملحوظات حقليَّة، الخميس، ١ تشرين الأول عام ٢٠٠٩.

شعوره بالزَّهْوِ لِإِرْثِ سوريَّا الشَّيعِيّ، وتَمَزُّجُ قِصَّةِ سَمِيرٍ، مثَلَمَا هُوَ وَاضِحٌ، بَيْنَ الفَخْرِ القَوْمِيّ وشعور الولاء الطَّائِفِيّ.

وعلى شاكِلَةِ الشَّيْخِ أَبِي أَحْمَدَ، يَبْرُزُ سَمِيرٌ بوصْفِهِ حَدَثِيًّا مِنْ خِلالِ سِرِّهِ قِصَّةَ المُعْجَزَةِ الَّتِي تَحِيلُ عَلَى الْأَطْبَاءِ وَالْأَكَادِمِيِّينَ. إِلَّا أَنَّ الْقِصَّةَ ذَاتَهَا تُوْجِي بِأَنَّ التَّقَالِيدَ الشَّيعِيَّةَ حَمَلَ الْخِلَافِ تَنْجَاوُزُ الْعَقْلَانِيَّةِ الْحَدَائِثِ بِسَبَبِ تَحْدِيثِهَا الْقِيُودَ وَالْحُدُودَ الَّتِي يَفْرُضُهَا الطَّبُّ الْحَدِيثُ. إِذْ تَمَثَّلُ الْمُعْجَزَاتُ. وَفَقًّا لِلدُّكْتُورِ سَمِيرِ الْحُسَيْنِيِّ. عَمَلِيَّاتٍ فَوْقَ. عَقْلِيَّةٍ!.

وللبرهنة على ذلك، مَضَى يشرحُ حَالَتَهُ بِاستخدامِ قِياسٍ يَقُولُ: إِنَّهُ بَيْنَمَا يُؤَدِّي (أ) إِلَى (ب) وَ(ب) إِلَى (ج) فِي الْحَالَاتِ الطَّبَّيَّةِ، فَإِنَّهُ فِي الْمُعْجَزَةِ، يَقُودُ (أ) مُبَاشَرَةً إِلَى (ج)، وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ الْمُعْجَزَةَ نَتِيجَةُ جَيِّدَةٍ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ غَرَابَةِ الظُّرُوفِ الْمُحِيطَةِ بِهَا.

لَيْسَتْ جَمِيعُ الْمُعْجَزَاتِ مُؤَثَّرَةٌ أَوْ مُشَاهِدَةٌ عَلَى نِطَاقٍ وَاسِعٍ كَمَا هُوَ الْحَالُ فِي قِصَّةِ اسْتِعَادَةِ سَمِيرٍ قُدْرَتَهُ عَلَى الْكَلَامِ الْعَجِيبَةِ. وَمِثْلَمَا سَنَلْحِظُ أَدْنَاهُ، يَنَاقِشُ الْعَدِيدُ مِنَ الشَّيْعَةِ وَيَفْسِّرُونَ مُعْجَزَاتٍ أُخْرَى أَصْغَرَ، مِثْلَ الرُّؤْيِ وَالْأَحْلَامِ، وَيَبْحِثُ بَعْضُهُمْ عَنِ الْمُعْجَزَاتِ حَتَّى فِي حَيَوَاتِهِمُ الْيَوْمِيَّةِ.

تفسير الأحلام:

تَمَثَّلُ الْأَحْلَامُ - مِثْلَمَا تَبَيَّنَ فِي الْفُصُولِ السَّابِقَةِ - أَحَدَ الْعُنَاصِرِ الْمَهْمَةِ الَّتِي تَدْفَعُ الْأَفْرَادَ إِلَى نَذْرِ النُّذُورِ وَالْإِرْتِبَاطِ بِآلِ الْبَيْتِ، وَتَوْفُّرُ لِأَصْحَابِهَا فِي بَعْضٍ مِنَ الْأَحْيَانِ - مِثْلَمَا هُوَ الْحَالُ فِي قِصَّةِ أُمِّ جُورْجَ - فَرْصَةً لِلتَّفَاوُضِ عَلَى الشُّفَاءِ أَوْ إِنْجَابِ مَوْلُودٍ ذَكَرٍ.

سَأَتَحَدَّثُ فِي الْمَبَاحِثِ التَّالِيَةِ عَنِ الْأَحْلَامِ الَّتِي رَوَّهَا النَّسَاءُ الشَّيْعِيَّاتُ لِي
بَوْضْفِهَا أَحْلَامًا مُنْتَجَةً لِلْمُعْجَزَاتِ! إِذْ أَدَّتْ بَعْضُ مِنْ هَذِهِ الْأَحْلَامِ إِلَى شِفَاءِ
الْمَرْضَى، أَوْ التَّنَبُّؤِ بِالْمُسْتَقْبَلِ، بَيْنَمَا مِثْلُ حَلْمٍ آخَرَ فَأَلَّا سَيِّئًا، مَا زَالَ بِالْإِمْكَانِ
التَّخْفِيفُ مِنْ آثَارِهِ.

وَمِمَّا يَلْفُ الْإِنْتِبَاهَ انْطَوَاءً أَكْثَرَ هَذِهِ الْأَحْلَامِ - عَلَى شَاكِلَةِ الْمَهَارَسَاتِ الَّتِي
أَسْلَفْنَا الْحَدِيثَ عَنْهَا - عَلَى أَشْكَالٍ رَمْزِيَّةٍ مِنَ التَّبَادُلِ. وَبِحَسَبِ مَا بَيَّنَّتْهُ (أَمِيرَةُ
مِيتَرْمَاير . Amira Mittermaier): (فِي أَوْقَاتِ الْحُرُوبِ وَقَوَانِينِ الطَّوَارِي
وَالْتَّفَكُّكِ الْاجْتِمَاعِيِّ، تَزْدَادُ أَهْمِيَّةُ الْأَحْلَامِ، لَا بِسَبَبِ تَوْفِيرِهَا أَغْلَفَةً حَامِيَةً مِنَ
الْوَعْيِ الزَّائِفِ بِتَحَقُّقِ أُمْنِيَّاتِ الْحَالِمِينَ الْهَذْيَانِيَّةِ؛ بَلْ لِدَوْرِهَا فِي إِدْخَالِ الْحَالِمِ فِي
الشَّبَكَةِ الْأَوْسَعِ مِنَ الدُّيُونِ، وَالْعَلَاقَاتِ، وَالْمَعَانِي الرَّمْزِيَّةِ).^(١)

يُرْوَى أَحَدُ الْأَحْلَامِ الرَّئِيسَةِ وَالشَّائِعَةِ الَّتِي سَمِعْتُ نَسْخًا مُخْتَلَفَةً مِنْهَا
إِصَابَةَ أَحَدِ الشَّيْعَةِ بِمَرَضٍ شَدِيدٍ؛ وَحَلْمِهِ بِفَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ عَلَيْهَا السَّلَامُ الَّتِي
تَظْهَرُ عَادَةً بَعْبَاءَ سَوْدَاءَ وَوَجْهَهَا مُغَطَّى بِقِطْعَةٍ قِمَاشٍ إِمَّا خَضْرَاءَ وَإِمَّا سَوْدَاءَ،
فَتَعْمَدُ الزَّهْرَاءُ فِي الْحَلْمِ إِمَّا إِلَى لَمْسِ الْجَرْحِ أَوْ الْجُزْءِ الْمُصَابِ مِنْ جِسْمِ الْمَرِيضِ،
وَإِمَّا لِتَقْدِيمِ مَاءٍ إِلَى الْحَالِمِ لِيَشْرَبَهُ. وَعَنْ طَرِيقِ طَلْبِهِمُ الشِّفَاءَ فِي أَحْلَامِهِمْ
وَشَرْبِهِمُ الْمَاءَ، تَحْدُثُ عَمَلِيَّةُ التَّبَادُلِ الَّتِي تَسْمَحُ بِدَوْرِهَا بِبَدْءِ عَمَلِيَّةِ الشِّفَاءِ.

(١) أَمِيرَةُ مِيتَرْمَاير (الأحلام المهمة: مشاهد الخيال المصريّة) (بيركلي: جامعة كاليفورنيا، ٢٠١١) ٣-٢.

أخبرتني إحدى المسنات العراقيات عن أمها التي كانت مسيحية قبل أن تنزوح وتشيع أنها خائفة من الولادة، ولكنها حلمت بالزهرء وهي تلمس بطنها، وتبشرها بسهولة الولادة.^(١)

وفي مناسبة أخرى، اعتلت امرأة مسنة قابلتها في الحسينية المنبر في المحرم عام (٢٠٠٩ م) بعد انتهاء مجلس العزاء، وروت الحلم التالي: كانت أم المرأة مريضة وفي حاجة لإجراء عملية في ساقها، إلا أنها حرصت على تأخير إجراء العملية ما أمكنها ذلك، لخشيته من الأطباء؛ وفي الليلة التي سبقت توجيهاها إلى المستشفى، حلمت الأم بأنها كانت في زيارة إلى ضريح أحد الأئمة المعصومين، فجاءت امرأة إليها وقدمت لها كوباً من الماء، كانت تحمله في يدها؛ كان وجه المرأة مخفياً، ولكنها طلبت من المريضة شرب الماء، وهو ما فعلته، ثم قرأت المرأة المحجبة إحدى الصلوات ابتغاءاً لمساعدة المريضة على الشفاء؛ وحينما استيقظت في الصباح وتوجهت إلى الطبيب، أخبرها الأخير أنها قد شفيت ولم تعد بحاجة إلى عملية.^(٢)

وعلى شاكلة قصة الدكتور سمير العجائية، تسهم زيارة المرقد. حتى في الأحلام. في إنشاء علاقة تبادلية وتؤلف شرطاً لازماً للشفاء.

وقد يتزامن وقوع الحلم أو يتنبأ بعودة فرد غائب أو شفاء أحد المقرئين من مرضه. فبعد أحد مجالس العزاء في المحرم، روت سلمى. وهي امرأة عراقية مسنة. حلماً رأت فيه فاطمة الزهراء؛ كان ابن سلمى قد سجن للتو، وكانت تشعر بقلق بالغ حيال مصيره؛ ورأت سلمى ابنها في الحلم وفاطمة الزهراء

(١) ملحوظات حقليّة، الخميس، ٢٧ كانون الثاني عام ٢٠٠٩.

(٢) ملحوظات حقليّة، الجمعة، ٩ كانون الثاني عام ٢٠٠٩.

التي قَدِّمَتْ لَهَا قَدْحاً مِنَ الْمَاءِ، وَكَانَ يَتَعَيَّنُ عَلَى سَلَمَى تَقْدِيمُهُ لَابْنِهَا، وَفِي الْيَوْمِ
التَّالِي، أُطْلِقَ سَرَاخُ الْإِبْنِ وَخَرَجَ مِنَ السَّجَنِ.^(١)

وَكَمَا فِي قِصَّةِ الْحَلَمِ سَالِفَةِ الذِّكْرِ، يَسْهَمُ نَقْلُ مَادَّةٍ نَقِيَّةٍ (الْمَاءُ الصَّافِي فِي
هَذِهِ الْحَالَةِ) مِنْ أَحَدِ الْأُثْمَةِ إِلَى الشَّخْصِ الْمُؤْمِنِ فِي شِفَائِهِ أَوْ إِطْلَاقِ سَرَاخِهِ كَمَا
فِي حَالَةِ ابْنِ سَلَمَى، وَتَسْهَمُ عَمَلِيَّةُ النَّقْلِ هَذِهِ، تَحْدِيداً، فِي رِبْطِ جِسْمِ الْمُوَالِي
بِالْإِمَامِ، وَهُوَ مَا يَسْمَحُ بَعْدَ ذَلِكَ بِالشِّفَاءِ.

وِثْمَةٌ أَنْوَاعٌ أُخْرَى مِنَ الْأَحْلَامِ تَفْرُضُ عَلَى الْحَالِمِينَ مُتَطَلِّبَاتٍ أُخْرَى،
وَيَشْتَمِلُ ذَلِكَ - مِثَالاً يَبِينُ الْمَثَالَ التَّالِي - حَتَّى عَلَى الْأَحْلَامِ الَّتِي لَا يَظْهَرُ فِيهَا
الْأُثْمَةُ الْمَعْصُومُونَ (وَمِنْ ثَمَّ فِيهِ غَيْرُ مُرْسَلَةٍ مِنْهُمْ). فَفِي رَبِيعِ عَامِ (٢٠٠٩ م)
كُنْتُ أَقْضِي وَقْتَ الظَّهْرِ مَعَ أَمَالٍ نَتَحَدَّثُ عَنْ الرِّجَالِ وَالْمَرْضَى وَدِرَاسَتِهَا؛
حِينَئِذٍ جَاءَتْ أُمُّهَا وَأَخْتُهَا لَزِيَارَتِهَا،^(٢) ثُمَّ انْتَقَلْنَا فِي الْحَدِيثِ إِلَى الْأَحْلَامِ، فَقَالَتْ
أُمُّ أَمَالٍ: إِنَّ إِحْدَى الصَّدِيقَاتِ الَّتِي وَاجَهْتُ الْكَثِيرَ مِنَ الْمَشْكَلاتِ وَالْمَتَاعِبِ
حَتَّى تَحَقَّقَتْ رَغْبَتُهَا بِالْحَمْلِ، حَلِمَتْ أَنَّ الْجَنَّ قَدْ تَلَبَّسَ بِهَا، وَخَشِيتُ مِنْ احْتِمَالِ
إِلْحَاقِهِ الْأَذَى بِطِفْلِهَا [الَّذِي لَمْ يُوَلَدْ بَعْدُ]. وَالْأَلْفُ لِلانْتِبَاهِ هُنَا، أَنَّ الْجَنَّ لَا
يُؤْذِي سِوَى نَوْعِ جُنُوسِيٍّ مُحَدَّدٍ، اسْتِنَاداً إِلَى الْحَلَمِ. وَالسُّؤَالُ الَّذِي يَمْلِكُ ذَاتَهُ هُوَ:
مَا الْعَمَلُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ؟ هَلْ يَتَعَيَّنُ عَلَيْكَ رَوَايَةُ حَلِمِكَ أَمْ التَّرَامُ الصَّمْتِ
بَشَائِهِ؟. قَرَّرْتُ الْمَرْأَةَ فِي نَهَايَةِ الْمَطَافِ التَّوَجُّهُ إِلَى أَحَدِ الشُّيُوخِ الَّذِي قَرَأَ الْقُرْآنَ
عَلَى رَأْسِهَا، وَرَبِّمَا كَتَبَ لَهَا آيَةً فِي حِجَابٍ تَعَلَّقَهُ فِي عُنُقِهَا ابْتِغَاءً حِفْظِهَا وَالطِّفْلِ،

(١) مَلَحُوظَاتٌ حَقْلِيَّةٌ، الْجُمُعَةُ، ٩ كَانُونِ الثَّانِي عَامِ ٢٠٠٩.

(٢) مَلَحُوظَاتٌ حَقْلِيَّةٌ، الْأَحَدُ، ٨ شِبَاطِ عَامِ ٢٠٠٩.

إِلَّا أَنْ أَمَالَ كَانَ لَهَا رَأْيٌ آخَرُ، إِذْ بَيَّنَّتْ أَنَّهُ كَانَ يَتَعَيَّنُ عَلَى الْمَرْأَةِ التَّكْتُمُ عَلَى الْحِلْمِ، وَعَدَمُ الْكَشْفِ عَنْهُ، ثُمَّ إِخْرَاجُ الصَّدَقَةِ ابْتِغَاءً تَجُنُّبَ الْأَذَى الَّذِي يُنبَأُ بِهِ. وَلَا تَسْتَلْزِمُ الْأَحْلَامُ جَمِيعًا. حَتَّى الْخَاصَّةُ مِنْهَا بِأَلِ الْبَيْتِ. بِالضَّرُورَةِ الْقِيَامَ بِعَمَلٍ مُحَدَّدٍ، بَلْ يَقْتَصِرُ تَأْثِيرُ بَعْضِهَا عَلَى مَنْحِ الْفَرْدِ الشُّعُورَ بِالرَّاحَةِ. إِذْ بَيَّنَّتْ إِحْدَى النِّسَاءِ الْمُسَنَّنَاتِ مِنَ اللَّبْنَانِيَّاتِ - السُّورِيَّاتِ الشَّيْعَةِ، أَنَّهَا كَانَتْ تَشْعُرُ بِالْقَلْقِ فِي بَدَايَةِ حَيَاتِهَا الزَّوْجِيَّةِ، بِشَأْنِ رُوحِ زَوْجِهَا لِأَنَّهُ كَانَ سُنِّيًّا، وَرَأَتْ فِي إِحْدَى اللَّيَالِي فِي الْحِلْمِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ فِي أَحَدِ الْمَنَازِلِ تَدْعُوهَا لِدُخُولِهِ. ^(١) صَلَّتْ الْمَرْأَةُ وَحَيْثُ السَّيِّدَةُ زَيْنَبُ وَقَبَّلَتْهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ؛ وَسَأَلَتْ السَّيِّدَةَ زَيْنَبَ الْمَرْأَةَ عَنْ مُرَادِهَا، فَأَخْبَرَتْهَا أَنَّهَا لَا تَرِيدُ شَيْئًا لِنَفْسِهَا، بَلْ تَرِيدُ أَنْ تَعْرِفَ فَحَسْبُ هَلْ سَيَلْقَى زَوْجَهَا فِي النَّارِ لِأَنَّهُ سُنِّيٌّ أَمْ لَا؟. فَأَجَابَتْهَا السَّيِّدَةُ زَيْنَبُ: إِنَّ الْبَشَرَ سَيُحَاسَبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كُلٌّ بِحَسَبِ أَفْعَالِهِ، وَقَدْ جَعَلَ قَوْلُ السَّيِّدَةِ هَذَا الْمَرْأَةَ تَشْعُرُ بِالرَّاحَةِ.

البراهين من الله (عز وجل) :

إِلَى جَانِبِ سَرَدِيَّاتِ الشَّفَاءِ الْعَجَائِبِيَّةِ، يَرُوي الشَّيْعَةُ فِي مَدِينَةِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ قِصَصًا تُسَهِّمُ إِلَى حَدِّ مَا فِي تَعْزِيزِ إِيْمَانِهِمْ، وَيُؤَثِّرُ إِيْجَابًا فِي حَيَوَاتِهِمْ مِنْ خِلَالِ التَّوَكُّيدِ عَلَى أَنَّ "التَّقْلِيدَ" يَتَجَاوَزُ الْعَقْلَانِيَّةَ. تَتَلَخَّصُ غَايَةُ بَعْضِ مِنَ الْأَحْلَامِ، بِدَاهَةِ فِي جَعْلِ النَّاسِ يَشْعُرُونَ بِالرَّهْبَةِ وَالْخَوْفِ. فِي إِحْدَى الْمَرَّاتِ، وَبَيْنَمَا كُنْتُ أَحْضُرُ أَحَدَ الصُّفُوفِ الدَّرَاسِيَّةِ فِي الْحَوْزَةِ الزَّيْنَبِيَّةِ، سَأَلْتُ الْحَاضِرَاتِ عَمَّا يَعْرِفُنَهُ مِنْ قِصَصٍ عَنْ

(١) مَلْحُوظَاتُ حَقْلِيَّةٍ، الْأَحَدُ، ٤ تَشْرِينِ الْأَوَّلِ، عَامَ ٢٠٠٩.

المُعْجَزَاتِ فِي الْمَرْقِدِ. ^(١) قَالَتْ أُمُّ مُحَمَّدٍ: إِنَّهَا شَاهَدَتْ رُؤْيَا لَيْسَتْ مُعْجَزَةً بِالْمَعْنَى الدَّقِيقِ لِلْكَلِمَةِ، وَلَكِنَّهَا مِمَّا تَلَقَّاهَا. حَدَّثَ ذَلِكَ. وَفَقَّاهَا. فِي رَمَضَانَ قَبْلَ ثَلَاثِ سِنِينَ، أَيْ عَامَ (٢٠٠٧ م) فِي إِحْدَى لَيَالِي الْقَدْرِ - بِالنِّسْبَةِ لِلشَّبْعَةِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ غَيْرُ مُحَدَّدَةٍ بِتَارِيخٍ، وَلَكِنَّهَا فِي الْأَيَّامِ الْعَشْرَةِ الْأَخِيرَةِ مِنْ رَمَضَانَ. شَاهَدَتْ أُمُّ مُحَمَّدٍ الرُّؤْيَا بَيْنَ الْيَوْمِ السَّابِعِ عَشَرَ مِنْ رَمَضَانَ وَالْحَادِي وَالْعَشْرِينَ مِنْهُ، أَيْ بَيْنَ يَوْمِ جَرَحِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ وَيَوْمِ وَفَاتِهِ؛ كَانَتْ أُمُّ مُحَمَّدٍ وَزَوْجُهَا وَحَمَائِهَا وَحُمُوهَا فِي الْمَرْقِدِ يَصَلُّونَ صَلَاةَ الْفَجْرِ، وَبَيْنَمَا كَانَتْ عَلَى وَشِكِ الْخُرُوجِ مِنَ الْمُصَلَّى رَأَتْ وَمَضَّةَ ضَوْءٍ فِي السَّمَاءِ وَفَارِسًا يَمْتِطِي صَهْوَةً جَوَادِيهِ (كَانَ الْخَيَْالَ الْإِمَامَ عَلِيًّا). وَتَضَاعَفَ عَدْدُ الْفَرَسَانِ فِي الرُّؤْيَا فَأَصْبَحَ اثْنَيْنِ ثُمَّ ثَلَاثَةً؛ وَتَحْتَ كُلِّ جَوَادٍ كَانَ ثَمَّةٌ وَمَضَّةٌ ضَوْءٍ أُخْرَى، أَرَادَتْ حَمَائِهَا مُغَادَرَةَ الْمَرْقِدِ، إِلَّا أَنَّ أُمَّ مُحَمَّدٍ أَصْرَتْ عَلَى الْبَقَاءِ حَتَّى بَزَغَ ضَوْءُ الصَّبَاحِ. قَاطَعَتْهَا أُمُّ حَسَنِ إِحْدَى الْحَاضِرَاتِ قَائِلَةً: (يَقُولُ النَّاسُ إِنَّ هَذِهِ الْأَضْوَاءَ لَمْ تَكُنْ سِوَى أَضْوَاءِ الْمَرْقِدِ ذَاتِهِ). وَعَلَى الرُّغْمِ مِمَّا يَشِي بِهُ قَوْلُ أُمِّ حَسَنِ مِنْ شِكِّ وَرِيئَةٍ، بَقِيَتْ أُمُّ مُحَمَّدٍ ثَابِتَةً: (كَلَّا! لَقَدْ شَاهَدْتُ ذَلِكَ بِأَمِّ عَيْنِي).

ووفقاً لـ "فدك" الملاية من البصرة، يَتَمَيَّزُ الْمُحَرَّمُ وَالْمُنَاسَبَاتُ الدِّيْنِيَّةُ الْآخَرَى عَادَةً بِكَثْرَةِ الرُّؤْيَى. فَقَبْلَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ مِنْ حَدِيثِنَا، رَوَتْ فَدُكُ لَنَا مُشَاهَدَتَهَا رُؤْيَا فِي الْمَرْقِدِ: كَانَ الْوَقْتُ مُتَأَخِّرًا حِينَهَا رَأَتْ عَمُودَ ضَوْءٍ نَازِلًا مِنَ الْأَعْلَى مِنْ مَكَانٍ غَيْرِ مُحَدَّدٍ؛ كَانَ الْمَرْقِدُ مُكَتَبًا بِالزَّوَارِ، وَحَاوَلَ الْمَزِيدُ مِنْهُمْ دُخُولَهُ بَعْدَ لِحْظِهِمْ هَذِهِ الْمُعْجَزَةَ، وَوَقْفًا لـ "فدك" لَمْ يَكُنْ عَمُودُ الضَّوِّ شَيْئًا

(١) مَلْحُوظَاتُ حَقَلِيَّةٍ، الْأَحَدُ، ١ تَشْرِينَ الثَّانِي عَامَ ٢٠٠٩.

سوى الإمام عليّ الذي جاء لزيارة ابنته زينب. ^(١) وقد ربطت كل من الملائكة فداك وأم مصطفى بين الأئمة وظهور الضوء مستعينات في ذلك برؤيتيهما، كانتا كلتاهما تشعران بالراحة لهاتين الرؤيتين وبقدرتهما على شفائيهما روحانياً.

وجلبت أم مصطفى معها في مناسبة أخرى إلى الصف الدراسي في الحوزة معجزة أخرى، هي كارتونة شطائر حلبيّة اللون، ثم كشفت عن قطعة من الخبز السوري مدور الشكل. ولما كانت الأرغفة أعدت في مخبز حجريّ تسخنه ألسنة لهب غير متساوية، كان عدم تساوي لون الرغيف وحتى الحرق في بعض من أجزائه واضحاً؛ كانت الأجزاء المحروقة في هذا الرغيف قد اتخذت شكل لفظ الجلالة "الله" وثمة جزء محروق آخر أقل وضوحاً على جانب الرغيف اتخذ شكل لفظة "محمد". وبينما كانت أم مصطفى تعرض الرغيف على النساء الأخريات، أخبرت المدرسات والطالبات جميعاً بأن زوجها وعد بأنه سيجعل أحد رجال الدين من ذوي المنزلة العالية يتحقق من هذه المعجزة ويصادق عليها. ^(٢) لكن ما الذي يعنيه التحقق في هذه الحالة؟! لقد كانت أم مصطفى ترغب في التمسك بهذه المعجزة التي تبدو على شاكلة المعجزات الأخرى هشة، لأن الأحلام والرؤى تتلاشى، والخبز يتعفن. وكانت تأمل في إضفاء الشرعية على ما يُعد بالضرورة غامضاً ومثيراً للجدل من خلال إخبار النساء الحاضرات عن معجزتها وعرضها على النساء التقيّات؛ وسؤال زوجها الحصول على مباركة رجال الدين ومصادقتهن.

(١) ملحوظات حقليّة، الأحد، ٨ شباط عام ٢٠٠٩.

(٢) ملحوظات حقليّة، السبت، ٢٦ كانون الأوّل عام ٢٠٠٩.

الخاتمة:

استندت في هذا الفصل إلى مُطالَبَةِ "ساين دوربمولر" بدراسة لا الاختلافات بين الدِّين والسَّحَرِ فحسب، بل والتَّداخل والتَّفاعل بينهما^(١). ويرى الشَّيْخُ أمثال الشَّيْخِ أَبِي أَحْمَدَ أَنَّ الطَّبَّ الرُّوحَانِيَّ أَوْ الرُّقِيَّةَ الشَّرْعِيَّةَ هُمَا مِنَ الْحَقُولِ الْمَعْرِفِيَّةِ مِثْلَ الْإِلَهِوتِ وَالرِّيَاضِيَّاتِ^(٢). وعلى الرَّغْمِ مِنْ اعْتِمَادِهَا عَلَى الْكُتُبِ وَالرُّمُوزِ وَاللُّغَةِ ذَاتِهَا، إِلَّا أَنَّهُ يُلْحَظُ إِمْكَانُ عَدَدِ الْعَمَلِ الَّذِي يَمْتَنِعُهُ الشَّيْخُ مُمَارَسَةً مُخَالَفَةً لْجِهَةٍ وَقَوْعَهَا خَارِجَ السُّلْطَةِ الْمُؤَسَّسِيَّةِ.

ولكنَّ مَا الَّذِي يَعْنِيهِ الْإِيْمَانُ بِالسَّحَرِ أَوْ بِالطَّبِّ الرُّوحَانِيِّ؟.

ما زالَ هَذَا السُّؤَالُ يَشْغَلُنِي أَثْنَاءَ عَمَلِي الْحَقْلِيِّ، وَلِهَذَا سَأَلْتُ الشَّيْخَ أَبَا الْحَسَنِ، مُسَاعِدَ الشَّيْخِ أَبِي أَحْمَدَ. وَبَدَلًا مِنَ الْإِجَابَةِ عَنْ سُؤَالِي، رَوَى لِي قِصَّةً^(٣) امْرَأَةٍ كَانَتْ زَوْجَهَا يَضْرِبُهَا كَثِيرًا؛ وَفَهِمَ أَبُو الْحَسَنِ أَنَّ الْمَرْأَةَ كَانَتْ "عَصِيَّةً" بِمَعْنَى أَنَّهَا سَرِيعَةُ الْغَضَبِ؛ وَبِدَوْرِهِ، كَانَتْ زَوْجَهَا، حَسَبَ مَا فَكَّرَ فِيهِ أَبُو الْحَسَنِ سَرِيعَ الْغَضَبِ، وَكَانَ يَضْرِبُهَا لِهَذَا السَّبَبِ، وَلِهَذَا أَعْطَاهَا حِجَابًا، وَقَالَ لَهَا: إِنَّهُ كَفِيلٌ بِحَلِّ مُشْكَلَاتِهَا. بَعْدَ ذَلِكَ، أَصْبَحَتْ الْمَرْأَةُ هَادِئَةً، وَأَصْبَحَ زَوْجُهَا بِدَوْرِهِ هَادِئًا، وَحُلَّتْ مُشْكَلَتُهُمَا وَلَوْ مُؤَقَّتًا.

وَأَخْبَرْتَنِي أَمَّا فِي حَالَةِ أَمِينَةٍ بَعْدَ ذَلِكَ بِأَنَّ تَجْرِبَةَ أَخِيَّهَا جَعَلَتْهَا تَوْمَنُ بِالسَّحَرِ! إِذْ غَيَّرَتْ أَمِينَتَهُ رَأْيَهَا بَعْدَ أَنْ سَاعَدَهَا الشَّيْخُ فِي مَنَعِ زَوْجِهَا مِنْ

(١) دوربمولر (الدِّين والسَّحَر) ١.

(٢) قارن مع المصدر السابق ذاته، ٢٣-٣٢.

(٣) ملاحظات حقليَّة، ٢٧ تشرين الأوَّل عام ٢٠٠٩.

تطليقها؛^(١) وزيادةً على ذلك، شعرت أُمينة بتحسُّنٍ في صِحَّتِها بعدما كانت تعاني من آلامٍ في معدَّتِها بعد أن شربت من الماء الذي أعطاهَا إِيَّاهُ الشَّيْخُ.^(٢) وكانت أُمينة قَبْلَ زيارةِ الشَّيْخِ تعتقدُ في أَنَّ السَّحَرَ مَخَالِفٌ لَتَعَالِيمِ اللَّهِ. وتمنَّتْ بعد ذلك لو لم يتقاضَ الشَّيْخُ ثَمَانِ مِئَةِ لِيرَةٍ لقاءَ العلاجاتِ الإضافيةِ. وقالتْ آمالٌ عَن ذلك: (لو لم تكنْ المسألةُ تتعلقُ بِالمَالِ، لتلاشتْ مشكلاتُ أُمينةَ جميعاً، ولعاشتْ بِسَعَادَةٍ مَعَ زوجِها!). ويبدو الطَّبُّ الرُّوحَانِيُّ في هَذِهِ الحَالَةِ شَبِيهاً بِعَمَلِيَّةٍ أَنْ يَصْبَحَ المرءُ تَقِيّاً: إِنَّهَا عَمَلِيَّةٌ مُسْتَمِرَّةٌ تَتَطَلَّبُ الحِفَاطَ على أنواعٍ مُحدَّدةٍ مِنَ العَلاقَاتِ الَّتِي تَعِينُ على التَّدَاوِي والشِّفَاءِ.

سلَّطَ هَذَا الفَصْلُ الضُّوءَ كَذَلِكَ على مَنَاجِي التَّشَابُهِ والاختلافِ بَيْنَ التَّدِينِ الشَّيْعِيِّ المُؤَسَّسِيِّ والمُمارَسَةِ المَخَالِفَةِ لِهَـجَةِ اعْتِمَادِهِمَا على مَجْمُوعَةِ الرُّمُوزِ ذَاتِهَا مِنْ جَانِبٍ، وَمِنْ جَانِبٍ آخَرَ، اخْتِلَافُهَا لِهَـجَةِ غَايَاتِهَا، بِحَسَبِ بَعْضٍ مِنْ رِجَالِ الدِّينِ.^(٣) وخِلافاً لِلدِّينِ، يَخْدُمُ السَّحَرُ "فَرَضِيّاً" غَايَاتٍ أُنَانِيَّةً شَخْصِيَّةً غَالِباً.

ويتلخَّصُ إِسْهَامِي النِّظَرِيُّ الرَّئِيسُ في توكيدِ تَعُدُّرِ التَّمْيِيزِ بَيْنَ غَايَاتِ الدِّينِ والسَّحَرِ، لِأَنَّهُمَا كِلَاهُمَا قد يَخْدُمَانِ تَحْقِيقَ غَايَاتٍ أُنَانِيَّةٍ. وَزِيَادَةً على ذَلِكَ، قد تَتَحَوَّلُ كُلٌّ مِنَ الطُّقُوسِ الَّتِي تُؤَدَّى بِرِعايَةِ المُؤَسَّسَةِ الدِّينِيَّةِ والطُّقُوسِ الَّتِي يُؤَدِّيها الأَطِبَّاءُ الرُّوحَانِيُّونَ إلى أَفْعَالٍ كَرَنَفَالِيَّةٍ. وَهَذَا يَذَكِّرُنَا بِمَلْحُوظَةٍ

(١) مَلْحُوظَاتُ حَقَلِيَّةٍ، الأَرَبَاءُ، ٢٨ تَشْرِينَ الأوَّلَ عام ٢٠٠٩ والأَحَدُ، ٨ تَشْرِينَ الثَّانِي عام ٢٠٠٩.

(٢) مِمَّا يَلِفُ الانتباهُ أَنَّهُمَا لَمْ تَكُنْ تَشْتَكِي كَثِيراً مِنْ آلامِ المَعْدَةِ في ذَلِكَ الوَقْتُ.

(٣) قَارَنَ مَعَ بَارَتِ (الرُّمُوزِ فِي الإِسْلَام) ٨٦.

"دوركيم" المهمة التي ما زالت صحيحة وفاعلة في الكثير من السياقات (ليس
ثمّة كنيسة سحر).^(١)

^(١) دوركيم، مُقتبس في دوربميولر (الدين والسحر) ٢.

الفصل السادس

الخاتمة

التقليد مرةً أخرى:

يمثل التقليد على شاكلة الحرية والاحترام. مُفردة متملّصة زائغة! فهي تُستخدم عادةً بوصفها برهاناً أو مسوغاً يبرّر سلسلة أفعالٍ مُحدّدة. وزيادةً على ذلك، تجري عادةً مُغايرة هذه المُفردة ومقارنتها بالتّحديث؛ ولكن، وبينما يتعيّن النظر إلى التّحديث بحسب العديد من الدّراسات البحثيّة الأخيرة بوصفه تعديلاً ومتنوعاً، يبقى "التّقليد" بصيغته المُفرد^(١). وفي الوقت ذاته، فإنّ الاكتفاء بلحظ حضور خاصيّة التنوّع الدّاخليّ في كلّ "تقليد" وأنّ التّقليد ذاته قد يمثّل عاملاً محفزاً للتّغيير؛ لا يفسّر بدقّة المقصود بـ "التّقليد" بالنّسبة للشّيعَة المعاصرين المقيمين في منطقة السيّدَة زينب^(٢).

وقد شدّدت في الدّراسة الحاليّة على ثلاثة نقاطٍ تتّصل بالتّقليد.

إذ بيّنتُ أولاً أنّ مفهوم التّقليد يُستخدم بلاغيّاً في أكثر الأحيان ابتغاء ادّعاء المشرعيّة. ولا بدّ في هذا السّياق من تذكّر حقيقة توظيف الشّيرازيين له بوصفه مسوغاً يبرّر موقفهم حيال أشكال التّطير الدّمويّة.

وثانيّاً، نهلتُ في دراستي من كلّ من "طلال أسد" و "وليم غراهام" فيما يتّصل بتسليط الضّوء على جوانب التّقليد العلائقيّة أو البين - ذاتيّة، أو نقل الطّرائق التي يغدو بوساطتها الفرد تقيّاً.

(١) حتّى طلال أسد كتب عن التّقليد الخطائيّ على الرّغم من أنّ ليلي أبو لغد لحظت ضرورة التعامل حتّى مع مفهوم أسد بصيغة التّعدد. انظر: أسد، (فكرة أنثروبولوجيا الإسلام)؛ ليلي أبو لغد، "مناطق التّنظير في أنثروبولوجيا العالم العربيّ" مجلّة الأنثروبولوجيا السّنويّة ١٨ (١٩٨٩): ٢٩٤-٢٩٦.

(٢) انظر مارلين والدمان بشأن فكرة أنّ التّقليد قد يكون محفزاً للتّغيير في الإسلام: مارلين روينسن والدمان "التّقليد بوصفه محفزاً للتّغيير: أمثلة إسلاميّة"؛ "الدين والتّغيير" مجلّة تاريخ الأديان ٢٥ العدد ٤ (١٩٨٦) ٣١٨-٣٤٠.

وثالثاً، لفتُ الانتباهَ إلى حقيقة أن التقاليد الإسلامية جميعاً، المتخيَّلة بنحوٍ عامٍّ، لا تساعدُ في تعزيز التقوى والورع. إذ يسهم بعضها في تعزيز الممارسات المخالفة التي أرى أنها تتضمن ممارسات العزاء الكرنفالية، زيادةً على ممارسات الطبِّ الروحانيِّ.

وتبعاً لذلك، لا تمثلُ التقاليدُ محضَ مجموعةٍ وسائلٍ تمكِّنك من أن تكونَ مسلماً أفضلَ وأكثرَ تدبُّناً! إنَّها لا تشركُ المسلمين في سلسلة الخطابات بشأن التدبُّنِ فحسبُ، بل بشأن إمكانات العلاج التي لا تُعدُّ بالضرورة "تقيَّة" بالمعنى الدقيق للكلمة، لجهة كونها خاليةً من المصلحة الذاتية^(١). وابتغاء إعادة طرح نظرية "طلال أسد" ذائعة الصيت، أختتمُ دراستي بالقول بضرورة تخيُّل أنثروبولوجيا الإسلام (في الأقلِّ في حالة الشيعة الاثني عشرين المعاصرين في مدينة السيِّدة زينب) وتقديمها بوصفها سلسلةً من الخطابات التي تربطُ المسلمين بالنصوص التأسيسية الماضية والأفراد المؤسسين أمثال (الصالحين والأنبياء والأئمة).

ومن الأهمية لحظُ أن التقاليد الخطابية الشيعية تستلزم إحساساً قوياً بالعلاقة وتتركزاً على المؤثر عاطفياً^(٢). وتتضمنُ التقاليدُ الخطابية الشيعية جانبين مهمين، هما: التعليمُ ومجالسُ العزاء التي تمكِّنُ الأتباع من الارتباط بالبيت (أي الشيعة من جانب) والعلاقات البيداغوجية بين الملايات،

(١) وصف رودى بارت في سبيل المثال في مناقشته للإسلام الملتزم (الأرثوذكسي) مقابل السحر... وصف الأخير على أنه يستخدم اللغة والرموز الدينية لغايات شخصية أنانية. بارت (الرموز في الإسلام) ٨٦.

(٢) وليم أ. غراهام "التقاليد في الإسلام: مقال في التفسير" مجلة التاريخ بين - المعرفي ٢٣، العدد ٣، الدين والتاريخ (١٩٩٣) ٤٩٥-٥٢٢.

والمدرّسين، ومراجع التقليد والشيعة / الأتباع من جانب آخر. وزيادة على ذلك، يفترض الفقه الإسلامي والهرطقة جدلاً [وجوب] إقامة علاقات محدّدة والحفاظ عليها. وفي ظلّ التأكيد على العلاقات التقيّة والمؤثّرة عاطفياً، طرحت رأياً يقول: إنّ تنمية التقوى والتدين وتعزيزهما لا يمثلان الغاية الوحيدة لهذه التقليد الخطيئة؛ بل إنّ تنمية التقوى، ما هي سوى إحدى الغايات المحتملة التي يمكن أن تشتمل - وتشتمل عادةً - على غايات شخصية أشدّ "أنايئة" أمثال شفاء الأقارب أو زواج البنات.

وحرصت في تحليلي لـ "التقليد" على توسيعه ليشتمل على مفهوم أنموذج كربلاء، حيث برزت التفسيرات الثوريّة؛ وجرت العادة على مقارنتها بالتفسيرات التقليديّة.^(١) وقد أظهر الفصل الخاص بعاشوراء. تحديداً. إمكان أن تتخذ التفسيرات التقليديّة موقفاً مناهضاً للمهادنة والأخروية في توجهاتها ومضموناتها. بل إنّ التقليديّ هنا يعمل بوصفه أداة بلاغيّة تشدّد على الأمل الذي يتجاوز قيود العقلانيّة الضيقة؛ إنّهُ يقدّم إمكان العلاج والشفاء في عالم مليء بالعنف، والفقر، والاضطهاد، واليأس. وزيادة على التوقى والحنين إلى الماضي. مثلاً لحظنا أعلاه. يُوظف التقليد كذلك، كما في حالة الشيرازيين مثلاً بوصفه أداة بلاغيّة، وتبعاً لذلك فهو يبرز بوصفه لغة المعارضة وكذلك السلطة. وبكلمات موجزة: يمثل التقليد الشيعي في مدينة السيّدة زينب مفهوماً مرناً قابلاً للطرق، وهو يؤدّي جملة من الوظائف ويخدم غايات جهات متعدّدة ومختلفة في توجهاتها. إنّهُ يخدم الدين التقليدي والابتداع والهرطقة، الذات

(١) قارن مع آغاي (شهداء كربلاء)؛ ديب (الحدائيّ المأسور)؛ بانديا "المآتم الشيعيّة النسويّة في البحرين".

والآخر، المسحوقين والنخب، إنه يخدم رجل الدين والأكاديمي؛ وكذلك اللاجئين العراقيين الذين شرعوا بالعودة إلى العراق حالياً بسبب انتشار أعمال العنف في سوريا، لخلق تقاليد جديدة فحسب.

خارج الحقل:

المذهب الشيعي والربيع العربي:

باشرتُ دراساتي الحقلية لإتمام مُتطلّبات كتابة هذه الأطروحة بينما كانت الحرب التي نجمت عن الغزو الأمريكي للعراق في عام (٢٠٠٣ م) على أشدها. وتمثّلت إحدى النتائج المباشرة لهذه الحرب في تدفق ملايين اللاجئين في البلدان المجاورة ومُعاناة آلاف غيرهم التهجير في الداخل. ويتعيّن في هذا السياق على تحليل التقليد بالضرورة، أن يأخذ بالحسبان الممارسات الواقعة خارج نطاق تنمية الموضوعات الثقافية ويتجاوزها. وتتضمّن الموضوعات الأكثر إلحاحاً الحفاظ على العلاقات الاجتماعية والعائلية والدينية ورأب الصدع فيها؛ وقد اكتسبت الجوانب المؤثرة عاطفياً أهميّة متنامية عززت موقعها المحوري في الشّعائر والخطابات الشيعية، وأضحّت قصص المعاناة الشخصية الأساس للتقوى وإقامة العلاقات مع آل البيت.

وقد قارن الباحثون أمثال "ديفيد بينو" بين مفهومات المعاناة والخلاص الشيعية والكاثوليكية^(١). ففي حالة العراق الذي مرّفته الحرب وسوريا المجاورة، اكتسبت هذه المفهومات والتصورات أهميّة ومنزلة عظيمتين؛ وبحسب ما لحظته إحدى المسنّات العراقيّات بعد يوم واحدٍ من مجلس عزاء

(١) بينو (حصان كربلاء).

نسائي: (لو لم يكن الأمر متعلقاً بمصائبنا ومآسينا، لم تكن مأساة الإمام الحسين وزينب لتؤثر فينا).^(١) وبكلماتٍ أخرى: تسهم المعاناة في جعل الأفراد "متديّنين". ويُعدُّ التأكيد على المعجزات عنصراً أساسياً في دراسة المذهب الشيعي في الشرق الأوسط المعاصر. ويبدو الوضع مريعاً حين النظر إليه بنحو عقلائي! إنه الأمل والثقة بالله التي تساعد الكثير من الناس على الاستمرار في حياة فاضلة طاهرة، ولا تعني المعجزات هنا أن الشيعة فقدوا الاتصال بالعالم الواقعي، بل إنهما تساعدُهم في البقاء متفائلين.

لحظتُ أثناء حضوري مجالس العزاء الشيعية في المحرم في شمال العراق (أو إقليم كردستان) في كانون الأول عام (٢٠١١ م)... لحظتُ تأكيد النساء المكرر على المعجزات والطب الروحاني. وعلى شاكلة النساء الشيعيات في سوريا اللائي سردت قصصهن وحللتها في الفصل الخاص بـ "المؤثر عاطفياً" تسرد النساء الشيعيات في العراق قصصهن مع الأحلام التي أدت إلى شفاء المرضى بأسلوب عجائبي.

وعلى الرغم من الأمن الذي ينعم به شمال العراق حالياً لجهة تماسك الوضع الاجتماعي والسياسي، إلا أن سلطات الإقليم لم تسمح للشيعة بتنظيم مواكب العزاء العلنية في السليمانية؛ وذلك لخشيته من اندلاع أعمال عنف طائفية!. وتبعاً لذلك. حتى في شمال العراق. ما زالت النساء منشغلات بالتقوى المؤثرة عاطفياً، والتقليد، والخلاص بنحو يتجاوز نطاق تعزيز الذوات التقية.

(١) ملحوظات حقليّة، الأحد، ٢٤ آب عام ٢٠٠٨.

ووفقاً لـ (ولي نصر . Vali Nasr) أسهمت الإطاحة بنظام صدام حسين على يد القوات الأمريكية في عام (٢٠٠٣ م) بحدوث صحوّة شيعيّة^(١) جعلت أتباع هذا المذهب أقوى سياسياً خصوصاً في العراق، ممّا شجّع إيران وعزّز موقعها في المنطقة، وشكّل دعماً للشّيعَة في لبنان؛ حيث دخل حزب الله في معركة ضدّ إسرائيل في عام (٢٠٠٦ م) أسهمت. على شاكلة حملات حزب الله العسكريّة السّابقة. في تنامي شيعيّته، فانتشرت الشّائعات عن تشييع الكثير من السّنة الذين شكّل ما يفعله حزب الله مضدراً لهم.

ويبدو أنّ هذه "الصّحوَة الشّيعيّة" كما سمّاها "ولي نصر" قد انتهت مع انطلاق شرارة الربيع العربي!، فعلى الرّغم من استمرار الشّيعَة في الهيمنة على مقاليد الأمور في العراق، إلّا أنّهم يواجهون معارضةً شديدةً حاليّاً. ومثلاً تبيّن سلفاً، ما زال الشّيعَة غير قادرين على أداء طقوس المحرم والمشاركة في مواكب التطبير علناً في شمال العراق مثلاً. ويُقتل المتظاهرون الشّيعَة في مملكة البحرين يومياً تقريباً، وبينما أظهرت وسائل الإعلام - وما زالت - اهتماماً عميقاً بما يجري في تونس، وليبيا، ومصر، وسوريا، ثمة تجاهلٌ لافت للنظر لما يجري في المملكة العربيّة السّعوديّة. ويُلحظ في حالة سوريا أنّ الصّراع قد أخذ بنحوٍ بطيء ولكنّ مؤكّد تحوُّله إلى حربٍ أهليّة طائفية مع قرار الأكرتية السّنية التي نهضت في وجه نظام حافظ الأسد العلويّ في [نهاية] سبعينيّات القرن العشرين ومطلع ثمانينيّاته؛ قرارهم رفع السّلاح في وجه النظام الحاليّ مرّة أخرى.

(١) ولي نصر (الصّحوَة الشّيعيّة: دور الصّراع داخل الإسلام في صوغ المستقبل) (نيويورك: نورتن، عام ٢٠٠٦).

والشَّيْعَةُ الَّذِينَ تَنَاوَلَتْهُمْ هَذِهِ الدِّرَاسَةُ مُهْمَشُونَ حَالِيًّا بَيْنَمَا إِنَّهُمْ يُؤَلَّفُونَ أَقَلِّيَّةً صَغِيرَةً؛ والعديدُ مِنَ الشَّيْعَةِ الَّذِينَ يَقِيمُونَ فِي مَدِينَةِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ لَيْسُوا مَوَاطِنِينَ سوريِّينَ. وزيادةً على ذلك، فقد أسهمت حقيقة دعم الحكومة السَّوريَّةِ هُمَ فِي الْمَاضِي فِي الْحَقَائِقِ الْأَذَى بِهِمْ حَالِيًّا^(١). وثُمَّةً حَادِثَاتٌ كَثِيرَةٌ تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ، إِذْ تَعَرَّضَ عَدَدٌ مِنْ زَوَّارِ المَرْفِدِ الْإِيرَانِيِّينَ إِلَى الْاِخْتِطَافِ فِي كَانُونِ الثَّانِي مِنْ عَامِ (٢٠١٢ م)^(٢) وَشَهِدَ شَهْرُ نَيْسَانَ مِنْ الْعَامِ ذَاتِهِ مَقْتَلُ مَدِيرِ الْحَوْزَةِ الزَّيْنَبِيَّةِ، بَيْنَمَا كَانَ مُتَوَجِّهًا إِلَيْهَا.^(٣)

وَفِي ضَوْءِ هَذِهِ التَّطَوُّرَاتِ الْمُسَارِعَةِ تَحْدِيدًا تَتَأَكَّدُ أَهْمِيَّةُ دِرَاسَةِ الْمَرَاثَاتِ وَالْخُطَابَاتِ الدِّينِيَّةِ فِي سِيَاقَاتِهَا الْخَاصَّةِ. إِذْ لَمْ يَعْذَ بِقَدْرَةِ مُفْرَدَةٍ "التَّقْلِيدِ" أَنْ تَكُونَ مُفْرَدَةً "مُغْلَفَةً جَامِعَةً" تَغْطِي تَوَارِيخَ جَمَاعَةٍ بَشَرِيَّةٍ مُحَدَّدَةٍ وَطُقُوسَهَا، وَمُعْتَقَدَاتِهَا، وَأَمَالُهَا وَطُمُوحَاتِهَا.

(١) مترا أميري "إعلان إيران عن اختطاف أحد عشر زائرا إيرانياً في سوريا" جُمِلَ مِنَ الْأَنْتَرْنِتِ فِي ٢٠ نَيْسَانَ عَامِ ٢٠١٢

<<http://www.reuters.com/article/2012/02/01/usiran-syria-kidnapping-idUSTRE8100PW20120201>>

(٢) اسْتَشْهَادُ مَدِيرِ الْحَوْزَةِ الزَّيْنَبِيَّةِ بَعْدَ اسْتَهْدَافِهِ فِي سوريَّا. ١٥ نَيْسَانَ، عَامِ ٢٠١٢، جُمِلَ مِنَ الْأَنْتَرْنِتِ فِي ٢٠ نَيْسَانَ، عَامِ ٢٠١٢.

(<http://jafrianews.com/2012/04/16/head-of-hawza-e-zainabia-martyred-by-target-killing-in-syria/>)

مُلْحَقُ أ:

قائمة بالملايات في مجالس العزاء

يُضَمُّ المُلْحَق قائمةً بجميع الملايات اللَّائِي قَابَلَتْهُنَّ وَتَحَدَّثَتْ مَعَهُنَّ فِي مَدِينَةِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ، وَتَظْهَرُ أَكْثَرِيَّتُهُنَّ فِي مَتَنِ النَّصِّ.

الاسم	القومية	علوية	الانتفاء	العمر والعمر الذي بدأت العمل فيه
أم زهراء	عراقية	كلًا	الزوج مع الحائري، حُسينيَّةُ العباس	٤٠ بدأت بعمر ٢٧
مرضية	أفغانية/ إيرانية	نعم	الأب في الحوزة الرَّيْنِيَّةُ السَّيرازيَّة	أواخر الثلاثينيات، بدأت منذ الطفولة
مريم	عراقية	كلًا	مُساعدة في حوزتي أم البنين وزين العابدين	٣٣ بدأت في ٣١
إسراء	عراقية	كلًا	مُساعدة في الحوزة الحيدريَّة القديمة	في منتصف الثلاثينيات، بدأت منذ سنين قليلة
إخلاص	عراقية	كلًا	مستقلة	مطلع الثلاثينيات، بدأت منذ خمس سنين
أم علي	عراقية	كلًا	مُساعدة في الحوزة الرَّيْنِيَّةُ ومستقلة	منتصف الأربعينيات، أمضت في عملها

الحاليّ مدّة تتراوح بين ١٠ إلى ١٥ سنة				
مطلع الأربعينيات	الحوزة الحيدريّة ومستقلّة	كلّا	عراقيّة	أمّ حيدر
ناهزت الخمسين	مُساعدة في الحوزة الرّئيسيّة ومستقلّة	نعم	عراقيّة	أمّ جاسم
ناهزت الخمسين	زين العابدين	نعم	عراقيّة	أمّ حسين
منتصف العشرينيات، بدأت منذ خمس سنين (تعمل بأسلوب عراقيّ/إحدى طالبات العلويّة مرضيّة)	مُساعدة في حوزة أمّ البنين/الرّئيسيّة	كلّا	سوريّة	زينب
٣٠ بدأت منذ خمس سنين	أمّ البنين	كلّا	سعوديّة	مجهولة الاسم
منتصف الثلاثينيات، بدأت منذ خمس سنين	مُساعدة في حُسينيّة العبّاس، الحوزة الرّئيسيّة ومستقلّة	نعم	عراقيّة	أمّ حسين
ما بين ٢٣-٢٥	مُساعدة في الحوزة الرّئيسيّة ومستقلّة		عراقيّة/ إيرانيّة	آيات

إيمان	فلسطينية*	كلا	مستقلة	٣٠ بدأت منذ سنة واحدة
أنيسة عالية	عراقية*	نعم	الحوزة الزينية	منتصف العشريّات، منذ عشر سنين تقريباً
أم حيدر (زينية)	عراقية*	نعم	الحوزة الزينية	منتصف الخمسينات

ملحق ب:

قائمة بالمؤسسات الدينية في مدينة السيدة زينب

قائمة بالحوزات والحسينيات

الاسم	حوزة/حسينية	الجنس	الانتماء	الموقع الجغرافي
أبو فضل العبّاس	حسينية	للنساء	مستقلة	شمال شرق دوار هجر
العبّاس	حوزة وحسينية	للرجال	مستقلة	شرق الكتاب والعترة
الأمة الباقية	حسينية	للرجال	مستقلة	أوردو، شمال علي وحش
الإمام علي	حسينية ومدرسة	للجنسين كليهما	الشيرازي	أوردو، هجر
الإمام علي	حوزة	للرجال	مستقلة	بالقرب من مكتب السيستاني
أمير المؤمنين	حوزة	للجنسين كليهما	الخرساني	عبر المدرسي
الباقر	حوزة وحسينية	للرجال	الشيرازي	شمال هجر
فاطمة الزّهراء	حسينية	للرجال	مستقلة	شمال شرق مرقد السيدة
فاطمة الزّهراء	حسينية	للرجال	مستقلة	شرق المصطفى
الفاطمية	حسينية	للجنسين كليهما	مستقلة	شارع تين

		(للرَّجَالِ)		
الحيدريَّة	حسينيَّة	للجنسين كليهما	فضل الله	شمال شارع العراقيين
الحيدريَّة القديمة	حسينيَّة	للنِّساء	فضل الله	جنوب شارع العراقيين
الحسينيَّة الهنديَّة	حسينيَّة	للرَّجَالِ	مستقلَّة/خ امني بصورة غير رسميَّة	منطقة الجولاني
جماعة آل البيت	حوزة (جامعة)	للجنسين كليهما	مستقلَّة	
الجواد (الإمام)	حوزة	للرَّجَالِ	التَّبريزي	
الجواد (الإمام)	حسينيَّة	للجنسين كليهما	التَّبريزي	
الخمينيَّة	حوزة	للرَّجَالِ	الخامني	جنوب غرب شارع تين
الخميني	حوزة	للنِّساء	الخامني	شمال السِّت زينب، غرب جواد
الكتاب والعتره	حسينيَّة	للجنسين كليهما	الطُّبَّبانِّي	شمال شرق المرقد
المهدي	حوزة	للرَّجَالِ	مستقلَّة	أوردو، شمال منطقة

هجر في شارع مواز				
المجتبى	حوزة	للرجال	مستقلة	منطقة هجر
المتنظر	حسينية	للنساء	مستقلة / الكويتيين	شمال ساحة العرافيين، قرب كافيريا الساعة
المرتضى	حوزة	للجنسين كليهما	فضل الله	
المصطفى	حسينية	للجنسين كليهما	مستقلة	جزء من فندق، تحديداً شرق التبريزي
المصطفى	حوزة	للجنسين كليهما	فضل الله	شرق المرفد
الباكستانية	حسينية	للرجال (للجنسين كليهما)	مستقلة	شرق الكتاب والعترة
القائم	حوزة	للرجال		شمال شرق ساحة هجر بمحاذاة الشارع الرئيس
قمر بني هاشم	حوزة وحسينية	للرجال	الشريفي	خلف فندق البرج/جنوب شرق الكتاب والعترة
الصّادق	حسينية	للرجال	المدرسي	خلف الحوزة الزينية
الصّادرين	حوزة وحسينية	للجنسين كليهما / للرجال	الصّدر	

السَّجَاد (الإمام)	حوزة وحسينية	للجنسين كليهما	الشِّيرازيَّ / فارسيَّ	شمال شرق المرقد، مخبر الزهراء
أم البنين	حسينية	للنساء	مستقلة/ال خليج العربيّ	شمال شرق المرقد، من خلال مقبرة شريعتي
حوزة الخوجة	حوزة (جامعة) عضوية جامعة وينشستر	للجنسين كليهما	مستقلة/ال خوجة	شرق المنطقة الإيرانية/
الولاية	حسينية	للجنسين كليهما	مستقلة	الطرف الجنوبيّ من سوق الإيرانيين
الولاية	حوزة	للجنسين كليهما	التبريزيَّ	جنوب شرق قمر بني هاشم، شرق المرقد وحوزة المصطفى
الزهراء	حسينية	للرجال	مستقلة	شمال شرق المرقد، قرب مقبرة شريعتي
زين العابدين	حوزة		مستقلة	الطرف الشرقيّ من شارع العراقيين
زين العابدين	حسينية	للنساء	مستقلة	شمال شارع العراقيين
الزَّينية	حوزة وحسينية	للجنسين كليهما	الشِّيرازيَّ	

قائمة برجال الدين ومكاتبهم

أسماء رجال الدين	الموقع الجغرافي
العاملي مكي (الشَّهيد الأوَّل)	جنوب شرق ساحة العراقيين، جنوب شرق حسينية الكتاب والعترة
بروجردي	
فضل الله	شمال شارع العراقيين
الحائري	الطرف الغربي من شارع العراقيين
الحكيم	جنوب شرق ساحة العراقيين، قرب حسينية أبي الفضل العباس
الكارزاني	شمال الحوزة الزينية/ في الشارع الرئيس
الخامني	جنوب شرق هجر
الخاقاني	قرب الصدر
الخوئي	
الخرساني	عبر الشارع قرب حوزة المدرسي
المدرسي	خلف الزينية، جنوب شارع العراقيين
روحاني	الطرف الشرقي من شارع العراقيين
بشير النجفي	في الجانب الشرقي من الزينية، شارع الأهرامات
الشيرازي	الزينية/ الشارع الرئيس، شمال المرقد
الصدر	شمال شارع العراقيين
السيستاني	بجوار الصدر، شمال شارع العراقيين

الطَّبَّاءُيُّ	شرق المرقد
التَّبرِيزيُّ	شمال شارع العراقيين

استثناءات بارزة:

على الرغم من عدم امتلاك الخميني والخامني حُسَيْنَيْنِ خاصَّتينَ بهما،
إلاَّ أنَّه يمكنُ عدُّ المرقِدِ والمُصلَّى التَّابعَ لَهُ حُسَيْنَيْنِهِمَا غيرِ الرَّسْمِيَّتينِ حيثُ إِنَّهُمَا
- أي المرقدُ والمُصلَّى - مرتبطان بالخامنيِّ وملتزمانِ بتوجيهاته.
ولا يجوزُ السَّيِّستانيُّ حوزةً ولا حُسَيْنِيَّةً، على الرَّغمِ مِنْ وجودِ مكتبٍ لَهُ
في مدينةِ السَّيِّدةِ زينبَ وتمثُّلهِ أهمُّ مرجعٍ تقليديٍّ بينَ العراقيِّينَ الشَّيعَةِ.

قائمة بالمنظَّماتِ الخيريَّةِ:

مستشفى الخامنيِّ، جنوبَ المرقِدِ.
مستشفى الصَّدرِ، قَرَبَ المرقِدِ.
مستوصفُ الزَّهراءِ، بجوارِ حُسَيْنِيَّةِ أبي الفضلِ العباسِ.
مستوصفُ سيِّدِ الشُّهداءِ، بجوارِ حُسَيْنِيَّةِ زينِ العابدينِ.
رابطةُ شعراءِ أهلِ البيتِ (لديهم مركزان).

Bibliography

Abu-Lughod, Lila. 1986. *Veiled Sentiments*. Berkley: University of California Press.

Abu-Lughod, Lila. 1989. 'Zones of Theory in the Anthropology of the Arab World.' *Annual Review of Anthropology* 18, 267–306.

Afary, Janet and Kevin B. Anderson. 2005. *Foucault and the Iranian Revolution: Gender and the Seductions of Islamism*. Chicago: University of Chicago Press.

Agamben, Giorgio. 1998. *Homo Sacer: Sovereign Power and Bare Life*. Daniel Heller-Roazen, trans. Stanford: Stanford University Press.

Agamben, Giorgio. 2005. *The State of Exception*. Kevin Attell, trans. Chicago: University of Chicago Press.

Aghaie, Kamran. 2004. *The Martyrs of Karbala: Shi'i Symbols and Rituals in Modern Iran*. Seattle: University of Washington Press.

Aghaie, Kamran (Ed.) 2005. *The Women of Karbala: Ritual Performance and Symbolic Discourses in Modern Shi'i Islam*. Austin: University of Texas Press.

Ahmed, Sarah. 2004. The cultural politics of emotion. Edinburgh: Edinburgh University Press.

Ali, Agha Shahid. 2000. Zainab's Lament in Damascus. *Ariel* 31, 425–26.

Ali-Dib, Edith Szanto. 2008. Inter-Religious Dialogue in Syria: Politics, Ethics and Miscommunication. *Political Theology* 9, 93–113

Anjum, Ovamir. 2007. Islam as a Discursive Tradition: Talal Asad and His Interlocutors. *Comparative Studies of South Asia, Africa and the Middle East* 27, 656–72.

Aristotle. 2004. The Nicomachean Ethics. J.A.K. Thomson, trans. London: Penguin.

Arjomand, Said Amir (Ed.) 1988. Authority and Political Culture in Shi'ism. New York: State University of New York Press.

Asad, Talal. 1986. The Idea of an Anthropology of Islam. Occasional Papers Series. Washington: Center for Contemporary Arab Studies, Georgetown University.

Asad, Talal. 1993. *Genealogies of Religions: Discipline and Reasons of Power in Christianity and Islam*. Baltimore, MD: John Hopkins University Press.

Asad, Talal. 1997. Remarks on the Anthropology of the Body. In Sarah Coakley (Ed.), *Religion and the Body*. Cambridge: Cambridge University Press, 42–52.

Asad, Talal. 2003. *Formations of the Secular: Christianity, Islam, Modernity*. Stanford: Stanford University Press.

Asad, Talal. 2007. *On Suicide Bombing*. New York: Columbia University Press.

Austin, J. L. 1962. *How to Do Things with Words*. Cambridge, MA: Harvard University Press.

Ayyoub, Mahmoud. 1978. *Redemptive Suffering in Islam: A Study of the Devotional Aspects of “Ashura” in Twelver Shi‘ism*. New York: Mouton.

Azondaloo, Heidar G. 1993. Performative Elements of Shi‘ite Ritual and Mass Mobilization: The case of Iran. *Critique: Critical Middle Eastern Studies* 2, 35–54

Bahrani, ‘Abd al-‘Athim Al-Muhtadi al-. 2010. *Li-matha al-tatbīr?* Beirut: Mu’assasat al-Balagha.

Bakhtin, Mikhail. 1981. *The Dialogic Imagination*. Caryl Emerson and Michael Holoquist, trans. Austin: University of Texas Press.

Bakhtin, Mikhail. 1984. *Rabelais and His World*. Helene Iswolsky, trans. Bloomington: Indiana University Press.

Baktash, Mayel. 1979. *Ta'ziyah and its Philosophy*. In Peter Chelkowski (Ed.), *Ta'ziyeh: Ritual and Drama in Iran*. New York: New York University Press, 95–120.

Beeman, William O. 1993. *The Anthropology of Theater and Spectacle*. *Annual Review of Anthropology* 22, 369–93.

Benjamin, Walter. 1969. *Illuminations*. Hannah Arendt, ed. Harry Zohn, trans. New York: Schocken Books.

Berkey, Jonathan. 2007. *Madrasas Medieval and Modern: Politics, Education, and the Problem of Muslim Identity*. In Robert Hefner and Muhammad Qasim Zaman (Eds.), *Schooling Islam: The Culture and Politics of Modern Muslim Education*. Princeton: Princeton University Press, 40–60.

Betteridge, Anne H. 1980. The Controversial Vows of Urban Muslim Women in Iran. In Nancy Auer Falk and Rita M. Gross (Eds.), *Unspoken Worlds: Women's Religious Lives in Non-Western Cultures*. San Francisco: Harper & Row, Publishers, 141–55.

Betteridge, Anne H. 1985. Gift Exchange in Iran: The Locus of Self-Identity in Social Interaction. Theme issue, “Self & Society in the Middle East,” *Anthropological Quarterly* 58, 190–202.

Betteridge, Anne H. 1992. Specialists in Miraculous Action: Some Shrines in Shiraz. In Alan Morinis (Ed.), *Sacred Journeys: The Anthropology of Pilgrimage* Westport, CT: Greenwood Press, 189–210.

Bloch, Maurice. 1971. The Moral and Tactical Meaning of Kinship Terms. *Man* (N.S.) 6, 79–87.

Bloch, Maurice. 1977. The Past and the Present in the Present. *Man* (N.S.) 12, 278–92.

Boddy, Janice. 1989. *Wombs and Alien Spirits*. Madison: University of Wisconsin Press.

Bosworth, C.E., I.R. Netton and F.E. Vogel. 2006. *Siyāsa*. In P. Bearman, Th. Bianquis, C.E. Bosworth, E.

van Donzel, and W.P. Heinrichs (Eds.), *Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed., Vol. IX. Leiden: Brill, 693–96.

Böttcher, Annabelle. 1998. *Syrische Religionspolitik unter Asad*. Freiburg: Arnold Bergsträsser Institut.

Bourdieu, Pierre. 1977. *Outline of a Theory of Practice*. Richard Nice, trans. New York: Cambridge University Press.

Brandenburg, Dietrich. 1975. *Medizin und Magie: Heilkunde und Geheimlehre des islamischen Zeitalters*. Berlin: Verlag Bruno Hessling.

Brown, Wendy. 2008. *Regulating Aversion: Tolerance in the Age of Identity and Empire*. Princeton: Princeton University Press.

Buck–Morss, Susan. 1992. *Aesthetics and Anaesthetics: Walter Benjamin's Artwork Essay Reconsidered*. October 62, 3–41.

Burhani, ‘Abd al–Athim al–Muhtadi al–. 2010. *Limatha al–tatbir?* Beirut: Dar Saluni.

Butler, Judith. 1993. *Bodies That Matter: On the Discursive Limits of “Sex.”* New York: Routledge.

Butler, Judith. 2004. *Precarious Life: the Powers of Mourning and Violence*. New York: Verso.

Butler, Judith. 2005. *Giving an Account of Oneself*. New York: Fordham University Press.

Cammann, Schuyler. 1969a. Islamic and Indian Magic Squares, Part I. *History of Religions* 8, 181–209.

Cammann, Schuyler. 1969b. Islamic and Indian Magic Squares, Part II. *History of Religions* 8, 271–99.

Canetti, Elias. 1973. *Crowds and power*. Carol Stewart, trans. Harmondsworth, UK: Penguin Books.

Certeau, Michel de. 1984. *The Practice of Everyday Life*. Steven Rendall, trans. Berkley: University of California Press.

Certeau, Michel de. 1988. *The Writing of History*. Tom Conley, trans. New York: Columbia University Press.

Chelkowski, Peter. 1979. *Ta'ziyeh: Ritual and Drama in Iran*. New York: New York University Press.

Chelkowski, Peter and Hamid Dabashi. 1999. *Staging a Revolution: The Art of Persuasion in the*

Islamic Republic of Iran. New York: New York University Press.

Cole, Juan R. I. 1984. *The Roots of North Indian Shi'ism in Iran and Iraq*. Los Angeles: University of California Press.

Cole, Juan. 2002. *Sacred Space and Holy War*. London: I.B. Tauris.

Cole, Juan R. I. 2003. The United States and Shi'ite Religious Factions in Post-Ba'thist Iraq. *Middle East Journal* 57, 543–66.

Cole, Juan R. I. 2006. *The Ayatollahs and Democracy in Iraq*. Leiden: ISIM.

Comaroff, John. L. and Jean Comaroff. 1992. *Ethnography and the Historical Imagination*. Boulder, CO: Westview Press.

Combs-Shilling, M.E. 1989. *Sacred Performances: Islam, Sexuality and Sacrifice*. New York: Columbia University Press.

Connolly, William. 1990. *Why I Am Not a Secularist*. Minneapolis: University of Minnesota Press.

Connerton, Paul. 1989. *How Societies Remember*. Cambridge: Cambridge University Press.

Corrigan, John (Ed.) 2004. *Religion and Emotion: Approaches and Interpretations*. New York: Oxford University Press.

Cornell, Vincent. 1998. *Realm of the Saint: Power and Authority in Moroccan Sufism*. Austin: University of Texas Press.

Crapanzano, Vincent. 2004. *Imaginative Horizons*. Chicago: University of Chicago Press.

Csordas, Thomas J. 1993. Somatic Modes of Attention. *Cultural Anthropology* 8, 135–56.

Csordas, Thomas J. 1994. *The Sacred Self: A Cultural Phenomenology of Charismatic Healing*. Berkley: University of California Press.

Dabashi, Hamid. 1993. *Theology of Discontent: the Ideological Foundations of the Islamic Revolution in Iran*. New York: New York University Press.

Dakake, Maria. 2006. *Hiding in Plain Sight: The Practical and Doctrinal Significance of Secrecy in*

Shi'ite Islam. *Journal of the American Academy of Religion* 74, 324–55.

Das, Veena. 2007. *Life and Words: Violence and the Descent into the Ordinary*. Berkley: University of California Press.

Debord, Guy. 1983. *Society of the Spectacle*. Detroit, MI: Black and Red.

Deeb, Lara. 2005. From Mourning to Activism: Sayyedah Zaynab, Lebanese Shi'i Women, and the Transformation of Ashura. In Kamran Aghaie (Ed.), *The Women of Karbala*. Austin: University of Texas Press, 241–66.

Deeb, Lara. 2006. *An Enchanted Modern: Gender and Public Piety in Shi'i Lebanon*. Princeton: Princeton University Press.

Deeb, Lara. 2009. Emulating and/or embodying the ideal: The gendering of temporal frameworks and Islamic role models in Shi'i Lebanon. *American Ethnologist* 36, 242–57.

Denny, Frederick M. 1985. *Islamic Ritual: Perspectives and Theories*. In Richard C. Martin (Ed.),

Approaches to Islam in Religious Studies. Oxford: OneWorld Publications, 63–77.

Desjarlais, Robert. 1992. Body and Emotion: The Aesthetics of Illness and healing in the Nepal Himalayas. Philadelphia: University of Pennsylvania Press.

Dols, Michael. 2004. The Theory of Magic Healing. In Emilie Savage-Smith (Ed.), Magic and Divination in Early Islam. Burlington, VT: Ashgate Publishing Company, 87–101

Dorpmüller, Sabine. 2005. Religiöse Magie im “Buch der probaten Mittel”: Analyse, kritische Edition und Übersetzung der Kitāb al-Muğarrabāt von Muhammad ibn Yūsuf as-Sanūsī (gest.. um 895/1490). Wiesbaden, Germany: Harrossowitz Verlag.

Durkheim, Emile. 1995. The Elementary Form of Religious Life. Karen Fields, trans. New York: Free Press.

Durkheim, Emile and Marcel Mauss. 1963. Primitive Classifications. Rodney Needham, trans. London: Cohen & West.

Dupret, Baudouin and Jean-Noel Ferrie. 2001. Inner Self and Public Order. In Armando Salvatore (Ed.), Muslim Traditions and Modern Techniques of Power. Münster, Germany: Lit Verlag, 141–62.

Ebersole, Gary. 2000. The Function of Ritual Weeping Revisited: Affective Expression and Moral Discourse. *History of Religions* 39, 211–46.

Ende, Werner. 1978. The Flagellations of Muharram and the Shi'ite Ulama. *Der Islam* 55, 19–36.

Farouk-Sluglett, Marion and Peter Sluglett. 1987. Iraq since 1958. London: I.B. Tauris & Co. Ltd. Publishers.

Fernea, Elizabeth Warnock. 1969. Guests of the Sheikh: an Ethnography of an Iraqi Village. New York: Anchor Books.

Fischer, Michael. 1980. Iran: From Religious Dispute to Revolution. Cambridge, MA: Harvard University Press.

Fischer, Michael and Mehdi Abedi. 1990. Debating Muslims: Cultural Dialogues in Postmodernity and Tradition. Madison: University of Wisconsin Press.

Flaskerud, Ingvild. 2010. *Visualizing Belief and Piety in Iranian Shi'ism*. New York: Continuum.

Foucault, Michel. 1967. *Of Other Spaces*. Jay Miskowiec, trans. Electronic document: http://www.opa-a2a.org/dissensus/wpcontent/uploads/2008/03/foucault_michel_des_spaces_autres.pdf, accessed 13 August 2011.

Foucault, Michel. 1973. *Birth of the Clinic: An Archaeology of Medical Perception*. A.M. Sheridan Smith, trans. London: Tavistock.

Foucault, Michel. 1988. *The History of Sexuality*, vol. 3: *The Care of the Self*. Robert Hurley, trans. New York: Vintage Books.

Foucault, Michel. 1995. *Discipline and Punish: The Birth of the Prison*. Alan Sheridan, trans. New York: Vintage Books.

Foucault, Michel. 1997a. *The Ethics of the Concern of the Self as Practice of Freedom*. In Paul Rabinow (Ed.), *Ethics: Subjectivity and Truth*, vol. 1 of *Essential*

Works of Foucault. Robert Hurley, trans. New York: New Press, 281–301.

Foucault, Michel. 1997b. *Society Must Be Defended*. David Macey, trans. New York: Picador.

Fromm, Erich. 1996. *To have or to be*. New York: Continuum.

Geertz, Clifford. 1968. *Islam Observed: Religious Development in Morocco and Indonesia*. New Haven, CT: Yale University Press.

Geertz, Clifford. 1973. *The Interpretation of Cultures*. New York: Basic Books.

Geertz, Hildred. 1959. The Vocabulary of Emotion: A Study of Javanese Socialization Processes. *Psychiatry* 22, 225–37.

Gellner, Ernest. 1983. *Nations and Nationalism*. Ithaca, NY: Cornell University Press.

Ghazzali, Muhammad al-. 2006. *Ihya' ulum-ud-din*. al-Haj Maulana Fazal ul-Karim, trans. 4 vols. Lahore: Sh. Muhammad Sharaf.

Gilsenan, Michael. 1982. *Recognizing Islam: an Anthropologist's Introduction*. London: Croom Helm.

Gilsenan, Michael. 1996. *Lords of the Lebanese Marches: Violence and Narrative in an Arab Society*. London: I.B. Tauris.

Graham, William A. 1993. Traditionalism in Islam: An Essay in Interpretation. Theme issue, "Religion and History," *Journal of Interdisciplinary History* 23, 495–522.

Gubb, Alfred S. 1923. Cupping, Dry and Wet. *The British Medical Journal* 3250, 639.

Halbwachs, Maurice. 1992. *On Collective Memory*. Lewis Coser, trans. Chicago: University of Chicago Press.

Hallaq, Wael. 2003. Juristic Authority vs. State Power: The Legal Crises of Modern Islam. *Journal of Law and Religion* 19, 243–58.

Hasan, Ali Raza. 2006. *Grieving Shias*. Riverdale–on–Hudson, NY: The Sheep Meadow Press.

Hegland, Mary Elaine. 1998. Flagellation and Fundamentalism: (Trans)Forming Meaning, Identity, and Gender Through Pakistani Women's Rituals of Mourning. *American Ethnologist* 25, 240–66.

Hegland, Mary Elaine. 2003. Shi'a Women's Rituals in Northwest Pakistan: The Shortcomings and Significance of Resistance." *Anthropological Quarterly* 76, 411-42.

Hertz, Robert. 1960. *Death and the Right Hand*. Rodney Needham and Claudia Needham, trans. Glencoe, IL: Free Press.

Hess, Linda. 1999. Rejecting Sita: Indian Responses to the Ideal Man's Cruel Treatment of His Ideal Wife. *Journal of the American Academy of Religion* 67, 1-32.

Hirschkind, Charles. 2006. *The Ethical Soundscape: Cassette Sermons and Islamic Counterpublics*. New York: Columbia University Press.

Hobsbaum, Eric and Terence Ranger (Eds.) 1992. *The Invention of Tradition*. Cambridge: Cambridge University Press.

Hodgson, Marshall G.S. 1974. *The venture of Islam*, 3 vols. Chicago: University of Chicago Press.

Hollywood, Amy. 2006. Performativity, Citationality, Ritualization. In Ellen Armour and Susan

St. Ville (Eds.), *Bodily Citations: Religion and Judith Butler*. New York: Columbia University Press, 252–275.

Howarth, Toby M. 2005. *The Twelver Shi'a as a Muslim Minority in India: Pulpit of Tears*. New York: Routledge.

Hussain, Ali J. 2005. The Mourning of History and the History of Mourning: The Evolution of Ritual Commemoration of the Battle of Karbala. *Comparative Studies of South Asia, Africa and the Middle East* 25, 78–88.

Hussain, Nasser. 2007. Beyond Norm and Exception: Guantanamo. *Critical Inquiry* 33, 734–53.

Hyder, Syed Akbar. 2006. *Reliving Karbala: Martyrdom in South Asian Memory*. New York: Oxford University Press.

Ibn Khaldun. 2005. *The Muqaddimah*. Franz Rosenthal, trans. 6th ed. Princeton: Princeton University Press.

Jabar, Faleh. 2003. *The Shi'ite movement in Iraq*. London: Saqi.

Johansen, Baber. 2001. Vom Wort– zum Indizienbeweis: die Anerkennung der richterlichen Folter in islamischen Rechtsdoktrinen des 13. und 14. Jahrhunderts. *Ius commune* 28, 1–46.

Johnson, Mark. 1987. *The Body in the Mind: the Bodily Basis for Meaning, Imagination and Reason*. Chicago: University of Chicago Press.

Joseph, Suad. 1993. Fieldwork and Psychological Dynamics of Personhood. *Frontiers: A Journal for Women Studies* 13, 9–32.

Joseph, Suad. 1994. Brother/Sister Relationships: Connectivity, Love, and Power in the Reproduction of Patriarchy in Lebanon. *American Ethnologist* 21, 50–73.

Keddie, Nikki R. 1981. *Roots of Revolution*. New Haven, CT: Yale University Press.

Nikki Keddie (Ed.) 1983. *Religion and Politics in Iran: Shi‘ism from Quietism to Revolution*. New Haven, CT: Yale University Press.

Keddie, Nikki R. (Ed.) 1972. *Scholars, Saints and Sufi*. Berkley: University of California Press.

Kelly, John D. and Martha Kaplan. 1990. History, Structure and Ritual. *Annual Review of Anthropology* 19, 119–50.

Kinsley, David. 1996. *Health, Healing, and Religion: A Cross-Cultural Perspective*. Upper Saddle River, NJ: Prentice Hall.

Lawrence, Bruce. 1989. *Defenders of God: the fundamentalist revolt against the modern age*. San Francisco: Harper & Row.

Kermani, Navid. 2002. Intellect. In Jane McAuliffe (Ed.), *Encyclopaedia of the Qur'an*. Vol. 2. Leiden: Brill, 547–49.

Khamenei, Sayyid Ali Hosseini. 1997. *Practical Laws of Islam*. Teheran, Iran: Islamic Cultural and Relations Organization.

Korom, Frank. 2003. *Hosay Trinidad: Muharram Performances in an Indo-Caribbean Diaspora*. Philadelphia: University of Pennsylvania Press.

Kulyani, Muhmmad al-. 2005. *Usul al-Kafi*. Beirut: Alaalami.

Kwon, Heonik. 2006. *After the Massacre: Commemoration and Consolation in Ha My and My Lai*. Berkley: University of California Press.

Lakoff, George and Mark Johnson. 1980. *Metaphors We Live By*. Chicago: University of Chicago Press.

Lambek, Michael. 2007. *The Weight of the Past*. New York: Palgrave Macmillan.

Lambek, Michael. 2008. Value and Virtue. *Anthropological Theory* 8, 133–57.

Landis, Joshua M. 2003. *Islamic Education in Syria: Undoing Secularism*. Electronic document, [http://faculty-staff.ou.edu/L/Joshua.M.Landis-](http://faculty-staff.ou.edu/L/Joshua.M.Landis-1/Islamic/20Education/20in/20Syria.htm)

[1/Islamic/20Education/20in/20Syria.htm](http://faculty-staff.ou.edu/L/Joshua.M.Landis-1/Islamic/20Education/20in/20Syria.htm), accessed 23 March 2009.

Lapidus, Ira. 1984. Knowledge, Virtue and Action: The Classical Muslim Conception of Adab and the Nature of Religious Fulfillment in Islam. In Barbara D. Metcalf (Ed.), *Moral Conduct and Authority: The Place of Adab in South Asian Islam*. Berkley: University of California Press, 32–43.

Lester, Rebecca J. 2005. *Jesus in Our Wombs: Embodying Modernity in a Mexican Convent*. Berkley: University of California Press.

Litvak, Meir. 1998. *Shi'i scholars of nineteenth century Iraq: The 'ulama' of Najaf and Karbala*. Cambridge: Cambridge University Press.

Lock, Margaret. 1993. Cultivating the Body: Anthropology and Epistemologies of Bodily Practice and Knowledge. *Annual Review of Anthropology* 22, 133–55.

Lock, Margaret and Nancy Scheper–Hughes. 1987. The Mindful Body: A Prolegomenon to Future Work in Medical Anthropology. *Medical Anthropology Quarterly* 1, 6–41.

Loeffler, Reinhold. 1988. *Islam in Practice: Religious Belief in a Persian Village*. New York: State University of New York Press.

Louër, Laurence. 2008. *Transnational Shia Politics*. New York: Columbia University Press.

Lovibond, Sabina. 2002. *Ethical Formation*. Cambridge, MA: Harvard University Press.

Lutz, Catherine and Lila Abu-Lughod (Eds.) 1990. *Language and the Politics of Emotion*. Cambridge: Cambridge University Press.

Lutz, Catherine and Geoffrey M. White. 1986. The Anthropology of Emotion. *Annual Review of Anthropology* 15, 405–36.

Ma‘ash, Mahdi. 2007. *Mashru‘iyya al-Sh‘a’ir al-Husayniyya*. Damascus: Mu’assasat al-Imama.

MacIntyre, Alasdair. 1984. *After Virtue: a Study in Moral Theory*. Notre Dame, IN: University of Notre Dame Press.

Mahmood, Saba. 2001. Rehearsed Spontaneity and the Conventionality of Ritual: Disciplines of “Salāt”. *American Ethnologist* 28, 827–53.

Mahmood, Saba. 2005. *Politics of Piety: The Islamic Revival and the Feminist Subject*. Princeton: Princeton University Press.

Makdisi, George. 1970. Madrasa and University in the Middle Ages. *Studia Islamica* 32, 255–64.

Massumi, Brian. 2002. *Parables for the Virtual: Movement, Affect, Sensation*. Durham, NC: Duke University Press.

Mauss, Marcel. 1973. *Techniques of the Body*. *Economy and Society* 2, 70–88.

Mauss, Marcel. 1954 [1925]. *The Gift: Forms and Functions of Exchange in Archaic Societies*. Ian Cunnison, trans. London: Cohen & West.

Meneley, Anne. 2007. *Fashions and Fundamentalisms in Fin-de-Siècle Yemen: Chador Barbie and Islamic Socks*. *Cultural Anthropology* 22, 214–43.

Mervin, Sabrina. 1996. *Sayyida Zaynab, Banlieue de Damas ou nouvelle ville sainte chiite? Cahiers d'études sur la Méditerranée orientale et le monde turco-iranien: Arabes et Iraniens* 22, 149–62. Electronic document, <http://cemoti.revues.org/document138.html>, accessed 23 March 2009.

Mervin, Sabrina. 2006. *Les larmes et le sang des chiïtes: corps et pratiques rituelles lors des célébrations*

de ‘ashûrâ’ (Liban, Syrie). REMM, *Le corps et le sacré dans l’Orient musulman* 113–14, 153–66.

Mervin, Sabrina. 2007. ‘Ashura’: Some Remarks on Ritual Practices in Different Shiite Communities (Lebanon and Syria). In Alessandro Monsutti, Silvia Naef and Farian Sabahi (Eds.), *The Other Shiites: From the Mediterranean to Central Asia*. Berlin: Peter Lang, 137–47.

Mitchell, Timothy. 1991. *Colonising Egypt*. Berkley: University of California Press.

Mitchell, Timothy. 2000. *Questions of Modernity*. Minneapolis: University of Minnesota Press.

Mitchell, Timothy. 2002. *Rule of Experts: Egypt, Techno–Politics, Modernity*. Berkley: University of California Press.

Mittermaier, Amira. 2007. The Book of Visions: Dreams, Poetry and Prophecy in Contemporary Egypt. *International Journal of Middle East Studies* 39, 229–47.

Mittermaier, Amira. 2011. *Dreams that Matter: Egyptian Landscapes of the Imagination*. Berkley: University of California Press.

Muhammad, Sarah Kathim. 2006. 'Alam al-Ahjar al-Karima. Beirut: Dar 'Arif al-Hashimi. Murata, Sachiko and William Chittick. 1994. The Vision of Islam. New York: Paragon House.

Murdoch, Iris. 1977. The Fire and the Sun: Why Plato Banished the Artists. Oxford: Clarendon Press.

Nakash, Yitzhak. 1993. An Attempt to Trace the Origin of the Rituals of 'Ashura.' Die Welt des Islams 33, 161-81.

Nakash, Yitzhak. 1994. The Shi'is of Iraq. Princeton: Princeton University Press.

Nandy, Ashis. 1995. History's Forgotten Doubles. Theme issue, "World Historians and Their Critics," History and Theory 34, 44-66.

Nasari, Muhammad Sharad al-. 2006. Al-Hujama: Shifa' li-kul da'. Beirut: Aalami Est.

Nasr, Vali. 2006. The Shia Revival: How Conflicts within Islam Will Shape the Future. New York: Norton.

Newman, Andrew (Ed.) 2007. Islamic Medical Wisdom: The Tibb al-A'imma. Batool Ispahany, trans. Qum: Ansaryan Publications.

Norton, Augustus Richard. 2005. Ritual, Blood, and Shiite Identity Ashura in Nabatiyya, Lebanon. *The Drama Review* 49, 140–55.

Nussbaum, Martha C. 2001. *Upheavals of Thought: The Intelligence of Emotion*. Cambridge: Cambridge University Press.

Obeyesekere, Gananath. 1981. *Medusa's Hair: An Essay on Personal Symbols and Religious Experience*. Chicago: University of Chicago Press.

Ortner, Sherry. 1974. *The Sherpas through their Rituals*. Cambridge: Cambridge University Press.

Pandolfo, Stefania. 1997. *Impasse of the Angels: Scenes from a Moroccan Space of Memory*. Chicago: University of Chicago Press.

Pandya, Sophia. 2010. Women's Shi'i Ma'atim in Bahrain. *Journal of Middle East Women's Studies* 6, 31–58.

Paret, Rudi. 1958. *Symbolik des Islam*. Stuttgart: Anton Hiersemann.

Perkins, Judith. 1992. The "Self" as Sufferer. *The Harvard Theological Review* 85, 245–72.

Pedersen, J., Munibur Rahman and R. Hillenbrand. 2010. Madrasa. In P. Bearman, Th. Bianquis, C.E. Bosworth, E. van Donzel, and W.P. Heinrichs (Eds.), *Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed. Vol. 5. Leiden: Brill, 1123–1154.

Pielow, Dorothee Anna Maria. 1995. *Die Quellen der Weisheit: die arabische Magie im Spiegel des Usūl al-Hikma von Ahmad ‘Ali al-Būnī*. Hildesheim, Germany: Georg Olms Verlag.

Pinault, David. 1999. Shia Lamentation Rituals and Reinterpretations of the Doctrine of Intercession: Two Cases from Modern India. *History of Religions* 38, 285–305.

Pinault, David. 2001. *Horse of Karbala: Muslim Devotional Life in India*. New York: Palgrave.

Pinto, Paulo G. 2007. Pilgrimage, Commodities, and Religious Objectification: The Making of Transnational Shiism between Iran and Syria. *Comparative Studies of South Asia, Africa and the Middle East* 27, 109–125.

Rappaport, Roy. 1979. *Ecology, Meaning and Religion*. Richmond, CA: North Atlantic Books.

Reinfried, Hermann. 1915. Bräuche bei Zauber und Wunder nach Buchari. Freiburg.

Renan, Ernest. 1996. What is a Nation? In Geoff Eley and Ronald Grigor Suny (Eds.), *Becoming National: A Reader*. New York: Oxford University Press, 41–55.

Rene, Girard. 1977. *Violence and the Sacred*. Baltimore, MD: John Hopkins University Press.

Ricoeur, Paul. 1992. *Oneself as Another*. Kathleen Blamey, trans. Chicago: University of Chicago Press.

Ricoeur, Paul. 2004. *Memory, History, Forgetting*. Kathleen Blamey and David Pellauer, trans. Chicago: University of Chicago Press.

Rosaldo, Michelle. 1980. *Knowledge and Passion: Ilongot Notions of Self and Social Life*. Cambridge: Cambridge University Press.

Rosen, Lawrence. 1984. *Bargaining for Reality: the Construction of Social Relations in a Muslim Community*. Chicago: University of Chicago Press.

Rosiny, Stephan. 2001. The Tragedy of Fatema az-Zahra: In the Debates of two Shiite Theologians in Lebanon. In Reiner Brunner and Werner Ende (Eds.),

The Twelver Shia in Modern Times: Religious Culture and Political History. Leiden: Brill, 207–219.

Ruffle, Karen G. 2009. Who Could Marry at a Time like This? Debating the Mehndi ki Majlis in Hyderabad. *Comparative Studies of South Asia, Africa and the Middle East* 29, 502–14.

Sahlins, Marshall. 1985. *Islands of History*. Chicago: University of Chicago Press.

Sahlins, Marshall, 1999. Two or Three Things I know about Culture. *Journal of the Royal Anthropological Institute* 5, 399–421.

Said, Edward W. 1979. *Orientalism*. New York: Vintage Books.

Saliba, George. 2004. The Role of the Astrologer in Medieval Islamic Society. In Emilie Savage-Smith (Ed.), *Magic and Divination in Early Islam*. Burlington, VT: Ashgate Publishing Company, 341–370.

Salvatore, Armando. 1998. Staging Virtue: The Disembodiment of Self-Correctness and the Making of Islam as Public Norm. In Georg Stauth (Ed.), *Islam, Motor*

or Challenge of Modernity. Hamburg: Transaction Books, 87–120.

Savage-Smith, Emilie (Ed.) 2004. Magic and Divination in Early Islam, ed. Emilie Savage-Smith. Burlington, VT: Ashgate Publishing Company.

Scarry, Elaine. 1985. The Body in Pain: The Making and Unmaking of the World. New York: Oxford University Press.

Schechner, Richard. 2004. Carnival (Theory) after Bakhtin. In Milla Cozart Riggio (Ed.), Carnival: culture in action: the Trinidad experience. New York: Routledge, 3–11.

Schielke, Samuli. 2010. Second Thoughts about the Anthropology of Islam, or how to make Sense of Grand Schemes in Everyday Life. ZMO working papers 2, 1–16.

Schimmel, Annemarie. 1993. The Mystery of Numbers. New York: Oxford University Press.

Schmitt, Carl. 1985. Political theology: four chapters on the concept of sovereignty. George Schwab, trans. Cambridge, MA: MIT Press.

Schönfeld, Jutta. 1976. Über die Steine: das 14. Kapitel aus dem Kitāb al-Muršid des Muhammad ibn Ahmad at-Tamīmī. Freiburg, Germany: Karl Schwarz Verlag.

Schubel, Vernon. 1993. Religious Performance in Contemporary Islam: Shi'i Devotional Rituals in South Asia. Columbia: South Carolina University Press.

Schubel, Vernon. 2006. Review of The Twelver Shi'a as a Muslim Minority in India: Pulpit of Tears, by Toby M. Howarth. *Journal of Islamic Studies* 17, 382–384.

Shuster, Mike. 2011. Ahmadinejad Seen as Loser in Iranian Power Struggle. National Public Radio website. 10 May 2011. Electronic document:

<http://www.npr.org/2011/05/10/136176773/ahmadi-nejad-seen-as-loser-in-iranian-powerstruggle>, accessed 21 March 2011.

Schwimmer, E.G. 1972. Symbolic Competition. *Anthropologica* 14, 117–55.

Scott, David and Charles Hirschkind (Eds.) 2006. Powers of the Secular Modern: Talal Asad and His Interlocutors. Stanford: Stanford University Press.

Seal, Patrick. 1995. Asad: The Struggle for the Middle East. Berkley: University of California Press.

Seligmann, Siegfried. 1927. Die magischen Heil- und Schutzmittel aus der unbelebten Natur. Stuttgart: Strecker und Schröder.

Shah-Kazemi, Reza. 2006. Justice and Remembrance: Introducing the Spirituality of Imam ‘Ali. New York: I.B. Tauris and Institute of Ismaili Studies.

Shammari, Wathiq al-. 2010. Ikhbar al-Faqir fi Ithbat hurmat at-Tatbir. Beirut: Mu’assasat al-Naba’.

Shannon, Jonathan H. 2006. Among the Jasmine Trees: Music and Modernity in Contemporary Syria. Middletown, CT: Wesleyan University Press.

Sharif, Tayba Hassan al-Khalifa. 2005. Sacred Narratives Linking Iraqi Shi‘ite Women Across Time and Space. In miriam cooke and Bruce Lawrence (Eds.), Muslim Networks from Hajj to Hip Hop. Chapel Hill: University of North Carolina Press, 132–54.

Shirazi, Muhammad. 1998. Al-Sha‘a’ir al-Husayniyya. Beirut: Dar al-Sadiq.

Shirazi, Sayyid Sadiq Husayni. 2008. Islamic Law. Washington, D.C.: Fountain Books.

Sindawi, Khalid. 2005. The Husayni Sermon (al-khutba al-husayniyya) in Shi‘ite literature: Development,

structure, venue, preachers' titles. *Orientalia Suecana* 54, 151–78.

Sindawi, Khalid. 2006. Visit to the Tomb of al-Husayn b. 'Ali in Shiite Poetry: First to Fifth Centuries AH (8th–11th centuries CE). *Journal of Arabic Literature* 37, 230–58.

Sindawi, Khalid. 2009a. The Zaynabiyya Hawza in Damascus and its Role in Shī'ite Religious Instruction. *Middle Eastern Studies* 45, 859–879.

Sindawi, Khalid. 2009b. The Shiite Turn in Syria. *Current Trends in Islamist Ideology* 8, 82–107.

Sindawi, Khalid. 2012. 'Tell your Cousin to Place a Ring on his Right Hand and Set it with a Carnelian': Notes on Wearing the Ring on the Right Hand among Shī'ites. *Journal of Semitic Studies* 57, 295–320.

Starrett, Gregory. 1995a. The Hexis of Interpretation: Islam and the Body in the Egyptian Popular School. *American Ethnologist* 22, 953–969.

Starrett, Gregory. 1995b. The Political Economy of Religious Commodities in Cairo. *American Anthropologist* 97, 51–68.

Starrett, Gregory. 1998. Putting Islam to Work: Education, Politics and Religious

Transformation in Egypt. Berkley: University of California Press.

Sündermann, Katja. 2006. Spirituelle Heiler im modernen Syrien. Berlin: Verlag Hans Schiller.

Szanto, Edith. 2009. Pedagogies of Piety: Shi'i Children's Books, Ethics and the Emergence of the Pious Subject. *Symposia: The Graduate Student Journal of the Centre for the Study of Religion at the University of Toronto* 1, 62–78.

Szanto, Edith. 2012. Sayyida Zaynab in the State of Exception: Shi'i Sainthood as 'Qualified Life' in Contemporary Syria. *International Journal for Middle Eastern Studies* 44, 285–99.

Tabataba'i, Mohammad Hosayn. 2002. Islamic Teachings: An Overview. Robert Campbell, trans. Takim, Liyakat. 2006. The heirs of the prophet: charisma and religious authority in Shi'ite Islam. Albany: State University of New York Press.

Taussig, Michael. 1993. Mimesis and Alterity: a Particular History of the Senses. New York: Routledge.

Taussig, Michael. 2006. *Walter Benjamin's Grave*. Chicago: University of Chicago Press.

Taylor, Charles. 1989. *Sources of the Self: The Making of the Modern Identity*. Cambridge, MA: Harvard University Press.

Thaiss, Gustav. 1999. Muharram Rituals and the Carnavalesque in Trinidad. *ISIM Newsletter* 3, 38.

Thurfjell, David. 2006. *Living Shi'ism: Instances of Ritualisation among Islamist Men in Contemporary Iran*. Leiden: Brill.

Turner, Victor. 1977. *The Ritual Process: Structure and Anti-Structure*. Ithaca, NY: Cornell University Press.

Ullman, Manfred. 1970. *Die Medizin im Islam*. Leiden: Brill.

Ullman, Manfred. 1972. *Die Natur- und Geheimwissenschaften im Islam*. Leiden: Brill.

van Gennep, Arnold. 1960[1908]. *The Rites of Passage*. Monika Vizedom and Gabrielle Caffee, trans. Chicago: University of Chicago Press.

Varzi, Roxanne. 2006. *Warring Souls: Youth, Media, and Martyrdom in Post-Revolution Iran*. Durham, NC: Duke University Press.

Waldman, Marilyn Robinson. 1986. Tradition as a Modality of Change: Islamic Examples. Theme issue, "Religion and Change," *History of Religions* 25, 318–40.

Walker, Paul. 2003. Knowledge and Learning. In Jane McAuliffe (Ed.), *Encyclopaedia of the Qur'an*. Vol. 3. Leiden: Brill, 100–04.

Waugh, Earl. 1977. Muharram Rites: Community Death and Rebirth. In Frank Reynolds and Arl Waugh (Eds.), *Religious Encounters with Death*. Philadelphia: Pennsylvania State University Press, 200–13.

Weber, Max. 1991. *The Sociology of Religion*. Ephraim Fischhoff, trans. Boston, MA: Beacon Press.

Wedeer, Lisa. 1999. *Ambiguities of Domination: Politics, Rhetoric, and Symbols in Contemporary Syria*. Chicago: University of Chicago Press.

Wehr, Hans. 1966. *A Dictionary of Modern Arabic*. J. Milton Cowan, ed. Ithaca, NY: Cornell University Press.

Zimney, Michelle. 2007. History in the Making: the Sayyida Zaynab Shrine in Damascus. *ARAM* 19, 695–703.

